الرواية
الحائزة على
جائزة الكتاب
الفلسطيني

"مذهلة...
رواية تاريخية بتخيّل عميق...تحفة"

*The New York Times Book Review*

## إزابيلا حمّاد

# الباريسي

رواية

ترجمة الحارث النبهان

مكتبة

# دعوة للمستضعفين

إيزابيلا حمّاد

# الباريسي

مكتبة
t.me/soramnqraa
18 11 2024

الكتاب: الباريسي
تأليف: إيزابيلا حمّاد
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 544 صفحة
الترقيم الدولي: 978-977-828-073-9
رقم الإيداع: 2022/8278
الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2020

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
THE PARISIAN By Isabella Hammad
Copyright © Isabella Hammad 2019.

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

إيزابيلا حمّاد

# الباريسي

رواية

ترجمة

الحارث النبهان

مكتبة
t.me/soramnqraa

التنوير

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

إلى تيتا غادة
لكل التفاصيل

# الشخصيات

مكتبة
t.me/soramnqraa

### عائلة كمال

*الحاج طاهر كمال*، تاجر أقمشة
عزيزة *كمال*، زوجة طاهر الأولى، متوفاة
مدحت *كمال*، ابن الحاج طاهر وعزيزة
*أم طاهر (مهدية) كمال*، أم الحاج طاهر، جدّة مدحت («تيتا»)
*ليلى*، زوجة الحاج طاهر الثانية
مصباح *كمال*، الابن الأكبر للحاج طاهر وليلى.
*نديم*، *انشراح*، دنيا، *نشأت*، بقية أطفال الحاج طاهر وليلى
*أبو جميل كمال*، ابن عم الحاج طاهر، تاجر سجّاد
*أم جميل كمال*، زوجة أبي جميل
جميل *كمال*، ابن أبي جميل وأم جميل، ابن عم مدحت.
*وصفي كمال*، ابن عم مدحت
*تحسين كمال*، ابن عم مدحت

### عائلة مولينو

فريديريك مولينو، أستاذ السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا في جامعة مونبيلييه
*آريان* مولينو (من عائلة باسّان قبل زواجها)، زوجة فريديريك، متوفّاة
جانيت مولينو، ابنة فريديريك وآريين
*ماريان مولينو*، ابنة أخ فريديريك، شقيقة كزافييه
*كزافييه* مولينو، ابن شقيق فريديريك، شقيق ماريان، طالب في مدرسة القانون
*بول* ريشيه، خطيب ماريان

### شخصيات أخرى في فرنسا

*سيلفان لوكلير*، من أصدقاء عائلة مولينو، يملك كروم عنب ومعصرة نبيذ
*لوران توبان*، طالب طب

*صامويل كوغولاتي*، طالب طب
*باتريس نولان*، أستاذ في كلية الطب، متقاعد
*كارول وماري تيريز*، ابنتا باتريس نولان
*جورجين*، خادمة عائلة مولينو
*لوك ديمون*، من أصدقاء عائلة مولينو، يملك كروم عنب ومعصرة نبيذ
*مدام كروتو*، سيدة مجتمع
*فاروق العظم*، مدرس لغة عربية في باريس، أصله من دمشق
*بسيم جرباوي*، *رجاء عبد الرحمن*، *يوسف منصور*، *عمر*، *وآخرون*، أصدقاء فاروق في باريس
*قدري محمد*، *رياض عسّالي*، زميلا هاني في الدراسة، مستشاران لدى الأمير فيصل

**عائلة حمّاد**

*الحاج حسن حمّاد*، ابن عم نمر، صاحب أطيان، عضو في حزب اللامركزية الإدارية
*نزيهة حمّاد*، زوجة الحاج حسن
*ياسر حمّاد*، الابن الأكبر لنزيهة حماد والحاج حسن حماد
*الحاج نمر حمّاد*، ابن عم الحاج حسن، عالم دين وقاضٍ في المحكمة الشرعية، كان رئيس بلدية نابلس في سنة 1918.
*وداد حمّاد*، زوجة الحاج نمر حماد.
*فاطمة حمّاد*، الابنة الكبرى للحاج نمر ووداد
*نزهة حمّاد*، الابنة الثانية للحاج نمر ووداد
*برهان حمّاد*، الابن الأصغر للحاج نمر ووداد
*الحاج توفيق حمّاد*، عم الحاج حسن والحاج نمر، سياسي

**عائلة مراد**

*هاني مراد*، خريج مدرسة القانون في باريس
*باسل مراد*، من أبناء عم هاني الأباعد، شقيق منير
*منير مراد*، من أبناء عم هاني الأباعد، شقيق باسل
*فؤاد مراد*، عم هاني المقيم في جنّين، عضو حزب اللامركزية الإدارية
*سحر مراد*، ابنة فؤاد
*أم سحر مراد*، زوجة فؤاد

هشام، وكيل الحاج طاهر
بطرس، خياط يعمل في متجر الكمال
أم محمود، خادمة عائلة كمال
عادل جوهري، شاب كان من زملاء مدحت في الدراسة
أبو عمر جوهري، عم عادل، رئيس بلدية نابلس في سنة 1919
قيس كرك، شاب
الحاج عبد الله عطوان، صاحب مصنع صابون
مدام عطوان، كبيرة عائلة عطوان
إيلي كاهين، خياط من السامريين
أبو سلامة، كبير الكهنة السامريين
الأب أنطوان، قس دومينيكاني فرنسي، عالم دين
الأخت لويز، والأخت سارة، والأخت ماريان، وغيرهن، من أفراد أخوية راهبات القديس يوسف المعروفة في نابلس باسم «فتيات عيبال»
أيمن سابا، مزارع مسيحي أصابه الفقر
هلا سابا، ابنة أيمن سابا

# الجزء الأول

## - 1 -

كان على متن السفينة المبحرة إلى مرسيليا عربي آخر اسمه فاروق العظمة. في اليوم التالي على مغادرة ميناء الإسكندرية، اقترب فاروق من مدحت وقت الإفطار حاملًا طبقًا من التوست بإحدى يديه، ومِسبحة من الكهرمان بيده الأخرى. جلس، وطوى كمّي قميصه، ثم بدأ -من غير مقدّمات- يوضح أنه عائد من دمشق لمواصلة عمله في قسم اللغات في جامعة السوربون. لقد ترك باريس عند اندلاع الحرب، لكنه عقد العزم على العودة إليها بعد أعجوبة المارْن. كان وجهه مستطيلًا بعض الشيء، وعيناه رماديتين.

«باريس...»، تنهّد عندما قالها... «هناك حياتي».

كانت هذه العبارة عميقة الدلالة بالنسبة إلى الشاب مدحت كمال. ففي ذهنه، رأى صفًا من المصابيح التي تنير صالة رقص تمتلئ بالنساء. ألقى على ملابس فاروق نظرة فاحصة. كان الرجل في بدلة من ثلاث قطع لونها أزرق فاتح، ومعها ربطة عنق زرقاء نيلية لها دبوس فضّي على هيئة طائر. عصًا من خشب داكن غير مطلي كانت مستندة إلى كرسيه.

قال مدحت: «أنا ذاهب لدراسة الطب في جامعة مونبلييه».

قال فاروق: «برافو».

ابتسم مدحت وامتدت يده إلى فنجان القهوة. بدأت تسترخي فيه عضلات لم يكن انتبه أنها متوترة.

قال فاروق: «هذه زيارتك الأولى إلى فرنسا».

لم يقل مدحت شيئًا. لقد كان هذا صحيحًا.

انقضت خمسة أيام منذ أن ودّع جدته في نابلس وسافر إلى طولكرم على ظهر بغل. ثم صعد هناك إلى خط سكة حديد حيفا الذي يصل حتى بلدة القنطرة شرق حيث صعد إلى قطار آخر متجه إلى القاهرة. وبعد بضعة أيام قضاها في بيت أبيه، صعد إلى متن السفينة في الإسكندرية. اعتاد رؤية صفحة الماء التي لا نهاية لها، وقمم الأمواج البيضاء بلمعانها الفضّي وقت الظهر. يقدّمون الغداء في الساعة الواحدة، والشاي في الرابعة، والعشاء في السابعة والنصف. أول الأمر، كان مدحت يجلس وحيدًا وينظر إلى الأوروبيين يستخدمون الشوَك والسكاكين في تناول الطعام. وقد نشأت لديه عادة

البحث في صالة الطعام المزدحمة عن رأس قبطان السفينة ذي الشعر الأحمر. كان القبطان رجلًا فرنسيًا اسمه غوران. وكان ينظر إليه بعد العشاء وهو يدخل جسر السفينة ويخرج منه حيث يشرف على توجيه الدفة.

لكن إحساسه بالوحدة بدأ يوم أمس. داهمه ذلك الإحساس فجأةً. كان جالسًا عند مقدّمة السفينة ينتظر ظهور القبطان، فانتبه إلى ظهره المستند إلى المقعد... إحساس مؤلم على نحو غريب. صار منتبهًا إلى ساقيه الممتدتين من حوضه، وإلى أنفه الذي لا يراه عادة وقد تضاعف حجمًا ودخل مجال رؤيته، وإلى جسده كلّه الذي صار يثقل عليه كأنه شيء متورم قاسٍ، وإلى قلبه الذي يخفق بسرعة كبيرة. قال في نفسه إن هذا الإحساس سينجلي. لكنه لم ينجلِ؛ واكتسب احتكاكه البسيط ذلك المساء مع المسؤول عن المطعم، والعاملين في المطعم، وبقية المسافرين، طبيعة متوترة متقطّعة الأنفاس. كان يحسب أن إحساسه بأنه غرّ لا بد أن يكون واضحًا لهم جميعًا. وفي الليل، كان يضغط على ساعة الجيب من غير أن يشعر فيفتح غطاءها كاشفًا عن مينائها الأبيض الشاحب. كانت تكتكاتها تهدهده فينام، ثم يستيقظ مرة أخرى ويعود إلى تفقد الوقت مع انقضاء ساعات الليل. صار يرى في ارتجاف عقربَيّ الساعة نبضات منبئة بشيء فظيع.

لهذا كلّه، ابتسم لصديقه الجديد بشعور عميق بالارتياح. إحساس كأن حدود جسده المتصلّبة قد لانت الآن قليلًا.

قال له فاروق: «كيف تتخيّل أنها ستكون؟».

«أتخيل ماذا؟ فرنسا!».

«كانت لها صور كثيرة في ذهني قبل قدومي في المرة الأولى. اتضح لي آخر الأمر أن قسمًا من تلك الصور كان دقيقًا تمامًا. بعضها كان دقيقًا...»، ضغط شفتيه معًا وابتسم كأنه يسخر من نفسه... «كانت لدي فكرة عن الشعر المستعار لا أعرف مصدرها. لست أدري من أين أتيت بتلك الفكرة! لعلي رأيت صورة قديمة!».

صدر عن مدحت صوتٌ يوحي بأنه يفكّر، ونظر من النافذة، صوب البحر.

كانت مدرسته الثانوية في القسطنطينية على نمط الليسّيه الفرنسية. كان أكثر الكتب مستوردًا من فرنسا، وكذلك نصف المعلمين، بل حتى قسمًا كبيرًا من أثاث المدرسة. كان مدحت وزملاؤه في الصف يجلسون على كراسٍ خشبية لها مساند بأضلاع عرضانية ومقاعد من القش المضفور فيقرأون «la poésie épique en Grèce»[1]،

(1) الشعر الملحمي في اليونان.

ويحفظون أسماء العناصر بمزيج من الفرنسية واللاتينية؛ ثم لا ينتقلون إلى الكلام بالتركية والعربية والأرمنية إلا بعد رنين الجرس وخروجهم إلى الممر. صارت لديه أفكار ومفاهيم باللغة الفرنسية بعد أن جرى تكوينه بتلك اللغة؛ فعلى سبيل المثال، صار مدحت يعرف أسماء أعضاء جسده الداخلية بكلمات فرنسية، «le poumon, le coeur, le cerveau, l'encéphale,[1]»، وصار يفهم المصطلحات الفلسفية المجرّدة بأسمائها الفرنسية، «l'altruisme, la condition humaine,[2]». لكن بقاءه خمس سنوات محاطًا بكل شيء فرنسي لم يقلّل من صعوبة تكوين صورة عن فرنسا تكون مستقلة عن أثاث غرفة الصف التي كان يرى سماءً تركية حارّة عبر نوافذها، ويسمع صيحات بالعربية آتية من شاطئ البحر. وحتى الآن، خلال رحلته هذه، ظلّت فرنسا محجوبة خلف الضباب، خلف تعرّجات الأرض غير المرئية. نظر إلى فاروق وأجابه: «لا أستطيع تخيلها».

انتظر أن يزدريه فاروق بسبب هذه الإجابة، لكنه اكتفى بأن هزّ كتفيه وأسبل عينيه إلى الطاولة.

قال مدحت: «هل ذهبت إلى مونبلييه؟».

«لا. باريس فقط. بالطبع تتمتّع جامعة مونبلييه بشهرة في الطبّ. ألم يدرس رابوليه الطب فيها؟».

«آه، لقد سمعت برابوليه».

ضحك فاروق: «كُلْ شيئًا من هذا المرملاد قبل أن آتي عليه كلّه».

عاد فاروق إلى غرفته بعد الإفطار، فصعد مدحت السلم إلى سطح السفينة وجلس في مكان قريب من المؤخّرة. راح ينظر إلى البحر ويصغي إلى أحاديث مجموعة من الموظّفين الأوروبيين فيفهم أجزاء منه ـ موظفون هولنديون وفرنسيون وإنكليز جالسون على المقعد المجاور له يتحدّثون بأصوات مرتفعة صاخبة عن تكنولوجيا السفينة، ثم عن الجيوش الألمانية المتقدّمة صوب باريس.

صرّت ألواح الأرضية تحت قدمَي مدحت: طفل يجري على السطح. ومن بعد الطفل، كانت شابتان تقارنان بطاقات بريدية، وتلعب الريح بذؤابات قبعتَيْهما. إنهما الفتاتان اللتان ظهرتا الليلة الماضية، على العشاء، بقبعتين جميلتين مزينتين بطيّات وتموّجات ومجوهرات تلمع تحت أنوار الثريات. أخيرًا، انفتح باب برج السفينة، وظهر

---

(1) الرئة، والقلب، والمخ، والدماغ.
(2) البديهة، والشرط البشري.

القبطان ذو الشعر الأحمر، الكابتن غوران. خرج القبطان وفرقع بأصابعه. نهض واحد من الجالسين على المقعد كان في بدلة رسمية فخاطب القبطان. ازدادت الغضون التي في وجه القبطان عمقًا، وعندما تحرّكت شفتاه (لم يسمع مدحت صوته بسبب الريح). كوّر كفَّيْه من حول رأس سيجارته مقرّبًا عود الكبريت المشتعل منها، بينما يخبّئه من الريح. انصرف الرجل الآخر، وظل القبطان برهة واقفًا عند الحاجز يدخّن سيجارته. كانت الريح تعبث بخصلات شعره فبدت تلك الخصلات واهية الصّلة برأسه. ألقى عقب السيجارة إلى البحر، ثم سار نازلًا من سطح السفينة.

قرّر مدحت أن يتبعه. مر بالأوروبيين المتصايحين لحظة اختفاء غوران تحت السقف، فأسرع خلفه نازلًا السلم المعدني. كان الباب الأول في ذلك الممر يفضي إلى صالة كبيرة ملأى بالناس. موسيقى صادحة من غرامافون في الزاوية. بحثت عيناه عن غوران فلاقت نظرته نظرة فاروق الذي كان جالسًا إلى طاولة عليها عدد من الكتب.

قال فاروق: «يسرّني أنك هنا...»، لقد غيّر ملابسه، وصار الآن في بدلة زرقاء وربطة عنق صفراء عليها نجوم خضراء سداسية الرؤوس... «عثرت لك على هذه الكتب. ليس لديَّ الآن غيرها. بعض القصائد، المزيد من القصائد، وهذا كتاب جيّد حقًا، في واقع الأمر... وهذا كتاب '*الفرسان الثلاثة*': قراءة لا بد منها لشاب ذاهب في رحلته الأولى إلى فرنسا».

«أشكرك كثيرًا».

«سأشتري شيئًا نشربه؛ ثم نتمرّن على اللغة الفرنسية. ويسكي؟».

أومأ مدحت برأسه. ظل جالسًا، وتناول كتاب «*الفرسان الثلاثة*» حتى يخفي توتّر أعصابه. فتح الكتاب فرأى مقدّمة المؤلف.

*خلال أبحاثي في المكتبة الملكية من أجل الكتاب الذي أؤلّفه عن تاريخ لويس الرابع عشر، وقعت مصادفة على مذكرات م. دارتنيان، مطبوعة... مثلما هي مطبوعة أكثر أعمال تلك الفترة التي كان الكتاب فيها...*

انزلقت على الطاولة الصقيلة كأسان نصف ممتلئتين سائلًا رقراقًا.

«في صحتك! والآن، سوف أقول لك بعض الأشياء. هل أنت مستعد؟». استند فاروق إلى المقعد، وأخرج مسبحته من جيبه وهو يرفع كأسه... «الشيء الأول، النساء في فرنسا... قد تجد هذا غريبًا، لكنهنّ يُعامَلن هناك كالملكات. هنّ من يدخل الغرفة أولًا. تذكّر هذا. وتوقّع أن ترى بضعة أشياء من المحتمل أن تزعجك قليلًا. حاول أن يكون ذهنك منفتحًا، وابقَ مخلصًا لأصولك؛ نقول في فرنسا 'Rester Fidèle À Vos Racines' فِهمتْ عَلَيّ؟ لدي أصدقاء فرنسيون كثر. وأصدقاء إسبانيون أيضًا. الإسبانيون أشبه بالعرب –وأما الفرنسيون فهم شيء مختلف–. أكثرهم من المسيحيين.

لذلك، اعتبرهم مثل أصدقائك المسيحيين في نابلس. أظنّك التقيت حجّاجًا فرنسيين في فلسطين، أو رأيتهم على الأقل. أليس عندكم مبشرون مسيحيون في نابلس؟».

«أجل. لكني ذهبت أيضًا إلى مدرسة فرنسية في القسطنطينية. أعرف مسيحيين كثرًا».

لكن فاروق لم يكن مصغيًا. قال: «حسنًا... عليك أن تعرف أن المبشّرين مختلفون دائمًا عن أهل بلادهم. فقبل كل شيء، الدين أقل تأثيرًا في فرنسا. هذا يعني أن عليك محاولة ألّا تشعر بالصدمة لكثرة التقبيل لديهم، ولشربهم الكحول، وهكذا دواليك».

ضحك مدحت، فنظر إليه فاروق مستغربًا. وعلى الفور، أراد مدحت إثبات أن ذلك كله لن يسبب له أية صدمة، فتناول جرعة من الكأس التي أمامه. أحسَّ كأنه يشرب عطرًا؛ وتركز الإحساس بالطعم في أنفه. لقد جرّب الويسكي مرة واحدة عندما كان في السادسة عشرة. كانت تلك زجاجة أُدخلت خلسة إلى مهجعه في المدرسة. يومها، لم يتناول من الويسكي إلا ما بلّل به لسانه، في حين أتى على الزجاجة كلّها صاحبه وشريكه في تهريبها. وعندما شمَّ مدير المدرسة الرائحة في أنفاسهما صباح اليوم التالي، عاقبهما بالضرب ومنعهما من حضور الدروس مدة ثلاثة أيام.

«هناك أشياء كثيرة سوف تحبّها. طريقة التفكير، وأسلوب الحياة... شيء مصقول جدًّا. أحس بأن هناك صلة بين دمشق وباريس».

قال مدحت: «ونابلس».

«أجل، نابلس جميلة جدًا...». أخذ فاروق رشفة من كأسه، ثم تنهّد... «أين ستسكن في مونبلييه».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«في بيت الدكتور مولينو. أستاذ جامعي».

«أستاذ جامعي! آه، نعم، سوف يعجبك هذا».

لم يجد مدحت غضاضة في أن يُقال له ما سوف يعجبه. اعتبر ذلك علامة على الصلة المتينة بينهما. كان راغبًا في الموافقة على كل ما يقوله فاروق. أمضى الأيام الأربعة الباقية من رحلته في قراءة الكتب جالسًا على سطح السفينة العلوي. أو، على الأقل، كان يضع الكتاب مفتوحًا في حجره، وينظر إلى البحر. وينطق من حين لآخر، جملًا بالفرنسية من تلك الصفحات التي يمسكها بإحكام بين يديه حتى لا تعبث بها الريح. كان ذهنه، الذي زال عنه التوتر آخر الأمر، يبحر في أحلام يقظة خلال جلساته تلك. كان يغرق خاصة في ثلاثة سيناريوات. يرى في السيناريو الأول امرأة باريسية دقيقة العنق تائهة في القدس، فيدلها -بلغة فرنسية ممتازة- على موقع الحرم الشريف. يروي شخص شاهد ما جرى (كثيرًا ما يكون واحدًا من أعيان نابلس) تلك الحادثة

للناس، فيصير مدحت معروفًا بأنه رجل صاحب لطف عظيم وقدرة لغوية ممتازة. وفي السيناريو الثاني، يجد نفسه يغني الدلعونا ـ «يا طَيْرنْ طايِرْ في السّما العالي؛ سلِّمْ عَ الحِلو العزيز الغالي» ـ فيأخذ غناؤه بقلوب العابرين تحت نافذته وتكاد دموعهم تنهمر لسماع حزنه على حبيبته التي فرّقه البعد عنها. وفي القصّة المتخيلة الثالثة، يرى نفسه ينقذ مسافرًا من السقوط عن سطح السفينة بأن يحيط وسطه بذراعه بحركة سريعة متقنة كأنه يراقصه. يصفق له من يرون المشهد.

كانت أحلام اليقظة هذه تشدّ من عزيمته. لقد زادت إحساسه باليسر إزاء ما يحيط به، ومنحته ثقة بالنفس عند دخوله صالات السفينة. كانت تأتيه غفوات منتظمة كأنها جرعات من دواء، فيخرج من حلمه بعد بضع دقائق من غفوة تنعشه وتجدّد قواه. مكّنه هذا من الخروج من إحساسه السابق بتصلّب جسده، ذلك الإحساس الذي ظل يُطبق عليه من حين لآخر.

على رصيف الميناء في مرسيليا، صافح فاروق يد مدحت وأمسك بذراعه: «أتمنّى لك التوفيق. كن شجاعًا. وعندما تأتي العطلة، تعال إلى زيارتي في سان جيرمان».

كان موعد القطار الذاهب إلى مونبلييه بعد ساعة. أرخى الليل سدوله على تلك المنطقة الريفية التي بدت له شبيهة بفلسطين: التلال الوعرة نفسها، والخضرة الجافة نفسها. غفا مدحت مستندًا إلى زجاج النافذة المهتز، ثم قرأ في نور الصباح الوليد المترجرج فصلين آخرين من «الفرسان الثلاثة»، في حين كانت تلال متتابعة ترسم أفقًا متموّجًا بعيدًا، وقطرات المطر المتساقطة تتجمّع ثم تسيل مرتعشة على إطار النافذة الخارجي. نام بعد الغداء أيضًا؛ وعندما صاح موظف القطار «مونبلييه»، كانت الساعة قد بلغت الخامسة إلا ربعًا: نهض واقفًا وتبع بقية المسافرين، فخرج إلى رصيف المحطة. أحسّ بالإرهاق بعد السفر، وبرغبة في الاستحمام.

كانت صالة محطة القطار في مونبلييه تشبه معبدًا. حمل مدحت حقيبته وسار بين الأعمدة ناظرًا إلى حركة الناس والسيارات في الساحة المربّعة أمامه. لم تكن لديه أية فكرة عن شكل د. مولينو. لم يكن في الرسائل التي أتته من الجامعة أي وصف له؛ فصار كل رجل يقترب منه احتمالًا ممكنًا. ذلك الشخص النحيل، صاحب القميص المتدلية أطرافه، أتراه ينظر إلى مدحت باهتمام خاص؟ أم هو ذلك الكهل ذو المظهر المحترم... من المؤكد أنه يبدو بتلك النظّارتين أشبه بأستاذ جامعي. لكن كل واحد من أولئك المرشّحين المحتملين سيظل سائرًا في طريقه عندما يظهر مضيفه الحقيقي آخر الأمر. لا شك في أن الرجل الواقف عند كشك التذاكر ينظر إليه؛ لكنّ نظرته كانت شديدة التفرّس، فأشاح مدحت بوجهه متفاديًا التقاء عيونهما.

تراجعت كثافة الزحام أمام المحطة، وسار مُشْعِلُ المصابيح بين الأعمدة حاملًا سلّمًا. عبر الساحة سرب من ممرضات متجهات إلى مبنى في الجهة الأخرى. هززن مظلاتهنّ. توهّجت نهاية سيجارة مشتعلة مرتين قبل أن تسقط في بركة ماء وتختفي. ومرّ شخص على مسافة شديدة القرب من مدحت، من جهة اليمين. كان له شارب كبير أشقر. إنه أصغر سنًا من أن يكون الدكتور، بالتأكيد... ومع اقترابه، رأى مدحت أن تعبير وجه الرجل لم يكن ودّيًا، وأن عينيه ذات الأهداب الشقراء لم تكن تنظر إلى وجهه، بل إلى طربوشه. كانت على رأس الرجل قبعة منخفضة الحافة. رفع إصبعه إلى حافتها عندما التقت أعينهما. أدرك مدحت أن هذه إشارة احترام فرنسية... كأن الرجل يهمّ برفع قبعته، حركة تجعلك ترى أن صاحبها لا يخفي شيئًا تحت قبعته. لكنه لم يستطع منع نفسه من الإحساس بأن ذلك الرجل الأشقر يشير إلى أن طربوش مدحت ليست له حافة مثل قبعته. تجهّم وجهه في حين كان الرجل يسير مبتعدًا عنه ثم يختفي في شارع جانبي.

«مسيو كمال؟».

رأى في الجهة الأخرى من الساحة شابّة ترفع يدها. من تحت قبعتها، تدلّت عند أذنيها خصلات شعر قصيرة. تقدّمت مقتربة منه، وراحت طية فستانها تتأرجح يمينًا ويسارًا مع خطواتها.

قال متردّدًا: «بونجور. اسمي مدحت كمال».

ضحكت المرأة فظهرت غضون صغيرة تحت عينيها: «وأنا اسمي جانيت مولينو».

مدّت جانيت مولينو يدًا بيضاء شاحبة. كانت مفاصل أصابعها بارزة. صافح مدحت تلك اليد. كانت باردة بعض الشيء. أليس غريبًا أن تأتي الزوجة لاستقباله في المحطة؟ لكنه تذكّر ما قاله فاروق عن النساء الفرنسيات، فسار خلف جانيت إلى سيارة خضراء اللون متوقّفة في الساحة.

قالت له وهي تفتح باب السيارة وتجلس في المقعد الخلفي: «آمل أن انتظارك في المحطة لم يطل كثيرًا. كيف كانت رحلتك؟».

«لقد كانت... استمرت أيامًا كثيرة».

قاد السائق السيارة سريعًا، فطغى صوت المحرك على صوتهما. ومن النافذة، راح مدحت يراقب ارتفاع معالم المدينة وانخفاضها، وتلاشيها في أزقة صغيرة. حشود من المعاطف والمظلّات تزداد وتنقص على أرصفة الشوارع. انعطفوا في شارع ضيق لمبانيه شرفات سوداء وأسطح من القرميد الأحمر. تباطأت سرعة السيارة.

قال مدحت: «هذه المدينة تشبه نابلس. الجبلان، والمباني الحجرية، والشوارع الضيّقة. لكنها أكبر من نابلس. والحجارة هنا أشد صُفرة».

«هل أنت من نابلس؟».
«أجل. وأنتِ... هل أنت مولودة هنا؟».
قالت جانيت بصوت منخفض باسم: «لا. نشأت في باريس. انتقلت مع أبي إلى هذه المدينة قبل أربع سنين عندما بدأ العمل مدرِّسًا في الجامعة. حصلت على البكالوريا هنا».
«هل أبوكِ هو الدكتور مولينو؟».
«آها. وزوجك؟».
أجابت: «لست متزوّجة...»، ثم خاطبت السائق: «بيسون، ألا تأخذنا في جولة في مركز المدينة؟ هذا هو شارع لا لوج. إنه الشارع التجاري الرئيسي. وفي آخره بلاس دو لا كوميدي. مونبلييه مدينة صغيرة. لن يطول بك الأمر قبل أن تعرفها كلّها. لكن الظلمة بدأت تحلّ الآن؛ ليس الوقت مناسبًا لرؤية المدينة».
نظر مدحت إلى وجه جانيت مولينو. كانت الظلال التي تعبر وجهها في المسافة الفاصلة بين أعمدة مصابيح الشوارع تجعل عينيها تظهران سوداوين كبيرتين، وتخفّف من شحوب بشرتها، وتموّه شفتها العليا الرقيقة. كانت الظلال تتحرّك مع سيرهما فيزول أثرها كلما صارا قريبين من واحد من تلك المصابيح المتوهّجة.
صار الشارع أكثر اتساعًا. وصارت الأرض إلى جانبيه معشِبة. انعطف بيسون عند زاوية الشارع وخفّف من سرعة السيارة، ثم دخل عبر بوابة ذات مصراعين وسار في ممر ارتسمت عليه مربعات من نور آتٍ من نوافذ بيت كبير. استقبلتهما خادمة عند الباب بانحناءة تحيّة عندما قادت جانيت مدحت إلى ممر خلف ذلك الباب. مصابيح كهربائية مصفوفة على الجدار بين لوحات ذات إطارات. وإلى اليمين، مرآة ضخمة معلّقة إلى جانب سلم مُلتفّ صاعد إلى أعلى. جدران بيضاء ظاهرة خلف باب مفتوح، وحافة بيانو أسود لامع. ظهر من باب آخر رجل ممتلئ الخدين رمادي الشعر يرتدي بدلة على مقاس جسده تمامًا.
«أهلًا وسهلًا، أهلًا وسهلًا، يا مسيو كمال. أنا فريديريك مولينو، مضيفك».
«مساء الخير. اسمي مدحت كمال. سررت بلقائك».
«هيا، هيا، مرحبًا يا عزيزي، أنا في غاية السرور... أنا... في غاية السرور».
صافح مولينو يد مدحت بقوة، ثم وضع يده الثانية فوق الأولى. حاول مدحت أن يقلّد حركته، لكن الرجل ترك يده وفتح ذراعيه مشيرًا إلى الصالة من حوله.
قال له: «أرجو أن تعتبر البيت بيتك. يشرّفنا أن تكون ضيفنا. نحن متشوّقون إلى جعلك ترى أسلوب حياتنا. تعال من فضلك لكي نتناول كأس أبيريتيف». كان صالون

البيت أزرق اللون، وكانت فيه أرائك منجّدة من حول طاولة عليها صينية فضّية فيها أربع كؤوس من الكريستال. باب زجاجي مفضٍ إلى شرفة فيها طاولة وكراسٍ من الحديد. ومن خلف الشرفة مرجٌ يبدو داكنًا في الظلمة.

أمسك مولينو بنسيج بنطلونه عند الركبتين لحظة جلوسه. قال له: «لاحظت تردّدك. هذا الشراب ليس كحولًا. اسمه كورديال. إنه خالٍ تمامًا من الكحول. S'il vous plaît, Monsieur, asseyez-vous[(1)]».

سألت جانيت: «متى تصل ماريان؟».

بعد أن صار الأب والابنة جالسَين معًا، بات مدحت قادرًا على رؤية تشابههما. ذلك التعبير المباشر في نظرة أعينهما. لكن حنك الدكتور ضخم، في حين كانت ذقن جانيت مستدقّة مع انخماص طفيف فيها. لقد خلعت قبعتها، لكن شعرها ظل مستقرًا فوق رأسها ولم تبلغ خصلاته المتدلية أكثر من أذنيها. كانت تقاطيعها دقيقة جعلتها الغضون الدقيقة تحت عينيها أكثر جمالًا. فتاة نحيلة القوام، لكن لها كتفان عريضتان... أو، لعل جلستها المحدودبة قليلًا جعلت كتفيها تبدوان عريضتين. أطرق مدحت برأسه وضغط بإبهامه على ساق كأسه الباردة.

«في ما بعد، يا عزيزتي. ماريان ابنة أخي. سوف تتزوج الأسبوع المقبل. هذا يعني أنك سترى حفل زفافٍ فرنسيًا! طقوس الزواج هي المفتاح -حقًا- هي المفتاح إلى معرفة ثقافة الناس. ترى حفل زفاف، فتفهم المجتمع. كيف كانت رحلتك؟».

«كانت رحلة طويلة. ولهذا أشعر بالتعب الآن. هذا شراب لذيذ جدًا».

قالت جانيت: «لغته الفرنسية جيّدة جدًا».

«شكرًا. درست في مدرسة فرنسية في القسطنطينية».

قال الدكتور: «أنا مهتم بمعرفة انطباعاتك الأولى. هل أخذتك جانيت في جولة في المدينة؟».

«بابا، إنه مرهق. مررنا بالسيارة فقط عبر مركز المدينة».

قال مدحت: «إنها مدينة جميلة».

«حسنًا، آمل أن تشعر بالراحة هنا. مونبلييه ليست مدينة كبيرة. أظنّك ستفضّل الذهاب إلى الكلية سيرًا على الأقدام طالما استمر هذا الطقس اللطيف. لكن بيسون، السائق، سيساعدك في الأيام القليلة الأولى. أظن أن تسجيلك في الجامعة سيكون يوم الاثنين. وبعد ذلك، tout va de l'avant[(2)]».

---

(1) أرجوك يا سيدي، إجلس.

(2) كل شيء سيمضي قُدمًا.

كان في ما قاله الدكتور مولينو كلمات لم يفهمها مدحت، لكنه أومأ برأسه.

قالت جانيت: «إنه بناء جميل، بناء الكلية. هل تعرف أنه كان ديرًا؟».

قال مدحت للخادمة عندما أتت بدورق الشراب: «أوه، مرسي. هذا يكفي... آسف، هذا كثير. لا، لم أكن أعرف هذا عن الكلية».

استند مولينو إلى ظهر الأريكة، ورفع عينيه إلى السقف. كانت في وجهه غضون؛ وكان الشيب يخالط شعره؛ لكن جسده بدا رشيقًا. خصر نحيل، ومعالم عضلة الفخذ العريضة ظاهرة من تحت النسيج. وضع يديه على ركبتيه وانتصب جالسًا من جديد فطقطق حذاءه مصطدمًا بالأرض.

«نحن في غاية الحماسة لمجيئك. وأخشى أننا سنطرح عليك أسئلة كثيرة جدًا. من الناحية المهنية، أنا اختصاصي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية. إن بطانة قلبي مصنوعة من الأسئلة». لم يفهم مدحت الجملة الأخيرة. لكنه رأى مولينو يضع أصابعه على صدره وسمع كلمتي «أسئلة» و«قلب»، فتسارعت نبضات قلبه لخشيته من أن يكون مولينو موشكًا على طرح أسئلة طبية عليه.

قال له: «لا يزال عليّ أن أتعلم الكثير. إنني جديد تمامًا».

«بالتأكيد. بالتأكيد. دائمًا، يكون هناك الكثير مما يتعلّمه المرء. وبالطبع، لا يظل الإنسان جديدًا دائمًا».

قالت جانيت: «هل بلدتك قريبة من القدس؟».

من غير إرادة منه، انبعثت في رأسه صورة واحد من الخيالات التي كانت تأتيه في السفينة... رأى الباريسية التي اخترعتها مخيلته تائهة في القدس القديمة. وثب قلبه، وقال بأسرع فرنسية استطاعها: «نحن إلى الشمال من القدس. تستغرق المسافة خمس ساعات، أو ست ساعات. وقد تكون رحلة خطيرة. عليك المرور بعين الحراميّة... ممر بين جبلين. ربما يكون هناك لصوص بعد الساعة التاسعة ليلًا».

سأله الدكتور مولينو: «آينالـ...؟ ما اسم ذلك المكان؟».

«عين الحرامية. كلمة عين تعني الموضع الذي يخرج منه الماء. لست أعرف هذه الكلمة بالفرنسية».

«أهي بحر؟».

«لا، بل هي في اليابسة».

«نهر؟ بحيرة؟».

«لا، في الأرض... يأتي الماء من تحت...».

«بئر؟ نبع؟».

«نبع، نبع. عين الحرامية تعني نبع اللصوص».

رن جرس الباب، وبعد ثانية واحدة، دخلت الخادمة جورجين الغرفة قائلة: «مادوموازيل ماريان، ومسيو بول ريشيه».

قال مولينو: «هذان هما. مدحت، هذه ابنة أخي. هذه هي ماريان».

دخلت الغرفة شابة في فستان أخضر وحذاء لامع أخضر مثله. ومن خلفها، ظهر رأس له خصلات شعر حمراء عرف فيه مدحت -على الفور- رأس قبطان السفينة، غوران.

قال له: «مساء الخير، يا كابتن».

التفتت إليه جانيت التفاتة حادّة، لكن الرجل ذا الشعر الأحمر أجابه: «مساء الخير».

أومأ برأسه استجابة لإيماءة مدحت، ثم مد يده إليه وصافحه: «اسمي بول ريشيه. مسرور برؤياك».

قالت ماريان: «مرحبًا».

قال الدكتور مولينو: «ماريان هي التي ستكون عروسنا».

جلس الجميع، ونظر مدحت إلى وجه الرجل الذي ظنّه الكابتن غوران. أحسّ بحرارة كالحمى. أتت الخادمة بكؤوس جديدة لتناول الكورديال، فأحسّ بموجات التعب تغمره. حاول إزاحتها عنه بتحريك ساقه، ثم ذراعه، ثم قدمه... أي شيء يساعده على البقاء حاضرًا، هنا، على هذه الأريكة، في هذا الصالون الأزرق.

قالت جانيت: «عزيزتي ماريان، لا أصدق أن الموعد صار قريبًا هكذا».

قال الدكتور: «هذا ضيفنا الشاب من الشرق الأدنى، مسيو كمال القادم لدراسة الطب في جامعة مونبلييه. الحقيقة أنه وصل قبل قليل. وأظنه يشعر الآن بأنه مشوّش الذهن إلى حدٍّ ما».

قالت جانيت محتجة: «بابا!».

قال الرجل الذي كان -أو الذي لم يكن- الكابتن غوران: «صحيح! من أين أنت؟».

«أنا من نابلس. مدينة واقعة إلى الشمال من القدس، إلى الجنوب من دمشق».

«شيء رائع».

قالت جانيت: «سوف يصير طبيبًا».

أدار مدحت جذعه قليلًا. كانت تلك الوضعية تساعده على البقاء منتبهًا، ثم إنها سمحت له بالنظر إلى وجه الرجل مرة أخرى.

نظر إليه، فازداد يقينه بأن هذا الرجل، في آخر المطاف، ليس الكابتن غوران. لم يتذكّر هذا الشارب الأحمر، ولا هاتين الوجنتين اللتين لوّحتهما الشمس. إنه شخص

غريب. اسمه بول ريشيه. أدرك من الابتسامة على شفتي الرجل أنه انتبه إلى تفرّس مدحت في وجهه. صدمه هذا الإدراك صدمة شديدة مثلما كانت صدمة غلطته الأولى. غمر مدحت ضيق حامض الطعم.

قالت جانيت: «مسيو مدحت، لا بد أنك متعبٌ جدًّا. هل تحب أن تذهب إلى سريرك؟ جورجين، ربما يريد مسيو مدحت أن يرى غرفته. يبدو أنه... لا بد أنه متعب جدًّا بعد رحلته الطويلة».

وهكذا، قبل وقت قصير من الساعة السابعة مساء، في العشرين من تشرين الأول سنة 1914، أخذت الخادمة مدحت كمال إلى غرفة في زاوية الطابق العلوي من بيت الدكتور مولينو في مونبلييه. كانت النافذة تطلّ على الحديقة المعتمة، وعلى شجرة ضخمة في آخرها. كانت جدران الغرفة مخطّطة بلون أصفر؛ وقبالة السرير، إلى جانب الموقد، كرسي خشبي عند طاولة عليها مزهرية فيها باقة من أزهار السوسن غطت سطح الطاولة اللامع بطبقة رقيقة من غبار الطلع ذي اللون البرتقالي. رأى حقيبته موضوعة على الأرض إلى جانب الخزانة. خلع حذاءه واستلقى على الفراش. تذكّر من جديد، وهو مستلقٍ على ظهره، ذلك الشخص الغريب في الأسفل، الشخص الذي اسمه بول ريشيه؛ وحاول أن يستعيد في ذهنه صورة قبطان السفينة. خصلات شعر حمراء، وغضون على الوجنتين. لكن بقية التفاصيل كانت أقل انطباقًا. أحسّ باهتزازات البحر، وتزاحمت صور ذلك النهار على باطن جفنَي عينيه المغمضتين: الساحل الفرنسي في ذلك الصباح يظهر من بعيد، في الأفق الأزرق؛ والمسافرون يتركون إفطارهم ويحتشدون عند النوافذ؛ ثم ميناء مرسيليا؛ وحركة السلالم على الشاطئ؛ والسيارات؛ وصافرات السفن. تذكّر كيف تقدّمت جانيت منه مادة يدها لمصافحته، وتذكّر المدينة من نافذة السيارة... تذكّر كيف كان الظلام يحل على المدينة. تذكر شراب الكورديال، والصالون، وغرفة النوم، والسقف. أدرك أن عينيه مغمضتين، فتحهما من جديد. تلاشت الألوان. كان راقدًا على جنبه، وكان ضياء القمر ينسكب على أرض الغرفة. في الظلام، بدت له الغرفة كبيرة، لطيفة. كان نصف نائم، نصف مستيقظ. انتصب جالسًا. لسعته لفحة برد. خلع سترته، وأنزل حمالتَيّ البنطلون، وفك أزرار القميص. سمع همسًا، طقطقة –صوتًا غير بشري–... صوت جسمين يحتكّ كل منهما بالآخر. نظر إلى الباب. فتحت الباب هبّة هواء مفاجئة. انتبه أنه لم يغلق الباب جيّدًا عند دخوله.

نهض، وجذب إليه القبضة فدار الباب على مفصّلتيه من غير صوت. رأى ممر الطابق العلوي. ممر رمادي، ليس فيه أحد. وجد الممر أبرد قليلًا من الغرفة، لكنه لم يحسّ بتيار هواء. كان طرف السجادة الممتدة على درجات السلم مسترخيًا عند أول الممر،

مشعثًا قليلًا. ومن فوقه، رأى حاجز السلم المنحني، منحدرًا. وفي الناحية القصية من الممر، حيث تشتد الظلمة، رأى مصباحًا معلّقًا إلى جانب باب مغلق.

عاد إلى غرفته. ضغط الباب إلى أن سمع صوت لسان القفل يدخل ثغرته، ثم اندس تحت أغطية السرير الباردة. كان السقف المظلم آخر ما رآه عندما أغمض عينيه، وسرعان ما صارت الأغطية دافئة مثل جلده. تخيّل أنه صار في نابلس. عادت إليه ذكرى قديمة، ذكرى تلك المرة عندما سار في نومه... كان في الرابعة عشرة، أو نحو ذلك. أيقظه صوت الأذان صادحًا يدعو الناس إلى صلاة الفجر، فوجد نفسه في السرير إلى جانب جدّته، تيتا. كانت ذراعها محيطةً بوسطه. ارتبك، وخجل، وحاول أن ينهض من الفراش. وضع إحدى قدميه على الأرض الباردة ـ لكن تيتا مدّت يدها ومست شعره. قالت له، «*كنت تتكلّم في نومك*. حبيبي، *لا تقلق*، حبيبي، *عد إلى النوم*».

# - 2 -

صار ضبط الوقت مشكلة في سنوات غسق الدولة العثمانية. ظلّت بداية السنة الرسميّة في شهر آذار عندما يحلّ على الفلاحين بلاء مُحصِّلي الضرائب. لكنَّ المسيحيين كانوا يستخدمون التقويم الغريغوري الذي تبدأ سنته في شهر كانون الثاني، والذي فيه سنوات كبيسة وتغيّرات قليلة بحسب طقوسهم الدينية. وفي حين عدّل اليهود تقويمهم بحيث يوافق دوران الأرض، ظلّ المسلمون على التقويم الهجري الذي كان يزداد افتراقًا عن الفصول في دورانها.

في طفولة مدحت، كان الجميع في نابلس، بمن فيهم غير المسلمين، سائرين بحسب القمر؛ وكانوا يلتزمون التوقيت العربي في شؤونهم الدينية على الرغم من وجود برج الساعة الجديد الإفرنجي الذي أقامه السلطان عبد الحميد. وكان المسلمون يعتقدون بأن الرب صنع الكون بحيث ينبغي إعادة ضبط ساعات البشر جميعًا، مع كل غروب شمسٍ، على الساعة الثانية عشرة، تمشّيًا مع ساعة الكون كلّه. فكلما حلّ الظلام، وارتفع الأذان داعيًا إلى صلاة المغرب، يُخرج النابلسيون الميسورون في المدينة كلّها ساعاتهم من جيوبهم ويسحبون مسمار الضبط بأظافرهم، ثم يحرّكون العقربين حتى يستقرا على الساعة الثانية عشرة قبل أن يهرع المصلّون منهم إلى المسجد.

عندما كان مدحت صغيرًا جدًّا، كان ينام إلى جانب تيتا، أم طاهر، في الشتاء. وعندما صار في الخامسة من عمره، انتقلوا إلى خارج أسوار المدينة القديمة، من بيت كان له فناء مشترك وحجرات مدوّرة إلى بناية حديثة فيها غرف منفصلة قائمة الزوايا عند سفح جبل جرزيم. كان يرقب الفصول من نافذة غرفته الجديدة، وتهبّ نفحات ريح صقيعيّة من جهة جبل الشيخ في الأفق البعيد.

ويوم أعلن الحاج طاهر، والد مدحت، عن اعتزامه الزواج من جديد، قالت تيتا إنها رأت عربة على الجبل قبل شهر. لكن نبوءات تيتا لم تكن مفيدة لأحد لأنها لم تكن تدرك معناها في وقتها، بل إن إلحاح تذكّرها عليها كان مصدر معاناة لها. وكان من جملة تلك الرؤى تنبوئها بموت زوجها.

«رأيت نعشًا على سجادة زرقاء. لم أرَ إلا زاويته الخشبية فوق السجّادة. كنت في بيت أمي فرأيته مرّة أخرى، عندما جلبوا النعش من يافا ووضعوه أمامي. نظرَتْ عيني، هذه العين، نظرة سريعة فرأت زاوية النعش ومن تحتها تلك السجّادة».

كان زواج الحاج طاهر الأول من والدة مدحت قرارًا اتّخذته تيتا. وكانت تلك الزوجة من عائلة محترمة في جنين. أحبَّها الحاج طاهر.

«كانت عينا أمك خضراوين. وكان وجهها شبه مسطح من تحت تلك العينين، هكذا...»، ضغطت بأصابعها على وجنتيها... «والله، كانت كأنها ولد صغير».

لا نعرف إن كانت قد رأت موت تلك المرأة بداء السل... إن كانت قد رأته، فهي لم تخبر أحدًا بذلك.

كان عمر مدحت سنتين. وكان أبوه في مصر. امتلأ البيت نساءً باكيات. وبينما كانوا يغسلون الميتة على طاولة الطعام، أحضرتْ مدبرة المنزل إلى الصالة كعكًا مصنوعًا من السميد راح مدحت يهشّمه بقبضتي يديه، ثم يلعق الفتات الحلو عن كفّيه. ولحظة ظهور أبيه داخلًا البيت، بدأت تيتا نواحها وأمسكت بحافّة الطاولة كأنها موشكة على السقوط.

لم يطل بقاء الحاج طاهر في نابلس. كانت تجارة الملابس التي يديرها في القاهرة تتوسّع سريعًا، وكانت في حاجة إلى مزيد من اهتمامه. وعلى الرغم من استعانته بمزيد من العاملين في متجره في شارع الموسكي، وبمزيد من الرجال لجلب الحرير من الجولان، فهو لم ينسَ أبدًا الدرس الذي تعلّمه من أبيه: أهمية المحافظة على العلاقات الشخصية في العمل. وبما أن اسم «الكمال» قد بدأ يدخل القاموس القاهري ويصير مرادفًا للملابس عالية الجودة، فقد صار الحاج طاهر غير قادر على إدارة المتجر من بعيد. وما كان يستطيع أيضًا أن يعتمد على مبعوثين لا يعرفهم أحد للتزوّد بالحرائر من تجّارها. كان عليه أن يحافظ على حضور منتظم في متجره القاهري، وأن يسافر شمالًا لكي يشتري بضاعته، فلا يستعين بمبعوثين جدد إلا عندما تضطرّه إلى ذلك ضرورات مواكبة حركة البيع المتسارعة. كان هذا الانشغال الدائم مرهِقًا، لكنه كان مربحًا أيضًا. إنه يضمن ولاء المستهلكين وصدق المورِّدين. ثم إن هذه الرِّحلات كانت تضيف تنوّعًا إلى حياته؛ وكانت تسمح له بزيارة نابلس في طريق السفر، والتوقّف عند وكيله هشام في متجره المحلّي، وقضاء ليلة مع أمه وابنه الصغير قبل أن يعود إلى تفقّد أشغاله في سوق الموسكي. رجع إلى القاهرة بعد جنازة زوجته، وكان راغبًا في العودة إلى نابلس من جديد، لكن العمل لم يترك وقتًا لحزنه. اقترب موعد العيد، وزادت المبيعات زيادة كبيرة، وكان عليه أن يظلَّ في القاهرة لكي يشرف على المتجر.

كان الحاج طاهر يمضي صباحاته خلف طاولة مكتب من خشب الصندل في غرفة خلفية في المتجر حيث ينشغل بحساباته؛ ثم يخالط زبائن المتجر بعد الظهر. ظلّ هذا النظام مستقرًّا سنينًا طويلة؛ وكان إيقاعه دقيقًا بحيث يأتي مساعد الحاج طاهر فيدقّ بابه

داعيًا إياه إلى طعام الغداء وتكون هذه لحظة تسجيله آخر رقم في دفتر حساباته. كان هذا الاقتصاد في الزمن مصدر سرور له... هذا الإحساس بالانتقال من نشاط إلى آخر من غير أية لحظة مهدورة أو ضائعة.

لكن اضطرابًا اعترى هذا النظام بعد فترة وجيزة من موت زوجته. تناهت أخبار ترمّله إلى آذان تجّار القاهرة، فصاروا يأتونه ويفسدون عليه صباحاته مما جعل الساعات المخصّصة للحسابات تمتد إلى ما بعد الظهر. يأتي رجل منهم كل يوم وآخر، فيدخل الغرفة متلطِّفًا، ثم ينفخ صدره قبالة المكتب ويعدّد محاسن ابنته. كان الحاج طاهر يشكر كل واحد منهم، ويرفض عرضه. لكن أسابيع كثيرة مرّت، فبدأت تلك المقاطعات تفعل فعلها في نفسه، وتحوّل بعض اعتذاراته المهذّبة إلى قبول -وإن على مضض بدعوات الزيارة التي كانوا يوجّهونها له. ثم مضت فترة أخرى، فبدأت تلك المجاملات تترك أثرها عليه أيضًا، وصار يقبل الدعوات قبولًا احتفاليًا. وذلك أنه بدأ يتّضح له أنه يستحق زواجًا ثانيًا، بل يستحقّ زواجًا جيدًا. كان الحاج طاهر صاحب غريزة تجارية؛ وكان مدركًا أن للأسواق تقلّباتها، وأنه تاجر ثري في الوقت الراهن، له شهرته بين النساء؛ فعرف أنه سيحسن صنعًا إن استفاد من ذلك.

لم تكن له في مصر أية قريبات، فلم يجد من يكلّفها باستقصاء أحوال الفتيات المعروضات عليه. كان ممكنًا أن يستدعي أمّه، لكنه عدَل عن ذلك لإدراكه أنها لا تزال حزينة على زوجته الأولى. استعان بدلًا منها بصاحبة له اسمها رباب. كانت رباب راقصة خفيفة الدم اعتاد أن يمارس الحب معها بعد تقديم عروضها في الزمالك. وافقت رباب، مقابل أجر بسيط، على تقصِّي أخبار الفتيات المعروضات؛ وكذلك على الاستعلام سرًّا عن سمعة عائلة كلّ واحدة منهنّ. مر أسبوع، فزار الحاج طاهر رباب مساء يوم الخميس، ووجدها ملتفّة بالملاية خلف خشبة المسرح. ابتسمت له شادّة على شفتيها، وأعطته قائمة كتبتها على ظهر ورقة مستعملة. بدأت تقول له إن هذه فتاة من أسرة ثريّة، لكن أمّها خنزيرة. وهذه واحدة من أربع أخوات، لكنها أقلهنّ جمالًا. شيء مؤسف... أختاها الكبيرتان جميلتان حقًّا! وهذه ليست ثريّة، لكنّها من أسرة تسرّ الخاطر. أسرة محبوبة، معروفة. أهي جميلة؟ بين بين، أسنانها صغيرة جدًّا، وهذه قبطية. أمر مزعج. وهذه أجمل منهنّ جميعًا، بكل تأكيد...

سألها طاهر: «ما اسمها؟».

«اسمها ليلى. عائلتها بين بين. عائلة ميسورة، لكن ليس كثيرًا».

«وماذا عن أمّها؟».

«امرأة لطيفة. وهي جذّابة أيضًا».

لم يطل به الأمر قبل اتّخاذ قراره. كتب إلى والد ليلى. وفي غضون يومين اثنين، اتفقا على كتب الكتاب، وعلى موعد الزفاف. بعد ذلك فقط، دعا أمَّه إلى القدوم من نابلس لحضور زفافه. أتت، لكنها لم تزغرد مع النساء، ولم ترقص معهنّ.

كانت ليلى امرأة كثيفة الشعر دقيقة العنق. وبحسب التقاليد، لم تُظهِر محبّة لابن زوجها. كانت تكره خاصّة أن تلامسه؛ بل كانت أيضًا تحرص على أن تفكّ أصابعه عن إبهام زوجها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. وبما أنها كانت تفضِّل البقاء قريبة من أهلها، فقد صارت زيارات الحاج طاهر إلى نابلس أقلّ من ذي قبل. صار يرسل من يتفقّد أحوال متجره في نابلس حتى يختصر زمن رِحلاته إلى الجولان، وصار يترك مدحت وحده مع تيتا عند جبل جرزيم فترات لا تنفكّ تزداد طولًا.

بدأ تشكّل ذكريات مدحت في ذلك الوقت تقريبًا: صار أبوه رُكبة كبيرة، وصوتًا في الناحية الأخرى من الغرفة. كانت تيتا وسادة من ثديين فائحين بماء الورد والبنفسج الحلو. وكانت ليلى جدارًا ناتئ العظام. وصارت أمّه عَدَمًا ناعمًا.

بعد أن صارت زيارات طاهر وليلى إلى نابلس نادرة، بدأت الشائعات عن ثرائهما تتردّد في صفوف المدرسة. سمع جميل، ابن عم مدحت الذي يسكن في بيتٍ تحت بيتهم، إشاعة مفادها أن مصدر ثروة الحاج طاهر كان أثارًا فرعونية عثر عليها في حديقة بيته في القاهرة.

انفجرت تيتا ضاحكة. كانت جالسة عند الباب تُصلح شيئًا ما. قالت لهما: «تذكّرا دائمًا أن الحاسدين أكثر الناس تعاسة».

لكن تيتا حدّقت ساخطة في زوجة طاهر الجديدة عندما جاءا إلى نابلس. كان طاهر يفصفص بذور القرع بين أسنانه، بينما وقف مدحت ينظر إلى ركبة أبيه الكبيرة تتأرجح كلما مد يده إلى الطبق. أعجبته الفتحة المربّعة بين ساقي أبيه عندما وضع كاحله على فخذ ساقه الأخرى. ولما كان -في تلك الفترة من عمره- مشغول البال دائمًا بذلك الدافع إلى وضع الأشياء في كل فتحة يراها، فقد أحبّ أن يتسلّق حضن أبيه ويقف داخل تلك الحُجرة البشرية. ثم غيّر أبوه جلسته ووضع ساقًا فوق ساق فصارت القدم الكبيرة المتدلّية، بحذائها الجلدي اللامع، أرجوحة أغرته بالجلوس عليها. وإلى جواره، كانت ليلى تراقب ما يفعله.

لكن واحدة من ذكرياته عن أبيه طغت على كل ما عداها. في ما بعد، لم يكن مدحت قادرًا على تحديد عمره في ذلك الوقت -ست سنين، أو سبع سنين- لكن هذا ما أكسب الصورة مكانة أسطورة أو حلم رآه في نومه ثم استيقظ فرواه، واحتلّت في ذهنه حيّزًا أكبر مما يجدر بها احتلاله. فعلى الرغم من أنه كانت هنالك -بالتأكيد- صباحات أخرى مماثلة، فقد ظلّ هذا الصباح ماثلًا في ذاكرته.

في الذاكرة... كان الوقت فجرًا عند جبل جرزيم، وكان غطاء علبة الخبز على الخزانة مغلقًا. حقيبتان عند الباب. وها هو بابا مرتديًا عباءة السفر البنّية الصوفية، ومن فوقها طربوش. همس له بتحيّة الصباح وانحنى لكي يقبّله. أنفاسه بشرية حلوة، وبثرتان حمراوان صغيرتان واضحتان تحت شاربه. كان مدحت واقفًا عند العتبة ينظر إلى أبيه وهو يعلّق الحقيبتين إلى جانبي الحصان. يعتلي بابا الحصان، وقبل أن يتحرّك، ينتصب جالسًا على ظهره وينظر إلى ابنه. أنفاس الصباح الندية معلّقة فوق أشجار الزيتون البعيدة في الغبش المزرقّ والحاج طاهر، أبو مدحت، يغيب وسط الضباب.

كان الوقت ربيعًا عندما وصلت رسالة فيها نبأ حبل ليلى. صفّقت تيتا بيديها، وأتت النساء لتهنئتها. ثم مرّت شهور بعد ذلك من غير أية رسالة أو برقية. جاء الصيف؛ وبدأت السماء تسكب على الأرض قيظها. ابيضّ لون حجارة البيوت. اصفرّت النباتات الصغيرة الزاحفة، ثم يبست وماتت. بدأت زيارات رياح السموم الخانقة وغبارها الكثيف؛ وجفّت أربعة ينابيع في نابلس. وعندما جاءت الأمطار آخر الأمر، كان مجيئها انصبابًا عاصفًا.

في البداية، ظنّ مدحت أن العاصفة هي ما أيقظه، ثم سمع أصواتًا. انسلّ إلى الباب فرأى أباه في الممرّ واقفًا في ضوء المصباح المتألّق ينفض الماء عن ذراعيه. ظهرت تيتا إلى جانبه، ضمن دائرة الضوء. كانت تجمع طبقات الملابس التي يخلعها في تلك الظلمة المترجرجة. استيقظ مدحت من جديد في الصباح، فرأى جدّته جالسة على سريره. مدّت يدها تحت اللحاف ووضعتها على كاحله، ثم قالت: «أبوك هنا. إنه حزين لأن الطفل قد مات». ظلّت ملابس أبيه التي شوّهت الرطوبة شكلها معلّقة عدة أيام من خطاطيف على جدار المطبخ.

وعند ولادة الطفل الثاني، عاد طاهر مع ليلى للعيش في نابلس. وبعد وقت قصير من ذلك، أُرسل مدحت إلى مدرسة في القسطنطينية. كان ابن عمه جميل قد أنهى سنته الأولى في «مكتبي سلطاني»؛ وهذا ما جعل السفر أقل رهبة مما يمكن أن يكون. والواقع أن مدحت أمضى تلك السنة كلّها شاعرًا بالحسد إزاء جميل الذي صار أشبه بالرجال مع أن عمره لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وصار قليل الاهتمام بكتبه المدرسية التي أتى بها معه في العطلة. رأى مدحت صف الكتب على أرض غرفة ابن عمه. كانت الكتب موضوعة بحيث تظهر كعوبها، فحاول مدحت قراءة عناوينها. وعندما أرسلوه إلى المدرسة، لم ير في ذلك التغيير ابتعادًا، بل اقترابٌ.

كان «مكتبي سلطاني»، المعروف أيضًا باسم «ليسّيه إمبريال»، مدرسة داخلية ضخمة صفراء اللون قائمة على ضفّة البوسفور. كانت لها بوابات سوداء وذهبية، وحدائق

حسنة التنسيق. كان تلاميذ المدرسة وافدين من أنحاء الدولة العثمانية كلّها: أرمن، ويونانيون، ويهود من مقدونيا، ومسيحيون موارنة من جبل لبنان؛ بل حتى بلغاريون وألبان، إلى أن خسرت الدولة تلك المناطق. صحيح أن أكثر الطلبة كانوا من الأتراك، وأن أكثر الآخرين كانوا من أبناء كبار المسؤولين والضباط، إلا أن مدحت تذوّق في هذا المكان طعم الحياة الكوزموبوليتانية لأول مرة. وبعد دورة مكثّفة في اللغة الفرنسية، أتقن مدحت التركية العثمانية، وتعلّم شيئًا من الإنكليزية والفارسية. درس الرياضيات والفلك، وأضجرته دروس الخط والجغرافيا، وأثارته دروس الفلسفة والعلوم. كانت جداول مواعيد الدروس موضوعة بحسب التوقيت الإفرنجي، فكان الطلبة يقيسون الزمن من الظهر إلى الظهر بدلًا من قياسه اثنتي عشرة ساعة من شروق الشمس إلى غروبها مثلما كان الناس يفعلون في نابلس.

وفي «الليسيه» اكتشف مدحت فرادته، للمرة الأولى. كان في الحمّام ذات صباح، قدماه على الألواح الخشبية المصقولة فوق مصرف المياه وهو يزيل الصابون عن جسمه تحت الماء النازل متدفّقًا على امتداد ساقيه، ففكّر في الأولاد المنتظرين في الصف خارج الحمّام بينما هو وحيد هنا. أتته الفكرة في تلك اللحظة. نظر إلى جسده فأدرك أن يديه هما يداه وحده، وأن عينيه هما عيناه وحده اللتان ينظر بهما. كان ذلك أمرًا عجيبًا لم يستحضره شيء غير ذلك الباب الفاصل بين الماء المتدفّق في الداخل والأولاد المنتظرين في الخارج. لم يكن هذا شيئًا لم يعرفه من قبل؛ لكنه أحسّه الآن إحساسًا ملموسًا. لم يخطر في ذهنه قبل تلك اللحظة طرح أسئلة عن سبب كونه مدحت، وكون أي شخص آخر ليس مدحت؛ أو كون مدحت ليس أي شخص آخر. سحَره هذا وحيّره في الوقت نفسه. نظر إلى ساقيه المحمرّتين تحت حرارة الماء، وإلى الشعر الأسود النابت عليهما، فلم يستطع تخيّل كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. كان هذا الإدراك أشبه بصدمة كهربائية صغيرة حبسته داخل جسده وغَرّبته عنه. كانت صدمة غريبة بقدر ما هي مؤلمة. لم يستطع استعادة هذا الإحساس عندما حاول، بهدوء، استعادته في ما بعد. بل إنه حاول إعادة التجربة نفسها بالدخول إلى الحمّام والنظر إلى يديه، لكن الصدمة لم تأت. عاوده ذلك الإحساس مرّات نادرة على امتداد أربع سنين أمضاها في المدرسة. عاوده مرّة أو اثنتين في غرفة الصف عندما سرح بعيدًا عن الدرس وهو ينظر إلى القلم بين أصابعه. وكان ذلك الإحساس يأتيه أحيانًا في الحالة الوسطى بين اليقظة والنوم عندما يكون مستلقيًا في فراشه مستمعًا إلى شخير ابن عمه جميل آتيًا من الفراش المجاور، عندما تجري حوادث ذلك اليوم غير واضحة في عقله... يأتيه الإحساس عندها: إحساس كهربائي بالفرادة، إحساس ظافر معذِّب، غير أرضيّ.

أتت العطلة، فصعد مدحت وجميل إلى متن العبّارة التي اجتازت بهما مضيق البوسفور إلى الجانب الآسيوي؛ ثم سافرا بالقطار من حيدر باشا إلى دمشق قبل متابعة سفرهما جنوبًا إلى نابلس. كان مصباح، أخوه الصغير، قد كبُر وبدأ يمشي متمايلًا. في السنة الأولى، كانت بطن ليلى منتفخة بحملها الجديد؛ وفي السنة التالية، صار لديه أخ ثانٍ، ثم أخ ثالث في السنة التي أعقبتها. عاد مدحت في إحدى السنين فوجد أن أباه وليلى قد انتقلا إلى القاهرة، وأنه صار من جديد وحده مع تيتا في جبل جرزيم.

ثم دخلت الدولة العثمانية الحرب، وبدأ الزمن يتغيّر تغيّرًا حقيقيًّا. نشأ خلاف بشأن بعض السفن الحربية -أراد البريطانيون استعادتها، لكن الأتراك باعوها للألمان- وعلى الرغم من مواصلة العثمانيين تظاهرهم بالوقوف على الحياد، فقد عقدوا اتفاقًا سرّيًا مع ألمانيا في شهر آب من سنة 1914 (وفق التقويم الغريغوري). بدأت التعبئة. وفي محاولة لفرض الانضباط العام، ضُبطت الساعات كلّها على التوقيت الإفرنجي. وفي المدرسة، دبّت الحماسة في الفتية الأتراك. لكن كثرة من أبناء الأثرياء القادمين من ولايات الدولة حاولوا تفادي سَوْقهم إلى الحرب. كان أبناء جيل الحاج طاهر يدفعون قدرًا من المال نظير إعفائهم من الخدمة في الجيش العثماني؛ لكن الوضع تغيّر. استفاد بعض شباب نابلس من ثغرات في نظام التجنيد، فتزوّجوا من نساء فقيرات من القرى. واختبأ آخرون في بيوت أهلهم. وفرّ بعض الشباب إلى أوروبا. وجد جميل لنفسه عملًا بصفة موظف صغير عسكري في القسطنطينية فتجنّب الذهاب إلى خطوط القتال؛ وأما الحاج طاهر فراح يخطِّط لإرسال مدحت إلى فرنسا لأن الدخل الذي كان يأتيه من متجره في القاهرة قد صار الآن وافرًا.

على الرغم من أن الأتراك كانوا موشكين على دخول الحرب ضد فرنسا، فقد ظلّ ذلك البلد في أذهان طلبة «مكتبي سلطاني» جميعًا منارة أوروبا ومثالًا على العصر الحديث. كان كبار الرحّالة في الشرق، وفي شمال أفريقيا، ييمِّمون وجههم شطر فرنسا. بل إن التوقيت الأوروبي (الإفرنجي) نفسه كان متّصلًا بفرنسا، بلاد الفرنجة، نتيجة تلك المصادفة اللغوية. فكم ستكون فرصة عظيمة أن يذهب مدحت إلى قلب الحداثة، وأن يتلقّى العلم هناك! لقد صار مدحت كمال ابن التاسعة عشرة شخصًا طموحًا، سرَّته الثقة التي اتّضحت من خلال قرار أبيه؛ وأسعده حبّه الذي جعله راغبًا في إبعاده عن الحرب.

سافر إلى القاهرة في طريقه إلى الإسكندرية. فكر في أمه خلال تلك الرحلة. لكن تفكيره فيها كان من غير أي شيء ملموس يعرفه عنها، من غير أي شيء يتجاوز ظلّ ثوب نوم مألوف لديه... صورة يستعيدها كثيرًا، لكنها تظلّ دائمًا واهية الصّلة بالواقع. كان لديه إحساس دائم بأن أمه -على الرغم من عيشهما سنتين معًا- قد ماتت حتى

يعيش. ارتباط منطقي قاتل: عندما كانت، لم يكن؛ وعندما كان، لم تكن! كان يرقب الحركة في شوارع القاهرة كأنه ينظر إليها من خلف زجاج سميك. فاجأه الأوروبيون الذين رآهم متجمّعين في مقاهٍ غير مقاهي المصريين واليونانيين. كانت ملابسهم فاتحة الألوان؛ وظلالهم مختلفة تحت شمس الإمبراطورية. فاجأه بيت أبيه أيضًا. كان فيلا بيضاء من طابقين، من حولها أشجار فاكهة تصطدم ثمارها بالنوافذ. لم يفاجئه عبوس ليلى عند وصوله، ولا همسها في الممرّ أمام غرفته عندما دخلها لكي ينام، ولا محاولتها إقصاءه عن الكلام الدائر وقت العشاء.

لاقاه أبوه على السلم عشيّة سفره.

«حبيبي، تعال معي... عالمكتب».

نوافذ المكتب مفتوحة حتى تسمح بدخول ما بقي من ضوء النهار. نظر مدحت إلى أبيه وهو يمدّ يده من فوق المكتب عبر بقعة الضوء الشاحب؛ وسمع صوت انفتاح درج. عادت يد أبيه حاملة قطعة حرير قرمزية اللون. كان في وسط ذلك الحرير شيء لامع. قرص ذهبي. دعك الحاج طاهر بقطعة الحرير الكتابة المحفورة على القرص.

«هذه لك، يا مدحت». كانت ساعة ثقيلة باردة. فتح مدحت غطاءها. ثلاثة عقارب سوداء صغيرة منبثقة من ميناء الساعة المزخرف. كان رأس أحد العقارب يقفز سائرًا حول محيط الميناء، مشيرًا إلى الأرقام العربية.

أخرج أبوه سكينًا صغيرًا: «هكذا تفتح غطاء ظهر الساعة».

وضع حد السكين على حافة الساعة، فانفتح ظهرها دائرًا على مفصلة خفية. وفي الداخل، سلسلة من عجلات مسننة متداخلة مثبتة بصفائح فضّية. كان كل ما في الساعة ساكنًا عدا جزأين: جزء يدور دورانًا سريعًا فيدفع دولابًا مجاورًا أصغر منه يتحرّك بفواصل زمنية منتظمة. كانت العجلة الصغيرة تصدر صوتًا. تك، تك، تك.

«شكرًا. شكرًا يا أبي».

«حفظك الله، يا حبيبي. احرص على هذه الساعة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

# - 3 -

صاح المصوّر مُخرِجًا رأسه من تحت ستارة آلة التصوير السوداء: «أين والدة العروس؟»، جرت امرأة عبر المرج. كانت الريح تدفع بفستانها بين ساقيها. أفسحت المجموعة الواقفة أمام المصوّر مكانًا لها في الصّف الأول فلمع ضوء الفلاش مع صوت فرقعة مرتفع، ثم أخرج المصور رأسه من جديد لكي يستبدل شريحة التصوير.

قال رجل ضخم الجسم مرتديًا صدارًا عاجي اللون: «مرحبًا مسيو كمال، اسمي سيلفان لوكلير».

كان شاربا سيلفان لوكلير يهتزّان عندما يتكلّم. ردَّ مدحت على تحيّته، فنظر إليه سيلفان نظرة طويلة من غير تعبير. نزع قبعته وأزاح شعره الكث إلى الأعلى فانسدل خلف رأسه.

قال مدحت: «أنت من أقارب العروس، أم من أقارب العريس؟».

لم يتغيّر تعبير وجه لوكلير. التفت إلى الدكتور مولينو. قال له: «فريديريك، تعال. أريد أن أكلمك».

تحرّك الرجلان مبتعدَيْن معًا، فتساءل مدحت في نفسه إن قال للرجل شيئًا في غير محلّه.

«مسيو كمال، هل أنت مستمتع بالحفلة؟».

كانت جانيت واقفة إلى جانبه، ترتدي فستانًا أزرق وقفازَين أبيضين مخرَّمَيْن.

قالت له: «سوف أخبرك عن الموجودين هنا كلّهم. نهار سعيد يا باتريس. تلك... صاحبة القبّعة الكبيرة، هي مدام كروتو. مات زوجها السنة الماضية بالتهاب السحايا. من الممكن أن تكون مزعجة بعض الشيء. لا تقل إنني لم أحذّرك! وذلك الشخص الذي ألقيتُ التحية عليه هو باتريس نولان. لقد كان أستاذًا في كلّية الطبّ، لكنه تقاعد، للأسف. ألّف في السنة الماضية كتابًا عن الحياة الاجتماعية عند الحيوانات. وقد كان مقيمًا في الكونغو حتى بداية الحرب. لديه ابنتان، كارول وماري تيريز... هاتان هما. ماري تيريز هي ذات الفستان البرتقالي. يا ربي... أليس فستانًا فظيعًا؟».

كان فستان ماري تيريز أمْيَل إلى اللون الأحمر منه إلى البرتقالي... هذا ما قاله مدحت لنفسه معجبًا ببريق الساتان. لكنه أومأ برأسه موافقًا. كان أمرًا غير معتادٍ أن تهتمّ به جانيت هذا الاهتمام. فمنذ وصوله، قبل أسبوع من هذا اليوم، كانت تبتسم

له أكثر الأحيان، لكن من بعيدٍ فقط. ولم تدخل معه في أحاديث. إلا أن والدها ظل يمطره بأسئلة غزيرة كلّما سنحت له فرصة لذلك. وكان أكثر أسئلته وقت الإفطار. أحيانًا، كانت جانيت تشاركهما الحديث - في ذلك الصباح نفسه، على سبيل المثال، بدا عليها أنها مستمتعة بأن تشرح له الاختلافات بين ثلاث كلمات «*Très*»، «*Trop*»، «*Tellement*»»؛ وقد اكتشفا أن الكلمتين الأخيرتين ليس لهما مقابلان مباشران في اللغة العربية. لكنها كانت، أكثر الأحيان، تترك الطاولة قبل انتهاء حديثه مع أبيها وتختفي في ركنٍ بعيدٍ من البيت فلا يراها مدحت مرة أخرى حتى عودته من الكلية وقت المساء.

...«الرجل الذي يتحدّث مع كارول هو كارل باج؛ ويعمل في مصرف. أمه صديقة ساره بيرنهاردت. وفي الآونة الأخيرة، استدعوا ابنه للالتحاق بمعركة أوبريه. وذلك الرجل صاحب ربطة العنق الحمراء هو ابن عمي كزافييه، شقيق ماريان. إنه يدرس القانون. وذلك لوران الذي يدرس في كلية الطب، سوف أعرّفك إليه. كان لوران رجلًا أشقر طويل القامة؛ وكان منحنيًا قليلًا يحدِّث رجلًا قصيرًا على رأسه قبعة مثل قبعات البولو. لكن جانيت لم تأتِ بأية حركة لتقيم تعارفًا بينهما. تابعت كلامها: «الواقف معه هو لوك ديمون، إنه أكبر مالكي الكروم ومَعاصر النبيذ في المنطقة».

«وهل هؤلاء كلّهم من أصدقاء العروس؟».

«أجل، من ذكرت لك أسماءهم. لا أعرف أقارب العريس وأصدقاءه. فأكثرهم من نيس».

في تلك الأثناء، كان الدكتور مولينو يتحدّث مع باتريس نولان بالقرب من مدخل خيمة العشاء. كان في مظهر نولان شيء نسائيٌّ. عيناه متباعدتان قليلًا، ووجنتاه حمراوان أكثر من العادة. كان وجه مولينو ناطقًا بالحماسة والإثارة. هكذا بدا لمدحت وقت الإفطار عندما راح يقفز متحمّسًا كلما صادف عبارة غير قابلة للترجمة.

رفع خادم واقف عند الخيمة يده مشيرًا إلى الضيوف الذين بدأوا يتحرّكون في اتجاه الخيمة. كان اسم مدحت مكتوبًا على اللوحة إلى جانب اسم جانيت، لكنهم كتبوه «مسيو ميتهت كيمال». أخذا شرائح دجاج في صلصة بنية اللون من وعاء على طاولة في الخلف، ثم جلسا في مكانيهما، فكان سيلفان لوكلير جالسًا قبالتهما، إلى جانب لوك ديمون.

قال سيلفان لوكلير: «التركي الشاب».

قالت جانيت: «في الواقع، يفضل مسيو مدحت أن يدعو نفسه عربيًا فلسطينيًا».

التفت مدحت إليها. تحرّك شيء في صدره.

قال سيلفان وهو يسحب كرسيه قليلًا إلى الخلف: «إذًا، يا مسيو العربي... ما الذي أتى بك إلى مونبلييه؟».

قال مدحت: «الطب. إنني أدرس الطب في الجامعة».
غمز له سيلفان لوكلير بعينه من غير أن يتحرّك شيء في بقية وجهه: «حتى أتفادى الالتحاق بالحرب! هذا صديقي ديمون. لوك، هذا عربي شاب مقيم في بيت مولينو. اسمه مسيو مد... مد ماذا؟ إنه هنا حتى لا يذهب إلى الحرب».
قالت جانيت: «سيلفان...».
«هذا مزاح. إن لدى ديمون كروم عنب، أكبر كروم في المنطقة، ولديه أجود أنواع النبيذ».
«مرحبًا، كيف حالك؟ سيلفان متواضع جدًّا، فلديه كروم ونبيذ ممتاز أيضًا. لكننا عانينا جميعًا نتيجة آفة زراعية أصابت كرومنا. كان ذلك شيئًا فظيعًا».
«عانى بعضنا أكثر من غيره. هل سمعت بهذا يا مسيو كمال. إنها آفة تهاجم النباتات. آفة صغيرة جدًّا، جدًّا...». ضغط سيلفان سبابته على إبهامه... «اسمها فيلوكثيرا فاستاكريس. حشرة صغيرة. لقد دمّرت هذه الملعونة كرمي كله. ظهرت كُرات صغيرة على أوراق دوالي العنب. هذا نبيذ كليريت لانغليدوك، ألست راغبًا في تذوّقه، يا مسيو مدحت؟».
«لا، شكرًا» ثم استدرك: «بل نعم، سأشرب قليلًا. أشكرك».
قال لوك ديمون: «كيف تعرّفت على آل مولينو؟».
«اتصل أبي بالجامعة، فتلطّف الدكتور مولينو وعرض استضافتي عنده».
قال سيلفان: «هذه روح التضحية! أخبرنا شيئًا. نحب أن نعرف كل شيء عن أسلوب حياتكم».
لم يعرف مدحت إن كان سيلفان يسخر منه. «عفوا؟».
قالت جانيت: «مدحت، أريد أن تتعرّف على المسيو لوران توبان».
ارتدّت جانيت إلى الخلف في كرسيها حتى يرى مدحت الرجل الأشقر الطويل الجالس إلى جانبها من الناحية الأخرى.
«كيف حالك؟».
قال مدحت: «يسرني لقاؤك». أدار رأسه في اتجاه الرجل فصافحت وجهه نسمة هواء طريّة آتية من فرجة في جدار الخيمة. انتبه إلى أن وجهه متعرّق كلّه.
قال لوران: «إنه يتكلّم الفرنسية جيّدًا».
قالت جانيت: «بالفعل. اعذروني يا سادة».
احتل لوران كرسي جانيت بعد نهوضها. كان كماه مرفوعين إلى ما تحت المرفقين؛ وكانت ذراعه مكسوة بشعر أشقر خشن.
«هل تعرف؟ أظنني رأيتك في الكلية... من السهل كثيرًا أن يميّزك المرء. أنا في

السنة الرابعة. لكني أظنك بدأت الآن. كيف وجدت الأمر... الدروس؟ السنة الأولى مملّة قليلًا. أتذكّر هذا. عليك أن تدرس الأشياء الأساسية كلّها، في العلوم. لكن، هل بدأت الذهاب إلى العيادات؟». مكتبة سُر مَن قرأ

قال مدحت: «ليس بعد...». استنشق نفسًا عميقًا. كان لديه إحساس حادٌّ بوجود سيلفان لوكلير الجالس إلى الجهة الأخرى من الطاولة، يرتشف نبيذه... «سنذهب في الأسبوع القادم، على ما أظن».

«وهل أنت مستمتع بدراسة الطب؟ أنا أحب الطب. أحبّه حقًّا. وأحبّ الكلية. هذا أفضل اختصاص في العالم. نحن واقفون في القمة، عند الحافة، نشقّ الطريق في المجهول. يقولون إنك تستطيع النظر هناك، إلى المجهول، أو النظر إليه هنا. يخاف الناس من المجهول. هذا هو السبب. لكن... هل من المألوف أن يأتي رجال من منطقتك لدراسة الطب في فرنسا؟ أظن أن التقاليد لا بد أن تكون مختلفة. أعني... لم يمضِ أكثر من قرنين منذ أن كانوا يستخدمون كتاب ابن سينا في الكلية. لكني أظن أن المسارَيْن تباعدا منذ ذلك الوقت».

أحسَّ مدحت بأن ذكر ابن سينا كان مصطنَعًا. أدرك أن لوران يحاول إثارة إعجابه. فشعر بميلٍ فوريٍّ إليه.

قال: «لَدينا جامعة في القاهرة. وهي جامعة جيّدة. هناك جامعة أخرى في بيروت. لكن الناس في سورية يزدادون ميلًا إلى الدراسة في أوروبا، في إنكلترا وفرنسا وألمانيا. يحدث الأمر نفسه في الاتجاه الآخر. لكنهم لا يأتون من أجل الجامعة، بالطبع. لدينا جامعات جيّدة... لكنها ليست أفضل الجامعات. الجامعات الأفضل موجودة في أوروبا، والجميع يعرف هذا. لكنهم يستخدمون الأسلوب الفرنسي أيضًا، في سورية ومصر».

«شيء مثير. تسرّني معرفتك كثيرًا. قالت لي جانيت إنك مسلم. كان لدينا رجل شرقي تخرج من الكلية عندما كنتُ في السنة الأولى، لكني أظنّ أنه كان مسيحيًّا. على أية حال، الشرقيون ليسوا كثرًا هنا، لكني واثق من أن ذلك الشخص كان طبيبًا جيّدًا».

تقدّم منه مولينو وسأله: «مدحت، كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل تسير أمورك سيرًا حسنًا؟».

«أجل، شكرًا يا دكتور».

«كفّ الآن عن مخاطبتي بكلمة دكتور، يا مدحت. اسمي فريديريك. أرى أنك صرت تعرف لوران. تسرّني رؤيتك يا لوران. لكن شعرك طويل جدًا».

«سوف يقصّه الجيش عمّا قريب».

«آه، أوف! باتريس، باتريس. تعالَ سلّم على مدحت كمال. هنا».

«يسرّني لقاؤك».

«صار باتريس الآن زميلي. إننا في الاختصاص نفسه. كان اهتمامه منصبًّا على الجسد البشري، لكنه منصب الآن على الجسد الاجتماعي».

«فريديريك... إنه كتاب واحد؛ كتاب واحد فقط».

«هل يعني هذا أنك غير عائد إلى الجامعة أبدًا؟».

«كما قلت لك. المشكلة عندي، هي عندما تبدأ الحرب ينتهي الأمر على الفور. أو بسرعة كبيرة إن لم يكن على الفور. لا يبقى هناك تفكير حرٌّ، ولا... تبادلٌ حرٌّ».

«آه... صحيح؛ أعرف ما تعنيه».

كانت جانيت قد عادت ووقفت إلى جانبهم. قالت مخاطبة العروس إلى الناحية الأخرى من الطاولة: «ماريان! لم أرك منذ كنا في الكنيسة. ما أجملك! أين بول؟».

«أوه، يا جوجو... إنني مرهقة. أوف... عليّ أن أذهب».

قال لوران: «متى يذهب إلى الفلاندر؟».

«بعد عودتهم من نيس، على ما أظن».

«وأنت، ألن تذهب يا لوران؟».

«أنا معفى لفترة من الزمن... لأنني تطوّعت. لكنه ليس إعفاء لمدة طويلة».

«أوه، هيا، عليك أن تنضمّ إلينا! عليك أن تتطوّع من جديد. لا تكن فأرًا!».

«إن كزافييه ذاهب».

«متى؟».

«مع الآخرين. بعد أسبوعين».

«وسوف تعتني السيدات بكم».

«هل سمعت عن الحاكمة الألمانية في آلبرتس؟».

«حاكمة؟ لا. لا أعرف إلا تلك القصة عن المصرف. ماما... مام...».

بدأ الضيوف من حولهم ينهضون فعَلَت أصوات قوائم الكراسي المنسحبة على الأرض. ظهرت أربعة أهرامات في آخر الخيمة. سار مدحت خلف جانيت بين الطاولات. رأى أن تلك الأهرامات كانت مبنية من كعكات مدوّرة صغيرة.

«مدحت، اسمح لي أن أقدّم لك واحدة من هذه الكعكات».

«بونجور، أنا السيدة كروتو».

«بونجور مدام. أنا مدحت كمال».

«أعرف. كيف وجدت مونبلييه؟ أليست جميلة. هل أخذك فريديريك إلى بالافاس لو فلو؟».

قال فريديريك: «ولماذا آخذه إلى البحر؟ تخيّلي، أنك تسافرين إلى بلد جديد

تمامًا، فيقولون لك... دعينا نريك الماء الذي جئت مبحرة فيه! لا، يا نيكول. عليه أن يرى الثقافة، المدينة، الطبيعة في الداخل. عليه أن يسمع الموسيقى، وأن يقرأ شعر التروبيريتز... هذا هو الشيء المهم... روائح البيئة الزراعية في منطقة أوستان...».

«لا يمكن إلا لباريسي أن يكون معتزًّا بلانغيدوك إلى هذا الحدّ».

رفع فريديريك حاجبه: «كانت أمي من دوردونْيو».

قال لوران، وكان السكَّر يتساقط من كعكته على الأرض: «عليك أن تأتي في نزهة معي، يا مدحت. سوف أريك الحدائق. هل اتّفقنا؟».

«اتّفقنا. سيكون هذا رائعًا».

«ممتاز. نلتقي في سال دو غيّو عند غروب الشمس».

اتفقا على اللقاء يوم الخميس، إن كان الطقس مناسبًا. جاء الخميس، فكان ماطرًا. قرّرا اللقاء يوم الجمعة. كان مقرّرًا للدرس الصباحي يوم الجمعة أن يكون مدخلًا إلى التشريح العملي لطلبة السنة الأولى. سوف يلتقي مدحت ولوران بعد الدرس، وقت الظهر، عند تمثال لابيروني.

كان عدد الطلبة في سال دو غيّو يتناقص مع مرور كل أسبوع. ولم يبق الآن إلا حفنة من الطلاب الفرنسيين المعفيّين من الالتحاق بالمعارك لأسباب صحيّة صرَّح بعضهم بها، في حين ظل البعض الآخر ساكتًا عنها.

على الرغم من هذا، فقد كانوا جميعًا حريصين على إظهار حماستهم، فراحوا يستخدمون التعابير العامّية الشائعة في الجبهة ويشيرون إلى الألمان بكلمة «بوش»، ويسخرون من ضعف الجينات البروسية. كان عدد غير قليل من الأساتذة الشباب قد انضمَّ إلى الجيش أيضًا؛ وكانت أسماء كثيرة في جدول الدروس لدى مدحت غير مطابقة للأشخاص الذين يأتون لإعطاء الدروس. أكثر الطلبة الباقين في صفه كانوا من الإسبان والبلجيك، فضلًا عن سويسريَّين اثنين، وإنكليزي واحد. كان مدحت العربي الوحيد، بل الطالب الوحيد من خارج أوروبا. أحس بالرهبة في ذلك الجو الصباحي في القاعة. راح يرقب -بعيدًا عن الأحاديث الجارية بين الطلبة- كيف يمكن لأحدهم أن يروي قصّة على أنها طرفة، بل يبدأ أيضًا بالتلميح إلى النكتة التي ستكون في آخرها: يترقّب من يستمعون إليه لحظة النهاية، ثم يضحكون معًا. فبمجرّد اتخاذ نبرة صوت فكاهية، يمكن لأي شيء أن يكون مسليًا، أو مضحكًا. ويصير الجميع على استعداد للضحك حتى إن كانت النكتة ساذجة... روح مرحة تشمل الجميع.

كان نطقه يتحسّن على الرغم من خجله. نطق «الجذع» و«الأوعية الدموية» بدقّة شخص أجنبي. اشترى من شارع لا لوج قبعة فرنسية جديدة، ومعطفًا؛ وجلبهما معه

إلى الكلية يوم الجمعة الذي سيلتقي فيه لوران، على الرغم من أن نزهتهما كانت معتمدة على أن يكون الطقس جيّدًا.

كان الأستاذ بروغانتي واقفًا عند رأس طاولة العمليات.

«ليس الطب من العلوم المضبوطة». قالها بصوت منغّم وهو يمدّ يده فوق صينية أدوات التشريح ويقلب أحد المشارط بحيث يصير حده متجهًا في اتجاه بقية المشارط.

كانت جدران قاعة التشريح تحمل صوت بروغانتي بعيدًا فوق مقاعد المدرج، فصارت عباراته قوية كالهدير في آذان الطلبة المجتمعين قريبًا من الجثة التي غطيت بملاءة بيضاء ناتئة قليلًا عند القدمين والركبتين.

«لكن حقيقة أن المعلومات الطبية معقّدة كثيرًا، وأنها تتعامل عادة مع احتمالات، لا مع أشياء مؤكّدة، لا أثر لها على الطبيعة العلمية للطب...». امتدت يد بروغانتي إلى طرف الملاءة المتدلّي... «لكنها سبب وجيه يحمل على توخّي مزيد من الحذر العلمي».

اقترب الطلبة لرؤية المشهد.

«عندما أكون طبيبًا، تكون كل فكرة أتوصّل إليها اقتراحًا أو فرضية. أبحث عن مؤشّرات أخرى لتأكيد تشخيصي، أو أجرب إجراءً ما لكي تقرّر نتيجته إن كنت قد قرأت الحالة قراءة صائبة».

ظهر من تحت الملاءة رأس أسود الشعر تألّق بلون أزرق في الضياء الآتي من النوافذ المرتفعة. ظهر وجه شمعيّ لرجل حليق، ثم ظهر جذعه. طوى بروغانتي الملاءة عند الساقين، وقبضت أصابعه على مشرط قرّبه من الرقبة الرمادية.

«حتى نكشف التجويفين الصدري والبطني، سوف نبدأ الشق الأول من عظم القص...».

تمدّد صوت الأستاذ بروغانتي حتى بدا أنه من غير حدود، وما عاد مدحت قادرًا على سماع كل كلمة. رأى نصل المشرط يخترق جلد الرقبة، ورأى طبقة الجلد العليا تنشقّ سريعًا كأنها كانت مربوطة ثم انفك رباطها. اكتمل الشق الطويل الأول، ثم أحدث بروغانتي شقًا عرضيًا ثانيًا. وبعدها، قلب حوافّ الجلد إلى الخلف، حافّة بعد أخرى... أربع حوافّ جافّة. وفي الداخل، كانت هناك مجموعة أعضاء غير بشريّة: أحمر متألّق، وأرجواني، وأصفر. كانت مثيرةً للغثيان. نظر مدحت إلى الأربطة التي لا دم عليها من حول المعدة، ثم انهار. ظهرت له بقع سوداء لم تلبث أن تزاحمت فحجبت الجثة عن نظره.

استعاد وعيه، فوجد نفسه يجلس وحيدًا في مقعد في الصف الأول من المدرج. رأى ظهور بقية الطلبة أمامه، وسمع صوت بروغانتي مستمرًا، لكنه أكثر بعدًا:

«تقع المرارة في أقصى يمين منطقة المعدة. ويقع المصران الأعور على يمين

التجويف الحرقفي، ألا ترون؟ ها هو القولون الصاعد. هل يستطيع أحد منكم إخباري باسم هذه المنطقة؟ مسيو هافونتور؟».

لم يكن مدحت قادرًا على رؤية الجثة بسبب الطلبة الواقفين أمامه. استدار واحد منهم. إنه ساموئيل كوغولاتي، البلجيكي. تلفّت كوغولاتي من حوله ليرى إن كان أحد ينظر إليه، ثم انحنى وجلس مقرفصًا إلى جانب مقعد مدحت.

«هل أنت بخير؟».

«ماذا حدث؟ لقد غبت عن الوعي، أليس كذلك؟».

أطلق كوغولاتي ضحكة صغيرة: «أجل. لا بأس، فقد أمسكت بك ولم أتركك تسقط على الأرض...». هزّ رأسه إلى أعلى وأسفل بحركة سريعة مؤكّدًا على ما قاله... «ينبغي أن أعود، لكن... هل أنت بخير؟».

«بخير، بخير. عد أنت. سوف أظلّ هنا لحظة. شكرًا يا صامويل».

«لا حاجة إلى الشكر».

على الرغم من الفطيرة الحلوة التي جلبها له كوغولاتي من صالة الطعام، كانت ساقا مدحت لا تزالان مرتعشتين عندما التقى لوران ظهرًا عند التمثال. كان ممتنًا لوجود مظلّته لأنه يستطيع الاعتماد عليها في السَّير.

قال لوران وهما سائران في الشارع: «إذا نظرنا إلى الأمر من ناحية فلسفية، فإن ردة فعلك كانت طبيعية تمامًا. أتذكّر حضوري أول جلسة تشريح عملية. لم تكن... لم تكن تجربة سارّة».

«شكرًا. لكني لا أزال غير قادر على منع نفسي من الإحساس بالخجل مما حدث».

«ستكتشف أن الأمر يصير أقل فظاعة عندما تنظر إلى أجساد حيّة. للأسف، لا بد لهم من البدء بالموتى لأن الأعضاء تظهر أكثر وضوحًا. أظن أن في مظهر الموتى غرابة مخيفة. لكن ما ينبغي على المرء إدراكه، وما ينبغي أن نستوعبه ونقبل به -أعني، باعتبارنا طلاب طب- هو أن الموت جزء من الحياة لا يمكن فصله عنها. ومع تقدّمنا العلمي، نحن البشر، علينا تجاوز تلك المحرّمات الاجتماعية التي تضع الموت في مجال مختلف. ما أريد قوله هو أن عليك ألا تترك هذا الأمر يقلقك».

استنشق مدحت نفسًا عميقًا وحاول إرغام نفسه على ألا يتنهد: «لكني لا أزال... أشعر...».

قال لوران: «طبيعة البشر...». رفع رأسه ناظرًا إلى السماء، مضيّقًا عينيه في وجه الشمس... «معنى المرض... لا نكون أبدًا بعيدين عن الموت، في الحياة. بل يمكن القول إننا موجودون في حالة موت دائمة، مثل شعلة من لهب، غير مستقرة، في حالة اضمحلال دائم. فما هو المرض إذًا؟ المرض جزء من الحياة. نتكلّم على الحياة

باعتبارها تجددًا، لكنها اضمحلال في حقيقة الأمر. أحيانًا، تكون الحياة صراعًا ضد الاضمحلال، لكنها تظلّ اضمحلالًا».

كان لوران يتكلّم، في حين تذكّر مدحت جولتهم في اليوم الأول في الفصل الدراسي عندما دخل مع بقية الطلبة الجدد صالة ضخمة لها سقف يبدو للعين مرتفعًا أكثر من حقيقته. كانت خزائن صغيرة ممتدّة على طول الممر الأول، فشهق الجميع عندما نظروا إليها.

أجنّة مشوّهة ملتصقة بجدران الأوعية الزجاجية، وجماجم بشر وحيوانات معلّقة بمسامير في الجدار؛ جماجم عليها بطاقات تحمل أسماء أمراض مختلفة صُفّت في وضعيات غريبة. وفي خزانة ذات سقف زجاجي، رأوا رأسًا محنّطًا، مُسودًّا بفعل المواد الكيميائية. كان الدماغ نصف مكشوف. ثم تتالت الخزائن: أدمغة أخرى، مغلّفة، عليها بطاقات؛ وأجساد معروضة، سوداء مثل تلك الرأس. لعلها محترقة! الرسوم البيانية على الجدران، واللوحات، كلّها تصوّر زوائد وناميات ونماذج من تشوّهات مختلفة، ومراحل تطوّر أمراض تناسلية. لوحات تقارن بين شذوذ وآخر، بين عدوى وأخرى، أو بين حالات من الضمور والشلل والجذام. جنين ذو رأسين له لُمّتا شعر من فوق أربع عيون.

توقّف لوران. فوق بوابة عالية ذات لون أخضر خفيف، كانت هناك لافتة مزيّنة بتلافيف زخرفية معدنيّة كتب عليها: *جامعة مونبلييه، حديقة النباتات، أسسها هنري الرابع في* سنة 1593. احتكّ أسفل البوابة بحصى الأرضية عندما فتحاها. امتد أمامها ممر يؤدّي إلى منطقة منخفضة بعض الشيء يتفرّع منها ممران اثنان: ممر إلى اليمين على امتداد سياج طويل، وممر إلى اليسار بمحاذاة جدار حجري في آخره جُرن. سارا في الممر الذي من ناحية السياج. وبعد ذلك الممر، امتدّت دروب بيضاء عبر المروج الخضراء، وكان هناك بناء حجري مرتفع محاط بأشجار السرو.

قال لوران: «هذه الحديقة واحدة من أقدم الحدائق النباتية في أوروبا. لقد أقامها الملك من أجل عالِم شهير اسمه بيليفال. أضافوا إليها في القرن الماضي أقسامًا جديدة؛ لكني لا أتذكّر الآن أية أقسام هي».

حمل الهواء رائحة خصبة. أوراق بيضاء بلون الدخان سقطت من الأشجار في الأعلى كانت متجمّعة أكوامًا عند التقاء الممر بالعشب. وكانت أعمدة الضوء النازلة عبر الغصون تنثر ظلالًا على الأرض. سرعان ما فقد مدحت إحساسه بالاتجاهات. عبرا أجمة من قصب البامبو، ثم بركة فيها زنابق ماء عملاقة تسبح في ضوء الشمس، وأحواض زهور هندسية الأشكال من حولها أجمات صغيرة. ظلّلا عيونهما بأيديهما عندما نظرا عبر نوافذ البيت الزجاجي، وشاهدا نباتات تحت الماء تمد أذرعًا خضراء كبيرة منبثقة من مضاجعها.

قال مدحت: «ماذا كنت تقول؟... عن الموت، والحياة؟».

«أوه، لست أدري. إنني أثرثر دائمًا مثل القساوسة. هذا ما يقوله أبي. كلام كثير، وفعل قليل... هكذا يقول».

«لقد أثار اهتمامي أن يكون...».

«هل تعني ما قلته عن طبيعة الحياة؟ شيء يثير الاهتمام فعلًا. فمن أين بدأت الحياة؟».

ضحك مدحت. حلّت بقعة ضوء محل ظلّ لوران على الزجاج: «لقد ابتعد عن البيت الزجاجي ووقف قبالة الشجيرات.

قال مدحت: «من الربّ، بالطبع».

«نعم... لكن المشكلة الآن -هكذا يبدو لي- هي أن معارفنا بدأت تصير كثيرة جدًا، لا يستطيع دماغ واحد أن يستوعبها. في ما مضى كنا قادرين على ذلك... إلى هذا الحدِّ أو ذاك... أعني أننا كنا قادرين على استيعاب معارفنا البشرية كلّها. وأما الآن، من الناحية العملية، فنحن أشبه بأدمغة تعوم في بحر المعرفة...». مسَّ لوران نبتة سرخس فانتفض العود تحت إصبعه... «هذه ليست الصورة التي أردت استحضارها».

«هل خلق الربّ الكون، أم إنهما وُجدا معًا؟».

«تمامًا. يجب أن تتحدّث مع جانيت. لقد درَسَت الفلسفة».

قال مدحت: «القياس المنطقي للحياة أمر مستحيل. لا نستطيع تتبّع مسار السبب والنتيجة الذي لا نهاية له».

«بالمناسبة، كيف وجدتها؟».

«هذا لأننا إذا حاولنا العودة خلفًا، إلى والد والد الوالد، وهكذا دواليك، فإن هذا أشبه بمحاولة الوصول إلى الرب، في الأعلى، كأننا نبني برجًا. عفوًا، ماذا قلت؟».

«سألتك عن جانيت. كيف وجدت سكنك معها في بيت واحد؟».

صمت مدحت لحظة، ثم قال: «لم تجرِ بيننا أحاديث كثيرة». فعل ما فعله لوران، ومس نبتة السرخس بإصبعه... «إنها تعجبني».

«نعم. لا بد أن الأمر يبدو لك غريبًا بعض الشيء... تعاملنا مع النساء هنا».

«نعم، من بعض النواحي. هناك قدر أكبر من الحرية. ما هذا الممر؟».

«مرج آخر. الق نظرة عليه».

عادا إلى الدرب. تحت ضياء الشمس، كان الحرَج الذي أصابه في الصباح قد بدأ يزول عنه، وساعدته المظلة في ضبط إيقاع خطواته. أفكار صغيرة كانت تظهر في ذهنه، باللغة الفرنسية. أراد أن يكون صادقًا فعبّر عن تلك الأفكار وراح يصف المشهد من حولهما: جمال اللمسة البشرية على لحاء شجرة أعمى عليه بطاقة تذكر نوع الشجرة

وعمرها... ذلك اللحاء الذي يواصل امتداده، بحسب طبيعته، طولًا وعرضًا، وتظهر عليه عقد ونتوءات خشنة.

«هذا لا يشبه أي شيء رأيته من قبل، مع إنني أعرف كثيرًا من هذه النباتات. أشعر أحيانًا بالتعب من النظر إلى الأشياء الجديدة؛ لكنّ النظر إليها يجعلني في أحيان أخرى أحسّ كأنني... أكثر يقظة! لكن، انظر... ها هي شجرة زيتون. إنها موجودة في كل مكان في بلادي. لكني أراها الآن فأحسّ بفرحة غريبة لأنني وجدتها هنا... في هذا المكان الذي هو غريب عني كثيرًا».

«يسرّني أن الحديقة أعجبتك إلى هذا الحد».

صحيح أن نبرة صوت صديقه الجديد لم تكن خالية من اللطف، لكن فتورًا أصاب حماسة مدحت. أمر طبيعي... يكون التعبير عن أية مشاعر عميقة أمرًا صعبًا، فما بالك إن كان ذلك بلغة أخرى.

قال لوران: «أتمنّى أن أرتحل في أوروبا كلّها. مثلك. على ما أظن. كان لدى جدي دفتر مذكّرات عن رِحلاته إلى اليونان وروما. قد أسافر عندما أذهب إلى الحرب... هذا إذا أرسلوني إلى ما هو أبعد من بيكاردي».

قال مدحت: «العالم يتمدّد. أو... لعلّ الكلمة ليست 'يتمدّد'...».

«هل تعني 'يتطوّر'؟».

«لا. أعني، القطارات مثلًا. القطارات موجودة في العالم كله... إنهم يبيعون هنا، في مونبلييه، برتقالًا من يافا. لقد رأيته».

ضحك لوران: «آه، يا مدحت كمال... أنت حالة خاصّة».

إلى جانب الدرب، جلست أربع شابات في ظل شجرة بلوط. راح مدحت ينظر إلى واحدة منهن تقضم إجاصة. جعله ضحك لوران يحسّ بوخزة تمنى معها لو أنه لم يقل شيئًا.

في السنة الأخيرة من دراسته في «مكتبي سلطاني»، صار الانقسام بين الصبية الأتراك وبقية الطلبة واضحًا مثل شقٍّ انفتح في الأرض فجأة. عاد مع جميل من نابلس بعد شهر رمضان، فوجدا أن شبكة تحالفات قد ارتسمت في غيابهما. أحيانًا، يكون العرب والأرمن معًا، لكنهم يتباعدون في أحيانٍ أخرى. كان اليهود واليونانيون يتصرّفون كذلك أيضًا. لقد استمع الفتية إلى ما قاله لهم أهلهم في العطلة، وانتبهوا إلى ما تقوله الصحف، وما يفعله المعلمون، فأدخلوا التيارات الموجودة في الخارج إلى ممرات المدرسة. وكان مفاجئًا أن ذلك لم يلقَ مقاومة. مدحت وابن عمه كان يبحث كل منهما عن الآخر بعد انتهاء الدروس لخشيتهما وتوجّسهما من تلك اللعبة التي كانا مرغمين على خوضها، على الرغم من أن قواعدها ليست واضحة دائمًا. لا تعرف أبدًا متى يمكن

أن ينقلب أحدهم عليك، ولا تعرف إن كان امتناعك عن إلقاء نظرة غاضبة، أو الامتناع عن الهمس بشيء خفية، يمكن أن يعرّضك لخطر اتهامك بعدم الولاء لجماعتك... بل يمكن أيضًا أن يعاقبك واحد منهم بليّ ذراعك. لقد عاش مدحت ضغوطًا كان واثقًا من أن لوران لم يعشها. أحسّ في نفسه شيئًا كأنه تَوْق إلى إثبات أن حماسته ليست علامة على سذاجته.

قال لوران: «هل تعرف الاختصاص الذي ستختاره؟ سوف أختار الطب النفسي».

توقّفا عند شيء بدا كأنه بقايا أثرية... مجموعة قناطر من غير سقف تزينها ورود حمراء.

قال مدحت: «الطبّ النفسي! هذا لا علاقة له بالجسد».

«صحيح. لكني مهتم به. وإذا أردت أن تعرف، فقد بدأ اهتمامي به بسبب امرأة».

لم يكن مدحت قادرًا على استعادة الطاقة التي كانت لديه قبل لحظات فقط. ظل صامتًا. لكن لوران سار مبتعدًا عن القناطر، فما كان من مدحت إلا أن قال: «كانت لديَّ عشيقة في القسطنطينية».

التفت إليه لوران. تابع مدحت كلامه كمن يقول شيئًا عاديًا: «لم تكن تتكلّم العربية، ولا التركية. استأجرت غرفة في حي إتيلار، من أجل خلواتنا».

أحس بيد لوران على ذراعه. قال له: «لقد فاجأتني...». ضحك من جديد... «وحيّرتني قليلًا أيضًا».

«كان اسمها ماري».

«من أين هي؟».

«من السويد».

«برافو».

كان لوران قد عاد بهما إلى حيث بدأا: البوابة المعدنية أمامهما، لكن حروف الكتابة بدت الآن مقلوبة. أحسّ مدحت بالحيرة، بل حتى بشيء من الخطر. من الواضح أن ما من صعوبة أبدًا في أن يختلق المرء شيئًا... أمر سهل، مثل ارتداء معطف وقبعة جديدين!

كان الماء في بركة الحديقة ضحلًا فلم يكد يغمر ركبتَي جانيت اللتين ظلتا بارزتين على سطحه كأنهما جزيرتان ورديتان. كانت النافورة متوقّفة عن العمل؛ وكان الإبريق الذي على هيئة تمثال ملاك مجنّح أبيض فارغًا من الماء. أشارت علامة بيضاء على مدار حافة البركة الحجرية إلى مستوى الماء في الصيف الماضي. سمعت جانيت صوت الريح في الأشجار قبل أن تبلغها؛ وبعد لحظة من ذلك، تحبحب جلد ساقيها المغمورتين بالماء.

ظهر رأس من نافذة في أعلى البيت. إنه رأس جورجين في غرفة مدحت. لقد أمضت جانيت فترة الصباح في الغرفة المجاورة ـ غرفة مكتب أبيها ـ ترتّب ملء علبة من الصور وتضعها في ألبومين جلديين. كانت في العلبة صور أمها في شبابها. لم تر جانيت بعض تلك الصور قبل ذلك أبدًا. مر وقت طويل لم تكن فيه تفكّر في أمها كثيرًا، فكان النظر إلى تلك الصور صعبًا عليها. لكنها نظرت، وظلت ساعات تبحث بحثًا نهمًا عما يشبهها في صور أمها. استمر ذلك إلى أن نادتها جورجين وقت الغداء. ثم قرّرت أن تجلس في بركة الحديقة لكي تتأمل وتخلو إلى نفسها.

كانت جانيت أشبه بأبيها في طفولتها، وظن الجميع أنها ستكبر وتصير مثله. لقد كانت شديدة النشاط مثل فريديريك: تتكلّم سريعًا، وتحب الدراما. لكنها تغيّرت مع مرور السنين، وصارت الآن تكره قفزات عقلها، بل صارت تتعمّد البحث عما هو مضجر حتى تتفادى تلك القفزات. كان أبوها يحب أن يسميها: أبو الهول.

عندما تتذكّر طفولتها، تتذكّر غرفتها في مونبارناس. تفكّر في ورق الجدران الوردي والأبيض، وفي التلافيف الذهبية المطبوعة عليه، تلك التلافيف المنتهية بأزهار صغيرة كانت تحب اقتلاعها سرًّا بالقرب من اللوح الخشبي الذي يغلف أسفل الجدار خلف الكراسي. كانت تحفر تلك الزهور بظفرها وتفتت الجص الهش من تحتها. وعلى طوار نافذتها، كان لديها صف من دمى في ملابس جميلة ملوّنة. كانت لتلك الدمى أيدٍ باردة ووجوه خزفية بيضاء، وشعر حقيقي. لكن جانيت لم تمسّها إلا نادرًا. كانت لعبتها المفضّلة مجموعة أوراق لعبة التاروت، وأمضت أمسيات كاملة جالسة على الأرض ترتب تلك الأوراق وتعيد ترتيبها لترى إن كانت توافق ما أضمرته من «حظ» في نفسها. وكانت رفيقاتها في المدرسة تشعرن بالغيرة من أفيالها العاجية الصغيرة، وعلبها

الموسيقية، والسفينة المعدنية وطاقمها ذي الألوان الكثيرة. تأتي البنات لكي تلعبن عندها، وتكنَّ راغبات في تحريك أفراد طاقم السفينة وجعلهم يرفعون أيديهم كأنهم يعملون؛ فتجلس جانيت صابرة أول الأمر وتتركهنّ يفعلن ذلك كلّه. لكنها سرعان ما تطالب الفتيات باللعب معها، فيخترعن معًا «ديانات» غريبة وهن منحنيات فوق طوار النافذة، ويلقين بالسحر على قبعات العابرين في الشارع. كانت جانيت تنتقي عبارات سحرية من كتب الشعر؛ وكانت عباراتها المفضّلة مستمدة من قصيدة اسمها «عزلة» في الصفحة رقم 92:

*كنت طفلًا، وكنت أحلم بكوهينور،*
*ثراء وبذخ فارسيان، بابويان.*
*هيليوغابالوس، ساردانابالوس!*

هيليوغابالوس، ساردانابالوس! كانت البنات تهتفن بهاتين الكلمتين من النافذة مشيرات بأصابعهنّ إلى هذا الرجل أو ذاك، وتراقبن استجابته، أو عدم استجابته، للسحر الذي ألقينه عليه، وتتنبأن بالمصير الذي سيلقاه.

كان بابا هو من يجلب لها ألعابها. لم يكن لديها إخوة ولا أخوات؛ وكانت أمها آريان امرأة عطوفًا لكنها منطوية على نفسها تلزم غرفتها أكثر الأوقات. بعد عودتها من مدرستها وإنجاز دروسها، كانت جانيت تقرأ الكتب التي يعطيها لها أبوها... تقرأها منبطحة تحت السرير إلى أن يؤلمها مرفقاها المنغرسين في السجادة الخشنة. كانت تتذكّر أيام طفولتها في السنين التالية، فتتذكّر منظر الغرفة من تحت السرير: كانت الفراغات بين قوائم الكراسي ملاجئ من الأعاصير الاستوائية؛ وكانت الألواح الخشبية تحت النافذة منحوتات باقية من حضارة بائدة. وفي خزانة الكتب، كانت تزيح اللوحة الخشبية التي خلف مجلدات الموسوعة فتكشف عن حفرة مدوّرة في الجدار تخبّئ فيها أوراقها وكنوزها. ولما كبرت أكثر، صارت تتخيّل مغامرات من نوع مختلف، وبدأت تقرأ روايات تشتريها في طريق عودتها من المدرسة وتخبّئها داخل أغلفة كتب التاريخ.

صارت في السادسة عشرة. وعند عودتها من المدرسة مساء يوم جمعة، وجدت جارهم جالسًا إلى طاولة المطبخ في بيتهم، ومعه شرطي. قالا إن أمها أطلقت النار على نفسها في فناء البيت. لم يكن أبوها قد عاد بعد من الجامعة. سمع الجار صوت إطلاق النار فاتصل بالشرطة. وكانت الشرطة قد اتصلت بمؤسسة لدفن الموتى. نظر الرجلان إلى جانيت بأعين حزينة، وسألاها إن كانت تريد شايًا وبسكويتًا. فوجئت بأنها لم تستطع فتح فمها لكي تقول لهما نعم، أو لا.

عقب ذلك، اختفى تحفّظ أبيها كلّه، وبدأ فريديريك يقول لابنته كلَّ شيء. لقد عبّرت

أمها عن رغبتها في إنهاء حياتها، مرتين على الأقل. لكنّ زمنًا طويلًا انقضى بين هاتين المرّتين فلم يعتبرهما فريديريك سببًا لأي قلق حقيقي. قال وهو يقبض على خصلة شعر في أعلى رأسه: «سامحيني». ومن حين لآخر، كان يقول: «أوه» ويغطي فمه بيده، فتعرف أنه يتذكّر شيئًا.

تمسّكت جانيت بهذه التفاصيل، وأقبلت على كل ذكرى تنزلق من فم والدها بين فترات الصمت تلك. كان جالسًا في غرفة المعيشة، ينظر إلى الأرض وقد التوت شفتاه أسفًا وحزنًا. جعله الموت يبوح بالحقائق... جعله غير محترس إلى حدٍّ عجيب: اختفى الرجل الذي كان يصمت في منتصف الحديث، وحلّت محلّه كتلة من معلومات خاصّة متداخلة. بات مكشوفًا فباح لجانيت بكل شيء. وفي الأيام التي تلت موت أمها، حدّثها عن أيام غزلهما، وعن انطباعاته عن المرأة التي صارت أمها، عن انطباعاته عن كل مرحلة من مراحل عيشهما معًا. حدّثها عما تغيّر فيها، وعما لم يتغير، على مر السنين.

فتح بهذه القصص، من غير أن يقصد ذلك، عالمًا كاملًا أمام مخيّلة ابنته التي واصلت نبش الجراح القديمة بعد أن وارت الأرض أمها وبدأ أبوها يحاول إغلاق جروحه. بدأت تتشكّل في ذهنها صورة امرأة. لم تكن تلك المرأة أمّها فحسب، بل كانت أيضًا مادوموازيل آريان باسّان، ومدام آريان مولينو، شخصية مصنوعة من ظلمة قبل أن تولد جانيت. على نحو طبيعي، وقبل انقضاء وقت طويل، تعلّم أبوها كيف يعيش مع أحزانه، وسرعان ما فقد الحزن لذعته الحادّة، وبدأ ما لم تكشف عنه لحظة الصدمة يغور عميقًا ويختفي من جديد. كفّ أبوها عن إضافة أي شيء عما باح به من قبل. صار يُسكتها كلّما سألته، وينظر إليها نظرة فزع كأنه نسي مقدار ما باح لها من قبل ذلك.

انتقلا إلى مونبلييه بعد أن أنهت جانيت مدرستها. كانت شقيقة فريديريك تعيش في المدينة مع ابنها وابنتها، كزافييه وماريان. وعلى مقربة من المدينة، كانت كروم صديق آريان القديم، سيلفان لوكلير. تولى فريديريك منصب أستاذ رئيسي في الجامعة؛ وانتسبت جانيت إلى كلية الفلسفة فكانت واحدة من ثماني عشرة امرأة فقط في تلك الكلية. كان استقرار الأب والابنة سريعًا في تلك المدينة. دخلا الجو الاجتماعي المحيط بالجامعة، وصار لهما معارف لم يلبثوا أن تحوّلوا إلى أصدقاء. لا أهمية هنا لأن يكون المرء من أبناء المدينة، أو من أي مكان آخر، ففي المكتبات وقاعات المحاضرات، تقاربت اللهجات كلّها في لهجة موحَّدة، وصار تبادل المعرفة قادرًا على إذابة الاختلافات بين المناطق. تم إدخال سيلفان مولينو وابنته إلى دائرة أصحاب الكروم ومَعاصر النبيذ التي تقبّلتهما بدورها على الرغم مما هو معروف عنها من تحفّظ. كان مجتمع الكرّامين قد انطوى على نفسه خلال خمسين عامًا مضت، وذلك تحت

وطأة كوارث خارجية كثيرة، من بينها موجات الجفاف ومنافسة فائض النبيذ الآتي من الجزائر. سعى ذلك المجتمع إلى تمييز نفسه عن الغاليين الشماليين، فتمسّك بهويته العتيقة، أوستانيا؛ لكن ذلك الاسم كان شائعًا إلى حدٍّ جعل نصف المطاعم على امتداد الواجهة البحرية يكتبه على واجهاته. إلا أن سيلفان لوكلير كان شخصية قوية محبوبة في هذا الوسط، فلم يجد أية صعوبة في دعوة صديقيه «آل مولينو»، بصرف النظر عن الانطباع الباريسي القوي الذي يثيره صوتاهما وملابسهما.

كان الأب والابنة يلتقيان في آخر يوم من أيام الأسبوع، فيجلسان في الصالون الأزرق ويتحدّثان في الفلسفة. يتناولان الشراب من كؤوس خزفية جديدة ويناقشان فكرة بيرغسون عن الحرية المُعاشة من خلال الزمن، فكرة كان فريديريك معجبًا بها لتشديدها على فعل العقل. لكن جانيت كانت أميَل إلى تفضيل فكرة بوترو القائلة إن الصيغ العقلية غير قادرة على تفسير أي شيء، لأنها غير قادرة على تفسير نفسها؛ وهذا ما كانت أحيانًا تخلص منه -مخطئة- إلى القول بأن ما من معنى للتعليق على أية ظاهرة من الظواهر لأننا كلنا جزء من النسيج نفسه؛ وهذا ما كان يعني أن أقصى ما يستطيعه المرء هو أن يلتقط حافّة شيء ما من غير أن يراه كلّه. كانت هذه المناقشات، التي يشجّع فيها فريديريك ابنته على التوسّع في طرح أفكارها بحيث تنظر في وجهات النظر البديلة أيضًا، كثيرًا ما تتطرّق إلى أمور مهمّة، لكن من غير أي تطبيق لها في حياتهما. وعلى الرغم من تجنّب الأب والابنة التعبير الصريح عما يحسّانه، فقد قرّبتهما تلك الأماسي وخلقت بينهما ألفة حميمة صارت مصدر قوة لهما.

لكن هذا تبدّد كلّه بعد أن حصلت جانيت على شهادتها الجامعية. تزوّجت صديقاتُها في الكلية؛ وعلى الرغم من عدم رغبتها في ترك والدها، فقد توقفت مناقشاتهما فتباعدا من جديد لانعدام الذخيرة العاطفية القادرة على تعزيز الصلة العقلية بينهما. صارت جانيت الآن تعتمد على قواها الخاصّة. لقد ساعدتها دراسة الفلسفة في شحذ ذهنها مما سمح لها باستخدامه حصنًا يحميها. صارت تترك ساعات النهار تتساقط بعيدًا، وتسرح أفكارها من موضوع إلى آخر من غير الغوص عميقًا في أي أمر.

لكنها واجهت في الآونة الأخيرة بعض الصعوبات التي كان قدوم مدحت واحدًا من أسبابها. لقد حافظت على مسافة تفصلها عن زائرهما؛ لكن حضوره -على الرغم من هذه المسافة- جعل انغماسها في أفكارها أمرًا أكثر صعوبة. كانت الحرب سببًا آخر. ومع أنها كانت بدورها بعيدة عنها، فقد صارت موضوعًا يتكلّم الجميع فيه. كانت تقول في نفسها إن من حسن حظهما، على الأقل، أنهما تركا باريس؛ مع أن الشباب الذين من حولها سيلتحقون بالجيش قريبًا، كزافييه وبول ولوران. كان لهذه التغيّرات الصغيرة أثر

كبير عليها. وبدأت زوايا عقلها تنشط من جديد. ثم كانت لديها صور أمها هذا الصباح: وجهها وجسدها أمام الخلفية الملوَّنة التي وضعها المصور، النمش تحت حاجبيها، والقماش المخرّم من حول ياقتها، وشعرات سائبة أفلتت من ربطة شعرها فرسمت خطوطًا رمادية خالدة على سطح الصورة الفضي.

«بونجور، مادوموازيل».

أجفلت جانيت. كان مدحت كمال واقفًا على الشرفة التي خلف البيت. رأته يحمل مظلّة بين يديه الرشيقتين، ورأت حاجبيه الرفيعين مرتفعين، يحييانها. انحنى عندما رفعت ذراعها لكي تلوّح له. لكنه ظل على الشرفة بين قطع الأثاث المعدنية. قد يحسبه المرء أوروبيًا من على هذه المسافة. مسحة اللون النحاسي في وجهه، وحاجباه الأسودان، وعيناه السوداوان... تلك العلامات الوحيدة التي كان يمكن أن يدعوها أبوها «ساميّة». لو لم تكن تعرفه، فمن الممكن أن تظنّه إيطاليًا.

نادته: «كيف حالك؟».

«متعب جدًّا، لكنّي بخير. أتيت من الكلية سيرًا على الأقدام. الطقس الجميل شجّعني. آسف لأنني قاطعت سباحتك».

«لا مشكلة أبدًا. كنت موشكة على الدخول. بدأ الطقس يبرد».

نهضت واقفة. وعندما صفع الهواء البارد ساقيها المبتلتين، وألصق ثوب السباحة ببطنها، رأت عينَيّ مدحت تتّسعان.

«آسفة، دعني آخذ منشفتي. لحظة واحدة. ربما تحبّ أن نتناول القهوة معًا بعد ذلك. لحظة واحدة، مسيو مدحت».

حاولت منع نفسها من الجري. اجتازت المرج خافضة عينيها وهي تلف حافة المنشفة العليا فوق ثوب السباحة عند ثدييها. تركت قدماها آثارًا رطبة على الأرض الحجرية، وعلى ألواح الأرضية الخشبية، وعلى سجّادة السلّم. خلعت ثوب السباحة عندما صارت في غرفتها، وجفّفت جسدها من الرطوبة، وارتدت سريعًا فستانًا بيتيًا من القطن. نزلت السلم بخطوات متئدة. أحضرت جورجين القهوة في تلك اللحظة، وانحنت لجانيت عند مرورها.

«والآن...». تنفست جانيت الصعداء وهي تلاقي نظرة مدحت الجانبية إليها. كان جالسًا على الأريكة، مشدود الظهر تمامًا. اختارت أن تجلس على المقعد الهزّاز، ثم رفعت كمّها حتى تصب القهوة في الفنجانين... «قل لي، يا مسيو مدحت. لم أسألك أبدًا عن أسرتك. أبوك وأمك... هل هما؟ هل لديك إخوة وأخوات؟».

«أبي تاجر. وهو من نابلس. إنه تاجر ملابس وأقمشة. وهو ناجح جدًا».

«شيء جميل. وأمك؟».

«كانت أمي من مكان قريب من نابلس. من بلدة اسمها جنين. لكنها توفيت، الله يرحمها. كنت صغيرًا جدًا عندما توفّيت».

«يا إلهي، يؤسفني هذا كثيرًا. لكن هذا يعني أنك مثلي. كلانا من غير أم».

«توفيت أمي بالسل. هذا هو الاسم العربي للمرض الذي تسمونه بالفرنسية la tuberculose».

«هذا محزن جدًّا. أنا في غاية الأسف».

«كيف توفيت أمك؟».

«كنت صغيرة أيضًا...». نظرتْ عبر الباب الذي أمامها صوب الشرفة حيث لا تزال آثار أقدامها ظاهرة على البلاط... «لقد كانت مريضة أيضًا. مشكلة في القلب، لكني لا أعرف بدقة. قد تكون قادرًا على شرح الأمر لي عندما تصير طبيبًا عظيمًا». ابتسم فمها، لكنَّ عينيها كانتا مغمضتين.

قال مدحت: «نعم، آمل حقًا أن أصير طبيبًا. أحيانًا، في نابلس، لا يمتهن الناس ما درسوه».

«يمتهن؟».

«يمتهن... مثل كلمة مهنة».

نظرت إلى الحديقة من جديد. طال الصمت بينهما.

«كيف هي نابلس؟».

«نابلس قرية صغيرة. إنها بلدة. أعني أنها مدينة. ليست كبيرة، لكننا ندعوها مدينة. ما أعنيه أنك تحملين نابلس معك حتى عندما تغادرينها. هل تدركين ما أعنيه؟».

«أظنّ هذا».

«لا أقصد أنني لا أحب نابلس. أحبها. لكن الجميع يعرف كل شيء عن حياة الجميع. من الممكن أن يكون هذا...». رفع يده إلى رقبته كأنه يخنق نفسه، فابتسمت، لكن ابتسامتها كانت باهتة... «لا بد أن هذا ما يجعل أبي يفضل العيش في القاهرة».

«مصر؟».

أومأ برأسه.

«وماذا عنك؟ لقد اخترتَ دراسة الطب...».

«كان هذا اختياره، اختيار أبي. لقد أسّس مستشفى في نابلس -أعني أنه كان واحدًا من مؤسسي المستشفى في نابلس- وهو يعتبر أن الطب مهنة محترمة جدًا. لكني راضٍ تمامًا بهذا الاختيار. أحب العِلم. لقد أحببت العلم دائمًا. هذا يعني أنه اختياري أيضًا. وأنا متحمّس لأن...». أطرق برأسه مفكّرًا في الكلمات... «إنه عمل شديد الدقّة،

مضبوط تمامًا، لكن...». تنهد... «على المرء أن يكون قليل التأثّر، كما تعلمين».

فوجئ عندما انفجرت جانيت ضاحكة. رفع رأسه فرأى وجهها متوهجًا، وجسدها يهتز لشدة ضحكها. مضت بضعة لحظات وهي مستمرة في الضحك، فانضم إليها متردّدًا، لكنه ظلّ ينظر إليها منتبهًا حتى يعرف متى يتوقّف. كانت إشارة التوقّف سعلة مفاجئة صغيرة منها. عندما تنهّدت وصمتت من جديد، وتخلّى مدحت عن ابتسامته، خطر له أن من المستحيل أن تكون عارفة أنه كان يفكر في ما حدث ذلك الصباح، أو في الرجل عديم الساقين الذي رآه في المشرحة، أمران لم يكن يرى أيًا منهما مضحكًا. نظر إلى عينيها اللتين كانتا لا تزالان باسمتين، وحاول تخيُّل ما تظنه فيه.

قال لها: «إنني أخرج دائمًا في نزهات مع لوران».

ضيَّقت عينيها ورفعت فنجانها إلى شفتيها.

«نمشي إلى الحديقة النباتية، ونسير إلى مركز المدينة أحيانًا. إنه يريني المدينة. وأنا مستمتع بصحبته».

ضحكت جانيت من جديد، لكن من غير صوت. شدّت على شفتيها وهي تنظر إلى أصابعها التي راحت تدير فنجانها في صحنه. من غير إرادة منه، بسط مدحت كفّه مستفهمًا، لكنها لم تلاحظ تلك الحركة. لم يجعله ضحكها يشعر بأية إساءة، مثلما هي الحال مع لوران. كان ضحكها محيِّرًا، لكن لم يبدُ له مزعجًا. والواقع أن استمرارها على هذه الحالة المبتهجة جلب ابتسامة جديدة إلى شفتيه. ظلّت عيناه ترنوان، من حين لآخر، إلى حيث يكشف فستانها عن أعلى صدرها. كان جلدها شاحبًا، لكنه منمّشٌ، ولامعٌ أيضًا... لعله لامع بالعرق. أو لعلها لم تجفّفه من الماء جيّدًا.

«لماذا كنت جالسة في البركة؟».

اختفت ابتسامتها. قالت له: «لماذا؟ أوه. كنت أشعر بالحرّ قليلًا».

نظر إليها مليًّا، ثم طوى الموضوع. منذ وصوله إلى مونبلييه قبل شهر كامل، نشأت لديه عادة التريث عندما يجد نفسه غير واثق. فلإدراكه أنه جاهل بأساليب هذا المجتمع، كانت رغبته شديدة في تفادي أن يجعل من نفسه أضحوكة. لعلّ من المعتاد لديهم أن يجلس المرء في البركة عندما يكون الطقس حارًا، فما أدراه؟ ولكن، من ناحية أخرى، بدا له أن سؤاله قد أحرج جانيت فعلًا. لكن، من الممكن أن تكون محرجة لسبب آخر... فمثلًا، قد يكون السبب فكرة مسبقة لديها عن أن رؤية شخص جالس في الماء خارج البيت تزعجه. إن كان الأمر هكذا -وإن توخّى المرء الصدق- فلن تكون مخطئة تمامًا في ظنّها هذا.

قالت له: «كيف وجدت لوران؟».

«إنه جيد. يريد أن يدرس الطبّ النفسي. لوران رجل لطيف جدًّا».

«إنه لطيف».

«وأنا أجده كذلك... إنه يجعلني أضحك. لديه 'خفة دم' كما نقول بالعربية».

«أي عكس ثقل الدم».

«بالضبط».

«يبدو هذا صحيحًا، لأن لوران خفيف الدم فعلًا. لكني لا أعتبره شخصًا عابثًا أو طائشًا. ففي حقيقة الأمر، هو شخص جادّ تمامًا».

حلّ صمت قصير، ثم قال مدحت: «أحب هذا المكان، وآمل أن أبقى هنا».

«عليك أن تبقى. نحن نحب وجودك معنا. أنت شديد... لست أدري...». نظرت في عينيه... «أنت شخص لطيف جدًّا».

موجة احمرار شديد بدأت عند صدرها، ثم صعدت إلى وجهها. جاء دور مدحت في التشاغل بالنظر إلى الحديقة. أراد أن يمنحها شيئًا من الخصوصية، لكنه أراد أيضًا أن تختفي الابتسامة عن وجهه. في الخارج، أحالت الغيوم لون العشب رماديًا، وبدأت أغصان الشجرة التي في نهاية الحديقة تهتزّ في الريح. كانت جانيت لا تزال محمرّة عندما نظر إليها من جديد. كانت مطرقة الرأس تنظر في حِجرها. لم يقل أحدهما شيئًا. في صدر مدحت، بدأ شيء غريب يقفز هنا وهناك، في حين أزّت ذبابة في الصمت وراحت تصطدم بفنجاني القهوة. نظرا معًا إلى تلك الذبابة التي حطّت على زاوية مكعَّب سكر، ثم انتقلت إلى حافة الطبق الفضية وبدأت تدعك قائمتيها معًا. أخيرًا، اتخذ قراره بالنظر إليها. لكنه فوجئ عندما وجد نفسه غير قادر على النظر. عَجِب لخجله فراح ينظر إلى مكعَّب السكر. فكر في أن لغته الفرنسية التي لا تزال غير جيدة تجعل الأحاديث غير مضبوطة المعنى أكثر الأحيان... فكيف الحال إن وجد المرء نفسه، غير قادر، للسبب نفسه، على المخاطرة بأي غموض؟... ألا يجبره هذا على جعل كل ما يريد قوله مباشرًا أكثر مما ينبغي له أن يكون؟

نقر الدكتور مولينو على باب الصالة المفتوح: «بونجور، أيها الصغيران. كيف حالكما اليوم؟ أما من أحد جائع هنا؟».

«نحن نشرب قهوة».

«إذًا، فلنتناول فاتح شهيّة في الشرفة. جورجين، أحضري لنا شامبانيا كريمان، وكأس كورديال للمسيو مدحت».

كان هبوب الريح مستمرًا. ساعد مدحت جانيت في حمل البطانيات من الصالة. لفت انتباهه ذلك الحيّز الذي يكشف فيه شعرها القصير عن رقبتها. وعندما عادا إلى

الشرفة، وجدا الدكتور مولينو جالسًا على كرسي من الحديد واضعًا ساقًا فوق ساق.

قال موجِّهًا الكلام إلى ابنته: «أتساءل... كنت أفكر اليوم في اتّساق الشخصية. هل أنت مؤمنة بهذا، اتساق الشخصية؟». مر بأصابعه على شفة كأس الشامبانيا.

قالت جانيت: «لست واثقة حقًّا من معنى هذا التعبير».

كانت في صوتها رنّة قلق أو انزعاج جعلت مدحت يميل برأسه حتى يرى وجهها. لكن وجهها لم يفصح عن شيء. شدّت فستانها على جسدها وحنت كتفيها في مواجهة الريح.

قالت: «ما رأيك، يا مسيو مدحت. هل أنت صاحب شخصية متّسقة؟».

قال الدكتور مولينو: «أظنّه صاحب شخصية متّسقة. بل أذهب إلى حدّ القول إن طرح هذا السؤال عليه غير منصف».

قال مدحت: «عفوًا؟».

«لم أقصد الإساءة. هل تعرفين أن مدحت كان يخبرني يوم أمس عن بعض معتقدات التطيّر الموجودة في المكان الذي جاء منه. معتقدات لدى جماعة السامريين خاصّة... ممن يعيشون في مدينته».

قالت جانيت: «كم هذا مثير! أنا لم أسمع إلا عن السامريّ الطيب... في الكتاب المقدس».

«إن تلك القصّة كلّها يفترض أن تكون قد حدثت على الجبل الذي يعيش عند سفحه. شيء مدهش. كان يقول لي... ألّا تخبر جانيت بما قلته لي؟».

احتار مدحت ولم يعرف لمن يوجه الكلام، فراح ينقل عينيه بين الأب وابنته. ضايقه أنه وجد نفسه غير قادر على قراءة تعبير وجه جانيت. تساءل في نفسه إن كانت قد ضجرت. قال: «أعني... هذا ليس إلا تطيرًا، كما تقول أنت. يدفع الناس لهم مالًا للقيام بشيء من السحر، وهكذا. أنت تعرف هذه الأشياء... العين الشرّيرة، والحسد... لكنني لست، في الحقيقة...».

«مدهش حقًّا. لقد كانت هذه قبيلة... ألم تكن قبيلة؟ هي طائفة منشقّة عن اليهودية. أو لعلها كانت معاصرة لها. قرأت مرة كتابًا عظيمًا كتبته امرأة ذهبت وأقامت معهم. عليَّ أن أرى إن كنت أستطيع العثور عليه».

قال مدحت: «هذا ليس أكثر من فولكلور».

حامت ابتسامة عند زاويتي فم جانيت: «كم هذا ممتع، يا بابا!».

«ماذا؟ إنه يريد هذا».

«لا يكون هذا لائقًا على الدوام».

رضخ الدكتور مولينو. وفي لحظة وقف إطلاق النار تلك، عادت صورة فخذَيْ جانيت إلى ذهن مدحت. نظر إلى المرج الغارق في لون رمادي.

فتحت جورجين باب الشرفة وقالت: «اعذرني يا سيدي، هناك رسالة للمسيو مدحت».

وضع مولينو كأسه على الطاولة وأنزل قدمه إلى الأرض: «ممم. بدأ الجو يبرد أيضًا. وأنا جائع بعض الشيء».

قالت جورجين: «سوف أسخّن الحساء...». ثم أشارت إلى مدحت وقالت: «تعال، من فضلك».

تقدّمته في اتجاه الطاولة التي في ممر. كانت الرسالة من أبيه. مضى على إرسالها ثلاثة أسابيع.

*ابني العزيز مدحت،*

*أرجو من الله أن تكون في أحسن حال. صار السفر صعبًا لأن البريطانيين يدافعون عن قناة السويس في مواجهة الأتراك. لكني سمعت من أخي أن المشكلات لم تصل إلى نابلس بعد. هناك ضابط ألماني مقيم في بيت حمّاد. أُغلقت مكاتب البريد الأجنبية في نابلس. وهذا يعني أن عليك ألّا تتوقّع وصول رسائل من فلسطين. لا تزال الخدمة البريدية في مصر جيّدة. والتجارة في مصر جيّدة أيضًا، والحمد لله. ليلى والأطفال بخير والحمد لله. اهتم بدراستك جيّدًا.*

أدعو لك بالتوفيق،

أبوك.

في الخارج، كانت جانيت تطوي البطانية الوردية.

«ستطويها جورجين».

«بابا!».

«ماذا؟ لا تنظري إليَّ بهذه الطريقة».

أغلقا باب الشرفة الزجاجي في وجه الريح. ومع مرورهما في الصالون، رأت جانيت صورتها في المرآة. غيمة من شعر عبثت به الريح كانت تحيط برأسها. سحبت ثلاثة دبابيس شعر من الخلف وغرستها عند قمة شعرها فجمعت بعض الخصلات وطوتها تحتها حتى تظلّ ثابتة في مكانها. سوّت خصلات شعرها عند صدغيها، ثم لحقت بأبيها إلى غرفة الطعام حيث كان يكلّم جورجين.

سألها: «هل هو آتٍ؟».

«أوه، أجل، مسيو».

قالت جانيت وهي تسحب كرسيها إلى الخلف: «صبرًا».

لكن جانيت لم تكن في حاجة إلى أكثر من إشارة بسيطة من والدها لكي تأتي بمدحت إلى طاولة العشاء. لو كان ذلك قد حدث يوم أمس، لأصرّت على إعطاء مدحت فسحة من أجل خصوصيته. لكنها كانت الآن تحسّ اضطرابًا غير قادرة على ضبطه -ليس بسبب أبيها وحده- بل بسبب ذلك اليوم كلّه، اليوم الذي ظلّت له ذيول باقية تهدّد بالخطر نواحيَ عزلاء كثيرة في نفسها مما جعل ذعرًا ينبع داخلها. بدا لها في تلك اللحظة تحديدًا أن العلاج الوحيد لهذا التوثّب غير المنضبط في ذهنها لا يمكن أن يكون شيئًا غير الذهاب إلى الممر والاعتذار من مدحت نيابة عن أبيها، وذلك بحيث تسوّي -على الأقل- ذلك الجانب الذي ساهم في اضطرابها.

رأت ضيفهما عبر الحاجز الذي في الممر. كان نصف مؤطّرٍ ضمن الباب المفضي إلى الصالون حيث ظهر من خلفه البيانو، كأنه تابوت، وحيث كانت بقية ضياء الشمس الآتي من النافذة تنير خصلات شعر متدلية من جبهته المطرِقة لقراءة الرسالة في يده اليمنى. كانت وقفته كلّها متجمّدة. ثم نقل ثقل جسمه من قدم لأخرى ووضع يده اليسرى مسترخية على خصره. تقلّص وجهه في ما يشبه العبوس مثلما يفعل من يواجهه نورٌ ساطعٌ: عينان متضيقتان كأنهما تحاولان تبيّن شيء أمامها. وعلى الرغم من ثقتها من أنها لم تُصدر أي صوت، استدار مدحت فجأة فصار في مواجهتها. عادت إليها الحياة بطريقة حاولت جعلها طبيعية إلى أقصى حد استطاعته متظاهرة بأنها لم تدخل الممر قادمة من غرفة الطعام إلا في تلك اللحظة. لكن حركة ذراعيها كانت مسرحية فعرفت من التعبير الذي رأته في وجهه أنه يدرك حقيقة أنها كانت تراقبه. طوت أصابعه الرسالة بحركة سريعة.

قالت وهي تترك يدها تنزلق على حاجز السلم: «أردت أن أقول لك...». رأت عينيه تنظران إلى فمها.

قال: «ماذا؟».

«... إنني آسفة». علق صوتها في فمها لحظة تركت عينيها تنخفضان إلى رقبته التي لوّحتها الشمس، لكنها أغمضتهما... «أردت أن أقول...». ارتفع كل شيء؛ استنشقت نفسًا عميقًا محاولة التقاط ما كانت تحاول قوله، لكن أفكارها أفلتت من قبضتها... «أردت إخبارك بأنني لم أقل لك الحقيقة».

منحها الصمت الذي أعقب ذلك وقتًا كافيًا لإدراك ما بدأت تقوله؛ لكن، لم يكن لديها وقت كافٍ للتفكير مرتين.

سألها مدحت: «متى؟».

بدأت تقول: «عندما أخبرتك... عن أمي. الحقيقة هي أنني أعرف كيف ماتت. لقد، لقد أطلقت النار على نفسها من مسدَّس».

كانت ردة فعل مدحت على ما قالته طفيفة جدًا. اتسعت عيناه قليلًا، لكنه كان اتساعًا من الممكن ألا تراه لولا ذلك الضوء الساقط على وجهه. لكنها ندمت على الفور. راحت تتساءل في نفسها كيف استسلمت بهذه السهولة كلها أمام التماعة الرغبة في الكشف له عن نفسها، تلك الرغبة التي ظهرت مثل شذرة مفاجئة بين أفكار ومشاغل أخرى كثيرة كانت تدوّم في ذهنها فتشوّشها وتفقدها توازنها. في ظروف عادية، كان ممكنًا أن ترى هذا الدافع فتبتعد عنه بكلّ يسر. لكن هذا اليوم ليس فيه شيء عادي! وها هي الآن تُثقل على ضيفهما بهذا الجزء المزعج من قصة حياتها.

فوجئت عندما تحرّك مدحت في اتجاهها. لا يزال صامتًا. لم يقل شيئًا. ظهرت غضون على جبهته، غضون حيرة واهتمام، كأنه ينظر إلى شخص يظن أنه يعرفه، لكنه يحاول تبيّن هويته. أحسّت كأن يدًا تمتد إلى معدتها فتعصرها.

أفلحت في القول: «العشاء جاهز».

توقّف مدحت، وبدا عليه أنه أدرك ما تعنيه حقيقة. أومأ برأسه كمن يصحّح ما ظنّه قبل ذلك.

قال: «حسنًا».

أضافت بصوت أرغمته على أن يبدو عاديًا: «إنني آسفة. ما كان لي أن أقول لك هذا».

«لا تأسفي».

ابتسمت له ابتسامة صغيرة، ثم اتّجهت خطواتها صوب غرفة الطعام. مرّت بضع ثوانٍ قبل أن تسمع صوت خطواته آتية من خلفها.

أحدث هذا الحوار اضطرابًا في نفس مدحت. لم يكن واضحًا لديه أبدًا ما رمت إليه جانيت عندما أخبرته بهذا. ما لم يستطع الآن أن يقرّ به لنفسه (على الرغم من أنه سيصدمه بقوة في ما بعد) هو أن اعترافها بدا له كأنه يلمع أمامه، كأنه جرح مفتوح، أو كأنه نقطة دخول. وأما الآن، فما كان يفكّر إلا في أن بوحَها لم يكن متناسبًا مع طريقتها المتحفّظة في الكلام. هذا ما حيّره بعض الشيء. لقد كان يقترب منها لكي ينظر إلى وجهها. وبعد ذهابها، ظل واقفًا في الممر متسائلًا كيف يستطيع قراءة وجهها من غير النظر إليه. ذلك التردّد في صوتها بدا له علامة على الكرَب ـ العلامة الظاهرة الوحيدة في واقع الأمر ـ لكن كرَبها لأنها كذبت عليه لم يبد له أمرًا قابلًا للتصديق. غالب الظن أن كربها كان نتاج تذكّرها انتحار أمها. نظر إلى المكان الذي كانت واقفة فيه، بين

الحاجز والجدار الموشّح بالظلال، فأشفقت نفسه عليها.

على طاولة العشاء، حاول منع نفسه من النظر إليها. خشي ما قد يبوح به وجهه. انتزع فريدريك منديل الطعام الذي أمامه من الحلقة الفضية المحيطة به، في حين جلس مدحت ووضع المغلف إلى جانبه وأمسك بملعقته. صَمّ أذنيه عن حديث فريديريك عن زميله في القسم -الحديث الذي كان من جانب واحد- وبدأ يحاول رسم خريطة التفسيرات المحتملة. هل أخبرته جانيت بأمر أمّها بغية التماس العذر لنفسها... لأسلوبها المتحفّظ... ربما! أو لعلها فعلت شيئًا آخر لم ينتبه إليه! أو... هل خجلت حقًّا من أنه كان صادقًا معها ولم تكن صادقة معه؟ أو... هل كانت تشرح له شيئًا آخر، أو تشير إلى جزء آخر من حديثهما فاتَهُ فهمُه على الوجه الصائب نتيجة تلاوين لا يعرفها في اللغة الفرنسية؟ بذهنٍ شاردٍ، بدأ يضع الزبدة على قطعة الخبز فوجد نفسه يتخيل ما يمكن أن تكون جانيت قد رأته عندما دخلت الممرّ. أطلق هذا في نفسه دفقة مسَرّة لم يتوقّعها عندما تخيّل نفسه من خارجه، عندما تخيّل نفسه واقفًا في هذا البيت.

«هل كانت الرسالة من أسرتك؟ هل هم بخير؟».

رفع رأسه، فرأى فريديريك يمسح شفتيه.

«أجل، إنهم بخير».

ألقى مدحت نظرة على مغلف الرسالة. كانت اللصاقة التي عليه واضحة.

«فُتح من قبل المفتش رقم 257». مد يده فقلب المغلف على وجهه الآخر متظاهرًا أنه يريد قراءة العنوان المكتوب عليه. كان فريديريك أول من نهض. وضع يديه على خصره ونظر إلى الباب وكأن المهمة التي تنتظره، مهمّة تناول كأس ما بعد الطعام في الصالون، تتطلّب منه جهدًا مركّزًا كمن يقود كتيبة عسكرية. قال: «هل تنضمّين إليَّ، يا جوجو؟».

«ليس الليلة، إنني مرهقة».

«إذًا، تصبحان على خير».

«تصبح على خير».

انسحب مدحت مفكرًا في رسالة والده. *اهتم بدراستك!* لم يستطع منع عقله من تخيّل صورة مزدوجة مفاجئة: المظهر الخارجي لهذا كلّه، وما قد يراه أبوه فيه.

## - 5 -

سمع كارل باج الأمر أول مرة من مدام كروتو التي قالت إنها سمعته من آل نولان. لكن آل نولان سُئِلوا عن الأمر فقالوا إنهم لا يعرفون شيئًا. في يوم الجمعة، قبل الحفلة، ذهبت جورجين لإحضار كعكات التارتليت التي أوصوا عليها، فسمعت بالأمر من الخبّاز. قيل إن سيلفان لوكلير صدمته سيارة في جادة تولوز. إنه حيٌّ، لكنّ ساقيه مكسورتان.

بدأ الثلج يهطل يوم السبت؛ هطلٌ خفيف جدًا. أخذ بيسون مدحت بالسيارة إلى السوق لكي يشتري بدلة سهرة جديدة؛ ثم وصّل جانيت إلى معصرة سيلفان للنبيذ ومعها باقة من أزهار السوسن الوردية وضعتها على المقعد الخلفي إلى جانبها. وفي وقت لاحق، عاد مدحت إلى البيت حاملًا بدلته الجديدة في علبة. كان العصر يتحول إلى ليل، وبدت مصابيح الشوارع كأنها تنثر على الأرض ثلجًا أصفر ضمن مثلثات دقيقة رسمتها أشعة الضوء المنبثقة منها.

كان ذلك في شهر كانون الأول، الشهر الثالث على إقامة مدحت في مونبلييه. لقد صارت نزهاته مع لوران معلمًا ثابتًا من معالم حياته، وصارت أفضل سلوى له في وحدته. فبمعزل عن استجوابات الدكتور مولينو اليومية وقت الإفطار، والأحاديث العارضة مع جانيت، كانت تلك النزهات فرصته الحقيقية الأولى للتمرّن على اللغة الفرنسية، فضلًا عن المصطلحات العلمية التي يستخدمها في الكلية. سوف يوفر له ضيوف الحفلة في هذه الليلة فرصة جديدة. عليه أن يكون منتبهًا، يقظًا. دخل الممر المفضي إلى البيت فرأى بيسون يغلق باب السيارة، ثم سمع صوت جانيت عندما ولج الممر.

كانت واقفة مع أبيها في الصالون ذي الجدران البيضاء، وكانت تقول له بصوت مرتفع، إن ذلك كلّه كان كذبة. لا يعاني سيلفان أية صعوبة في المشي. صحيح أنه سقط على الأرض، لكن السيارة لم تصبه إلا مَسًّا.

ضحك الدكتور مولينو وقال: «مدحت، ادخل، ادخل. إنها ليست كذبة حقيقية، أليس كذلك يا عزيزتي؟ لقد بالغوا في بعض التفاصيل فحسب».

«أشعر بحرجٍ شديدٍ».

«ماذا؟ أتظنّين أن على المرء أن يرسل برقية قبل ذهابه؟! قلت لك إن من الأفضل

أن تأخذي مدحت معك. ليس من اللائق حقًا أن تذهب شابة وحدها. لا بد أن الجميع يظنّون أنني أب غير مسؤول إلى حدٍّ فظيع...». رفع طاولة خشبية صغيرة ووضعها خلف البيانو... «البشر والشائعات، ألا تساعدني في حمل هذا الشيزلونغ يا مدحت. أظن بأن من الأفضل أن نضعه في الممر».

«ألا ترى كم كان الأمر محرجًا؟ أحضرت له ورودًا، ولم يكن به شيء. لقد كان شديد...». أطلقت زفرة في الهواء... «حقًا، إنني في ضيق شديد».

«لا أفهم ما يجعلك تُكبّرين الأمر هكذا! ألم توضحي له الأمر؟ سيلفان ليس غبيًا. وأنا واثق من أنه مدرك أنك لم تقصدي شيئًا غير أن تكوني لطيفة. هذه غلطة بسيطة. سوف يصل ضيوفنا في الساعة السابعة. وسوف أعمل قليلًا قبل ذلك. لكنْ، لديَّ تخوّف من أننا قد دعونا عددًا كبيرًا من الناس. عادة، لا يكون هذا مدعاة للقلق... لأن المرء يضع في حسبانه دائمًا أن نصف المدعوين سيظلّون في بيوتهم. لكن الناس يبدون في هذه الأيام أكثر حاجة إلى الحفلات...».

وضع مدحت يديه تحت الشيزلونغ.

قال مولينو: «شكرًا، يا مدحت».

قال مدحت: «عفوًا، تسرّني مساعدتك».

اتجهت عينا جانيت إليه، لكن تعبير وجهها لم يتغيّر.

رأى مدحت صورته في مرآة باب خزانته: ياقته البيضاء تلقي ضوءًا على وجهه. بلل أصابعه بلسانه ومس بها شعره. أتاه صوت جورجين من الأسفل.

كانت جورجين تقول: «الآنستان كارول وماري تيريز، والدكتور باتريس نولان».

شدّ ربطة عنقه، وتحقّق من كُمّيه وذيل قميصه، ثم نزل السلم.

قال باتريس نولان وهو ينفض قطيرات المطر عن قبعته عند الباب: «إنه الشاب العربي». جعل دفءُ البيت وجنتيه محمرّتين احمرارًا خاصًا.

قال مدحت: «مساء الخير، عزيزي الدكتور».

سلّمت الفتاتان على مدحت. كانت خصلات من الشعر تتراقص خلف أذني كلٍّ منهما: لقد أضافتا إلى تسريحتيهما خصلات شعر اصطناعية.

«مساء الخير، أيتها الآنستان».

سار الدكتور مولينو مع آل نولان فدخلوا الصالون. لا أثر لجانيت.

قال باتريس نولان وهو يقدّم لمدحت كأس شامبانيا: «كيف الحال في الكلية؟».

«إن الدروس ممتعة. لكن السنة الأولى مقتصرة على العلوم الأساسية. تلقّينا أيضًا مقدّمة في التشريح. وسوف نبدأ في الذهاب إلى العيادات في الفترات الصباحية حيث

نتابع الأطباء والمرضى ونسجّل ملاحظاتنا لكي نناقشها في ما بعد. وبعض الأحيان...». كف عن الكلام عندما تذكّر أن نولان كان أستاذًا في الكلية نفسها. لا بد أنه يعرف هذه الأشياء كلّها... «لكن، نعم... أريد القول إنني مستمتع بهذا. وقد كان هطل الثلج جميلًا أيضًا».

قدَّم إليهما مولينو علبة سجائر مفتوحة. قال: «باتريس، أريد أن أسألك عن رأيك. كيف ستسير الأمور، بحسب رأيك؟ الآن، بعد أن كسبنا المعارك في الفلاندر؟ الصورة التي أستطيع استنتاجها مما أقرأه في صفيحة لو ماتان، ومما أسمعه من الراديو، لا تزال غير واضحة».

سعل نولان سعلة صغيرة: «أظننا يمكن أن نتوقّع رؤية بضع مناورات استراتيجية. لست خبيرًا عسكريًا، لكن من الواضح أنهم سيبحثون عن سبل لإضعاف العدو. وفي الوقت نفسه، علينا أن نظل منتبهين إلى المناطق الأخرى من العالم... إلى توازن القوى. ثم تأتي روسيا... لذا، أظن أننا سنرى محاولة لدفع الألمان من الجبهة الشرقية بغية تحسين الوضع هناك. لكن هذه ليست أكثر من تخمينات». لوّح بيده، فارتفع دخان سيجارته من فوقه... «الأمر عائد إلى الجنرالات. ليس علينا غير أن ننتظر لنرى».

وصل مزيد من الضيوف. قبّلت مدام كروتو خد مدحت مطلقة ضحكة مبحوحة الصوت، مسَّ رقبته فراء معطفها البارد الذي جعلت الرطوبة أوباره تتجمّع خصلًا صغيرة. التفت للسلام على ماريان فلمح جانيت عبر الباب المفتوح. كانت واقفة عند المرآة التي في أسفل السلم، مرتدية فستانًا أخضر وأسود. رآها تمس ياقتها وتنظر إلى نفسها في المرآة. ثم استدارت فلاقت نظرتها نظرته. ظل ينظر إليها إلى أن أشاحت بوجهها.

قالت امرأة على كتفيها شال ليلكي اللون: «أحب التنس. ألعبه في المروج التي في الأسفل مع مادموازيل بريكو. ألا تنضم إلينا لنلعب التنس معًا عندما يأتي الربيع؟».

أتى صوت الدكتور مولينو من الناحية الأخرى من الصالة: «لكننا نبتعد عن النقطة المركزية. ماذا كانت النقطة المركزية؟».

وصلت شابة ترتدي فستانًا مرتفع الياقة وبصحبتها رجل متقدّم في السن. ألقيا التحية عند دخولهما.

«عندما نتحدّث عما رأيناه... لقد كان موكب الجنازة مؤثّرًا جدًا، والدفن...».

«كان ذلك مسلّيًا كثيرًا. من المؤسف جدًّا أنكم لم تكونوا هناك».

«لكن، هل ترى أي شيء باعث على الأمل؟».

«يبدو أن أفراد العائلة هم الذين كانوا مبعث راحة لنا جميعًا... يقولون إن عليك أن تستمر، وهكذا دواليك».

«أحيانًا، ينتابني القلق على جورجين...». كان الدكتور مولينو واقفًا إلى جانب مدحت، عيناه محمرّتان... «لا أدري إن كان علينا أن نستأجر فتاة ثانية... حتى تكون لها صديقة هنا». أنهى كأسه، ثم تنهّد.

قال مدحت: «لوران. لم أرك عندما دخلت». وضع يده على كتف صديقه.

استدار إليه لوران قائلًا: «عزيزي مدحت. يسرني أن أراك. يا إلهي، يبدو مظهرك ممتازًا. بدلة جميلة حقًا. هل تعرف كارل باج؟».

«أجل، أظننا التقينا من قبل».

قال كارل باج: «أعرفك، بالطبع. أنت الضيف الشرقي الشهير. حسنًا إذًا... ما رأيك في هذا، بما أنك شرقي؟ نحن نتحدث عن معارك الفلاندر».

قال مدحت: «أوه...». تنحنح... «إن كنت تسألني عن الأتراك، فإنني... أظنّ أنهم لا يزالون يعانون نتيجة خسائرهم خلال الحرب مع روسيا... لا يزال لهذا أثره على كل شيء لديهم. وأما من ناحية أوروبا... أظن أننا سنرى الجنرالات الفرنسيين يقومون ببعض المناورات الاستراتيجية في المستقبل القريب...». ازداد صوته عمقًا... «ميزان القوى، وتلك الأمور. والجبهة الشرقية، بالطبع... مع روسيا. لن يطول الأمر قبل أن نرى ضربة هناك. لا بد من الانتباه إلى المناطق المختلفةِ كلّها. هكذا هو الأمر».

«فهمت».

انحنت مدام كروتو من فوق ظهر الأريكة وقالت: «كارل... هل سمعت عن عشيقة مسيتنغيت؟».

أمسك لوران مدحت من رقبته، وقال ضاحكًا: «لقد أوشكت أن تبدو فعلًا مدركًا لما كنت تتحدّث عنه. أوه، أنا لم آكل شيئًا بعد. تبدو هذه الأشياء لذيذة...» مد يده إلى صينية لفافات السمك التي في يد جورجين... «عندي قصة مضحكة جدًا أريد أن أحكيها لك. قصة عن أستاذك، ما اسمه... بروغانتي».

قال مدحت: «أوه، ماذا؟».

«كان قادمًا إلى الكلية على دراجته، تحت المطر، سمعت هذا من واحد من الجرّاحين. ظهر طفح جلدي على ساقيه -هذا البروغانتي- عند وصوله. أظنّه كان يرتدي بنطلولًا من الصوف! وأظنه أيضًا شخصًا ضخمًا، أليس كذلك؟ استعار بنطلونًا من شخص آخر، لكن البنطلون كان صغيرًا عليه فلم يستطع تزريره. ثم يأتي القسم المضحك من القصة: كان لديه درس، فارتدى ذلك البنطلون وألقى درسه كلّه وهو واقف خلف كرسي لأن أزرار البنطلون كانت مفتوحة. أليس هذا مضحكًا جدًا؟».

قال مدحت: «مضحك جدًا».

جاء صوت امرأة: «هل سمعتم بما جرى لسيلفان؟...». كانت امرأة نحيلة شقراء الشعر تخاطب مجموعة أشخاص لا يعرفهم مدحت... «لقد صدمته سيارة وألحقت به إصابات خطيرة».

قال الدكتور مولينو من خلفهم: «هذا غير صحيح. لقد ذهبت جانيت لرؤيته».

مال أفراد تلك الجماعة برؤوسهم، وصدرت عنهم أصوات مختلفة، كأنهم يقولون: آه، حقًا!

«سوف يأتي الليلة، على ما أظن».

صدرت عن البيانو نغمات منخفضة الصوت: سان سانس![1]

«لقد قبضوا عليه قبل أن يمر أسبوع واحد... يا للمسكين! ليس مخلوقًا لكي يقاتل».

كانت كارول نولان تتجاذب أطراف الحديث مع شخص فضّي الشعر يرتدي سترة طويلة الذيل. كان الرجل يستند بركبته إلى مقعد البيانو. كرر الرجل عزف اللحن نفسه، وغنت كارول بضع كلمات للتأكد من اختيارها طبقة الصوت الملائمة للّحن. ثم انطلقا معًا، يومئ أحدهما للآخر... بدأ صوتها يعلو، فصمتت الصالة كلّها.

«الربيع... عندما يبدأ! يحمل معه الأمل إلى قلوب العاشقين...».

«رأيت هذا في هامبورغ منذ ثلاثين عامًا. مع كالازاك، قبل اليقظة الفرنسية».

كانت كأس مدحت فارغة. وكان منتشيًا بغناء كارول. لكن الناس فقدوا اهتمامهم بغنائها مع بداية المقطع الثاني من الأغنية، فتعالى الهمس هنا وهناك كأنه فقاعة مترجرجة. لحن ختاميٌّ أخير، ثم تصفيق، ثم انتقلت كارول إلى أغنية مرحة عن باريس. انضم إليها بعض الحاضرين، وراحوا يميلون بكؤوسهم، كأنها ترقص. فتح أحدهم شبّاكًا في آخر الصالة فهبت على الوجوه نسمة باردة.

نظر مدحت من حوله باحثًا عن جانيت. أحسّ توترًا خفيفًا في معدته. كانت كأسه مليئة من جديد. تمايلت الصالة عندما أدار رأسه. كان سيلفان لوكلير واقفًا في الزاوية، عند السجادة الجدارية، شعره مُزاح جانبًا، مموَّج ومزيّت، لامعًا تحت ضياء مصباح جداري.

*باريس، تلك الشقراء*

*تستهوي قلوب الجميع*

*تشمخ بأنفها ساخرة*

*وعيناها ضاحكتان!*

«أغلقوا النافذة!».

---

(1) سان سانس: مؤلف موسيقي فرنسي شهير.

كان إطار النافذة عالقًا. حاول رجل يرتدي صدارًا عليه بقعة نبيذ أن يزيح عن مقبضها يد طبيب روسي اسمه أندرياشِيف رآه مدحت في الكلية. بدا الطبيب في غاية السُّكر. احمر وجه أندرياشيف لكثرة النبيذ. ابتسم ورفع يديه بحركة من يترك خصمه يربح جولة في لعبة الورق، ثم انقضّ على السيدات الواقفات خلفه مطلقًا عاصفة من الاعتذارات.

كان لوران يأكل لفافة سمك أخرى: «هذا كله نمائم قديمة. لا يزال الناس يتحدّثون عن هنرييت كايلو؛ تسمع اسمها في كل مكان. نصف أبنائهم... أوه، هذه الأغنية التي غنّتها امرأة أمّنت على ساقيها بمليون فرنك. ما اسمها؟ إنها تلك المغنية التي تضع قبّعات مضحكة ذات أشكال غريبة».

تسارعت الموسيقى فصارت لحنًا ملوّنًا نشطًا؛ وبدأت فتاتان ترقصان بالقرب من البيانو، وكل منهما ممسكة بمرفق الأخرى. تلفّت مدحت... أين ذهبت جانيت؟ رأى سيلفان لوكلير من جديد. شعره لامع مثل هلال القمر. ثم رآها، إلى جانبه، جانيت... تصغي إلى سيلفان. مكتبة سُر مَن قرأ

قال لوران: «أظن أنني لا أزال أحبها».

فوجئ مدحت. كان لوران ينظر في الاتجاه نفسه.

«إنها لا تزول بسهولة... هذه الأشياء».

«هل تحب جانيت؟».

«ألم تكن تعرف؟».

«لا...». أحسَّ مدحت عرقًا باردًا يسري على ظهره... «لم أعرف هذا». إلى يمينه، التفتت امرأة متوّردة الوجنتين وابتسمت له.

قال لوران: «لا شيء ينتج عن لا شيء».

نظر مدحت إليه: «ما معنى هذا؟».

«هممم...». مرّر لوران أصابعه في شعره... «يتضاءل معنى الأمر ضمن مجرى الأحداث...». ثم أضاف بنبرة أكثر جدية: «يستطيع المرء أن يحبّ عن بُعد، بالطبع».

حاول مدحت فهم هذه العبارة، لكنه لم يستطع.

«يبدو أن سيلفان يزعجها، أليس كذلك؟ يظهر عليها الغضب».

سأله مدحت: «هل ترى هذا؟».

نظر إلى وجه جانيت الذي ينيره ضوء المصباح. بدت له ملامحها باردة، من غير تعبير: «أجل، هكذا تبدو جانيت عندما تغضب. عليك أن تتعلّم هذا سريعًا... إن أردت أن تتدبّر أمرك معها». نظر مدحت إلى كأسه وقد استولى عليه انزعاج عميق. كان يظن

أن لوران صديقه! ولكن، كم شهرًا مضى منذ تعارفهما؟ ثلاثة أشهر... ثلاثة أشهر ونصفًا. اتّخذ قرارًا سريعًا بأن يصير باردًا معه.

قال: «الجميع يطرح عليّ هذا السؤال، كيف أتدبّر أمري! وكأن هذا أصعب شيء على الإطلاق. أنت تعرف، التلال هنا مثل التلال عندنا. يبدو لي أنهم يظنونني كنت أعيش في الصحراء».

مال برأسه إلى الخلف وابتلع ما كان باقيًا في كأسه.

قال له لوران: «ليس هذا ما عنيته. لكن، نعم، الأمر سخيف. حاول ألّا تتأثر بذلك كثيرًا. كيف يكون الإنسان عارفًا إذا لم يسافر؟...». سعل سعلة صغيرة... «حقًّا، يا مدحت، لديَّ بعض الأنباء. يجب أن أخبرك بها».

من جديد، نظر مدحت إلى جانيت. صار عبوس وجهها واضحًا. رأى شفتاها تتحرّكان، كانت تقول لسيلفان شيئًا، ثم استدارت وخرجت من الصالة.

عليه أن يلحق بها. راحت الأجساد تنزاح تحت كفَّيه مثل سعف النخل. بلغ الممر. اصطدم كتفه بإطار الباب عند خروجه. نظر إلى المخارج: الباب الأمامي، لا؛ الباب الخلفي، لا؛ باب غرفة الطعام، لا؛ السلم، لا. تقدّم إلى زاوية تعليق المعاطف عند الباب الرئيسي ونظر إلى مقبض مظلّته الجديدة. ثنية أنيقة منحوتة على قوس المقبض.

أتاه صوت لوران من خلفه: «هل تعرف؟ يبدو عليك أنك أكثرت من الشرب».

«وأنت أيضًا».

«لا، لم أشرب كثيرًا. أشعر بالاسترخاء، لا أكثر».

«لم أكن أعرف أنك تحبّ جانيت».

«نعم. كنا متقاربين في وقت ما. تعرف كيف تكون هذه الأمور. لكنّي كنت جادًا. يجب أن أقول لك شيئًا».

«أنك تحب جانيت!».

«لا، ليس هذا. الأمر هو أنني ذاهب إلى الحرب. بعد ثلاثة أسابيع، بعد عيد الميلاد». سقطت المظلة من يد مدحت. مالت مستندة إلى المظلّات الأخرى مصدرة صوت حفيف، كأنها تتنهّد. كان لوران واقفًا في اتجاه باب الصالون المفتوح. يداه في جيبيه، ذراعاه ملتصقتان بجسده كأنه يشعر بالبرد. مسّ مدحت مرفقه.

قال لوران: «أمر سيئ، بالطبع. لكنا كنا نعرف أنه سيحدث. الواقع أنني سأعمل طبيبًا هناك، أو في شيء له علاقة بالطب؛ وهذا... أعني أنني لن أكون في الخطوط الأمامية. أنا قلق على كزافييه. أتعرف...». استدار في اتجاهه... «أشعر بالذنب. إنهم في حاجة إلى أطباء. إلا أنني غير قادر على منع نفسي من الإحساس... لكن، لا شيء

كاملًا، أليس كذلك؟ سيحزنني أن أودعك، يا عزيزي مدحت». أمسك بكتف مدحت، هزه قليلًا... «أمضينا معًا وقتًا جميلًا. أوه، لا تكن هكذا، من فضلك، من المفترض أن أكون مسرورًا».

قال مدحت متأثّرًا: «يا صديقي».

«نعم».

«انتظر. انتظر. لديَّ هدية لك. من فضلك، انتظر هنا».

أغمض لوران عينيه مبتسمًا نصف ابتسامة، ثم أومأ برأسه. صعد مدحت السلم، وظلّت عيناه متعلقتين برأس لوران الأشقر. رآه يزيح كومة المعاطف عن الشيزلونغ لكي يفسح مكانًا لجلوسه. صعد مدحت السلم المنحني راسمًا من حول رأس لوران دائرة حذرة متعثّرة وهو يمسك بالحاجز. أخذ الساعة الذهبية التي كانت إلى جانب سريره. حملها في كفَّيه المفتوحتين كأنهما مهد لها.

«لوران. من فضلك».

«أوه، لا يا مدحت. هذا كثير جدًا».

قال مدحت وهو يجلس فوق المعاطف: «يجب أن تأخذها. من فضلك، خذها. أنا خجل من نفسي... افتحها. إنها تركية. إنها تعمل جيدًا. لوران، يا لوران».

مرَّ لوران بإصبعه على إطار الساعة. قال له: «إنها جميلة جدًا».

استند مدحت إلى الخلف، ونظر إلى السقف الذي رسم عليه ضوء المصابيح خطوطًا صفراء. أغمض عينيه، لكن الظلمة المُدوّمة كانت غير محتملة. فتح عينيه من جديد.

«أتعرف؟... كان لدينا في نابلس رجل سكّير. كانوا يدعونه المُسمَّم... أي الشخص الذي تناول سمًا. كان يعيش عند أطراف المدينة. يتجوّل دائمًا وقت النهار، ويتسوّل، ويجمع صناديق الخضار الفارغة. كان يكدس تلك الصناديق حيث يعيش، في أطراف المدينة. وفي أحد الأيام، كنت مع صديق لي، فرأينا المسمّم في الشارع. كان صديقي جريئًا -إنه ابن عمي، في الواقع- فسأل المسمّم عن السبب الذي يجمع تلك الصناديق من أجله... ولماذا يكدّسها. أجابه المسمم: أبني برجًا لكي أصل إلى القمر. قال له ابن عمي: لكن، إذا وصلت إلى القمر، فسوف يعميك! من الأفضل أن يظل هناك، حيث هو، وأن نستطيع كلنا رؤية المدينة في ضيائه».

سمع أصوات الحفلة من جديد، كأنها سكتت ثم انطلقت مرة أخرى.

قال لوران: «أنا مسرور جدًا بصداقتك. بمشيئة الرب، لن يمر وقت طويل قبل عودتي. أشكرك؛ أشكرك كثيرًا جدًّا. لقد تأثّرت تأثّرًا عميقًا...». دفع بشعره إلى الخلف

ونظر إلى الساعة... «أظن أن عليَّ الذهاب الآن. لست قادرًا على احتمال البقاء في هذه الحفلة».

لم يكن مدحت قادرًا على البقاء أيضًا. قبّل خدَّي لوران. ابتسم لوران، ثم ارتدى معطفه. حيّاه، وخطا خارجًا إلى الليل البارد.

أغلق مدحت الباب، وعاد إلى غرفته في الأعلى. لقد كان ثملًا؛ وكان في حاجة إلى الاستلقاء في السرير. صعد السلم متشبّثًا بالدرابزين. وفي الممر، في الأعلى، سمع صوتًا جعله يتوقّف. تريث هناك محاولًا أن يتبيّن الناحية التي كان ذلك الصوت آتيًا منها. لم تكن لديه أية فكرة عما سيقوله لجانيت، لكنه كان يعرف أن عليهما أن يتحدّثا. من آخر الممر، أتاه صوت انسحاب شيء ومعه همس مرتفع، صوت نسائي. اجتاز بابَي غرفتَي مولينو وابنته، فرأى في الزاوية، بعد باب الحمام، جسَدَين واقفين عند الجدار: رجل وامرأة. قفز قلبه إلى فمه. كان الضياء الآتي من النافذة شحيحًا لا يتيح رؤية جيدة في الممر، لكنه رأى بوضوح أن الشخصين يتعانقان -تحرّك رأس الرجل فرأى مدحت شعره الملمّع بالزيت. سيلفان لوكلير! تحرّك خطوة إلى اليسار لكي يرى المرأة فصرّت الأرضية الخشبية تحت قدمه. التفت الاثنان. إنها الخادمة، جورجين. فغرت فمها الأحمر بفعل المفاجأة.

قال لهما: «أوه. أعذراني».

استدار، وعاد أدراجه مسرعًا. انطبق باب غرفته من خلفه بقوة أكثر مما أراد. أحسّ كأن الفراش يرتفع لملاقاته. أغمض عينيه، وجذب ربطة عنقه لكي يرخيها. ومن جديد، رأى سيلفان يتحدّث مع جانيت، فأتت مع تلك الصورة موجة مشاعر عنيفة كتلك التي أحسّها تجاه لوران عندما كان في الصالون؛ لكنها كانت الآن موجّهة إلى سيلفان... على نحو ثمل، معوجّ. راح يصغي -مشوّش الذهن- إلى أصوات الضحك والكلام... أصوات خافتة تتسرّب صاعدة عبر أرضية الغرفة. استرخى جسده عندما تذكّر ابتسامة جانيت له. خلع ملابسه كيفما اتفق، واستلقى فوق أغطية الفراش، ثم غفا سريعًا.

كانت الغرفة صامتة عندما استيقظ فجأة. كانت السماء في الفرجة بين جانبي الستارة مظلمة تمامًا. مد يده إلى ساعته. صفعت كفه سطح الطاولة الصغيرة ثلاث مرات قبل أن يتذكّر ما فعله بها.

## - 6 -

عندما كانت آريان باسان طفلة، قالت لأمها شاكية إنها تشعر بالغثيان عندما تنظر إلى بعض الرجال.

قالت لها: «ماما، لماذا يجعلني العم شارل أشعر بالغثيان؟».

«ليس لطيفًا أن تقولي هذا، يا آريان».

«أشعر بغثيان في أنفي».

«هل تعنين أنك لا تحبين العم شارل؟».

فكرت آريان قليلًا: «لا... أنا أحب العم شارل».

التقت آريان فريديريك نولان أول مرة في حفلة راقصة في «الدائرة السابعة» في باريس. رقصا البولكا معًا. كانت ربطة عنق فريديريك مزيّنة برسوم سوداء صغيرة تشبه القلوب التي على ورق اللعب. كانت آريان تركّز على ضبط خطواتها حريصة على ألا يتغير حجم تلك الرسوم على ربطة عنقه... حتى تظل المسافة بينهما مضبوطة.

زار فريديريك بيت باسان بعد ذلك بوقت قصير. رحّب به السيد والسيدة باسان، بشيء من الدهشة، وأجلساه على كرسي قريب من الموقد. كانت الطباخة قد قدمت لتوها طبقًا جديدًا من سندويتشات السلمون. شبكت آريان أصابع كفّيها، وراحت تحدّق في نار الموقد. كانت شديدة الشحوب، جميلة جدًا؛ وكانت زرقة عينيها شفافة. سأل السيد باسان فريدريك عن عمله، فأجابه فريديريك إنه يدرس الطب في «إيكول نورمال». حرص فريديريك على الإشارة إلى الأراضي التي يمتلكها أبوه على مقربة من منطقة نورماندي. قال إنه سيرث تلك الأرض. أحسّ بثقل الصمت فحاول درأه: امتدح أثاث الغرفة، والموقد الجميل. هل كان موجودًا منذ بناء هذا البيت؟ ثم قال إن سندويتشات السلمون قد تكون أكثر ما يحبه من أنواع السندويتشات. كانت استجابة السيد والسيدة باسان في أدنى حدودها: مهذّبة، من غير تشجيع؛ لكنها تنتهي بالصمت، كل مرة. لم يستطع فريديريك فهم تحفظهما. كان واضحًا أنه مناسب جدًا لآريان التي قاربت عشرين عامًا. إلا إذا... بالطبع... إلا إذا كان مخطئًا في قراءة شيء ما. كان يسترق نظرات سريعة إلى ابنتهما، لكنها لم تجبه بمثلها أبدًا. بقعة نمش كبيرة عند حاجب آريان الأيسر. ذقنها ناعمة، مستدقّة.

ظل فريديريك مواظبًا: مرة في الأسبوع، مرتان أحيانًا، كان يدق الباب فيُدعى إلى الدخول لتناول القهوة، أو لتناول كأس نبيذ. بدأ السيد باسان يُلمّح، بطريقة حذرة غير

مباشرة، إلى وجود آخرين ممن يطلبون يد آريان. لكن شهورًا مضت ولم يرَ فريديريك أحدًا منهم، بل يسمع باسم أحد منهم. لم يصبح الحديث بينهم أكثر سهولة؛ وكانت كل زيارة من زياراته إليهم مكتومة، مخنوقة، كالزيارة الأولى... إلى أن وجد فريديريك أن عليه أن يمنع نفسه من تكرار تعليقاته نفسها على مظهر الغرفة حتى يتفادى الظهور بمظهر من لا يعرف قول شيء غير هذا. كان ينظر إلى آريان نظرات مفاجئة قصيرة مسلّمًا بحقيقة أنها لن تنظر إليه. لم تكن تتكلّم إلا إذا وجّه إليها سؤالاً مباشرًا... تتكلّم بصوت خافت ناعم، وتختصر الإجابة إلى أقصى حدٍّ تسمح به اللغة.

وفي وقت من الأوقات، خلال الشهر الثالث من زياراته، انتبه فريديريك إلى أن أسرة باسان تقدّم إليه سندويتش السلمون في كل مرة. إنها إشارة... أخيرًا... عليه أن يفهمها. تريّث بضعة أسابيع إلى أن صار متأكدًا من الأمر تمامًا: نعم، في كل أسبوع، سندويتشات السلمون مع الشبث والزبدة المملّحة. استجمع شجاعته في إحدى الأمسيات وطلب من السيد باسان أن يتحدّث معه على انفراد. أخذه باسان إلى غرفة الطعام. درع نحاسية معلّقة على الجدار البعيد؛ وطاولة عليها أدوات الطعام جاهزة. لم يكد فريديريك ينبئ الرجل برغبته في طلب يد ابنته، مع العبارات المنمّقة الكثيرة التي تمرّن عليها قبل ذلك، حتى ضمّ باسان كفيه معًا وقال له إنه موافق. عاد بفريديريك إلى جوار الموقد حيث كانت الأم والابنة، فنظرت إليه آريان نظرة ثابتة بعينيها الزرقاوين الشفافتين. لم تكن هناك حاجة إلى قول شيء لها: أومأت برأسها موافقة.

استمرّت فترة الخطوبة شهرين اثنين، حتى نهاية الفصل الدراسي. تزوج فريديريك وآريان في ربيع سنة 1891.

فيما بعد، قالت له آريان إن ذلك الغثيان الذي كانت تحسّه في أنفها اختفى مع بلوغها الثالثة عشرة من العمر. لكنها ظلّت، في أحيان قليلة، تشعر بذلك النفور القديم نفسه عندما ترى نوعًا بعينه من الرجال. وعادة كان ذلك يحدث عند رؤيتها وجه الرجل، بشكل جانبي؛ تراه يصير أكثر وضوحًا من بقية الوجوه في الغرفة. كانت تنظر إلى الوجه نفسه من جديد، لكن ذلك الإحساس يختفي سريعًا، وتختفي معه حالة الاضطراب التي أحسّتها. إلا أن آريان وجدت نفسها تعود مثلما كانت في طفولتها خلال فترة خطبتها من فريديريك. كانت تتذكّر ليلًا عضلات يديه، وسرعة حركته، وعينيه، وحاجبيه الكثيفين، الذكوريين. كان الأمر كأن الانتقال إلى حالة الخطوبة قد غيّر وجهه تغيّرًا تامًا. سرعان ما صار ذلك الوجه يغزو أحلامها. ثم تتذكّر تلك الأحلام في الصباح، فتشعر بذلك الاضطراب القديم في صدرها، وبالغثيان الغريب في أنفها، كأنها واقفة في ورشة دباغة عابقة بروائح الجلود.

ثم ازدادت المشكلة وضوحًا ليلة زفافهما. وصلا إلى شقتهما الجديدة وقت الغسق. صعدا السلم، وعلّقا معطفيهما خلف الباب. تقدّمها فريديريك في الممر المفضي إلى غرفة النوم. حتى قبل أن يشعل المصباح، تحرّكت آريان سريعًا فوقفت في الزاوية القصيّة من الغرفة. نصف وجهها في ضياء القمر الأزرق، ونصفه في الظلمة. لم يتكلّم أحد منهما. ثم تقدم خطوة في اتجاهها.

قال لها: «لا تخافي، يا آريان».

لم تقل آريان شيئًا.

«سوف أنام هناك، في الخارج، إذا كنت تريدين هذا».

رسمت شفتاها المزرقتان كلمة «لا»، لكنها لم تصدرا أي صوت.

مرّت دقائق. تحرك فريديريك. نظر إلى الأرض، ثم بدأ يخلع ملابسه. لم يرد الظهور أمامها ظهورًا مباشرًا، فوقف متّخذًا وضعية جانبية، لكنه كشف نفسه من غير قصد عندما استدار صوب الخزانة لكي يعلّق ملابسه. تردّد في منتصف تلك الحركة... مد يده، ثم ردّها من جديد. حبس ضحكة كادت أن تنطلق منه. وعندما صار تحت الأغطية، أحس كأنه كان يجري مسافة طويلة. ظلت آريان واقفة فترة طويلة، التفت إليها فبدأت تبكي. سمع الصوت الخافت، البطيء، صوت انفكاك الأزرار، ثم تلاه صوت ناعم لحفيف نسيج قطني، ثم رأى غيمة بيضاء، قميص النوم الذي ارتدته وهي تندسّ تحت الغطاء. أحس بوجهها الرطب على كتفه. ثقل رأسها، وجسدها الدافئ الصغير المتجمّع كأنه جسد حيوان أليف. داعب شعرها إلى أن هدأت أنفاسها المتقطّعة. صارت أنفاسها عميقة، ثم تباطأت... غرقت في النوم.

ثم صار الأمر أكثر سهولة. ابتسمت له آريان في صباح اليوم التالي عندما حزما أمتعتهما قبل الانطلاق في رحلة إلى الجنوب. قالت له عندما كانا في الطريق بين ليون وغرونوبل: «أظن أن على هذا الرجل أن يقصّ شعره».

كانت تشير إلى عربة على الطريق أمامها. حزم قش طويلة ناتئة من آخر العربة. ضحك فريديريك، فحدّقت فيه آريان، ثم انضمت إليه ضاحكة. وبعد أن استعادا أنفاسهما، ضحكا من جديد.

عادا إلى باريس، وتولى فربديريك تعليم صفّين إضافيين من صفوف الأنثروبولوجيا لطلبة الجامعة، إلى جانب عمله على أطروحته حتى تصير مناسبة للنشر. كان مخطوط عمله متميّزًا من حيث تطلعه إلى محاولة الجمع بين اتجاهين في التفكير المعاصر بحيث يندرجان ضمن فرضية واحدة: كان الاتجاه الأول قائمًا على نظريات ظهرت في الآونة الأخيرة ربطت بين تطور الجمجمة والميول الإجرامية، في حين تمثّل الاتجاه

الآخر في المدرسة الأنثروبولوجية الطبيعية التي بدأت معالمها تظهر آنذاك لدى علماء الأنثروبولوجيا في المستعمرات الأفريقية. لكن فريديريك اكتشف عند عودته من رحلته الجنوبية أن زميلًا له في مرحلة الدكتوراه اسمه إيميل نشر خلال فترة سفره (شهر العسل الذي استمر أسبوعًا)، أطروحته التي كانت بحثًا في أنثروبولوجيا الجريمة مستندًا إلى معلومات جديدة استقاها من المستشفى المركزي الخاصّ بالسجون. كان ذلك الخبر ضربة موجّهة إلى ثقة فريديريك بنفسه. صحيح أن عمل إيميل كان قليل القيمة إلى حدٍّ واضح، لكنه كان شاملًا على نحو لا يمكن إنكاره، فقلّ ظهور معايبه بفعل حقيقة بسيطة مفادها أنه نشره قبل أن ينشر فريديريك عمله. ثم إن إيميل كان أصغر من فريديريك بثلاث سنين. ألقى ذلك ظلًا على عمل فريديريك الذي كان لامعًا وقت مناقشته ودفاعه عنه، لكنه صار يبدو الآن ثقيلًا، بل حتى واهيًا في بعض المواضع. إذا لم يلق إصداره الأول تقدير زملائه الباحثين، وإذا فشل في نيل إعجابهم، فقد خشي فريديريك أن يكون ذلك إهانة له وأن يضعه في موضعٍ متدنٍ بين أهل الاختصاص بحيث يصير غير قادر على تغيير شيء من ذلك.

كانت آريان مصدر راحته. كانت أشبه بزهرة بدأت تفتّحها. شعّت وجنتاها بلون جديد مع شروعها في ترتيب شقتهما وتزيينها. ذهبت بنفسها إلى متجر ساغليو في شارع فوغيرار، واشترت أثاث الصالون؛ ثم استنفرت الجيران لحمل طاولة ثقيلة منحنية القوائم إلى شقتهما في الطابق العلوي. كان بؤس أيامه في الجامعة يهون عليه عندما تستقبله آريان عند الباب وتريه الجدران التي كادت تفرغ من تغليفها بورق الجدران المزخرف، أو الطلاء اللامع الجديد على الألواح الخشبية أسفل الجدران. وعلى العشاء، أعطته حكمة بسيطة، لكنها عميقة: قالت إن قضاء المرء وقتًا أطول في العمل، وإن تأخّر، أفضل من أن يستعجل ثم يندم بعد ذلك. سُرَّ فريديريك بما أظهرته زوجته من ثقة بالنفس وهي تقدم إليه هذه السلوى بقدر ما سُرَّ بأنها كانت سلوى حقيقية له.

قال لها: «نعم، أنت محقّة، أشكرك يا عزيزتي».

ثم مرّت سنة بعد ذلك، ولم يكن قد نشر كتابه. إلا أن أولى إشارات الحبل بدأت تظهر على آريان بعد ثلاثة عشر شهرًا من زواجهما. أتت المولودة قبل موعدها المتوقّع. كانت أطرافها هزيلة، وظلّت تبكي طيلة الليل. استعانا بممرضة سويسرية اسمها إنغريد. وعندما بلغت جانيت الرابعة من عمرها، رحلت إنغريد وحلّت محلها مربية أطفال اسمها إيفا. بلغت جانيت الثامنة فرحلت إيفا وحلّت محلّها لورينا. لكن تدهور صحة آريان صار واضحًا خلال وجود لورينا. صارت تمضي أوقاتًا أكثر في السرير شاكية من

عللٍ كثيرة؛ وصار يسرّها أن يستغرق شفاؤها من كل علّة زمنًا طويلًا. لم تستعد صحتها بعد ذلك، وبدأت تغرق في حالة من القنوط جعلتها تلزم غرفتها. عجز فريديريك عن تفسير هذا السلوك. عبّرت آريان عن إحساس شديد بالذنب تجاه أبسط الأشياء؛ وغالبًا ما تكون تلك الأشياء غلطة في الكلام، أو استخدام كأس بدلًا من كأس أخرى. كان يعود من الجامعة في المساء، فتحكي له عن عذابات يومها، وكيف دخلت الغرفة لكي تفعل شيئًا، لكنها فعلت شيئًا آخر... ليس هذا أمرًا صحيحًا... ليس هذا أمرًا صحيحًا! يحار فريديريك، ويحاول تهدئتها مثلما أفلحت في تهدئته ذات مرة. انقلب نظام أيامه رأسًا على عقب. اتضح له أن مخاوفه المتعلّقة بكتابه كانت لا أساس لها؛ وقد حصل على منصب جيد في القسم بعد نشر الكتاب. لكن ذعره صار يبدأ عندما يعود إلى بيته.

وأما ما عرفه الجيران عن الأمر، فقد كان كثيرًا جدًّا. كانت جدران تلك الشقق في مونبارناس رقيقة. ثم إن آريان كانت تخرج أحيانًا لتنوح على الشرفة. وعلى الرغم من قولها إن ألمها يتضاعف لخشيتها مما قد يعرفه الناس عنها، ومما قد يقولونه عنها، فإن ذلك لم يوقفها. خشي فريديريك اللوم فلم يستشر طبيبًا ولم يرغب في إرسال آريان إلى مستشفى للأمراض النفسية. لقد عاشت معه معافاة لتسع سنين! ولو كان الأمر عائدًا إلى حالة عصبية أصيلة لديها -كان واثقًا من هذا من الناحية الأنثروبولوجية- فقد كان ينبغي أن تظهر الأعراض عليها قبل الآن. إلا أنه أخذها لرؤية اختصاصي في الجامعة، ثم اتفق مع طبيب لكي يأتي ويكشف عليها في البيت.

كانت جانيت الطفلة تعاني نتيجة ذلك. كل شيء في حياتها يدور حول أمّها... أمّها التي لا تستطيع الوصول إليها! كانت آريان مركز الزوبعة. انتقلت الأسرة إلى آخر الدائرة الخامسة، إلى بيت جديد جدرانه ثخينة لم يلبث العويل الليلي أن ملأه، وملأته أيضًا همسات داعية إلى الصمت، وإصبع على الشفتين؛ وكانت لورينا، المربية، تبعد جانيت عن باب غرفة أمّها محاولة إغراءها بالألعاب. وأحيانًا، خلال النوبات الشديدة خاصّة، كانت المربّية تكتفي بالوقوف عند باب غرفة آريان، إلى جانب جانيت، تضع يديها على أذنَي الطفلة حتى لا تسمع شيئًا، في حين تحاول استراق النظر عبر شقّ الباب.

وبعد انتهاء هذه النوبات، تصير جانيت متوتّرة، وتعذّب المربية ببكاء كثير. استمر هذا طيلة سنوات المدرسة. لكن أمها ماتت آخر الأمر، وكشف لها أبوها عن تفاصيل تلك القصة الغريبة، فزال غضب جانيت وحلّت محلّه مشاعر أخرى. كان الإحساس بالذنب جزءًا مما شعرت به. وأما الجزء الآخر منه فقد كان ذلك الفضول نفسه الذي يجعل المربية تضع أذنها على باب غرفة أمّها. أمضت السنوات الأربع التي تلت ذلك في تفحّص عناصر القصّة وإعادة ترتيبها مثلما ترتّب ورق التاروت على سجادتها، إلى

أن أتت لحظة صار فيها ثقل الماضي غير محتمل فلم تعد جانيت قادرة أبدًا على التفكير فيه.

استؤنف القتال في أوبريس في ربيع سنة 1915. استخدم الألمان الغازات السامة. غيوم مفاجئة، صفراء مائلة إلى الخضرة، كانت تنطلق من عبوات على امتداد خط الجبهة بين ستينترات ولانغمارك. تحركت الغيمات متقدمة مثل ضباب متّصل مضيء، تمامًا في اللحظة التي تنطلق فيها الوحدات الفرنسية صوب الخط الأمامي. كان من بين الموتى بيسون، سائق الدكتور مولينو؛ وكذلك بول ريشيه، زوج ماريان. ارتدت ماريان ثوب زفافها عندما ذهبت إلى القداس الجنائزي. كان إطار صورة التي ظهرت في الإعلان الذي نشر في الصحف إكليلًا من الزهور، مع مجموعة ورود منثورة فوق التابوت الذي كان فيه «بول ريشيه». نصبوا العلم الفرنسي إلى جانب التابوت. كان العلم يتهدّل كلما هدأت الريح، فتصير خطوط الألوان الثلاثة عمودية. وكان ذهن مدحت يراه أشبه بعباءة ظهرت بقعة على حاشيتها.

بعد أيام قليلة، أعلنت ماريان أنها قرّرت الانضمام إلى الممرضات المتطوّعات. أرسلوها إلى ديفون لي بان، عند الحدود مع سويسرا. وفي رسائلها لجانيت كانت تصف الرجال المشوَّهين الذين تنظف جروحهم. كان أحدهم مشلولًا. وفقد الآخر القدرة على استخدام يديه الاثنتين. وفقد آخر إبهاميه. وانتفخت ساق أحدهم حتى صارت مثل قائمة الفيل. وفقد أحدهم فكه الأسفل كله، فصار يدخن السجائر من أنفه. قالت رسائلها أيضًا إن البنفسج كان مزهرًا في الحقول، وإن فوح شذاه هناك أشد مما هو في المدينة. قالت إن أزهار الربيع كست أرض الغابة كلّها.

بما أن بول ريشيه كان أول قريب لجانيت يُقتل في الحرب، فقد توقّع مدحت أن يجعلها حزنها تبتعد عنه. صارت مشاعره نحوها ممتزجة مع مشاعره نحو لوران منذ تلك الحفلة في شهر كانون الأول. إن نظر إلى الأمر نظرة منطقية، فقد كان اعتراف لوران له بأنه باقٍ على حب جانيت يعني، ضمنيًا، أن جانيت لم تستجب له أصلًا. لكن مدحت ظل عاجزًا إزاء الغيرة التي انتابته؛ لا لأن أحدًا قد سبقه إلى الرغبة في جانيت فحسب، بل أيضًا لأن لوران كان فرنسيًا، ولأنه كان متقدّمًا على مدحت في الدراسة، ولأنه ذهب إلى الحرب، فكان مؤهّلًا لأن يصبح زوج جانيت. وكان أكثر استحقاقًا -من كل ناحية- من الفلسطيني القادم من نابلس... الفلسطيني الذي هو أيضًا واحد من رعايا دولة معادية.

لكن ما حدث في الحقيقة هو أن جانيت صارت أكثر التفاتًا إلى مدحت بعد خبر مقتل بول ريشيه. كانت تأتيه بعد وجبات الطعام وتطرح عليه أسئلة عن دراسته. كانت

تدقّ بابه وهو يدرس، وتعتذر لأنها قاطعته، وتسأله إن كان يريد فنجان شاي مع قطعة بسكويت. كانت دروسه في الكلية بعد الظهر؛ وكان الذهاب إلى العيادات قبل الظهر أمرًا اختياريًا بالنسبة لطلبة السنة الأولى، فصارت الفترة الصباحية وقتًا يمضيه مع جانيت. كانا يفترقان بعد تناول الإفطار؛ وما إن يُغلق الباب بعد خروج الدكتور مولينو حتى يلتقيا في الصالة من جديد -كأنما بفعل مصادفة- من غير أن يُقرّ أحدهما بتلك اللعبة.

حدث ذلك مصادفة في المرة الأولى. كان مدحت في غرفته يحاول أن يحفظ أسماء عظام الجسم. الحرقفة والعجز والرُّضفة، ورسغ القدم، ومشط القدم. راح يكتب هذه الكلمات في دفتره، إلى أن نفد حبر القلم وصارت الكلمات التي يكتبها شاحبة، ثم ازدادت شحوبًا. هز القلم وكتب: الظنبوب، والشظية، والعقب. كان باب غرفة مكتب الدكتور مولينو مواربًا، دفعه فانفتح. وجد نفسه في غرفة كبيرة إلى حدٍّ مفاجئ. ثلاثة جدران اصطفت عليها رفوف الكتب حتى بلغت السقف، والرابع فيه نافذة منخفضة مطلة على المزرعة المجاورة وعلى التلال الزرقاء. وإلى جانبي النافذة ستارة مفتوحة كستنائية اللون منسدلة من عارضة عليها حاشية قماشية لها شرّابات تزيينية. كان الأثاث الخشبي مطليًّا بلون تركوازي. في الزاوية كرسي ذو مسندين، وفي وسط الغرفة طاولة مكتب ضخمة لها سطح مغلّف بالجلد وعليها أكداس من الأوراق وبضعة كتب. محبرتان عند حافة الطاولة، كل منهما مليئة بحبر أسود حتى منتصفها. كانت لواحدة منها حافة حمراء، وللأخرى حافة خضراء.

«مسيو مدحت؟».

استدار على عقبيه. رأى جانيت واقفة في المنطقة الظليلة عند الباب. قال لها: «نفد الحبر عندي».

لاحظ احمرار عنقها؛ ولاحظ عند جبهتها بضع شعرات منفلتة من دبابيسها. والغريب أن احمرارها اشتد عندما قال تلك الكلمات... احمرّ وجهها كلّه. أدرك أن تلك كانت بداية شيء جديد: كان كل منهما بعيدًا عن موقعه المعتاد -اعتادا أن يكونا جالسين في ناحيتين متقابلتين إلى طاولة الطعام- ولم يكن أيٌّ منهما في حالته المعتادة. تقدّم خطوة إلى جانب الطاولة.

«هل تحبّين أن نخرج في نزهة؟».

«أوه...». برد بؤبؤا عينيها الأسودان، ثم أجابت بعد لحظة، بعد أن استعادت سيطرتها على نفسها: «شكرًا، سيكون هذا شيئًا جميلًا».

التقيا في الممر، وارتدى كل منهما معطفه، ثم غادرا البيت من غير كلام، وسارا

في جادة جو دو بوم. كان نهارًا مشمسًا وكانت الشوارع غاصّة بالناس، فكان هناك ما يسمح لهما بتجاهل ذلك الصمت المتبادل. مدخل دار الفنون، ثم قصر العدل المزيَّن بالأعلام. نوافذ مدوَّرة ناتئة من أسطح المباني المائلة يلمع زجاجها في ضياء الشمس. اتّجه مدحت نحو الحديقة النباتية، الحرقفة والعجز، والرضفة... كانت الكلمات تتتالى في رأسه... بلغا البوابة الخضراء.

قال لها وهو يضع يده على السياج: «كنت آتي إلى هنا مع لوران».

لكنه اكتشف أن معرفته بالحديقة الآن ليست أحسن مما كانت في زيارته الأولى، فأبطأ سيره. اختار الذهاب في الممر المجاور للسياج. ثم سارا بعد ذلك على غير هدى. أتى الربيع، فجاء بألوان جديدة إلى أحواض الزهور، وامتد البنفسج على طول الممرّات.

قالت جانيت: «أخبرني عنك».

«ما الذي تريدين معرفته؟». كان سعيدًا بوجودهما جنبًا إلى جنب، وبأنه غير مضطرٍ إلى النظر إليها... لو نظر إليها، لوجد الكلام صعبًا عليه.

«لست أدري، ماذا عن مدرستك؟».

«حسنًا... كان لها مبنى واحدٌ طويلٌ، كهذا المبنى. بوابة كبيرة عند أحد جانبيه، ومن الجانب الآخر مضيق البوسفور».

أحسَّ بأن هذا ليس ما أرادته تمامًا، فغيّر وجهة الحديث، ووصف لها كيف كان يهرب مع اثنين مع زملائه في المهجع، فيتسلّقون سور المدرسة من خلف شجرة بلوط كبيرة. أمسك بهم الناظر مرّة في طريق عودتهم من المدينة فما كان منهم إلا أن أعطوه أسماء غير أسمائهم.

«سمير صار اسمه عز الدين عز الدين؛ وقال إلهان إن اسمه سيميون سيميون؛ وأنا قلت إنني أحمد بن أحمد. كان ذلك طريفًا جدًا. ضحك الناظر وأخذنا إلى المهجع. ضحك كثيرًا حتى إنه لم يعاقبنا أبدًا. أعني... لم نكن نذهب إلى أي مكان في حقيقة الأمر! نسير في شوارع المدينة فحسب... نسير فترة من الزمن. كنا نشتري الآيس كريم أحيانًا. أرأيت؟ لم نعرف ما نفعله بتلك الحرّية، لكننا كنا نريد الحرية فقط!».

بعد ذلك، سألته جانيت عن الديانات المختلفة، فعدّد مدحت الجماعات الدينية في الدولة العثمانية، متخيّلًا في ذهنه أنه يشير بإصبعه إلى كل واحد من زملائه الذين كانوا معه في مهجع المدرسة الداخلية. ومن جديد، كان واضحًا له أن هذا ليس ما أرادته جانيت. وهكذا مضى في الكلام على بعض تفاصيل حياته الشخصية، وقال لها إن جيرانهم المسيحيين في نابلس كانوا قلّة، لكن من بينهم طفلة اسمها هلا كان يلعب

معها في طفولته الأولى. كانا يصنعان بيتًا في السقيفة، وكانت تيتا تحضر لهم شايًا.

«يبدو لي هذا طفولة حرّة جدًّا».

«لقد كانت طفولة حرّة... أظنّها كانت كذلك. كنا نعيش عند سفح الجبل. وأبي لم يكن موجودًا، معظم الوقت لأنه كان يعمل في القاهرة ـ لا يزال في القاهرة. كانت لي مربية عندما كنت صغيرًا، لكني أمضيت معظم الوقت مع جدّتي».

ازداد لسانه طلاقة فسأل جانيت عن حياتها. تساءل في نفسه إن كانت ستخبره المزيد عن أمّها، لكنها لم تخبره شيئًا، ولم يسألها.

وببطء، كشفت له عن معلومات أخرى عن طفولتها في مونبارناس، وحكت قصصًا مسلية كمثل القصص التي سمعتها منه. وعندما بلغا البيت الزجاجي في الحديقة، قالت له إنها لم تكن مسرورة أيام دراستها في الجامعة. كان هناك أولئك الرجال كلّهم... ضحكت فاختفت الغضون الصغيرة تحت عينيها في ضياء الشمس.

التقيا مرة أخرى، عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. سارا في شوارع الحي هذه المرة، واسترقا النظر عبر مداخل البيوت الأخرى... نظرا إلى مصاريع نوافذها بطلائها الباهت المتشقّق تحت وطأة النسيم الحار الآتي من البحر المتوسط. انتقلت أحاديثهما من المعلومات والذكريات البسيطة إلى عالم التخمين: ربما شعر بهذا، وربما شعر بذاك. أحسّ مدحت كأن دوارًا أصابه لشدة اهتمام جانيت، وحاول كبح حماسته إزاء ما كانت تحكيه له عن حياتها. لكن فرحته كانت حذرة تشوبها هبّات قلقٍ شديدة. كان يحسّ أحيانًا بأن خصوصيتهما واقعة في مرمى أحكام يصدرها (هكذا ظنّ) من يرونهما من الناس الآخرين؛ وتشوّش ذهنه عندما تخيّل كيف يبدو منظرهما من تلك النوافذ التي يمرّان بها... رجل وامرأة مرئيان من الأعلى، يسيران من غير رقيب! جعلت هذه الصورة أفكاره تمضي في درب قديم: عادت أولًا إلى أيام المدرسة، وإلى ابن عمه جميل وأسئلته التي كان يخالطها شيء من الاعتزاز المرح بالنفس... أسئلته عما إذا كان أي منهم يقابل نساء مثلما يفعل هو. لكن هذه الفكرة لا تلبث أن تغرق تحت ثقل تفكيره في لوران وفي «تاريخه المريب» مع جانيت؛ وكذلك في جهل مدحت النسبي بسلوك الأوروبيين، ذلك السلوك الذي قد لا يرى في مشهد رجل وامرأة سائرين جنبًا إلى جنب يتحدّثان عن ذكريات طفولتيهما أي معنى خاصّ على الإطلاق، بكل بساطة. راح يبذل جهدًا غير قليل في محاولة منع ذهنه من المبالغة في شأن نظراتها وكلماتها ولحظات صمتها. كان هذا كله جديدًا عليه. من المفترض أنه لم يكن جديدًا عليها. تساءل إن كانت جانيت تسير مع لوران مثلما يسيران الآن، فكان أثر هذه الفكرة وحدها كافيًا لإيقاف اندفاع ذهنه خلف تلك الخيالات. على الرغم من هذا، وعلى الرغم من معرفته

بأن من الممكن تمامًا أن يكون سؤال واحد كافيًا لأن تهدأ سريرته، فقد ظلّ عاجزًا عن استجماع الشجاعة اللازمة لسؤالها عن لوران، بل حتى لمجرّد ذكر اسمه.

وفي صباح أحد الأيام بينما كان يدرس في غرفته منتظرًا أن يحين وقت التقائه بجانيت في الممر، سمع صوت بكاء في الطابق السفلي. تردّد، ثم قرّر أن يظل حيث هو ويتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا. لكن شدّة البكاء ازدادت. سمع صرير باب ينفتح في الطابق العلوي؛ ثم سمع صوت جانيت يقول: «ماذا يحدث هنا؟».

فتح مدحت بابه فرأى جورجين خارجة من الصالون، مسرعة، محمرّة الوجه. أمسكت بقضبان درابزين السلم في الأسفل كأنها قضبان زنزانة في السجن.

راحت تهز القضبان وتقول: «أرجوك».

جاء الدكتور مولينو من خلفها رافعًا يديه الممتلئتين أوراقًا ورسائل. ألقى نظرة قاتمة إلى الأعلى، إلى مدحت وجانيت الواقفين في ممر الطابق العلوي.

قال: «إنني آسف، لكننا لا نستطيع تحمّل هذا. أنا آسف فعلًا يا جورجين».

قالت جانيت: «ماذا حدث؟».

نظر مولينو نظرة سريعة صوب مدحت ثم قال بتردّد واضح: «إنهم يخفضون تمويل الجامعة. لقد نظرت في الأرقام فوجدت أننا لم نعد قادرين على دفع أجر من يعمل هنا. نحن ثلاثة أشخاص هنا ولسنا في حاجة إلى...».

قالت جورجين: «لا...». انفتح فمها واسعًا، وجرت دموع جديدة على خدّيها.

«من الممكن أن يبدأ التقنين في أية لحظة».

قال مدحت: «أستطيع أن أطلب من أبي».

لوح مولينو بيده قائلًا: «لا لا لا لا».

سألت جانيت: «عائلتكِ، أين هي؟».

أجاب مولينو: «إنها من النورماندي. استمعي إلي، يا جورجين».

همس مدحت لجانيت: «هل أذهب؟».

هزّت جانيت رأسها نفيًا وأشارت له بيدها أن يبقى حيث هو. بدت له تلك الإشارة المختبئة خلف الدرابزين إشارة إلى نزهاتهما السرية وأحسّ كأنها تزيد الصلة التي بينهما متانة.

سأل مولينو: «هل أنت قلقة على عائلتك؟».

كانت أنفاس جورجين متقطّعة عندما قالت: «أرجوك، يا أستاذ. أرجوك، يا سيدي. أرجوك،...».

انفجرت باكية من جديد، وغطّت وجهها بيديها. فقال مولينو: «فلنتكلم بهدوء.

كرمى للرب، يا جورجين. عليك أن تهدأي حتى نستطيع أن نتكلّم».

هدأت جورجين، تدريجيًا. فوجئ الثلاثة عندما بدأت تحاول إقناع مولينو -مخاطبة إياه بجملة متنوّعة من ألقاب التعظيم التي حسبت أنها قد تساعدها في الظفر بما أرادته- بأن يتركها تستمرّ بالعمل لديهم مقابل أجر مخفّض.

لم يخرج مدحت وجانيت إلى النزهة ذلك اليوم. ساعدت جانيت جورجين في إغلاق الصالون وغرف الضيوف وحجرة بيسون، حيث غطّتا قطع الأثاث بملاءات بيضاء. كان صمت حذر مخيمًا عليهم عندما تناولوا معًا طعام الغداء الذي قدّمته جورجين ذات الوجنتين المتورّمتين والعينين اللتين لا يزال الدمع لامعًا فيهما.

ازداد أعداد القتلى. وكانت «لائحة الشرف» تطالعهم بأسماء جديدة كل يوم: جون برتران من بور ماريان في الثامن والعشرين من نيسان؛ وموريس كارينيوم يوم الثلاثين من نيسان؛ وجان ريفال، ابن طبيب الأسنان في سان جوليان، في بداية أيار؛ وباسيل فالون في أوبريس بعد بضعة أيام من ذلك. ازدحمت الأديرة والمعاهد والكليات والمدارس الثانوية، وكل بناية كبيرة في مونبلييه، بأسرّة الجنود الجرحى. تطوّعت جانيت بالقراءة للجرحى الناقهين. بدأت تذهب إلى مركز المدينة مع مدحت حاملة كتبًا ومجلات. كانا يسمعان في الطرق الرئيسية غناء نساء ريفيات تحملن نقّالات الجرحى. أحيانًا، كانا يلمحان تلك الجماعات: أربع نساء تحملن النقالة وقد عقدن تنوراتهنّ حتى لا تتعثّر خطواتهنّ.

لن تستمر الحرب أكثر من بضعة شهور... هكذا كانوا يقولون السنة الماضية. كانت الملصقات التي في المدينة تتقشّر عن الجدران؛ وقد بدأت بعض الملصقات الأقدم عهدًا تتمزّق في مكانها. ملصق فيه جندي يقبل طفلًا؛ وآخر فيه امرأة ممتلئة تحتفل بالنصر في مطبخ بيتها. راية مثلثة الألوان تخفق، وكهل يضع صناديق في أحد الخنادق. صارت التجمّعات والحفلات قليلة في مونبلييه. وفي تلك الحفلات القليلة، كانت أخبار الحرب مسيطرة على كل شيء.

وفي بيت أسرة مولينو، كان للموت أسلوبه المعروف في إزاحة الحُجُب عن الحقائق وفي إرخاء الألسن المعقودة. ففي ظلّ حالة الحزن العامة، وجدت جانيت نفسها غير قادرة على مواصلة امتناعها عن البوح بما تحسّه. عادت أفكارها إلى أمّها، فلم تحاول كبتها. بدأت تبوح لمدحت بما كان دفينًا في نفسها.

كانا جالسين على الشرفة ذات صباح من صباحات شهر أيار حاملَين كتابَين لا نية لهما في قراءتهما. زهور بريّة متناثرة في المرج من أمامهما؛ وأنصال عشب نابتة بين الحجارة المرصوفة حيث يلتقي المرج بالشرفة.

قالت: «لا، لم تكن للأمر علاقة بأي شيء خارق للطبيعة...». كان زكام ربيعي بسيط

قد جعل صوتها خشنًا قليلًا... «كان ذلك كلّه بقرار منها. أظنّها كانت تتعمّد جعل نفسها مريضة. يبدو لي أن هذا كان يمنحها شيئًا تركّز اهتمامها عليه... فقد كانت تفعل شيئًا متطرّفًا كلما تحسّنت حالتها: تبالغ في الأكل كثيرًا حتى تتقيأ، أو تجوّع نفسها حتى تكاد تموت، أو تخرج من البيت في ليلة ممطرة من غير حذاء. صاروا، في ما بعد، يقولون إنها كانت هستيرية، لكن ذلك لم يبدُ لي صحيحًا على الإطلاق».

قال مدحت وهو يسند ذقنه إلى كف يده: «الهستيريا... نعم».

«ما كنت أريد أحدًا غير أمي، لكنني ما كنت قادرة حتى على لمسها».

«مررت بمثل هذا. كان لديّ الإحساس نفسه تجاه أبي».

«ألم تحسّ هذا تجاه أمك؟».

«حسنًا... كان عمري سنتين عندما ماتت. أظن أحيانًا أنني أتذكّرها. لكنها ذكرى مشوّشة، وأنا غير واثق منها. أتذكّرها جالسة على الأرض تفعل شيئًا بيديها. لست أدري».

«لا أتذكّر عن أمي شيئًا غير استلقائها في الفراش شاحبة. كانت أسعد حالًا عندما تمرض. أنا واثقة من هذا. كنت أجلس إلى جانب سريرها عندما تصيبها حمى. أليس هذا غريبًا؟ وأما عندما لا تكون مريضة، فهي رعب، شبح مخيف... كنت أكرهها في تلك الأوقات. البيت في حالة فوضى؛ كانت تضرب... تضرب الخادمات اللواتي يهربن إلى أي مكان في البيت... وأبي... لكن المرض... كان يسعدها أن تمرض. أعني، يصعب علي الآن تخيّل تلك الأشياء ولو حتى مجرّد تخيّل. ليس لدي ما أستطيع الاعتماد عليه غير نتفٍ صغيرة أخبرني بها أبي. وهناك أشياء قليلة أتذكّرها. لكن، حتى في هذه الحالة، كيف نعرف إن كان الأمر حقيقيًا أم غير حقيقي؟ كيف نعرف إن كانت تلك الذكريات أشياء اخترعناها بأنفسنا... مثلما قلت أنت».

عدّل مدحت جلسته بحيث صار في مواجهتها. قال لها: «لكن... عليك أن توضحي لي الأمر لأنني لا أزال غير قادر على فهمه تمامًا. لا ندرس الطب النفسي قبل السنة الثالثة في الكلية».

ضحكت جانيت، ثم تنهدت وبدا عليها الجد. قالت له: «كانوا يسمون ذلك مرضًا عصبيًا... وهذا يعني حالة جنون... في الدماغ. ما الأمر الذي لم تفهمه؟».

«لم أفهم ما قلته من أنها تكون أسعد حالًا عندما تمرض».

«آه، حسنًا... أنا لا أفهم هذا أيضًا. لكن الأمر كان هكذا، بقدر ما أتذكّره. كان وقتها مقسّمًا بين فترات المرض الجسدي، وفترات العافية. ما كان مسموحًا لي أن أراها إلا عند مرضها. هل فهمت؟ أعني أن تلك المرأة كانت تلزم غرفتها طيلة الوقت. ثم تأتي

فترة -عندما يأتي سيلفان- تبدو فيها أحسن حالًا. لم تكن تلازم فراشها في تلك الفترة. كثيرًا ما كان يتناول طعام العشاء معنا. تجلس ماما إلى العشاء. كان يحضر لي هدايا صغيرة. أتذكّر عنقود العنب الزجاجي... حبات عنب أرجوانية اللون، وعود منحوت من خشب. لكن سيلفان استمر يزورنا بضع سنين. ثم لا أتذكّر ما حدث بالضبط. إلا أن انتحارها كان أمرًا غير متوقّع... بالتأكيد، كان أمرًا غير متوقّع. كنت في السادسة عشرة. أظنني قلت لك هذا».

«صحيح. أنا آسف جدًّا، يا جانيت. هذه مأساة حقيقية».

«حسنًا... مرّت فترة كنت فيها أفكّر بالأمر كثيرًا، وأحاول أن أفهمه. ثم أدركت أن لا معنى لأن أجعل هذه الأشياء هاجسًا عندي. لكن لدي هذه الفكرة: عندما تكون مريضة، يكون ذلك كأنها سدّت بابًا بحجارة كبيرة فصارت غير قادرة على الخروج من البيت. ثم تمضي أيامًا كثيرة في إزاحة الحجارة، حجرًا بعد حجر، إلى أن تصير قادرة على رؤية الشارع. لكنها تخرج، في اللحظة التي تصير عندها قادرة على الخروج كما تشاء، فتجمع حجارة جديدة. لا أظن... بل أظن أنها كانت تحاول، في الحقيقة، إلهاء نفسها... أظن بأن العيش كان صعبًا عليها. لست أدري؛ لست أدري شيئًا. أقول هذا من خلال ما قاله لي أبي. إنها الأشياء نفسها التي كان لوران يقرأ عنها منذ بضع سنين».

«لوران!».

«أجل».

حلّ صمت قصير. ثم خاطر مدحت وقال: «اشتقت إليه».

«وأنا اشتقت إليه». نشقت بأنفها؛ لعلها نشقت بسبب الزكام... «تلقيت رسالة منه في الأسبوع الماضي».

كانت هذه مفاجأة لمدحت. قال لها: «أوه، هل هو بخير؟».

«إنه بخير. إنه على ما يرام. والحقيقة أنه سيعود عما قريب. ألا تحب أن تقرأ رسالته؟».

«إن كان فيها شيء خاص...».

«لا، على الإطلاق. إن شئت الصدق، أدهشني أن يكون لديه وقت لكتابة الرسائل. لحظة واحدة. سوف أصعد سريعًا لأجلب الرسالة».

سار مدحت حتى البركة، وانتظر. داهمته رغبة مفاجئة قوية في أن يموت لوران. لكن الخلاص الذي تخيّل أن موت لوران قد يجلبه له تبخّر سريعًا عندما انتبه إلى احتمال أن تؤدّي ذكرى بطولته إلى انتعاش حبّه في قلب جانيت. كان منسوب الماء في البركة قد ارتفع خلال الشتاء؛ وكانت خطوط من نور منعكس تتراقص على جدران

البركة الداخلية.

كانت طحالب خضراء قد كست أسفل الجدران. استدار فرأى جانيت على الشرفة من جديد. كان في يدها مغلف رسالة. جاءت إليه.

قالت: «خذها».

*28 نيسان 1915*

*عزيزتي جانيت،*

*لقد أرسلوني إلى الدردنيل آخر الأمر، لا إلى أوبريس. أعمل الآن على سفينة اسمها بيوش يقودها بطل اسمه باستان حصل حتى الآن على خمسة أوسمة. أكثر الشباب هنا من ليون وطولون. ومنذ يومين، نزل إلى الجهة الأوروبية من المضيق مزيد من الجنود الفرنسيين مع الوحدات الإنكليزية. يقولون إن ربع رجالنا قد أصيبوا خلال محاولة الاستيلاء على كوم كاله. كانت إقامة مستشفى على ظهر سفينة أمرًا صعبًا في ظل ازدحامها بآلاف الجنود على امتداد أسابيع كثيرة، فضلًا عن أننا كنا في قلب المعركة. كان الجنود في ذلك الوقت يشغلون معظم حجرات السفينة المخصّصة للجرحى، فوجدت نفسي أمضي طيلة فترة بعد الظهر في جرجرة السروج وأكياس البريد إلى أحد المطابخ حتى أضع مكانها صناديق الأدوية والضمادات والمعقّمات.*

*ظلّت قوافل الجرحى مستمرة من مغيب الشمس حتى الفجر، ولم ننقطع عن العمل طيلة تلك الفترة. كنت في غرفة لعب الأطفال في السفينة حيث لدينا طاولات كبيرة ـ أنا هنا طبيب مبتدئ، لكن تلك التصنيفات تصير منسية كلّها عندما يكون المرء هنا. كان أول المصابين جنديًا من السنغال ـ كان مستلقيًا على السرير، فاقدًا الوعي. اخترقت رصاصة أذنه، ورصاصتان في بطنه. مات وقت الظهر، من غير أن يصحو. ثم أتاني عريف مزّقت صدره شظايا قنبلة. وللحظة، رأيت قلبه مكشوفًا... كان لا يزال نابضًا. هنا، أتعلّم كل شيء بسرعة كبيرة، يا جانيت... صدقًا، إن هذه الأوضاع تسخر من القاعدة التي تعلّمناها من ريفو، عميد الكلية، «الملاحظة، والاستنتاج». كان منظر ساحل الدردنيل في هذين اليومين مشهدًا يصعب تخيّله. يستطيع المرء رؤية أكوام القتلى على شاطئ كوم كاله. وعلى الضفة الأوروبية، كانت كريثيا تحترق. وقبل ييني شير، كانت هناك سفن في كل مكان –سفن حربية، وسفن تجارية، وزوارق طوربيد–، والسفن التي تعمل على تنظيف القاع من الأنقاض... أسطول كامل محتشد من حول شبه الجزيرة. ورجال نائمون في كل زاوية*

على سفينتنا، بيوش. في هذا الصباح، يختلط دخان المدافع بضباب الفجر، وكل شيء يغلي ويفور.

طيلة نهار أمس، كان شبه جزيرة غاليبولي مشتعلًا كلّه -كانت قلعة سد البحر مشتعلة أيضًا-. انضم إلينا الأستراليون، وكانوا يطلقون النار مباشرة على كوم كاله على الساحل الآسيوي، فارتفعت هناك أعمدة الدخان والغبار واللهب. عندما كان الجنود منتظرين في صالة الطعام، شغّل أحدهم غرامافونًا فبدا كأن نهاية العالم قد حلّت، في حين كانت السفينة شارلمان تقصف خليج بيزيكا. ومنذ ذلك الوقت، لم ينقطع إطلاق المدافع من سفننا. على الرغم من كوننا وحدة هامشية، فقد رأينا اليوم قذيفة تسقط أمامنا. ثم سقطت قذيفة ثانية في المكان نفسه فغمرتنا بالماء. وبعدها، مرّت من فوق رؤوسنا مجموعة قذائف متتالية. أُصبنا عدة مرات بعد ذلك. وبالنظر إلى أن سفينتنا غير مزودة بدروع ثقيلة، فإن كل قذيفة تحدث ضررًا. هذا يعني أن علينا دائمًا أن نعمل كثيرًا حتى نصلح الأضرار.

مع حلول الساعة الثانية عشرة ظهرًا كانت ييني شير قد دمّرت كلها. وجّهت بيوش مدافعها صوب إنتيب، وصعدنا جميعًا إلى سطح السفينة حتى ننظر إلى المشهد. استمرّ القصف طيلة الليل. كانت السفينة ترتعش كلّها. وفي الصباح، كانت الجثث مكوَّمة أمامنا على امتداد الشاطئ، لمسافة أكثر من ثلاثمئة متر.

يكفي هذا. ارتحت لأنني كتبت بعد كل ما رأيته، لكنني أتمنّى ألا تكون قراءة ما كتبته مزعجة. آمل أن يكون مدحت بخير، وأن يكون مستمتعًا بدروسه في الكلية. أمر غريب جدًّا أن أفكر في هذا. لا أزال أستخدم ساعته مع أنني مضطر إلى إخفاء أرقامها التركية عن بقية الجنود. أترقّب أن أحصل على إجازة بعد أن تنتهي هذه المعركة. يقولون إنها ستنتهي الأسبوع القادم، أو الشهر القادم. وعلى أية حال، أنا مشتاق إلى رؤيتكما.

محبتي وأشواقي،

لوران

«إنه عائد».

«انتهت المعركة يوم الجمعة. لم نسمع شيئًا من كزافييه». قلّبت مغلف الرسالة في يدها.

قال لها مندفعًا: «هل كنت تحبين لوران؟».

«عفوًا؟».
«قال لوران إنه يحبك».
حدّقت جانيت فيه: «متى قال لك هذا؟».
اندفع الدم إلى أذني مدحت. أطرق برأسه ناظرًا إلى حذائه: «كان ذلك في الحفلة».
«مدحت...». زفرت زفرة عميقة... «أنا... لست واثقة مما ينبغي عليك قوله».
مدت يدها لكي تأخذ الرسالة منه. فقدَ وجهها حيويته. بدت له مضطربة.
«جانيت، من فضلك... إنني آسف».
تركته في الخارج. صعدت درجات السلم بسرعة جعلت تنورتها تخفق بين ساقيها. وعلى العشاء، لم تلتق عيناها عينَي مدحت أبدًا. انتظرها على الشرفة في صباح اليوم التالي، بعد الإفطار. ذهب إلى الكلّية من غير مظلة. فشاء حظه أن يبدأ هطول المطر بعد دقائق من خروجه. انفتحت المظلات من حوله، وغرق حذاؤه في برك الماء. ابتل جورباه، ثم برد كاحلاه. وما هي إلا لحظات حتى صارت أرصفة الجادة غارقة كلّها. كانت رائحة الصوف المبتل فائحة من معطفه عندما وصل إلى سال دوجيه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

## - 7 -

كان مكتب الدكتور فريديريك مولينو في الجامعة أصغر من مكتبه في البيت، وأقل فخامة. مع هذا، كان يعمل في الجامعة معظم الأيام: إن كان يريد ترقية بعد نشر رسالته الثانية، فإن عليه أن يزيد من حضوره هنا؛ وهذا يعني أن يكون موجودًا في الجامعة إلى أقصى حد يستطيعه. كان يصل عند الساعة الثامنة من صباح كل يوم، فيلقي محاضراته حتى الظهر، ثم ينسحب إلى مكتبه لكي يواصل أبحاثه، ولكي يجيب عن أسئلة الطلبة الذين يأتون إليه. لم يبق الآن إلا عدد قليل من الطلبة. صار الأستاذ يلقي المحاضرة في المدرج أمام عدد محدود منهم، أكثرهم من الأجانب والنساء... يتابعون مولينو وعصاه الصغيرة التي يشير بها ناظرين بعيون كأنها من زجاج... عيون كلها حزن.

كان مكتبه غرفة عند الزاوية في الطابق الثاني يدخل المرء إليه من خلال باب مزدوج قبل أن يصل إلى بابه ذي النافذة الزجاجية المغشاة. وفي الداخل، نوافذ غربية تسمح بدخول الشمس بعد الظهر، وبرؤية الساحة الخارجية. لوحتان مائيتان خلف مكتبه تصوران نهر هيرو. كانت المكاتب على الناحية الأخرى من الممر تطلّ على نهر حقيقي هو رافد صغير من روافد نهر ليز. كانت طاولة مكتب فريديريك تلامس النافذة. وكان يحتفظ بالشراب في خزانة منخفضة وضع فوقها الكتب التي لم يبق لها متّسع على الرفوف. يجلس الزائر، أو الطالب، على الكرسي، في حين يجلس فريديريك على الطاولة. وكثيرًا ما كان يضبط نفسه مفكّرًا في المكاتب الأخرى، الفسيحة، في القسم... تلك المكاتب التي صارت الآن خالية بسبب الحرب. لكن، لا يمكن أبدًا أن يطالب لنفسه بواحد منها، بالطبع!

انفتح الباب قليلًا: «مساء الخير، يا فريديريك».

«باتريس. ادخل. اجلس».

جلس فريديريك على الطاولة ووضع قدمه على حافّة درج مفتوح قليلًا.

علّق باتريس قبعته على ظهر الباب: «متى يكون العشاء؟ قلت للفتيات...».

«أظن أننا اتفقنا على الساعة الثامنة».

«هذا جيد».

«ماذا أقدّم لك؟ لديَّ ويسكي، وأفسنتين».

«أفسنتين».

«أوه، الزجاجة فارغة، اعذرني».

«سأشرب كونياك، إن كانت هذه زجاجة كونياك. كيف يسير عملك؟».

«أعمل الآن على فكرتين. أظنني أحقّق بعض التقدّم. إن على المرء أن يختبر النقاط الشاذّة، كما تعلم».

«حدّثني».

سكب فريديريك لنفسه كأسًا. كان يشعر بأن اهتمام باتريس بالأنثروبولوجيا يمكن أن يشكّل خطرًا بالنسبة إليه. والحقيقة أنه كان لا يزال معتمدًا على باتريس في الإصغاء إلى ما يقوله وإبداء رأيه فيه: كان الشخص الوحيد الذي يرى فريديريك أنه قادر على التعبير أمامه عن أفكاره من غير أن يخشى شيئًا. وكان جزء من هذا عائدًا إلى أن باتريس لم يكن من قسم الأنثروبولوجيا، مما يعني أن أية منافسة بين الاثنين ليست منافسة مهنية، بل شخصية. على الرغم من تمتع باتريس بالذكاء الكافي لأن يختط لنفسه مسارًا مهنيًا في هذا الاختصاص ـ حتى في هذه المرحلة المتأخِّرة ـ فإنه لم يفعل ذلك. لم يكن، بحسب تعبيره هو نفسه، إلا شخصًا «يخوض في بحر علمه». بل إنه قال له في السنة الماضية، عندما نشر ذلك الكتاب عن سلوك الحيوانات إنه «يستمد إلهامه منه»؛ فكان الذعر ردة فعل فريديريك، ذعر جعله ينكبّ على عمله بحماسة متجدّدة. كان واضحًا تمامًا أن الترقية المهنية ليست بالحافز الكافي لفريديريك مولينو، فهو في حاجة إلى منافس له وجه حقيقي.

دفع فريديريك الدرج بقدمه ففتحه قليلًا. قال: «في البداية، لدينا اللغة...».

«تابع».

«اللغة وتقدّم الحضارات».

«حسنًا. هذا يبدو، بعض الشيء،...».

«صحيح، يبدو ألمانيًا. لن أنشر شيئًا قبل انتهاء الحرب. أعني أنني لم أبدأ الكتابة بعد. لا أزال في مرحلة القراءة».

أسند باتريس مرفقه إلى ظهر الكرسي فتكوّر كتفه قليلًا: «هل يعني أن عملك سيكون رسالة في الفيلولوجيا؟».

«لست متأكّدًا... إن شئت الصدق. لديّ اتجاهان. الأول... صحيح... اتجاه فيلولوجي يربط بين الفيلولوجيا والتطوّر. قد تشذّ كلمة عن القاعدة النحوية، فلماذا لا يشذّ كائن بشري؟ وما الذي يعنيه هذا على وجه التحديد؟ إنني أفكر في هذا تحديدًا، وفي علاقته بالمسلمين».

«الحضارة الإسلامية».

«المسلمون باعتبارهم شذوذًا عن التقدّم العام. يمكن التعبير عن الأمر هكذا...».
أطلق فريديريك ضحكة خرقاء.

عبس وجه باتريس: «بالتأكيد... الجبرية شيء يحيرني».

«لا... بالطبع. لكن ما يحيّرني هو -وهذا أكثر إثارة لاهتمامي من مسيرة التقدّم صوب ما يجب أن يكون عامًا ومشتركًا- هو لماذا اختاروا نبيًا غير المسيح وهذا ما كان دائمًا، إن أردت الصدق، مجافيًا لذوقي... إذًا، فالسؤال هو -في نظري على الأقل- المدى الذي يمكن فعليًا بلوغه في شفاء هذا الشذوذ. هل تدرك ما أقوله؟».

«تعني أن على المرء تعليمهم التوافق مع بقية العالم؟».

«نوعًا ما. قيمة الحرّية، على سبيل المثال. كل ما هو غير موجود في نصوصهم المقدّسة».

أتى صوت سيارة من الشارع. نظر باتريس إلى فريديريك وقال: «أنت تفكّر في ضيفك الشرقي».

قال فريديريك: «مدحت؟ حسنًا، في واقع الأمر، أظن أن هذا صحيح. أشعر بأن وجوده قد ألهمني إلى... أعني... من الواضح أن هذا دليل على إمكانية تعليم العربي».

هز باتريس رأسه: «لمجرّد أنه طالب! يرسل الأتراك الأثرياء أبناءهم إلى الخارج، دائمًا. وأنت تحدّثني عن الحضارة جملة. هناك استثناءات دائمًا. تحدث قفزات».

«لكن، انظر... ماذا عن اللغة؟ يقول هامبولدت...».

«لا تستشهد بألماني... هناك أناس في الممر! لا أريد أبدًا أن أبدو شخصًا انهزاميًا. لكني أريد أيضًا الإشارة إلى أنك لا تعرف اللغة العربية».

«صحيح. كنت أفكّر في هذا...». نقر بإصبعه على كأسه... «لكنّي، في الحقيقة... يا باتريس، ليس لدى كل واحد منا شخص يعيش في بيته... شخص لديه هذا التميز في... لكن، صحيح. في الوقت الحاضر، هذه ليست أكثر من أفكار تجول في رأسي. وكما قلت لي، إذا كنت أعتمد على الألمان، وعلى طريقتهم في النظر إلى العالم، فعليَّ أن أنتظر، بطبيعة الحال، ثم إنني أريد أن أكون أكثر ميلًا إلى التجريبية. مثلما قلت لي. نعم، أنت محقّ. أنت محق كعهدك دائمًا».

راح فريديريك يرشف من كأسه وينظر إلى صديقه. رفع باتريس رأسه ونظر عبر النافذة زامًّا شفتيه قليلًا.

«أظن أن هذا يمكن أن يكون أمرًا مثيرًا للاهتمام. هذا مشروع طموح، يا فريديريك، خاصة لأنك لا تعرف اللغة. ربما كان عليك أن تواصل اللعب بهذه الأفكار -تعرف

أنني لا أريد أن أثبط عزيمتك-. لكن، إذا كنت تستخدم الدراسات الألمانية إطارًا لعملك، فهذا أمر فيه مخاطرة، كما تعرف. قد يستحق الأمر الانتظار».

كان باتريس محقًّا في ما قاله. لقد بالغ فريديريك في طموحه. لكن طموحه كان ذا طبيعة خاصة. فبعد إصداره كتابه الأول في «ليكول نورمال سوبيريور» في باريس، قبل أكثر من عشرين عامًا، كان فريديريك يستمدّ القسم الأكبر من مسرّته المستمرة لا من الترقية الفعلية التي ضمنها له الكتاب (نصر سريع الهضم والاستيعاب، مثلما تكون الانتصارات عادة)، بل من ردة فعل زميله إميل. تصرّف إميل تصرفًا لائقًا محترمًا. هنّأ فريديريك، وأثنى على عمله، ووصفه بأنه «مثير للإعجاب» من حيث أسلوبه في اختراق حدود الاختصاص، حتى إن كانت حدودًا داخلية بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا. لكن فريديريك استشعر نبرة غيرة كامنة خلف تلك اللباقة. راح يترقّب العداء في الملاحظات التي قدّمها إميل من أجل مناقشة الكتاب، وفي أسلوب إميل المتكبّر عندما حيّاه في قاعة الطعام بعد الاجتماع. إزاء ذلك كلّه، لم يشعر فريديريك إلا بالبهجة.

بعد أربع سنوات من منصب التدريس في جامعة مونبلييه، كان عليه أن يقدّم أطروحة جديدة من أجل ترقيته إلى درجة أستاذ. وكان يشعر طيلة ذلك الوقت بحرج متزايد لأنه لا يزال في درجة محاضِر. لكنه فوجئ مفاجأة غير سارة بالكتاب الذي أصدره باتريس السنة الماضية. ثم جاءت الحرب، فوضعت «شبابه» تحت الضوء (كان الأصغر سنًا بين من تجاوزوا سن القتال، ولم يعفه من الذهاب إلى الحرب إلا فارق بسيط لا يتجاوز أحد عشر شهرًا). خلق هذا لدى فريديريك حافزًا يدفعه إلى تكرار نجاحه السابق مستفيدًا من «فترة الهدوء» هذه في أروقة القسم. سوف يتابع ما بدأه: «اختراق الحدود». في هذه الأيام، صار أكثر الباحثين ميالًا إلى الإفراط في التخصص، وإلى الوقوف على «رقعة أرض» صغيرة جدًا بحيث صار كل منهم خبيرًا في تفصيل واحد، في شذرة غبار، مؤمنًا إيمانًا غامضًا يكاد يكون دينيًا بأن زاويته الصغيرة تلك ستكون لها، في آخر المطاف، مساهمة في «الكل». يا للحياة الكالحة التي لا مجد فيها! أراد فريديريك أن يكون معماريًا، لا نجّارًا! في هذه المرة، سوف يتجاوز حدود الأنثروبولوجيا نفسها، ستكون الفيلولوجيا ميدانه الجديد: حياة الكلمات التي تعود بالمرء إلى حياة البشر عندما كانت تراكيبهم اللغوية لا تزال على فطرتهم الأولى.

كان ذلك أسلوبًا ذا أصول ألمانية. لكن، ما الذي يستطيع فعله مع وجود الرجال في ميادين المعارك؟ سيدرس سرًا! ولن يُحضر إلى الجامعة إلا أوراقًا مكتوبة بالفرنسية حتى لا تقع عين واحد من الزملاء على حرف مكتوب بطريقة مختلفة يصرخ «خائن!». لكن باتريس نولان كان، خلافًا لأكثر الآخرين، شديد الانتقاد للحرب من غير أي

اهتمام بإخفاء موقفه. وهذا أيضًا ما جعله الرجل الوحيد، من بين معارف فريديريك، الذي لا يجفل إذا سمعه يستشهد بعالم من الضفة الأخرى من نهر الراين.

أنهيا كأسيهما، ووضعا قبعتَيْهما، وسارا إلى المدينة لتناول العشاء. خيّم الليل بطيئًا على الشوارع الخالية.

قال نولان: «وما هو الثاني؟».

«ثاني ماذا؟».

«الاتجاه الثاني. قلت لي إن في بحثك اتجاهين».

«أوه، إنه هيغل. لديه فقرة عن هيرودوتس. يقول إن الإغريق القدامى استمدوا أكثر فنونهم وفلسفتهم من الشرق، من بابل وغيرها. مصر أيضًا. اشتقوا أثينا من إلهات القمر. هذا ما قد يعيدنا إلى النقطة نفسها عن افتراق الشرق عن مجرى التقدّم؛ لكنه أوحى إليَّ بشيء آخر أيضًا... بشيء عن الأصول، عن الشكل البدائي. لقد أطلق في رأسي فكرة، على أية حال. عليَّ أن أنفخ في تلك الفكرة لأرى إن كانت ستنتج نارًا».

في الممر أمام البيت، كان الغبار يتراكم على نوافذ السيارة.

«بونسوار، جورجين».

انحنت عند دخولهما: «بونسوار مسيو. مادموازيل جانيت ومسيو مدحت على الشرفة».

قاد فريديريك باتريس إلى الصالون الأزرق فرآهما عبر الزجاج، ابنته والعربي. كان ضياء نار الموقد يلقي ظلالًا طويلة على المرج في الخارج. رأى جانيت تدخّن سيجارة. وعندما استدارت لتنظر إليهما دفعت هبّة ريح شعرها جانبًا فكشفت بقعة بيضاء صغيرة على رأسها. أبعدت السيجارة عن وجهها، وفتحت الباب.

«هل حان وقت العشاء؟».

«تقريبًا. لم تصل الفتيات بعد. ولم يصل سيلفان».

تراجعت جانيت خطوة لكي يدخل مسيو مدحت. انحنى لهما مدحت. أدرك فريديريك أن ثوب مدحت الأسود كان دليلًا على أنه أمضى ذلك الصباح في العيادات. كان أمرًا غريبًا، بل مضحكًا أيضًا، أن يظل مدحت في هذا الثوب حتى وقت العشاء. لعل اعتزاز الفتى بدراسته جعله راغبًا في استعراض هذا الثوب. لكن مدحت جلس وأجاب من غير حماسة عندما سأله نولان عن نهاره، فصارت جدّيته مريبة بعض الشيء. لعله رأى في المستشفى شيئًا مخيفًا! أو... لعل امتحاناته القادمة كانت مقلقة له. لا بد له من إحراز نتيجة جيدة فيها إن كان يريد الانتقال إلى السنة الثانية. على الأقل، كان هذا شيئًا يترقب فريديريك رؤيته: ستكون رؤية أداء مسيو مدحت أمرًا مثيرًا جدًا.

كان فريديريك مصيبًا، تقريبًا. لقد كان قلق مدحت ناجمًا عن مزيج من انتظاره تقييمه الدراسي في السنة الأولى ومشاهد جرحى وقتلى الحرب في المستشفى؛ فقد صار لديه قدر متزايد من الشك في قدرته على أن يصير طبيبًا. لكن فريديريك فشل في رؤية عامل ثالث أكبر أهمية من هذين الأمرين. على الرغم من عمق معرفته بالدماغ البشري وبالمجتمع الذي يعرف، مثلما يعرف أي أنثروبولوجي، أن للزواج أهمية دنيوية فيه، لم يكن فريديريك يقيم كبير اعتبار للدور الذي يلعبه الحب في حياة الإنسان، وذلك انطلاقًا من تجربته الشخصية في الحب. فالحب شيء مختلف تمامًا، شيء لم تتناوله الأنثروبولوجيا إلا قليلًا، وذلك تحديدًا نتيجة طبيعته الهوائية المتقلّبة التي كثيرًا ما تستعصي على التشخيص: قد يبدو لضحاياه أشبه بمرض، أو قد يكون لدى البعض حالة من العظَمة والجلال. لكنه كثيرًا ما يظهر على هيئة قلق. لهذا، لم يستطع فريديريك تشخيص السبب الأول لمعاناة مدحت لأنه لم يفكر أبدًا في أن يكون هذا الشاب العربي واقعًا في الحب.

انقضى زمن بعد الحديث الذي دار بين مدحت وجانيت في الحديقة؛ وقد استمرّت طيلة ذلك الأسبوع في تجنّبه في كل مكان. صار البيت يبدو خاويًا خلال النهار، إلا عندما تسير جورجين في أحد الممرات حاملة ممسحة ودلوًا من ماء الصابون. كان واضحًا أن جانيت تمضي معظم يومها في غرفتها لأن مدحت لم يكن يراها إلا وقت الطعام. وحتى في ذلك الوقت، لم يكن يراها إلا لحظات قليلًا. كانت تصل دائمًا بعده، وتترك الطاولة قبله، وتنظر إلى طبقها طيلة تناولها الطعام؛ وهكذا كان كل ما يستطيع قراءته لا يتجاوز حفيف تنورتها ووجهها الخالي من أي تعبير... شيئان لم يسعفا مدحت في التوصل إلى أي استنتاج. والظاهر أيضًا أنها كانت تسير في الممرات عندما لا يكون موجودًا. كان يظن أحيانًا أنه يسمع وقع خطوات في الممر فيسرع إلى فتح الباب لكن ذلك يكون متأخّرًا كثيرًا، أو أنه يجد جورجين حاملة دلوها فتفاجأ وترتبك ويندلق الماء على الأرض. مرّت به لحظات عذاب عميق جعلته يشعر بأنه لن يستطيع الوصول إليها إلا إذا خرق حدود اللياقة كلها والقواعد الضابطة لعلاقة المضيف بالضيف فوقف في أعلى السلّم وناداها بأعلى صوته.

لم تكن غيرته من لوران مبررة في ذلك اليوم؛ بل لعلها كانت قلة ذوق منه؛ لكنه لم يشعر بالغيرة إلا لأنه يحبها. لم يستطع التوصّل إلى فهم ما فعله حتى تستاء منه هذا الاستياء كله. أيكون السبب أن جانيت لا تبادل مدحت مشاعر الحب، تمامًا مثلما كان الأمر مع لوران؟ أهذا ما جعل غيرته محرجة لها؟ أو لعل صراحته كانت، في حد ذاتها، أمرًا غير لائق أو نوعًا من التجاوز الذي يفسد تلك الشبكة الدقيقة، شبكة

السلم والمواضعات الاجتماعية؟ كان ذلك كلّه صحيحًا... حتى هو يعرف أنه صحيح؛ لكنه أحسّ أيضًا بأنه يعرف تمام المعرفة أن قلة مراعاة اللياقة تكون حيث تكون الحياة الحقيقية، ومن أن الناس عادة ما يتسامحون مع التجاوزات إذا انتهت الأمور إلى نتيجة حسنة. أو... لعل جانيت كانت تحب لوران حقًا، ولعل هذا ما جعل سؤال مدحت يمسّ عصبًا حساسًا! كانت تلك الرسالة في يده... وكان يعرف عن الرومانسية ما يكفي لأن يدرك ما قد يفعله غيابُ لوران بمشاعرها. ثم إن لوران كان في خطرٍ أيضًا. وقد كان -أيضًا- موشكًا على العودة. وهكذا، ما كان لديه شيء يستطيع فعله: إن كانت لا تحبّه، فهي لا تحبّه. وإن كانت تحب لوران، فهي تحب لوران.

أحب مدحت طفلة في نابلس عندما كان طفلًا: الطفلة المسيحية هلا التي حكى لجانيت عنها. كانت هلا من أسرة فلاحية أصابها الفقر. وكانت الأسرة تعيش على أطراف المدينة غير بعيد من بيت كمال. ولما كبر قليلًا، صارت تيتا تشجعه على الذهاب إليهم يوم الجمعة، وتطلب منه أن يأخذ لهم بيضًا وأكياسًا من الطحين. كان يختلس قبضة سكر يلفها في قطعة من قماش الموسلين ويأخذها معه أيضًا... يخبئها في جيبه. كان لهلا شعر أحمر. قال البعض إن أسلافها كانوا من الصليبيين الذين استوطنوا المنطقة قبل قرون. لكن أحدًا من أهلها أو من إخوتها وأخواتها لم يكن أحمر الشعر، ففضلت الأسرة إنكار حكاية ذلك النسب كلها. كان شعر هلا داكنًا عند جذوره، ثم يتغيّر إلى برتقالي باهت عند أطرافه كأن أشعة الشمس قد غسلت عنه لونه. كان جلدها أميل إلى البياض؛ وكان منمّشًا. أحب مدحت هلا حب الأطفال؛ أحب جمالها ورائحتها التي كانت، في ذهنه، رائحة خفيفة بيضاء ارتبطت على الدوام بذكرى الجلوس إلى جانبها في السقيفة أيام الصيف ينظران عبر الباب إلى الأرض القاحلة وبقع الخضرة المتناثرة هنا وهناك. لم يعد مسموحًا له أن يمضي أوقاته معها بعد أن صار في الحادية عشرة. وعلى غرار الفتيات المسلمات، وضعت هلا حجابًا ولزمت البيت. ثم رحل مدحت عن نابلس قاصدًا القسطنطينية ولم يرها بعد ذلك.

كان حبّه لهلا حبًّا لا يستطيع الإفصاح عنه إلا بوسائله المحدودة، فصار يهمس لها قائلًا إنه سيتزوجها، فتعض هلا الصغيرة على شفتها وتبتسم. عرفا الخجل حتى عندما كانا في السابعة، أو في الثامنة؛ عرفا أن من غير الجائز أن يمضي خطيبان ذلك الوقت كله على انفراد. عرفا أيضًا أن الفوارق في الثروة والدين ستسبب مشكلات بين عائلتيهما. لهذا كله، كانت كلمة «الزواج» كلمة سرية يهمسها في أذن هلا ويتصاعد بخار شاي النعناع من بين أيديهما.

تغير فهمه للحب بعد أن صار في القسطنطينية. أدخله المنهاج التعليمي في «مكتبي

سلطاني» عالم الشعر الجاهلي والعباسي الذي حفظ بعضه. عرّفه أيضًا على أعمال النحاة وعلى شعر امرئ القيس وقصائد الحب والغزل. كانوا يقرأون بعض الأشعار في الصف، ويتناقلون في ما بينهم أشعارًا أخرى على صفحات منتزعة من الكتب أو أوراق مكتوبة بخط رفيق، زميلهم العراقي، الذي كان أحسنهم خطًا. غطّت قصص الحب القديمة هذه على حبه الطفولي لهلا، لأنها قصص مشبعة بالزمن وتكرار الرواية، ولأنها تصف أنواع الجنون التي تسببها امرأة جميلة. شخصية عمومية لا وجه لها تجتاح قلب الرجل وتسكن أفكاره... شخصية لا تخضع لقانون، قادمة من الماضي، مصوغة من أشعار تسحر الأذن والقلب وتخدّرهما. لم تكن في المدرسة بنات حقيقيات، لكن مدحت ورفاقه كانوا يتمازحون في مغامراتهم الليلية ويتحدّثون عن لقاء فتيات في الشوارع، على الرغم من أن أكثر ما يستطيعون رؤيته لا يتجاوز لمحة من تنورة في مدخل أحد البيوت. كان الفتيان يعبرون مياه البوسفور متخفين تحت جنح الظلام، فيتبادلون بأصوات مرتفعة قصصًا فيها إلماحات إلى خبرتهم بأجسادهم وبأجساد بنات الجنس الآخر، ويتظاهرون دائمًا بأن لديهم المزيد مما يستطيعون قوله لكنهم يمسكون ألسنهم احتشامًا.

كانت هلا نموذج المرأة في ذهن مدحت، فهي الفتاة الوحيدة التي يستطيع تخيّلها بحيث لا يشبه وجهها تيتا أو ليلى أو تلك الذكرى الضبابية التي كانت أمه... ذكرى صورة فيها ملمح من خالته. ثم إن صورة هلا ما كانت لتكبر في ذهنه أبدًا: كانت دائمًا ابنة عشر سنين. شعرها كان طويلًا دائمًا، وكان مثلثيّ الشكل على كتفيها، ركبتاها ملوثتين بالطين دائمًا. لكن هذه الصور الشعرية المجرّدة المقروءة على ضوء الشمعة ما كان ممكنًا أن تدب فيها الحياة فتكتسب وجه هلا وجسدها، لأن هلا لا تتغير، ولأنها من غير بعد جنسي. اكتسبت القصائد القديمة في ذهن مدحت قوة محرّك لتوق أشد غموضًا، توق لا وجه له... التوق الذي يتحرّق إلى لحم بشري، لكنه لا يتألق إلا في حرمانه. لا سبيل إلى تهدئة جنون الشاعر عن طريق المرأة نفسها، عن طريق امتلاكها جسدًا حيًا: فالباقي دائمًا، وحده، هو أثرها في روحه، ذلك الصدى المثالي للمحبوبة الحقيقية المتكوِّن من ذهن الشاعر وفي وجودها. لم يكن مدحت يعرف عن الحب أكثر من هذا قبل سفره إلى فرنسا؛ وقد عملت تيتا على تثبيت تلك المعرفة: كان يعود إلى نابلس في عطلاته المدرسية فيطالبها دائمًا بأن تروي له قصصًا قبل النوم. تستلقي أم طاهر إلى جانبه سعيدة بهذا الطلب، وتنثر أمامه لمحات من تاريخها، من قصص كادت تكون حبًا، ولقاءات سرية... ويتدلّى ثدياها الطويلان إلى جانبيها. كانت تيتا تجد الملجأ في الماضي، وتكرّر العبارات نفسها وهي تقصّ عليه حكايات الرجل الذي

وقعت في حبه عندما كانت فتاة... شاب فقير من أقاربها كان ينثر الياسمين على شرفتها في الشهور التي سبقت تزويجها من تاجر ميسور يعرفونه باسم «أبو طاهر». كانت قصص التوق القصص الوحيدة. وما كان للرغبة من قيمة غير قيمة وجودها.

لكن الأمور بدت مختلفة هنا، في بيت أسرة مولينو. لم يكن مدحت مستعدًا لهذا. لم يقرأ الكتب المناسبة. بل إن الكلمات الفرنسية نفسها صار لها مؤخرًا مذاق كثيف في فمه كأنها شاشة ثقيلة تفصله عما يريد قوله. ومع كل يوم يمر، كان يزداد إحساسه بأنه الأحمق، الأجنبي غير القادر على التحكم بمعاني كلماته نفسها، تلك المعاني التي تضيع في كثرة تلاوين اللغة. ثم إن جانيت لم تكن صدى، ولم تكن محبوبة بأي معنى من المعاني التي يستطيع رسم خطوطها. كان يبدو له أنه راغب فيها، هي نفسها، لا في صورتها... أراد أن يسمع صوتها من جديد، وأن يرى عينيها من جديد -لكن، إن كانت استجابتها لغيرته سلبية إلى هذا الحد، فكيف يكون الأمر إن هو عبّر عن تلك الرغبة؟ لم يكن يمتعه التوق إليها مثلما كان قد بدا له أن تيتا تستمتع بتوقها. كان مجرّد البقاء في البيت مؤلمًا له لأنها موجودة في البيت أيضًا، في غرفة أخرى، متّخذة قرارًا بألا تكلمه. وفي الوقت نفسه، كان يقاوم رغبته في الخروج من البيت لأن من الممكن عندها أن تضيع فرصة مصادفتها. وهكذا ظل منتظرًا ترهقه حالة التأهب الدائمة. تتقلّص معدته كلما حاول جاهدًا أن تلتقي عيناه عينيها، وكلما أمل في لقائها في الممر مصادفة... صار مشتتًا، خجلًا، تثقله رغبة متفجّرة لا تهدأ أبدًا بل تزداد قوة كلما طال تجاهلها إياه.

وفي أثناء هذا كله، صارت صدمات الغربة القديمة تأتيه سريعة، كثيفة أيضًا. بل إن الأمر تجاوز الآن غربته فصار أشبه بتلك الوحدة الشديدة التي أحسّها على متن السفينة عندما كان مبحرًا إلى مرسيليا. أثناء الدروس، وأثناء سيره إلى الكلية، وأثناء الليل في فراشه، كانت خطوط جسده تثقله كأنها ليست له. لم يشعر بأي فضول إزاء إحساسه الذي كان ألمًا صرفًا لا يشوبه شيء. كان إحساسه بأعضاء جسده عذابًا؛ وأراد أن يخرج منها، أن يكون في مكان آخر؛ لكنه كان حبيس جسده، وما كان يعرف راحة من هذا الضغط إلا عندما يأتيه النوم. لكن النوم نفسه لم يكن قادرًا على احتوائه لأنه صار ينهض من نومه مرهَقًا، ويعود في الأماسي إلى البيت مستنفد القوى عاجزًا عن تبديل ملابسه. لهذا السبب، جلس إلى طاولة العشاء مرتديًا الثوب نفسه الذي ذهب به إلى الجامعة.

أعلن الدكتور مولينو في ذلك الصباح أن سيلفان موكلير وآل نولان سوف يأتون لتناول العشاء في بيته. وعندما عاد مدحت من الكليّة سنحت له فرصة نادرة لرؤية مشهد من نافذة غرفته: لمحة من حرير أصفر لمحه مرفرفًا في الهواء. تساءل في ما بعد، إن كان ذلك مقصودًا -على نحو ما- وإن كانت جانيت قد عرفت أنه يترقب منها إشارة فجعلته

ينتظر رؤيتها. لم تلتفت عندما فتح باب الشرفة الزجاجي. خرج إلى الشرفة، لكنه ترك مسافة بينهما. وقف ينظر إلى المرج الذي بدأت ظلال العتمة تكتنفه. كان الكلام صعبًا، لكنه أفلح آخر الأمر في أن يقول لها: «إنني آسف».

تبع ذلك صمت.

«حسنًا، هذا شيء... على الأقل». قالت هذه الكلمات بنفحة من سلطة معنوية جعلت جسده كله يرنو إليها غير مصدق. من غير أي تأثر، بل ربما من غير أن ترى حاله، عرضت عليه سيجارة من غير أن تلاقي عينيه. رفض مدحت السيجارة، لكنها لم تنتبه إلى رفضه: لقد رأت أباها عبر الباب الزجاجي... وذهبت تفتح الباب له.

اقتصر العشاء على دجاجة مشوية لثمانية أشخاص -الدكتور مولينو، وجانيت، ومدحت، وباتريس نولان، وابنتاه ماري تيريز وكارول، وسيلفان لوكلير، وجورجين التي أكلت في المطبخ- كانت الدجاجة موضوعة في طبق فيه فاصولياء متبلة بالطرخون. وكان مرق اللحم المكثف بالدقيق موضوعًا في أباريق بين الشموع الموزعة على الطاولة. انبعث البخار من باب المطبخ فغشّى الزجاجَ بردُ الربيع.

كانت الوجوه تضاء ثم تغيب في العتمة مع انحنائها صوب الأطباق ثم تراجعها خارجة من دائرة ضوء الشموع. ألقى هذا الضوء ظلين مسرحيين لحاجبَي سيلفان على جبهته الكروية. تمتم الدكتور مولينو بصلاة سريعة، فانطلقت أصوات أدوات الطعام، وبدأ الأكل. سرت بين الجالسين أحاديث مهذّبة خفيضة الصوت.

قال نولان: «ما الفرق الحقيقي بين رجل يصنع الأسلحة في مصنع حربي تحت إدارة عسكرية ورجل يرتدي بدلة عسكرية ويحمل بندقية؟». مسح شفتيه... «نحن نتخيّل هذه الحدود الفاصلة. هل النساء والأطفال وحدهم من يمكن اعتبارهم 'مدنيين'؟ فماذا أكون أنا، أو أنت، يا فريديريك؟ هل نحن أيضًا غير قادرين الدفاع عن نفسينا؟».

أشار الدكتور مولينو بيده إشارة توحي بأنه يفكر في ما سمعه، فأدرك مدحت أن مولينو معجب بنولان، وأنه يريد إثارة انطباع حسن لديه. تغيّر فهمه لمضيفه في لحظة واحدة، فرآه رجلًا يعرف كيف يتوق إلى شيء ما. فكر في زوجة مولينو المتوفاة، وتساءل إن كان لا يزال يعاني مثلما تعاني ابنته.

تحرك لسان ماري تيريز بعد أن شربت النبيذ. قالت مزقزقة: «تطوّعنا، أنا وكارول، في مدرسة أوغست كونت. إن المسائل الرياضية تشجّع الأطفال على شراء سندات الحرب».

«صارت ابنتاي أيضًا من 'عرّابات الحرب'. هل تعرف معنى هذا؟». ضاقت عينا نولان مترقّبة إجابة. ثم شد على شفتيه كأنه يتذوّق الكلمات قبل أن يطلقها من فمه.

هزّ مدحت رأسه نفيًا.

«يعني أنهما تكتبان رسائل إلى الجنود. لكنهما لا تعرفان من تكتبان إليهم، بل تتظاهران فقط. هذا يعني منح الجنود قدرًا من الراحة... تأتي الجندي رسالة من 'عرّابته'!».

ضحك الفرنسيون الثلاثة.

قالت جانيت: «أظنّها فكرة لطيفة جدًا».

أومأ مدحت برأسه موافقًا على كلامها. حاول التقاط نظرة عينيها، لكنه لم يفلح. أطلق سيلفان ضحكة مجلجلة أخرى. فالتفتت إليه جانيت التفاتة حادّة جعلت شعرها يلتف من حول رأسها. انبثقت ذكرى إلى سطح ذهن مدحت: جانيت منزعجة، تتحدّث مع سيلفان في الناحية الأخرى من الصالة. ومع تلك الصورة، علت في نفسه موجة من النفور إزاء سيلفان... أحسّ دافعًا غامضًا يدعوه إلى حمايتها.

قال نولان: «إلا أن نظرتنا إلى الحرب خيالية على نحو خاص...». كان يكلّم الدكتور مولينو في ظاهر الأمر، لكن صوته كان مرتفعًا بحيث يسمعه الجالسون من حول الطاولة جميعًا... «لا نزال نفكّر في الشجاعة الفروسية، والهجمات، ونابليون، أليس كذلك؟ هذه المغامرات العجيبة! لقد كنت هناك عندما خسر كارل سيباستيان، لذلك فأنا لست أقلل من احترام الضحايا. كل ما أعنيه هو أن ألَقَ الحرب سوف يخبو».

«ممم».

«لقد كنا شبابًا، يا فريديريك، خلال الحرب البروسية. لكن أخي كان يقاتل فيها؛ وأنا أتذكّر كيف كنت مدركًا، مع كوني طفلًا، أن الحرب شيء كريه، شيء منحط، وهذه الحرب الجارية الآن أكبر حرب نراها، أكبر حرب على الإطلاق... وهي، على أية حال، ليست مغامرة ممتعة».

تنهد أحد الجالسين إلى الناحية الأخرى من الطاولة. إنها جانيت.

قال سيلفان: «نعرف جميعًا أنها ليست مغامرة ممتعة، يا باتريس».

كم كان هذا غريبًا!... هكذا كان مدحت يفكّر في تلك اللحظة. هؤلاء الرجال الثلاثة الذين تجاوزوا سن القتال... جالسون هنا مع ثلاث نساء شابّات... إنهم باقون في عالم من النساء والآباء والمتخلّفين عن الجيش بسبب إعاقاتهم... وهو نفسه، الظاهرة النادرة هنا، ليس عربيًا فحسب، بل شابٌّ أيضًا! مضت بضع لحظات لم يقل أحد فيها شيئًا. اتخذ مدحت قرارًا بأن يتكلّم. تقلصت معدته.

«إنني أفكّر، يا عزيزي الدكتور...».

التفت الوجوه كلّها إليه.

«... أفكّر في ما قلته لي مرة عن اتساق الشخصية».

بدت المفاجأة على وجه مولينو، وكان واضحًا أيضًا أنه مسرور بهذا. أسند مرفقيه إلى الطاولة، وشبك أصابع كفيه.

قال مدحت: «لقد كنت أفكر في أن هناك، على الدوام، سببًا لعدم الاتساق؛ فلا شيء من غير سبب. كنت أدرس نيوتن...». ضحك متوقّعًا ابتسامات متلطفة من الرجال الأكبر سنًا. لكن نولان ومولينو ظلا مرتقبين ينتظران ما سيقوله... «كنا، الدكتور مولينو وأنا، نناقش معنى أن يكون المرء متسقًا. فهل هذا جزء من طبيعتنا، أم إنه... لكني صرت أفهم ذلك كله باعتباره أحجية ذات جانبين...». راح يؤرجح راحتي يديه المبسوطتين بحركة تشبه الميزان... «أحجية تشتمل على أسئلة كثيرة عن بني البشر. ظل الأمر في ذهني، وظل ذلك الحديث الذي جرى بيننا، ثم خلصت إلى أن تفسير ذلك كامن في الأسباب. لدينا عبارة جميلة لواحد من فلاسفتنا في الإسلام هو ابن رشد الذي كان مؤمنًا بوجود بداية ونهاية...» على الفور، بدت له هذه الفكرة عن ابن رشد خارج الموضوع... «أعني أنه إذا كان هناك شيء يبدو لنا من غير سبب، فعادة ما يكون هذا الشيء شذوذًا، أو شيئًا خارجًا عما ألفناه... في جسم الإنسان، على أقل تقدير. وحتى إذا بدا لنا أن ما من سبب، فإن هناك سببًا على الدوام. لكن هذا السبب قد يكون غامضًا. وبما أنه غامض، فقد نستنتج من غموضه -على نحو شبه مؤكد- أن هناك شيئًا في داخل الجسم يعاني مشكلة خطيرة... وهكذا يكون الخلل الظاهر الغريب الذي يبدو من غير سبب، ولنقل إنه طفح جلدي، أو حالة إعياء شديد، أو ألم مبرح، يكون عرَضًا لشيء آخر لا نراه. وعلى نحو مماثل، أظن أننا إذا نظرنا إلى عقل الإنسان وطبعه، فإن للشذوذات السلوكية أسبابًا على الدوام. هذا إذا جاز لنا تشبيه العقل بالجسم... فإن جاز لنا ذلك، وإذا نظرنا إلى الدوافع والتجارب، فسوف نظل غير قادرين على رؤية سبب الشذوذ، وسيميل هذا بنا إلى الظن بأن هناك شيئًا مصابًا بخلل حقيقي، شيئًا يؤدّي إلى الشذوذ السلوكي. نستطيع اعتبار الجنون مثالًا على هذا».

كانت هذه أفكارًا بدأت تدور في رأسه خلال الأيام التي كان يذهب فيها وحيدًا إلى الكلية، ويعود وحيدًا. لم تكن أفكارًا جاهزة لطرحها على الآخرين. وعلى الرغم من عدم ثقته في قيمة تلك الأفكار جملةً، فقد كان يحب أن يعود إلى تلك الموضوعات المختلفة ويستمد منها ثقته الخاصة بعقله، تمامًا مثلما استمد الثقة بجسده في ما مضى من خلال أحلام اليقظة. لكن كلماته عما هو خفيّ بدت له ضعيفة ضعفًا واضحًا فور خروجها من بين شفتيه. رأى أنها لا تعالج الأسباب الخفية الأخرى. وبطبيعة الحال، فالرب أهم تلك الأسباب الخفية كلّها.

قال نولان: «يبدو هذا أمرًا لافتًا... الأسباب الخفية باعتبارها علامة لتشخيص الأمراض. لكن من الممكن أيضًا أن يكون هذا سفسطة. دعني أفكّر».

سرّ مدحت بنبرة نولان على الرغم من معرفته بأنه تكلّم بتلك الدقة العارضة لشخص يستخدم لغة ثانية. نظر إلى جانيت آملًا أن ينال استحسانًا، لكنه رأى عينين غاضبتين.

قال نولان: «انتظر لحظة. هل تقول إن الجنون سبب خفيّ غامض؟ أم تقول إن له سببًا خفيًا غامضًا؟ أعني، هل تدعو الجنون شذوذًا، أم هو سبب للأعراض الشاذة؟ أقول هذا لأنه غالبًا ما لا يكون خفيًا بالفعل، وأيضًا لأن من الصعب كثيرًا، أكثر الأحيان، التوصّل إلى أسباب أكيدة له. إلا إذا كنت من أنصار المدرسة الحديثة؛ أي ممن لا يأخذون بالأسباب العصبية».

«أظنني أردت القول إن الجنون سبب. لكني لا أظنه أمرًا خفيًّا حقًا. لا،...».

«صحيح. الأمر غامض بعض الشيء. وفي آخر المطاف...» قال باتريس نولان هذا مخاطبًا الجالسين جميعًا... «فإن على المرء أن يبحث عن نموذج للتفكير في الأمر، وأن يقرر أولًا -بل قبل كل شيء- إن كان ذلك النموذج، أو لم يكن، صالحًا للاستخدام عندما نمضي في شؤوننا اليومية محاولين فهم الظواهر. إنني معجب بأصالة أفكارك، يا مسيو مدحت. لكن تفكيرك عالق في نوع من الحشو أو التكرار، أو في منظومة تطرح أسئلة من غير نهاية».

قال فريديريك وهو يبتسم ابتسامة مرحة: «شكرًا على هذا الدرس، يا باتريس».

تمنّى مدحت لو أنه لم يقل شيئًا. لقد أخطأ!

قال سيلفان بعد لحظة صمت قصيرة: «لكني أظن أن هذا المحمدي يتكلّم اللغة الفرنسية بطريقة ممتازة».

قالت جانيت بنبرة فظة: «سيلفان!».

قال أبوها: «جانيت!».

قالت كارول: «هل سيقول كل واحد منا اسم واحد آخر؟».

قالت ماري تيريز: «كارول!»... لكن أحدًا لم يبتسم، فتورّد وجهها تورّدًا مؤلمًا لم يلبث أن سرى إلى جبهتها وأنفها.

قال نولان: «فضلًا عن هذا، لا أستطيع تصديق أن عالَمك متّسق تمام الاتساق مع نفسه، اعذرني يا مسيو مدحت. هناك أشياء كثيرة أستطيع ذكرها الآن لكي تكون أمثلة على شذوذات خطيرة في ذلك العالم، شذوذات سلوكية وغير ذلك؛ ونحن نعرف تمامًا سبب تلك الشذوذات».

قال مدحت: «آسف»... قالها بشيء من الجهد.

قال سيلفان: «كفى، يا نولان».

نظر مدحت إلى هذا المدافع عنه الذي لم يتوقّعه، وتذكّر فجأة ليلة الحفلة عندما أزعج سيلفان جانيت فخرج خلفها إلى الممر.

«أعذروني». قالها نولان بصوت متغطرس، لكنه لم يلبث أن أتبعها بـ«آه» صادقة عندما رفعت جورجين الطبق الفارغ من أمامه... «أشكرك».

صدر صرير عن الطاولة الصغيرة ذات العجلات عندما دارت بها جورجين من حول الطاولة. قال لها مولينو: «لماذا لا تجلسين معنا لتناول الحلوى؟». تردّدت جورجين لحظة طويلة قليلًا. لكن مولينو أشار إلى جانيت بأن تزيح كرسيها قليلًا باتجاه باتريس وأن تضع كرسيًا إضافيًا هناك بحيث يصيرون ثلاثة من كل جانب من جوانب الطاولة. لكنه طلب من جورجين أن تحضر السوفليه والملاعق الخاصة بتناول الحلوى قبل أن تجلس. التقط مدحت ارتفاع حاجب جانيت عندما نظرت إلى كارول. أدرك أن ذلك لم يكن نابعًا من ترفّع تجاه جورجين، ولا من قلة احترام لأبيها، بل مجرد إشارة ضرورية إلى أن هذا شيء غير معتاد كثيرًا... حركة كان المراد منها تفادي أية نمائم يمكن أن تقول إن آل مولينو يتناولون الطعام دائمًا مع خدمهم. سرعان ما بدأت علائم الحرج تظهر على وجه مولينو عندما بدأ تنفيذ نزوته المفاجئة. جلست جورجين بين جانيت وسيلفان وهمست مخاطبة الجميع: «مساء الخير».

نظر مدحت إلى سيلفان وجورجين اللذين صارا متجاورين عند زاوية الطاولة. كان رأسها مطرقًا، وكان سيلفان يرتشف النبيذ من كأسه. عادت إلى ذهن مدحت صورة غائمة لذلك العناق الذي رآه يوم الحفلة. راح ينظر إليهما حائرًا وهما جالسَين جنبًا إلى جنب، متجاهلًا كل منهما الآخر. ولأول مرة، خطر في ذهنه سؤال: هل كانت جورجين راضية آنذاك؟ أحسّ بموجة من تقزّز حائر.

غرس الدكتور مولينو ملعقته في السوفليه: «نعم، هكذا أفضل».

عادت عينا مدحت إلى جانيت التي كانت تنظر إلى طبقها.

إنه يراقب انزعاجها من بعيد دائمًا، عبر الغرفة، أو عبر الحديقة. رفرفت عيناه عندما عاودته صورة الماء المتقاطر عن فخذيها. كان حنقها الذي أحسّه على الشرفة قد بدأ يهدأ ويحل محله انزعاج محقّ من حديثه عن الجنون. لكن ذلك لم يبدُ له إساءة إليها، وذلك بالنظر خاصة إلى أن كلامه، إجمالًا، قد وضعه موضع انتباه محرِج من جانب الجميع بحيث ما كان ممكنًا أن يفكّر أحد منهم في أمها. لكنه، على أية حال، خسر ما كان يشعر به من تفوّق. فهل هي لعبة مزايدة لرؤية من يشعر بانزعاج أكبر من الآخر؟

على الأقل، إن كانت كذلك، فإن من غير الممكن أن تظلّ لا مبالية به. ومع هذه الفكرة فوجئ بإحساسه بومضة أمل دافئة صغيرة.

قال نولان: «أظن بأن علينا تغيير الموضوع».

قالت ماري تيريز: «أي موضوع؟».

قال مولينو: «فليناول أحدكم جورجين ملعقة».

قالت جورجين: «شكرًا لك».

قالت كارول: «ما أخبارك دراستك، يا مسيو مدحت؟».

«دراستي تسير جيدًا؛ شكرًا يا مادموازيل. بدأت الآن الاستعداد لامتحاناتي الانتهائية التي ستكون قبل العطلة الصيفية. وعندما يأتي الشتاء، سأبدأ جلسات تشريح الجثث بمفردي. وفي الفصل الصيفي، سندرس الهيستولوجيا والفيزيولوجيا والفيزياء البيولوجية».

«شيء جميل. يبدو هذا تحديًا».

«لقد تلقينا... أو تلقت جانيت...». استرق إليها نظرة سريعة فشعر بالراحة عندما اكتشف أن تعبير وجهها قد لان... «تلقينا رسالة من لوران». أومأت جانيت برأسها موافقة على ذكر هذا الأمر... «يبدو أنه قد بدأ يضع ما تعلمه موضع التطبيق العملي».

قال سيلفان: «هذا من حسن حظه».

قال مولينو: «سيأتي في إجازة عما قريب».

قال نولان: «ما أخبار الجبهة؟».

قالت جانيت: «أوه، من فضلكم، كفانا حديثًا عن الحرب».

قال سيلفان: «صحيح. فلنتحدّث... فلنتحدّث عن السينما، أو الأدب، أو أي شيء من هذا القبيل... هل شاهد أحدكم فيلم 'أبطال أوسير'؟»

قال نولان: «بحقّ الجحيم، ما الذي تتحدّث عنه؟ أتظنّ أن الحديث عن السينما ليس حديثًا عن الحرب؟ ما موضوع فيلم *أبطال أوسير*، بحسب رأيك؟».

قال سيلفان: «أوه، أطبق فمك».

«لقد أصيبت الثقافة الرفيعة بحالة عقم تام».

«باتريس!».

«نحن نتحدّث عن السينما، في واقع الأمر. لم يعد هناك شيء مما تمكن مناقشته. هذا ما يقودنا إلى فكرة أكثر إثارة للاهتمام، ألا وهي أن ميدان التسلية قد صار ميدانًا للتجديد. وفي حالة الحرب...».

قال مولينو: «باتريس، أظننا انتهينا الآن من هذا الأمر».

أغلق نولان فمه وتجهّم وجهه. قال مدحت في نفسه: كم هو ممل. لاحظ أن زجاجات النبيذ وكؤوسه قد فرغت كلها. وتساءل إن انزلقوا جميعًا إلى نسخ متطرفة من أنفسهم.

قال مولينو: «هل انتهينا؟».

لم تكد جانيت تمس شيئًا من الحلوى. كان طبق سيلفان فارغًا. وأما الشقيقتان نولان فقد أصابتا نصيبًا طيبًا من حصتيهما. لم يعجب السوفليه مدحت كثيرًا لأن طعم البيض كان شديد الوضوح. لكنه كان حلوًا، وهو يحب المأكولات الحلوة؛ ولذلك فقد أكل نصف نصيبه. كان طبق جورجين فارغًا. هبّت واقفة على قدميها عندما سمعت سؤال مولينو، وأزاحت الكرسي إلى الخلف. دارت حول الطاولة بعربتها ذات الصرير، فجمعت الأطباق ثم اختفت في المطبخ.

قال مولينو: «قهوة؟ ألا يريد أحد قهوة؟».

قال باتريس نولان: «أظننا انتهينا».

أومأ برأسه لابنتيه فنهضتا وهدلتا قائلتين: «كان الطعام لذيذًا، يا لها من وليمة، حقًا، في هذه الأيام القاتمة!». ربت سيلفان على صدره. ما عاد قادرًا على تناول قطرة واحدة. ارتدوا معاطفهم في الممر، وتصافحوا، وتبادلوا قبلات الوداع.

في الصمت الذي أعقب خروجهم، قال مولينو شيئًا عن القهوة، ثم عاد إلى غرفة الطعام. وقفت جانيت متردّدة في الممر، راود مدحت إحساس بأن شيئًا ما يجري استئنافه. مضت إلى باب الصالون فأدارت مفتاحه. تبعها عندما رأى أنها تركت الباب خلفها مواربًا.

كانت جالسة على كرسي البيانو المغطّى بقطعة قماش ككل شيء آخر في الصالون. كان البيانو المغطى يبدو كبيرًا، ممتدًا أمامها كأنه جبل جليد. رائحة ورنيش قوية. توقّف مدحت عند الباب.

قال لها: «لقد فهمت».

رفعت رأسها ونظرت إليه نظرة قلق. تساءل إن كانت ستتناسى حديثهما السابق وتتظاهر الآن بأنها لم تفهم ما عناه وقتها.

سألته: «هل شربت نبيذًا الليلة؟».

أجابها: «لا»؛ لكنه قالها بنبرة مبتورة كأنما سؤالها كان شيئًا مضحكًا. تقدّم في اتجاهها وقال خافضًا صوته: «أردت أن أقول من جديد إنني آسف. أرجو أن تقبلي اعتذاري. أفهم أنك غاضبة. وأفهم أنه ما كان يجوز لي أن أتكلّم عنك مع لوران. وما كان لي أن أفترض...».

نظرت إليه. كانت جميلة جمالًا مؤلمًا في ذلك الفستان الأصفر. جلدها مثل ورق

ناعم... وتلك العروق الزرقاء فيه! رأى في عينيها أنها توقّعت نوعًا من العاطفة، لكنه لم يعرف الاسم الذي قد يكون لتلك العاطفة التي توقّعتها... ما أكثر ما يخطئ!

«لست أشعر بالغيرة من لوران. لكنك تعرفين أنني... أنني لم أكن أعني ما قلته...». ابتلع ريقه... «وإذا كنت لا تعرفين ذلك، فأنا آسف... إذا كنت لا تشعرين الشعور نفسه، فأنا لن... لكن... لقد اشتقت إليك، يا جانيت. اشتقت إليك حقًا». مد يده إلى أقرب قطعة أثاث حتى يجلس عليها. أراد أن يصير وجهه على مستوى وجهها. لكن ما وقعت عليه يده لم يكن صالحًا، فتركه... «اشتقت إلى الحديث معك. لقد عنَتْ لي الكثير تلك النزهات معك... ومن غيرك، لا أعرف ماذا أقول عنها. لكني أفتقد... حقًا، لقد... لقد أحببت... وأنا أريد مساعدتك في اكتشاف ما حدث لأمك. سأفعل كل ما أستطيع فعله».

ارتفع حاجبا جانيت على الرغم من أن وجهها لم يوحِ بأي قدر من الدهشة: «أمّي! هذا لطف منك؛ لكن ما من شيء يمكن فعله. أظنني قلت لك إنني لا أظن هذا أمرًا صحّيًا من أجلي...».

«لكنك تعرفين هذا... تعرفين أنني مصغٍ إليك».

هنا، ابتسمت أخيرًا. لقد قال الشيء الصحيح.

«هناك عبارة في رواية *الفرسان الثلاثة*...».

«أوه، لا، لا تستشهد بكتاب *الفرسان الثلاثة*!». ضحكت، وارتدّت إلى الخلف... «ليس عليك أن تشعر بحاجة إلى الاعتماد طيلة الوقت على ما قاله أناس آخرون...». استقرّت عيناها عليه لحظة، ثم مالت وأدخلت قدميها تحت البيانو... «سأقول لك. عندما كنت أدرس في الجامعة. كنت محاطة دائمًا بأولئك الشباب الذين يعرفون كل شيء...». ضحكت من جديد ضحكة متقطعة... «وكان هذا يخيفني ويجعلني أحس بأنني أقل منهم. لقد كانوا رجالًا... فمن أكون أنا؟». تتبعتْ أصابعها حافة غطاء البيانو المختفية تحت القماش. رفعت الغطاء. ظل القماش معلقًا به مثل جلد جفن العين... «كنت أعود من المكتبة فأراجع دروسي كلّها مع بابا. ثم وجدت نفسي أكرر في جلسات المناقشات ما أسمعه منه، وأقول بالضبط ما قاله لي الليلة الماضية. وبعد فترة من ذلك، أدركت أنني لست مضطرة إلى هذا. لم يكن أولئك الرجال يفعلون شيئًا غير التلاعب باللغة. كنت أصغي منتبهة تمامًا إلى كل فكرة تقال، وإلى طريقة مناقشتهم الأمور خارج الدروس. يعتمدون على هذا الفيلسوف أو ذاك، ويضيفون جملة بعد جملة... أدركت أن الأمر كله مهارة في اللغة، لا في الحياة. لم يكونوا يعرفون عن الحياة شيئًا. وما كان لديهم أكثر مما أسمعه منهم. وقد كان قليل الشأن. وفجأة، أحسست بأن هذا التفكير يحرّرني؛ وما عدت أخشى المشاركة في الحديث والإدلاء بدلوي، ثم صار كلامي أفضل». تحسّستِ الفواصل بين مفاتيح البيانو، تحت القماش الذي كان ينخمص

لحظة عند لمستها ثم يعود مثلما كان... «كان في وسعي أن أنتقص من قدرهم في ذهني فيصير الأمر أكثر سهولة عليّ. وكان في وسعي أن أدعوهم شبابًا تافهين، أو أي شيء من هذا القبيل؛ لكني لم أفعل هذا... فما الفائدة منه؟...». كانت يدها قد انتقلت على خمسة مفاتيح، ثم السادس، ثم صارت تتحرّك على جسدها... «أحاول القول لكَ إن عليكَ ألا ترى نفسك مضطرًا إلى التخوف من ظاهر الأشياء، كالأحاديث مثلًا».

«لست متخوفًا».

«حسنًا، أحببت أن أقول هذا. أنت لست أقل منهم من أية ناحية. قد تكون أصغر سنًا بكثير، لكن لديك طبيعة أحسن كثيرًا من طبيعة باتريس نولان».

ضغطت على أحد المفاتيح. كان الصوت رنانًا، عميقًا، زجاجيًا في وقت واحد. نظرت إليه وكأنها أطلقت تحديًا. لقد كان التحديد شديد المباشرة إلى حد كان يمكن أن يجعله يشعر بالحرج: كان حائرًا. أحس بالانكشاف الممتع، بالانفراج اللاسع عند ملامسة هواء البحر المالح.

قال لها: «أظن بأنني أحبك...». كان فمه جافًا... «وأظن أيضًا أنك غير منطقية أبدًا».

ظلت رافعة رأسها تنظر إليه إلى أن سمعا صرير الأرضية الخشبية.

قالت جورجين: «آه، أعذراني». ثم أغلقت الباب من جديد.

لكن تلك المقاطعة عزّزت تلك اللحظة. همست جانيت قائلة إن عليها أن تذهب إلى النوم، ثم تحرّكت. انتظر مدحت وحده بضع دقائق أخرى واقفًا بين قطع الأثاث المغطاة، مستمعًا إلى نقرات المطر على النافذة.

في المطبخ، كانت جورجين تجفّف كدَسًا من الأطباق المبتلة.

قال لها مدحت وهو يفتح خزانة المطبخ: «آمل أن الحلوى قد أعجبتك الليلة».

«أعجبتني، مسيو مدحت، شكرًا. آمل أن تكون قد أعجبتك أيضًا».

«جورجين، إذا لم يكن في سؤالي شيء من قلة الأدب...».

«نعم، مسيو».

اختار كأسًا، ثم تردّد.

«كنت أتساءل. هل تستطيعين إخباري ما الذي يجعل الدكتور مولينو صديقًا للمسيو سيلفان لوكلير؟ الأمر ليس أكثر من... أعني أنهما ليسا جارين، وأنني كنت أتساءل...».

قالت جورجين: «كان مسيو لوكلير صديقًا عزيزًا للمدام مولينو التي ماتت». بدت شديدة الهدوء وهي تمسح يديها بالمنشفة المعلّقة من وسطها. فكّر في سيلفان لوكلير، وفي إهاناته الثقيلة عديمة الحس. كان نولان متحذلقًا، أما لوكلير فكان سيئًا. فتح مدحت الصنبور لملء الكأس؛ ومع اندفاع الماء، بدأ خياله يدور.

## - 8 -

لم يكن نومه سهلًا تلك الليلة. نظر مرات كثيرة إلى الساعة المنبّهة التي استعارها من الدكتور، فلم يبدُ له أن عقاربها تتحرّك فتتغير الزاوية بينها بل شعر كأنه يتحرّك معها غائصًا في الليل بحركة مستمرّة لا انقطاع فيها. غلبه التعب قرابة الساعة الرابعة والنصف فجرًا، ثم استيقظ بعد بضع ساعات فوجد ضياء النهار قد غمر الغرفة كلّها. لم تمض بعد ذلك إلا لحظات حتى انطلق رنين المنبه.

دخلت جانيت غرفة الطعام بعده، وألقت تحية الصباح بطريقة عادية. كان ضياء الشمس متألّقًا على مفرش الطاولة بينهما. تصاعد البخار من وعاء القهوة متراقصًا. بدأ الدكتور مولينو يقرأ الصحيفة بصوت مرتفع.

«خمس عشرة ساعة. الطقس السيئ مستمر، ولم يحدث شيء على الجبهة خلال الليل... إلى الشرق من أوسير، أوقفت نيراننا محاولتي هجوم قام بهما العدو. وفي الدردنيل...». قلب صفحتين... «شن الجنرال كوكس هجومًا... تكبد العدو خسائر جسيمة. جيد. تقدم كبير... مقتل جنرال ألماني... فقدان غواصة أسترالية في المضائق».

طوى مولينو الصحيفة، ولاحظ وجود نقطة من قَطر المربى على مفرش الطاولة فأراد رفعها بسكين الزبدة. انزلقت النقطة على حد السكين من غير صعوبة، لكنها لم تلبث أن اتسعت وزحفت إلى الناحية الأخرى عندما رفع السكين. سقطت من جديد منقسمة إلى ثلاث نقاط حمراء.

«جوجو، أعطني منديلك».

كانت جانيت تضع رسائلها في مغلّفاتها. لم تنظر بعد إلى مدحت الذي كان يراقبها مراقبة ملحّة: مستحيل أن تتعامل مع هذا الصباح مثل غيره من الصباحات الماضية. لن يضيّع اللحظة التي تلتقي فيها عيونهما.

قال مولينو وهو يمسح نقاط المربى بمنديل الطعام: «شكرًا. هل أتت رسالة من ماريان؟».

«أجل، لقد كتبت لي».

«هل هي بخير؟».

«أجل، هي بخير».

لم تلتفت إليه حتى الآن. كانت منغلقة على نفسها. لم تقم بأية حركة لا ضرورة لها. مدت ذراعها لتتناول وعاء القهوة، وظل رأسها ثابتًا عندما حركت عينيها.

انتبه إلى أن شعرها قد طال. عند وصوله، كان شعرها قصيرًا يصعب ربطه. لكن خصلاته طالت الآن فتدلّت من خلف رأسها حتى بلغت رقبتها الدقيقة. لم يكن شعرها البارحة أقصر منه اليوم، لكنه لم يلاحظه إلّا الآن... ربما لأنها صففته بطريقة جديدة: فرقٌ جانبي، وسلسلة لفافات كبيرة متدرّجة مثبتة إلى كل جانب من جانبي رأسها. كان ضياء الشمس نابضًا على مفرق شعرها. انتهى الإفطار فنهضوا ليخرجوا. كانت جانيت أقربهم إلى الباب، فخرجت من الغرفة قبله، كالمعتاد.

منذ ذلك الحديث عن لوران، عندما بدأت جانيت تتجنّبه، اعتاد مدحت أن يدرس في الصباح استعدادًا لامتحاناته. وكان يلازم غرفته أكثر الأيام إلى أن يحين وقت الغداء، فيستعرض كتبه، موضوعًا بعد موضوع، ويسجل أية أفكار يجد صعوبة فيها، ثم يضع قائمة أسئلة يأخذها معه إلى دروسه في الكلية بعد الظهر. وأما اليوم، فقد كان فعل ذلك كله صعبًا. أرغم نفسه على الصعود إلى غرفته. كان كتاب الفيزياء مفتوحًا على طاولته. هل هذا معقول؟ هل أخطأ قراءة نظرتها إليه عندما كانت جالسة على كرسي البيانو؟ جلس، وعندما اصطدم ظهره بمسند الكرسي، أحس بموجة غضب لقسوتها هذه، لرغبتها في جعله يتعذّب.

كان القسم الأول من فصل «الحركة والسرعة والتسارع» في الكتاب تحت عنوان «حركة القطار». قرأ ذلك القسم كله، ثم أدرك أنه لم يفهم منه شيئًا. هل كانت نظرتها إليه نظرة صدمة، لكنه أخطأ فهمها فاعتبرها نظرة حب؟ إذًا، لن تكون أول مرة يخطئ فيها فهمها. ألم تبتسم؟ ولكن... من الممكن أن تعني البسمة أشياء مختلفة كثيرة. بدأ يقرأ بصوت مرتفع.

«حركة القطار. فلنتصوّر قاطرة واقفة مستعدة للانطلاق... مستعدة للانطلاق، مستعدة للانطلاق إلى المحطة التالية... المحطة التالية... عندما تبدأ حركتها، نلاحظ أنها تتحرّك ببطء أول الأمر...».

نقرة خافتة على باب الغرفة. أتاه صوت جانيت: «صباح الخير، يا مدحت».

قال وهو ينهض ويدير مقبض الباب: «آه، ادخلي، ادخلي». أحسَّ بأن عظام ساقيه قد ذابت. رأى وجه جانيت، ورأى شعرها المثبت بالدبابيس. رأى كتابًا في يدها. زال عنه غضبه، وطغى عليه ذلك الميل العربي إلى الترحيب بالغريب عند العتبة. بدت جانيت كأنها فوجئت. لكن، ماذا كانت تتوقع عندما دقت بابه؟ دخلت الغرفة ووقفت إلى جانب سجادة الصلاة.

«أردت أن أريك شيئًا».

«تفضّلي، تفضّلي».

قرّب الكرسي من أجلها، ثم جلس على حافة السرير وشبك أصابع يديه كأنهما جالسان في مكان عام. راح يتنفس ببطء عبر شفتين شبه مطبقتين.

قالت: «هذا ما وجدته منذ أيام عندما كنت أنظر إلى صور قديمة».

أخرجت من الكتاب ورقتين خضراوين باهتتين، لكنها لم تعطه إياهما. سُرَّ عندما رأى ارتعاش يدها.

«إنه تقرير طبي».

«أهو عن أمك؟».

نظرت في عينيه: «مكتوب هنا أنهم لم يشخصوا إصابتها بالهستيريا، بل بالوهن العصبي الهستيري. هل تعرف معنى هذا؟».

«أستطيع البحث عن معناه».

«أتظنني سخيفة؟».

«بالطبع لا. بالطبع، لا أظنك سخيفة. أظن...». مال إلى الأمام، وراح يتحدّث بصوت لطيف منخفض... «نحن مؤمنان بأن الحياة تعني شيئًا، وبأن محاولة العثور على ذلك الشيء، محاولة اكتشافه، هي ما يبقينا مستمرين. يصح الأمر نفسه على ما حدث في الماضي، إن كان ما حدث في الماضي يهمنا».

«حسنًا، هذا منطقي تمامًا. خذ. ها هي القائمة. غثيان، صداع الشقيقة، آلام في الرأس. ألم عصبي وَرْبي، تشنج، تنميل، إحساس بالوخز... روماتيزم، آلام في الجبهة واللثتين والرقبة والحلق... وأحيانًا في الذراعين والصدر والحوض والمعدة والركبتين والقدمين والكاحلين...

قال: «هذه قائمة طويلة». لقد تعلم من جدّته كيف يتخطّى الأشياء المحرجة. وفي الوقت نفسه، كان يلعب دور الطبيب متخذًا موقف الطبيب الحيادي إزاء ما يتعلّق بالجسد. لم يستطع الامتناع عن الإعجاب بنفسه.

تابعت جانيت: «وهذه... هذه قائمة الأعراض التي يبدو أنها كتبتها بنفسها. إنها مكتوبة بخط يدها. سوف أقرأها لك. تقول القائمة: 'لقد تغيرت جدران بيت أبي تغيرًا تامًا. استيقظت على إحساس بثقل على ساقي. سريري إلى جوار النافذة. لقد داس الرجل على ساقي. صرخت فخرج الرجل من النافذة مسرعًا. اقتضى الأمر برهة حتى استطعت أن أتمالك نفسي وحتى استيقظ دماغي تمامًا. عند ذلك، رأيت أن الجدران قد اختفت. أو، بالأحرى، صارت جدرانًا فحسب، جصًا وخشبًا وحجارة... هيكلًا من غير ظاهر وباطن.

كان الظاهر والباطن وهمًا'. هذا ما تقوله. وهنا مقطع آخر. إنها تقول: 'هناك القليل مما يبقيني على قيد الحياة. عندما أكون في حالة حسنة، لا أستطيع أن أقف في مكان مرتفع، وإلا سأترك نفسي أسقط عمدًا'. بالمناسبة، قل لي إن كانت هنالك أية كلمة لم تفهمها».

«ما معنى هذا، في رأيك؟ أعني، فهمت الكلام لكن، ماذا تريد القول، بشكل عام؟».

«ما تريد قوله... لست أدري إن كان شيئًا نستطيع بالضرورة أن...». صمتت عن الكلام.

سُرَّ مدحت لأنها قالت «نستطيع».

قال لها: «يبدو من هذا أنها كانت تتألم طيلة الوقت، أو أكثر الوقت. أعني ألمًا جسديًا، حتى عندما تكون معافاة. ألا تظنين هذا؟».

قلبت الورقة على وجهها الآخر، وقرأت في أسفلها: «اسمع: 'أشعر أحيانًا كأن عصًا تُحرّك ما في رأسي؛ وأشعر في أحيان أخرى كأن رأسي يفتح ويغلق، غثيان... كل يوم تقريبًا. يبدو أحيانًا أشبه بالغثيان الذي يحدث عند السفر، كأنني ذاهبة إلى مكان ما. لكنه يكون متركّزًا في أنفي أكثر الأحيان، وتعود إلي الأحلام القديمة'».

«إنها مجنونة».

نظرت إليه جانيت نظرة غاضبة.

«آسف. لم أقصد ذلك. هذا يبدو، على ما أظن... يبدو أن كون المرء حيًا هو بقاؤه داخل جسده». انتبه إلى صوته، واستطاع أن يسمع فيه نبرة الثقة الزائدة. حاول أن يزيد انتباهه إلى نبرات صوته... «يمكن النظر إلى الأمر بهذه الطريقة. وإذا كان الجسد مكانًا للألم، فإن البقاء فيه يصير صعبًا. ولهذا أظن أن أمك أرادت الخروج من جسدها».

أومأت جانيت برأسها. مدّت يدها في الفراغ الذي بينهما لكي تمس ذراعه، واستنشقت نفسًا كأنها تريد أن تقول شيئًا. لكنها لم تلبث أن استعادت يدها. ضمت كفيها معًا.

«سأتركك وحدك، بالطبع. أنت تدرس».

قال مدحت: «ليس عليك أن تذهبي. أريد تقديم المساعدة. وقد قلت لك هذا».

قالت وهي تنهض واقفة: «أعرف أنك قلته لي. لا أعرف السبب الذي يجعلني متمسّكة بهذا الأمر. لا يجوز أن أتمسّك به. لعلك تظن أنني... لست أدري. إذًا، أراك في ما بعد».

في إحدى زياراته إلى مستشفى الجامعة، شارك مدحت في ملاحظة مريض يعاني علة في المعدة. كان المريض صبيًا مراهقًا لديه انتفاخ وألم في البطن أديا إلى تقيّؤ وفقدان شهية.

كانت أذنا الصبي مدببتين؛ وشاحبتين. وقف الطلاب الأربعة عند الجدار، قريبًا من الباب، في حين كان الدكتور بريون يتحدّث مع المريض. كان المريض جالسًا على سريره، من غير حذاء، مرتديًا ملابس المستشفى. تجاوزت نظراته الطبيب. كان ينظر إلى الطلاب الواقفين وقد حمل كل منهم دفتر ملاحظاته في يده. نظر إلى ثيابهم السوداء. عيناه متّسعتان، ذقنه مستدقة، وساقاه النحيلتان منفرجتان من تحته. البنطلون متّسع عليهما. كان الدكتور بريون يكلّمه بنبرة مبتهجة. فحص بريون لسان الصبي، وسجل الطلبة الأربعة ملاحظاتهم. بدا لسانه محمرًا، متورمًا. كان انتفاخ بطنه يؤلمه عند الضغط عليه. طلب بريون من الصبي رفع رأسه لإدخال أنبوب فحص المعدة المطاطي الطري، وأن يفتح فمه على اتساعه. أدخل بريون الأنبوب في حلقه. طلب من الصبي أن يقوم بحركة بلع.

«ستكون النتيجة الأولى لمحاولة البلع إمساك عضلات البلعوم بالأنبوب... وعندما تسترخي، يمكن دفع الأنبوب إلى الأسفل حتى يبلغ المعدة ـ تبلغ المسافة عند الإنسان المتوسط نحو ستة عشر إنشًا اعتبارًا من خط الأسنان».

اتسعت عينا الصبي. أوشك على التقيؤ، واختلجت ركبتاه المثنيتان.

«جيد، أحسنت. والآن، عادة ما تؤدّي محاولة بلوغ المعدة إلى صعود محتوياتها عبر الأنبوب. و... ها هي». صعد سائل في الأنبوب وانسكب في كأس معدّة لاستقباله. كان سائلًا رقيقًا مصفر اللون فيه كتل طعام رمادية وبضع لطخات من السائل الصفراوي.

قال بريون وهو يسحب الأنبوب من بلعوم الصبي الذي صدر عنه صوت حشرجة: «إذا لم تخرج محتويات المعدة على الفور، فعلينا أن نطلب من المريض أن يشد على نفسه كأنه يحاول التبرز. أو يمكننا...». تناول بصلة مطاطية حمراء اللون، مثل لون الأنبوب... «أن نحرّض محتويات المعدة من خلال وصل هذه إلى آخر الأنبوب والضغط عليها، ثم إرخائها إرخاء متدرجًا -من المهم أن يكون إرخاؤها متدرجًا- بحيث تتمدّد من جديد».

راح يضغط على البصلة المطاطية ثم يتركها تتمدّد ببطء شديد. ظل فم الصبي مفتوحًا. تدلت فقاعة لعاب من شفته السفلى.

عند تصفية السائل وفحصه، اكتشفوا فيه سوية منخفضة من حمض كلور الماء، وكمية كبيرة من المخاط. شخص بريون إصابة الصبي بالتهاب المعدة المزمن. لكن هذا التشخيص يتطلّب دائمًا إجراء مزيد من الاختبارات للتحقّق من حمض اللبن وعُصيّة «بواس أُبلر» لأنهما عَرَضان من أعراض الإصابة بالسرطان. لذلك، تناول بريون عن أحد الرفوف زجاجة فيها محلول «غرام»، ثم استخدم قطّارة لإضافة القليل

من محتويات المعدة المصفّاة إلى وعاء صغير سكب فيه قليلًا من المحلول الذي في الزجاجة. استحال لون المحلول أحمر قانيًا: إن عصية «بواس أُبلر» موجودة!

كان الصبي ينظر إلى مدحت ورفاقه أثناء حدوث ذلك كلّه، إلى أن تحول لون السائل وظهر اللون الجديد الصادم. ارتعش الدكتور بريون ارتعاشًا غريبًا ـ لعله لم يتوقّع أن تكون نتيجة الاختبار إيجابية. لو توقّع ذلك، فلعله كان يؤثر إجراء الاختبار بعيدًا عن المريض ـ وبدا عليه أنه غير عارف من يتعين عليه إخباره بالتشخيص الذي توصل إليه. لكنهم كانوا قادرين جميعًا على رؤية الدليل الذي ظهر. صحيح أن الصبي لا يعرف القاعدة القائلة إن عصية «بواس أُبلر» يجب أن تلون محلول «غرام» بالأحمر، لكن اللون الذي ظهر بدا كأنه علامة إنذار واضحة... كان للسائل عندها ذلك اللون الغني الذي تكتسبه السماء عند الأفق قبيل الغروب.

قال الدكتور بريون: «كارسينوما المعدة. يجب أن يراك الجراح بعد ظهر هذا اليوم».

تكلّم الصبي للمرة الأولى: «لكن علي أن أعود إلى العمل». كانت نبرة صوته مرتفعة ارتفاعًا غير متوقع.

ظلّ ذلك الصبي في ذهن مدحت عدة أيام بعد ذلك. وفي زيارته التالية إلى المستشفى، حاول أن يرى الدكتور بريون لسؤاله عن تطور حالة الكارسينوما. إلا أن بريون كان منشغلًا بموجة جديدة من الجنود الجرحى الواصلين من الجبهة، فبدا لمدحت مشوَّشًا، وقال له إنه لا يتذكّر شيئًا عن الصبي. أشار إلى مدحت بالانصراف عنه ودفع الباب المتأرجح إلى الجناح التالي في المستشفى.

كانت نظرة الذعر التي رآها في وجه الصبي هي ما أثقل فؤاده. كان ذلك ذعر الاكتشاف... لقد لمح الصبي علامة الشؤم في بطنه... شيء يعيش هناك، في داخله.

انكبّ مدحت على كتاب الفيزياء انكبابًا محمومًا بعد ذهاب جانيت؛ ولم يبق لديه وقت لتناول الغداء قبل أن ينطلق مسرعًا لكي يلحق بدروس بعد الظهر. لم يكن في الصف إلا خمسة طلاب غيره. وكانوا يجلسون جميعًا في صف المقاعد الأول. رفع مدحت يده ليسأل الأستاذ إن كان ممكنًا أن يعيد لهم شرح قانون «كولون» الخاص بالشحنات الكهربائية. ارتاح عندما رأى أنه لم يكن الطالب الوحيد الذي راح يسجل ملاحظاته. وعندما خرج إلى الممر بعد ذلك، لمح أستاذ البيولوجيا فجرى خلفه، وسأله إن كان ممكنًا إجراء مراجعة سريعة للنظرية الصبغية في الوراثة. قال له الأستاذ: «لكن، ليس هناك الكثير مما نراجعه. لقد فهمت النظرية، أليس كذلك؟ ببساطة، الصبغيات هي التي تحمل المادة الوراثية. لن يكون في الامتحان شيء غير هذا. فما الذي لا تفهمه؟».

تردّد مدحت، ثم شكر الأستاذ. نعم، لقد فهم الأمر أخيرًا. استدار وعبرَ الباحة إلى

المكتبة. كادت الساعة تبلغ الساعة الثانية والنصف بعد الظهر. وعندما دفع باب المكتبة الثقيل، عادت إليه تلك العبارة التي كتبتها والدة جانيت: *أحيانًا، أشعر كأن هناك عصًا تحرّك ما برأسي.*

كان ساموييل كوغولاتي الشخص الوحيد في المكتبة آنذاك. جلس مدحت إلى طاولة في الناحية الأخرى من الصالة، ولم يرفع رأسه عن كتابه. من على تلك المسافة، بدت بشرة كوغولاتي الشمعية، عديمة الشعر، أشبه ببشرة طفل. ذهب مدحت إلى حيث القواميس الطبية، وتناول آخر نسخة من قاموس لاروس. جلس على كرسي، وفتح القاموس على حرف «N». ظهرت له في الصفحة رقم 746 صورة آلة لها عجلة كتب تحتها «التنظيف بإخلاء الهواء». وعلى الصفحة المقابلة، وجد التعريف الذي كان يبحث عنه.

*الوَهَن العصبي: مرادفات: الإرهاق العصبي، التوتر العصبي، اعتلال الأعصاب، اعتلال الأعصاب القلبي الدماغي، فرط الانفعال العام، الألم العصبي العام.*

*الأعراض. قد يظهر الوَهَن بطرق شديدة التباين. فأحيانًا، يكون لمريض الوهن العصبي هيئة شخص معافى، وبشرة نضرة، ومظهر الثقة بالنفس. وعلى العكس من ذلك، يكون أحيانًا شخصًا مكتئبًا، هزيل الجسم، شاحبًا، مطرق الرأس، يجيب عن الأسئلة بصعوبة، حتى إن كانت أسئلة بسيطة. وعلى وجه العموم، يعاني هذان النوعان من المرضى العلل نفسها: صداع في أعلى الرأس، أو صداع منحصر في الرقبة أو في عدة مواضع من الجمجمة، يزداد شدةً بفعل الأصوات والروائح والإرهاق الذهني، ويتناقص بعد تناول وجبات الطعام.*

لا بد أن هذا الوصف يصحّ على الإحساس بعصًا تحرك ما في الرأس!

*تكثر حالات الأرق، وتكون مؤلمة. يشعر المريض بالحاجة إلى النوم بعد تناول العشاء، لكنه سرعان ما يستيقظ ويعجز عن النوم من جديد إلى أن يأتي الصباح. وهكذا فهو ينهض متعبًا منذ الصباح لأنه أمضى فترة الليل كلّها قلقًا...*

ثم أتت صفحة فيها صور توضح «التنظيف بإخلاء الهواء». رجل واقف في الشارع إلى جانب آلة ضخمة كتب عليها: آلة التنظيف بإخلاء الهواء. ثم صورة الرجل نفسه راكعًا في غرفة وهو يضغط نهاية أنبوب على الأرض؛ ثم صورة امرأتين في مريلتين تمشّطان الأرض بشوكات أرضية.

*... نوعٌ من التفكير العصبي وأحاسيس كثيرة باعثة على الاكتئاب. وهذا يعني أن الكوابيس كانت تهاجمه وهو يبدو في حالة راحة.*

*يصاب المريض أحيانًا بدوار ودوخة: إحساس بالفراغ في الدماغ، ورؤية ما يشبه ذبابًا يطير أمام العينين، وترنّح من غير سقوط.*

مر بإصبعه على الأعراض الأخرى: اضطرابات هضمية، اضطرابات في الجهاز التنفسي وجهاز الدوران... اضطرابات في السبيل البولي التناسلي. ومن أسباب المرض... رنين يحسّه المريض في الهواء... حساسية شديدة للحرارة والبرودة تسبّب الألم...

*إن حرص مريض الوهن العصبي على مراقبة صحته مراقبة مستمرّة يجعله يعيش أحاسيس مختلفة كثيرة جدًا لا يلاحظها الآخرون، وأما هو فيفسّرها بطريقته ويبالغ فيها.*

تشتمل أساليب المعالجة على حمية غذائية خالية من القشريات، مع إضافة صفار البيض النيء ومرق اللحم.

«يومك سعيد، مسيو مدحت». كان كوغولاتي واقفًا إلى جانبه حاملًا في يده كتابًا وضع إصبعه بين صفحاته.

«آه، صامويل، كيف حالك؟».

«ماذا تقرأ؟ هل هو قاموس؟».

«إنني... أجل. أبحث عما هو مكتوب عن الوهن العصبي».

«هذا جميل. هل لي بالجلوس؟ ماذا وجدت؟».

قرقعت معدة مدحت. سعل.

قال: «أوه، لم أجد الكثير. يبدو لي أن السمة الموحّدة بين الحالات المختلفة ليست أكثر من أحاسيس جسدية غريبة. وأما ما عدا ذلك، فالظاهر أن من الممكن تشخيص إصابة المريض بالوهن العصبي إذا رأيت أنه يتوهّم أمراضًا وآلامًا. أليس هذا غريبًا؟ يكون الشخص مريضًا إذا لم يكن مريضًا! لا توجد علة محدّدة، ولا وجود لشيء جسدي أو عصبي... ما من شيء غير قراءة الطبيب الذاتية لحالة المريضة، أو المريض.

«نعم، هذا أمر غامض».

«لعل هذا ما يعنيه الدكتور ريفو عندما يقول إننا جزء من علم يتطوّر». ارتدّ رأس كوغولاتي إلى الخلف كاتمًا ضحكته. لكن مدحت صار في مكان آخر. كان ذهنه يجري عبر قنوات مألوفة فيعود، بحكم العادة، إلى تلك الفكرة التي طرحها فسخروا منها: فكرة الأسباب الخفية، غير المرئية، التي قد تكون موجودة... الأسباب التي لعلّها

كانت هي المنبع الخفي لآلام آريان مولينو. تذكّر اعتراض جانيت على فكرة الجنون. تذكّر الأطفال الرضع الذين رآهم في الأوعية الزجاجية المقفلة ذات البطاقات.

وضع كوغولاتي كتابه على الطاولة بعد أن أدخل ورقة صغيرة عند الصفحة التي كان مفتوحًا عليها: «علينا أن نبحث في قسم الطب النفسي».

كان مدحت مسرورًا بهذه الصحبة. استطلع، مع كوغولاتي، عناوين الكتب المكتوبة على كعوبها. نظرا في فهارس تلك الكتب، وجمعاها في عدة أكداس باحثين عن المصطلحات المتكرّرة. لم يجد مدحت ذكرًا لحالة «الوهن العصبي الهستيري» في أي مكان، لكنه ركّز انتباهه على «الهستيريا» والمصطلحات الأخرى التي ترد إلى جانب هذه الكلمة.

سأله كوغولاتي: «ما طبيعة البحث؟».

«كنت أقرأ عن الوهن العصبي في... في رواية».

«آها! أفضل أنواع البحث ما تقوده المخيلة. إنني معجب بهذا».

ضم كتاب بريكيت «رسائل في الهستيريا» دراسة أربعمئة وثلاثين حالة. وجدت تلك الحالات كلّها، تقريبًا، لدى نساء في مقتبل العمر كانت أكثرهن من الطبقة الدنيا في المجتمع. لم يرد ذكر النشاط الجنسي غير السوي إلا مرات قليلة.

قال كوغولاتي: «اسمع هذا...». أزاح بمرفقه مجلّدًا كان على الطاولة، ثم وضع مكانه كتابًا مفتوحًا راح يقرأ فيه: «يقول هذا الكاتب: يحدث بكل تأكيد أن تكون حالات العُصاب التي تظهر فوق الحزام مفهومة فهمًا واضحًا أكثر من الحالات التي تحت الحزام».

«كم هو ظريف! وكم هو قليل الجدوى!».

بدأت القعقعة في معدة مدحت تنقلب إحساسًا بالجوع. بلغت الساعة الثالثة؛ وانقضت أكثر من سبع ساعات منذ الإفطار. وجد في إصدار حديث من مجلة «الدماغ» مقالة بعنوان «اعتلالات الحسّ المشتركة»، فقرأ قصص الحالات الست الواردة فيها بسرعة شديدة. ذهبت المقالة إلى أن الألم الذي لا تظهر له علة واضحة يكون ناتجًا عن إحساس جسدي مضطرب. كتب مدحت في دفتره بيد مرتعشة قليلًا: *التكيف غير الصحيح للجسد.*

اختفت الشمس من النوافذ. تثاءب كوغولاتي.

«كان هذا مفيدًا، لكني لا أعرف تمامًا ماذا تعلّمنا. كثيرًا ما تكون تلك التعريفات متضاربة! أو لعله ينبغي أن يظل الجسد والعقل مجالين مختلفين. هل تعرف، لدي صديق ينبغي أن تتكلّم معه. إنه طالب دراسات عليا في الطب النفسي. وهو يعمل حاليًا مع الجنود المصابين بالصدمة. أيكون ذلك مفيدًا لك؟».

«انتظر، استمع. هذا في كتاب اسمه...». أغلق مدحت الكتاب ليرى غلافه... '*الإدراك المرضي*' لكاتب اسمه بلونديل. 'الإدراك المرضي حالة من عدم الاستقرار الحسّي المشترك... تمرّد على المنطق... انكسار في نظامنا الإدراكي؛ وهو من نوع مختلف عن الإدراك المعتاد'!».

«أجل، إنه... أعني، لست أدري. عليَّ أن أذهب يا مدحت. لكن هذا كان ممتعًا. ينبغي أن... على أية حال، سأراك في درس علم النبات يوم غد. حظًا طيبًا. سأترقّب سماع ما تصل إليه من نتائج».

قال مدحت: «أشكرك. لقد كان وجودك معي أمرًا عظيمًا».

قال كوغولاتي: «يسعدني كثيرًا أن تكون المكتبة بيتًا لك...». غمز له بعينه... «حتى الآن».

رن باب المكتبة عندما أغلق الباب من خلفه، فرددت أكداس الكتب أصداء رنينه. بدأ جوع مدحت يتلاشى، مثلما يحدث في الصيام. عاد إلى سلسلة أفكاره التي انقطعت قبل قليل.

لعل مدام مولينو لم تكن طبيعية! لعلها كانت «معتلّة»! لكن، حقًا، ما الذي يثبته هذا في آخر المطاف؟ بدا له الأمر أكثر سوءًا من إلقاء اللوم على روح شريرة أصابتها. فعلى الأقل، يحاول الناس إخراج الروح الشريرة، ولا تبقى الضحية في حالة عزلة... لا يُكذّب الناس ما تقوله، ولا يشخّصون حالتها انطلاقًا من قناعتهم بأنها لا تعاني الأعراض التي تزعم أنها تعانيها. كيف يستطيع المرء معرفة إن كانت الأعراض موجودة حقًا أم غير موجودة إذا لم تكن أعراضًا من النوع الذي تمكن رؤيته؟

فرنسا المثقّفة، العالمة، بنصبها الغرانيتية المنقوشة عليها تواريخ الولادة وتواريخ الوفاة وتواريخ الإنجازات العلمية... إنها موطن الثقة التي لا تخطئ حيث يحدث كثيرًا أن يرفع مدحت رأسه وينظر إلى نصبها نظرة إجلال. حتى في زمن الحرب، ظل الفرنسيون يتناقشون من على منابرهم، وبين جدران قاعاتهم. وأما في نابلس... في نابلس يستنجدون بما وراء الطبيعة عندما يشعرون بانعدام الحَوْل، سواء كان ذلك صلوات إلى الله أو تعاويذ من شيخ من الشيوخ لحمايتهم من العين الشريرة. يمضي النابلسيون حياتهم على مقربة من قبورهم، تحت رحمة الطبيعة، ويلتمسون ترياقًا لآلام العالم في سحائب البخور في طقوسهم. هنا، في أوروبا، قطارات تنطلق في مواعيدها، وشوارع مرصوفة رصفًا. لا يشعر الإنسان بالأرض! ومع هذا، صار يبدو لمدحت الآن أن هذه الإنشاءات وهمية أيضًا. إن لها مظهر الصواب، فحسب. ففي بعض اللحظات، وفي حالات بعينها، يصير المرء قادرًا على رؤية أن هذا كله نسيج من غير أساس، نسيج يمكن رفعه، فيصير المرء قادرًا على مد يده من تحته فيحس بالفراغ.

اختفى إحساسه بالجوع. أنفق أربع ساعات في المكتبة ولم يتوصّل إلى معلومات جديدة من أجل جانيت، غير أن الأطباء فشلوا في مساعدة أمها... لكن هذا كان واضحًا من قبل. وها هو الآن هنا يستكشف التشخيصات نفسها التي قدّمها الأطباء. هذا ما يتعيّن التخلص منه، في المقام الأول. وضع الكتب في عربة الإعادة وخرج إلى الباحة. كانت الشوارع هادئة لا صوت فيها غير صوت غناءٍ آتٍ من بعيدٍ، غناء من يحملون نقّالات الجرحى. سار، فرَنّ صوت خطواته في الهواء ذي البرودة المنعشة.

انعطف من حول زاوية، فظهر القمر أمامه فجأة، ظهر كبيرًا، أبيض، من خلف غصن شجرة مزهر. ظهور قبل وقته مثلما يظهر متطفل... ظهور قبل أن تغيب الشمس. توقّف وحاول التفكير فيما يمكن أن يكون قد حدث لآريان مولينو في حياتها. ما التدخّلات التي جرت؟ وكيف كان مجرى الأحداث التي أودت بها؟ وماذا -أو من- كان مشكلةً في حياتها؟

## - 9 -

كان سيلفان لوكلير يعيش في مزرعته الواقعة على الضفة اليسرى لنهر هيرو منفقًا أيامه بين الكروم أو في الأقبية حيث يراقب براميل النبيذ. وفي الوقت نفسه، كان شخصية حاضرة في المدينة تظهر في أكثر اللقاءات الكبيرة، وفي لقاءات صغيرة كثيرة أيضًا، وذلك على نحو لا علاقة له بمهنته. محتمل أن يكون ذلك ناتجًا عن صلته بباريس: كانت خالاته من سكان الدائرة الخامسة عشرة هناك؛ وكان يزورهنّ مرات كثيرة في الشهر الواحد. وكان واضحًا أن له شعبية في صالونات الجوار. إلا أن سيلفان لم يكن أبدًا ممن يتنكّرون في هيئة كوزموبوليتانية، ولم يحاول التمويه على لهجته الجنوبية، أو على اللكنة الأنفية التي تتبدّى صوتًا «أه» في أكثر الكلمات ذات الأواخر الساكنة.

على العكس من ذلك، كان سيلفان لوكلير إقليميًا من غير خجل، سليط اللسان دائمًا، هجوميًا، يعتبر نفسه مصيبًا دائمًا. وعلى نحو ما، كانت هذه الصفات نفسها بطاقة دخوله إلى اللقاءات والاحتفالات كلها حيث كان سوءُ طبعه صفة معروفة تحظى بالقبول والتقدير.

قامت علاقة جانيت بسيلفان، كعلاقته بأبيها، على صداقته بأمها. كل ما كانت تعرفه هو أن سيلفان كان في الأصل صديقًا لوالدة أمها في باريس، ثم صار صديقًا للطفلة آريان. وقد احتل سيلفان مكانة في قلب تلك الطفلة التي كانت من غير إخوة وأخوات. وعندما صارت في السادسة عشرة، صار رفيقها في الحفلات وملجأها كلما ساءت حالتها الصحية، وهذا ما كان يحدث كثيرًا. كان الناس يرونها متعلّقة بذراعه؛ ومن الطبيعي أن تظهر سريعًا شائعات تقول إنهما مخطوبان.

ولما بلغت آريان الثامنة عشرة ولم يظهر أي عرض زواج، خاطب أبوها سيلفان مباشرة: إما أن يفصح عن نيته، أو أن ينهي علاقته بابنته. فوجئ سيلفان، وقال إنه آسف لأنه لا ينوي أن يطلب يدها. وبعد ذلك، انقطعت الصلة بين آريان وسيلفان سنوات طويلة، إلا عندما كان أحدهما يرى الآخر عرَضًا، ومن بعيد، في حفلة أو لقاء.

لكن سلسلة مصادفات غريبة جعلت فريديريك مولينو يجد نفسه، في شتاء سنة 1901، جالسًا إلى جوار مسيو لوكلير في وليمة عشاء في فونتينبلو. لقد دُعي مولينو إلى تلك الوليمة في اللحظة الأخيرة من قبل واحد من الأساتذة في «ليكول نورمال». جرت بينهما أحاديث مختلفة اتضح منها أن مسيو لوكلير يعرف آريان، زوجة مولينو،

منذ طفولتها.

وطبيعي أن يكون فريديريك قد فكّر في احتمال أن تكون في الأمر علاقة عاطفية؛ لكن ذلك بدا له مستبعدًا جدًا من الناحية الجسدية -هذا الرجل الريفي الضخم وزوجته الفتية الرقيقة- فحلّ محلّ هذه الفكرة، على الفور، أملٌ في أن يكون هذا الصديق من الماضي قادرًا على المساهمة في أن تستعيد زوجته ذكرياتها السعيدة. فهذا يعني أنه قد يستطيع إشاعة شيء من الراحة في نفس آريان التي عاشت، حتى ذلك الوقت، كل تدخّل بشري في حياتها كما لو أنه احتكاك عنيف.

قبل سيلفان الدعوة إلى العشاء؛ وكانت دهشة فريديريك كبيرة عندما وجد أثرًا إيجابيًا شبه فوري. التقت آريان صديقها القديم الذي يكبرها بعشرين عامًا، لكنه ازداد وزنًا وترهّل حتى صار ممكنًا أن يظنّه المرء جدها. بدأت آريان تعود إلى ما يشبه ذاتها القديمة. صارت زيارات سيلفان حدثًا شهريًا، وواصلت آريان تحسّنها. صارت تنام جيدًا وتأكل جيدًا. وعادت، من جديد، تلك المرأة المرحة التي عرفها فريديريك في أول أيام زواجهما.

لكن هذا لم يدم طويلًا. فالظاهر أن ما تشكّل في عقل آريان كان غير قابلٍ للإبطال. لم ينقضِ وقت طويل قبل أن تسقط في الظلمة من جديد. لم يعرف أحد أبدًا الطبيعة الدقيقة للرابطة التي كانت بين آريان وسيلفان لوكلير. وكان الشيء المهم الوحيد هو أن سيلفان نفسه لم يستطع إنقاذها.

وعندما انتقل فريديريك وجانيت، إلى الجنوب، إلى مونبلييه، منذ أربع سنوات، كان استياء أصحاب الكروم والمعاصر نتيجة تدهور أسعار النبيذ ذكرى قريبة العهد في أذهان أهل المدينة. رأى مولينو وابنته أن سيلفان لم يبذل أي جهد خاص خلال زياراته إلى بيتهما لكي يخفي نشاطه السياسي. لكنه لم يكن شديد الميل إلى الحديث عن ذلك الموقف، فصارا يتخيّلان أنه يبالغ في الأمر إن هو تطرق إلى ذكره. ومع استقرارهما في مونبلييه، صار واضحًا أن ما من مبالغة في ذلك، وأن سيلفان كان معروفًا في المدينة كلّها بأنه من أول من وقفوا يصيحون ويتوعدون في «بلاس دو لا كوميدي»، حيث كان النقابيون والملكيون والانفصاليون الأوسيتانيون يتجمّعون احتجاجًا على ذلك المسحوق المغشوش الذي اجتاح الأسواق، والذي كان ممكنًا تحويله إلى نبيذ بإضافة الماء إليه. وعندما صاحت مارسيلين من فوق المنبر، زأر سيلفان لوكلير مجيبًا إياها بشعاراته فأضرم حماسة الحشد كله.

لم تشهد مونبلييه تكرار تلك الحمى المنفلتة مرة أخرى. لكن سيلفان كان مستعدًا دائمًا لأنواع أخرى من الخصومة. فمن حيث الظاهر، كانت الحرب بلسمًا مزدوجًا

للمنطقة من حيث فرص العمل وتقليل الفقر. لكن شيئًا آخر كان يغلي تحت السطح. خشي من لم يُجَنّدوا في الجيش لومَ الناس فسارعوا إلى شجب الآخرين، وامتلأت دوائر المجتمع ضغائن ونمائم تنتقل من فم إلى أذن، ثم من فم إلى أذن، إلى أن تعود -بطريقة غريبة- إلى عتبات من أطلقوها فتصير دليلًا على خطاياهم.

يصعب القول كيف بدأ الكلام عن باتريس نولان. غالب الظنّ أن البداية كانت تصرّفًا طائشًا من جانبه، أو جملة عابرة لم يستطع هضمها واحد من الوطنيين المتوتّرين فأذاعها على الناس. ثم لم يستغرق شيوعها أكثر من ليلة واحدة صار اسم نولان بعدها على لسان كل من في المدينة. جاء الصباح، فكانت مونبلييه كلها ضد نولان. وكان طبيعيًا أن يسمع سيلفان لوكلير بالأمر في جولته الصباحية فأتى بالخبر، الذي لم يستطع تبيّن صدقه من كذبه، إلى بيت مولينو. كان مدحت قد خرج قبل قليل قاصدًا الكلّية. وكان فريديريك مولينو موشكًا على الذهاب بدوره عندما رأى هيكل سيلفان لوكلير الضخم قادمًا في الممر المفضي إلى البيت، ملوّحًا بعكازه.

«يومك سعيد، يا سيلفان».

«صباح الخير، هل سمعت بالأمر؟».

«سمعت بماذا؟».

«لقد ذهب نولان. جاء إلى البيت لتناول العشاء، وكانت هناك رسائل عند باب بيته. أصابه الذعر فرحل».

«ادخل، ما هذا الذي تتحدّث عنه؟ وما الرسائل التي كانت عند بابه؟».

قال سيلفان وهو يمسح قدميه على السجادة الصغيرة أمام الباب: «أشكرك. كانت هناك ثلاث رسائل، أو أربع رسائل. بعضها كان من غير توقيع. واحدة على الأقل...». نخر بأنفه كأنه يضحك ضحكة قصيرة... «واحدة كتبها لوك ديمون». انتهى من كلامه وألقى نظرة في الممر.

قال فريديريك: «لوك؟ ماذا لديه ضد باتريس؟».

«أوه، أنت تعرف. خائن، وهذا الأمر، وذاك الأمر. ألماني، أناني، وكل ما يتبع ذلك».

«يا إلهي! أيجدر بي أن أزوره، في رأيك؟ أم علي تجنّب...».

قال سيلفان: «ليس هناك وقت...». من جديد، ألقى نظرة في اتجاه المطبخ... «كان منذ ساعة مستعدًا للرحيل مع ابنتيه».

«هذا يعني أنك رأيتهم».

«لقد مررت بهم. قلت لهم ما سمعته».

«وماذا سمعت؟».

«هذا، وذاك. علينا الآن أن نتوخّى الحذر. هلا جلسنا. هل يمكن أن نتناول قهوة؟».

قال فريديريك: «أنا... أوه، يا إلهي! أظن بأن لدينا متسعًا من الوقت لكي نشرب قهوة. حسنًا، كم الساعة الآن؟ لقد توقّفت ساعتي؟».

«إنها الثامنة وثلاثون دقيقة».

«الحقيقة أن عليَّ الذهاب، كما تعرف. عندي محاضرة في الساعة العاشرة. إنني آسف يا سيلفان. سنشرب القهوة في وقت آخر».

«ولماذا أنت آسف؟ ينعم الجميع بضيافتك دائمًا. أظنني لست أقل منك إحساسًا بالذنب. سأسير معك عند خروجك».

«حسنًا، شكرًا لأنك أتيت وأخبرتني».

كانت تلك كذبة: لم تكن لدى فريديريك محاضرة في الساعة العاشرة من ذلك اليوم. سار بجانب سيلفان بخطوات هادئة، فاجتازا الممر ووصلا إلى الشارع. وما إن افترقا، حتى انعطف عند الزاوية وبدأ يسير مسرعًا فلم يصل القسم إلا وقد بلّل العرق ياقته. صعد درجات السلم قفزًا، اثنتين اثنتين، واندفع عبر الباب المزدوج الأول، ثم عبر الثاني، ثم بلغ الباب الأخير، باب مكتبه ذا الزجاج المغشّى. أدار المفتاح في القفل بأقصى سرعة سمح بها ارتعاش يديه.

كان كل شيء كما تركه الليلة الماضية. لا يزال درج مكتبه مفتوحًا؛ ولا تزال الكأسان اللتان استخدماهما، هو وباتريس، على الخزانة معًا مثلما كانتا... في أسفل الكأسين، ارتسمت دائرتين صفراوين من أثر الكونياك. وضع حقيبته على الأرض، وبدأ يجمع أوراقه. فتح دروجًا، وأخرج منها أوراقًا. رتبها على الطاولة، ثم بدأ يتصفحها. لا فائدة من هذا... فلا بد له من أخذها كلّها. حتى إن كانت مكتوبة بالفرنسية، فإن فيها -هنا وهناك- إحالات إلى فلاسفة ألمان متناثرة في أوراقه كلّها. فتح مصنَّفَين جلديين ووضع الأوراق فيهما بأقصى قدر استطاعه من الترتيب، ومن غير أن تنثني زواياها. أخذ أحدث دفاتر لديه، وأخذ الترجمة الإنكليزية للقرآن، ثم مسحت عيناه الغرفة كلّها مرة أخيرة قبل أن يخرج مسرعًا من جديد.

في تلك الأثناء، كانت جانيت قد خرجت من البيت ذاهبة إلى الدير. وكعادتها، أخذت معها كتاب «أسرار مرسيليا». لكنها توقفت عند كشك للصحف في طريقها لكي تشتري بضع صحف يومية. كان في الطابق الثاني من الدير جريح اسمه ألبير أتوا به من بيزيه. كان قد فقد ساقيه، وكان يسأل جانيت دائمًا عن السبب الذي يجعلها لا تقرأ له قصصًا حقيقية على الإطلاق. كان الجرح الذي في وجه ألبير بطيء الاندمال.

بل كان ينفتح في بعض الأيام ويخرج منه القيح. كان أيضًا دائم التذمّر من موضع سريره إلى جانب النافذة لأن ضياء الصباح يكون شديد السطوع فيمنعه من النوم. قال الأطباء إن حالته حساسة إلى حد لا يُسمح بنقله؛ ثم إن أكثر الناس يمكن أن يخوضوا معركة ليحصلوا على ذلك السرير. كانوا يقولون له: انظر إلى هذا المنظر الذي لديك، يا سيدي... سور الحديقة. كانت نبرة ألبير عندما طرح مسألة القصص الحقيقية مصدر قلقٍ لجانيت لأنها لم تعرف أبدًا إن كان جادًّا أم مازحًا؛ فقد كانت هي النبرة نفسها التي يستخدمها عندما يتذمّر من موقع سريره. لقد طالبها مرات كثيرة بقصص حقيقية، فقرّرت أن تستجيب له، حتى يكفّ عن تكرار تلك المطالبة.

وضعت جانيت بين صفحات الرواية الورقتين اللتين جعلت مدحت يراهما في ذلك الصباح: تشخيص الطبيب لحالة أمها، والوصف الذي كتبته أمها بيدها للأعراض التي تظهر عليها. لم يكن لديها وقت للنظر إلى الورقتين مرة أخرى، لكنها لم ترد مفارقتهما. كانت أصابعها ضاغطة على الكتاب خيفة أن تسقط الورقتان منه.

تردّدت أصداء أصوات الأطباء الخفيضة عند السلم. بلغت جانيت الطابق الثاني؛ وكانت خجلة -كعادتها دائما- لأنها لا ترتدي ثوب التمريض الأبيض. كانت الزاوية المجاورة للنافذة حيث تجلس عادة مشعّة بضوء الشمس؛ وقد أُحضر مزيد من الكراسي من أماكن أخرى في الجناح. استقبلها الرجال مسرورين عندما وصلت. كان السرير الذي إلى جانب النافذة عاريًا... عليه ملاءة جديدة نظيفة.

«أين ألبير؟».

«لقد رحل».

«الطابق الثالث. لقد نقلوه أخيرًا».

أشار إليها جريح اسمه جيروم كان متكئًا على وسادته: «لا يزال حيًّا، لا تجزعي! انظروا إليها! ظنّت أنه مات».

جريح آخر يرتدي بيجامة كان جالسًا على كرسي. قرص وجهه وخفض رأسه ضاحكًا.

قالت جانيت بنبرة جافّة وهي تجلس إلى جانبه: «حسنًا. هل نريد اليوم أن نقرأ في رواية أسرار مرسيليا؟... لدي صحف أيضًا».

قال جيروم: «لا أعرف ما تفعلينه بهذا، يا مادموازيل. لا نريد صحفًا. شكرًا جزيلًا لك. أعطنا القصة».

«لا بأس، لا بأس. هل نحن مستعدون جميعًا؟ جيّد. الفصل الخامس. تذهب بلانش

*مسافة ستة فراسخ سيرًا على قدميها وترى قافلة مارة... يخرج فيليب وبلانش من بيت البستاني آياس وقت الشفق، قرابة الساعة السابعة والنصف*».

لم تكن شديدة الانتباه إلى الكلمات التي تقرأها، لكنها كانت قارئة جيدة على أية حال؛ وكانت تتلاعب بأواخر الجمل والعبارات مستعينة بمهارتها في إكساب صوتها تلاوين متنوعة، وكانت تشدّد على بعض الكلمات، أو أجزاء الكلمات، كأنها تعزف مقطوعة موسيقية. كان الرجال مسحورين، بل حتى الممرّضات اللواتي أتين لتغيير ضماداتهم صرن تتكلّمن همسًا وتضعن القطن على الجروح ببطء شديد. ومن حين لآخر، كانت جانيت ترفع رأسها عن الكتاب فترى وجوهًا رانية إليها مثلما يرنو الأطفال، وأفواهًا فاغرة.

انصرفت في وقت مبكر بعد الظهر. قالت الممرضات إن على «الشجعان» أن يأكلوا، وأن يناموا أيضًا. كان القمر قد بدأ يبزغ. لم تستطع منع نفسها: حتى قبل وصولها إلى البيت، فتحت كتابها وأخرجت ورقة أمها، وتوقفت عند الزاوية قبل أن تبلغ الممر المفضي إلى البيت. فتحت الورقة في ضوء النهار الذي بدأ يخفت.

> *أشعر أحيانًا كأنني أصير أضخم، فأضخم؛ وأشعر في أحيان أخرى بأنني أنكمش وأتقلص. أمضي بسرعة وببطء، في وقت واحد. تجويف فمي هائل الاتساع؛ وأحس ضغطًا شديدًا.*
>
> *أشم رائحة الموت، أحيانًا. أنظر إلى بعض الناس، فلا أعرف إن كنت أشم الموت فيهم، أو أراه، أو أحسّه. يشعر جسدي كله بذلك الموت. لكن هذا ليس أمرًا سيئًا كله. تكون الرائحة قوية على نحو خاص، بعض الأحيان. وأجد نفسي راغبة في استبقاء تلك الأيام، أو راغبة في الاحتفاظ بذلك الشعور، لكني لا أستطيع... إنه يزول، يختفي. شيء أشبه بالانقلاب رأسًا على عقب. عندما يأتيني ذلك الإحساس، أقول في نفسي إن هذه هي الحياة الحقيقية، الحياة التي ليست تقليدًا، التي ليست تمثيلًا. زواجي حقيقة واقعة مثل البيت الذي أعيش فيه، مثل هذه الجدران الأربعة. فريديريك بيت. هذا الإحساس ردة فعل على شيء غريب عني. لكن، هل هذا صحيح حقًا؟... فحتى الشيء المعروف يمكن أن يصير مجهولًا.*

«جانيت!».

كان مدحت قادمًا في اتجاهها، جاريًا في الشارع. كانت عيناه رطبتين، لامعتين؛ وكانت خصلات شعره المزيتة مضطربة. أزاح عن وجهه خصلة شعر كبيرة.

«جانيت. رأيتك سائرة في الشارع، فجريت. لقد كنت في المكتبة. لم أعثر على أي

شيء جديد. لكن...». التقط أنفاسه... «صارت لديَّ نظرية».

كان مستثارًا؛ وكانت الحماسة مشعّة في وجهه. أحسّت جانيت برغبة في أن تمسّ يده. على الرغم من أنها لم تفعل ذلك، فلا بد أن شيئًا من ذلك الدافع قد وجد سبيلًا إلى التعبير عن نفسه لأن ابتسامة ترقّب ارتسمت على وجه مدحت.

«ألا نتحدّث عن...».

«قل لي في البيت. لا تقل شيئًا هنا».

انعطفا عند زاوية الشارع، ثم سارا في الممر المفضي إلى البيت. فتح الدكتور مولينو الباب لهما. كان على وجهه تعبير جاد.

«لدي أخبار سيئة جدًّا، أيها الصغيران».

انتبه مدحت إلى رسالة في يد الدكتور. إحساس غامض جعله يدرك الأمر. فقال: «لا».

«مات صديقنا لوران».

كانت الرسالة من والدة لوران. لقد قُتل في أحد البارات في أوبريس في طريق عودته. ظنّه ضابط ثمل شخصًا آخر فطعنه في ذراعه وفي صدره. مات لوران سريعًا لكثرة ما نزف من دمه».

ظل باب البيت مفتوحًا. وظل الثلاثة واقفين، ينظرون إلى الأرض صامتين. مسَّ مولينو رقبة ابنته. ثم مد يده لكي يغلق الباب، وقال لهما بصوت بذل جهدًا لكي يضبطه إن من الأفضل أن يستريحا قليلًا قبل تناول طعام العشاء.

كان وجه جانيت شاحبًا، مبيضًا كلّه. دعاها مدحت إلى غرفته فقبلت من غير حرج. جلست على كرسيّه، وجلس مدحت على السرير. جلسا قبالة النافذة؛ وكانت آخر فلول ضوء النهار تنسحب من الحديقة. اختفت ملامح الملاك الذي على البركة في الحديقة، وملامح إبريقه الفارغ من الماء، مثلما اختفت بقية معالم المشهد في الظلال، ثم أحالت المصابيح التي في الداخل زجاج النافذة مرآة عكست صورة وجهيهما. ها هو وجهه، وبياض عينيه اللامع، وجسده الجاثم على حافة السرير. وها هي جانيت مسبلة عينيها.

بدأت تقول مغمغمة: «كنا طفلين...». جرت دموع عينيها... «عندما كنا طفلين، كنا نتظاهر بأننا يتيمان».

لم يستطع أن يقول لها شيئًا. عما قريب... قريبٍ جدًا... سوف يشعر بألم يصعب احتماله. إنها مسألة وقت فقط.

«أردنا جميعًا أن نكون مثل كوزيت، أو مثل الأميرة الصغيرة».

كانت الحقيقة هي أن لوران ظلّ متفوّقًا على مدحت في كل شيء. لوران الذي كان

قد بدأ يمقته، بل حتى... نعم، بدأ يكرهه. وقد بلغ به الأمر أن تمنّى -لحظة واحدة فقط- أن يموت لوران. شد قبضتيه معًا، وأغمض عينيه. لكن، لعل من كرهه لم يكن لوران الحقيقي نفسه. لعله كره فكرته عن لوران! لعله كره فكرة الشخص المتفوّق عليه كثيرًا في حسناته وذكائه وطبعه وثقافته، بل حتى في مظهره. لوران توبان، انحناءة جسده الخفيفة، وشعره الأشقر، ولفتات عينيه. وعلى حافة تلك الأفكار، كانت هناك حقيقة لا يستطيع مدحت استيعابها ولا تدبّرها... حقيقة أن الرجل ما عاد موجودًا. لكنه لا يزال غير قادر على مواجهة هذه الحقيقة. لا بد له من التفكير في لوران حيًا.

كانت جانيت مستمرّة في الكلام عن لوران؛ وكانت تقول أشياء عن اليتم والأيام. ماذا تعني بهذا؟ هل تعني أن لوران كان مثل أبيها؟ هذا أيضًا، لم يكن قادرًا بعد على مواجهته. تحدى نفسه، وتخيّل صورة الجسد الدامي، صورة ذراع وصدر ممزقين. كانت الصورة فظيعة، لكنها لم تهزه. لعل من الصعب أن يؤمن المرء بشيء أنشأه بنفسه! لم يأته بعد شيء يستطيع أن يطغى على الصورة التي لا تزال نابضة في ذهنه: لوران سائرًا أمامه في ممر الحديقة، بنطلونه متجمّع حول ركبته، وعيناه نصف مغمضتين في مواجهة ضياء الشمس، وهو يهمس بواحدة من أفكاره الغريبة عن الطبيعة البشرية.

كانت جانيت قد كفّت عن الكلام. الآن، تكلّم مدحت بصوت مرتفع لا ضابط له: «لقد كان صديقي».

كره حتى النبرة المرّة التي سمعها في هذه الكلمات.

تذكّر ساعته الذهبية في منتصف الليل. استيقظ على زجاج النافذة المهتز في إطاره فأدخل ذراعيه الباردتين تحت الغطاء الدافئ، واستيقظ عقله فجأة. الساعة! ضاعت... لا شك في أنها قد ضاعت. رآها بعين عقله؛ رآها تتكتك في الطين. غلافها الهش مكسور، مفتوح مثل جناحي خنفساء، وضربات قلبها مكشوفة. ثم تذكّر أن لوران لم يُقتل في ميدان المعركة، بل في بار. تقلّب في فراشه.

جاء الصباح. لم يمض وقت طويل على جلوس مدحت إلى طاولته قبل أن يسمع نقرًا على باب غرفته. كانت جانيت واقفة في الممر. وجهها شاحب مثلما كان يوم أمس. مدّت يدها فأمسكت كفه بأصابعها الجافة. لم يقل أي منهما شيئًا. انحنى صوبها، ومست شفتاه شفتيها، برفق. ثم ابتعد وجهه عن وجهها. جبهتها متغضّنة، وفمها مفتوح.

أقيم قداس الجنازة يوم الجمعة. اجتمع من حضروا القداس في الكنيسة القديمة ذات القبة المرتفعة والقناطر الرخامية. كانوا مرتدين بدلات، وربطات عنق، ومعاطف بسيطة، ومعهم الجنود القادمون في إجازة مرتدين بدلاتهم العسكرية الزرقاء ذات الأحزمة. وأمامهم، تماثيل جَصّية لقديسين وأتقياء مصطفّة على الجدار فوق المذبح.

لم يصغ مدحت إلى القداس. لقد لمح والد لوران عندما دخلوا إلى الكنيسة: عرف أنه والده عندما رأى طوله ووقفته، على الرغم من أن شعره كان بنّي اللون. لكن الرجل كان الآن جالسًا إلى الناحية الأخرى من الممر، وكانت هناك رؤوس كثيرة بينهما. امرأة شابة شقراء كانت تنتحب جالسة في صف المقاعد نفسه. لعلها شقيقة لوران، أو لعلها ابنة عمه. تساءل مدحت إن كانوا قد عثروا على الساعة مع لوران، إن عثروا عليها، فما الذي جال في أذهانهم؟ لعلّهم ظنوا أن لوران سرقها من تركي قتيل... لعلّهم اعتبروه بطلًا، واعتبروا الساعة غنيمة من العدو. رؤوس مُطرقة، تصلّي. وإلى جانبه، بدأت جانيت ترتعش. ودَّ أن يضع يده على ذراعها، لكنه منع نفسه من ذلك حتى لا يبدو كأنه ينكر عليها حقها في الحزن.

انتهى القداس، وخرج مدحت مع جانيت والدكتور مولينو للعودة إلى البيت سيرًا على الأقدام عبر المدينة. كانت الجادة العريضة تنتهي بساحة معتنى بها جيدًا؛ ومن فوقهم، كان سرب من الحمام جاثمًا على ذراعي تمثال لويس الرابع عشر البرونزي، وعلى رأسه. ومن غير أية مقدمات، قال الدكتور مولينو إنهم يستحقون رحلة إلى شاطئ البحر.

قال: «لا مناقشة في هذا...». ارتفع صوته وهو يتقدّمهم في الطريق... «لم يغادر أحد منا مونبلييه طيلة الشتاء. ولم ير مدحت شيئًا غير غرف الجامعة وأروقتها! إذًا، علينا أن نرى شيئًا جديدًا...». التفت ونظر إلى وجهيهما كأنه يلومهما... «هذا أمر مهم. فالحزن لا يؤدي إلى أية نتيجة جيدة. لا يهمني ما يقوله الآخرون عن هذا...». توقف لحظة... «علينا ألا نبالي بهم. حرب، أو غير حرب... ليس أمرًا صحيًا أن ننكر أنفسنا طيلة الوقت. والحقيقة أن لوران سيكون مسرورًا إذا ذهبنا إلى البحر. أنا واثق من أنه كان سينصحنا بشيء من هذا القبيل، لو كان هنا. ألم يكن يتحدّث دائمًا عن رغبته الكبيرة في السفر إلى الخارج؟».

تنهّدت جانيت؛ وعلى نحو غير متوقّع، بدأت تضحك. بدا جلد وجنتيها مشدودًا لكثرة الدموع التي جفت عليه.

قال مولينو: «ألا تحب السباحة، يا مدحت؟».

«لقد سافرت في البحر».

«أعرف أنك سافرت بحرًا. لكني أسألك إن كنت قد سبحت في البحر. أسألك إن كنت عرفت ذلك الإحساس بماء البحر البارد المالح على ظهرك العاري. هذا إحساس مختلف تمام الاختلاف».

نزولًا عند قرار مولينو، التقوه جميعًا في الردهة صباح اليوم التالي، مدحت وجانيت

وجورجين، مرتدين ملابس خفيفة ومسلّحين بالمظلات وبكيس من الإجاص؛ ثم انطلقوا لكي يذهبوا بالقطار إلى بالافا لي فلو. احتلوا مقصورة كاملة في القطار؛ وأصر مولينو على أن يجلس مدحت عند النافذة حتى ينظر إلى الطبيعة في الخارج. جلسوا عندما تناهى أنين القاطرة إلى أسماعهم. هذه المرة، كان مدحت هو من عجز عن النظر إلى جانيت الجالسة قبالته. أمضى الرحلة كلها في النظر إلى ما عرضته نافذة القطار، إلى المشهد الذي لم يره منذ وصوله إلى فرنسا. كانت الصور تظهر فجأة من خلفه، ثم تتراجع بطيئة إلى أن تختفي في البعيد خلف القطار... بساتين زيتون تعبر أمامه فتعيد إلى ذاكرته صور زيتون فلسطين. ومن حولهم، علت قعقعة أجزاء القطار ووصلاته.

على الرغم من الأنباء المؤلمة التي أتى بها صباح ذلك اليوم –تقدّم الجيش مسافة نصف ميل بتكلفة بلغت ستة عشر ألف قتيل–، فقد كان شاطئ بالافا مزدحمًا بالسابحين تحت سماء ضاجة بالألوان. رصيف إسمنتي يمتد مسافة كبيرة في البحر، وأمواج تصفع جانبيه. اكتشفت جورجين بين الأجمات المحاذية للشاطئ مقصورة خالية تكدّست فيها كراسي البحر الخضراء الداكنة وعليها بقع من الملح. تطوعّ مدحت بتسلق الجدار القصير وإخراج كرسيّ لكل واحد منهم. حمل الكراسي مع فريديريك إلى بقعة خالية بين خيمة وكوخ كثير الألوان. خلع مدحت حذاءه. كان رمل الشاطئ باردًا كالثلج على أصابع قدميه. فتح أحد الكراسي ووضعه مواجهًا للبحر.

في آخر المطاف، لم يسبح أحد منهم في البحر غير الدكتور مولينو. حاول كثيرًا أن يغري جورجين بالسباحة معه، لكنها رفضت. احمرَّ وجهها، ثم ازداد احمرارًا إلى أن وبخت جانيت أباها آخر الأمر لكثرة إلحاحه، فتخلّى عن محاولاته ونزل إلى الماء وحده.

عادوا بالقطار إلى المدينة، وظل صوت تنفس الأمواج في آذانهم. كانوا صامتين وقد بلغ التعب منهم كل مبلغ. تألقت سماء أرجوانية في نوافذ القطار؛ ثم اضطروا في طريقهم من المحطة إلى البيت، إلى الالتجاء تحت مظلة مقهى مغلق عندما قررت الغيوم فجأة أن تفرغ حمولتها بقوة كبيرة فوق المدينة. وقفوا يراقبون خيوط ماء المطر المنسابة على المظلة. راحت خطوات جانيت تذرع المسافة من أولها إلى آخرها. ظلت قطرات المطر الضخمة تنهال على الشارع وتنفجر فيندفع رشاشها صاعدًا. كانت كبيرة كأنها كرات من الفضة. وبعد قليل، تنهّدت جانيت وفتحت أحد الكراسي التي كانت مقلوبة على المقعد الطويل المبلل تحت المظلة نصف المفتوحة. جلست على الكرسي. بدا عليها الانزعاج. قال الدكتور مولينو الذي كان يرقب المطر واضعًا يديه خلف ظهره: «أظن أن علينا أن نكمل الطريق جريًا. يمكننا استخدام قطع القماش

المشمّع مظلات على رؤوسنا...». استدار ونظر إليهم... «ما رأيكم؟ من غير هذا، أظننا سنبقى ساعات هنا».

تساءلت جورجين: «نجري؟... لكن، يا دكتور، حذائي...».

قال مولينو: «أوه، هيا يا جورجين، سيكون هذا ممتعًا. يمكنك أن تستعملي واحدًا من أحذية جانيت القديمة. هل اتفقنا؟ هل أنتم مستعدون؟ انهضي يا جوجو، لا تكوني كئيبة هكذا».

لم يستطيعوا تمالك أنفسهم من الضحك عندما تبللت ملابسهم الخفيفة فصارت كأنها شفافة... ضحكوا من قطع القماش المبلل التي لم تفدهم شيئًا في اتقاء المطر المنهمر. حاول مدحت منع نفسه من النظر إلى فستان جانيت الذي صار رمادي اللون، ملتصقًا بوسطها، شافًّا عن سرّتها. أسرع الخطى حتى يلحق بالدكتور مولينو وترك المرأتين تصرخان من خلفه. بلغوا البيت مبهوري الأنفاس، توّاقين إلى تبديل ملابسهم.

نزل مدحت من غرفته فوجد باب الصالون الأبيض مفتوحًا. رأى جانيت واقفةً في الداخل، ظهرها في اتجاهه. انبثقت الجرأة في نفسه انبثاقًا. دخل الصالون، ثم استدار وأغلق الباب. التفت ففوجئ عندما رآها خلفه تمامًا. ضحكت جانيت، فضحك معها وأحاط جسدها بكفيه... استجاب قلبه استجابة شديدة للنعومة الندية في شفتيها المنفرجتين.

كان حزنهما عذرًا لهذا القرب بينهما؛ لكنه كان أيضًا حزنًا حقيقيًا. كان حزنًا في أمسّ الحاجة إلى هذا القرب. حتى رعشات الإحساس بالذنب التي ظلت تأتيهما، أحيانًا، خلال الأيام التي تلت ذلك، لم تجد ما يخفّف وقعها غير مزيد من القرب. كان احتفاظهما بالأمر سرًا أعجوبة: يتورّدان معًا، دائمًا؛ ولا يستطيعان منع نفسيهما من تبادل البسمات من أقصى الغرفة إلى أقصاها، حتى عندما تكون غاصة بالناس؛ تتشابك أصابعهما خفية عن الأنظار، من تحت حافة مفرش الطاولة، أو من خلف ظهريهما عندما يعبران بابًا. لكن الدكتور مولينو بدا غير ملاحظ شيئًا غير ظلال بقع حمراء ظهرت تحت عيني مدحت.

قال وهو يحيي مدحت ويتمنّى له حظًا طيبًا قبل ذهابه إلى دروسه: «لا شيء يستحق التضحية بنوم الليل. تذكّر أنه امتحان، لا أكثر، وستكون النتيجة حسنة، آخر الأمر. وفي أسوأ الأحوال، إذا وجدت نفسك مضطرًا إلى إعادة السنة...». فتح ذراعيه على اتساعهما... «فنحن لا نزال هنا. هذا إذا لم يصبنا القصف، بطبيعة الحال! لا بأس، انطلق الآن!».

مضى النهار كله؛ وكان ذهن مدحت الذي أضناه السهاد يتأرجح بين الفرحة والذعر.

لم يكن لكلمات التعاطف التي سمعها من الدكتور مولينو من أثر غير مضاعفة خوفه من مواجهته. سوف يؤجّل طلب يد جانيت حتى نهاية السنة الدراسية، على الأقل؛ لكن ذلك الأفق ظل عذابًا له، على الرغم من بعده. كانت قواعد العلاقة بين الضيف والمضيف راسخة كثيرًا؛ وكان مدحت عارفًا، في صميمه، معنى عار خرقها. لكنه لم يجد ملجأ من هذا الذعر غير شفتي جانيت وهمساتها، ورأسها الذي يرتاح على كتفه بنعومة عذبة.

وفي هذه الفترة أيضًا، اكتشف في بيت مولينو جانبًا جديدًا عليه كل الجدة. فقد أدرك، للمرة الأولى، كم كانت خبرته بهذا البيت محدودة، وكم كانت مقتصرة -باعتباره ضيفًا- على غرفته والطابق الأرضي، وعلى تلك اللمحة الخاطفة الوحيدة التي ألقاها مرة على غرفة مكتب الدكتور مولينو. كان البيت أكبر كثيرًا مما تخيل؛ وكانت أكثر غرفه مغلقةً، على غرار الصالون الأبيض: قماش مسدل على قطع الأثاث يجعلها أشبه بتلال بيضاء سرية، أو بمتاهة فيها ما يكاد يكون أشباحًا تستحضر الماضي استحضارًا لا دقة فيه، لكنه أكثر تأثيرًا لأن تلك الأشباح ترغم المخيلة على أن تنحت وتلوّن بنفسها ما هو راقد تحت تلك الأغطية. حلّقت مخيلة مدحت عاليًا، واستحضرت أشباح تلك الغرف، وراحت تلقي هذا الماضي المتخيّل على مستقبل متخيّل أيضًا. غبار متجمّع في الزوايا، مثل الزوابع. يختبئ العاشقان تحت الأغطية المتربة عندما يسمعان جلبة جورجين في الممرات، فيعضّ كل منهما على إصبعه، ويكتم أنفاسه، عند سماع صوت غمس ممسحة جورجين في دلوها الذي أضافت إليه قليلًا من الصابون.

لم يتجاوز تلامس مدحت وجانيت الشفاه والأيدي، فصار ضبط النفس عذابًا حادًّا. أصابع على الكفين، وأصابع على الوجه. كانا يتعمّدان تجنّب اللقاء في غرفة أي منهما. يتلكأ أحدهما عند عتبة الغرفة بينما يجلب الآخر شيئًا منها؛ وحتى هذا، كان يبدو لهما قربًا زائدًا من موضع الخطر. تستبد لوثة بمدحت بعض الأحيان فيجذبها إليها ويمعن في شفتيها حتى يصير الجلد من حولهما متورّدًا؛ ثم يرى تلك العلامة التي سببها فيجذبها إليه من جديد؛ وكانت تستجيب له بسهولة. وأما في أكثر الأحيان، فقد كانت متعتهما كامنة في عذاب الرغبة المكبوحة: رغبة ظلّت مشتعلة لكثرة كبتها. كانا متواطئين على هذا التنسك المتبادل كأنهما لصّان.

في آخر ممر الطابق العلوي، بعد باب غرفة جورجين والحمام ذي الإنارة الخافتة الممتلئ أوعية نحاسية، هناك سلم ضيق يؤدي إلى طابق كامل: الطابق الثالث. أثار هذا المكان دهشة مدحت. كانت النوافذ فيه صغيرة جدًا إلى حدٍّ يجعل مظهرها من الخارج غير موحٍ أبدًا بوجود حيزٍ كافٍ لوقوف شخص منتصب القامة. على الرغم من

هذا، كانت هناك غرفتان غير مستخدمتين، سقفهما مرتفع مثل سقف أية غرفة عادية. وكانت في الغرفتين أشياء كثيرة متنوعة. كانت هناك أيضًا غرفة ثالثة مائلة السقف فيها صناديق وقطع أثاث قديمة أكثرها تالف أو محطّم، فضلًا عن زاوية صغيرة فيها كرسي مخملي قالت جانيت إنها كانت تمضي الوقت جالسة عليه تفتش في «الأشياء الخاصة بأمي»، قالت هذا وهي تشير إلى خزانة صغيرة ذات واجهة زجاجية يكسوها الغبار تبدو من خلفها رفوف عليها حلي وكتب وزينات من البورسلين وشمعدان عليه بقايا شمع قديم، وكذلك شيء مصنوع من الدانتيلا ملفوف في الزاوية.

كان حبهما صباحيًا لأنهما مرغمان على الخروج من البيت قبل حلول الظهر: يذهب إلى كليته، وتذهب إلى الدير أو للوقوف في طابور الخبز الذي صار مقنّنًا. وهكذا، كان حبًا فيه نضارة الصباح، فلم يريا أبدًا ظلال المساء تنداح عبر تلك النوافذ المتّسخة. غالبًا ما كان مدحت يستيقظ قبل الفجر ويلتقي جانيت في الممر قبل شروق الشمس، فيتهامسان في الظلمة ولما يفارق النوم عيونهما. ثم يبدأ النهار الحقيقي الذي يمضيه مدحت متحاملًا على نفسه، واجف القلب، إلى أن يبلغ الإعياء منه أشده مع قدوم المساء.

بمعزل عن مواجهة الدكتور مولينو، كان رعب مدحت الآخر -بطبيعة الحال- مواجهة أبيه. عليه تأجيل هذا أيضًا، على الأقل ريثما يفاتح مولينو، بل ربما إلى أن تنتهي الحرب. راودته أفكار خيالية من قبيل التخلي عن إرثه والمضيّ بمفرده. كانت كل فكرةٍ من هذه الأفكار ناضحة بالخوف. على الأقل، ستحب تيتا جانيت... هذا ما كان واثقًا منه. وعندما يجلس إلى كتبه في المساء، يضع إصبعه على خده فيتحسس أسنانه، بين عينه وفكه. لا بد من تأجيل هذا كله: اقترب شهر حزيران، وصارت العطلة الصيفية قريبة. وبصرف النظر عما قاله الدكتور مولينو عن بقائه عندهم، فلا بد من عملٍ جادٍّ استعدادًا للامتحان إن كان يريد النجاح إلى السنة الثانية.

مساء ذات يوم، قدّم ورقة اختبار في الفيزياء أنجزها في المكتبة، فعادت الورقة في اليوم التالي، مكتوب عليها الرقم «45». لكن درجة النجاح كانت «70». دخل قاعة المحاضرات ذاهلًا، وجلس في آخرها، ولم يسمع من الدرس إلا نتفًا متقطّعة كأن صوت المحاضِر كان يأتيه محمولًا على ريح متقلّبة الاتجاه. خرج بعد ساعة، فأحس بأحدٍ يربت على ذراعه. كان ذلك صامويل كوغولاتي.

ابتسم له ابتسامة حزينة، وقال: «مرحبًا، يا مدحت. أريد القول إنني آسف جدًا. آسف جدًا، جدًا. أمر غير متوقّع، لكن، أعني أن هذه الأشياء...».

نظر مدحت إلى الـ«45» على ورقة الفيزياء وقال: «كيف عرفت؟».

«عفوًا؟».
قال مدحت: «لم أستلم الورقة إلا هذا الصباح...». انتبه إلى غلطته... «هل تتحدّث عن لوران؟ آه، نعم! أمرٍ فظيع حقًا. إننا حزينون كثيرًا. شكرًا، يا صامويل. إنني، إنني أقدر لك هذا، أقدره حقًا».
«لكنَّ هناك أمرًا آخر. انتظر. هل تفكر في هذا الاقتراح؟... كنت أتساءل... هل تحب أن ندرس معًا؟».
«ندرس معًا؟».
«لقد استمتعت بذلك الوقت الذي أمضيناه معًا عندما كنت تبحث في المكتب عن أمر متعلّق بالطب النفسي. وقد أعجبت باهتماماتك، وبالفضول الذي لديك إزاء هذه الميادين الطبية المختلفة. أظن أننا نستطيع معًا أن نراجع الدروس استعدادًا للامتحان بحيث يكون الأمر ممتعًا».
ابتسم كوغولاتي ابتسامة كبيرة جعلت منخريه العريضين يتسعان. تردّد مدحت. ثم مد يده فصافح يد كوغولاتي. أشاعت الدفء في قلبه فكرة أن هذا الرجل مُرسَل لكي ينقذه. وأما كوغولاتي، فراح يضحك إزاء حماسة مدحت الذي صار الآن يهزّ ذراعه كلها ويقول إنه في غاية السرور... نعم، في غاية السرور!
وفي اليوم التالي، عند الساعة الحادية عشرة، التقى الاثنان في مكان منعزل خلف الكاتدرائية. كانا مسلحين بكثير من الكتب وأوراق الأسئلة، وجداول العناصر الكيميائية.
قال كوغولاتي: «ما رأيك أن نبدأ بعِلم النبات؟». مكتبة سُر مَن قرأ
صارت تلك الزاوية التي تظللها أشجار السرو مكان جلوسهما كل يوم، من الحادية عشرة حتى الثانية بعد الظهر. ثم استمر هذا إلى أن انتهى حزيران وبدأ تموز، وصار وهج حرارة الصيف على جدار صالة التشريح يعمي أعينهما، إلى حدٍّ جعلهما يريان بقعًا خضراء وأرجوانية طافية على صفحات الكتب. ومنذ لحظة البداية معًا، كان واضحًا أن تلك المراجعة ليست أكثر من تكملة مسلية بالنسبة إلى كوغولاتي الذي أمضى السنة كلّها في دراسة جادة. زاد هذا في قلق مدحت الذي حاول إخفاء توتره بإظهار مزيد من الحماسة وبطرح الأسئلة على كوغولاتي، ثم تكرار الإجابات من خلفه، كأنما يقول له، نعم، بالطبع، أعرف هذا. إن كان هذا قد سبب ضيقًا لكوغولاتي، فقد كان يخفي ذلك الضيق جيدًا لأنه ظل يضحك ويميل برأسه إلى الخلف عندما سأله مدحت، للمرة الثالثة: «والحفز الكيميائي؟ ذكرني مرة أخرى بمعنى الحفز الكيميائي. أوه، صحيح. أوه، هذا صحيح، بالطبع».
تقدما للامتحان الأول في شهر تموز. اصطف مئتا مقعد في الصالة بحيث يفصل متر

كامل بين مقعد وآخر. وتُركت مساحة خالية في آخر الصالة حتى يتحرّك فيها الأساتذة لمراقبة الطلاب. في البداية، أتى امتحان علم الحيوان والنبات. ظن مدحت أن أداءه كان حسنًا في الامتحان الكتابي والامتحان الشفوي. كانت هناك أسئلة عن التركيب الضوئي وعن طرق انتقال البذور... أمور درسها دراسة شاملة مع كوغولاتي. أسئلة عن الفقاريات واللافقاريات. وفي الامتحان الشفوي لعلم الحيوان، تعرّف مدحت بثقة على ذوات الخياشيم، وعلى الفوهات التنفسية في الحشرات، وعلى خراطيم الحشرات وأهدابها ومجسّاتها، وذكر مراحل تطور الضفدع... ذلك كله أمام لجنة مكونة من أستاذين اثنين. وفي امتحان علم النبات، عرف كيف يصف مراحل حياة الطحالب والفطور وحشيشة الكبد؛ كما عدّد خصائص عاريات البذور وأحاديات الفلقة وثنائيات الفلقة. تمكّن أيضًا من تعريف التنفس، وتحدّث بنبرة انتصار عن حياة الأشجار والنباتات غير دائمة الخضرة.

مضى امتحان الفيزياء على نحو حسن أيضًا... نسبيًا. لقد شرح له كوغولاتي أن مفتاح الأمر كله كامن في حفظ القوانين، ثم في فهم السؤال بحيث يعرف المرء القانون الذي يلزمه للإجابة عنه. بعد هذا، تصير المسألة بسيطة، إدخال القيم العددية في القانون! قال له كوغولاتي: «هذه هي المشكلة التي يواجهها الطالب عند تقييم مستواه في العلوم الأساسية». لكن، إن كان كوغولاتي قد توقّع تواطؤ مدحت معه في هذا الازدراء للأمر كله، فقد رأى الدهشة تعلو وجه زميله الذي أحسّ كأن أحدًا أتى فأنقذه. قال مدحت: «شكرًا لك، شكرًا لك».

كانت المشكلة الحقيقة في امتحان الكيمياء. لم يكن ذلك لأن مدحت لا يعرف شيئًا في الكيمياء، فقد أمضى الأيام الثلاثة الفاصلة بين امتحان الفيزياء الكتابي وامتحان الكيمياء، جالسًا إلى جانب كوغولاتي يحلّان مسائل الكيمياء ويناقشان الإجابات. وفي يوم الامتحان، دخل القاعة واثقًا من نفسه. كانت المشكلة ذلك التشوش الذي حل عليه بعد أن جلس ينظر إلى ورقته في تلك القاعة ذات الجدران الجصية الباردة برودة لطيفة وراح وقع خطوات الأستاذ يتردّد بين المقاعد. قرأ الأسئلة من غير استعجال، ثم أعاد قراءتها. وانهمك في الإجابة على الأسئلة واحدًا تلو الآخر مهمِلًا إجراء الحسابات.

اليوم، يوم امتحان الكيمياء الكتابي الذي كان آخر يوم في الفصل الدراسي، كان سيلفان لوكلير مدعوًا للعشاء في بيت مولينو. ومنذ موت لوران، كان غرام مدحت بجانيت مزهرًا من غير عائق، في حين صارت نظرياته عن آريان مولينو وسبب انتحارها على الهامش. لكن، وعلى الرغم من انقطاعه عن التفكير في هذا الأمر، فإن شيئًا واصل تطوّره في الخفاء إلى أن بدأت تطفو إلى السطح أفكار عن تعرض آريان لسوء

المعاملة... ومع تلك الأفكار، بدأ مدحت يتذكّر صورًا: سخرية سيلفان الثقيلة وهو جالس إلى الطاولة، وخروج جانيت من الغرفة غاضبة.

رفع رأسه عن ورقة الامتحان فرأى شابة جالسة أمامه في صف المقاعد المجاور لمقعده. كانت مضطربة تنقر بقلمها على الطاولة وتحك كاحل قدمها بكعب قدمها الأخرى. كان الشاب الجالس في المقعد المجاور لها يتململ في جلسته.

«ششش».

أجفلت المرأة، وسُمع صوت نقرة قلمها الأخيرة قبل أن تتوقّف حركته بين أصابعها.

قال المراقب: «بقيت ساعة واحدة». صرّ إصبع الطباشير على اللوح عندما كتب: «بقيت ساعة واحدة».

في تلك اللحظة، اندفع مدحت إلى العمل، ونظر إلى ورقته فرأى أنه لم ينجز إلا إجابة واحدة فيها. لقد بدأ الإجابة عن السؤال الخامس:

5. (آ) أحسب وزن الكبريت في خمسين غرامًا من $Cr_2(So_4)_3$. قرِّب الإجابة إلى ثلاث مراتب عشرية (الأوزان الذرية: Cr: 52, S: 32, O: 16).

انتهى من الإجابة عن نصف الأسئلة عندما انتهت الساعة الباقية. وعند سماع عبارة «ضعوا أقلامكم من أيديكم!»، نهض عن مقعده وقد أصابته شدة التركيز بالدوار. سُمح لهم بالخروج بحسب الترتيب الأبجدي لأسمائهم. وجد مدحت كوغولاتي في الخارج واقفًا على السلم شديد الثقة بنفسه.

سأله عندما سارا معًا: «كيف كان امتحانك؟».

«أظنّه كان جيدًا».

كانت أشجار السرو تهمس وتلوح في الناحية الأخرى من الباحة.

«ألا تحب أن نتناول قهوة؟».

«أشكرك. لكن، كما تعرف أنا مرهق جدًّا. من الأفضل لي أن أعود إلى البيت».

كان هذا وداعهما في ذلك اليوم لأن كوغولاتي كان مسافرًا إلى جنيف في الصباح التالي. شكره مدحت، فابتسم كوغولاتي ابتسامة مرتبكة. تعانقا ثم افترقا عند البوابة.

كان الصيف في أوج تفجّره. فمن حول مدحت، في كل اتجاه، كانت زهور صغيرة وردية اللون على كل غصن... كانت الشوارع سابحة في غيمة من زهر. كل شيء كان هادئًا. عاد إلى البيت بخطى بطيئة شاعرًا بالتحرر من نظام العام الدراسي، ومن توزيع الأيام إلى ساعات وأنصاف ساعات. وصل إلى البيت، ثم صعد السلم. كان باب مكتب الدكتور مولينو نصف مفتوح. رأى من شق الباب، على الأرض، عند النافذة، مؤخر

رأس جانيت. نقر على الباب.

«ادخل».

إلى جانبها، على الأرض، رأى كدسًا من ألبومات الصور، وكومة من الصور الفوتوغرافية. رأى في أول صورة امرأة على رقبتها طوق من الدانتيلا وفي شعرها وردة.

«كيف كان امتحانك؟ تعال قبلني».

«كان جيدًا. أنا متعب، دماغي متعب. تابعي قراءتك، لا أريد إلهاءك».

دخل مدحت مكتب الدكتور مولينو آخر مرة عندما كان يبحث عن محبرة. لم يكن اختيارهما يقع على هذه الغرفة في صباحاتهما السرّية؛ وكان من المتفاهم عليه ضمنًا بينهما أنها واقعة خارج حدود حركتهما. لكنه وجد نفسه واقفًا في وسط تلك الغرفة. وكانت المرأة التي يحب جالسة أمامه تقرأ. حل عليه إحساس جديد بالاستحقاق. كانت طاولة المكتب مغطاة بأوراق كثيرة وبعدة رزم من كتب برزت منها قصاصات ورقية وضعت فيها لتعليم الصفحات وتدلت منها كأنها ألسنة. قاوم رغبة مفاجئة في الجلوس على الكرسي خلف المكتب، وأتته صورة عابرة من مستقبله: غرفة مكتب مثل هذه تمامًا. أبعد الصورة عن ذهنه، واقترب فجلس إلى جانبها على الأرض.

كلمة ظهرت في ذهنه قبل أن يدرك أنه قرأها. إنها اسمه! عاد أدراجه إلى حيث كان.

رأى دفترًا مفتوحًا على مقربة من حافة الطاولة. كان في الصفحة عنوان مكتوب بخط كبير: ملاحظات أولية ـ مدحت كمال.

وتحت العنوان رأى عدة إشارات غير مقروءة، إشارات بحبر أخضر بعضها مسجل على الهوامش. التقط مدحت الدفتر. استطاع قراءة عبارتين في أسفل الصفحة.

نابلس ـ جبلان، أولهما «عيبال وجرزيم». والثانية، «السامريون... السحرة؟ الآراميون والعرب والعبرانيون». قلب الصفحة. كان عنوان الصفحة الجديدة «أمثال».

ثلاثة أمثال مكتوبة تحت ذلك العنوان: كانت كلها أمثالًا مما سمعه مدحت عندما كان طفلًا في نابلس، عبارات ترجمها للدكتور مولينو في أحاديثهما إلى جانب الموقد خلال الشتاء الماضي. وها هي مكتوبة هنا، بكلماتها العربية، لكن بحروف فرنسية: «كلام جرايد ـ شيء يصعب تصديقه»؛ وأيضًا، «كلامه واقِف ـ أي عدواني»؛ وأيضًا، «كلام الليل مدهون بالزبدة ـ سوف يذوب في الشمس ـ وعود غير محفوظة». وكان مكتوبًا في أسفل الصفحة: «هل للغة أثر على الدماغ؟ الترجمة النقية مستحيلة».

قال مدحت: «ما هذا؟».

«ما هو؟».

«أبوك...».

«ما به؟»

«إنه يكتب عنّي».

نهضت جانيت واقفة على قدميها: «ماذا تعني بقولك إنه يكتب عنك؟».

استدارت صوب طاولة المكتب. كانت بين الكتب الموضوعة على الطاولة نسختان من ترجمة القرآن. ناول جانيت الدفتر الذي عليه اسمه، ثم أمسك بواحدة من ترجمتي القرآن. طبعة فرنسية قديمة لها غلاف من الجلد البني وكعب مذهب: «قرآن محمد ـ الجزء الأول». كان الكتاب الآخر ترجمة أحدث عهدًا، باللغة الإنجليزية.

«إنه يدرسني».

قلبت جانيت الصفحة. نظر مدحت إلى الدفتر من فوق كتفها. رأى فقرة مكتوبة بخط كبير. استطاع قراءتها.

*أثر لغة جديدة يتعلّمها دماغ بدائي.*

*كأن تعلم الكلمة يفسح مجالًا في العقل لاستيعاب معناها -لاستيعاب استخداماتها، وتلاوينها، ودلالتها، وما يميِّزها عن غيرها- وحتى إذا جرى نسيان تلك الكلمة، فإن أثرها على سطح ذلك العقل يظلّ باقيًا... تظل لها بصمة، أو ثغرة. من هنا، فإن شخصًا لا يستطيع الكلام يمكن أن يكون قادرًا على التفكير المركّب؛ إلا أن عليه أن يتعلّم كيف يتكلّم.*

لم تأت جانيت بأية حركة لكي تقلب الصفحة. ظلا صامتين. قال لها بعد لحظة: «هل كنت تعرفين بهذا؟».

«بالطبع لا».

«وهل تظنين... هل تظنين أنني...». اختنق صوته... «ينبغي أن أتحدث معه».

أمسك بالكرسي. استند إليها حتى يحفظ توازنه.

«أجل، أظن أنه ينبغي عليك ذلك». أعادت الدفتر بعناية إلى مكانه على الطاولة... «هل تريد أن أكون معك؟».

«لا -أنت وأنا- ليس هذا بالوقت المناسب. أريد أن أجلس».

تبعته جانيت إلى غرفته. جلس على السرير ووقفت تنظر إليه من عتبة الباب. احمرّت عيناها بدموع كانت تحاول أن تحبسها.

«تستطيعين الجلوس».

لم يقدر على النظر إليها.

تحرّكت أمامه، لكنه ظلّ محدّقًا في الباب المفتوح، صوب الممر، حيث كان الضياء المنسكب من نافذة واقعة خارج مجال رؤيته منعكِسًا على ألواح الأرضية الخشبية. ظل

ينظر إلى تلك الأشكال الظاهرة عبر إطار الباب إلى أن غامت في عينيه وصارت حافة الدرابزين ذراع امرأة... صار الظل الذي في الزاوية البعيدة عند الحمّام حذاء أسود اللون له رباط طويل. في حقيقة الأمر، كان ذلك الرباط الطويل ثغرة ظليلة ناجمة عن ارتفاع أحد ألواح الأرضية قليلًا عن بقيتها.

أحسَّ بتقلصٍ في معدته. لقد كان ضيفًا، لكن مضيفه اعتدى عليه. هو أيضًا، اعتدى على المضيف، وتجاوز حدوده، مع ابنته. إذًا، من المجرم بينهما؟ انتصب أمامه، من جديد، شبح جهله. لقد ظن أنه صار يعرف الآن قواعد السلوك العامة لديهم، يعرفها إلى هذا الحد أو ذاك. لكن... ماذا عن قواعد السلوك الخاص؟ كان يظن أنه قد صار في حضن أسرة، وأنه صار قادرًا -تقريبًا- على الجلوس على كرسي المكتب. ظن أن اختلافه ما كان اختلافًا. لكن، إن كان موضوعًا يدرسه الأب، فكيف يستطيع أن يصير زوج الابنة؟ لا يجعل المرء من صهره موضوعًا لدراسته.

ابتلعت الظلمة المشهدَ الذي كان يراه عبر باب الغرفة. ازدادت الظلال اتساعًا، وتقلصت بقع الضوء. اختفى الحذاء الأسود الذي في الزاوية ضمن الظل الذي اتسع.

«مدحت؟...». كانت عينا جانيت متسعتين... «مدحت، لقد سمعت صوت الباب. وصل الضيوف».

سمع نفسه يردّ عليها: «ينبغي أن أغيّر ملابسي. سوف يتناولون شرابًا أول الأمر».

دخلت جانيت مجال إطار الباب؛ دخلت بقعة الضوء ثم خرجت منها. وبعدها، ذهبت.

تحرّك ببطء. وضع كتبه ودفاتره على الرف، في الخزانة. خلع الثوب الذي ارتداه من أجل الامتحان. أخرج بدلة رمادية داكنة لها دبوس فضي من أجل ربطة العنق، وعقدة على شكل فراشة عند طية الصدر. نظر إلى انعكاس صورته في مرآة باب الخزانة. حاول رؤية ما يراه فريديريك. تحرّك شيء. كان ذلك انعكاس غصن من أغصان الشجرة التي في الحديقة، غصن يتحرّك في النسيم كأنه ذراع تلوح له.

سمع صرير ألواح الأرضية في الممر. فتح الباب، فرأى جانيت في أعلى السلم. لقد ارتدت فستانًا أصفر داكنًا على كتفيه دانتيلا سوداء.

قالت له: «انزل».

«سأنتظر. سأنزل في وقت لاحق».

كان سيلفان لوكلير والدكتور مولينو جالسَين إلى الطاولة عند دخوله. كان سيلفان إلى جانب جانيت؛ والمكان المتروك لمدحت قبالتها، إلى جوار الدكتور مولينو.

قال له سيلفان: «مساء الخير، مسيو مدحت».

«مساء الخير، مسيو لوكلير. دكتور. مادموازيل».

لقد فقد لوكلير بعض الوزن منذ آخر مرة جاء فيها إلى العشاء في الربيع؛ لكنه لا يزال رجلًا ضخمًا. تهدّل وجهه قليلًا. كان حاجباه المدببان رماديي اللون؛ لسبب ما، تذكّر مدحت سوادهما.

قال الدكتور مولينو مخاطبًا سيلفان: «حسنًا، عليك أن تغفر لنا هذه الوجبة البسيطة. أظننا لم نتمكّن من العثور على أي دجاج، أو لحم. لكن لدينا زبدة... فلنفرح بها».

أحضرت جورجين حساء القرع. وملأ الدكتور مولينو كؤوس النبيذ.

قال سيلفان: «سمعت أنك فرغت من امتحاناتك؟».

«أجل، انتهيت منها».

«وهل كانت جيدة؟».

«آمل هذا. سوف نرى».

بدأوا يرتشفون الحساء بملاعقهم. تناولت جانيت قطعة خبز، وبدأت تضع الزبدة عليها.

«ومتى ستعود إلى بلادك؟».

توقّف صوت الملاعق. حتى جانيت التفتت إليه.

«متى أعود؟...» سمع مدحت رعشة في صوته... «من الممكن أن أعود قريبًا».

«وهل ستمارس الطب في مدينتك؟».

«أمارس ماذا؟ أوه، لست أدري...».

مد الدكتور مولينو يده إلى طبق الزبدة.

قال سيلفان: «لقد حزنت عندما سمعت بموت صديقك».

لم يكن هناك سبب يجعل هذه الجملة الأخيرة مستفزّة له. لعل الأمر لم يكن إلا أنّ مدحت قد طفح به الكيل. لكن غضبه فار في لحظة سريعة فجعله غير قادر على الكلام. تجمّع ذلك الغضب وملأ مقدّمة رأسه كأنه جدار من ماء. عندما أفلح في النطق أخيرًا، كان جسده يرتعش كلّه فلم يستطع قول الكلمات إلا همسًا.

«من أنت؟».

قالت جانيت: «مسيو كمال، هل أنت على ما يرام؟».

«هل أنا على ما يرام؟ هل أنا على ما يرام؟ ذلك الرجل، ذلك الرجل، يا آنسة، يؤسفني إخبارك هذا، لكن، ذلك الرجل... إنه دودة، إنه لص».

قال مولينو: «لص؟».

ضحك سيلفان: «أخشى أن أكون قد أثرت غضبه...». قالها بصوت متغطرس،

مرتفع... «لعل ضيفك يشعر بالذنب لأن أبناء بلاده يخوضون حربًا ضدنا، ولأنهم قتلوا صديقه».

«أنت مقزز، لا تكنّ الاحترام للنساء، ولا لأي شيء مقدس».

قالت جانيت: «مدحت!» صار لونها شاحبًا. أحسّ مدحت بموجة ذعر. حبّه لها ثمين جدًّا، هشّ جدًا، لم يفز به إلا بعد وقت طويل ـ في لحظة واحدة، أضاع ما أفلح في اكتسابه من تحكّم بصوته.

«لا ـ هذا الرجل... إنه سرطان، إنه يندسّ في قلب أسرتك. لكني أعرف حقيقته».

نظر سيلفان في عينيه: «أنت لا تعرف شيئًا».

قال الدكتور مولينو: «اهدأ، يا مدحت. أنت... أظن أن عليك أن تهدأ».

قال مدحت: «وأنت!».

نظر إلى جانيت من جديد: دموع تلمع في عينيها. هذا وقت غير مناسب. استنشق نفسًا عميقًا، وتمالك نفسه.

قال الدكتور مولينو: «ماذا بك؟ ماذا أصابك؟».

«أصابني! ماذا أصابني؟ أنا... أنا...». غام الطبق البرتقالي في عينيه... «لقد اكتشفت... كنت أريد أن أتحدّث معك... عن هذا...».

حذّرته جانيت بهزة سريعة من رأسها. حرّكت شفتيها: لا!

«في ما بعد... كنت أريد الحديث معك في ما بعد».

«الحديث معي عن ماذا؟».

«لا شيء، لا شيء».

قال سيلفان: «ليس الأمر لا شيء. لقد نطقت باتهامين غريبين، عدوانيين، يا مسيو مدحت. عليك، على الأقل، أن توضح مرادك».

«زوجتك!».

قالت جانيت: «لا. لا، يا مدحت».

قال سيلفان: «زوجتي؟!».

«لا. زوجته هو».

قالت جانيت مصدومة: «مدحت!».

انكسر شيء داخل مدحت. حاول تمالك نفسه. قال: «إنه رجل شرير...». لكن الكلمات تدفّقت... «لقد رأيت – رأيت، على طاولة مكتبك...».

قال مولينو: «طاولة مكتبي!».

«لم أتعمد دخول الغرفة. لم أكن أريد. كان عندي فضول – سامحني!».

قالت جانيت: «لا حاجة الآن إلى الحديث في هذا الأمر. نحن منفعلون جميعًا. فلنتمالك أنفسنا».

قال الدكتور مولينو بنبرة من يخاطب طفلًا: «لا، يا جوجو. دعيه يتكلّم. هل دخلت غرفة مكتبي؟».

«سامحني. لقد رأيت... رأيت على طاولة مكتبك...».

ظهرت على وجه مولينو لمحة إحساس بالخطر: «مدحت...».

«أتظن أنني ليس لدي في داخلي؟...». ضرب الطاولة بقبضة يده فانقلبت ملعقته وتناثرت قطرات من الحساء الفاتر على يده وعلى مفرش الطاولة. فغر فمه ناظرًا إلى ما فعله. مدّت جانيت يدها بمنديل طعام عبر الطاولة حتى تمسح يده.

قال الدكتور مولينو: «يمكنني... إنني، فقط...».

«لقد كنت تدرسني!».

«لا. الأمر ليس هكذا أبدًا».

«أتظن أنني لست... أتظنني لست متمدّنًا؟».

«كان عليَّ أن ألتمس موافقتك... بالطبع. أدرك هذا الآن. أدرك بوضوح شديد أن...».

«أتظنني غير متمدّنٍ؟».

«لا! يا إلهي، لا! لقد كنت... على العكس، يا مدحت. لقد أثّر وجودك في نفسي كثيرًا... لباقتك... وإنسانيتك...».

«إنسانيتي؟!».

«أجل! أجل... إنسانيتك ـ من فضلك، دعني أوضح لك - على العكس تمامًا، فقد كنت مدركًا الصور النمطية المهيمنة في ثقافتنا، في ثقافتنا الأوروبية. وأظن أن من الممكن إحراز بعض التقدم في دراسة الحضارات...».

قال مدحت: «دكتور مولينو!».

«لا، دعني أتكلّم. على العكس تمامًا. إنني أحاول في بحثي... محاولة متواضعة، يا مدحت! ملاحظات أولية كتبتها لنفسي فقط! لقد كنت... كنت أحاول... على العكس تمامًا... كنت أحاول أنسنتك!».

سُمعت قرقعة صينية جورجين. كان سيلفان أقربهم إلى باب المطبخ فهز رأسه في اتجاهها. توقّفت، ثم عاد صوت القرقعة أدراجه وغاب في المطبخ من جديد.

التقط مدحت أنفاسه وقال: «تؤنسني؟ إنني... حقًا، إنني في دهشة من هذا. أنا شخص بشري، يا سيدي. وأنا...» كفَّ عن الكلام. سقط منديل الطعام على الأرض.

تمتم قائلًا: «اعذروني! عليَّ الذهاب. تصبحون على خير. تصبحون على خير».
كانوا يتكلّمون عندما تركهم، لكنه لم يستطع سماعهم. أمسك بدرابزين السلم، وصعد بخطوات شديدة البطء. أحس كأن الممر يدور أمام عينيه. سمع صوت خطوات عندما صار في أعلى السلم. لحقت جانيت به قبل بلوغه باب غرفته.
همست له: «أوه، يا مدحت... ليتك لم تقل شيئًا».
«إنني آسف». أطرق برأسه. أحاطت خديه بكفيها.
«ليتك لم تقل شيئًا. إن سيلفان...».
قال مدحت: «أعرف أمر سيلفان».
«ما الذي عنيته بهذا؟ سيلفان صديق».
استنشق نفسًا عميقًا، ثم نصب قامته: «لديَّ سبب يحملني على الاعتقاد بأنه، على أقل تقدير، واحد من أسباب مشكلة أمك».
نظرت إليه جانيت غير فاهمة شيئًا.
«عندما كنت أبحث عن الأسباب المحتملة لمرضها، وعن تعاستها الشديدة، بدا لي أن معظم حالات الأمراض العصبية تشتمل على حدث يكون هو السبب الأول في التدهور. ولدي ما يجعلني أظن أن سيلفان لوكلير يمكن أن يكون قد أساء...».
لم تظهر في وجهها أية استجابة. شيء من الشك. لم يكن قادرًا على التراجع. سيظل ثابتًا... في هذا الأمر، على الأقل.
خفضت عينيها: «أوه، يا مدحت. أنت مخطئ في شأنه».
«لست مخطئًا. إنه رجل شرير. ليس صاحب قلب نظيف».
هزت رأسها: «لا. كان سيلفان صديقًا لأمي».
أمسكها من ذراعيها: «أصغي إلي. ذلك الرجل خطرٌ عليك».
«ماذا؟...». صارت نظرة عينيها حادّة... «ما الذي تظن أنك تفعله؟».
«أصغي إليّ، يا جانيت. إنني أحاول...».
«لا، يا مدحت. قلت لك إنك مخطئ».
أدارت وجهها جانبًا بحركة بطيئة حملت إشارة محدّدة. ثم أغمضت عينيها.
انتظر مدحت. كادت الدهشة تصيبه. كان كأنه رأى وعاء من زجاج يسقط على الأرض ويتحطّم؛ ولم يستطع تصديق أن لملمة شظاياه المتناثرة أمر ممكن. شدّ على ذراعيها، ناظرًا إليها، منتظرًا أن تلتفت إليه من جديد. لم تنبس ببنت شفة. إن كان هناك توتر في تعبير وجهها، فقد كان يظنه ناتجًا عن تلك اللحظة، عن انفعالها. ظنّه أمرًا عابرًا. لكنها لم تشدّ على أسنانها، ولا على شفتيها، ولم تنهمر دموعها. حزن هادئ فقط في

تلك العينين اللتين انفتحا، بطيئتين، ناظرتين إلى الأرض. لن تدافع عنه في مواجهة أبيها. انكسر ما بينهما. هو من كسره.

بدأ الممر يتغيّر شكله. تحرّكت الظلال كأن ضوءًا راح يتأرجح على السقف، متقدّمًا متأخرًا، فيشوّهها. هزّها مرة أخرى. هزّها قانطًا. كانت أطراف الممر غائمة في عينيه. حتى هذا الشيء، هذا الشيء الوحيد، جانيت، صارت بعيدة عنه. أرخى قبضته عنها وتراجع إلى الخلف خطوة. لم تُبدِ أي اعتراض. صار واضحًا له أنه ما عاد قادرًا على البقاء في هذا البيت.

# الجزء الثاني

## - 1 -

كما يكون الأمر أكثر الأحيان في مدينة قديمة حيث تظلّ أسماء العائلات قرونًا من غير تغيير، كانت الريح تحمل الشائعات بين جبلي نابلس فتستقرّ تلك الشائعات على مر السنين، وتصير أساطير. قصص زواج كثيرة، وقصص منافسةٍ، وقصصٌ عن لعنات وأسحار ألقاها السامِريّون. الديك الذي حُكم عليه بالموت لأنه صاح على أرض رئيس البلدية، والحكواتي المغربي الذي لا يسرق غير حليٍّ ذهبية، والأمير البدوي الذي غفا على ظهر حصانه وأطلق رصاصاته صوب السماء.

وكانت من بين تلك القصص واحدة عن ملكة صليبية فرنسية في القدس، اسمها ميليساند، ورثت عن أمها الأرمنية عينيها السوداوين ومحبة ركوب الخيل تحت الشمس. لم تلد أمها وارثًا ذكرًا، فقسَّم أبوها الملك -على فراش الموت- مملكته بين ميليساند وابنها بولدوين. وعندما كبر بولدوين، أراد المملكة كلّها لنفسه فحشد لتلك الغاية جيشًا جعله يحاصر أمه ويجبرها على الرحيل. خسرت ميليساند المدينة المقدّسة، فأمضت ما بقي من حياتها في قصر في نابلس. كان حراس سجنها يسمحون لها بركوب حصانها كل يوم. كانت تقوده إلى ما خلف جبل جرزيم حيث يتحوّل الوادي إلى سهل غير ذي زرع.

انقضت ثمانية قرون، وأتت سنة 1915 بحسب التقويم الغريغوري، سنة 1333 في التقويم الهجري، ولا تزال بقايا قصر ميليساند الصليبي باقية على مقربة من المسجد في حي الياسمينة. الآن، صارت الأرض التي كانت تذهب إليها على حصانها جزءًا من قرية اسمها زَواتا. وعلى تلك الأرض نفسها، عاش رجل اسمه الحاج حسن حمّاد. كان مستلقيًا في ظل زيتونة في حَرّ أمسية من أماسي شهر آب عندما أتت إليه زوجته راكضة عبر البستان. لقد وصل مراسِل تركي يستدعيه إلى محكمة يقيمها جمال باشا في مدينة تبعد عن بيروت اثني عشر ميلًا، في الجبال، اسمها عالَيه.

بدأ الترك تهجير الأرمن في ربيع تلك السنة. كانت البداية اعتقال المثقفين الأرمن في القسطنطينية -غريغور زوهراب، والشاعر دانييل فاروجان، وروبين زارتاريان، وأرداشيس هاروتينيان، وآتوم يارجانيان «سيامانتو»، والروائي ييرفان سيرماكشخانليان ـ اقتيد أكثر من ألفين منهم إلى مراكز الاحتجاز السلطانية، فعُذّب منهم كثيرون، وقُتل منهم كثيرون. ثم أرغم الترك المدنيين الأرمن الباقين على السير إلى الصحراء من غير

مؤونة. كانت الدولة العثمانية تموت. في آخر خلجات حياتها، كانت تقتل المخالفين بضراوة مجنونة. في ذلك الوقت، صار الأصل العرقي نفسه دليلًا على الخيانة. اغتصبت النساء قبل خنقهن؛ وغُصّ نهر الفرات بالجثث. وتحت ضغط الحرب العالمية الأولى، بدأت الدولة التي كانت، حتى قبل وقت قريب، تشهد إصلاحات في اتجاه الديمقراطية، تهاجم من غير رحمة كل من لم يكن تركيًا، أو كل من لم يُرِدْ أن يصير تركيًا.

قال المراسل للحاج حسن إن صديقه وزميله فؤاد مراد قد استدعي إلى تلك المحاكمة أيضًا. قال إنه غادر نابلس بالفعل، قاصدًا عاليه. أكد حسن للمراسل أنه سينطلق على الفور، فانصرف الرجل. أغلق حسن الباب فوجد نزيهة، زوجته، غارقة في دموعها بعد سماعها كلام المراسل. خطر في ذهن حسن، أن عمه، الحاج توفيق حماد، الذي كان ممثل نابلس في البرلمان العثماني، يمكن أن يتدخل لدى السلطات من أجله. كتب رسالة إلى توفيق، وأرسلها مع خادمه إلى مركز الهاتف في نابلس. سوف ينتظر في مزرعته ليلة أخرى إلى أن يأتي رد توفيق. ثم يستطيع بعدها أن يعوّض الساعات المفقودة في اليوم التالي.

تناولوا في تلك الليلة عشاءهم المكوّن من العدس ولحم الخروف، ثم تفرّق أفراد الأسرة ذاهبين إلى النوم أو إلى الصلاة، إلا حسن الذي اغتنم الفرصة كي يجلس في حديقته. أرادت نزيهة أن تجلس معه، لكنه صرفها عنه. نظر إلى بركة السباحة وإلى ضوء النجوم المتراقص على صفحة الماء فيها، وأصغى إلى نظام السقاية الذي يروي أشجار البوملي في الأسفل.

دخل غرفة مكتبه وأعدّ حقيبة صغيرة من أجل رحلته: قميصان نظيفان، وبنطلون من أفضل ما لديه من البنطلونات الفرنسية، والقرآن، ولوح صابون. كان يغلق الحقيبة عندما دخلت الغرفة خادمة تنبئه بوصول زائر. كان ذلك صديقه، التاجر الحاج طاهر كمال.

قال الحاج طاهر على الفور: «لقد صار جمال باشا رجلًا متوترًا متعطشًا إلى الدم. فلا تذهب. ذهابك يعني موتك، بالتأكيد. حزب اللامركزية، والأحد... كل جماعة تطالب بالاستقلال صارت في خطر. لن تكون المحاكمة عادلة».

قال حسن: «نحن لم نطلب الاستقلال أبدًا. نحن حزب اللامركزية. لا نطالب إلا بالإصلاح».

لكن الحاج طاهر كان مقتنعًا بأن هناك خطرًا، فرجا الحاج حسن ألّا يذهب إلى عاليه. لم يكن حسن مختلفًا معه تمامًا، لكنه اتخذ قراره. وبالطبع، كان معتمدًا على عون توفيق. صحيح أن الحاج طاهر لا يريد له إلا الخير، لكنه ليس رجلًا سياسيًا.

وصلت برقية من توفيق قبل منتصف الليل: نعم، سوف يتدخّل. وفي وسع حسن أن يكون واثقًا من العفو عنه.

استيقظ عند شروق الشمس، فقبّل زوجته النائمة وركب حصانه، ثم انطلق شمالًا صوب التلال. كانت حرارة الهواء قد بدأت تزداد عندما وصل إلى جنين. قصد بيت عمه فاستبدل بحصانه عربة مع حصانها. غفا في مقعد العربة بينما كان السائق منطلقًا بهما. كان مصغيًا، عبر جدار العربة الخشبي، إلى صوت اصطدام العجلات بتضاريس الطريق، ثم استيقظ على الهدير الهادئ لتلك العجلات على الطريق المرصوفة عندما انخفضت الحرارة بالقرب من بحيرة طبريا. أكل واحدة من قطعتي الخبز اللتين كانتا معه، وأعطى السائق القطعة الأخرى. اقتربا من نهر الليطاني فبدأ يشعر بالجوع من جديد. لكنهما كانا من غير طعام إلا كيس الشعير المعَد من أجل الحصانين. طلب من السائق أن يتوقّف عند خان للمسافرين لاح لهما عند قمة التل أمامهما.

انصرف السائق إلى إطعام الحصانين، واقترب حسن من الخان. كانت على المكان آثار تجديد حديثة: رأى بقايا الجص عالقة على أوراق شجرة خرنوب عند الخان، وعلى ساقها الدبقة. ظهر صاحب الخان بالباب. كان رجلًا قصيرًا أسود العينين على وسطه مئزر متّسخ. قال الرجل: «ليس لدينا طعام!». تجهّم وجه الحاج حسن، فتذكّر الرجل أنه قد يجد بيضتين باقيتين لديه... فلينتظر الأفندي لحظة. ناول حسن صحيفة لكي يقرأ فيها، ثم انصرف بخطوات عرجاء، واختفى.

جلس حسن على حجر تحت شمس الضحى، وفتح الصحيفة. كانت فيها الأخبار المعتادة، الوفيات والولادات؛ وأخبار عن هزيمة البريطانيين في غاليبولي، وكذلك عرض مسهب عن مهاجر سوري في أميركا. ألقى على ذلك العرض نظرة سريعة. قلب الصفحة وقرأ عنوانًا «إعدام أحد عشر وطنيًا في بيروت».

رأى في وسط القائمة اسم صديقه، فؤاد مراد. لقد مات مراد! رأى في تلك الصفحة اسمه مكتوبًا تحت صورة له ـ لقد كان حسن حمّاد رجلًا مطلوبًا! كانت الصورة ملتقطة قبل سنتين. وكان فيها حليق الذقن. ارتفعت يده إلى لحيته، ثم نهض واقفًا لكي ينصرف. وجد السائق يبول عند جذع شجرة فانتابته موجة ذعر جديدة عندما رآه. لم يكن اختيار ذلك السائق تلك الشجرة موفقًا لأنه وجد صعوبة في تفادي رشاش بوله الجاري على عُقَدِها. كان منشغلًا بنفسه، فاتخذ حسن قرارًا سريعًا. جلس في مقعد السائق، وساط الحصانين لكي ينطلقا به متجاهلًا صيحات السائق الحائر من خلفه.

اجتاز جسرًا متداعيًا على نهر الليطاني، ولم يسمح للحصانين إلا باستراحة صغيرة على الضفة الأخرى من النهر حتى يشربا. ومن هناك، تابع السير شرقًا مبتعدًا عن بيروت

من غير أن تكون له أية وجهة بعينها. كان يدور من حول كل قرية يراها لأنه غير قادر على المغامرة بأن يلاحظ أحد أنه الشخص الوحيد المار بسوق القرية في ذلك اليوم.

بعد ساعة ونصف الساعة من الذهاب شرقًا، صادف جنديًا تركيًا وحيدًا على قارعة الطريق. كانت قدما الجندي مبيضتين من الغبار. نهض الجندي واقفًا وأشار إلى حسن. تلألأت الأزرار الذهبية على صدره، ولمعت حربة إلى جانبه. كان شاربه الضخم مطليًا بالشمع على الطريقة العثمانية. وإلى جانب كرسيه، رأى حسن صندوقًا كبيرًا من البرتقال. أوقف حسن العربة، وترجل منها. طلب منه الجندي، بعربية ثقيلة، أن يبرز أوراقه الثبوتية. ضيق عينيه ونظر متمعنًا إلى ملابس الحاج حسن.

«هل هذه عربتك؟».

قال الحاج حسن: «أجل...». تابع كلامه بلسان تركيّ طلق... «أبحث عن مكان أجد فيه طعامًا. هل تعرف مكانًا قريبًا من هنا؟».

ظهر السرور واضحًا على الجندي عندما سمع حسن يكلّمه بلغة تركية سليمة، فصفّق بكفيه وقدم إليه برتقالة. قبِل الحاج حسن البرتقالة، وبدأ يقشرها. تناثر رشاش من عصارتها على يديه المغبرَّتين. ألقى الجندي القشور فوق كومة صغيرة في الصندوق. راح كل منهما يأكل قسمًا من البرتقالة ورأى الحاج حسن أنه من الضروري إزالة أية شكوك أثارها وجوده. قال للجندي إنه، في حقيقة الأمر، قد انطلق مع سائق للعربة، وإنه كان متجهًا لزيارة عائلته في بيروت. لكن السائق سرقه وهرب خلال توقفهما في خان للقوافل. أشفق عليه صاحب متجر عجوز، فأعاره هذه العربة بعد أن تعهّد له بأن يعيدها.

أضاف قائلًا وهو يراقب ردة الفعل في وجه الجندي: «ليست لدي أية أوراق... لا شيء».

أجابه الجندي: «مسكني قريب من هنا. ولدي آلة تلغراف إن كنت تود إبلاغ عائلتك».

تردّد حسن، قد يبدو هذا الرجل جديرًا بالثقة، لكنه يظلّ تركيًا. وإذا انتبه إلى أن حسن هارب، فقد يطمع في مكافأة. تأمل حسن ما لديه من خيارات. يمكنه أن ينطلق بالعربة مسرعًا. ويمكنه أن يترك أحد الحصانين من غير ربطه إلى العربة تحسبًا لاضطراره إلى الفرار.

قاده الجندي إلى كوخ صغير في منحدر قريب من الطريق. ومن فوق الكوخ، كانت أسلاك التلغراف المتعرجة تتمايل قليلًا في الريح. دخل الجندي الكوخ. ففكّ حسن أحد الحصانين عن العربة وربط سرجه إليها بقطعة حبل، ثم قدم إليه حفنة شعير وداعب خطمه الدافئ. في الداخل، كان الجندي قد بدأ يغلي ماءً على الموقد. رأى حسن في

الزاوية طاولة عليها جهاز كهربائي: صندوق مرتفع يشبه جهاز راديو، لكن على جانبيه مفاتيح متفاوتة المقاسات، وأنابيب نحاسية. رأى تحته صندوقًا آخر عليه مفاتيح كثيرة وله دعامات لامعة مثبتة على كل وجه من أوجهه الشاقولية.

سأله الجندي: «هل تعرف كيفية استخدامه؟».

لم يقل حسن شيئًا، فضحك الجندي.

«لا تهتم. اكتب ما تريد قوله وسوف أهتم بالأمر. اكتب من فضلك».

تناول حسن ورقة وقلمًا قدمهما إليه الجندي، وكتب رسالته بالتركية، بحروف تصعب قراءتها. لكنها لم تكن رسالة موجهة إلى زوجته: كانت موجهة إلى صديقه الحاج طاهر كمال.

جلس الجندي وبدأ يطبع الرسالة على مفتاح الإرسال. غلى الماء، وكادت القهوة تفور. أطفأ حسن اللهب من تحتها.

«ليس علينا إلا انتظار الرد. لدي فناجين نظيفة، هناك».

كان في الكوخ كرسي وحيد، الكرسي الذي كان إلى جانب آلة التلغراف. أصر الجندي على جلوس حسن على الكرسي، وظل واقفًا مستندًا إلى الجدار. راح حسن يطرح على الجندي أسئلة قليلة الأهمية عن مركزه هذا؛ وكانت فترة من الصمت تمتد بين كل سؤال وآخر. كان منتبهًا إلى دورَيْهما المتضادين في لعبة الأمم هذه، حريصًا على عدم قول شيء يمكن أن يكشف الحاجز القائم بينهما. انقضت ساعة فطن حسن بعدها إلى إمكانية أن يكون الجندي قد انتبه إلى جهله برموز مورس فتظاهر بكتابة رسالته في حين كان يبعث ببرقيته الخاصّة إلى رؤسائه الذين يمكن أن يظهروا في أية لحظة من أجل اعتقاله. لعل الوقت لا يزال متاحًا لكي يفرّ. فكّر في حصانه. لكن، إذا تبين أن الجندي صادق وأنه بعث بتلك الرسالة إلى الحاج طاهر، فلن يتلقّى حسن إجابة صديقه إن هو فر الآن. عاين مسار الخروج من الباب، مرورًا بالجندي، وظلّ جالسًا. كانت أصابعه متأهبة للقبض على رسن الحصان.

صدر عن الآلة صوت طقطقة شديد الارتفاع. وثب حسن مفزوعًا، فجلس الجندي مكانه، إلى الطاولة حيث كان دولاب في الآلة يدور فيخرج مع دورانه شريط ضيق من الورق من تحت شيء أشبه بقدم ذهبية ويستقر في يد الجندي. توقفت الآلة، فقصّ الجندي الشريط الورقي ونظر إلى العلامات التي عليه، ثم كتب الكلمات على ورقة.

قرأ بصوت مرتفع: «لدي ابن عم في دمشق، بالقرب من قلعتها. اذهب إليه. اسمه أبو الخير الموَقّع».

ناوله الجندي الورقة التي كتبها.

قال الحاج حسن: «أشكرك جزيل الشكر. السلام عليكم».

قدّم حسن إلى الحصان الثاني حفنة شعير (كان يحب المساواة)، ثم أعاد ربط الحصان الأول إلى العربة. احتل مقعد سائق العربة المتواضع، ثم لوح بسوطه وسار في الطريق المتجه إلى دمشق. بلغ باب الجابية الواقع إلى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة. كان ذلك مع بدء حلول الليل. نادى من مقعده بائعًا في الطريق تأخر في جمع بضاعته فسأله عن بيت أبي الخير الموقع. أعطاه البائع سلسلة من التوجيهات المعقّدة التي حرص حسن على تتبعها حرفيًا، فوصل إلى باب بيت مؤطّر بحجارة وردية ورمادية.

فتح له الباب رجل فضّي الشعر، رقيق الشفتين. صافح الرجل الحاج حسن وتقدّمه إلى الإسطبل لكي يوقف عربته فيه.

قال له: «تفضّل. صديق الحاج طاهر صديقي».

أخذ الرجل الحاج حسن إلى غرفة لها نافذة على شكل مشربيّة. كانت خادمة تضع في الغرفة فراشًا. نام الحاج حسن نومًا عميقًا إلى أن أيقظه أذان الفجر. نام من جديد إلى أن سمع الأذان الثاني. وجد في الممر رسالة له: لقد خرجت الأسرة في وقت مبكر لزيارة قريب وقعت وفاة في بيته، وسوف تعود قبل حلول الليل. قدّمت إليه الخادمة بيضًا بالسماق. لم يكد ينتهي من طعامه حتى سمع قرعًا على الباب.

دخل البيت اثنا عشر جنديًا تركيًا. لكن الحاج حسن سارع فقدّم نفسه على أنه أبو الخير الموقّع ودعا في سره أن تكون لحيته كافية لإخفاء ملامحه. لا، لم يستقبل أي هارب من نابلس. لكن مما يسره أن يلقوا نظرة في أنحاء البيت. أرجو أن تتناولوا كأسًا من عصير الليمون، لم يكن في الصالون متسع لجلوس اثني عشر شخصًا، فجلس كبارهم في حين ظل الأصغر سنًا واقفين من حولهم يشربون عصير الليمون من كؤوس طويلة. اتكأ الحاج حسن على إطار النافذة محاولًا أن يبدي لهم حسن الضيافة وأن يظهر بمظهر صاحب البيت المطمئن في بيته. حرص على ألّا تتابع عيناه التزيينات الكثيرة في الغرفة كأنه رآها قبل ذلك ألف مرة. أفرغ الرجال كؤوسهم وشكروا أبا الخير على استقبالهم. لا يزال الحاج حسن رجلًا مطلوبًا. صار عليه الآن أن يظل مختبئًا مدة تتجاوز أسبوعًا واحدًا. ناقش الأمر مع أبي الخير فقررا أن يتزوج حسن ابنته الكبرى التي كانت فتاة ممتلئة الجسم كبيرة العينين اسمها رشا. كان مهر الفتاة ساعة جيب قدّمها حسن -كانت معه ساعتان، لحسن الحظ- وكتب تعهدًا خطيًا لمضيفه قال فيه إنه مستعد لأن يرد له كل ما يترتّب عليه لقاء إقامته في بيته مختبئًا.

مرت شهور، لكن صورة حسن ظلّت تظهر في الصحف كل أسبوع، ومعها تفاصيل عن الخيانة التي ارتكبها ووعدٌ بجائزة ينالها من يبلغ السلطات عن مكان اختبائه. اختار

له أبو الخير اسمًا مستعارًا، «قاسم خطيب». وتحت هذا الاسم المستعار، أطلق الحاج حسن لحيته حتى صارت كثيفة وازداد طولها، وعاش سعيدًا مع زوجته الجديدة في بيت حميه. لكن شهورًا كثيرة مرت فاشتاق إلى زوجته الأولى وأطفاله وبُركته في مزرعته في زواتا، وكذلك إلى صحبة رفاقه من الرجال في بيوت نابلس. ونظرًا لعدم وجود أية طريقة لإرسال النقود من زواتا، فقد بدأ اعتماد الحاج حسن على مضيفه يُثقل على نفسه بعد أن ازداد كثيرًا المبلغ المستحق عليه. لم تكتمل سنة على إقامته قبل أن يقرر أن يعود إلى نابلس في زيارة.

وفي ليلة يوم أحد، في ربيع سنة 1916، بعد أنباء عن نصر تركي في كوت العمارة، ارتدى حسن عباءة قطنية وكوفية مما يرتديه الفلاحون، وامتطى حصانه، وانطلق من دمشق متّجهًا جنوبًا. بلغ ضواحي إربد عند انبلاج الفجر الذي بدت شمسه مثل صفار بيضة فوق جبل الدروز. رأى في ضياء أول الفجر الشاحب امرأة بدوية تدخل خيمة في أحد الوديان. رأته المرأة فأشارت إليه بأن يقترب منها. ربط حصانه إلى جذع شجرة ودخل الخيمة فرأى نساء تطحنّ البن في مهابيج وضعنها على الأرض وتغنين غناء حزينًا على ذلك الإيقاع. أتى كبير العائلة ذو الشعر الشائب فرحّب به ثم جلسا معًا صامتين إلى أن صارت القهوة جاهزة. وبعد أن شرب كل منهما فنجانه، طلب حسن قضاء الليل عندهم. أجابه الكهل إجابة مواربة، فعرض عليه حسن إعطاءه القدر اليسير من الذهب الذي كان معه مقابل تزويجه واحدة من بناته. تم الاتفاق، وحصل الحاج حسن على أول بيت آمن في طريقه إلى نابلس، في ذلك الوادي بين إربد وجبل الدروز.

أمّن البيت الثاني من خلال زيجة أخرى؛ لكنه تزوّج هذه المرة ابنة فلاح في قرية واقعة إلى الجنوب من صفد. وكانت ليلته الثالثة بعد زواجه من ابنة واحد من أصدقاء ابن عمه في جنين.

عاد الحاج حسن إلى زوجته الأولى في زواتا بعد أن تزوّج أربعًا غيرها. أقام في البيت شهرًا أمضاه في العناية بمزرعته وفي مجادلة الفلاحين في مقدار غلة الأرض. انقضى الشهر، فعاد أدراجه لكي يزور بقية زوجاته، فيتعشى عندهن، وينام، ويعطيهن بعض المال في طريق عودته إلى بيت أبي الخير في دمشق.

قام الحاج حسن برحلتين سريتين بين دمشق ونابلس خلال سنة ونصف سنة بعد رحلته الأولى. كان يزور زوجاته ويُحصّل إيراد مزرعته. استمرّت الشائعات في نابلس في ما يخص مكان وجوده، وما إذا كان حيًا أو ميتًا. ثم خسر العثمانيون القدس على يد البريطانيين في شتاء سنة 1917 بينما كان حسن في طريقه إلى زواتا. لم يكد يبلغ جنين حتى أتاه ابن عمه بأنباء تقول بأن الأتراك قد انسحبوا إلى نابلس، وإنهم أقاموا معقلًا لهم

داخل أسوار المدينة القديمة للدفاع عن منطقة شمال فلسطين. عاد حسن على أعقابه ميمِّمًا وجهه شطر دمشق، ولم يكرر محاولة العودة. انقضت سنة كاملة قبل أن يتمكّن البريطانيون من دحر الأتراك والاستيلاء على نابلس. إلا أن حسن لم ير أن من الآمن له أن يعود إلى بيته في زواتا عودة علنية إلا بعد أن فر جمال باشا إلى أوروبا. عاد إلى قريته فاستقبله الناس استقبال الأبطال.

كان ذلك في سنة 1918. وكان ابن عمه نمر قد صار رئيس بلدية نابلس الجديد.

***

مع سقوط الحكم العثماني، غصّت شوارع القدس بالمحتفلين. راح الناس يرقصون ويصفّرون، وقطعوا أسلاك التلغراف وأخذوها إلى بيوتهم غنيمة. لكن ردة الفعل في نابلس كانت مختلفة. فهناك، اجتمع الناس عند المستشفى البلدي الذي كان رمز حداثة نابلس، لا لكي يعلنوا تأييدهم لاستيلاء البريطانيين على القدس، بل لكي يحتجّوا عليه. سار أهل نابلس منشدين الأناشيد في طريقهم إلى المعسكر التركي المؤقت مظهرين حزنهم الشديد. كانت لدى الناس خشية من سقوط الدولة العثمانية على الرغم من أن مدينتهم كانت مركزًا من مراكز الحركة القومية العربية. كانوا يقولون مكروبين إن المعروف خير من المجهول، وإن العثمانيين كانوا سيئين لكن، من لا يكون سيئًا زمن الحرب؟ ثم إن نصف جنود الحامية التركية كانوا من أبنائهم. وفوق هذا، كان اللورد بلفور قد أصدر إعلانه: كان النابلسيون خائفين لأنهم توقّعوا ما يضمره البريطانيون لهم.

قرر الحاج نمر، على غير عادته، أن يقيم احتفالًا بمناسبة عودة ابن عمه. دعا إلى ذلك الاحتفال وجهاء المدينة كلهم. كان الحاج نمر رجلًا متدينًا شغل منصب القاضي الشرعي قبل أن يصير رئيسًا للبلدية. ولم يكن قبل ذلك يدعو إلى بيته أحدًا غير المتفقّهين في الدين، فيجلسون جميعًا في الطابق الثاني، حيث يشربون الشاي ويتذاكرون في أمور الدين. صحيح أن كون العالم شخصًا اجتماعيًا لم يكن أمرًا غير مألوف، لكن الحاج نمر لم يكن ممن يُكثرون الذهاب إلى الاحتفالات واللقاءات. وهذا ما جعل بناته في حالة من الحماسة الشديدة عندما أعلن عن هذه الدعوة، على الرغم من أن حضورها لم يكن متاحًا لهنّ. أتت وداد، زوجته، بمن يساعدها في ذلك اليوم؛ وكانت من بين مساعداتها خادمتان وخادم من عند كنتها. جُمعت أزهار السوسن من الحديقة وزُينت بها الطاولات. ووُضعت أطباق كبيرة فيها أنواع كثيرة من المحاشي -الكوسا والباذنجان وورق العنب- ومع المحاشي أكوام من الطماطم المشوية التي تكاد محتوياتها تسيل. استعانوا بأفضل من يصنع الكنافة في المدينة القديمة فأتى بمعدّاته إلى المطبخ لضمان أن يكون الجبن حارًا وقت تقديم الكنافة.

الحاج نمر دعا الحاج حسن إلى تناول القهوة مع الأسرة قبل بدء الحفلة. كان حضور هذا اللقاء متاحًا لزوجته وبناته. وضع حسن أفضل ربطة عنق لديه، وانتعل حذاءه الدمشقي اللامع، وركب حصانه وقت الظهر متجهًا من زواتا إلى نابلس.

كانت نوافذ بيت الحاج نمر حمّاد المزينة بقناطر ثلاثية ظاهرة في أعلى الجدار الحجري المرتفع المتراجع قليلًا عن الطريق. دخل حسن البوابة، وصعد الدرجات التي اصطفت إلى جوارها مجموعة من عرائش العنب الملتفة. بلغ الباب بقناطره الثلاث، وارتقى درجات المدخل، ثم أدار مقبض الباب ودخل صالة فسيحة لها قبة مرتفعة يغمرها ضوء النهار.

كان أطفال الحاج نمر الثلاثة في انتظاره على أريكة في آخر الصالة. لقد رأى الحاج نمر ابن عمه بعد عودته، لكنه استقبله بأربع قبلات كأنه يراه أول مرة. كان نمر رجلًا طويلًا ضامرًا يخالط الشيب حاجبيه الأسودين الكثيفين المعقوفين من فوق عينيه. وكانت أجفانه متهدّلة قليلًا. ولما كان الحاج حسن أقصر قامة، فقد اضطر ابن عمه إلى الانحناء قليلًا حتى يقبل خده. كانت لحيته بيضاء، وقد قصّها مجددًا بعد عودته من منفاه. أرنبة أنفه منتصبة فوق شاربيه؛ وحاجباه رقيقان مرتفعان؛ لكنّ عينيه مثل عينيّ ابن عمه... عينان مائلتان قليلًا عند الطرفين تكسبانه مظهرًا حزينًا. اقترب حسن من الأطفال. قفزت الطفلتان الأكبر سنًا، فاطمة ونزهة، لتحيته. لكن الصبي الصغير، برهان، ظل جالسًا ولم يقل شيئًا.

كان حسن شخصًا متواضعًا، بل صارمًا بعض الشيء، على الرغم مما حقّقه ومما اكتسبه من شهرة على المستوى المحلي. نظرة عينيه ثابتة، وحضوره ثقيل الوطأة على كل من لا يستطيع مجاراة اعتداده بنفسه. وإذا وصفه شخص، محقًّا تمامًا، بأنه رجل متحفّظ، فقد يغتنم الفرصة شخص آخر متظاهرًا بالدهشة فيزعم لنفسه معرفة أقرب به، ويقول إن الحاج حسن -بحسب معرفته الشخصية- شخص مخلص، صادق، محبّ إلى حد كبير.

ضحك الحاج حسن واحدة من ضحكاته النادرة عندما قبّله نمر. جلس، وجلس معه أفراد الأسرة صامتين، منتظرين. لقد سمع نمر نسخًا مختلفة من قصة حسن. وكانت من بينها واحدة تقول إن روسيا كانت منفاه. لكنه لم يصدق شيئًا مما سمعه، وكان، مثل أطفاله، في شوق إلى سماع القصة من الرجل نفسه. لكنه أخفى حماسته، على العكس من أطفاله، خلف ابتسامة حكيمة وهزات بطيئة من رأسه الوقور.

سأل حسن الأطفال عن دراستهم، ثم أتحفهم بسؤال كان أكثر إثارة لاهتمامهم:

«لم أركم منذ ثلاث سنين، تقريبًا؛ لكنكم لا تزالون مثلما أتذكركم -ازددتم طولًا وعقلًا وجمالًا!- هل تعرفون أين كنت؟».

«إنكلترا».
«هل كنت في مصر؟».
«لا، لا. كنت في دمشق».
حكى لهم القصّة بنبرة جافّة مستخدمًا أفضل العبارات التي أتقنها في بيت أبي الخير ومع أفراد أسرته فجَرَت تلك العبارات على لسانه من غير تفكير. حدّثهم عن الإنذار الذي تلقاه من الحاج طاهر كمال، وعن رحلته من نابلس في اتجاه عاليه، وعن الصحيفة التي رآها في الخان. راح الصبي يضرب فخذيه بكفيه عندما سمع قصة اللقاء مع الجندي الخدوم على قارعة الطريق، ثم ازداد حماسة عند سماع قصة عصير الليمون الذي قدمه حسن إلى الجنود القادمين لتفتيش بيت أبي الخير.
كانت فاطمة، ابنة نمر الكبرى، أكثر المستمعين إصغاء إلى كلامه. تشرّبت القصة من غير أن تضحك، تمامًا مثلما كانت تتشرّب ما تسمعه من شقيقها عن قصص الرجال العائدين إلى نابلس بجروح أصابتهم في الحرب أو بشهادات أجنبية. كانت تعرف أن من بين أولئك العائدين شاب اسمه ياسر: ابن الحاج حسن. كانت أم فاطمة على قناعة راسخة بأن ياسر مناسب تمامًا لابنتها. وكثيرًا ما كانت تذكر اسمه في البيت، لا أمام فاطمة نفسها، بل أمام أبيها. لكن الحاج نمر ظلّ حريصًا على تفادي الإتيان على ذكر ابن ابن عمه على الرغم مما يكنّه لأبيه من محبة واحترام كبيرين. لقد كان ياسر خيارًا منطقيًا، فهو واحد من العائلة بلغ رتبة عالية في الجيش العثماني؛ ثم إنه سيرث القسم الأكبر من أراضي الحاج حسن في وادي الأردن. لكن نمر كان طامعًا في زوج أوسع ثراء من أجل ابنته فاطمة، أكبر ابنتيه وأحلاهن. كان نمر ينظر إلى فاطمة كلما ورد ذكر ياسر في أحاديث الأسرة، فيحمرّ وجهها وتهرب عيناها. إلا أن الحاج نمر كان مقيّدًا بمتطلبات منصبه السياسي الجديد فلم يسنح له وقت، ولا فرصة، للبحث عن عرسان آخرين. ومن جانبها، واصلت زوجته الدفع في اتجاه الخيار الذي استقرّ رأيها عليه. قالت دائمًا إن ياسرًا رجل جيد. إن فكرة الزواج في حد ذاتها أمرٌ مخيفٌ لفاطمة؛ لكن زواجها من واحد من أقاربها سيتيح لها الاحتفاظ بقدر أكبر من القرب من أسرتها، على الرغم مما تفكّر فيه أحيانًا من أن رجلًا في الثانية والثلاثين سيكون عريسًا كبيرًا عليها.
كانت أراضي الحاج حسن حمّاد واقعة في قرية زواتا الراقدة في ظلال جبل عيبال. هناك صخرة ضخمة ناتئة عموديًا في آخر الثلث الأول من سفح الجبل. وعلى مقربة من وسط تلك الصخرة، هنالك كهف، فضلًا عن كهف مجاور إلى الناحية الغربية منها. حجارة كبيرة سدّت مدخل ذلك الكهف. تقول قصة متداولة إن امرأة مسلمة فاضلة اسمها الست سليمية ماتت في دمشق. وعندما وضعوها في نعشها، ارتفع جسدها في

الهواء، ثم اختفى ليظهر في كهف هذه الصخرة التي انشق جانبها الغربي بأعجوبة. صارت الصخرة الآن محجًا يقصده الناس ويوقدون فيه زيت الزيتون. جرار خزفية على أرض الكهف، ومصابيح معلّقة على جدرانه.

في ذلك المساء، انسلت فاطمة خارجة عبر باب الحديقة بينما كان أبوها جالسًا مع ضيوفه، وسارت في طريق الجبل. بلغت الكهف فخلعت منديلها عن رأسها وأشعلت عود ثقاب لكي تضيء القناديل. انبثقت الظلال وتراقصت على أرض الكهف. أوقدت قنديلين آخرين، ثم ركعت عند القبر وتضرّعت إلى الست سليمية أن يكون من تتزوّجه شخصًا طيبًا، رحيمًا في بيته.

كانت فاطمة في السادسة عشرة. انقطعت عن المدرسة منذ سنتين؛ وهي الآن تتمرّن على فنون تدبير المنزل. كانت تنهض في الصباح فتطوي الأغطية، وتحزم كل فراش بخيط ثخين، ثم ترتب الملاءات في الخزانة. على الرغم من وجود خادمة لديهم، فإنها تتولى القسم الأكبر من مهمة غسل الملابس، فقد كانت الأم مصرّة على أن تتقن فاطمة كل جانب من جوانب العمل. كانت أمها من أسرة فقيرة؛ وعرفت أهمية الاعتماد على النفس في الأيام الصعبة. وهكذا، كانت فاطمة تنجز ترتيب مستلزمات النوم، ثم تبدأ كي الملابس، فتوقد الجمر أولًا في المجمرة، ثم تستخدم ملقطًا لوضعه في المكواة. وبعد أن تنتهي، تضع المكواة على منصب معدني حتى تبرد، وتساعد الخادمة في طي الملاءات وقطع الملابس وترتيبها. تذهب بعد ذلك إلى المطبخ لكي تنضم إلى أمها حيث تأكل عادة قطعة خبز قبل أن تبدأ مساعدتها في إعداد وجبة الغداء. حتى تلك السنة، ومنذ أبعد نقطة في الزمن تتذكّرها فاطمة، كان جنود أتراك يقيمون في الجزء العلوي من البيت، ويعقدون فيه لقاءاتهم. لم يُبدِ الحاج نمر أية ممانعة لذلك، فقد كان لديه ذلك المزيج الغريب من الاحترام الوجل تجاههم والاعتزاز بأن اختيارهم قد وقع على بيته. دخلت المأكولات التركية مطبخ أسرة حمّاد؛ وتعلمت فاطمة من الطبّاخ التركي طهو بيلاف الفاصولياء البيضاء، وطهي الخرفان الربيعية، وإعداد الدجاج المحشو. ومع بداية الحرب، حل جنود ألمان محل الأتراك؛ وكانت لهم مساهمة في إمداد المطبخ بالمواد في فترة شهدت ارتفاع الأسعار في السوق. ثم مرّت ثلاث سنوات، وتمكّنت الأسرة، آخر الأمر، من العودة إلى استخدام الطابق العلوي في بيتها، فكانت فرحة أم فاطمة بتولّي مقاليد البيت كلّها من جديد صنوًا لعلو شأن أبيها في المدينة.

بعد وضع قِدْر الطعام على النار، أو في الفرن، تعود فاطمة أدراجها إلى الطابق العلوي، إلى مكواتها التي بردت، فتمسحها بشمع النحل الحار حتى تزيل الصدأ عنها. تمضي ما بقي من وقت في التطريز وقراءة المجلات إلى أن يعود أخوتها وأختها من

المدرسة عند الساعة الرابعة فتجتمع الأسرة كلها لتناول طعام الغداء.

صارت فاطمة في الآونة الأخيرة منتبهة إلى طول عمر الإنسان. بدأت الآن تدخل مرحلة جديدة من حياتها، فرأت أن الحياة طويلة، لكنها تمتد زمنًا محدودًا لا يلبث أن يبلغ آخره. تنظر إلى الجبلين المحيطين بنابلس كأنهما كتفان يرسمان للمدينة حدودها... فمهما حاولت المدينة ارتقاء الجروف الصخرية، ومهما حاولت نشر امتداداتها وضواحيها، فإن الأرض تظلّ ممسكة جسدها، وتجعلها حبيسة الوادي. ما من سبيل لأن تكبر نابلس وتتّسع إلا بأن تنداح عبر تلك الأثلام حيث ينتهي الوادي إلى السهل، ولن تتجاوز ذلك الحد.

لكن الحرب سببت تغيرات كبيرة؛ وفي أعقابها، وجدت نابلس نفسها في وضع قلق. استؤنفت التجارة، وانتهى نظام التقنين. لكن قصص صلاح الدين ومعاركه مع الصليبيين كانت تعود إلى الذاكرة الجمعية كلما قُرِئت في المقاهي. صحف تتحدّث عن إعادة رسم الخرائط، وعن مدينتهم الجميلة التي كانت دائمًا شقيقة جنوبية لدمشق على الرغم من أنها صارت، من الناحية الرسمية، واحدة من المناطق الشمالية التابعة للقدس. سرعان ما صار الشرف الذي حظيت به العائلات النافذة وتمكّنت من المحافظة عليه في عهد الأتراك... شرف أحرزته عبر القرون ولم تأل جهدًا من أجل حمايته... سرعان ما صار هذا الشرف واقعًا في خطر عظيم.

عادت إمكانية السفر بين المدن؛ ودخلت الكهرباء مدينة القدس التي بدأت تعرف حياة الليل الحديثة على ضوء المصابيح الكهربائية والأنغام المنبعثة من الغرامافونات اللامعة. صار الشباب يذهبون إلى القدس على خيولهم فيستأجرون شققًا داخل أسوار المدينة القديمة، ويتفقّدون ساعاتهم لمعرفة الوقت في الليل، ويدخنون على قارعة الطريق، ويرقصون في البارات.

كانت فاطمة تحلم بمهرجان النبي روبين. كانت في العاشرة من عمرها عندما ذهبت مع أبناء وبنات عمومتها القاطنين في اللد وأمضت أسبوعين في خيمة كبيرة عند شاطئ البحر في يافا. أسواق، ومقاهٍ، ومطاعم أقيمت كلها بمناسبة المهرجان. سباقات الخيل والجمال في النهار، وفرق مسرحية تقدم عروضها في الليل، ومغنون ومغنيات من مصر ومن لبنان، وسحَرة يؤدّون عروضهم ضمن دوائر مسيَّجة بحبال تفصلهم عن الجمهور، وشعراء يلقون قصائدهم، ودراويش يرقصون دائرين. كانت تخشى ألا يُسمح لها بالذهاب إلى النبي روبين مرة أخرى إلى أن تتزوج.

انتهت فاطمة من دعائها فعصفت بالكهف نسمة ريح جعلت الغبار يزوبع عند قدميها. رأت عبر فتحة الكهف أن الليل قد بدأ يرخي سدوله على المدينة، فأسرعت

وأطفأت القناديل الثلاثة التي أوقدتها، ثم أرخت حجابها على وجهها. حملت الزيت والثقاب في إحدى يديها، وأمسكت بالأخرى حافة مدخل الكهف الصخرية وخطت إلى الخارج، إلى سفح الجبل. وعلى الفور، شدّت عليها ثوبها المصنوع من الموسلين، وانحنت في مواجهة الريح حتى لا تفقد توازنها. لفت انتباهها حركة بين الأشجار، لكن ذلك لم يكن إلا أغصانًا تضطرب وتصطفق في الريح فتحجب مساحات من السماء البنفسجية.

كان كل شيء تقريبًا في الظلام. شدّت قبضتها على زجاجة الزيت الصغيرة وأصغت جيدًا فلم تسمع غير أصوات الجنادب الليلية وعويل الريح المتكسّر. هبطت المنحدر مستندة بزجاجة الزيت إلى الحجارة حتى لا تسقط في سيرها. كان قلبها يخفق عنيفًا. لم تبلغ المدينة إلا وقد تحوّل خوفها من ظلمة البرية إلى خوف من التأنيب الذي سينالها لأنها ظلت وحيدة خارج البيت حتى هذا الوقت المتأخّر. أغلقت الباب خافضة رأسها، وسارت مباشرة صوب غرفة النوم التي تشاركها فيها شقيقتها. لكنّ أمها كانت مصغية إلى صوت خطواتها، فأتت إليها مسرعة.

«أين كنت؟ عيب! عيب عليك!».

«ذهبت من أجل الدعاء، يا أمي. أنا آسفة».

«ولماذا تذهبين في هذا الوقت للدعاء. تخيّلي من يمكن أن يكون قد رآك! عيب عليك يا فاطمة!».

رفعت فاطمة ذراعيها حتى تقي نفسها.

«ادخلي غرفتك قبل أن يأتي أبوك ويضربك».

حتى لا يمر الأمر هكذا، أمسكت أمها بذراعي فاطمة المرفوعتين فأنزلتهما، ثم خلعت عنها حجابها وصفعتها على وجهها صفعة شديدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 2 -

ترك مدحت بيت الدكتور مولينو بعد ليلة الخزي تلك؛ ولم يودّع أحدًا. فقبل شروق شمس اليوم التالي، أغلق باب البيت بهدوء من خلفه، وجرّ حقيبته إلى وسط المدينة، حيث اشترى بطاقة قطار إلى باريس وبعث ببرقية إلى صديقه الذي التقاه في السفينة، فاروق العظمة. وصل إلى محطة «غار دو ليون» بعد ساعات من ذلك. كان ما خسره شديد الوطأة على قلبه.

مع نظرته الأولى إلى باريس -الأرصفة المزدحمة، وسقوف الزنك، واندفاع الناس في كل اتجاه- انتابه ذلك الإحساس نفسه الذي انتابه في الليلة السابقة عندما أدرك أن عليه أن يترك بيت مولينو. تحرّك ذلك الإحساس في نفسه من جديد. بدا له أن الناس لا يسيرون في الشوارع، بل يجرون جريًا؛ وسمع أصوات النوارس، وأحس بالأرض تهتز من تحت قدميه كأن في جوفها ماء يغلي.

لم يعد هناك متّسع لمعطفه وطربوشه في حقيبته لكثرة ما اشترى من ملابس خلال السنة المنصرمة. هذا ما جعله يرتديهما في سفره، فغمره العرق الآن. كانت القاطرات السوداء والبدلات العسكرية الزرقاء من حوله في كل مكان. انتبه إلى العلم الفرنسي مثلث الألوان مرفوعًا فوق مكتب عسكري فأدرك أن اختلافه عما حوله كان شديد الوضوح. رأى عدة وجوه تنظر إليه، عابسة، حائرة، وتبتعد عنه. لكن لا: لن يخلع الطربوش عن رأسه.

«تاكسي».

كانت أجنحة النوارس تصطفق فوق الجسر. رأى من نافذة السيارة نهرًا ذا ضفتين عريضتين تحيط بهما الأشجار. تمنّى أن يستطيع تذكر اسم الحي الذي أمضت فيه جانيت سنوات طفولتها؛ الحي الذي أنهت فيه أمها حياتها. بلغت السيارة الضفة الأخرى، فبدأت حبّات المطر تنقر سطحها. ثم صار المسار موازيًا للنهر، خلف الحديقة المسوّرة. أشجار على ضفة النهر، وبنايات مرتفعة على الجانبين. انعطفت السيارة متّجهة إلى حيث ازدادت المدينة كثافة. وأخيرًا، توقّفت السيارة في شارع «دي فور» ففتح مدحت الباب ودفع للسائق أجره.

«مسيو كمال!».

كان فاروق العظمة جالسًا إلى طاولة معدنية تحت مظلة، وقد تدلّت نظارته معلّقة

من عنقه. بدت جبهة فاروق الكروية كأنها احتلت مساحة جديدة من شعره الذي تراجع قليلًا.

تصافح الرجلان.

«سرني كثيرًا تلقّي برقيتك. يا صديقي العزيز، كيف حالك؟ من هنا، هذا هو بابنا».

قال مدحت وهما يصعدان السلم: «لقد اشتقت إليك. على السفينة، هل تتذكّر؟... قلت لي هذه الأشياء كلّها عن الفرنسيين. ليتك كنت قريبًا مني، فقد كان عندي الكثير الكثير مما أسألك عنه».

قال فاروق: «بالطبع. سيكون لدينا وقت».

كانت الشقة في الطابق الثالث من ذلك المبنى: شرفة مطلّة على الشارع، ونافذة في الجهة الخلفية مشرفة على باحة داخلية مشتركة. كان أثاث الغرفة الرئيسية في الشقة قليلًا، لكنه غني: جدران مغلّفة بألواح خشبية داكنة الخضرة، ورفوف كلّها كتب، ونوافذ مرتفعة حتى السقف عُلقت عليها ستائر من الدامسكو. ساعده فاروق في حمل حقيبته إلى غرفة النوم، ثم دعك كفيه وقال له أن يجلس قبل أن يجيء بزجاجة ويسكي مع كأسين.

هكذا بدأت حياة مدحت في باريس. صارت أيام دراسة الطب خلفه. انتسب إلى قسم التاريخ في جامعة السوربون. وبدأ في نهاية الصيف الذهاب إلى المحاضرات التي كانت تقام في صالات ذات جدران مبطّنة بالخشب تفوح برائحة غبار الطباشير، ومعه أجانب آخرون، وشابات، وكهول. كان يمضي نهاراته في المقاهي يقرأ كتبًا عن بلاد اليونان القديمة وإسبانيا القرن السابع عشر. أمدّه فاروق بكتب أخرى... قصص الحب المحرّم، ونصوص صوفية، وحكايات أجانب جوّالين يعيشون في باريس. كان من بين تلك الكتب «آلام فرتر» لغوته وقصة عن ابنة قس لبناني ممزقة بين زواجها من رجل وحبها رجلًا آخر. لفت فاروق نظره إلى أن المشاعر هاجسٌ يسكن تلك الكتب. لقد كان مؤلّفوها من دعاة الانفتاح على العالم.

قال له: «كلنا خيالات مآتة تحوّلت إلى فلاسفة. والغربان تعيش تحت قبعاتنا».

بعد العشاء، كان مدحت يذهب أحيانًا مع فاروق إلى البارات والملاهي. ومع انتقال المدينة من كآبة زمن الحرب إلى جو من الحزن الاحتفالي، بدأت حياة الليل الباريسية تزدهر بفعل الجوّ المتوتّر على الجبهة الداخلية. كانت الجادات الفسيحة رمادية في ضوء المصابيح الخافت نتيجة التقنين، لكن المسارح ودور السينما ظلّت تزدحم بالناس كل ليلة، وتظلّ أبوابها مشرعة حتى خلال غارات مناطيد زيبلن. ففي ظلّ ضغط الحرب الجاثم على المدينة، صار أهل باريس يتصرّفون كأن نهاية العالم اقتربت. وكان فاروق يحبّ أن يقول مازحًا إن مناخ «الكارثة» قادهم إلى حالة من «التعرّي». إلا أن

مدحت خالفه في هذا، فقد رأى في الأمر شيئًا أكبر، شيئًا أكثر معنى وعمقًا. كان ذلك شحنة كهربائية متبادلة بين غرباء... نشوةً صرفًا بالوجود. كان شيئًا يعيش في الجسد كأنه مادة مخدّرة... أن يكون المرء حيًّا بين فكي الليل الطائر المكتمل.

التقى في السوربون طالبة اسمها كلير. كانت كلير شقراء قصيرة فوجئ مدحت كثيرًا عندما عرف، في وقت لاحق، أنها تكاد تبلغ الثلاثين من العمر. كانت تظهر ازدراء إزاء الرجال الذين لم يذهبوا إلى الحرب. وعندما حاول الدفاع عن نفسه، مدت يدها ووضعت إصبعين على شفتيه.

قالت له: «لست راغبة في سماع أسبابك».

رآها أول مرة في محاضرة عن أصول الديانات. كانت جالسة في الناحية الأخرى من قاعة المحاضرات تنظر إلى الأستاذ، لكن مدحت كان ينظر إليها. وعندما خرج الطلبة إلى الباحة، أحسّ مدحت نقرة على كتفه، فاستدار ليجدها واقفة وقد وضعت إحدى يديها على خصرها.

«أحب أن أذهب لرؤية الخراب الذي أحدثته غارة الليلة الماضية».

وجدا في شارع «دو ميملمونتان» بناية من خمسة طوابق سقط أحد جدرانها فانكشف مقطعها العرضي وصار الجدار الباقي الذي يحملها أشبه بقفص صدري مفتوح: حمّام سقط نصفه وظل نصفه الآخر مكشوفًا، ومطبخ، ورفوف عليها أمتعة. رفع مدحت رأسه وحدّق صامتًا في كرسي معلّق بحافة الطابق العلوي. تذكّر ما قرأته له جانيت مرة بصوت مرتفع من تلك الأوراق التي كتبتها أمّها بخط يدها... يكف البيت عن كونه بيتًا بعد أن يدخله لص.

ضمت كلير يده بين كفيها: «يا إلهي!» كانت ياقة فستانها منخفضة، وجلد صدرها شاحبًا عليه نمش متزاحم تحت عظم الترقوة. اقتربت منه أكثر. يا لها من شخصية غريبة!... هكذا قال في نفسه... فتاة لا تعرف الخوف. تركت يده وتجاوزته ماضية صوب سور الحديقة. رفعت تنّورتها ووضعت قدمها في فتحة في الجدار ثم شدت نفسها إلى الأعلى واختفت.

نظر مدحت من حوله، ليس في الشارع إلا بضعة مشاة. سمع صوتًا يقول، «ماما، انظري!». لكنه لم يسمع شيئًا آخر. اقترب من الجدار، وقفز إلى الأعلى فتهشمت كتلة إسمنت وسقطت تحت ثقله. سحج ركبته في غمرة استعجاله، وخدش غبار خشن كفّيه. وقف على العشب الجاف والأنقاض المتناثرة فرأى كلير ذاهبة صوب سقيفة انهار سقفها. رنت خطواتها على باب السقيفة الممزّق الملقى على الأرض. قهقهت، ودسّت جسدها عبر ثغرة المدخل الباقية. تبعها مدحت إلى داخل تلك الظلمة.

كان داخل السقيفة فائحًا برائحة نشارة الخشب؛ ولم يكن الحيّز الباقي أسفل السقف المتهاوي يكاد يسمح بالوقوف تحته. دلوٌ تلامعت عليه نتف باقية من ضوء النهار. ضحكت كلير وركلت الدلو من غير سبب فقلبته. سمعا صوت تدفّق الماء مع انقلاب الدلو. حيّر مدحت هذا الاستعراض للخراب. صدر صوت عن حذائه عندما رفع قدمه... كأنه يخوض في الوحل... خشيها لحظة... لكن، مع تلك الخشية التي أتته، أمسكت يدها الصغيرة سترته فكاد يسقط. مد يده محاولًا الاستناد إلى الجدار. كان صوت أنفاسها صاخبًا في أذنيه. قبّلته. حاول محاكاة جرأتها. توتّرت عضلات يده وذراعه، وانسلّت أصابعه تحت ياقة ثوبها فعرّت بياض كتفها. على الرغم من العتمة، كانت عيناها متألّقتين.

كانت التي بعدها فتاة من ليون؛ طالبة في الجامعة أيضًا. رآها عند فسحة معشبة في «غابة بولونيا»، فغيّر اتجاه سيره حتى يتقاطع مساراهما كأنما بفعل مصادفة. عبّر عن إعجابه بالشريط الذي ربطت به شعرها، فقبلت دعوته على العشاء. ساعدها عندما علق مشبك صدارها بثوبها الداخلي، ومسّ الثقب الصغير الذي أحدثه المشبك في قماش الثوب: خيوط ظاهرة كأنها قيثار دقيق. ثم عرف فتاة مجتمع عريضة الكتفين كانت ترتدي بدلات من الفانيلا وحذاء من قماش. أحيانًا، كانت تضع نظارة في الحفلات. التقى امرأة أخرى كانت تبيع في شارع «دو ريفولي» الشارات والدبابيس التذكارية لدعم النشاطات الخيرية. كانت خصلات شعرها بلون مربى البرتقال. عرفها في شهر حزيران؛ وفي الصباحات المشمسة، كان يجد شعرات برتقالية منثورة على الوسادة، إلى جانبه. صاحَبَ عاهرة في «كافيه نابوليتان»؛ كانت ضئيلة الجسد، مسطحة الصدر؛ وكانت تخاطب مدحت بعبارة «يا فتاي الأجنبي». وبعد شهر من أمسيات في غرف مستأجرة، ووجبات إفطار على نهر السين، تركت الفتاة المدينة وذهبت مع أمها إلى منطقة بروفانس، فبدأ مدحت يزور بيوت الدعارة في حي بيغال.

صار يتردد على عاهرتين؛ ثم لم يلبث أن اقتصر على واحدة منهما لأن الأخرى أصيبت بالسفلس، ونُقلت إلى المستشفى المحلّي. كانت الأخرى امرأة اسمها بولين... كان جلدها فائق النعومة؛ وكانت تعطّر نفسها بماء الورد حتى تغطي على رائحة المجارير الكريهة التي تتصاعد إلى النوافذ في الصيف. كانت لبولين تقطيبة وجه كوميدية. عندما دخل الأميركيون الحرب وصارت شوارع باريس تمتلئ بهم خلال إجازاتهم، كانت بولين تقلّد أصواتهم المتراخية، وهي تميل برأسها يمينًا ويسارًا وتشعل سيجارتها، ناظرة إلى مدحت وهو يخرج الفرنكات الفرنسية لكي يدفع «للمدام».

لكنه لم يلبث أن أحسّ برتابة المتعة مدفوعة الأجر؛ فضلًا عن أن كثرة الجنود

العابرين صارت تفرض نوعًا من الحذر لتفادي الإصابة بالأمراض المنقولة بالجنس. مع هذا، ظلّ مدحت مستعدًا -عندما تلعب الخمرة الرخيصة برأسه- لأن يخرج من بار مع مجموعة من الرجال الماضين إلى سهرة مخمورة في أروقة «لو شابانيه»، ولأن يقبَل أيّ مخدع يجده أمامه من غير إطالة تفكير في الأمر.

لكن جانيت ظلت حية في ذهنه عبر تلك التقلّبات كلّها. فكلما كثرت تجاربه، كلما قلت قدرته على البقاء مع أي من تلك النساء اللواتي يلتقيهن في «فولي بيردير» أو في «كونسير مايول»، أو في صالونات حفلات الكوكتيل. وأحيانًا، في الظلام، كان يحس بشفتي جانيت ويشم رائحتها في واحدة من النساء؛ ثم يخرج من الحلم ليجد غريبة بين ذراعيه ويسمع صوتًا رنّانًا مرتفعًا، فيمارس الجنس نصف متقزّز قبل أن يعود إلى سان جيرمان مثقلًا بخجل وشوق متجدّدين. كان ذلك الصوت يدخل وعيه ويخرج منه على امتداد أسابيع متّصلة، لكنه ظلّ حاملًا شوقه الذي صار يكسِبُه مسحةَ جِدّيةٍ، بل مسحة جاذبيةٍ، حقيقية ومصطنعة معًا، كانت نساء باريس تحسّها فيه كأنها عطر يلفّه فيجذبهنّ إليه.

اجتاز شارع «دو لوديون»، ذات يوم في صيف سنة 1916، في طريقه إلى الجامعة، فلمح ظهر امرأة ورأسها من خلف واجهة إحدى المكتبات. قفز قلبه في صدره عندما عرف شعر جانيت. لقد قصّته من جديد فصار الآن قصيرًا متجمّعًا كالريش خلف رأسها. ماذا تفعل جانيت في باريس؟ لا يمكن أن تكون قد عرفت بوجوده هنا لأنه رحل ولم يترك لهم عنوانًا. ها هي واقفة هناك، جانيت، مرتدية قميصًا وتنورة رماديين شاحبين.

استدارت فصارت قبالة الواجهة الزجاجية التي كان مدحت ينظر عبرها. تحرّكت في ضياء الشمس المنعكس على الزجاج. لم يعرف إن كانت قد رأته. ارتعش جسده وهو يدخل الباب ذا الجرس المصلصل. كانت تستدير في الاتجاه الآخر فتتناول كتابًا وتنظر إلى كعبه.

«جانيت».

التفتت عندما سمعت صوته. تغضَّن حاجباها، واحمر وجهها. كانت عيناها صغيرتين، أخفض قليلًا من حيث ينبغي أن تكونا؛ وكانت أقصر قامة من جانيت. وعلى الرغم من حسن مظهرها، فقد رآها مدحت فظيعة. مضت الفتاة إلى طاولة المحاسبة لتدفع ثمن الكتاب، ثم أتت في اتجاهه وهمست «اعذرني» فتنحّى جانبًا حتى تمرّ. خرجت وصلصل جرس الباب من بعدها. سكن وجهها مخيلته لحظات طويلة. أثقل عليه الذعر. لم يعد قادرًا على تذكّر وجه جانيت! حاول استحضار صورتها، لكنه لم يستطع رؤية شيء غير وجه تلك الفتاة ذات العينين المنخفضتين والتنورة الرمادية. خرج من المكتبة شديد الذهول، محاولًا استرجاع ذاكرته. ثم... أخيرًا... ها هي

جانيت: ذقنها الصغيرة المستدقّة، ونظرة عينيها، والابتسامة، والقبلة، والنهاية. لا تزال موجودة. لا تزال على حالها.

بدا كأن الكون لم يسمح لضمير مدحت بأن يهدأ. فبعد شهور قليلة من ذلك، صادف المسيو ساموئيل كوغولاتي، زميلَه البلجيكي في كلّية الطب في مونبلييه. رآه بين الحضور في مسرح «تياتر دي بوف ـ باريزيان» خلال عرض مسرحية كوميدية عن إجاصة سحرية. التقت عيونهما، ففوجئ كوغولاتي وارتد رأسه إلى الخلف. التقيا عند الباب خلال فترة الاستراحة.

«مسيو كمال، لم أتوقعّ رؤيتك مرة أخرى. ظننت أنك عدت إلى فلسطين».

على الرغم من مرور سنة واحدة فقط، بدا له كوغولاتي أكبر سنًا، وبدا له أن وجهه الشمعي انخفض قليلًا. لقد ازداد طول مدحت إنشًا، واضطر إلى شراء بدلات جديدة من شارع «رويال». لقد بدأ أيضًا يسرّح شعره بفرق جانبي؛ وصار يحمل عصًا مطعَّمة بالفولاذ.

«لا، لا، أنا في باريس. لقد قرّرت...». توقف عن الكلام... «وجدت أنني في حاجة إلى تغيير المكان. تعرف كيف يكون الأمر... تجارب جديدة، وهكذا».

«ماذا تعني؟».

«مشاهد جديدة، وأشخاص جدد. لم أكن أعتزم أبدًا أن أثقل على من رحّبوا بي. أردت أيضًا أن أرى باريس. هل يمكن أن يزور المرء فرنسا من غير أن يرى باريس؟».

«بالفعل. جئت أمضي نهاية الأسبوع هنا قبل ذهابي إلى جنيف. لكننا اشتقنا إليك في الكلية. لم أتوقّع رحيلك. سمعت أن نتائج امتحاناتك كانت حسنة».

«أوه، هذا كلّه بفضلك أنت. هل سمعت شيئًا عن الأسرة التي كنت مقيمًا في ضيافتها؟».

«ألم تكتب لك أسرة مولينو؟».

«بالطبع. لكن ذلك كان قبل بعض الوقت».

«آخر ما سمعته هو أن جانيت قد ذهبت لتصير ممرضة. لكني واثق من أنك تعرف أخبارهم أكثر مني».

كان عامل مسرح ذو سترة لها طيتان حمراوان عند الصدر يدعو الناس إلى الدخول لأن وقت بدء الفصل الثاني من المسرحية قد حان: «حسنًا. ينبغي أن نلتقي عندما تُعرّج على باريس مرة أخرى».

تناول مدحت منديلًا بيد مرتعشة، وأخرج قلمًا من جيبه. وكتب على المنديل: «شارع دي فور». كان خط يده غريبًا عليه.

سأله فاروق عندما ارتفعت الستارة وظهر الممثلون على الخشبة فاستقبلهم الجمهور بالتصفيق وببضع صفرات من هنا وهناك: «من هذا؟».

«بلجيكي».

بذل مدحت جهدًا كبيرًا حتى يستطيع التركيز على ما بقي من المسرحية. درس تلك الفترة كلّها في كلية الطب، لكنها هي من ذهبت آخر الأمر للعمل في مستشفى! تخيّل صورًا مسروقة من صحيفة تظهر فيها جانيت وهي تعتني بالجرحى، فلم تعجبه تلك الصور: أحسّ بوخزات الغيرة. شعر أيضًا بشيء من الانزعاج لرؤية كوغولاتي، وأقلقه احتمال ألا يكون قد ظهر أمامه بالصورة التي يريد أن تبلغ بيت مولينو. ليته تذكّر، في غمرة حماسته لجعل زميله القديم يرى مقدار تمدّنه وارتقائه، ما قد تراه جانيت في هذه الصورة إن عرفت بها. مدحت الشرقي، ببدلته الجديدة ومنديله، وقد صار الآن شخصًا آخر تمامًا: صورة الشرقي الباريسي التي تظهر على بعض علب السجائر في متاجر عند زوايا الشوارع. من المؤكد أن كوغولاتي لم ير فيه إلا زميلًا له، وندًا. ولكن ذلك الرجل البريء المجتهد سوف يظلّ دائمًا، في ذهن مدحت، مرتبطًا بتلك اللحظة التي شهدت استيقاظه على اختلافه، في ذلك اليوم الذي أنهى فيه امتحاناته وودّع زميله وعاد إلى البيت ليكتشف الطريقة الأخرى التي كان يخضع بها للاختبار من قبل مضيفه... من غير معرفته. أثارت ذعره لمحة من صورةٍ نفسه التي رآها من خارجها. ثم تغير هذا التغيير كلّه في سنة واحدة فقط، فانتقل من الغريب الذي رغبَ مرة في أن يصير أوروبيًا، من الداخل والخارج معًا، من الشخص الذي كان مظهره الخارجي أصلًا أقرب كثيرًا إلى مظهر أي إيطالي أو يوناني (عندما لا يكشف مسرورًا عن أصله لكل من يسأله) منه إلى مظهر سكان تلك القارّات الناكِصة قليلة الشأن التي ابتعدت كثيرًا عن الحضارة... مثلما تظهر في الكتب المصوّرة وأغاني الأطفال الفرنسيين ومخيّلاتهم. لقد سقط بسهولة كبيرة في التسوية التي تتيحها باريس، في هذا النوع من تقبل الاختلاف الذي رآه أول الأمر في فاروق فأثار إعجابه، لكنه صار الآن يبدو في ذهنه نسخة معوجّة، تمثيلية، مما يكونه وجود المرء في مكانٍ من غير أن يكون موجودًا فيه حقًا، من غير أن يعرفه حقًا. كان الدكتور مولينو يلُوح له عند أطراف هذه الأفكار حاملًا دفتره وتحليلاته وما لديه من مخططات لتطوّر الجمجمة البشرية... يراقبه من الناحية الأخرى لطاولة العشاء.

لقد خُدع الزوج! ففي آخر المطاف، لم تكن الإجاصة سحرية! تصفيق؛ تسدل الستارة؛ وينحني الممثلون تحيةً للجمهور.

في ذلك الصيف نفسه، أثناء تحضيره واستعداده لندوة عن تاريخ الفلسفة الحديثة، عاد ذات ليلة من مقهى كان يقرأ فيه كتابًا لسبينوزا فوجد الشقة أكثر امتلاء من المعتاد:

أصدقاء فاروق، وسحُب من دخان السجائر. رفع فاروق يده مرحِّبًا به. كان قد أتى بكرسي المكتب وجلس عليه. لكنه نهض الآن وقدّم الكرسي لمدحت.

كان الرجال في الغرفة منخرطين في مناقشة حماسية. عرف مدحت أكثرهم؛ وكان من عرفهم جميعًا من العرب السوريين. كانت على الطاولة الصغيرة، وعلى الأرض، صحف ومجلات وفناجين ملأتها أعقاب سجائر، وأطباق فيها بقايا قهوة.

كان واحد من الجالسين على الأريكة يقول: «لا يمكنك أن تمضي من استنتاج إلى استنتاج وتقول بدلًا من نحن *أنا*...». أدار الرجل رأسه فرأى مدحت أنه بسيم جرباوي، صاحب الحنك الطويل. كان الجرباوي من مؤسّسي الرابطة اللبنانية في باريس، تلك الهيئة في المنفى التي تعمل من أجل حشد مساندة سياسية فرنسية للقضية الوطنية اللبنانية.

أسند رجل ذو عينين متقاربتين قليلًا مرفقيه إلى ركبتيه وبدا عليه أنه موشك على الكلام عندما تدخل رجا عبد الرحمن، الذي كان محاسبًا وشاعرًا واعدًا: «صحيح. إنني أتكلم باسم نفسي. أنا لست مسيحيًا، ولا مسلمًا، ولا تركيًا، ولا صينيًا، ولا شيئًا من تلك الأشياء كلها. أنا واحد من البشر».

قال صاحب العينين المتقاربتين بصوت يشوبه انزعاج شديد: «رجا! أنت تسيء فهم...».

«لست أسيء فهم شيء».

«لا، علينا أن نكافح باعتبارنا جماعة، وإلا فإن أمثالك سوف يعانون الكثير».

قال فاروق: «عمر».

أجابه الرجل: «أفعاله نفسها ستجعله يعاني. إن كان يريد أن يظل وحده، فليكن له ذلك».

قال فاروق: «خلّيك شويّ».

«كيف 'خلّيك شويّ'؟ لقد قتلوا أفضل رجالنا. الأمر هنا غير متعلّق بأن تكون فردًا من بني البشر. نحن من الشرق؛ كل من في هذه الغرفة! وقد عانينا بما فيه الكفاية. ينبغي أن ننهض كلنا معًا».

سمع مدحت صوتًا متزنًا دافئًا يقول: «هل نستخدم الوسائل نفسها التي يستخدمها من يظلموننا؟».

لم يعرف مدحت الشخص الذي تكلّم. كان شخصًا طويلًا نحيلًا منسدل الجفنين جالسًا على الأريكة متكئًا وقد وضع ساقًا فوق أخرى.

تابع الرجل يقول: «حقًا... ألن تستعمر أوروبا إن سنحت لك الفرصة؟».

أجابه عمر: «أجل! بالطبع! كل هذا... ألا تريد هذا كلّه؟». أشار إلى الغرفة من حوله كأن تلك الغرفة نفسها، بجدرانها الخضراء وقوائم كراسيها الخشبية ومقاعدها المخملية كانت مدينة باريس نفسها، بعظمتها كلها... «ماذا يا هاني؟ كن واقعيًا. فكّر... أنت تعرف ما أعنيه».

قال الرجل النحيل الذي اتضح أن اسمه هاني: «إنني أفكّر، فهل تفكر أنت؟ حبيبي، لا أظن أن هذا كلام ناس متنورين».

قال فاروق: «هاني مُحقّ. تعرف أن علينا أن نكون أصحاب فكر حديث».

قال عمر: «حديث؟... يا زَلَمِهْ!... قد يبدون لك حديثِين عندما تكون عندهم... في سان جيرمان، أو على متن قطار جميل، أو في السينما... لكن، صدّقني، صدّقني، إنهم قساة كالترك، قساة في إمبراطورياتهم وحروبهم وقانونهم. أنت غير مصغٍ إليّ. اسمعني. كيف تبدو قبَليّة العربي؟ تبدو كأن بلدته هي بلده، وكأن بلده هذا أحسنُ من البلد التالي الذي لا يبعد أكثر من مئة قدم. اتحاد الشرق ليس قبليّة عربية... بالتعريف». ضم إبهامه وسبابته معًا وهزهما كأنهما ممسكين بقطعة ورق مكتوب عليها ذلك التاريخ.

قال بسيم جرباوي: «والله... لا أعرف. ألا ترى؟ لقد قتلونا. هم يقتلوننا. مثل الأرمن».

قال مدحت: «من قتلوا؟».

قال يوسف منصور، المسيحي الماروني من عاليه، صاحب الشارب ذي اللون العاجي: «ألم تقرأ صحف اليوم؟ مدحت... عليك أن تبدأ بقراءة الصحف».

قال هاني: «موجة ثانية من الإعدامات. يعدمون الوطنيين. واحد وعشرون سوريًا شنقوهم في بيروت وفي دمشق».

قال فاروق: «هم من فلسطين أيضًا، حبيبي».

قال جرباوي: «سوف يخسرون الحرب، وعندها نخرج فائزين».

«مَن؟ مَن أعدموا مِن فلسطين؟».

قال فاروق وهو يمد يده ليتناول واحدة من الصحف: «واحد من آل الشهابي، وواحد من آل النشاشيبي، علي النشاشيبي، هل تعرفه؟ سليم الجزائري... والله. لقد اقتلعوا عيوننا».

ناول مدحت الصحيفة مشيرًا إلى المقالة المعنية.

قال عمر ملتفتًا إلى بسيم جرباوي: «عن جد؟ هل تظن حقًا أننا سنستقل بتلك السهولة؟».

قال بسام ملوحًا بيده: «أنا... واثق تمامًا».

قال فاروق: «عبد الحميد الزهراوي. كان رئيس المؤتمر هنا قبل ثلاث سنوات. إنهم أشخاص مهمّون يا مدحت. من حظنا أننا هنا... حقًّا».

قال رجا عبد الرحمن: «بالضبط. سيقتلوننا إذا عدنا... مثلما قتلوا الأرمن، ومثلما قتلوا الزهراوي. أو سيستعبدوننا ويحولوننا إلى أتراك».

أعاد مدحت الصحيفة إلى فاروق وسأله: «إذًا، كيف أمسكوا بهم؟».

«أوراق في القنصلية الفرنسية في بيروت. حبيبي، ناولني طبق السجائر».

قال بسيم جرباوي: «كنا نتآمر مع الفرنسيين، يا عمّو!».

قال رجل بدين جالس على وسادة عند الموقد: «لن أعود قبل أن تنتهي الحرب».

أجابه عمر: «هذا لأنك دجاجة».

قال بسيم: «إنهم يغلقون الصحف! أتريد حقًا أن تعود إلى هناك، وأن تصير تركيًا. عمر، انظر إلى...». أمسك بالصحيفة الراقدة إلى جانبه على الأريكة... «انظر إلى هذا، موت، موت، موت. لا تحالفات، لا شيء».

قال هاني الذي لا يزال متكئًا على الأريكة: «أظن أن بعثات البلاد المسيحية، في الواقع... يعني، هي التي ستكون أكبر عقبة في وجهنا. صحيح أنهم يريد إضعاف الأتراك في هذه اللحظة، وأما بعد ذلك... أعني... إنهم مستعمرون. ونحن نعرف ما يفعله المستعمرون. إنهم جائعون. والمثقفون في هذه البلاد -على الأقل- يرون في الصهيونية مشروعًا لجعل العالم العربي شيئًا أوروبيًا».

قال عمر عابسًا: «لست أدري إن كانت الصهيونية هي المشكلة في حقيقة الأمر».

قال هاني بقوة جعلته ينتصب في جلسته: «كيف يمكنك قول هذا؟». انتبه مدحت إلى الوشاح الأصفر الذي انزلق من تحت طية سترته.

قال عمر: «قضيتنا هي الاستقلال».

«ماذا؟ الأمران مرتبطان ارتباطًا تامًا».

رفع رجا عبد الرحمن يده: «عليّ القول إنكم تنسون حقيقة كون الأوروبيون لا يريدون وجود اليهود هنا. ألم تسمعوا بقصة درايفوس؟ يهود، مسلمون، كلنا سواء في نظرهم. هم لا يثقون بنا. لا يريدون شيئًا غير وضعنا هناك. المسألة ليست مسألة استعمار. بل هي مسألة إبعاد».

نهض يوسف منصور واقفًا: «أيريد أحدكم كأس كونياك».

قال رجا: «من فضلك».

«انتبهوا إليّ. مَن غيره؟».

قال رجا: «إذًا، ماذا كنت أقول؟ نعم، إذًا... اليهود في أوروبا...».

«هل هذه الكأس متّسخة؟ سامحوني، لقد بدأ العمى يصيبني».
«ششش، دعه ينهي كلامه».
«آسف».
«وأما من ناحية أخرى، فقد كان لدينا يهود دائمًا. على الدوام، كان في سورية يهود. إنهم يهود سوريون».
قال هاني: «رجا، حبيبي، اصغ إليَّ... إن لديهم أختامهم، منذ الآن...». (قال يوسف لبسيم: «أختام؟ يا الله! ليس لدينا أختام خاصّة بنا»)... «إذًا، هذه هي المشكلة في حقيقة الأمر».
قال عمر: «على الرغم من هذا، لا تزال فرنسا مصدر الخطر الأكبر في هذه اللحظة».
قال بسيم: «أنتم تتكلّمون على الاستقلال وكأن فرنسا وبريطانيا ربحتا الحرب. لا يزال الأتراك يقاتلون. وقد تكون هناك هدنة أو شيء من هذا القبيل. لا نعرف ما سيحدث».
قال مدحت متدخلًا في الحديث للمرة الأولى: «لكن، إذا نظرتم إلى الأخبار؛ ومع دخول الأميركيين الحرب الآن، أظن أن المسألة صارت مسألة وقت، لا أكثر».
«مدحت، تعال واجلس هنا. تبدو غير مرتاح».
«أنا في أحسن حال. كل ما في الأمر أن الكرسي مكسور بعض الشيء».
قال يوسف: «فاروق، بيتك يتهاوى».
«هذا لأن لدي خمسة عشر عربيًا يجلسون على هذا الأثاث كل يوم».
«ماذا تقول؟ نحن نحيلون كأعواد القصب».
قال رجا: «بمناسبة هذا الكلام، هل لديك طعام هنا؟ لقد أحضرت بعض الجزر».
قال بسيم: «كنا نجلب معنا الشوكولاته عندما نذهب إلى الحفلات. والآن، صرنا نجلب جزرًا وبطاطس وخبزًا».
قال فاروق: «هل أحضرت خبزًا؟».
«لا، آسف. لكني كنت أقول...».
نزل فاروق عن طاولة المكتب التي كان جالسًا عليها: «حسنًا، ليس لدينا خبز. لكن لدينا بعض البسكويت. إنه في الخزانة. ينبغي أن يكون كافيًا لنا. ولديَّ حساء يغلي على النار».
قال مدحت: «الحقيقة أنني اشتريت خبزًا في طريق عودتي إلى البيت».
«حبيبي... هذا رائع!».
قال يوسف: «مدحت، يا لك من مسيح! أوه... خبز حار؛ يا الله!».

قال رجا عبد الرحمن وهو يأخذ الجزر الذي جلبه إلى المطبخ: «لكن ما أقوله هو أن اليهود مزارعون ناجحون. تعرفون، من الممكن أن يكونوا دعمًا للاقتصاد المحلّي».

قال هاني: «تقول هذا يا رجا، لأنك من دمشق. أنت لست فلسطينيًا».

قال يوسف: «كلنا سوريون. لا نريد سماع 'فلسطيني، مِشْ فلسطيني' نحن موحَّدون؛ وسنكون بلدًا واحدًا».

قال عمر: «كفانا! لقد متُّ جوعًا. لم أعد قادرًا على التفكير».

قال يوسف لفاروق: «أرأيت؟ كيف نستطيع تكسير كراسيك؟ انظر إلى بطن عمر، ليست لديه بطن أصلًا».

صار مدحت أكثر انطلاقًا في تلك المناقشات المسائية مع ازدياد ثقته بنفسه. تذكّر ما قالته له جانيت ذات مرة من أنها بدأت تتكلّم في الجامعة من غير خشية من ارتكاب الأغلاط. صار يشعر كأن قدرته على المجادلة بدأت تتطوّر مثلما تنمو عضلة من العضلات... وكأن ذلك كان عضلة جعلها صاحبها تجتاز تمرينات مجهدة في تاريخ الحروب الثورية وجان دارك، مثلما تمرّنت خلال جلسات القهوة والسجائر... كانت مناقشاته غير منفصلة انفصالًا تامًا عن الحقيقة، لكنها بدت له مختبئة عنها؛ كأن الكلمات كانت قادرة على الالتفاف من حول الحقيقة، أو على المرور عبرها، من غير أن تتبيَّنها حلقة فحلقة. ثم إن سيولة تلك المناقشات، والوقائع السياسية المتغيّرة كانت تعني أن ما من حاجة إلى أن يتمسّك المرء بواجب التأكيد على أية فكرة من أفكاره، فكان الجميع أحرارًا في التنقل بين المواقف المختلفة بما يخدم الكلام الجاري في اللحظة المعنية. ثم جاء النصر في الحجاز، وسقطت الدولة العثمانية أخيرًا. جاء الأمير فيصل إلى باريس لحضور مؤتمر السلام. وما كان تخميناتٍ وتوقّعات وثرثرةً خالصة في تلك الشقة المرتفعة على مقربة من الجادة، صار الآن مسألة وجود أمة جديدة أو عدم وجودها، وصارت هذه المسألة ماثلة أمام الجميع. باتت سنوات الهناء، سنوات المنفى والانتظار، موشكة على الوصول إلى نهايتها.

مرت ثلاث سنين منذ أن ترك مدحت مونبلييه قاصدًا باريس. لقد صارت حياته متعدّدة الجوانب خلال ذلك الوقت. ففي لحظة من اللحظات، يكون طالبَ تاريخ يذهب إلى المقاهي والبارات بعد الدروس فيلتقي معارفه. وفي لحظة أخرى، يكون رفيق النساء صاحب السلوك اللطيف والضحكة الهيّنة. ثم يصير العاشق الغامض. ثم يكون مُناقِشًا. ثم يكون عربيًا. كانت هذه الانقسامات مُلزِمة على الرغم من أنها غير قاطعة تمامًا؛ فعلى الرغم من كل ما احتوته موضوعاته الجامعية وأحاديثه مع أصدقائه السوريين من كلام عن الأصول وعن الحقيقة، كان مدحت يتعلّم كيف يُرائِي ويعبُر من بين تلك الدوائر،

ويتلاءم معها أخلاقيًا... مراعاةٌ نابعة من فهمه حقيقة وجوده المؤقت في كل منها. لكنه وجد، مع استيلاء الجزع والقنوط على أصدقائه، أن دور العربي المجادِل، ذلك الدور الأقل إثارة لاهتمامه من بين الأدوار كلها، صار الدور الذي يؤدّيه أكثر فأكثر. لقد أحب هذه البلاد، وأحب مسالكها العقلانية وعلومها التي ترخي حجابًا على ما لا سبيل إلى معرفته. أحب أبيات الشعر عن الشرق، تلك الأبيات التي كان فاروق يقرأها في أماسي أيام الأحد، على الرغم من أنها تضعه، مع أسلافه، ضمن صور لا تعجبه. كان واقفًا على شرفة فاروق، ينظر إلى الأسفل، إلى السيارات في الشارع كأنها سيارات لنقل الموتى، فأحس كأن إطارًا قد تكسَّر، استدار صوب الشقّة فاهتز المشهد عبر الزجاج المغشّى ذي المربعات، وبدت الغرفة كأنها انتقلت من مكانها، ورأى وجوه رفاقه غير مألوفة له. كان فاروق مرتديًا معطفًا صغيرًا من المخمل، وكانت على ذيل قميصه بقعة مغسولة لكنها باقية كأنها وَحْمةٌ ولادة بنية باهتة.

مع انتهاء الحرب، صارت اللقاءات في شقة فاروق أقل تواترًا. وعندما يلتقي الأصدقاء، تكون نبرة أحاديثهم أكثر تعقلًا وتحفّظًا. كان يوسف منصور مشدودًا إلى أنباء المجاعة في بيروت. وصار حنق عمر على الحلف الثلاثي غير واضح المعالم. صار مدحت أكثر قربًا إلى النابلسي الآخر في المجموعة، هاني مراد. كان هاني الشخص الوحيد بينهم الذي له بالسياسة صلة مباشرة؛ لكن أفكاره لم تكن قادرة على بث كبير أمل في نفس أي منهم.

كان هاني مراد متعاطفًا مع الألمان عندما يتّصل الأمر بالمفاضلة بين بونابرت وبسمارك. وكان واضحًا له أن توحيدَ بلدٍ هو الهدف الأعلى للبشر. فبعد كل حساب، كان أهل الألزاس يتكلّمون الألمانية!

على الرغم من حماسته لأفكاره، فقد تعلم هاني ألا يعبّر عنها كلها تعبيرًا علنيًا. ففي المرة الوحيدة التي قارب فيها مسألة بونابرت وبسمارك في حديثه مع زميل له في صحيفة لوماتان حيث كان يعمل مترجمًا، رفع الرجل رأسه ونظر إليه عبر البخار المتصاعد من الغلاية كأنه نطق كفرًا؛ ثم لم يقل الرجل شيئًا إلى أن خرجا إلى الشارع وقت العصر، ففتح الموضوع برفق موضحًا له كمَنْ يوضح لطفل أن اللغة ليست مصدر الانتماء القومي، وأن هناك أشياء أخرى تحدّد أصل الشخص وطبيعته. لم يكن هاني متّفقًا مع هذا الرأي على الإطلاق، لكنه أدرك أن عليه أن يمسك لسانه.

وفي كانون الأول من سنة 1918، كان هاني جالسًا إلى الآلة الكاتبة في غرفته في بنسيون في الحي اللاتيني، وكانت النار مضطرمة في الموقد وورق الحائط يتقشر لشدة الرطوبة. طيلة السنة الماضية، بينما كان هاني يتنقل جيئة وذهابًا بين أعماله الصحافية

والمدرسة الداخلية التي يأخذ أطفالها في زيارات إلى القلاع ويلقي عليهم دروسًا مبتكرة في التاريخ الفرنسي، كان يمضي أمسياته ممسكًا بيده قلمًا. لقد كان يترجم كتابًا من التركية إلى الفرنسية، فتراكمت على طاولته كومة من الأوراق المكتوبة بخط اليد. ومنذ بضعة أسابيع، وردت إلى البنسيون سلسلة رسائل عاجلة من مسيو بايّو الذي وافق على نشر الكتاب شريطة أن يقدّمه هاني مطبوعًا على الآلة الكاتبة بأقصى سرعة ممكنة، ضمن الحدود البشرية المعقولة. قال له مسيو بايّو إن فرنسا صارت تنظر إلى العثمانيين نظرة فضول، وإن الوقت مناسب «للحفر ورؤية الذهب يلمع بين الحجارة».

كان عنوان الكتاب «مصير تركيا التاريخي». وكان مؤلفه الأصلي رجلًا تركيًا اسمه أحمد راسم كتب الأجزاء الأربعة لهذا العمل منذ نحو عشر سنين. لكن هزيمة الدولة العثمانية أضفت الآن لونًا مختلفًا على الأمر كلّه. وخلال الشهر الذي أعقب الهدنة، منح هاني نفسه قدرًا من الحرية في التصرّف بالكتاب، فأدخل، في بعض المواضيع، تعديلات لامعة على ضوء ما جرى، واكتفى في مواضع أخرى بالعجب من أن فقرات بعينها قد حملت ظلالًا لما سيأتي.

توقّف عند واحدة من ملاحظاته كانت تقيم تضادًا بين خطط بسمارك لتوحيد ألمانيا والوحشية التي أبداها رجال «تركيا الفتاة» وسياسة «التتريك» التي اتبعوها. أكانت هذه الملاحظة علامة أخرى على غرور هذا الدارس الهاوي للتاريخ؟ الشك إشارة كافية: إذا شك المرء، فعليه أن يعدِلَ عن الأمر. انتزع الصفحة من الآلة الكاتبة بإحدى يديه، ووضع مكانها صفحة جديدة باليد الأخرى، ثم ضغط على ذراع الآلة وكان موشكًا على بدء إعادة طباعة الفقرة الأولى عندما سمع نقرًا على الباب.

«مسيو هاني بك!».

كان اثنان من زملاء دراسته القدامى واقفَين عند الباب، مبتسمَين، وفي يد كل منهما قبعته. إنهما قدري محمد ورياض عسالي. كبرا وصارا رجلين أصلعين يرتديان بدلتين صوفيتين متماثلتين وعلى رقبة كل منهما وشاح ملون.

«يا إلهي! ماذا تفعلان هنا؟ يا سلام... لقد فوجئت! قبّلاني، قبّلاني... لقد أخفتماني...».

عانقه قدري ورياض ضاحكَين. ابتسم قدري من تحت شاربه الكثيف، وخفض رياض رأسه في اتجاهه. كان أطول الاثنين قامةً.

«هاني العزيز... لقد عدنا لرؤيتك».

«ادخلا، من فضلكما... ادخلا، تفضّلا».

قال قدري: «لا، يا هاني. لا نستطيع الدخول».

قال رياض: «عندنا أخبار مهمة... الأمير فيصل هنا، في باريس، من أجل مؤتمر السلام. إنه يقيم في فندق كونتيننتال، في ضيافة الحكومة الفرنسية».

اتسعت عينا قدري، وقال: «هاني، نريد أن تأتي معنا لكي تراه. الليلة. سُموُّه في حاجة إلى رجل آخر لقيادة الوفد العربي؛ وليس لدينا وقت طويل. نظنّ، يا هاني، أنك الشخص المناسب لهذه المهمة، ما رأيك؟».

«لست أدري ما أقوله لكما. ألا تستطيعان الدخول لحظة حتى نتكلّم؟ لم أركما منذ سنين. لدي شاي، وخبز».

تنهد رياض: «الحقيقة، يعني، إننا في ضيق من وقتنا. لم يخبرونا إلا في الأسبوع الماضي بأن فيصل مُرحّب به في المؤتمر. لذلك، المسألة مسألة آخر لحظة... لدينا نحن الاثنان، ونوري السعيد الذي قاتل في الثورة، وذلك الإنكليزي، لورنس. الآخرون كلهم هنا، ونحن غير مستعدّين. علينا أن نعمل سريعًا».

«هاني... عليك فقط أن تأتي معنا الآن، سنتكلّم في الطريق».

قبل أن يعرف ما يحدث، أزاح هاني قطع الحطب حتى تخمد نارها، وأغلق باب الموقد، والتقط قبعته، وأطبق الباب من خلفه، وألقى معطفه على كتفيه.

ارتعش قلب هاني عندما رأى السيارة في الخارج. طلاؤها الأسود لامع بلون فضي في أضواء الشارع. وقف الثلاثة على الرصيف ينظرون إلى السيارة وأنفاسهم ترسم أكاليل بيضاء في البرد، ثم ربَّت رياض على كتف هاني وفتح باب السيارة الخلفي. كانت خطوط الصّقيع مرتسمة على زجاج النوافذ. وكان السائق يرتدي معطفين اثنين.

استدار قدري الجالس في المقعد الأمامي، وقال: «الأمير هو ابن الشريف حسين. لقد قاد والده الثورة العربية ضد الأتراك. إنه رجل شديد الشجاعة».

قال رياض: «وابنه شجاع أيضًا. إنه في انتظار لقائك».

كانت باريس تمر بهم سريعًا. أعلام النصر منشورة على حبال معلّقة على مصابيح الشوارع. كانت أعصاب هاني متّقدة. تلك السنوات كلها، سنوات البحث عن عمل في باريس، ووظائف مؤقتة كان لا بد له من إخفاء مؤهلاته حتى يستطيع الحصول عليها، وتوجيه طاقته إلى عمل الترجمة الليلي الذي كان سبيلًا شديد البطء إلى العمل من أجل بلده، وكان سبيلًا مواربًا أيضًا... مُسكّنًا ضعيفًا لإحساسه بالذنب نتيجة بقائه بعيدًا، في المنفى، بينما كان جمال باشا يشنق أعمامه. الآن، صار كل شيء في موضعه الصحيح. لم تكن شهادة القانون عبثًا. لا أهمية لحقيقة أنه لم يسمع بالأمير فيصل قبل هذه اللحظة... فالمهم هو أنه استدعي إلى العمل. كان فندق كونتيننتال قصرًا من أنوار، ومقاعد وسجادات فاخرة، وخدم في بدلات أنيقة يدفعون طاولات فضية على

عجلات. لاقاهم في الردهة رجل حليق الذقن شعره داكن متموّج، مزيّت وله فرق جانبي. كان ذلك الرجل يرتدي بدلة عسكرية كاكية اللون.

قال قدري: «هذا هو نوري السعيد».

ابتسم نوري لهاني: «تشرّفنا». تقدّمهم في الممر.

كان جناح الأمير مرتفع السقف كأنه كنيسة؛ وكانت له نوافذ واسعة مطلّة على الشارع تضيئها ثريات كهربائية تنعكس أنوارها على زجاجها. نهض لتحيتهم رجل كان جالسًا على مقعد مذهَّب عند الموقد. إنه سمو الأمير فيصل. كان يرتدي ثوبًا أزرق سماويًا يشبه أثواب القساوسة.

كان فيصل بدويًا قصير القامة. لعينيه لون داكن، نديّ؛ ومن حول وجهه المتطاول كوفية بيضاء ثقيلة من حرير مطرّز. أنفه الثقيل معوج اعوجاجًا أنيقًا، وجواهر لامعة على مقبض خنجره لمعت بين طيّات عباءته عندما مال لكي يصافح يد هاني. كانت كفه شديدة النعومة. ومن خلف الأمير، اتخذ قدري ورياض مكانَيْهما إلى جانب نوري، فلاحظ هاني أنهما قد نزعا وشاحَيْهما ووضعا على رأسيهما كوفيتين بيضاويتين وعقالين مذهَّبَيْن.

أشار فيصل إلى هاني بالجلوس. ظل رياض وقدري ونوري واقفين. غمغم هاني بتحيّة موحية بالاحترام. ثم حلّت لحظة صمت تكلم فيصل بعدها.

«ما هو الرأي العام لدى العرب في فرنسا؟».

خرج صوته من فمه كأنه تمتمة الأرض.

«سموّك... أظن... انطباعي هو أن المواطنين في فرنسا لا يقرأون إلا الصحف الفرنسية التي تضللهم فيما يخص السوريين؛ بل فيما يخص العرب عامة. لذا، فحتى طلبة الجامعة هنا يظنّون العرب عرقًا من البشر يعيش مثلما كان الناس يعيشون في القرون الوسطى... بل حتى ما قبل القرون الوسطى».

لم يقل فيصل شيئًا. كانت يداه مضمومتين في حضنه. حاول هاني مجددًا: «أظن أن فرنسا اليوم تحلم بإلحاق سورية، بل حتى بالتحكم في مصيرها، تمامًا مثلما فعلوا في الجزائر والمغرب وتونس».

رفع فيصل إحدى يديه عن الأخرى، بضعة إنشات. قال: «هل تظن أننا قادرون على تغيير موقف فرنسا إذا حاربنا من أجل الاستقلال؟».

تردّد هاني. لم يبدُ هذا له سؤالًا.

«أخشى، سموّك، أنهم لن يتخلّوا بسهولة عن سياستهم الاستعمارية. لقد كان هذا عماد سلوكهم في الخارج على امتداد عشرات السنين».

الآن، لا ينبغي لهاني أن يترك نفسه يذهب بعيدًا في تحليلاته. كثيرًا ما كان يتأمّل في واقع أن السياسة الخارجية الفرنسية تتحدّد بحقيقة أن فرنسا فقيرة بالقوة البشرية، في حين أن جارتها ألمانيا تتمتّع بالقوة من هذه الناحية. والسبب في ذلك هو أن العائلة العادية في فرنسا لا تنجب أطفالًا كثيرين. وسبب عدم إنجاب الأطفال هو أن الفرنسيين يعاملون نساءهم بتهاون غير صائب من الناحية العملية. تتمتّع النساء الفرنسيات بحرية أكبر كثيرًا مما ينبغي. يرى المرء النساء الفرنسيات في المسرح دائمًا بدلًا من أن يمضين أماسيهن في البيت استعدادًا للإنجاب. لقد كان هذا السلوك لدى النساء الفرنسيات مشكلة منهجية نتج عنها طموح الأمة الفرنسية إلى تبني مزيد من الأطفال لأن النساء هنا لا تلدن؛ وهذا ما يأملون في تحقيقه من خلال سياسة الإلحاق. ولهذا السبب اندلعت الحرب مع ألمانيا.

انفرجت شفتا هاني مستعدّتين للكلام. ظل الأمير منتظرًا. لكن هاني أدرك من جديد أن تردده كان إشارة من ذلك الحاكم الجبار الذي هو الشك. إذا شك المرء في أمر فعليه أن يعدِلَ عنه. لعله لا يجدر بهذه النظريات أن تجد تعبيرًا عنها في لقائه الأول مع الأمير فيصل، أمير الحجاز، ابن الشريف حسين، شريف مكة.

كانت أجفان الأمير مثقلة، منتفخة لشدة إرهاقه. لكنه كان قادرًا، حتى في حالته هذه، على الحكم بأن الشخص الواقف أمامه رجل متعقّل شريف. أعجبه مظهر هاني الأرستقراطي، وأطرافه النحيلة، وأعجبته وقفاته في أواسط جمله فقد رآها ناطقة بالحصافة وضبط النفس. لذلك، كان موافقًا... سوف يكلفون هذا الرجل، هاني مراد، بتولّي مكتب باريس لشؤون الوفد العربي. بعينين مغمضتين، أومأ فيصل إلى رياض. ثم إن الزمن أدركهم فلم يعد لديهم وقت... لا خيار أمامهم.

في أيلول، سنة 1919، كان هاني مراد جالسًا، في المكتب نفسه، خلف الآلة الكاتبة نفسها، لكن المنظر الذي أمامه لم يعد ورق الجدران المتقشّر في غرفة البنسيون القديمة، بل المشاة في شارع سبونتيني يسيرون متمهّلين بملابس الصيف. طبق من الشطائر عند مرفقه، وتحت يده رسالة أتته من فيصل في دمشق.

كان هاني قد وضع بقلم الرصاص خطًا تحت إحدى العبارات: «اسألوني عن الوضع السياسي في سورية لأقول لكم إن حجارة سورية تطالب باستقلال البلاد». وكانت المهمّة نقل هذه العبارة إلى لغة فرنسية دبلوماسية قوية لإدراجها في الرسالة التي يطبعها لكي يرسلها إلى كليمنصو باسم فيصل.

لقد كان مسار مؤتمر السلام صعبًا. فمنذ البداية، كان اهتمام الفرنسيون بتسلية فيصل أكبر من اهتمامهم بالتفاوض معه. لقاء مع الرئيس استمر عشرين دقيقة من

غير كلمة واحدة في السياسة، بل ابتسامات وتهذيب وجلوس ووقوف ومصافحة، وإعجاب بثوب الأمير... ما اسم هذا الثوب؟ غداء مع وزير الخارجية، وأطباق من شرائح الأناناس المجلوبة خصيصًا من الكاريبي، أفلا يحب سموه أن يتذوّقها؟ ثلاث مصافحات، وعزف قدّمه الرباعي الوتري، ثم لم يعقب ذلك أي كلام. حفلة شاي في حديقة الشانزيليزيه في يوم سماؤه زرقاء صافية، وأجساد مكشوفة لراقصات يلوّحن بسيقانهن على أنغام البيانو... حفلة على شرفكم، سموّك. على شرف فيصل! ما كان أحد منهم مباليًا بأمر العرب... ما كان أحد منهم مباليًا أبدًا.

في آخر الأمر، تمكّن هاني من إقناع فيصل بزيارة خيّاط فرنسي. بدأت الأمور تتحسّن بعد أن تخلّى الأمير عن العباءة وارتدى بنطلونًا وسترة. لكن مهمة هاني كانت ثقيلة إلى أقصى حدود الثقل، فقد كان عليه أن يقيم قدرًا من التوازن بين شخصية سمو الأمير من ناحية، وألاعيب الفرنسيين من ناحية أخرى. مرت ثمانية شهور، فصارت جذور شعره رمادية.

سمع نقرًا على الباب. ثم سمع الصوت قبل أن يلتفت في مقعده.

«حبيبي، كيفك؟».

دخل مدحت كمال بخطى واسعة. كان يرتدي بدلة مخطّطة وقد سرّح شعره المزيت بفرق جانبي وقص شاربه قصيرًا. تدلّت من جيب سترته وردة حمراء محصورة بين طيات منديل أخضر.

«مدحت بك، حبيبي. ادخل واجلس».

«هل تعمل؟».

«إنني أعمل؛ لكنّي في حاجة إلى استراحة. خذ سندويتشًا. اجلس، يا مدحت».

«لا بأس. لا أستطيع الجلوس. علي أن أتحدّث معك. هاني، أعرف أنك شديد الانشغال، لكن عليَّ أن أتحدّث معك. يؤسفني اضطراري إلى مقاطعتك».

«لا بأس في هذا. ما المشكلة؟».

على الدوام، لم يكن مدحت كمال بعيدًا عن حالة الاستعجال والإثارة. فمنذ أن عرفه هاني، كان مدحت دائمًا يضحك سائرًا في أحد الشوارع وقد شبك ذراعه بذراع امرأة، أو يجلس صامتًا مفكّرًا في إحدى النساء، أو يكون منشغل الذهن بالمرأة التي بعدها، والتي بعدها، أو مُسقطًا آخر امرأة من حسابه وقد تعرّق حاجباه كأنه يبحث عن شيء لا يزال عاجزًا عن العثور عليه... كان يُقلّب نساء باريس مدفوعًا بحمم ملتهبة من الحزن، حمم يمكن أن تلتهب فجأة، من غير إنذار، في صالة، أو على فنجان شاي.

«إنني راحل. انتهت امتحاناتي؛ وبدأت السفن تعمل من جديد. لقد نفدت نقودي.

صار علي الآن أن أحقّق ما يتوقعه أبي مني. ينبغي أن أعود إلى نابلس. لا بد لي من القيام بواجبي».

«يبدو هذا أمرًا جيّدًا جدًا يا مدحت. هذا ما علينا كلنا فعله، آخر الأمر».

«أوه، لكن، يا هاني... أنا... لا أستطيع. لا أستطيع الذهاب هكذا».

«حبيبي مدحت، اجلس».

«لا أعرف ما أفعله».

«أهي جانيت؟».

«صحيح، جانيت».

ضحك هاني. قال له: «لا تزال جانيت تشغل بالك بعد تلك النساء كلّهن. حقًّا، أنت أشبه بشخصية في قصيدة».

كلما ضحك مدحت يرتفع حاجباه إلى الأعلى كأن الضحك والدهشة رفيقان دائمان. كان لديه أيضًا عادة غريبة لاحظها هاني: يتقلّب تعبير وجهه بين الضحك والحزن، بين خلو البال والكآبة؛ وهذا ما جعل من الصعب أحيانًا أن يلتقط المرء حقيقة مزاجه.

ارتفع حاجباه وقال: «هل أكتب لها؟ ما الذي ينبغي أن أفعله، في رأيك؟ أعرف أن زمنًا طويلًا قد مضى. هي ليست إلا امرأة، لكنها باقية معي. إنني أنسى الأمر فترات طويلة، يغيب عن ذهني أسابيع كاملة، ويصير شيئًا راقدًا في الخلف لا ألاحظه. ثم أبدأ سماعه من جديد».

كان واضحًا أن هذا الكلام قد أرهق مدحت. جلس أخيرًا على الكرسي الذي قدمه له هاني. صار يعبث بربطة عنقه التي بدأ يمررها بين أصبعيه. راح يضحك، ثم انقلبت ضحكته تجهمًا.

«ها... أعرف. لست مضطرًا إلى قول هذا... صحيح، لقد كانت غلطتي. حاولت فعل ما رأيته صحيحًا. لم تكن أسرة مولينو صادقة معي. ينبغي أن أفخر بكيفية تصرّفي. لم أكن أريد أن أصير كثير الـ... لا أريد إلا معرفة إن كنت ترى أن عليَّ أن أكتب إليها...».

مال إلى الأمام ونظر في وجه هاني... «هاني، أنت رجل يتّخذ قرارات صحيحة. لا أريد الكتابة إليها متوقّعًا أنها سترد على رسالتي. لكن، إذا ردت، فقد يتضح الأمر، على الأقل. لكن لا، فالمسألة هي أنني راغب في الكتابة إليها. صرت الآن قادرًا على كتابة ما لم أستطع قوله في ما مضى. هل فهمت؟ لدي أشياء كثيرة أقولها لها... أشياء لم أقلها».

تريّث هاني في الإجابة إلى أن صار واثقًا من أن مدحت قد فرغ من كلامه.

لقد صارت شخصية جانيت مولينو شهيرة في أوساط السوريين في حي سان جيرمان. سمع بها هاني أول مرة من صديقه الدمشقي فاروق العظمة الذي كان مدحت يقيم عنده في شقته. قال له فاروق إن هذا النابلسي الشاب كان يعيش عذابًا. قال إنه يجد نفسه مضطرًّا إلى أن يكون فيلسوفه وصديقه في آن معًا لأنه يتعلّق بكل كلمة يسمعها منه كأن واحدة من تلك الكلمات سوف تنقذه مما هو فيه.

قال هاني بصوت متّزن وهو يتناول واحدة من الشطائر التي في الطبق: «مدحت، أرى أن عليك أن تكتب الرسالة... حتى إذا لم ترسلها إليها».

«عليّ أن أرسلها».

«لا بأس إذًا. لكن المهم هو أن إخراجك تلك الكلمات من داخلك سيكون مفيدًا لك. هذا ما يحدث لي دائمًا عندما أكتب». قضم لقمة من شطيرته.

«لقد كتبتها بالفعل».

«أوه، جيد».

«هل أستطيع قراءتها لك؟ وسوف تقول لي رأيك في إرسالها».

«تفضل، اقرأها».

*3 أيلول 1919*

*عزيزتي جانيت،*

*أكتب إليك من باريس، لكني راحل عنها. إنني عائد إلى فلسطين بعد أربع سنين قضيتها هنا. يؤسفني أنني لم أكتب إليك قبل الآن. ليتني كتبت! يتراكم عندي أسف فوق أسف! أترين كيف كنت آمل أن أستطيع نسيانك؟ ففي ذهني، كنتِ، زمنًا طويلًا جدًا، مرتبطة بالألم، وكان تفكيري فيكِ يجعلني دائمًا أحسّ بكل شيء آخر، أحسّه من جديد. كنت آمل أن تكون ذكرياتي عن حياتي قبل قدومي إلى فرنسا هي الذكريات الباقية في نفسي، وأن تغيب ذكراك عنها فأبقى مثلما كنت قبلها. لكني أخشى أن ما عشته معك قد صار، على العكس مما أملته، جزءًا من أول ما ارتسم في ذهني، وصار له أثر ثقيل الوطأة على كل ما يأتي بعده. لقد ضعفتْ لسعة الذكرى مع مرور الزمن؛ ضعفت قليلًا. لكن ذكرياتي عنك لم تضعف أبدًا.*

*لديّ الكثير مما أعتذر عنه. آسف لأنني لم أخبرك بوجهتي. آسف لأن رحيلي كان مفاجئًا. التقيت، منذ ثلاث سنين، مسيو ساموييل كوغولاتي الذي كان معي في كلية الطب، فقال لي إنك صرت ممرضة. أظنك عدت إلى مونبلييه. أمر مضحك أن أكون أنا من درس الطب، لكنك أنت صرت تمارسين هذا*

العمل. آمل ألا تكوني قد رأيتِ الكثير من الأشياء الفظيعة. يشعرني بالعار تفكيري في أنك، على الأرجح، رأيتِ أشياء فظيعة.

جانيت... لقد بقيت في عقلي أربع سنين. وأنت باقية دائمًا، دائمًا، هنا، في هذا العقل. ليس هذا لأن الألم باقٍ: أنت هي الباقية. أسمع صوتك كل يوم. أراك على الشرفة، إلى جانبي. أرى شعرك... أرى أشكاله المختلفة كلّها على اختلاف الأيام. أتذكر رائحتك. أتذكر فستانك الأصفر. أتذكر أنفاسك عندما كنت تقبلينني. أتذكّر غضبك عندما تبتعدين عني.

آمل أن تكوني قد فهمتِ كم آلمني اكتشاف ما كتبه والدك. كان أملي أن أتزوجك؛ لكني كنت خجولًا فلم أستطع قول ذلك. هذا ما أنا آسف عليه أيضًا. لكني أظلّ ملتزمًا بما قلته. لقد صرتُ نفسي هنا، في هذه البلاد. ولهذا السبب، صرت غير قادر على التظاهر بأي شيء. انتمائي هنا بقدر ما هو في فلسطين.

آمل أن تعرفي أن نيتي كانت حسنة دائمًا. كان كل ما فعلته نابعًا عن حبي لك. أتمنى لك حياة طيبة. لن أنساك أبدًا.

المخلص

مدحت.

قال هاني: «حسنًا. لست كاتبًا سيئًا، يا مدحت. لقد تأثّرتُ. خذ، هذا مغلّف، وها هي الطوابع في الدُّرج».

## - 3 -

في شهر تشرين الأول 1919، كانت الاحتجاجات المصرية في تزايد مستمر. رفضت بريطانيا مطلب مصر بالاستقلال في مؤتمر السلام. وعندما تم نفي قادة المقاومة إلى مالطة، نزلت النساء إلى شوارع القاهرة احتجاجًا على ذلك. لكن الإضراب العام انتهى آخر الأمر. استؤنفت التجارة بين مصر وبلاد الشام وعادت إلى مستوياتها الطبيعية. نتيجة ذلك، سافر الحاج طاهر كمال، والد مدحت، إلى دمشق لشراء مزيد من المنسوجات الحريرية. قرر أن يتوقّف في نابلس في طريق عودته.

كان حر الخريف يتفصّد عرَقًا من وجوه السائرين تحت شمس الظهيرة. مضى الحاج طاهر إلى الخان. ألقى التحية على وكيله هشام عبر قطع المنسوجات الخشنة المعلّقة أمام متجر الكمال. تناول فنجان قهوة ثقيلة مع الهال والسكر، وتجاذب أطراف الحديث مع عدد من الزبائن القدامى المارّين بالمكان. كانوا يشكرون الله لأن الحرب انتهت؛ ويتذمّرون من تصرفات الجنود البريطانيين؛ ويعبّرون عن سرورهم بتوفّر ما يكفي من البذار والمواشي، وعن سعادتهم بعودة التجارة إلى أحوالها المعتادة.

كان الحاج طاهر كمال تاجرًا لأن والده كان تاجرًا من قبله، ولأن والد والده كان تاجرًا أيضًا. كان التجار المادة الرابطة بين نابلس والقرى المحيطة بها؛ فبالنسبة إلى أهل القرى، كان التجار يمنحونهم قروضًا، ويوجهونهم، ويشغّلونهم، بل كانوا أيضًا أصدقاء لهم. وأما بالنسبة إلى أهل المدينة فقد كانوا حُماة التقاليد والمبشرين بالجديد في وقت واحد. وعندما تأتي الأعياد، كان النابلسيون يرقصون في الأسواق وينثرون على الأرض الشرائط الملونة وقشور الفستق الحلبي. وبقدر ما تدركه الذاكرة الحيّة، كان المسجد نواة مجتمع نابلس، وكذلك بواباتها وسوقها المسمى خان التجار.

بدأ جد الحاج طاهر أعماله عندما كان يملأ صناديق من صابون نابلس فيحمّلها على البغال ويسافر بها إلى القاهرة عن طريق غزة، ثم يعود بعد أسابيع من ذلك حاملًا حزمًا ضخمة مربوطة بالحبال فيها قطن مصري نظيف يبيعه في خان نابلس. وبما يجنيه من مال، يشتري دفعة جديدة من الصابون يسافر بها إلى القاهرة. ثم تتكرّر هذه الدورة مرة بعد مرة. وعندما ورث والد الحاج طاهر العمل عن أبيه، بدأ يستخدم خيّاطي المدينة وصبّاغيها فتمكّن من توسعة دكان الكمال في الخان وجعله متجرًا للملابس. ثم أقام علاقات مع منتجي المنسوجات في دمشق، ممن كانوا ينسجون الحرير الآتي من جبل

لبنان مع القطن الذي تنقله السفن من بريطانيا، فينتجون أقمشة يصبغونها ألوانًا نيلية وقرمزية وبنفسجية وصفراء كالزعفران. استفاد أبو طاهر كمال من علاقات أبيه الباقية في القاهرة، فافتتح متجرًا متعدّد الأقسام في سوق بولاق، صار يبيع فيه الوسائد واللحف وأغلفة الفراش والأوشحة ومناديل الرأس ومناديل الأيدي، فضلًا عن قسم من المتجر فيه لفافات ضخمة من منسوجات بيضاء وملوّنة تباع بالذراع. ثم ورث الحاج طاهر هذا العمل. ازداد متجر القاهرة قوة مع توسّع السوق. وإلى جانب الأصناف الأساسية التي كانت في المتجر، صاروا يبيعون أيضًا الأثواب والصداري والبنطلونات والعباءات وأغطية الرأس التي يضعها القرويون في الأفراح.

كانت الشمس قد مالت إلى جهة الغرب عندما امتطى الحاج طاهر حصانه متّخذًا طريق العودة إلى بيته عند جبل جرزيم. هبّت نسمة خفق لها كما قميصه وشاعت برودة لطيفة في الشعر الذي بلله العرق فوق أذنيه. سرعان ما فقدت البيوت والأشجار ظلالها عندما ساقت الريح سحبًا جديدة في السماء.

لاقته عند الباب مدبرة المنزل أم محمود: «الحمد لله على السلامة...». فتحت ذراعيها على اتساعهما... «أهلًا وسهلًا يا حاج، أهلًا وسهلًا».

«الشكر لله. أنا جائع، يا أم محمود».

«تكْرَم، يا حاج. سأضع الماء على النار لكي يغلي. أعطني معطفك».

رأى طاهر رسالتين على الطاولة في مدخل البيت. فتح الرسالة الأولى حيث كان واقفًا.

*الأخ المحترم، السيد الأكرم، الحاج طاهر كمال*

*بعد السؤال عن أكثر ما يهمّنا، عن صحة شخصكم الكريم، آمل من حضرتكم أن ترسلوا لنا ثوبًا من نسيج الديما حسن الشكل ثابت الصباغ، وعباية داكنة اللون مثل التي أرسلتها لنا من قبل، مع غطاء للرأس من نوع جيد، وأن تكون العباية طويلة، حتى أسفل الركبة. وللحريم، أرسل لنا ثوبين ونصف ثوب من نسيج الديما، من نوعية جيدة وألوان ثابتة، حتى يخطن منه فساتين في البيت. أربع أذرع من القماش المنصوري، ولباسين داخليين، وأربعة مناديل نسائية. وبعون الله العلي، سنرسل لك الثمن بعد العطلة مع حسين بن سليمان المحمد. ونناشدكم ألا يتأخر وصول الطلب إلينا أبدًا لأنكم تعرفون تمام المعرفة بأمر حفل الزفاف الذي سيقام في دار أبي عثمان. بارك الله فيكم.*

*إبراهيم عبد الوهاب.*

عادة ما يتولى هشام أمر هذه الطلبات. لكن طاهر تلقى هذا الطلب لأنه الآن موجود

هنا؛ سوف يتولى أمره بنفسه. ستكون هذه أول زيارة للقرية منذ بداية الحرب. تخيل طاهر الاستقبال الحماسي الذي سيلقاه هناك.

كان مغلف الرسالة الثانية ذا لون ليلكي شاحب. قرأ عليها الكلمات التالية:

*«مسيو مدحت كمال*

*بيت عائلة كمال*

*نابلس*

*فلسطين»*.

كان الحاج طاهر يتكلّم الإنجليزية، ويعرف الأحرف اللاتينية، فقرأ اسم ابنه بوضوح تام. نظر إلى طابعي البريد الأخضرين. كانت على كل منهما صورة امرأة في ثوب إغريقي.

تلقى قبل أربع سنين رسالة من مدحت عليها طابع مثل هذين الطابعين. أنبأته تلك الرسالة بأن مدحت قد غيّر خطته. لقد ترك مونبلييه، وسيكمل دراسته الجامعية في باريس، ثم يعود إلى موطنه بعد انتهاء الحرب مثلما اتفقا قبل سفره. أدرج في تلك الرسالة أيضًا عنوانه الجديد في باريس: شارع دو فور في سان جيرمان دي بري. كان تفسير ذلك التغيير في الخطة غامضًا. الظاهر أنه سنحت لمدحت فرصة اكتساب خبرة أفضل. لم يُثِر الحاج طاهر أية ضجة. فلماذا لا يذهب مدحت إلى باريس؟ هذا أحسن... سيعود ابنه أكثر تمدّنًا. وبعد أن استقر أمر تحويل المال إلى مدحت، عادت رسائله فصارت متباعدة. تلقّى طاهر آخر رسالة من ابنه في الربيع الماضي: صورة على بطاقة بريدية يظهر فيها مدحت مستندًا إلى عصاه، واضعًا يده في جيبه، ناظرًا إلى مكان خلف المصور.

كان على مغلف الرسالة الليلكي خاتم بريد بور سعيد. حمل الخاتم تاريخ الثالث عشر من تشرين الأول؛ ثم خاتم حيفا وعليه تاريخ السابع عشر من تشرين الأول؛ ثم خاتم بريد القدس بتاريخ الثامن عشر من الشهر، ثم خاتم ثانٍ بتاريخ اليوم التالي. فتح الحاج طاهر المغلف على امتداد حافته العلوية مستخدمًا سبابته الضخمة. كان وجها الورقة ممتلئين كتابة متصلة مائلة الحروف. نظر إلى الرسالة... لا يستطيع قراءتها. في آخر الرسالة، كان هناك توقيع بحرف واحد فقط: ج.

ما لم يعرفه الحاج طاهر الذي كان واقفًا في مدخل بيت عائلته عند سفح جبل جرزيم في نابلس في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم العشرين من تشرين الأول سنة 1919 هو أن ابنه قد ترك باريس. ما كان يعرف أيضًا أن ابنه نزل، في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، من السفينة إلى الشاطئ المصري. في هذه اللحظة نفسها، كان مدحت ذاهبًا بعربة أجرة إلى بيت أبيه في القاهرة. كان يريد مفاجأته هناك.

قبل ستة أيام من ذلك التاريخ، صعد مدحت إلى متن السفينة كاوكاز المتّجهة إلى ميناء الإسكندرية. فبعد إرسال ما كتبه إلى جانيت، قرر ألا تكون عودته إلى فلسطين عبر الطريق المباشر؛ فقد تكون فكرة التأقلم المتدرج حسنة. سوف يبدأ من مصر لأنها مكان يعرفه، لكن ليس مثلما يعرف فلسطين. لم تكن القاهرة جزءًا منه مثلما كانت نابلس. نابلس... كانت روائح وأصواتًا وهواءً مندفعًا بين الجبلين. وأما المرة الوحيدة التي زار فيها القاهرة، فقد كانت محطة في طريقه إلى السفينة التي ستأخذه إلى مرسيليا قبل خمس سنين. تخيل الفرحة في عيني أبيه عندما يراه من غير توقّع، عندما يراه وقد صار رجلًا. استنشق هواء البحر، وابتسم، ستكون المشاعر العفوية ملءَ عناقهما.

وأيضًا، قبل ستة أيام من ذلك، غادر مغلف رسالة ليلكي اللون مكتب بريد مونبلييه في عربة بريد، ثم صعد إلى سفينة بريد في مرسيليا اسمها س س آمبوا. لعله مرت لحظة تلاقٍ بين مدحت والرسالة، في مكان ما، على امتداد مساريهما في البحر. لعل تلك اللحظة كانت في الميناء، أو عند نقطة في الحوض الجزائري في البحر المتوسط، أو في مضيق صقلية... لعل السفينتين كانتا متقاربتين على مسافتين لا تتجاوز مرمى النظر. لكن، وبصرف النظر عن هذا، رست سفينة البريد السريع في ميناء بور سعيد، وبدأت الرسالة الواردة من مونبلييه مسارها البري إلى فلسطين قبل يومين من رسو السفينة كاوكاز في ميناء الإسكندرية. كانت محطة قطارات الإسكندرية مغلقة. تجمّع مسافرون كانوا على متن سفن أخرى من حول لافتة مكتوب فيها إن هناك إصلاحات جارية على سكة القطار. ذهب بعضهم إلى مدخل المحطة ونظروا عبر زجاج الباب: أوراق ممزقة، ورايات قماشية مرمية تناثرت على عشب الحديقة التزيينية قبالة الباب. ومن حول الأعلام، كانت أسلاك التلغراف المقطوعة مرمية على الأرض. ظل بعض الأسلاك متدليًا من الأعمدة مثلما تتدلى الأشرطة التزيينية من «شجرة حرية» فرنسية. سار مدحت مبتعدًا عن الحشد فوجد عربة صغيرة واقفة في الطريق، على مسافة منه. كان جالسًا على مقعد السائق رجل قصير القامة بين أسنانه سيجارة. كانت قدمه مستريحة على إطار الباب. وبعد جولة مفاوضات سريعة، تمكّن مدحت من إقناعه بأن يأخذه إلى القاهرة بعربته مقابل ثمن «ابتزازي» قدره خمسة قروش.

كانت في الطريق إلى العاصمة أعمدة تلغراف محطمة أخرى، وعربات ترام خالية، ورايات مرمية على جوانب الطرقات عليها عبارة «مصر للمصريين»، لكنها صارت الآن ممزقة، معفرة بالتراب. سار بهم الحصان على امتداد خط السكة، فلمح مدحت عمالًا مصريين يشتغلون تحت رقابة جنود بريطانيين مسلّحين.

كانت شوارع حي العباسية شبه خالية من الناس. إنها الرابعة بعد الظهر، الساعة

التي يرقد فيها الناس في ضياء النهار المتسرّب عبر النوافذ المغلقة. بلغ بيت أبيه: فيلا بيضاء مزّينةعلى النمط الذي كان شائعًا أيام الخديوي اسماعيل. كانت أشجار البرتقال في حديقة البيت في آخر فترة إزهارها. أزهارٌ صار لونها أقرب إلى البني كانت متناثرةً تذبل على العشب.

فتحت ليلى له الباب حاملة طفلًا على وركها وقد أسدلت على وجهها حجابًا رقيقًا أسود. ظلت لحظة لم تقل فيها شيئًا. ثم صاحت فجأة: «مدحت!». أدار الطفل رأسه إلى الخلف، ودسَّ وجهه في كتفها.

بيدها الحرة، أشارت إلى مدحت بالدخول؛ ثم ألقت إلى الخارج نظرة سريعة قبل أن تغلق الباب كأن الشارع يمكن أن يأتيها بمفاجآت جديدة. وعندما استدارت ونزعت حجابها حتى تقبّله، جعلته حماستها يضحك من غير أن يقصد ذلك. لعل الزمن والبعد أزالا ما كان في نفسها من مشاعر سلبية تجاهه. ابتسمت ليلى ابتسامة طبيعية كأن ضغينةً لم تكن بينهما في يوم من الأيام.

«كم صرت طويلًا!».

أنزلت الطفل على الأرض فتمسّك بتنورتها. بدت ليلى أقصر قامة مما كان مدحت يتذكّره. نظر إلى معصميها النحيلين، وإلى شعرها الطويل الأسود... نظر إلى أصابعها التي لا تزال تحنّيها: عليها حمرة خفيفة باقية.

«لقد صرت رجلًا حقًا».

لم يكن سرور مدحت بهذا الاستقبال قليلًا أبدًا. أدخلته، وصاحت طالبة له قهوة. وعندما أدارت مقبض الباب بيدها ففتحته، انسلَّ الصبي من تحت ذراعها وجرى في الممر.

تذكّر مدحت هذه الغرفة من زيارته السابقة عندما كانت غرفة نوم. وأما الآن، فقد صارت فيها أريكتان منجّدتان بالساتان وطاولة مكتب عند النافذة المزدحمة بالياسمين.

«هل كتبت لأبيك؟ إنه في نابلس. لم يقل لي شيئًا عن مجيئك».

ظلّ مدحت لحظة صامتًا. ارتفع حاجبا ليلى.

قال: «أوه، ظننته سيكون هنا. أظنني توقّعت ألا يكون هناك عمل... سمعت عن الإضراب».

«صحيح. لكن الوضع سيعود إلى طبيعته عما قريب. هذا ما جعل أباك يسافر إلى دمشق لشراء الحرير».

«بالطبع. حسنًا... في هذه الحالة، آسف لأنني أزعجتك. عليّ الآن أن أسافر بالقطار... أن أذهب إلى نابلس».

«كلام فارغ! اجلس. عليك أن تبقى ليلة واحدة، على الأقل. سوف تتناول العشاء معي».

«لا، شكرًا. يجب أن أذهب لرؤية تيتا. عليَّ أن أعود إلى نابلس».

«مدحت، لم أرك منذ خمس سنين. حرام عليك! هل تريد أن تسلّم عليّ فقط، ثم تتركني؟ على الأقل، ينبغي أن ترى إخوتك وأخواتك».

فتحت الباب لكي تنادي الأطفال. ثم جلست من جديد، ومرّت بضع دقائق لم يقل أحد منهما شيئًا خلالها. أتت خادمة حاملة صينية، ثم أتى الأطفال من خلفها.

خمسة أطفال، أكبرهم مصباح. كان طوله يبلغ خصر أمه، وله حاجبان كثيفان. ظل مصباح واقفًا عند الباب، ينظر إليه. وكانت ثانية الأطفال بنتًا شقراء الشعر اسمها دنيا. مدّت يدها للسلام على مدحت. ثم أتى نديم وانشراح. كلاهما أسود الشعر. كان نديم مرتديًا ملابس مثل ملابس البحّارة، وكانت انشراح في فستان أبيض. ثم أصغرهم، نشأت... الصبي الخجول الذي رآه منذ البداية. حملت ليلى نشأت ووضعته على وركها من جديد.

صافح مدحت أيديهم الصغيرة، واحدًا تلو الآخر. رفض نشأت النظر إليه، وراح يمص إصبعه. ثم خبأ وجهه في شعر أمه. تركه مدحت وعاد إلى مقعده. فنظرت إليه زوجة أبيه نظرة مصمِّمة جعلت ما كان في نفسه من ضغينة يزول فجأة.

خلال معيشته في باريس، كثيرًا ما كان يفكر في سنواته الأولى في نابلس. كان يرى أن كل إنسان ليس إلا حصيلة تجاربه؛ وكان يعتقد بأن أفعال ليلى يمكن أن تكون قد سببت له ضررًا حقيقيًا عندما كان طفلًا. لقد وضعته في مواجهة ضعف الأسرة الذي صدمه، في مواجهة حقيقة أن الأبوين ليسا أكثر من شخصين جمع الزواج بينهما.

كان مدحت في الثالثة عشرة عند ولادة مصباح. يتذكّر أن الصبي كان صغيرًا جدًا. ويتذكّر أنه كان له انتفاخان تحت عينيه جعلا وجنتيه ناتئتين. يتذكّر الطيّات العميقة في لحم ذراعيه. كان يراه هادئًا أحيانًا؛ ويراه في أحيان أخرى رجلًا صغيرًا غاضبًا يصرخ ويضرب نفسه بقبضتي يديه.

بعد وصول الزوجان والطفل الصغير إلى نابلس قادمين من القاهرة، أتى في أعقابهما أثاثهما محمولًا على ثلاث عربات تجرها خيول مشدودة إليها بسلاسل معدنية. سرعان ما ملأت البيت أشياء كثيرة فبدت الغرف أقل اتساعًا وأكثر ازدحامًا. طاولة خشبية مزيّنة انتصبت في وسط غرفة الجلوس بالقرب من خزانة مُطعّمة بالصدف؛ وطاولات صغيرة متماثلة ثمانية الأضلاع انتشرت في البيت كأنها أدوات غريبة... مرتفعة، ضيقة، قوائمها منتهية بما يشبه المخالب.

أشرفت ليلى على العمال لأن طاهر كان يتابع أعماله في القدس. لم توبخ مدحت عندما وقف بالباب مسترقًا النظر إلى ما يجري. رفعت يديها وقالت: «كان لدي رأس سرير جميل، زي كده... كان مغلّفًا بالقماش، بالحرير، من كل الجهات. كان جميلًا جدًا... حرام! لو أتيت به لتلف في هذه الرحلة». كان الرجال مرتبكين يتحرّكون على أقدامهم الحافية حاملين قطعًا غريبة من الخشب والحديد. وكانوا، من حين لآخر، ينحنون للسيدة المحجبة.

كانت تلك أول مرة يدخل فيها مدحت غرفة النوم منذ عودة ليلى وأبيه. وكانت المرة الثانية بعد العودة من المدرسة عندما التقى صديقه عادل جوهري في الطريق. كان عادل يبكي.

«ضربوني، في الصف».

«لماذا ضربوك؟».

«ضحكت عندما اصطدمت ساق أبي ناصر بكرسيه... » ابتسم عادل وجعل مدحت ينظر إلى بطتي ساقيه من الخلف. كانت عليهما كدمات داكنة محمرّة الحواف.

«تستخدم تيتا حجر الشب. لدينا بعض منها. تعال معي».

تذكّر مدحت، بعد دخولهما البيت، أن خزانة الأدوية كانت في غرفة نوم أبيه. عندما كان طاهر وليلى مقيمين في القاهرة، كانت هذه غرفة أخرى خالية في ذلك البيت الذي كله غرفٌ خالية. كانوا يضعون الأدوية في تلك الغرفة، ويضعون أيضًا حلويات ومربيات من أجل الضيوف. طلب مدحت من عادل أن يظل صامتًا، ثم دخل الغرفة على أطراف أصابعه. كان السرير في وسط الغرفة، وعليه وسائد زاهية الألوان. اقترب من خزانة الأدوية وفتح مزلاجها، ثم أدخل يده فيها لكي يتحسّس زجاجة الدواء. ظهر بباب الغرفة شخص أسود الرأس وصرخ به:

«اخرج من هنا! كيف تجرؤ على دخول هذه الغرفة؟».

فر عادل هاربًا. وقبل أن يتمكّن مدحت من اللحاق به، سدت ليلى الباب بجسدها ورفعت يديها. عشر أصابع حمراء.

ظهرت تيتا من خلفها. قالت له: «حبيبي، اخرج من هنا».

اتّجه مدحت صوب جدته، لكن ليلى أمسكت بذراعه وصفعته على مؤخر رأسه ورقبته بحركة خرقاء قوية جعلت أظافرها الطويلة تخدش جلده. حرّر نفسه من قبضتها، وجرى خارجًا من باب البيت الذي تركه عادل مفتوحًا. لم ير أثرًا لصديقه في الجبل الممتد أمامه. دار من حول البيت، فلم يجده. كانت ملاءتان منشورتين على حبلي غسيل متوازيين. وكانت بينهما مساحة تشبه ممرًا. جرى مدحت إلى ذلك الممر

وجلس، بينما كانت الخادمة تخرج ملاءة أخرى من السلّة لكي تنشرها.

أتاه صوت عادل بعد بضع لحظات: «مدحت؟ مدحت؟».

ثم لم يعد يسمع شيئًا غير صوت احتكاك النسيج الرطب بنسيج قطني رطب عندما استأنفت الخادمة نشر غسيلها على الحبلين. أظلمت السماء؛ وانتصب الشعر الخفيف على ساقي مدحت. أعلن صوت حوافر الحصان عودة طاهر من القدس. أغلق الباب من خلفه، وبدأ صوت ليلى يعلو صارخًا من غير انقطاع، منسابًا من النوافذ التي تمر بها. ثم هدأت الأصوات. وأخيرًا نادت الخادمة مدحت لتناول العشاء. جلسوا صامتين حول الطاولة المنخفضة، وراحوا يأكلون.

لم يستطع أبدًا تذكّر إن كان هذا قبل اتخاذ قرار سفره إلى القسطنطينية أو بعده. تذكّر فقط أن تيتا استلقت إلى جانبه في السرير تلك الليلة وحدّثته عن العاصمة التركية وعن المدرسة الجديدة التي سيذهب إليها. سوف يودع أباه، ويودع أخاه الرضيع، ويودّع ليلى.

نظر مدحت إلى زوجة أبيه التي وضعت يديها على كتفي ابنها. انتبه إلى أنها صغيرة السن جدًا. ربما لم تتجاوز الثلاثين بعد. يعني هذا أنها كانت في مثل سن مدحت الآن -تقريبًا- عندما تزوّجت أبيه... إن لم تكن أصغر من ذلك. لا عجب في أن تكون قد كرهت هذا الوارث الذي يسبق ابنها. ولا عجب في تفضيلها العيش في القاهرة، بالقرب من عائلتها. ولا عجب أيضًا في أنها قد استخدمت كل ما لديها من قدرة لإقناع الحاج طاهر بترتيب الأمر على هذا النحو. كان أمرًا ضروريًا لها أن تحقّق سيطرتها على مجالها وأن تبعد عنه الصبي الغريب الذي اقتحم غرفة نومها. كان الزواج مغامرةَ حياتها الكبرى؛ وقد أسعدها أن تصير لها اليد العليا فيه.

هكذا، صارت المفاجأة التي أعدّها مدحت لأبيه من نصيب ليلى التي سارعت، فور مغادرته، إلى إرسال برقية إلى زوجها في نابلس. أجاب الحاج طاهر بأنه قادر، بالطبع، على البقاء في فلسطين مدة أطول قليلًا مما كان اعتزمه. قال إن ما من مشكلة في تأخير ذهابه إلى دمشق بالنظر إلى الوضع الجديد... فكم مرة يرحب المرء بعودة ابنه الأكبر، بفضل من الله؟

في بيت عائلة كمال في نابلس، كانت أم طاهر في غاية الفرح. وعندما ذهب طاهر إلى الخان، نزلت لكي تخبر أم جميل بالأمر، وأمرتها بأن تذهب وتخبر الجيران. سوف ينتشر النبأ في بقية المدينة عبر همسات الخادمات. إن حفيدها، الدكتور مدحت، عائد من مونبلييه، ومن باريس أيضًا. لا بد لها من دعوة النساء كلهنّ احتفالًا بهذه المناسبة. وفي اليوم التالي، صعدت إليها أم جميل للمساهمة في إعداد الطعام. صاحت عند دخولها من الباب قائلة إن جميل سعيد جدًا، سعيد جدًا! لقد شاخت أم جميل بعد

سنوات الحرب، وانتشرت على وجهها الذي كان كوجه عصفور تجاعيد منطلقة من زاويتي عينيها. جلست تغنّي مع أم طاهر وهما تحفران الكوسا وتقشّران الثوم؛ ثم تركتا بقية العمل لأم محمود عندما وصلت بقية النساء وبدأ تبادل قبلات التهنئة مع توافد الضيفات إلى الصالون.

قالت أم داود: «هل عمره أربعة وعشرون عامًا؟ لا يزال أمامه وقت طويل! اتركيه يلهو قليلًا!»... قالت هذا، ثم اهتزت كتفاها من الضحك.

قالت أم طاهر: «يا دالية، مدحت ولد عاقل».

أجابت أم داود: «شو... ولد عاقل؟».

ظهرت الدهشة على وجه أم طاهر. وبعد ثانية من ذلك، تخلّت عن ورعها وضحكت من كل قلبها مثلما كانت حريصة، قبل لحظة، على إظهار تمسّكها بالفضيلة. ثم لم تلبث أن سوّت منديل رأسها من فوق عينيها الذابلتين. لكن الضحكة ظلّت تهزّ جسدها.

صاحت: «أم محمود!... هل تعدّين مزيدًا من القهوة؟».

جاء صوت أم محمود: «نعم، يا ستي».

«هاتي بعدها الشوكولاته!».

سألتها أم برهان: «أليس طاهر سعيدًا؟».

أجابت أم طاهر: «بالتأكيد».

تبادلت النساء النظرات. سرّتهن رؤيتها سعيدة هكذا... مسكينة أم طاهر!

قالت أم داود: «ماذا سيعمل؟ هل سيكون طبيبنا في نابلس؟».

قالت أم طاهر: «عليه أولًا أن يساعد أبيه. إنه بكر أبنائه، مع أن لزوجة أبيه أطفالًا آخرين».

قالت أم جميل: «لكن، أظن أننا نستطيع توقّع أشياء عظيمة منه، يا خالتي... ارميه في البحر، وسوف يخرج حاملًا سمكة في فمه».

خفضت أم طاهر رأسها كأنها تعرف ذلك أصلًا.

بينما كانت أم طاهر جالسة مع ضيفاتها في الصالون في بيتهم في جبل جرزيم، ذهب الحاج طاهر لزيارة حاكم نابلس العسكري البريطاني في مبنى البلدية الحجري القديم الواقع في الشارع الشمالي؛ ذلك المبنى الذي كان –حتى السنة الماضية– مقرّ ممثل الدولة التركية ومجلسه الاستشاري.

حيا طاهر الحارس باللغة الإنجليزية. قال له إنه قادم لرؤية الكولونيل جون هوبارد، وإن لديه طلبًا خاصًا. قل له، من فضلك، إنني صديقه المستر الحاج طاهر كمال. انحنى الحارس وأشار للحاج طاهر بالدخول، ثم اختفى خلف إحدى الزوايا. جاءه صوت

هوبارد بعد لحظات قليلة:

«ادخل، يا كمال. صباح الخير. كيف حالك اليوم؟ اجلس».

كان هوبارد يرتدي بدلة عسكرية كاكية اللون لها ياقة حمراء. كان لوجهه مظهر فتيٌّ أثار، أول الأمر، بعض الاستياء بين أعيان نابلس الذين أحسّوا بالإهانة لإرسال مسؤول أجنبي لم تكد ذقنه تنبت في وجهه. لكن المرء يرى، إن نظر عن كثب، تلك الخطوط الدقيقة على جبهة هوبارد والشعر الرمادي عند صدغيه وفي شاربه. التقى الحاج طاهر هوبارد أول مرة في حفل استقبال أقيم بمناسبة تعيينه. كان ذلك حفلًا في الظاهر؛ وأما في حقيقة الأمر فقد كان محاولة لكسب ود أصحاب النفوذ في المجتمع المحلّي من خلال جعلهم يشعرون بأن لهم مشاركة. بعد فراغ هوبارد من إلقاء كلمته، تفرّق الحاضرون إلى مجموعات صغيرة، ووجد طاهر نفسه واقفًا في إحدى الزوايا مع الحاكم نفسه. قال الحاكم للحاج طاهر إنه كان مقيمًا في القاهرة منذ أمد قريب، فراح الرجلان يتحدّثان عن أحياء القاهرة المختلفة. وعندما حدثه الحاج طاهر عن أعماله وعن رعايته مشاريع كثيرة في المدينة من بينها المدرسة الثانوية الجديدة والمستشفى البلدي، بدا على هوبارد الإعجاب بما سمعه. عرّج هوبارد على متجر الكمال في الخان بعد أيام من ذلك، وشرب القهوة مع الحاج طاهر، واشترى قبل انصرافه حقيبة قطنية صغيرة لها بطانة حمراء لكي يقدمها إلى زوجته هدية.

«صباح الخير يا كولونيل جون. إنه نهار جميل. كيف حالك اليوم؟».

«أنا في أحسن حال، يا مستر كمال. كيف حالك أنت؟».

«أنا بخير، شكرًا...» انحنى الحاج طاهر قليلًا فتدلت شرّابة طربوشه... «أتيت من القاهرة لمتابعة شؤوني التجارية. وسوف أسافر إلى دمشق عما قريب».

«ممتاز. الطقس حار كثيرًا، أليس هذا صحيحًا؟».

«صحيح. إنه شديد الحرارة».

«إذًا... كيف أستطيع مساعدتك؟». قال هوبارد مسندًا فمه إلى أصابعه.

«لدي سؤال».

«هاتِ ما عندك».

عبارة لم يفهمها طاهر تمامًا، فصمت لحظة منتظرًا أن يضيف الرجل شيئًا. وعندما لم يقل هوبارد شيئًا قال طاهر: «هل تتكلم الفرنسية؟».

«أجل. أتكلّمها إلى حد ما. ليس كثيرًا».

«هلا قرأت لي هذه الرسالة، من فضلك».

وضع يده في جيبه، ثم نهض من كرسيه وناول هوبارد المغلف الليلكي.

أخرج هوبارد من جيبه نظارة مطوية ذات إطار سلكي. فتح النظارة ووضعها على عينيه. نظر إلى الرسالة عبر العدستين.

«مسيو -مستر- مدحت كمال، بيت عائلة كمال، نابلس، فلسطين».

نظر إلى طاهر، ثم قلب المغلف وأخرج منه الرسالة. تنحنح، ثم قال:

*عزيزي مدحت،*

*انقضت الآن أربع سنين منذ رحيلك عن مونبلييه، أربع سنين! أنا غير قادرة على تصديق هذا الرقم، حتى عندما أكتبه. كثيرًا ما أجد نفسي أفكّر فيك. أشكرك على رسالتك. وإذا أردت أن أقول لك الحقيقة، فقد سببت لي معرفة أنك كنت في باريس قدرًا من الحزن ـ فكرة أننا كنا قادرين على التواصل قبل الآن. لعلك تتساءل أيضًا عن السبب الذي منعني من محاولة الكتابة إليك. الحقيقة أنني بقيت غاضبة، وبقيت متألمة، زمنًا طويلًا. وأكثر من هذا كله... أظنني كنت أيضًا مشوشة...*

«مشوشة، أو مضطربة، أو محرجة. تعني هذه الكلمة حالة من الاضطراب».

*أخشى ألا تصلك هذه الرسالة قبل سفرك. وهذا ما يجعلني أرسلها إلى نابلس... يعني هذا أنك ستقرأها في بيتك. آمل أن رحلتك كانت آمنة ممتعة. أوه... إنني أرغب في الكتابة إليك منذ زمن بعيد. لكنني جالسة الآن، لا أعرف ما أقوله لك... تلك الأشياء كلها التي فكرت في قولها لك صار التعبير عنها صعبًا، فجأة.*

*عند رحيلك، رحل دفء البيت من بعدك. أظننا لم ننتبه كم كان وجودك معنا مصدر سرور وفرحة. ليتني تصرّفت بطريقة مختلفة!... ليتنا استطعنا استعادة ما خسرناه. لكنك محق، فمحاولة تغيير ما حدث ليست إلا عبثًا. أتمنّى فقط لو أن ما حدث لم يكن قاطعًا هكذا.*

*أحس الآن كأنني أكتب في الفراغ ـ أمر غريب ألا أعرف كيف سيكون شعورك وأنت تقرأ هذا. أتمنى لو أنني قادرة على رؤية وجهك. أوه، يا مدحت! يخيل لي أحيانًا أنني أحسك في أنفاسي. ليس احتمال هذا بالأمر السهل.*

*لقد كانت سنوات الحرب هذه ثقيلة علينا جميعًا. لكنها انتهت الآن، وأريد أن أطرح عليك سؤالًا واحدًا: هل ستعود؟ أعرف أنك وصلت قبل فترة وجيزة جدًا. لذلك، لا أتوقع عودتك سريعًا. وأنا لا أريد أن أتوسل إليك؛ لا أريد إلا إخبارك كم أنا مشتاقة...*

«توقف!».

كان وجه الحاج طاهر أحمر اللون.

قال هوبارد وهو يضع الرسالة من يده ويخلع نظارته: «الظاهر أنها رسالة حب. من هو مدحت؟».

لم يجبه طاهر بشيء. استنشق نفسًا عميقًا، ثم حنى رأسه وقال بلباقة وهو ينهض ويأخذ الرسالة: «أشكرك، يا مستر هوبارد...». تابع القول وهو يستدير لكي ينصرف... «أشكرك على عظيم لطفك».

نهض هوبارد عن كرسيه نصف نهوض، وودع الحاج طاهر.

«سلام». قالها هوبارد بنبرة صوت ممطوطة.

أجابه الحاج طاهر: «سلام. بارك الله فيك».

في القاهرة، أخذ سائق ليلى مدحت إلى محطة قطار باب الحديد. كان مدحت ينظر من نافذة السيارة إلى أهل البلاد، وإلى الأجانب سائرين بشكل منفصل، ويستمع إلى هدير الشارع الذي كسر الحر حدّته.

قال للموظف في كشك التذاكر: «بطاقة إلى القدس، من فضلك».

«لا يوجد قطار إلى القدس اليوم».

«ماذا؟».

«تأخّر. إنهم يصلحون سكة القطار».

«اللعنة. متى يكون القطار التالي؟».

قال الموظف: «إنه القطار نفسه؛ وقد تأخّر. سوف ينطلق في السادسة صباحًا بالتوقيت الإفرنجي. البطاقة بسبعة قروش».

تنهّد مدحت وأحصى القروش.

نادى السائق: «يا معلم... خذ حقيبتي معك، ولاقني هنا صباح غد، في الخامسة والنصف. في الصباح، لا في المساء، ماشي؟».

«ماشي، يا حاج».

«حاج!...». كرّرها مدحت بما يشبه السخرية... «يعطيك العافية». ناول السائق قرشًا والتفت إلى موظف التذاكر... «هل يوجد مطعم جيد قريب من هنا؟ شيء بسيط، لا أريد شيئًا ثقيلًا».

مال الموظف فوق طاولته ونظر إلى مدحت، من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم خرج الرجل من الكشك وظهر من خلف زاوية في البهو. أشار إلى مدحت بأن يقترب منه. ظلّل عينيه من الشمس بكفّه، وأشار له في اتجاه حديقة الأزبكية التي كانت محاطة

بالمطاعم والفنادق. هناك، سيجد الأفندي ما يرضيه، بالتأكيد. ثم انتظر منه بخشيشًا. في ضوء الشمس، رأى مدحت طبقة الغبار الرقيقة التي غطت بدلة الرجل الزرقاء واستقرّت في شقوق كف يده المبسوطة.

كان الممر عبر الحديقة مجرى للريح. سار مدحت متلكئ الخطى في ظلال أشجار المطاط وبعض الأشجار الاستوائية. سار مستنشقًا روائح الأزهار إلى جانب جذوع أشجار البانيان المكتسية أغصانًا كالشعر بينها فتحات تشبه الأفواه. مر بالنخلات الملكية وأشجار المطاط الرشيقة. وإلى جانب ذلك الممر، كانت ثمار شجرة أفريقية غريبة متدلّية إلى جانب أزهارها الحمراء الفجّة. انفتحت تلك الأجمة على مرج كانت فيه فرقة موسيقية. عازفون يرتدون الجلابيات، لكن أدواتهم الموسيقية بدت مستوردة؛ وبالتأكيد، لم تكن الأنغام التي يعزفونها مصرية. على الرغم من ذلك، كانت أمامهم ثلاث راقصات من الغوازي عاريات البطون في بنطلونات فضفاضة تتمايل خصورهن وأحواضهن مجتذبة المارة كأنها رقصة شعبية. مر بعد ذلك بمعبد ياباني خالٍ، ثم ببناء له سقف جملوني وواجهة من الخشب والملاط... شيء يشبه شاليهًا جبليًا، لكن عليه لافتة تقول «نادي الجنود الترفيهي». رأى أزواجًا من الأوروبيين في قبعات واسعة وبنطلونات بيضاء يرقصون على إحدى الشرفات. مالت الشمس بين الأشجار، وزال عن مدحت انزعاجه لأن ساعات الليل الطويلة التي أمامه بدأت تبدو له مشبعة باحتمالات غنية. ما خسره نتيجة تأخر القطار، ستعوّضه أضعافًا مكتسبات أمسية ما كان يتوقعها.

خلال الأسبوع الماضي، كان يتمشّى كل يوم على سطح سفينته ويشعر بهدير المحرك تحت قدميه، وبالهواء المر يثير زوابع من زبد ويخز خديه بالملح. كانت كل التفافة تعيد إليه ذكرى نفسه الخائفة عندما سافر إلى فرنسا وكان عمره تسعة عشر عامًا، عندما كان غير مدرك طبائع الأوروبيين... عندما كانت الوحدة تأكله. صار الآن قادرًا، من موقع قوة بعد اكتسابه ضبط النفس واللياقة الاجتماعية، على النظر إلى ذلك الشاب الصغير الذي كانه، والضحك منه. لكن مسرة تذكّر تلك الأيام لم تكن إلا استراحة قصيرة من قلقه الحقيقي إزاء عودته إلى فلسطين.

على الرغم من أن خيالاته القديمة عن تحوله إلى شخص فرنسي قد انتهت، فهو لا يزال متعلّقًا بفكرة بعينها عن حياة كوزموبوليتانية. بالتالي، فإن تلك النزهات الدائرية، من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، عبر الممرات على جانبيها، أو تحت السطح بين الصالون المخملي والقاعات ذات القناطر، لم تكن مجرّد وقت يمضيه في تهنئة نفسه على بلوغه مرحلة النضج أخيرًا... كانت أيضًا وقتًا للاستعداد من أجل ما ينتظره. لقد

كانت أمامه حقبة جديدة من الحصافة والتعقّل لن تكون له فيها عودات إلى البيت عند مطلع الفجر في ليالٍ يقضيها في الخارج، ولا مزيد من البراندي لتخدير شكوكه، ولا مزيد من لحظات التردّد عند الساعة الثامنة مساء قبل أن يقرّر أين سيكون بعد بضع ساعات. تنتقل الشائعات سريعًا في نابلس. ويُلحِق السلوك الطائش عارًا بالعائلات. لكن، لعله يتمكّن من مناقشة مستقبله مع والده بحيث يعيش في القدس، أو في واحدة من المدن الساحلية التي تراخت بعد أن صارت معابر للمهاجرين... بل ربما يذهب إلى القاهرة... من المحتمل أيضًا أن يتمكّنا من التوصل إلى سبيل لعودته إلى فرنسا. سوف يوسّع أعمال أبيه في اتجاه الغرب، ويسافر إلى مصانع النسيج الفرنسية. كان لديه ما يتطلّع إليه في نابلس: أبناء عمومته، وجدّته، واجتماع العائلة في الديوان. لكنه سيواجه الضجر أيضًا، وسيواجه آراء مختلفة عن آرائه. من هنا، كانت ساعاته على السفينة زمنًا للتأمّل في فكرة الواجب وفي مكانه ضمن تشكيلة الغايات والتقاليد، تلك التشكيلة التي ظلت معلّقة طيلة سنوات خمس أمضاها في فرنسا؛ ذلك الزمن الذي أعانته فيه الحرية المتولّدة من الغربة على تجاوز قوانين العائلة والتجول في أروقة الفرص والمسرات.

وعلى مقربة منه، كان طيف جانيت يطوف دائمًا. لم يتلق منها ردًا على رسالته؛ وقد قال لنفسه إن عليه ألا يتوقّع ردًا. كان إقدامه على الكتابة قد جعل شوقه إلى ما هو مؤقت في حالة هجوع، وما عاد يشغله شيء عندما نزل شاطئ الإسكندرية غير أبيه ونابلس، عروس الشمال. لم يكن في ذهنه غير أبيه عندما صعد إلى مقعد تلك العربة عند المحطة. ولم يكن في ذهنه غير أبيه عندما ظهرت أمامه الأهرامات العظيمة بهندستها الهائلة منبثقة من أفق الصحراء.

لكن ترتيب العناية السماوية الغريب شاء أن يكون في مصلحته. فها هو الآن هنا، وقد تأخّر القطار، وتأخرت نابلس. هنا، وحده في القاهرة، حظي بليلة حرية أخيرة.

بلغ البحيرة المحاطة بأضواء بيضاء فدار من حولها وعبر بوابة أعادته إلى الشارع المزدحم. لافتة فندق غراند كونتيننتال من أمامه، وإلى جانبها صف من مظلات المقاهي، ومن تحتها ضيوفها جالسون. سار قليلًا فبلغ مكانًا له اسم فرنسي: لو غراند كافيه إيجيبسيان.

دخل المكان، فاقتضاه الأمر برهة إلى أن اعتادت عيناه الرؤية في الظل: غرفة تضيئها مصابيح الزيت، فيها طاولات مدوّرة جلس إليها سادة في مواجهة خشبة مسرح صغيرة. اختار طاولة صغيرة خالية قريبة من المقدمة.

قال بالفرنسية: «Steak-frites. Et un verre du vin, s'il vous plaît[1]».

عبس النادل قليلًا، وتشاور مع زميل له. انخفضت الإنارة، وظهرت امرأة على المسرح. عيناها مخطّطتان بكحل أسود، وغطاء رأسها وصدارها عليهما خيوط فيها قطع نقود معدنية متأرجحة لامعة. كان لحم بطنها ظاهرًا من تحت صدارها. بدأت تهز ردفيها. رجال مصطفون في آخر المسرح راحوا يدقّون بالصنوج. رفعت المرأة ذراعيها في الهواء ملوّحة بوشاح فظهر صف من الراقصات الرديفات. رحن يتمايلن ويثنين ظهورهن من خلفها... وعندما أبدل العازفون بصنوجهم آلات أخرى -قانون وطنبور وكمان ودربكة- فتحت المرأة فمها وبدأت تغنّي.

كان في صوتها اهتزاز شديد؛ وعندما تنشد نغمة واحدة تكون تردّدات صوتها شديدة الوضوح حتى لكأنّها ترقص بينها. ذقنها مدورة كأنها نصف ابتسامة خبيئة. نظر مدحت في الصالة من حوله. كان في المكان بعض الحضور من الأوروبيين -الشقر إنكليز، على الأرجح-؛ والآخرون يمكن أن يكونوا يونانيين، أو ربما إيطاليين. كان واضحًا على بعض الأشخاص أيضًا أنهم من بلاد الشام، فضلًا عن عدد كبير من الأرستقراطيين المصريين المرتدين ملابس أنيقة. كانت الراقصة تستثيرهم وهي تلاعب الهواء. انتبه مدحت إلى أنها كانت تنظر نظرات مباشرة في رجال بعينهم، فتستثير تعابير غيرة من بقية الرجال الجالسين إلى الطاولات، أو ضربات تودّد على ظهور أصحاب الحظ، أو صيحات استياء، أو صفرات. تمنّى مدحت أن يكون واحدًا من أولئك المختارين. ظل ساكنًا سكونًا شديدًا، وراح يحدّق في الراقصة التي أدارت ظهرها إلى الجمهور كاشفة عن غمازتين حلوتين في أسفل ظهرها. ثم استدارت من جديد ونظرت إلى مدحت نظرة مباشرة... أخيرًا. على الفور، أحسّ باندفاعة الطرب وبالإثارة التي كان مدركًا أنها أرادتها.

ومع انتهائه من كأس النبيذ الرابعة، دعاه شباب مصريون جالسون إلى طاولة أخرى لكي ينضم إليهم. سألوه عن المكان الذي هو آتٍ منه، فأثار رده، «باريس»، موجة ضحك بينهم. وبعد ذلك، دارت بينهم أحاديث استمرت فترة قصيرة. وجد مدحت نفسه واقفًا مع واحدة من الفتيات اللواتي كنّ على المسرح، في حين راح الرجال الواقفون خلفه يهلّلون له. كانت رائحة الفتاة مزيجًا من رائحة أزهار الياسمين والنبيذ الأحمر. وكانت ضفيرتها السوداء الطويلة ناعمة تحت كفه.

في الصباح، كان جالسًا وحده في عربة القطار. غطى عينيه بمنديل ونام نومًا متقطّعًا،

(1) شريحة لحم مع بطاطس مقلية وكأس نبيذ، من فضلك.

يغرق فيه، ويخرج منه. كان يقول في نفسه إن توصله إلى اتفاق مع أبيه يسمح له بتولي متجر الكمال في القاهرة سيكون أمرًا حسنًا. ففي القاهرة، يمكن أن يضيع المرء بين الناس، كما في باريس، تقريبًا. كان الخيط الذي يربطه بأوروبا واهيًا.

بلغ القطار باب العامود في القدس بعد الظهر مباشرة، فاستوقف مدحت سيارة تاكسي وانطلق شمالًا. وديان صخورها بيضاء، ومنطقة عين الحرامية بأشجارها، وحقول القمح المدرّجة على سفوح الجبال كأنها شرفات حجرية مزدحمة بالحصادين. كان لمنظر التلال أثر عجيب عليه، فحدّق من نافذة السيارة بعاطفة كبيرة لم يتوقّعها ناظرًا إلى الظلال العميقة التي ترسمها تلك التلال. أبطأت السيارة سرعتها على الطريق الجبلية. دفع مدحت للسائق أجره ونزل من المقعد الخلفي فشم رائحة المريمية.

«حبيب ألبي!».

«تيتا! تيتا... يا إلهي، كم صرتِ أصغر حجمًا».

«وأنت كبرت. لماذا أنت مصفرّ هكذا؟ هل أنت مريض؟ يلا تيتا، ادخل».

«هل أبي هنا؟».

«إنه في انتظارك».

دخل البيت، فشم رائحة البصل والسمّاق، وشم من خلفها رائحة مميزة تشبه رائحة الجِبس البارد مع عفونة خفيفة. أيقظت هذه الرائحة جزءًا من ذاكرته، صار خِدرًا لقلة انتباهه إليه. دبّت الحياة في جزء كامل من دماغه. شكل نوافذ المطبخ، ولوح الزجاج المتشقّق. والطبق النحاسي... لم يتذكّر شيئًا من هذا كله قبل الآن. لكنه عرفه لحظة رآه. حتى طاولات ليلى الدمشقية المنخفضة كانت ممتلئة، في ذهنه، بشيء لم يستطع التعبير عنه. وذلك الضوء المتسرّب من الصباح المتوهّج ساقطًا على قطع المطرّزات. تفجّرت الأشياء ماضيًا قديمًا.

كان الجمر متّقدًا في الكانون. وقعت عيناه على لوحة خط عربي مألوفة قبالة النافذة. وعندما اقترب من الديوان، تساءل عن مستقبِليه، وعما إذا سيرى جميلًا وأم جميل القاطنين في الأسفل، أو أي أشخاص من الجوار. لكنه لم ير إشارة ولم يسمع صوتًا. ثم، رأى شخص أبيه آتيًا في اتجاهه مرتديًا بدلة وطربوشًا.

«أبي».

«أهلًا بعودتك».

فتح مدحت ذراعيه لكي يعانقه، فلم يستجب الحاج طاهر أول الأمر. بدأ يخفض ذراعيه، بدرت عن الحاج طاهر إشارة صغيرة كأنها ضد إرادته... منحه الموافقة بإيماءة صغيرة من رأسه وإغماضة قصيرة من عينيه كان العناق وجيزًا، متيبّسًا.

«الحمد لله على السلامة. آمل أن رحلتك كانت مريحة. والآن، ينبغي أن أتحدّث معك في أمر ما».

«بالطبع».

«اجلس هنا. جيد. والآن... علينا أن نناقش بعض الأمور، وعلينا أن نتّخذ بعض القرارات بأسرع وقت ممكن». صمت لحظة كأنه يروز مدحت. كانت أصابع يديه متشابكة وإبهامه يدعك ظهر يده الأخرى فيجعد الجلد من حول سبابتها... «في البداية، أفهم أن الشاب يحق له أن يتمتّع بقدر من الحرية. يجب أن يكون لديه قدر من الحرية وهذا أمر طبيعي. بصرف النظر عن هذا، كنت أتوقّع، يا مدحت، أنك ستمضي هذه السنوات في أوروبا أثناء مشاركة الأتراك في الحرب، فتحصل على تعليم أوروبي. وبعد ذلك، كنت أتوقّع دائمًا أنك ستعود إلى موطنك، إلى أصولك، وتكون رجلًا مجرّبًا حسن التعليم، مستعدًا لمتابعة السير على درب أسلافك وأقرانك. درب الشرف، فهمت؟ الشرف و... الاستقرار».

كان الحاج طاهر يستخدم مزيجًا رفيعًا من العامية والفصحى كان وقعه في أذني مدحت غريبًا كل الغرابة. تمنّى كثيرًا أن يشرب كأس ماء. تابع أبوه كلامه: «المهم... لن تعود إلى فرنسا. إذا حاولت العودة إليها، فسوف ينقطع ما بيننا. لا مال، ولا مساندة، ولا شيء. هل فهمت؟ لن أتساهل مع أي سلوك يُلحق بنا العار».

ظلّ مدحت صامتًا، مصدومًا. ثم قال: «بابا».

«الظاهر أنك أجّرت الطابق العلوي من عقلك».

«ماذا فعلت؟».

«آمل فقط... آمل فقط أن تكون قد تعلمت -على الأقل- في هذه السنين الخمس في الخارج شيئًا عن كون الإنسان رجلًا ناضجًا. هذا ما دفعتُ تكاليفه كلها».

«أجل. أعني أنني آمل هذا...». انخفض صوته... «الكمال لله وحده، لله الذي نرجو عونه وعفوه».

«سبحان الله. والآن، بعد أن كبرت وصرت رجلًا، علينا أن نرتّب أمر مستقبلك. في الحالة العادية، من الطبيعي أن أقترح عليك تخصيص بضع سنوات، على الأقلّ، لكي تكتسب خبرة في مهنتك قبل أن نضع أية خطط أخرى. لكنني أشعر، في حالتك، بأن علينا أن نتّخذ تلك القرارات في وقت أبكر من ذلك. لقد اكتسبت تلك الخبرات كلّها، ولا يجوز أن نتركك في حالة عدم استقرار. أولًا، من واجبي الاعتراف بأنه من حقّك، بعد أن درست الطب في فرنسا، أن تمارس الطب هنا. لكن، وبما أنك ابني الكبير، فإنني أطرح عليك خيار تعلم مهنتي؛ وذلك حتى تتولّى أعمال العائلة عندما أموت، أو عندما أصير عاجزًا».

ظل مدحت منتظرًا. طال الصمت. أدرك أن والده ينتظر منه قرارًا فوريًا.

«أنا...». توقّف عن الكلام. لم يعرف ما ينبغي عليه قوله. لقد كان مستعدًا، في أقصى الأحوال، لأن يتحمّل فرض بعض القيود على ما يستطيع فعله وما لا يستطيع فعله في أوقات فراغه، لكنه لم يكن يتوقّع هذه المواجهة القاطعة مع مستقبله. كان يتصوّر دائمًا أن أعمال أبيه ستؤول إليه في آخر المطاف. لكن هذا كان يحدث بسرعة أكبر كثيرًا من توقّعه. كانت حقائق مساره المهني في المستقبل تغتصب لقاءهما نفسه، وتحتله احتلالًا؛ شيء لم يكد يبدو على أبيه أي اهتمام به. ثم إن تلك الفكرة المضافة عن أن من المحتمل فعلًا أن يعمل طبيبًا، بدأت تثير في نفسه بعض الألم. قال فجأة: «لكن، لماذا لا أستطيع العودة إلى فرنسا؟».

بدت الدهشة على وجه طاهر. قال ببطء: «إذا عدت إلى فرنسا، فسوف تخسر نصيبك من الإرث».

«لكن، ماذا عن... ماذا عن... القاهرة؟».

«مدحت... هذا ليس وقت اللعب».

«أنا لا أطلب أن ألعب!».

«أنت رجل. وأنا أعرض عليك خيارًا. هل تريد ممارسة مهنة الطب، أم تريد تعلم مهنة العائلة؟».

أشاح مدحت بوجهه، وقال: «لا أفهم شيئًا».

«أجب عن سؤالي. لقد سافرت وتعلمت».

«أنا... أريد أن أتعلّم مهنة العائلة».

«جيد. إذًا، سنبدأ على الفور. سوف أرسلك لكي تعمل مع هشام اعتبارًا من بداية الأسبوع القادم. وبعد سنة من ذلك، ستأتي إلى القاهرة، لكي تتعلّم كيف تمسك الدفاتر، وكيف تتعامل مع الزبائن في شارع بولاق. لكننا سنتكلم في هذا الأمر لاحقًا. الآن، كما قلت لك، نحن نستعجل الأمور في ما يتعلق بك لأن من الواضح لأن لديك طاقة كبيرة ينبغي تحويلها إلى مسار مفيد. للأسف، لا بد لي من مواصلة طريقي غدًا، إلى دمشق. وبعدها سأعود إلى القاهرة حيث أظل، على الأرجح، مدة لا تقل عن ثلاثة شهور. لولا ذلك، لتوليت الأمر بنفسي. لكن، بالنظر إلى هذه الظروف، فسوف أعهد إلى جدّتك بأمر اختيار زوجة لك».

«زوجة؟».

«نعم يا مدحت، زوجة...». عض على شفته مظهرًا استياءه... «قلبي على ولدي،

وقلب ولدي على الحجر. هذا هو نصيبي».

أراد كل شيء في مدحت أن ينهض محتجًا. فتح فمه، صامتًا. أخرسه خوفه من أبيه -أخرسه أيضًا- إحساس جديد، غير واضح... إحساس بالعار، وبالفشل، طغى عليه الآن وجعله يحس بحرارة في أذنيه.

نهض الحاج طاهر واقفًا. وقف مدحت أيضًا فرأى جدّته بطرف عينه. خرج الحاج طاهر من الغرفة فاقتربت تيتا من مدحت مسرعة وجذبته حتى جلس على الأريكة، إلى جانبها. طوّقته بذراعيها. شم فيها رائحة صابون زيت الزيتون.

«كل ممنوع مرغوب، يا ستي».

«لا أفهم شيئًا، يا تيتا».

«يرى أبوك أنك نلت قسطًا من الحرية أكثر مما ينبغي. لكن، ماذا نستطيع أن نفعل؟ كانت هناك حرب».

«أنا لا أفهم. لم أفعل شيئًا سيئًا».

«أنت متعَب. عليك أن تنام، وأن تستحم. أم جميل تنتظر لقاءك. سوف تصعد إلينا بعد بضع ساعات، بعد أن تستريح».

خلّص مدحت نفسه من ذراعَي جدته فلم تمانع في ذلك. دخل غرفته القديمة، واستلقى من فوره على السرير. لم يشعر بشيء أبدًا بعد أن صار في غرفته. نظر إلى النافذة القديمة حيث اعتاد الجلوس عندما كان طفلًا: لا شيء. لقد استنفدت ردود أفعاله كلّها، أظلمت تحت وقع صوت أبيه الذي ظل يتردّد في أذنيه، يجرحه. كم كان واهمًا عندما توقّع الدفء، أو أي مظهر من مظاهر الاعتزاز، أو الاهتمام! كانت تغلق في وجهه أبواب لم يدُرْ في خلده أنها مفتوحة؛ وما كان يعرف ما هو موجود من خلفها، ما كان يمكن أن يراه. بدأت مشاعر وذكريات من مونبلييه تملأ رأسه فلم يستطع ضبطها... راحت تتسرّب خارجة من زواياها. انفتح فيه حنين غدار، تدفّق من دروس فاروق في فنون القَص الرومانسي. كان ذلك بشعًا، غير متّسق؛ وكان مؤلمًا. أحس نارًا في رأسه. شد على عينيه النديتين وفكر في ذلك البيت، وأحسّ بأن كل إنش فيه كان غاليًا عليه. تذكّر نزهته الأولى في الحدائق مع لوران. ما أسخف أن يكون ذلك العصر الوحيد الذي لم يحدث فيه الشيء الكثير قد صار الآن يحسّه أكثر أهمية حتى من عودته إلى موطنه، إلى أسرته التي لم يرها منذ خمس سنين، وإلى سريره الذي كان ينام فيه طفلًا! كم هو عديم المعنى، وكم هو مرهق لعقله المنطقي، أن يشتاق هذا الشوق كلّه إلى زمن كان، في حقيقة الأمر، شديد الفقر بالمسرات، شديد الغنى بالألم!

## - 4 -

قال جميل: «إذًا، من ستكون؟».

قال مدحت: «من ستكون ماذا؟».

كان أشخاص يتجادلون خارج الخان. مد مدحت رأسه للنظر إليهم من بين أثواب القماش المعلّقة، لكنه لم ير إلا رؤوسهم من الخلف.

قال جميل: «زوجتك؟ من ستكون زوجتك؟ أعني... هل عرفت؟».

«لا. لا أعرف. ما الذي يجري في الخارج؟».

«الأمر هكذا دائمًا. قد تتكوّن عندك فكرة كاملة عندما تعمل هنا كل يوم».

خطا مدحت عبر عتبة متجر الكمال. رأى عند آخر الساحة، إلى جانب برج ساعة المنارة، جنديًا بريطانيًا يشير إلى شخص يقود عربة خضار وقد أحاط به جمع من المتفرّجين. لم ير مدحت إلا ظهر الجندي. كانت على رأسه قبعة مقببة، وكانت بدلته العسكرية بلون الرمل وبنطلونه قصير حتى الركبتين. كان أسفل ساقيه ملفوفًا بما يشبه ضمادًا، وبندقية معلّقة من إحدى كتفيه. رأى في يده كتابًا يلوح به في الهواء. كان وجه سائق العربة مرئيًا، لأنه مرتفع؛ وكانت ردود أفعال الناس المجتمعين منعكسة عليه: الانزعاج، والتسلية، والسخط. سُمع صوت رجل ثالث، نابلسي أيضًا، كان واقفًا إلى الجهة الأخرى من العربة.

صاح الرجل بسائق العربة: «بس احكيلو. البندورة، أديش عندك؟».

«لم أعُدّ البندورة. لماذا أعد البندورة؟ حمار!».

«لماذا هو غير متعاون؟».

«إنه... يقول... إنه يقول إنه لم يعد البندورة».

«يا رب السماء!... هل تستطيع سؤاله عن الأوبرجين؟».

«ما هو الأوبرجين؟».

«هذا هو».

«أدّيش عندك بيتنجان، يا معلم؟».

«أديش عندي بيتنجان، حمار. بعرفش».

«يقول إنه لا يعرف».

«يا إلهي! ويلسون... تعال من فضلك. إنهم يثيرون جنوني».

«نعم سيدي، بم أساعدك؟».

«هل أصبت شيئًا من التوفيق مع الآخرين؟».

«لدي قائمة هنا».

«جيد. لدينا مشكلة مع هذا. لا، لم أنته منك بعد. لا تذهب. من فضلك، قل له ألا يذهب، لم ننته منه بعد».

«سيدي، يقول إن عليه أن يذهب إلى المسجد الآن».

«لا تبالِ به. لم ننته منه بعد».

قال ويلسون: «سيدي... سيدي، من الأفضل أن نتركه الآن. إنهم يحبون التسبب في وقوع مشكلة. لقد رأيت هذا من قبل».

نظر السائق إلى الناس بعينين متّسعتين، وتظاهر بالحزن. خطر في ذهن مدحت أن الرجل يتظاهر بأنه لا يفهم الإنجليزية.

قال الجندي الأول للترجمان: «ما اسمه. سوف أسجل اسمه».

«اسمه؟».

«أجل. ما اسم الرجل؟».

«اسمه هو...».

«ما اسمه؟ هيا».

صاح واحد من بين المجتمعين: «الحرامي».

«اسمه الحرامي».

ضحك الجميع. استدار الجنديان وسارا خارجين من الساحة مارَّين بمتجر الكمال حيث كان مدحت واقفًا. كان مع كل منهما دفتر. وكان الجندي الأول، الذي توحي الشارات على سترته بأن له رتبة أعلى، ذا شاربين أسودين عريضين، ونظارتين. كانت وجنتاه شديدتي الاحمرار حتى بدا كأن الشمس قد أحرقتهما.

سأل مدحت بعد أن تفرّق الناس: «من كان هذا؟».

«سائق العربة؟ أبو أمين، شخص مضحك كثيرًا».

«لا، البريطاني».

«أوه، إنهم يحاولون دائمًا تسجيل كل شيء. لا يستطيعون ضبط اليهود؛ ولهذا يحاولون ضبط الخضار بدلًا منهم. انتظر، أنت لم تنته من إخباري عن تلك المرأة الفرنسية».

«تعني جانيت؟ حسنًا، سأكون صادقًا معك. لقد أردت الزواج منها حقًّا. لكني كنت صغير السن، ولم أدرك ما أفعله». صمت بعد أن قال هذا.

قال جميل بشيء من رقّة غير متوقّعة: «في آخر الأمر، العائلة هي كل شيء. ونحن كلنا مدينون لآبائنا. لكنك صرت مجنونًا. ألم تصر مجنونًا منذ سفرك؟».

ضحك مدحت: «يا الله... آمل ألا يكون هذا صحيحًا. قل لي، كيف هو وضع الجيش؟».

«ليس جيدًا. لكن، في الآونة الأخيرة... انظر، هل نحن مضطران للبقاء هنا؟ ألا يمكننا الذهاب إلى الشيخ قاسم؟».

«انتظر. يا هشام».

ظهر هشام آتيًا من آخر المتجر، فاردًا يديه وقد امتدت بينهما قطعة من قماش أحمر لها شرّابات.

«نعم، مدحت بك؟».

تردّد مدحت: «نحن ذاهبان إلى المقهى، يا هشام».

رفرفت عينا هشام. نظر إلى جميل، ثم أطلق من شفتيه صوتًا لا معنى له. قال له: «لن نتأخّر، أعدك بهذا».

«إن شاء الله، إن شاء الله». انحنى هشام وهو يقول هذا، فاهتزت الشرابات.

كان مقهى الشيخ قاسم أكثر مقاهي نابلس شعبية. وكان ممكنًا للمرء أن يجد فيه صحبة في أية ساعة يقصده. على امتداد الجدار المرتفع ذي اللون الأخضر الباهت، كانت رؤوس الرجال ظاهرة دائمًا تنطلق منها سحائب دخان النارجيلة منتشرة في الهواء، وتتردّد في ثناياها أصوات المتكلمين. دخل من خلف جميل، فبلغت آذانهما جمهرة أصوات متداخلة كأنها نغمة واحدة. وفي اللحظة عينها، شاهدا نحو ثلاثين أو أربعين رجلًا، شيبًا وشبانًا، متجمّعين من حول طاولة في عمق المكان. على ضوء نافذة قريبة، كانت صحيفة تُقرأ بصوت مرتفع.

«آلاف وآلاف من الناس يتظاهرون في دمشق، منادين بالحرب ضد الفرنسيين. وقد سرت شائعات في الآونة الأخيرة بأن الأمير فيصل قد أبرم اتفاقًا مع كليمنصو...».

كان هناك شاب يستند إلى ظهر كرسي ينقر برأس قدمه على الأرض من خلفه. رآهما فوقف منتصب القامة.

«مدحت كمال!». كان ذلك تحسين كمال أحد أبناء عمومة مدحت. عانق الشاب مدحت. ومن خلفه، كان واحد آخر من أبناء العمومة، وصفي الذي كان في الجامعة في إنكلترا؛ وكذلك قيس كرك وعادل جوهري، الصديقان المقرّبان اللذان طالت لحيتاهما وصار صدراهما عريضين منذ أن رآهما آخر مرة. كان هنالك أيضًا، برهان حمّاد، أصغر أبناء الحاج نمر. لا يتجاوز عمره أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا، لكنه صار أطول

الشباب المجتمعين قامة: رقبة طويلة ووجه ضيق. وإلى الناحية الأخرى، تقدّم للسلام عليه شابان شقيقان من عائلة مراد كانا من أبناء عمومة هاني غير المباشرين: باسل ومنير.

سرى اسم مدحت بين المجتمعين، فالتفتت إليه وجوه جديدة، ونهض مزيد من الناس لرؤيته.

«حبيبي مدحت، مدحت بك».

في الضوء القادم من النافذة، نهض قارئ الصحيفة ذو الصوت الجهير. تغيّرت ملامح هذا الرجل أيضًا، فلم يعرفه مدحت إلا بعد وهلة قصيرة. إنه الحاج عبد الله عطوان، واحد من كبار عائلة عطوان، لكنه ليس أكبرهم. إنه صاحب مصنع عطوان للصابون.

كانت هناك طرق متعدّدة لرسم معالم النسيج الاجتماعي لمدينة نابلس. يصف بعض الناس المدينة مقسمين إياها إلى غرب وشرق، ويقولون إنهما عالمان منفصلان لا يلتقيان إلا في سوق الأقمشة خلال الأعياد الشعبية، عندما يشارك شباب الجانبين في منازلات استعراضية ترخي التوترات التي تراكمت خلال الموسم. ويعزو البعض الآخر التنافس بين القسمين إلى خصومة قديمة بين القبائل القيسية والقبائل اليمنية، خصومة يرجع تاريخها إلى عهد الاستيطان الإسلامي المبكّر في أرض كنعان. تتركّز تلك الخصومة القديمة الآن في منافسات بعينها بين العائلات المختلفة، دار عطوان ودار عمر ودار مراد، تلك المنافسة التي بلغت أوجها خلال الحرب الأهلية في القرن الماضي. لكن هناك من يهز كتفيه ويقول إن هذا ليس إلا انقسامًا جغرافيًا طبيعيًا، فالشرق يبقى مع الشرق والغرب يبقى مع الغرب، إلا أن هناك أيضًا من يقول إن لدى الجانبين عادات مختلفة، وإن جذر الانقسام كامن في ذلك الاختلاف بين العادات. فعلى سبيل المثال، يأكل الشرقيون الكنافة على الإفطار، ويأكلون معها خبزًا؛ في حين تكون الكنافة نوعًا من الحلوى يتناوله الغربيون بعد وجبة الغداء. من هنا، فإن تلك المنافسة بين الشرقيين والغربيين ليست أكثر من استقطاب طبيعي نابع من العادات وطرق تناول الطعام.

لكن الحقيقة هي أن المدينة لم تكن دائمًا منقسمة على هذا النحو. ما جرى هو أن ازدياد الثروة في نابلس عند منعطف القرن، مع ازدياد نشاط الطرق التجارية بين مصر ودمشق وبيروت، جعل العائلات الكبرى تتخذ اتجاهات مختلفة في توجّهاتها، فنشأت تحالفات متنوّعة. وأكثر الأحيان، كانت هذه الاصطفافات قائمة على قصص الاقتتال الداخلي الموروثة؛ وحتى إن كانت تلك القصص حديثة العهد، فقد راح الناس يزعمون أنها قديمة ويتّخذونها سندًا لتصرفاتهم الحالية. فإذا أراد واحد من عائلة عمر

الاعتداء على واحد من عائلة عطوان، لكنه لم يجد ذريعة تبرّر له ذلك، فإنه قادر دائمًا على العودة إلى معسكر أسلافه اليمنيين لكي يستمد منه قصة عتيقة يبرر بها سلوكه.

ومع تطوّر صناعة الصابون والنسيج في المدينة، صار حدوث هذا الأمر شائعًا: ازدادت أوقات الراحة لدى الرأسماليين الجدد مع تناقص ساعات عملهم، وبدأت النمائم تفعل فعلها المدمر في صالونات الأثرياء. مع الثروة أتت التعاسة، ومع التعاسة أتت الدسائس والمكائد وتبادل النكات القاسية. وبعد أن كانت النساء تخرجن إلى الحقول لحصاد القمح وجني الزيتون، صرن حبيسات بيوتهنّ فازددن سمنة بين وسائدهنّ وتحولت طاقتهنّ إلى الإنجاب والموسيقى وتسقّطِ ما يتيسر من إشاعات عن الخصوم.

كان عبد الله عطوان رجلًا مصفرّ الجلد، خفيف الشعر، له غضون عميقة إلى جانبي فمه جعلت سنه يبدو أكبر من حقيقته، على الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والأربعين. كان معروفًا عنه ولعه باستذكار قصص الحرب التي نشبت بين عائلتي عطوان وعمر، واستعراض أسماء من ارتكبوا الجرائم، وكذلك أسماء ضحاياهم.

من بعد طبقة العائلات مالكة الأراضي، كانت هناك طبقة عائلات العلماء، كعائلة حمّاد، ممن بدأوا بدورهم يمارسون هيمنة على الحياة السياسية. ومن تحت هؤلاء، تأتي طبقة العائلات التجارية حديثة العهد بالثراء، التي صارت تنازع العلماء على النفوذ السياسي. وكانت المشاعر مختلطة إزاء هذه المجموعة الجديدة من العائلات الصاعدة (من بينها عائلة كمال) التي راحت تلتحق بالأحزاب نفسها، وتشارك في المؤتمرات نفسها، وتتزوّج نساء العائلات الأخرى.

لكن من الممكن، بطبيعة الحال، أن يبني الرجل صداقات تخالف ما يمليه التاريخ. وقد ينحّي التاريخَ جانبًا عندما يركع للصلاة في المسجد الأخضر. لكن عبد الله عطوان لم يكن رجلًا من هذا النوع. بعد أن وضع الصحيفة من يده -لا بسبب دخول مدحت، بقدر ما كان ذلك نتيجة تشتت انتباه جمهوره المصغي إليه- نهض عبد الله عطوان واقترب للسلام على مدحت. كان ذهنه مليئًا بانقسامات المجتمع القديمة والنزاعات بين الأسلاف.

قال: «الحمد لله على السلامة».

ردّ مدحت: «الله يسلمك».

قال عبد الله: «إن أعمال والدك في أحسن حال».

قال برهان حمّاد: «أنت أوروبي... انظروا إليه».

في ذلك الصباح، لم يفكّر مدحت في الأمر عندما تناول بدلته المقلّمة التي اشتراها من شارع رويال، فلبسها وخرج إلى المدينة حاملًا عصاه فولاذية الرأس. نظر إلى ما كان

الحاضرون قد ارتدوه من بدلات محلية الصنع، وإلى ربطات عنقهم التي خاطتها لهم نساء البلدة. أخرج علبة السجائر من جيبه وقدّمها إلى برهان. على الرغم من صغر سنه، كان لبرهان شارب يشمّعه ويعتني به عناية حسنة. راح ينظر إلى بدلة مدحت معجبًا بها.

صاح قيس كرك: «يلا، مدحت! أخيرًا، عاد الشباب كلهم».

سأل مدحت برهان بعد أن أشعل كل منهما سيجارة: «كيف أنا أوروبي؟».

ضحك برهان نافثًا الدخان من فمه: «إنها طريقة تصرفك».

جلس مدحت إلى طاولة في وسط المكان، وتشكّلت من حوله دائرة جديدة. طلب جميل القهوة، وبدأ بعض الفتيان يطلبون من مدحت أن يروي لهم قصصًا.

سألهم مدحت: «ماذا تريدون أن أخبركم؟».

قال تحسين: «أخبرنا عن النساء».

كانت لدى أولئك الفتيان والرجال جميعًا -بعد أن كبروا خمس سنين- قصص مختلفة عن مدحت. فحتى خلال هذه الدقائق الخمس التي انقضت منذ وجوده معهم، رأوا فيه جوانب لم يكن يراها فيه من عرفوه في فرنسا. شعر مدحت بالخجل جراء انكشافه على الآخرين. ما كان قادرًا على إخفاء، ولا حتى على رصد، ما بقي فيه حيًا من طباعه التي كانت له في طفولته، أو ما كان فيه من صفات شخصية يعرفها الناس عنه. نزوعه الطفولي إلى حلويات بعينها، -أو إلى ألعاب بعينها- تلك الأشياء الصغيرة التي تتضخّم في نابلس فتغدو معالم للشخصيات التي يرسمها الناس ببساطة، ويتحدّثون عنها فتصير مادة جاهزة لبناء القصص. تمنّى مدحت لو أنه قادر على عزل هذه السمات وإزالتها، لا لأنه رآها عيوبًا، بل لأنها تحدّده على نحو لا يريده.

لقد كان واضحًا منذ الآن أن الرجال الجالسين من حول مدحت يجدونه غريبًا. ولعله كان لديهم سبب وجيه لهذا: فبالنسبة إلى مدحت، ذكّره طعم القهوة بنهر السين؛ وذكّره الضوء الآتي من النافذة بالثريات وبوجوه النساء.

قال جميل: «كان مدحت يخبرني قبل قليل عن قصة حب عاشها في باريس».

نظر مدحت إلى ابن عمه، فأجابه جميل بابتسامة.

«لم يكن ذلك في باريس، يا جميل».

«أنت قلت أن ذلك حدث في باريس».

«لا... أنا... في باريس، كان هناك...».

قال تحسين: «أخبرنا، يا مدحت».

بدأ مدحت يكوّن شخصية امرأة مركبة من عدة نساء كان ينام معهن كثيرًا. ماريا ذات الحذاء القماشي، ونيكول ذات الشعر الأحمر، أبعد روائح أجسادهن عن ذهنه، ونثر

عليهن عطر البنفسج، وخلط قصصهن بمشاهد من بعض الأغاني الشهيرة، إلى أن صاح واحد من الجالسين: «أنا لا أصدق هذا».

ضحك مدحت، فأثار ضحكه مرح الآخرين. قال لهم بالفرنسية: «Ça y est[1]».

كان جميل ينظر إليه كاتمًا ضحكه. خطر في ذهن مدحت أن عليه أن يسأل جميلًا عن مغامراته في القسطنطينية، لقد صار ابن عمه جميل شابًا وسيمًا ذا تقاطيع منسجمة كالتي يراها المرء في التماثيل -حاجبان مستقيمان، وثنية في وسط شفته، وأنف معقوف قليلًا- وكان صدره عريضًا كأنه صدر ضابط، وكتفاه منتصبتان من تحت سترته. شاب وسيم حقًا... لا بد أن لديه قصص غزوات كثيرة.

سأله وصفي كمال: «هل ستشتغل بالسياسة، يا مدحت؟».

قال مدحت: «إنني أشتغل بالسياسة منذ الآن».

«حقًّا؟». قالها جميل وضربه بظهر يده على كتفه.

«في باريس، بطبيعة الحال، كان هناك عددٌ من النشاطات السياسية. مناقشات، ومؤتمرات. هناك أشخاص كثيرون في المنفى. جمعية العربية الفتاة...».

قال وصفي: «هل أنت عضو في العربية الفتاة؟».

«لا، لم أكن عضوًا فيها. لكن صديقي العزيز، هاني مراد، كان واحدًا من مؤسّسيها الأصليين... وهو يكتب لي أحيانًا. إنه الآن سكرتير الأمير في المؤتمر».

قال وصفي: «أوه، شيء جميل. شيء مهم جدًا».

عند سماع هذا الخبر، تكلم عبد الله عطوان للمرة الأولى بعد انتقال الجميع إلى الطاولة الجديدة.

«إذًا، ما هي آخر الأنباء... إذا كنت مطلعًا إلى هذا الحد، مثلما تقول؟ هل أبرم فيصل صفقة مع الفرنسيين، أم لم يفعل ذلك؟ هل ستكون سورية مستقلة؟ يخيل لي أن هاني مراد يوافيك بآخر الأنباء، إلا إذا كنت تبالغ في الحديث عن صلتك القريبة به».

قال قيس كرك: «اهدأ، يا عمو. دعه يتكلم».

قال مدحت: «لا بأس، حسنًا. الصورة العامة التي فهمتها من رسالة هاني...».

«هذا يعني أنها رسالة واحدة فقط!».

«... هي أن الفرنسيين والبريطانيين قد اتفقوا في ما بينهم. هذا ما يقوله البريطاني لورنس. إذًا فإما أن يكون... حسنًا، كان عليه أن يبرم صفقة مع الفرنسيين، أو أن يواجه جيوشهم».

---

(1) هكذا هو الأمر.

قال منير مراد: «كنت أعرف هذا».

قال وصفي: «هل أبرم صفقة بالفعل؟ يا الله! هذا، بالضبط، أسوأ ما كان يمكن أن يحدث».

مالت أجسادهم مبتعدة عن الطاولة تحت تأثير الصدمة، لكن منير مراد، مال مقتربًا من مدحت.

سأله: «وماذا عن فلسطين؟ هل قال لك شيئًا عن موقف فيصل من الصهيونية؟ إن الصحف لا تقول شيئًا عن هذا إلا 'هناك إشاعات تنتشر'... وكلام فارغ من هذا القبيل».

رفع عبد الله رأسه منزعجًا، وطوى الصحيفة نصفين، كأنه لم يكن مجرد مشترك فيها، بل كاتبها نفسه.

قال مدحت: «لا. لم يقل شيئًا. شعوري هو أن فلسطين يجب أن تكون جزءًا من سورية لأن الوحدة أقوى من الاستقلال».

لم يكن هذا هو الموقف الذي يدافع عنه دائمًا في باريس، لكن نبرة الأسئلة التي سمعها أوحت له أنه سيكون رأيًا محبذًا سماعه لدى النابلسيين. ثم إن عبارة «الوحدة أقوى من الاستقلال» التي سمعها كثيرًا في شقة فاروق، كانت عبارة يسهل ترديدها.

قال منير مراد: «حبيبي... من الطبيعي أنه ينبغي علينا أن نكون جزءًا من سورية. تذكّر أنك في نابلس. هذا ليس إحساسًا، بل حقيقة. وأما الكبار كلّهم الذين في القدس، ممن يقولون بغير هذا، فهم ليسوا خائفين إلا على طرابيشهم. شيء محزن. من الذي يجب أن تخاف منه على طربوشك؟ الأمير فيصل، أم لويد جورج؟».

قال مدحت: «وماذا عنكم أنتم؟ هل تشتغلون بالسياسة؟».

تبادل منير وباسل مراد نظرات سريعة في ما بينهما. هز منير رأسه.

«نحن عضوان في الفدائية».

الآن، جاء دور قيس كرك وعادل جواهري في تبادل النظرات. بدت الدهشة على وجه عادل.

قال مدحت: «وما هي؟ لم أسمع بها».

قال باسل: «إنها جديدة».

قال تحسين كمال: «إنها جمعية في حيفا».

قال باسل: «صحيح. لكنها صارت الآن في نابلس أيضًا».

قال برهان: «إنهم يعملون مع الفلاحين».

قال باسل: «هل أنت مطّلع جيدًا على الأمر؟».

قال قيس كرك: «باسل... على مهلك!».

قال مدحت: «حقًا؟ هل يعني هذا أنهم يعملون في الحقول؟».

ركل جميل ساق مدحت من تحت الطاولة.

قال منير: «لا. هدفنا هو استقطاب فلسطين كلها».

قال تحسين بنبرة سريعة: «إن لديهم قَسَمًا مفاده أن من يخونهم يجب أن يُقتل. حتى إذا كان صديقك».

شد برهان حمّاد على أسنانه، واتسعت عيناه.

قال منير: «تحسين...». لكنه لم يبد اعتراضًا. لم يظهر عليه شيء غير أن جلسته ازدادت انتصابًا عند سماع تلك الكلمات.

قال عادل جواهري: «مشكلة هذه الجمعيات أنها في حاجة إلى المال. ولما كانت نابلس أغنى مدينة، فإن الأمر ينتهي بأن ندفع نحن التكاليف، من غير أن يساهم غيرنا بشيء».

«لست واثقًا من أن هذا صحيح، يا عادل».

«بل هو صحيح. تريد هذه الجمعيات أن يكون لها وجود على امتداد البلاد، لكن هناك الكثير ممن لا يقومون بواجبهم. وكالعادة، نحن من هم الأكثر قومية. أما الآخرون... أعني أن الجمعيات ترسل العرائض والالتماسات. وتشتري الأسلحة... مسدسات صغيرة لا بنادق ألمانية حقيقية. صحيح أن البنادق الألمانية لم تنفع الأتراك كثيرًا، لكن لدى البريطانيين أطنان من الأسلحة، وليس لدينا شيء منها».

قال تحسين كمال: «طالما بقي اليهود من غير شيء، فلا أهمية لأن نكون من غير شيء أيضًا. مثلنا مثلهم».

قال منير مراد: «مثلنا مثلهم؟! هل فقدت عقلك؟ اليهود في إنكلترا... هل تعرف مقدار ما لديهم من مال؟ إن لديهم إمبراطورية. لقد بدأوا الاستيطان هنا، وهم يلعبون لعبتهم مع الفلاحين في الشمال. هذا هو سبب عدم وجود المال... يذهب كلّه إلى اليهود. يمكنك القول إن هذا نتيجة الحرب، لكن الحرب انتهت منذ سنة؛ فما الذي تغير؟».

قبض عبد الله عطوان على زمام الحديث. قال: «علينا أن نقاوم اليهود جميعًا؛ حتى يهودنا نحن... اليهود الذين في فلسطين».

قال أحدهم: «ليس لدينا في نابلس إلا عشرة من اليهود. وهم عرب».

قال شخص آخر: «ماذا عن السامريين؟».

قال ثالث: «السامريون ليسوا يهودًا».

قال عبد الله: «بل هم يهود».

كانت الحقيقة أن أحدًا من الرجال الجالسين في مقهى الشيخ قاسم في ذلك اليوم، إلا قلة صغيرة منهم، لم يلتق قط يهوديًا أوروبيًا. ثم إن مستوطنات ييشوف كان أكثرها بعيدًا جدًا عن جبل نابلس. وهذا ما أدى إلى أن تكون فكرتهم عن الأوروبيين اليهود، رجالًا ونساء، مستمدّة من اليهود المتدينين، المقيمين في القدس ممن لم يكونوا صهاينة أصلًا؛ وكذلك من السامريين في نابلس ممن يزعمون أنهم أصل الإسرائيليين القدامى، ويعتبرون جبل جرزيم القمة المقدسة التي دُعي إبراهيم إلى التضحية بابنه فوقها.

لكن غضب عبد الله عطوان كان عامًّا؛ وكان له موقف معادٍ لأولئك جميعًا. كان قادرًا على التقاط الحماسة المتّقدة الناتجة عن الإحساس بالسخط، وعلى إكسابها مظهر غضب قَبَلي عارم من خلال بضع كلمات تشدّد على سنه وحكمته. لم يكن مهتمًا بالاختلافات الصغيرة والفوارق الدقيقة بين يهودي وآخر.

لم يخرجوا من مقهى الشيخ قاسم إلا بعد الخامسة. بدأت الظلمة تثير ريح المساء المتجمّعة في الوادي. عاد مدحت إلى الخان مسرعًا، خجلًا من تأخّره. بلغ زاوية المتجر فرأى قسم الخياطة مغلقًا بعد أن انتهى عمله، لكنه لمح ضوء مصباح هشام عند طاولة البيع. اتخذ هيئة الشخص اللطيف اللامبالي، تلك الهيئة التي كان يستخدمها لاسترضاء النساء الغاضبات منه. أسلوب قائم على فكرة مفادها أن الشخص الذي أصابه جرح يصير أكثر ميلًا إلى نسيان الإساءة إذا تظاهر بأن الأمر لم يحدث أبدًا، أو بأنه لم يكن أكثر من غلطة بسيطة عابرة.

اقترب منه وقال: «يا عمو هشام! وجدت صعوبة في تخليص نفسي منهم. كان ذلك حديثًا مع سليم الشاب. إنه يفكّر في شراء قماش من عندنا من أجل كسوة ابنته. قال إنها ستكون طلبية كبيرة. على أية حال، وقفنا زمنًا طويلًا نتحدّث بالقرب من مقهى الشيخ قاسم... قد يأتي غدًا. لكني أظن أيضًا أنه قال هذا الكلام، وزعم أنه يريد الشراء، لأنه لم يرني منذ فترة طويلة...». رفع كتفيه بحركة تواضع كاذبة... «لكني أظن أن هذه هي مشكلة كل من يأتي حديثًا إلى المدينة... يصير الجميع في غاية التهذيب معه. لكن، لا تقلق... قريبًا، سأصير شخصًا قديمًا هنا».

نظر إليه هشام مضيّقًا عينيه: «من هو سليم؟ لا أعرف شخصًا بهذا الاسم لديه بنت موشكة على الزواج».

«أوه، إنهم من شرق نابلس»... لوّح مدحت بيده... «لا تعرفهم».

هزَّ هشام رأسه: «طيب...» أغلق دفتر الحسابات بهدوء... «يمكنك الذهاب إلى البيت الآن. لقد تأخّر الوقت».

## - 5 -

قالت وداد حماد: «اسمعي، يا فاطمة. أم طاهر كمال دعتنا لكي نشرب القهوة عندها بعد ظهر اليوم». كان ذلك في الطريق إلى الحمّام.

كانت فاطمة ونزهة تسيران متأخرتين خطوة عن أمهما. ثلاث نساء في ملابس من الموسلين الأسود. كانت نزهة أقصرهن قامة. وكانت هي من تحمل السلة.

قالت نزهة: «من، ماما؟».

«ليس أنتِ، فاطمة فقط». لم تجب فاطمة بشيء. خارج المتاجر الممتدة أمامهنّ، رأت فاطمة عدة رجال جالسين من حول نارجيلة. كان الرجال صامتين. عند اقترابهنّ، مال الرجل الممسك بخرطوم النرجيلة برأسه إلى الخلف. تصاعد الدخان من فمه المفتوح فحجب وجهه. تابعت وداد وفاطمة ونزهة سَيْرهنّ. كانت المسامير الحديدية في أعقاب أحذيتهن ترنّ على الأرض الصلبة. انعطفت النساء الثلاث عند الزاوية، فتابعت وداد كلامها:

«تقول أم داود، إن تلك المرأة من عائلة كمال لا تكفّ عن الحديث عن حفيدها منذ عودته من الخارج. حفيدي فعل كذا. حفيدي كان يعيش في باريس. ليس من هنا... هذا هو الطريق، حبيبتي. أنا واثقة من أنها ستطلبك زوجة له، يا فاطمة. ولهذا، فلا حاجة إلى ذهاب أختك معنا. حرام، نزهة. لكن الأمر كلّه لا معنى له لأن فاطمة ستتزوج من ياسر».

«لكن، ماما».

«لا أريد الحديث في هذا الأمر الآن».

ضاق الطريق بعد تجاوزهن حي الياسمينة. اقتربن من الخان. كانت تلك الساعة بعد صلاة الظهر عندما يهدأ كل شيء في السوق ويعيد أصحاب المتاجر ترتيب الفاكهة والخضار في صناديقها لإخفاء التالف منها، أو يجلسون على الكراسي أمام متاجرهم ويثرثرون، أو تتابع عيونهم الأطفال الذين يلعبون الكرة بين القناطر. برجِ الساعة إلى الأمام، وجامع النصر إلى اليمين. تجاوزت النساء الثلاث المسجد وعبرنَ بوابة الحمّام الحجرية.

تأتي وداد مع ابنتَيْها مرة كل أسبوع. الحمّام مهمّ لصحة الجسد؛ لكنه أكثر أهمية لصحة الجسد الاجتماعي. فبصرف النظر عن الاستقبالات التي تقيمها النساء في

بيوتهنّ، يظل الحمّام مكانًا تستطيع فيه السيدات تبادل الأحاديث. ثم إنه يتيح فرصة النظر إلى بنات المدينة بحثًا عن زوجات للأبناء: في الاستقبال، تكون الفتاة في ملابس من المخمل والدانتيلا المطرّزة، أو أية ملابس أخرى تسمح باستعراض ثرائها وذوقها، بقدر ما يكون لديها من هذا أو من ذاك... وأما هنا، حيث تكون الفتيات عاريات في بخار الحمام، فإن من الممكن معرفة ما جادت به الطبيعة على كل واحدة منهن.

قالت نزهة: «من هو كمال؟».

«أعطني المناشف، حبيبتي».

تقدّمتهما أمهما في ظلمة الردهة. نزعت كل واحدة منهنّ حجابها؛ ودفعت الأم للمشرفة على الحمام. فكّت الثلاث فتيات أزرار فساتينهن في الصالة الأولى، ووضعن وزرات مخططة وانتعلن قباقيب خشبية. وفي الصالة الثانية، كانت بقية المستحمّات متجمعات هنا وهناك كأنهنّ مخلوقات لامعة خارجة من البحر بين سحب البخار. صاحت وداد محيية صديقاتها. اتجهت عينا فاطمة إلى حيث كانت النساء تدخلن خلوات الاستحمام الخاصة، لكنها ظلت تتظاهر بالنظر إلى الأرض. كانت تحبّ رؤية النساء تخلعن وزراتهنّ. تقول لها أمها دائمًا: لا تنظري إليهنّ! لكن، كيف تستطيع ألا تنظر إليهنّ؟ تظهر أمامها تفاصيل أجساد نساء المدينة كلهنّ. جلودهن لامعة بالماء والعرق، مبرقشة في الضوء الملوّن الساقط من فتحات في السقف. كانت تحب النظر إلى ظهور النساء المسنّات، وإلى الدهون المتراكمة على أردافهن في طيات ثخينة كأنها طبقات من عجين.

دخلت فاطمة إحدى الخلوات سائرة خلف نزهة. نظرت إلى صدرها الذي جعله وجيب قلبها يعلو ويهبط، ثم يعلو ويهبط، بينما كانت وزرتها تسقط عن كتفيها. نظرت إلى قدميها اللتين بدأت التجاعيد تظهر عند عقبيهما. أسفل القدمين ناعم بفعل المشي؛ وبقايا سوداء من نسيج الجوارب عالقة في التجاويف المتعرّقة بين أصابع القدمين. كان الشيء الوحيد الذي تقوله أم فاطمة لها عن جسدها هو أن عليها أن تدعكه جيدًا. أو، يمكن أن تدعكه عاملات الحمام جيّدًا فتزلن عنه لفافات من الجلد الميت وسط رغوة الصابون المصنوع من زيت الزيتون. تصير الأطراف والظهر والبطن ناعمة كلها، محمرّة لكثرة الدعك. ينتهي الأمر، وتصير المهمة ناجزة، وتخرج النساء الثلاث إلى الهواء الجاف في الخارج من غير قول أيّة كلمة أخرى عن الحمّام. عندما تغيّر فاطمة ملابسها في البيت، تفعل ذلك على عجل من غير أن تنتبه كثيرًا إلى الجسد الذي تغطيه وتكشفه. وأما هنا، في الحمام، حيث كانت الغرف الحارة المظلمة تحمل شحنة سحرية، حيث يخترق الضباب ضوءٌ منحدر من نوافذ السقف الدائرية الملونة، وتثرثر

النساء المتمهّلات المرتديات وزراتهنّ وتتبادلن النمائم جالسات على مقاعد عند الجدران، وتستنشقن البخار وهن تتناولن البطيخ والجبن من صواني القصب التي تأتي بها الخادمات. هنا، نظرت فاطمة إلى ساقيها العاريتين نظرة اهتمام. عروق الدم الزرقاء منتشرة من عانتها على امتداد فخذيها. والدم ينبض في قدميها.

تغمس الخادمات ليفات الاستحمام في حوض نحاسي. ويطرطش الماء على الجدران. وتشع الأرض الرخامية حرارة. كانت الشقيقتان جالستين على مقعدين في الخلوة. ارتجّ ثديا نزهة عندما انحنت إلى الأمام. لم تكن إلا في الخامسة عشرة، لكنّ ثدييها أكبر من ثديي فاطمة. على أن ثديي فاطمة كانا أكثر استدارة. كانت عروق فاطمة غائرة عميقًا تحت جلدها، وأضلاعها ظاهرة عبر ذلك الجلد. ومن تحت الأضلاع يتكوّر بطنها نزولًا إلى وهدة في وسطه، وهدة عريضة عميقة كأن الحبل الذي ربطها إلى أمها قيما مضى كان ثخينًا ثخانة غير معتادة. جرت حبات العرق على جبهتها. انحنت حتى تدعك الخادمة ظهرها فتدحرجت حبة عرق نازلة على صفحة أنفها.

كانتِ أمها قرب الباب تتحدّث مع امرأة أخرى مستخدمة صوتها الاجتماعي. «حكيت مع أم هاشم مبارِح». كانت فاطمة تكره تلك التلاوين الكاذبة في صوتها. وكانت تحسّها ناطقة بالاستكانة. «عن جد!؟ هيك صار؟».

قالت الخادمة: «استديري، يا ستي».

قالتْ وداد: «معروف».

كثيرًا ما كانت نساء نابلس تستخدمن كلمة «معروف». على الطريق الجبلية، كان كل بيت من بيوت المدينة مرئيًا. وكان كل من تلزمه دلالة لمعرفة الاتجاهات يمكن أن يُشار له من سطح أحد البيوت إلى الوجهة التي يسأل عنها. لكن حدوث ذلك كان أمرًا قليل الاحتمال، فمن الذي يمكن أن يسأل؟ الكل يعرف المدينة. كانت أم فاطمة تستخدم كلمة «معروف» بالتناوب مع كلمة «طبعًا»؛ ولعل ذلك كان طابعًا لكل ما يدور بين النساء من أحاديث لحرص كل واحدة منهنّ على أن تؤكد على اتساع معرفتها.

تصاعد فضول فاطمة إلى معرفة أخبار عائلة كمال فبلغ الذروة. لقد رأت أم طاهر مرة في «استقبال»؛ لكن القليل الذي كانت تعرفه كان مستندًا إلى معلومات أتى بها شقيقها برهان من مقهى الشيخ قاسم ذات مساء، قبل أسبوعين. عاد إلى نابلس، قادمًا من فرنسا، رجل اسمه مدحت كمال. وهو يعمل الآن في متجر والده في الخان. لقد كان منخرطًا في السياسة. ملابسه جميلة؛ وهو شديد الوسامة. كانت له عشيقة في باريس، اسمها بولين... لكن أمّها تدخلت عند هذه النقطة فأنّبت برهان لقوله أشياء غير لائقة، وضربته على ظهر يده.

أزالت فاطمة ونزهة الصابون عن جسديهما، ثم وضعتا وزرتيهما من جديد، وعادتا إلى الصالة الكبيرة لتناول المرطبات. كانت صواني الطعام مصفوفة إلى جانب البركة. وكانت نارجيلات مصطفة على امتداد الجدار؛ خرطوم كل منها ملفوف حولها. أفسحت لهما أمهما مكانًا على المقعد إلى جانبها. عندما كانت الفتاتان أصغر سنًا، كانتا تتنافسان في تناول الطعام. لم تكن كل منهما تحاول التفوّق على الأخرى في كمية الأكل وسرعته (مثلما قد تفعل فتيات من أسرة محتاجة)؛ بل كانت المنافسة متركزة على التمهّل في الأكل، وعلى إبقاء أكبر كمية من الطعام حتى النهاية... تكون الفائزة من تُبقي في صحنها كمية أكبر من الطعام! نظرت فاطمة إلى نزهة وهي ترفع قطعة مربعة من البطيخ إلى شفتيها. انغرست أسنانها فيها، ولمعت شفتاها.

قالت امرأة لأمهما، من الجهة الأخرى: «سمعت أنهم صاروا يصنعون صابونهم بأنفسهم».

قالت وداد: «معروف».

لكن امرأة أخرى كانت ماضية في كلامها عن أمر أكثر تشويقًا: «كانت غاضبة كثيرًا، فقالت له: لن أنام معك. أريد الطلاق. لذا، يعني، أضربت ورفضت أن تنام على السرير. ذهبت لتنام على الأرض، في الحمّام. قالت إنها ستظل هناك إلى أن يطلّقها. أخذت معها بطانياتها، يعني... وأخذت زهورًا، وجعلت المكان هناك جميلًا. و... عادت ذات يوم فوجدته في الحمام. كان نائمًا على الأرض حيث وضعت أشياءها الجميلة كلّها. قالت له: شو صار؟ قال: لقد جعلتِ هذا المكان جميلًا جدًّا. أنا أريد أن أنام في الحمّام أيضًا».

ضحكت النساء حتى كدن ينقلبن على ظهورهنّ.

كان جلد أصابع فاطمة مجعّدًا عندما خرجن من الحمام. ذهبن إلى البيت أولًا لإيصال نزهة، ثم تابعت مع أمها السير إلى بيت عائلة كمال على جبل جرزيم. كان الموسلين ناعمًا على جلدها. ضغطت الريح نسيج الحجاب على فمها فصارت أنفاسها النديّة تدفئ وجهها كله.

فتحت خادمة الباب لهما. خاطبتها وداد باسم أم محمود. أدخلتهما أم محمود غرفة الاستقبال حيث جلستا على الأريكة متجاورتين. كان النسيم يعبث بالنافذة.

ظهرت أم طاهر عند الباب مبتسمة، وقالت: «السلام عليكما». كان فستانها الأحمر مطرزًا بخيوط سوداء. وكان شعرها الفضي مسرّحًا إلى الوراء ومجموعًا في عقدة خلف رأسها. وجهها مدوّر، وشفتاها ملوّنتان.

قالت وداد وهي تنهض وترفع حجابها: «وعليكم السلام». حذت فاطمة حذوها.

قالت أم طاهر: «ما شاء الله! يا فاطمة. صرت الآن أطول كثيرًا مما كنت عندما رأيتك آخر مرة».

جلست النساء الثلاث، وراحت أم طاهر ووداد تتكلّمان عن النساء اللواتي حضرن آخر حفل زفاف في المدينة.

قالت أمها: «إن البنت تغني بصوت جميل».

قالت أم طاهر: «ما شاء الله».

قالت وداد: «فاطمة، ألا تغنين لنا؟».

قالت أم طاهر: «ليست مضطرّة إلى الغناء إذا لم تكن تريد ذلك. في وقت آخر. قد تغنّي في استقبال آل عطوان. هل تعزفين على العود؟».

«بالطبع». قالتها فاطمة بصوت مختنق؛ ثم تنحنحت.

«إنها موهوبة كثيرًا في العزف على العود».

قالت أم طاهر: «العود ممتاز من أجل الروح... يمكن أن يكون مصدر راحة من أجل... من أجل النساء خاصة. أقصد... للرب. ألم تسمعي عن هذا؟ عسى أن يشملنا الله جميعًا برحمته». صمتت أم طاهر لحظة طويلة، ثم ابتسمت لهما ابتسامة أخرى... «سأعتذر منكما وأخرج لحظة واحدة».

كان واضحًا على أم طاهر أنها متقدّمة في السن، لكن حركاتها لم تكن حركات امرأة مسنة. كانت بطيئة الحركة، لكنها غير ضعيفة. معصمان ثخينان، قويّان، لكنهما ليسا مثل معاصم الفلاحين. جلدها أبيض، ونظرة عينيها ثاقبة. أغلقت الباب من خلفها، فتململت أم فاطمة في جلستها ثم تنهّدت. وضعت يدها على ساق فاطمة كأنها تطمئنها.

من خلف النافذة، وقف طائران أسودان كبيران على جدار الحديقة الحجري. تدلّت من مناقيرهما نتف من شيء ما. خفض أحدهما رأسه وراح يأكل، بينما ظل الآخر منتبهًا. لمع ريشه بلون أزرق داكن وهو يتهادى سائرًا على الجدار قبل أن يفرد جناحيه ويقفز إلى عمود البوابة حيث بدأ يأكل ما حمله. ظل الطائران برهة يتنقلان جيئة وذهابًا، ثم انطلقا فجأة صاعدين في الهواء وهما يطلقان صيحات مرتفعة. وعلى الفور، لطّخت حجارة الجدار زرقات طويلة بيضاء.

قالت فاطمة: «انظري. ترك الطائران كاكّا على جدارهم».

أطلقت أمها زفرة، فأدركت فاطمة أن هذا لا بد أن يكون فألًا سيئًا. تردّدت وداد قليلًا كأنها تنتقي ردة الفعل المناسبة. صفعت يد فاطمة: «فاطمة، هذا مقرف». نظرت فاطمة مجدّدًا إلى الزرقات البيضاء، وتساءلت إن كان صحيحًا ما سمعته من أن أم طاهر «تعاينها» من أجل حفيدها. لم تطلب سماع غنائها! إن كانت أمها تعتبر حفيد

أم طاهر غير مناسب لها، فلماذا أتت بها إلى هذا المكان؟ وفجأة، أدركت منطق أمها. لقد أتت بها بقصد المباهاة، على الرغم من أنها ليست معروضة للزواج. أحسّت بشيء من الانقباض؛ وأحست كأن الأنظار مسلطة على وجهها. سألت أمها: «ماما، ما الذي كانت تقوله عن العود، وعن الله؟».

«ليس عن الله، بل عن زوجة الحاج حسن، أم ياسر. كانت تعيسة، عدة سنوات. صارت مهووسة».

«نزيهة؟».

«أجل. غاب حسن سنين طويلة جدًا. وعندما عاد، كان لديها... خلص، لا يجوز أن نتكلّم في هذا الأمر».

«لا بأس».

«حسنًا... أعطاها حسن عودًا، جعلها تعزف على العود لأنها كانت ترى أمورًا. نزيهة كانت دائمًا متديّنة، وكانت ترى أشياء كثيرة، كل يوم. لكن الأمر ازداد، وازداد، ولم تكن الصلاة كافية لتخليصها من هوسها. لكن الموسيقى نجحت في ذلك. صارت ماهرة جدًا في عزف العود. صوت جميل. كانت تغنّي أغنيات شعبية مصرية عن هارون الرشيد، بكل تفاصيلها. لكن علينا ألا نتكلّم في هذا...». صمتت لحظة ثم أضافت... «إنها سيدة لطيفة جدًا. ستكون لك حماة جيّدة».

قالت فاطمة: «أين ذهبت؟».

«إلى زَواتا».

«لا، أعني زوجة حسن كمال».

نقرت وداد على ركبة ابنتها: «ششش».

كان ما توقّعته وداد من أم طاهر مصيبًا: لحظة إغلاق مضيفتهما الباب من خلفها. ذهبت في الممر مسرعة باحثة عن مدحت. كان مدحت جالسًا على سريره واضعًا كتابًا على ركبتيه. قالت له هامسة: «أسرع، ليس لدينا وقت كثير». تبعها مدحت في الممر. ظلّت يدها ممتدة خلفها، ممسكة بمعصمه. كانت تتوقّف بعد كل خطوة. بلغا باب غرفة الجلوس المغلق، فأشارت إلى مقبضه. مد يده إلى مقبض الباب.

همست: «حمار!...». أمسكت معصمه من جديد... «لا تفتح الباب. هل جننت؟ أنظر من الثقب. أسرع. اجلس على الأرض».

حاول مدحت منع نفسه من الضحك. جلس مقرفصًا وراحت أصابعه تزيل الغبار عن الأرض. صفعته جدته على مؤخر رأسه. رفع رأسه غير مصدّق. ضيّقت عينيها وأشارت بإصبعها إلى ثقب المفتاح.

لكن النظر من ثقب المفتاح لم يكن سهلًا. لا يتذكّر مدحت أن مفتاحًا وضع في هذا الباب. كان الغبار قد تراكم في الثقب على مر السنين وسده فلم يبق مرئيًا عبره إلا بقعة ضوء صغيرة. انبعثت من المعدن غير الملمّع رائحة باردة مخضرّة. نفخ مدحت في الثقب، لكن من غير فائدة. من فوق رأسه، أخرجت تيتا من جيبها منديلًا، وفتلت زاويته بين إصبعيها، ثم بللت تلك الزاوية بلعابها وناولته المنديل. أدخل مدحت زاوية المنديل في الثقب، ثم أخرجها ممتلئة غبارًا رماديًا. مال بوجهه على الباب. أمسكت تيتا بمقبضه حتى لا يهتز.

رأى امرأتين جالستين على الأريكة، في الناحية الأخرى من الغرفة، أم وابنتها. كان شعر الأم مصبوغًا بالحناء... لون أسود محمرّ... وكان مقصوصًا قصيرًا، مموّجًا، مردودًا إلى الخلف على طراز أوروبي. كانت في ثوب بني داكن وصدار أخضر وأحمر. كان لها أنف حاد وصدر كبير. كانت الابنة فتية، لعلها في السابعة عشرة. فتاة نحيلة بيضاء لها شعر أسود. خط أبيض من جلد رأسها ظاهر عند فرق في منتصفه. كانت عيناها مائلتين عند زاويتيهما؛ وقد ازداد هذا الميل ظهورًا بفعل خطين من الكحل الأسود على جفنيها العلويين. وجنتان مدورتان بارزتان كأنهما ترفعان طرفي شفتيها. هذا ما جعل فمها معبّرًا كثيرًا على الرغم من الحزن الذي توحي به عيناها المائلتان. لم ير مدحت قبل الآن نابلسية غير محجّبة من جيله. لم يكن يعرف غير الخادمات والنساء اللواتي من جيل جدته. وفي أحسن الأحوال، لم ير من جيله غير الراقصات في القاهرة... وليلى. كان ما يراه الآن مشهدًا استثنائيًا. كان أشبه بالنظر عبر المجهر إلى أسرار بنية الخلية. تنهّدت تيتا من فوقه. بدت الفتاة من ثقب الباب جادة. يداها معقودتان في حجرها. تململت الأم في جلستها. يقول الناس إذا أردت أن تعرف كيف ستصير الابنة، فانظر إلى أمها. ولكن، في هذه الحالة، لا بد أن الابنة تشبه والدها... لم ير فيها ما يشبه أمها.

تنهّدت تيتا من جديد. وفي لحظة كان موشكًا على إبعاد وجهه عن الثقب حتى يسألها عن الوالد، ضحكت الفتاة في الثقب. كانت ضحكة عميقة على الرغم من أن الباب الفاصل بينهما جعلها خافتة. اهتز جسدها كلّه عندما ضحكت. كانت تشير إلى شيء خارج النافذة. رفعت ذراعها كلها، من الكتف، كأنها فتاة صغيرة لم تألف حجم أطرافها. على الفور، تغير تعبير وجهها الحزين تغييرًا تامًا؛ اختفت جدّيته كلّها، وحلّت محلّها بهجة مفاجئة. قالت الأم شيئًا بنبرة حادة، وصفعت الفتاة على يدها.

ثم حدث شيء غريب، فخلال ثانية عجيبة واحدة، أدارت الفتاة رأسها ونظرت إلى مدحت مباشرة. نظرة رشقت بها ثقب المفتاح كأنها سهم. عيناها الحزينتان كبيرتان جدًا، سوداوان جدًا. ارتد مدحت عن الباب بحركة سريعة.

همست تيتا تسأله: «تمام؟».
اقتضاه الأمر لحظة. أومأ برأسه ناظرًا إلى قدميه، ونفض الغبار عن ركبتيه.
قالت تيتا: «اذهب الآن».
سار على رؤوس أصابعه متّجهًا إلى المطبخ وسمع جدته تقول من خلفه: «آسفة لأنني تأخرت عليكما. الخادمات! تصيبني الخادمات بالجنون». أُغلق الباب فانقطع صوتها.
عاد مدحت إلى غرفته، وجلس على سريره مثلما كان جالسًا من قبل. فتح كتابه. كانت الكلمات تزحف على صفحات الكتاب. لم يعرف مقدار الوقت الذي انقضى قبل أن تعود تيتا وتدخل غرفته. جلست عند قدميه. كان وجهها محمرًّا قليلًا.
نظرت إليه: «إذًا... ما رأيك، يا حبيبي؟».
«أرى أنها جميلة».
«هل تراها جميلة؟ قالت لي أم داود إن أمها تريد تزويجها من ابن عمها، ياسر حماد. لكن هذا ليس نهاية الأمر، فهم لم يخطبوها له بعد. لا نزال قادرين على فعل شيء. لدي بضعة أفكار».
«من أبوها؟».
«الحاج نمر. عالم دين كان رئيسًا للبلدية السنة الماضية. لديهم أراضٍ في زواتا. هو واحد من مؤسسي المستشفى، مثل والدك. والبنت جميلة. جميلة جدًا. إنهم يدعونها ملكة نابلس. يقولون إنها متكبّرة بعض الشيء، لكن... أظنّها مناسبة جدًا. وأظن أن أمها... يعني... إنها عائلة جيدة. لكن، أنت تعرف، لا أستطيع فعل هذا مع كل نابلسية! لا أستطيع دعوة أمها لتناول القهوة وتركك تنظر من ثقب الباب. حبيبي، لا تكن مبتئسًا هكذا!».
«أتظنين حقًّا أنني أستطيع الزواج بفتاة من عائلة حماد؟».
«مدحت، عائلة كمال جيّدة أيضًا».
«تيتا...».
«تجارة أبوك مزدهرة. ولا أرى سببًا يمنعك من الزواج من أي فتاة تريدها. أنت تاجر ثري... أو، ستكون تاجرًا ثريًا. نستطيع أن نفعل هذا. هل تريد أن نحاول؟ هل تريد الزواج من هذه الفتاة؟».
«تيتا».
«إنني أحاول العثور على أفضل خيار من أجلك. فاطمة هذه جميلة جدًا. وهي تعزف جيدًا على العود».

«لكن، كيف أستطيع؟ لا يمكنني أن أتزوج فتاة لا أعرفها».

«وكيف تعرف امرأة قبل أن تتزوّجها؟ يا ستي... تتزوج ثم تعرف الفتاة. عليك الآن أن تفكّر في الأمر. إذا كنت تريدها زوجة لك، فسوف أحاول ترتيب ذلك».

«سأفكّر بالأمر».

«يقول بابا إنك ستتزوج هذه السنة. ستتزوج هذه الفتاة أو نختار لك غيرها. إن في عائلة كمال فتيات كثيرات في سن الزواج. وأنت، وأنت... يعني... مرغوب جدًا؛ وأنت وسيم؛ وأنت ثريّ. أظن أننا في وضع يسمح لنا بأن يكون طموحًا كبيرًا».

انقضت الآن ثلاثة أسابيع منذ عودة مدحت إلى نابلس. في البداية، كان يحاول أن يرغم نفسه على النوم ليلًا، ثم لم يلبث أن أدرك أن ساعات كاملة يمكن أن تمضي وهو لا يزال حبيس ذلك البرزخ المرهق بين النوم واليقظة. كان يوقد مصباح الزيت أحيانًا، ويفتح كتابًا، ويتمتم لنفسه بأبيات من الشعر الفرنسي كأنها تراتيل. كانت لديه أيضًا أساليب أخرى من بينها إيهام نفسه بأنه سيغمض عينيه مؤقتًا فقط، وبأنه سيفتحهما ويستأنف القراءة بعد وقت قصير. كان هذا الأسلوب ينجح أحيانًا، ويتمكّن مدحت من جعل عقله يغفو في حين تستقر على خدَّيْه الاثنين الصفحتان اللتان فتح عليهما كتابه. ثم يستيقظ فيجد الصفحتين متغضّنتين ويجد شعلة مصباحه مرتعشة إلى جانبه. وأما في أكثر الأحيان، حتى عندما ينزلق دماغه إلى أول مرحلة من مراحل الغياب، إلى ذلك الغشاء الناعم الذي يجعل الأصوات تخفت ويجعل تنفّسه متباطئًا - تنبعث فكرة مارقة تسمعها أذنه بسهولة فينبض قلبه من جديد ويجد نفسه في حالة يقظة تامة. فكرة عن جانيت تقرأ رسالته، وتعبير حزن أو أسف يتخيّله على وجهها. كان يتوق إلى الويسكي في تلك اللحظات. وقد ينهض من فراشه ويطوف في الغرفة وينظر إلى وجه القمر، إن كانت السماء صافية، ينظر إليه عبر جدران نافذته السميكة. وكان يدرك الفجر أحيانًا فيراه يغمر قمة جبل الشيخ ببياضه. وفي حالات نادرة، يرقد فيغفو من غير أن يدرك ذلك، ومن غير أن يحلم، ثم يفتح عينيه فيجد أن النهار قد بدأ في غيبته.

كان دماغه المحروم من النوم ليلًا بالغ الوهن في النهار؛ وكانت الحوادث التي يجب أن تبدو له عادية تصير مختلطة، غير منسجمة. كان يجلس في السوق ويتفقّد دفاتر المحاسبة فيبدو كأنه ينظر من تحت الماء إلى تلك الصفحات المسطّرة، وتهتز الأرقام المكتوبة فيها كأنها تتراقص في النسيم. ثم يأتي المساء فيحمله إرهاقه دائمًا إلى مستوى جديد من مستويات الوجود، وتظل المصابيح موقدة في ذهنه فلا تتركه يرتاح.

في تلك الليلة، استلقى في فراشه وركز تفكيره على ابنة حمّاد، على عينيها الحزينتين المحاطتين ببقايا الغبار في ثقب المفتاح. تقلّب تحت أغطيته. اضطربت معدته،

وتقلّصت أمعاؤه تقلصًا غريبًا كثيرًا ما كان يتجلى انتفاخًا في بطنه. في الليلة الماضية -أو لعلها الليلة التي سبقتها- أيقظه سعال مؤلم. نجح في منع نفسه من التقيؤ قبل أن يبلغ المرحاض، ثم عاد واستلقى على فراشه. ملأت الحموضة فمه. لكن تقلصات هذه الليلة كانت إلى الأسفل. خطر في ذهنه أنه قد يكون في حاجة إلى رؤية طبيب إن استمر الأمر هكذا. فاطمة حمّاد. من المستبعد أن تتزوج فاطمة حماد شخصًا خائرًا مثله.

ولكن... في تلك الليلة، وبفعل معجزة من المعجزات، لم يكن في حاجة حتى إلى التفكير في النوم. غافله النوم فسرقه من نفسه بينما كانت أفكار محلّقة في مكان آخر تخلُط الصور، وتذيب معالم النساء فتوزّعها إلى فئات من الألم. نساء سبّب لهن ألمًا: جانيت، وأمّه. ونساء سبّبن له ألمًا، ليلى، وجانيت. والآن، فاطمة حمّاد، وتقاطيع وجهها الدقيقة ظاهرة بكل وضوح عبر عدسة ثقب المفتاح. وعندما ارتفع صوت المؤذّن، تململ مدحت على وسادته في ضياء الفجر البارد، وعَجِب كيف انقضت تلك الليلة. زحف من فراشه وقد ألمّ به غثيان شديد. ركع في اتجاه مكة.

قال هشام: «نحن نراجع السجل كل صباح».

كان الجو تشرينيًا معتدلًا. وكانت منطقة السوق ضاجة بالغبار وصليل الزجاج والحجارة تحت العجلات، وكذلك بأصوات تصرخ بأرقام وبأسماء سلع. قطع من الكريستال البوهيمي متلألئة بين زجاجات النارجيلة؛ ومع كل هبّة ريح، تتأرجح آلات الكمان الألمانية المعلّقة من أسلاك مربوطة بمفاتيح الضبط في أذرعها. وفي واجهة العرض في أول متجر الكمال، كانت السترات المعلّقة تتأرجح أيضًا، وتدور في أماكنها فتحجب وتكشف أعمدة الضوء الساقطة من فتحات في سقف الخان... تدير ظهورها تارة، وأكتافها تارة. وفي آخر المتجر حيث جلس مدحت وهشام، كان المكان صقيعيًا ظليلًا.

«الأمر ليس شديد الصعوبة. لكننا نترك في المساء، أحيانًا، ملاحظات عن أشياء ينبغي تسجيلها في اليوم التالي. ولهذا ينبغي التحقق من السجل، ورؤية إن كانت الحسابات صحيحة... هيك... و، نعم، نجد الآن أن الحساب مختلف قليلًا. هذا ما نجري التحقّق من أجله. وبعد ذلك، نتفقّد الطلبيات التي يجري العمل عليها، ونتأكّد من أن الخيّاط موجود هنا، السلام عليكم يا معلم، يعطيك العافية، جيد. بطرس هنا. والآن، تكون الطلبيات التي يجري تنفيذها مسجّلة في هذه الناحية من الصفحة... مدحت! هل أنت مستيقظ؟».

«نعم، يا هشام. آسف. لقد كنت تقول إن الخياط هنا».

«صحيح. ثم نتفقّد الطلبيات، ونسأله أين وصل في تنفيذها. سنفعل هذا بعد لحظة. لدينا... ليست لدينا طلبيات كثيرة في الوقت الحاضر. وأما عندما يقترب العيد، فإن

الناس يشترون دائمًا، يشترون حتى في أوقات القلة. وإذا كان هناك زفاف، فأنت تعرف. هَلّأ، كل عملية مسجلة هنا، ونحن نضع إشارة نعرف منها إن كانوا قد دفعوا ثمن الطلبية أم لم يدفعوه. ونسجل التاريخ أيضًا. ينبغي دائمًا تسجيل التاريخ. هَلّأ، هذه هي صفحة الديون. والفوائد مسجلة هنا... هيك، نحسب الفائدة بحسب عدد الأيام التي مرت على الدين. هل رأيت؟ والآن، قم بهذه الحسابات، وسوف أسأل الخياط عن سير العمل في الطلبيات».

لقد كان جميل محقًّا عندما قال لمدحت إن المشهد سيكون متّسعًا أمامه. كان متجر الكمال في أوسع نقطة من الممر، في النهاية الغربية للخان؛ وهذا ما جعل من السهل تمييز البريطانيين الذين يدخلون السوق، خاصة عندما يتسكّعون عند المتاجر القريبة من المخرج -كان واضحًا أنهم يحبّون فعل ذلك كأنهم لا يريدون المخاطرة بمخاطبة أحد هناك من غير أن يكون سبيل الخروج من المكان أمام أعينهم-. حتى من عمق المتجر، كان مدحت قادرًا، بمجرد أن يرفع رأسه، على رؤية مقطع عرضي واسع من الخان... مقطع يضيئه نور الشمس كأنه شاشة سينما. كان الجنود يحرصون دائمًا على تسجيل ملاحظاتهم في دفاتر صغيرة. وقد بدأ مدحت يميز وجوههم. كان من بينهم واحد تتحوّل ذقنه الصغيرة إلى طيّات مثل طيات آلة التصوير ذات الأوكورديون الأسود عندما يخفض رأسه ناظرًا إلى دفتره؛ ثم ينفتح فمه كلما رفع رأسه مضيّقًا عينيه ناظرًا إلى ما حوله. ومن بعيد، كان المرء يرى الزرقة الزجاجية في عينيه.

ومن حين لآخر، كانت زوجة واحد من الإنكليز تظهر في الخان وتتفحّص سلعة معروضة للبيع. كانت الواحدة منهن تظهر من مسافة بعيدة جدًا. عادة ما كنّ يضعن نوعًا من الحجاب على رؤوسهن، وترتسم على وجوههنّ بسمة صغيرة مرتابة. كانت نساء المدينة أقل ظهورًا، لكن السوق لا تخلو عادة من وجود عدد منهنّ... خادمات، أو بنات الفلاحين اللواتي تأتين لشراء أشياء من أجل عائلاتهن، هذا من غير أن تدخل في الحساب، بالطبع، الفلاحة الريفية التي تبيع الخضار ولا تضع حجابًا أسود. ومن الغريب- أو لعلّه، على الأقل، كان يبدو غريبًا في عين مدحت- أن الملابس المعتادة للنابلسيات تجعل التمييز صعبًا بين المرأة التي في أواسط العمر، والمرأة المسنّة، والصبية. فالنابلسية ترتدي العباءة دائمًا، ومن فوق العباءة حجابها، ثم تضع منديلًا. كانت عينا مدحت تنجذبان إليهنّ، إلى تلك الشخوص السوداء نادرة الظهور بين الناس. كان يخمّن عمر المرأة عن بُعد من خلال حجمها وشكلها؛ فالمرأة القصيرة شابة؛ والمرأة الضخمة ينبغي أن تكون قد أنجبت أطفالًا كثيرين، لكنها لم تصل بعد مرحلة ضعف العظام وتراجع الشهيّة إلى الطعام... ثم تقترب المرأة فيتأكّد من صدق

حدسه، أو يعيد النظر فيه، بحسب ما ينكشف لعينيه في الفرجة الواقعة بين الحجاب والمنديل. وذات مرة، اقتربت نابلسية من متجر الكمال فاكتشف أنه أخطأ التقدير تمامًا عندما ظنّها أكبر سنًا مما هي عليه، ظنها أكبر كثيرًا. وعندما تكلمت من خلف حجابها الأسود سمع صوت شابّة صغيرة، أدرك فجأة أنها تتمرّن الآن على الكلام من خلف الحجاب، وأن رقة خطواتها لم تكن هشاشة وضعفًا، بل وجلًا وتردّدًا.

توقّف هشام تحت قنطرة باب غرفة الخياط. سأله: «كيف يسير عملنا هنا؟».

«أنا... آه، إنني آسف، يا هشام. لقد شرد ذهني بعيدًا».

«معليش، عمو. سنجري الحسابات الآن؛ لا مشكلة. انظر إلى التاريخ هنا... لقد مر أسبوع جديد. هذا ما يرفع دَين عبد الوهاب إلى خمسة جنيهات».

كتب مدحت العدد خمسة في خانة الديون.

قال له: «ماذا يحدث إذا لم يسدّد دينه؟».

«إذا لم يدفع أبدًا؟». تردّد هشام قليلًا قبل أن يقول: «قبل كل شيء، نكف عن إقراضه. الأمر الثاني... هناك أشياء أخرى يفعلها التجار. أحيانًا، تكون هناك ترتيبات مع محصّلي الضرائب. لكنك تعرف أن والدك ليس سيئًا هكذا. تذكّر أن البيع دينًا ليس إلا مراعاة للناس. وفي بعض الأحيان، تعود عادات الدين والإقراض هذه... يعني... إلى زمن أجدادنا».

توقّف مدحت عن الإصغاء إليه لأن امرأة محجّبة في ملابس سوداء كانت آتية مباشرة إلى المتجر. خطواتها قوية، ثابتة. كان ثوبها يتراقص في الهواء. خطت متقدّمة من النور إلى الظل، فرأى مدحت عينيها البنيتين القويتين، وشم رائحة جسد مألوفة.

«تيتا! ماذا تفعلين هنا؟».

قالت جدّته: «أهلًا تيتا. اسمع، يا حبيبي. سنذهب لرؤية السامريين. هل أنت مستعد؟ يلا، إمشِ».

«ماذا؟».

«هشام، آسفة لأننا سنذهب الآن. هذا أمر مهم جدًّا. لقد طلبه أبوه».

«بالطبع، يا أم طاهر. فليحفظكما الله».

«يلا، مدحت. انهض الآن».

قام مدحت عن مقعده: «لكن، تيتا، إنني أنجز الحسابات الآن».

كانت قد استدارت وخرجت إلى الشارع من جديد. أسرع الخطى حتى يلحق بها. بلغ آخر الخان، فأحسّ بدفء الشمس على وجهه، وعلا الغبار من خلف خطواته. انتفخ ثوب تيتا بالهواء من تحت منديلها. حاذاها لحظة اجتيازهما قنطرة البوابة.

«ما الذي طلبه أبي؟ ولماذا نسير مسرعين؟».
«السامريون. هذا ما كان أبوك يريده، لو أنه هنا».
«ماذا عن السامريين؟».
تردّدت خطوات مدحت. انعطفت جدّته في أحد الأزقة.
ناداها من خلفها: «تيتا».
انعطافة أخرى جعلتهما عند أول حي السامريين. سارا في ممرّ ضيّق موحل عند صخرة بيضاء. توقّفت جدته أمام باب خشبي قصير إلى جهة اليمين. أدارت مقبضه. انتظرت سماع صوت خطوات. نظرت في عيني مدحت، ثم ألقت نظرة عبر النافذة المعتمة.
«أظن أن علينا أن نتكلّم في هذا...». لم يستطع منع صوته من الارتفاع... «أظنك تستعجلين كثيرًا».
ظهرت امرأة من زقاق خلفهما. كانت ترتدي بنطلونًا. ولم يكن على رأسها شيء غير منديل ألقته فوق شعرها. فوجئت المرأة عندما رأت أم طاهر ومدحت.
قالت تيتا: «سلام. هل يمكنك إخبارنا أين نجد الكاهن؟».
ضغط مدحت على أعلى أنفه، بين عينيه. بدأ صداع يداهمه.
صاحت المرأة عبر الممر: «إسحاق!». لم تسمع ردًّا. تنهّدت ونظرت إلى أم طاهر، ثم أشارت لهما بأن يتبعاها. سار مدحت من خلفهما وقد أطرق برأسه إلى الأرض. كان مستمرًّا بالضغط على أنفه. بلغوا سلمًا حجريًا مكشوفًا.
شكرت تيتا المرأة، ثم قالت لمدحت: «يلا، اصعد».
كانت درجات السلم ناعمة زلقة لشدة القِدم؛ وكان ارتفاعها أكبر كثيرًا من عرضها. وفي الأعلى، وضعت تيتا يديها على وركيها وراحت تتنفّس بصعوبة. كانت أمامها باحة مفتوحة خالية. تمتمت قائلة: «لقد صرت عجوزًا».
تردّد صدى ضحكة مدحت في أرجاء المكان فبدت أكثر مرحًا من إحساسه الحقيقي. كان الجو دافئًا في الأعلى؛ صارت الحجارة حارة تحت الشمس. وكانت سقوف بيوت المدينة المقببة ظاهرة من ثلاث جهات من فوق الجدران الخفيضة. ومن خلفها، ظهر الجبلان الأخضران. جعل علوّ المكان أصوات الشوارع تصل مكتومة. وكان جدار الباحة الرابع، أكبر جدرانها، واجهة بناء: إنه الكنيس السامريّ.
قال مدحت: «لماذا نحن هنا؟».
في حقيقة الأمر، لم يكن ذلك سؤالًا. هناك ثلاثة أسباب تجعل نابلسية مسلمة تأتي لرؤية كاهن السامريين الأكبر. لم تكن تيتا امرأة شديدة الغيرة إلى حد يجعلها تأتي إليه

لكي يسلط عينًا حاسدة على واحد من الناس؛ ثم إنها غير محتاجة إلى نبوءاته لأنها قادرة على فعل هذا بنفسها. لم يبق إلا سبب واحد: استندت إلى كتف مدحت بإحدى يديها ومدت الأخرى إلى قدمها التي رفعتها عن الأرض.

قال لها: «لا أريد سحرًا».

رفعت حذاءها بيدها: «ألا تريد سحرًا؟».

«لا».

«لكن، يا حبيبي... تعرف أنه لن يضيرها».

«بِيهِمِّش، المشكلة ليست هنا. أنا لا أريد السحر. خَلَصْ. ثم إنني حتى لم... أقرر إن كنت أريد...».

«حسنًا، لكننا الآن هنا، ألسنا هنا؟ فلندخل ونرى الرجل. وبعدها تستطيع أن تفعل ما تريد. الأمر عائد إليك. لكني أقول لك إنني أساعدك. أنا في صفك. الأمر عائد إليك. لكني، لو كنت مكانك، لفعلت هذا».

«لا أريده، يا تيتا».

«سمعتك، سمعتك. نحن الآن هنا. وسوف نراه».

خلعت فردة حذائها الثانية، ثم أنّت وهي تضع الفردتين تحت شجرة الليمون. أدخل مدحت سبابته تحت شريط حذائه، ثم خلعه من قدميه ولحق بجدته إلى الداخل.

لعله زار هذه الباحة من قبل، لكنه كان الآن واثقًا من أنه لم يدخل الكنيس أبدًا. سقف مقبب من فوقه. وأمامه جدران غير مزينة بشيء تدعمها قناطر مدببة الرأس تقسم المكان إلى غرف. تركت الرطوبة بقعًا على عوارض السقف؛ بدأت مساحة من الطلاء تتسلّخ وتتساقط. كانت ساعة خشبية ضخمة معلّقة بالقرب من مقعد الكاهن. قفز عقرب الدقائق بعكس اتجاه حركة عقارب الساعة. قادته تيتا، الحافية، الصامتة، إلى تحت واحدة من القناطر، ثم توقفت. كان الكاهن الأكبر جالسًا على كرسي آخر في ذلك التجويف: شعر أبيض، وحاجبان أسودان، وثوب وعمامة لونهما أزرق. لم يكن الرجل وحيدًا. إلى جانبه، على سجادة ممدودة على الأرض، كان رجل آخر راكعًا. كان الرجل الراكع مرتديًا سترة رمادية طويلة مزرّرة حتى رقبته... حافّتها بنية بلون التراب برز حذاؤه من تحتها. كانت جمجمته صلعاء تمامًا، لكن لحية خشنة كثيفة كانت متدلية من ذقنه كأنها مكنسة. كان ينظر إلى شيء أمامه على السجادة: وثيقة مجعَّدة الحواف، لعلها لفافة ورقية. كان الورق حائل اللون، ممتلئًا كتابة بخط دقيق جدًا. كانت الوثيقة في غلاف مفتوح مصنوع من قماش أحمر.

مرت بضع لحظات. رفع الرجل الراكع اللفافة الورقية ممسكًا بها من حافتيها،

وأزاحها بعيدًا عنه، فكشف عن واحدة أخرى كانت تحتها. بدت هذه الوثيقة حائلة اللون أكثر من سابقتها. كانت نظرة الكاهن تتابع حركة الرجل، تغضّن الحاجبان الأسودان الكثيفان مثلما يتغضّن حاجبا كلب. وأخيرًا، رفع عينيه في اتجاه مدحت وتيتا.

«السلام عليكما».

قالت تيتا: «وعليكم السلام. كيفك، أبو سلامة. أنا أم طاهر. عرفت حفيدي؟ اسمو مدحت».

انحنى مدحت للكاهن، فنهض الكاهن عن كرسيه بحركة بطيئة، وانحنى له.

«السلام عليكم».

نهض صاحب اللحية الضخمة واقفًا. كانت سترته الطويلة متجمّعة عند وسطه فسوّاها قبل أن يمد يده للسلام على مدحت. أومأ برأسه في اتجاه أم طاهر. كانت عيناه متقاربتين كثيرًا فبدا وجهه عابسًا. عيناه صغيرتان، ضاربتان إلى لون وردي.

قال أبو سلامة: «هادا أبونا أنطوان. فرنساوي».

قالت تيتا: «مرحبا».

قال الأب أنطوان: «مرحبًا». لفظ حرف الراء بالطريقة الفرنسية.

قال مدحت: «بونجور».

رفرفت عينا الأب أنطوان.

قال أبو سلامة للفرنسي محاولًا لفظ الكلمات ببطء، مستخدمًا لغة بسيطة: «أستطيع أن أطلب من السيدة وحفيدها الانتظار قليلًا إذا كنت تظن أنك تستطيع أن تكون سريعًا. وإلا، فيمكنك أن تزورني غدًا، في الموعد نفسه».

أجابه الأب أنطوان بالقدر نفسه من التأنّي: «أشكر لطفك، يا أبا سلامة. سوف أزورك غدًا». ركع الفرنسي على السجادة من جديد لكي يلتقط الورقة. رفعها، ثم طوى الغلاف القماشي الأحمر بعناية عند زواياه الأربع وربطه بالشريط الأسود الذي كان تحته، على السجادة. ظلّ الثلاثة واقفين ينظرون إليه. كانت أصابع الفرنسي ثخينة كبيرة العقد عليها بقع وشعر أبيض. نهض الأب أنطوان واقفًا من جديد وأومأ برأسه صوب الكاهن، ولم يمر بجانب أم طاهر ومدحت لكي يصل إلى الباب، لكنه دار من حول قنطرة أخرى عند النهاية القصيّة للكنيس. سُمع صوت خطواته دائرًا من حولهما. وعندما ظهر مجدّدًا، أدار مدحت رأسه لكي ينظر إليه، وإلى لحيته الضخمة، في ضوء الشمس. تغيّر صوت الخطوات، وخفُتَ شيئًا فشيئًا.

قال أبو سلامة: «أخبريني، يا أم طاهر. كيف أستطيع خدمتك؟».

حدّق مدحت في الحزمة القماشية المربوطة.

«لا بأس. أمن أجل أمر، أم لاتقاء أمر؟».

قالت تيتا: «بل من أجل أمر. من أجل الحب».

ارتدَّ رأس مدحت إلى الخلف ونظر إلى جدته، ومع هذه الحركة الحادّة، سرى ألم جديد في صدغه.

قال أبو سلامة: «هل أحضرت معك أي...».

«أحضرت شعرة».

مدت تيتا يدها داخل ثوبها وأخرجت كيسًا مربوطًا بخيط. دست إصبعين في الكيس. ظهرت على إصبعها شعرة سوداء واحدة. تدلى طرف الشعرة: طرف متموج لمع في الضوء بلون فضي. وطرف نهايته أبيض: شعرة كاملة، من جذرها، من رأس فاطمة. أحسّ مدحت بموجة حرارة.

«لا. مستحيل. لا. لا، يا تيتا...». وضع يده على ظهرها... «يؤسفني أننا نضيّع وقتك، يا أبا سلامة. لكن الحقيقة هي لا. تيتا... أعيدي الشعرة».

كادت الشعرة تطير بفعل أنفاس مدحت. وضعت تيتا إبهامها عليها حتى لا تسقط عن سبابتها.

قال أبو سلامة: «حسنًا؛ أخشى أننا لا نستطيع فعل هذا إن كان لا يريده. للأسف، لن ينجح الأمر». بسط أبو سلامة كفّيه ونظر إلى السقف. بدا كأنه يقول إن الأمر خرج من يده. التفتت عينا تيتا إلى مدحت لحظة أفلتتا من نظرة الكاهن. أحس بأن عينيها المؤطّرتين بحجابها تخترقانه. دسّت الشعرة في الكيس، وأغمضت عينيها إغماضة انزعاج طويلة وهي تشدّ الخيط. ثم انحنت للكاهن. قاوم مدحت رغبة في الضحك.

تقدّم جدّته عائدين عبر الباحة. قالت له من جديد وهما ينزلان درجات السلم ذي الانحدار الحاد: «الأمر عائد إليك». تمنّى لو أنه قادر على رؤية وجهها في تلك اللحظة. سارا عائدين عبر حي السامريين، سارا في صمت مرهَق. تركته تيتا عند المتجر. كان هشام قد وضع كرسيًا في المدخل. إنه وقت صلاة العصر. كان صوت المؤذن يتردّد في الخان الهادئ. جلس مدحت على الكرسي بين قطعتي نسيج مطرزتين تدلتا عند أذنيه. في حين سارت تيتا مبتعدة. الآن، صار الألم في صدغيه أخف من ذي قبل؛ صار له إيقاع منتظم. ضغط أعلى أنفه من جديد، وأراح أصابعه على عينيه.

كان جزء منه غير معترض على فكرة استجلاب الحب عن طريق السحر. بل إن جزءًا منه كان متقبّلًا تلك الفكرة. نعم، لقد تلقى العلم، واعتاد المناقشة المنطقية، لكن الإيمان بالغيبيات كان شيئًا باقيًا من الطفولة، شيئًا يصعب محوه. عندما فكّر في السحر الذي يُفترض أن السامريين قادرون عليه، أحسّ بنفحة من ذلك الإجلال القديم واقفة

عند عتبة المعرفة المظلمة. ليس الإيمان بالغيبيات حكرًا على الأطفال والنساء العجائز. إن للمعتقدات جذورًا عميقة؛ وغالبًا ما يكون من يشكّكون فيها علنًا متحمسين لها في سرهم... غالبًا ما يتمتمون بأسماء آباء وأمهات في حضرة الكاهن الأكبر، ويبسطون أكفهم لكي تقرأ إصبعه خطوطها، ثم يهمسون لأنفسهم بأحكام الكواكب في طريق العودة إلى البيت حتى لا يجعلهم النسيان يخسرون ما دفعوا ثمنه. عندما كان طفلًا، سمع قصصًا عن طيور ميتة مدفونة في الجص فوق البوابات. ثم كبر فظل محتفظًا ببعض الإحساس الغامض الذي استقرّ في نفسه منذ الطفولة، وبذلك الفضول الوجِل؛ ولهذا فإن قلبه لا يزال يلتفت قليلًا عند ذكر ذلك الكتاب الشهير ذي الكتابات الغامضة، على الرغم من إدراكه أنه ليس أكثر من نصوص دينية مكتوبة بلغة أولئك الناس. عادت أفكاره إلى الورقتين حائلتي اللون على أرض الكنيس، وإلى الكاهن الفرنسي أنطوان، ولحيته.

فتح عينيه فرأى شخص هشام النحيل قادمًا من اتجاه مسجد نصر.

اقترب وقال له: «يمكنك أن تذهب اليوم. خلص. ما من أحد هنا».

سار مدحت صاعدًا الطريق الجبلية في اتجاه البيت، وخلص إلى أن الإرهاق قد جعله سهل التأثّر أكثر مما ينبغي له. ما كان يجوز أن يترك تيتا تأخذه إلى الكنيس. دخلت جانيت أفكاره: لم يستطع تخيّل ما يمكن أن تقوله عن هذا كله. أو، بالأحرى، كان يستطيع ذلك... لكنه لم يكن راغبًا فيه.

جلسا إلى العشاء صامتَين وأكلا الكوسا المحشي الذي أعدته أم محمود. استرخى ذهنه، وقال ناسيًا معركته مع جدته: «تيتا، يجب أن تأكلي أكثر. خذي كوساية أخرى».

تريثت أم طاهر بضع لحظات قبل أن تجيبه قائلة: «لست جائعة».

جلسا في الصالون بعد العشاء كأنها ليلة عادية مثل بقية الليالي. راحت أم طاهر تطرّز، وحاول مدحت استجماع أفكاره وهو يتظاهر بقراءة رواية. كانت أم محمود تثير جلبة في المطبخ وهي تحضر طعام الإفطار ليوم غد. مدّت رأسها من الباب وتمنّت لهما ليلة هادئة.

مع تتابع أفكاره، بدأ صداعه يهدأ بطريقة غريبة. تراجع الألم، ثم نزل ونزل في رأسه إلى أن أحسّه يتلاشى عند كتفيه. إن كان سيتزوج في آخر الأمر، فما الذي جعله يمتنع عن إبداء موافقته لتيتا، وعن التعاون معها من أجل إنجاح خيارها؟ الواقع أن فاطمة حماد كانت جميلة جدًّا!

كانت المشكلة في جانيت. وكان أمرًا لافتًا أن مخيلته ظلّت قادرة، بعد سنين من الصمت، على اختراع الأسباب وتجاهل الحقائق من أجل المحافظة على الأمل. كان

في حاجة إلى تركيز أفكاره، وإلى تلمّس المعلومات بأصابعه، وإلى جعلها حقيقية. لم تكن عنده رغبة في استعادة ذلك المشهد مع سيلفان لوكلير وفريديريك مولينو. لكن، كيف يستطيع التخلّص منها من غير ذلك، من غير تذكّر معاناته إلى مائدة العشاء وامتناعها عن الدفاع عنه؟ لقد تحوّلت جانيت إلى مادة دبقة التصقت بجدران دماغه. لو كان فاروق معه لدعا هذا حبًّا محرّمًا، أو لاستخدم كليشيهًا أخرى؛ لكن الأمر ليس هكذا، ليس هكذا أبدًا. كان كل وصف أشبه بقطعة جليد تنزلق فتخطئ الهدف، وتظلّ جانيت هناك، في الأسفل، مستعصية على التفسير استعصاء قاتمًا. ذلك البيت، وممرّاته، ممرّاته الممتدة إلى الحاضر -لا بد أن هذا ما يجعل الناس يسمون العشاق مجانين-. إذا فقد شخص كل ما يربطه بمكان من الأمكنة، فما من أحد يستطيع القول إن شيئًا مما حدث كان حقيقيًا. لم تكن لديه أية صور من مونبلييه. لا شيء عدا المعطف الذي اشتراه هناك، والقبعة الفرنسية، والبدلات، وربطات العنق.

أدارت تيتا لوحة التطريز وعقدت الخيط. بللت إصبعها بلسانها وسحبت خيطًا جديدًا من بكرة الخيطان.

نابلس هي حيث يكمن واجبه. لقد كان مدينًا لأبيه؛ ولهذا وحده عليه أن يتزوج. لقد جرى ترتيب هذا الدَّين قبل ولادته. وكانت الرعاية التي تلقّاها من أبيه قائمة دائمًا على هذه الفكرة المستقبلية، فكرة أن مدحت سوف ينضج ويصير مربحًا له... تمامًا مثلما يأتي موعد استحقاق سند مالي. لذا، وعلى الرغم من أن المرء قد يجد نفسه مقتنعًا -لوهلة- بأن الروابط العائلية من غير قيمة، فالحقيقة هي أنها كل شيء في آخر المطاف، مثلما قال جميل.

غطّت الظلمة النوافذ، وازداد ألق النار توهّجًا. ومع اتضاح صورة النار في زاوية مجال رؤيته توقّف مدحت عن التفكير، وراح يلعب لعبة ألِفها منذ أيام طفولته. عندما ينظر إلى النار مباشرة، تصير حواف اللهب غائمة: اللعبة هي أن تنتقل نظرته سريعًا بحيث تلتقط اللهب في أكثر لحظاته وضوحًا... لا نهاية لهذه اللعبة لأن الأمر مستحيل.

قالت تيتا فجأة: «عليك أن تقرّر سريعًا، يا مدحت». أسقطت ما بين يديها في حجرها... «لستَ قادرًا على فعل شيء...». ازداد صوتها علوًّا... «ولا تستطيع ألّا تقرّر. هذا لأن علينا أن نعثر على فتاة أخرى؛ وقد يكون الوقت قد تأخّر كثيرًا... تأخر كثيرًا!».

«تيتا، لم يمض على سؤالك إلا يوم واحد».

التقطت القماش ورفعت حاجبيها ناظرة إلى الإبرة، ثم قالت بنبرة لطيفة: «أنت ولد غبيّ، غبي».

قال مدحت: «غير معقول... أنت تتظاهرين بأنك تطرحين عليَّ خيارًا، لكني لست مخيَّرًا. أمر واضح، هذا لأنك اتخذت قرارك بالفعل».

مالت برأسها جانبًا: «من تحسَب نفسك؟ أتيت إلى هنا بكل ما معك من... ملابس. من الذي دفع ثمن هذه الملابس؟».

كانت تشير إلى سترته الملقاة على كرسي منخفض. منديل حريري متدلٍّ من جيب السترة. أشاح مدحت بوجهه صوب النافذة.

قالت تيتا: «لقد عرضت عليك خيارًا حسنًا جدًّا. لماذا تجعل الأمر صعبًا؟».

نهضت واقفة. رأى شيئًا يطير. إنه قطعة القماش التي كانت تخيطها. لقد ألقتها على الأريكة.

«لقد انتهيت من هذا الأمر. افعل ما بدا لك. سوف يتزوج فاطمة حماد ابنُ عمها؛ وسوف يحرمك أبوك من الميراث. سوف تكون نادمًا؛ وسوف تكون وحيدًا... أو مع بقرة غبية لا تنجب لك أبناء».

انحنت والتقطت قطعة القماش من جديد، ثم مضت وأغلقت الباب خلفها تاركة مدحت وحيدًا في الغرفة المظلمة. كانت أنفاسه ثقيلة. جلس ينظر مباشرة إلى حواف اللهب الغائمة.

كان اليوم التالي يوم خميس. ومع الفجر، بدأ الخان يمتلئ بشرًا، وأخرج أصحاب المتاجر المجاورة كراسيهم لكي يجلسوا ويتجاذبوا أطراف الحديث. امتدّت أيدي بعض الزبائن إلى الأقمشة، لكن أكثرهم كان يتسكّع في المكان بغية الكلام، لا الشراء. ومع تداول أصحاب المتاجر قصصهم، كان مدحت ينظر في الممر باحثًا بين الناس عن نساء محجبات.

«فَـ... عندما يتحدّث، كما تعرف، يكون مصدّقًا حقًّا ما فعله. يقول إنه، عند وصوله إلى الإسكندرية...».

«أتذكّر هذه القصة».

«وجد جنديًا على الشاطئ».

«نعم، أتذكر هذه القصة».

«خرجت عيناه من... من...». انفجر من يروي القصة ضاحكًا وصفع ركبته بكفه.

«من محجريهما».

«فأعادهما إليـ...».

«أعادهما إليه».

تحشرجت أنفاس الرجل الآخر، ثم بدأ يسعل.

«ألا يزال لدينا قهوة، عمو؟».

قال مدحت: «لحظة».

ملأ غلاية القهوة ماء من الصنبور. وعندما أشعل عود ثقاب لكي يوقد النار، انزلق ذهنه إلى خيال ميكانيكي رأى فيه شخصًا يجري في الخان مناديًا باسمه.

في باريس، شرح له فاروق فكرة أن الزواج يمكن أن يكون نوعًا من القيد الرومانسي، مع أنه ليس ميدانًا للرومانسية في حد ذاته. وقد استخلص ذلك من قراءاته نظريات كثيرة من هذا القبيل. عندما شرح هذه النظرية لمدحت أول مرة، كان متكئًا على الأريكة في شقته في سان جيرمان. كانت قدماه الحافيتان مستقرتين على مسند الأريكة، ويده تحت رأسه... كانت وضعيته أشبه بوضعيات النساء العربيات لدى بعض المصورين الغربيين. قال إن الحب الحقيقي يصير أكثر عمقًا كلما ازدادت القيود الخارجية. يصير حبًا نقيًا، حب امرأة أخرى، لا حب الزوجة. كلما ازدادت القيود قوّة، كلما ازدادت الحياة الداخلية غنًى. في ذلك الوقت، أومأ مدحت برأسه واحتفظ بهذه الفكرة في ذهنه لأنه كان توّاقًا إلى أي مبدأ يستطيع توجيه حياته به. لكنه الآن واقف في متجر الكمال في نابلس ممسكًا غلاية القهوة في إحدى يديه، ومجموعة فناجين بيده الأخرى، فبدا فاروق -في هذه الصورة المستعادة- مخطئًا (مثل أي شيء آخر) في تجزئة الحياة إلى «نظريات جيب». تساءل في نفسه عما قد تغيّر، وعن السبب الذي جعل ثقته بفاروق تهتز الآن بعد أن كانت عميقة جدًا. أيكون هذا لمجرّد بعده الجغرافي، لمجرّد كونه قد عاد إلى فلسطين؟ أم لعل السبب هو أنه صار الآن أمام احتمال زواج حقيقي، لا أمام حلم بالزواج.

سأل حلقة الرجال الجالسين: «مين بدّو قهوة؟».

رفع الجميع أيديهم.

كان كل واحد من أولئك الرجال متزوجًا. وقد طلّق بعضهم، وتزوج مرتين، أو ثلاث مرات. وكان معروفًا أن الرجل الذي يروي قصة العين، الرجل الذي يحمل لقب «أبو إسلام» قد تزوج امرأة مسيحية من شرق نابلس. كان هذا برهانًا على زواج قائم على الحب.

تساءل وهو يسكب أول فنجان قهوة، إن كان ممكنًا له أن يعصى والده مع الوفاء بواجبه في الوقت نفسه. أسرار حياته في فرنسا، والمسرّات التي كانت هناك، لكنّ... إحساسه بالخجل أيضًا... إحساسه بأن شيئًا كبيرًا دراماتيكيًا قد حدث له، بأن هناك شيئًا يقوده إلى ترك المسار الذي اختاره له أبوه، وإلى بدء مسار جديد والسفر إلى باريس وحده، بقرار منه، والبحث عن رجال آخرين يوجّهونه، ودراسة التاريخ بدلًا من الطب

بحيث صار يعرف قصة أوروبا الغربية كلّها ولا يعرف شيئًا عن شفاء الجسد البشري. كان قادرًا على رؤية هذا كلّه يكتسب شحنته الخاصة بحيث تصير خصوصيته نفسها نوعًا من القوة. لا أهمية لأن يكون كثيرٌ مما يخفيه مؤلمًا. سيكون اشتياقه أسهل احتمالًا لأنه اشتياق شاعري؛ وسيصير كبت الماضي فضيلة، منبعًا سريًا لإحساسه بقيمة نفسه.

مرّت بقية اليوم من غير أن يحدث أي أمر مهم. جمع التجار بضاعتهم، وأغلقوا أبواب متاجرهم. كان مدحت يقفل الباب الأخضر عندما جرى شخص عبر الخان مناديًا باسمه.

«مدحت! مدحت!».

إنه تحسين كمال. ساقا بنطلونه مرتفعان حتى ركبتيه.

«حبيبي، تعال. هناك راوٍ في مقهى الشيخ قاسم».

هزّ مدحت كتفيه، وأغلق القفل.

«يلا. تعال».

«انتظر لحظة. إنني قادم. هل تعرف القصة التي سيرويها؟».

«سوف نكتشف هذا».

لم يكونا الوحيدين السائرين في اتجاه مقهى الشيخ قاسم. لم يمض وقت طويل قبل أن يصير وسط حشد متأهّب. كوفيات متدلية من رؤوس الفلاحين، ورجال أكبر سنًا مرتدين قمصانًا متهدّلة وأحزمة مشدودة حول بطونهم المرتخية، وشباب تلمع رؤوسهم بزيت الشعر الرخيص. ثلاثة أولاد من ماسحي الأحذية على رؤوسهم طرابيش متّسخة كانوا يحملون معداتهم تحت آباطهم، ويتصايحون في ما بينهم كأنهم بالغون صغار. فلاح عجوز في ثوب كبير عليه وكوفية حمراء على رأسه ابتسم لمدحت بفمٍ خالٍ من الأسنان. كانت أصابعه ذات العقد تشير في اتجاه المقهى.

كان مقهى الشيخ قاسم مزدحمًا، مظلمًا. دائرة مصابيح في واحدة من الزوايا حدّدت مكان الراوي الجالس إلى جانب عازف قانون ضمن مساحة أزيحت عنها الطاولات، فصارت أشبه بمنصة مسرح. ومن خلف الراوي، انتصب الغرامافون جامدًا؛ بوقه الصامت أشبه بزنبقة ضخمة سوداء. كان الراوي يتحدّث مع بعض الحضور القريبين منه، في حين كان عازفه ينقر على آلته التي وضعها في حجره ويضبط أوتارها. أسند تحسين رأسه إلى الجدار الذي في آخر المقهى. كشّر وقال: متى يبدأون؟ احتل الكراسي رجال من العائلات الكبرى في المدينة. وعند النافذة رأى مدحت عبد الله عطوان جاثمًا وقد وضع يده على كتف ابنه الصغير. تبيَّنَ ظهر جميل العريض على بعد بضع طاولات منه. انسلّ سائرًا بين الطاولات لكي يسلم على ابن عمه ويقبله. الآن، بدأ بضعة أشخاص

يغنّون على أنغام القانون. كانوا يؤدّون أغنية مألوفة بأصوات ناشزة أحيانًا، منسجمة أحيانًا. رفع الراوي رأسه: دخل المقهى صبيّ صغير حاملًا طبلًا. جذب عازف القانون كرسيًا وقرّبه منه. ومع جلوس الصبي على الكرسي، هدّأ تعبير وجه الشاعر المخضرم جمهورَه. بدأ يحرك رأسه ويهمهم، وجرت نغمات القانون كالماء من حول صوته. بدأ الرجال يهلّلون ويصفرون.

غنى الرجل: «أبو زيد الهلالي. سأحكي لكم قصة بني هلال».

هدأ القانون، ونقرت أصابع الصبي بقوة على الطبل. بدأ الشاعر يقول:

*«بسم الله الجبار، هذه هي قصة عرب بني هلال. في عهد السلطان سرحان، كان رزق المغوار، ابن نايل، أقوى محاربي بني هلال. لقد تزوج رزق المغوار ثماني نساء، وأنجب بنات كثيرات. لكن أيًا من زوجاته الثماني لم تنجب له ابنًا ذكرًا يرثه. ألمّ به الحزن، وراح ينشد:*

*«آه ـ آه ـ آه، الدنيا والقضاء والقدر.*

*سيختفي كل ما رأته عيناي.*

*ثروتي عظيمة، يا ناس، لكنني من غير ولد من بعدي.*

*والثروة من غير وارث تختفي بعد حياة صاحبها».*

همس مدحت: «جميل، هل نستطيع أن نتكلّم؟».

سحب ابن عمه نفسًا من نارجيلته، ثم أومأ برأسه. سارا مع الجدار الذي في آخر المقهى حتى بلغا الباب فأفسح لهما الأولاد الواقفون طريقًا لمرورهما. في الخارج، كان نور النهار يغادر السماء.

نظر جميل خلفه عبر زجاج الباب الذي رسمت خدوشه دوائر صفراء من حول المصابيح التي في الداخل.

«ما الأمر؟».

«من أين أبدأ؟ لديَّ قصة أقولها لك».

كان صوت الراوي يعلو قائلًا: جاءهم من بعيد *طائر أسود*.

«إنه أبو زيد!».

صاح بهذا أحد الحاضرين، فصفّق الناس.

*طائر* أسود («أيواا!» «الله!»)... مخيف *جدًا*...

قال مدحت: «لا تقل هذا لأحد. تريد جدّتي أن أتزوج فاطمة حمّاد. ابنة الحاج نمر. إنه قاضٍ، وكان رئيس البلدية في السنة الماضية».

«أعرفه، بالطبع».

«دعت تيتا البنت وأمها إلى البيت، ثم جعلتني أرى وجهها عبر ثقب المفتاح في باب الصالون».

استند جميل إلى الجدار بكفّه: «مش معقول، يا مدحت. كيف فعلتَ هذا... أعني، كيف كان شكلها؟».

«كان وجهها... في الحقيقة، أنت تعرف، بدت كالقمر». ضحك عندما استخدم هذه العبارة المكرورة مثلما كان يضحك مع فاروق، ثم لاحظ تعبير عدم الفهم في وجه ابن عمه المبتسم. في لحظة، أنار ضوءٌ هوّةً جديدة تفصل بينهما.

كرّر ما قاله وهو ينظر إلى الشارع المظلم حيث كان شخص طويل القامة سائرًا في اتجاه المقبرة الغربية: «وجهها مثل القمر».

ما كان هذا التعبير مضحكًا لجميل، بالطبع... الكليشيه، أو العبارة المكرورة، فكرة فرنسية! لا معنى لهذا في نابلس: هناك فقط قنوات عامة للسلوك، طرق معروفة للتعبير عن الرغبة.

علا صوت الراوي... *وصاحت الخضراء، آه ما أجملك، أيها الطائر، وما أجمل سوادك...*

«أرادت تيتا أن نعمل لها سحرًا. لكني قلت لا».

قال جميل: «ألا تؤمن بهذه الأشياء؟ نعم، أظنني غير مؤمن بها أيضًا. لكني لا أظنّها مؤذية».

في الداخل، بدأ فاصل موسيقي مع نقر خفيف على الطبل.

قال جميل: «اسمع... أعرف أنك متعلّق بتلك المرأة الفرنسية؛ لكن هذا لا ينبغي له أن يوقفك. أعني... فاطمة حمّاد... إن استطعت...».

طوى جميل ذراعيه على صدره، فنظر مدحت إلى جانب وجه ابن عمه، الذي كان مغلقًا من غير تعبير. كان جميل أكبر من مدحت بسنة كاملة، تقريبًا. وهذا ما كان يجعله متقدّمًا عليه عندما كانا طفلين. لم يكن متقدمًا عليه في المدرسة وحدها، بل كانت عظامه أكثر طولًا، وعضلاته أكثر قوة. أيام كانا يتبارزان بأغصان الأشجار، كان جميل ينتصر دائمًا ويثبّت مدحت على الأرض واضعًا أطراف غصنه على وجهه. لكن الزمن جعلهما الآن متساويين؛ صارا متماثلين طولًا، تقريبًا. إلا أن مدحت كان شديد الانتباه إلى نبرة صوت ابن عمه. هل كان الازدراء، أم الإعجاب، ما جعله يقوله له، «إن استطعت...»؟ لقد كان لقصصه عن فرنسا أثر على جميل. هذا أمر واضح له. أحسّ بمكانته منعكسة في عينيّ ابن عمه؛ وأحسّ حرجًا غريبًا أمام هذا المجد المنعكس فيهما.

قال بعد لحظة: «لقد كتبت إليها، إلى المرأة الفرنسية؟».

«والله؟».

«والله. لكنها لم ترد على رسالتي».

كانت عينا الراوي تتّسعان وهو يكاد يبلغ الذروة في قصته. تصاعد دخان النارجيلات أعمدة طويلة.

قال مدحت: «أحس...».

«ماذا، يا حبيبي؟».

«لست أدري...». وضع رأسه بين يديه... «هل تظن أن عليًّ فعل ذلك؟ أقصد الزواج من بنت حماد؟».

قال جميل: «هل تمزح؟ بالتأكيد. تزوجها إذا استطعت».

في الداخل، كان أحدهم يصيح: «لا يجوز أن تتركه في السجن». رفع أحد الشباب كرسيًا، وكان آخرون ينهضون واقفين. بدا المرح على بعض الوجوه، وبدا الغضب على بعضها الآخر. ظهر تحسين كمال بباب المقهى. سوّى ربطة عنقه، ونفخ خدّيه.

قال مدحت: «ماذا يجري؟».

«غضب الجميع لحبس أبي زيد».

«لكن هذا يأتي في وقت لاحق. لا يمكنه أن يقفز في القصة هكذا».

هزّ تحسين كتفيه: «حسنًا، إنهم غاضبون لهذا السبب».

خطا مدحت داخلًا المقهى فرأى الراوي يلوِّح بيديه. كان في إحدى يديه مزمار.

كان الرجل يصيح: «شويّه، استنّوا شويّه. سأنهي القصة. لحظة، لحظة. تفضّلوا، اجلسوا من فضلكم».

قال جميل: «انظر إلى الحاج عبد الله».

بالقرب من النافذة التي في آخر المقهى، كان الحاج عبد الله عطوان ينهض واقفًا. يده على رأس ابنه، وقبضة يده الأخرى تلوح في اتجاه الراوي. كان يصيح.

قال مدحت: «إن ابنه معه».

«أعرف. إنه يخيفني أحيانًا».

كانت الأجساد المشدودة متوتّرة، مستعدّة للعنف. ثم بدأ الراوي ينفخ بمزماره فانكسر التوتر. تصفيق متقطّع. جلست الأجساد من جديد حتى يروي الشاعر الجزء التالي من القصة ويُخرج أبا زيد من السجن.

## - 6 -

بعد فترة وجيزة من عودته من المنفى سنة 1918، اكتشف الحاج حسن أن أراضيه في وادي الأردن قد تعرّضت للتخريب. كانت عشرين ألف دونم مزروعة قمحًا. أُحرق المحصول كلّه، ولن يدرّ عليه شيئًا. قال الحاج نمر، ابن عمه، إن من المحتمل أن يكون ذلك من فعل المخرّبين أو جنود المشاة العائدين من الحرب. وفي الحالين، لم يكن أمامه شيء يفعله. كان البريطانيون يمنعون المحاكم الشرعية الإسلامية من النظر في النزاعات المتعلّقة بالأراضي على الرغم من أنهم لم يقيموا بعد نظامهم القضائي. وفي زواتا، حل الاكتئاب على الحاج حسن في حين كانت زوجته تعزف طيلة النهار على العود الذي اشتراه من أجلها.

وبعد سنة من ذلك، في تشرين الثاني سنة 1919، زاره مندوب من الصندوق القومي اليهودي وعرض عليه شراء الأرض فورًا بثمانين ألف جنيه. لكن الحاج حسن رفض البيع على الرغم من ذلك الثمن المغري. كانت الحكومة العسكرية البريطانية قد أغلقت السجل العقاري؛ وكان يعرف أن هذه الصفقات غير قانونية في الفترة الراهنة. لكن ما جرى جعله يرتّب مسبقًا أمر بيع تلك الأرض بحيث يكون جاهزًا لحظة رفع الحظر. طرح الأمر على بطركية اللاتين في القدس. وجرى الاتفاق على أربعة آلاف جنيه.

قال الحاج نمر: «كان ذلك هو الخيار الصحيح».

كانوا جالسين في الغرفة العلوية في بيته مع رئيس البلدية الجديد، أبي عمر جوهري. كان ضوء الشمس الآتي من النافذة يتراقص على الأرض بحسب حركة أغصان أشجار الفاكهة التي تلوح بأغصانها في الحديقة.

كانت المقاعد مائلة كثيرًا بحيث وجد كل رجل نفسه مرغمًا على الاستناد بجسده إلى الخلف، أو أن يجثم على الحافة. كان الحاج حسن شبه متكئ إلى يسار الحاج نمر. وكانت سترته الضخمة ذات اللون الكْريم تضخم الإحساس بأنه فقد كثيرًا من وزنه. كانت لحيته القصيرة بيضاء كالملح. على الرغم من جلوسه، كان هناك شيء من الدراما في مظهر طربوشه المنتصب على رأسه، ورفرفة عينيه البطيئة وارتعاش شفته السفلى. مقابله، إلى يمين الحاج نمر، كان أبو عمر جوهري جالسًا يؤرجح مسبحته في يده. رجل مكتنز الجسم قارب الخمسين من عمره بدت عليه هيئة الموظف البيروقراطي أكثر مما كانت بادية على رفيقه: وجه عريض، ونظارتين مدوَّرتين، وبدلة صوفية ملأها جسده.

جلبت وداد صينية عليها عصير البرتقال مع الكؤوس. تولّى نمر أمر الصينية. همست له زوجته: «اسكب الكؤوس كلها أولًا، ثم وزّعها». أشار لها نمر بالانصراف؛ ومع خروجها، ناول الحاج حسن الكأس الممتلئة الأولى.

قال أبو عمر: «يحدث هذا كثيرًا، كما تعرفان. يبيع الناس أراضٍ لليهود. لكن، ماذا تفعل عندما يكون المالك في بيروت وقد أغلقت الحدود الآن...».

قال نمر: «هذا سؤال صعب. إذا كنت مثل حسن، فسوف تبيع، بالطبع».

«أنا لم أبع الأرض لليهود».

«أعرف هذا. ما أقوله هو أنه كان ممكنًا أن تفعل ذلك عندما تكون لدينا هذه المشكلات مع الفلاحين، وعندما لا يملكون أرضًا. يعني... لقد جاء الكولونيل هوبارد لرؤيتي... خلص، إنهم مشكلتهم». صب الكأس الثانية.

لم يكن أبو عمر ليقبل بأن يترك أحدًا يبدو أكثر أهمية منه. قال: «لقد جاء لرؤيتي أيضًا. قلت له إننا في حاجة إلى اختصاص قضائي للتعامل مع هذا الأمر...». فتح عينيه على اتساعهما معبّرًا عن استغرابه... «ولم يصغ إليّ».

قال نمر وهو يناول أبا عمر كأسًا ممتلئة جديدة: «إنهم لا يصغون إلينا. القدس هي العاصمة في نظر البريطانيين. وهذه عادة محلية، على أية حال؛ وهي ليست مذكورة في كتب القانون. وشيئًا بعد شيء، يهتم الناس بما هو مسجل على الورق... ليس البريطانيون وحدهم من يفعل هذا. وكما يقول ابن عابدين...».

قال أبو عمر: «ابن عابدين مهم كثيرًا، يا حاج».

«لقد كان عبقريًا. يجب إدخال العادات المحلية في الحساب، وإلا فإن الناس يعانون. بذْنا توازن بين المكتوب والمُعاش. هنا يأتي دور المنطق».

هز أبو عمر رأسه وابتلع العصير. ارتسمت على شفته العليا دائرة صغيرة من عصير البرتقال فمسحها بإصبع يده الممسكة بالمسبحة. «هذه هي المشكلة. هناك تداخل كبير بين الفلسفة والفقه... تداخل أصاب مدارس الكتّاب نفسها. يتعلّم المسلمون الشباب هذه القوانين... يعني... القوانين الكفرية». صلصلت حبات المسبحة بين أصابعه.

قال الحاج وهو يتناول الكأس الثالثة: «اسمع، في الأسبوع الماضي، أتتني قضية خلاف على فرس. كان الطرف الأول فلاحًا من قرية قريبة من سباسطيه... لا أتذكّر اسم القرية. باع فرسًا لواحد من زبائنه المعتادين. تمّت الصفقة واشترى الزبون الفرس بمبلغ غير قليل. سُرَّ الطرفان بالصفقة. ثم مضت بضعة أسابيع؛ وجاء الفلاح إلى نابلس لبيع محصوله. كان سائرًا عند سوق البصل، فرأى صديقه الذي اشترى الفرس منه. كانت الفرحة ظاهرة على وجه الرجل. قال له: أشكرك كثيرًا يا معلم على هذه الفرس.

أنا سعيد جدًا. لقد ولدت أمس مهرًا. تمت الولادة بسلام، والمهر الصغير في صحة جيدة جدًا».

وضع الحاج نمر إبريق العصير على الصينية. أطلق أبو عمر ضحكة قصيرة.

«هذا يعني أن لدينا هنا شخصين غبيين. الغبي الأول، هو الفلاح الذي لم يدرك أن فرسه كانت حامل، لعلّه ظنّها سمينة جدًا فحسب. وأما الغبي الثاني فهو زبونه الذي لم يدرك أن الفلاح لن يكون مسرورًا أبدًا بأنه باعه فرسًا حامل... يعني أنه باعه فرسين بثمن فرس واحدة. غضب الفلاح كثيرًا، بطبيعة الحال، وطالب زبونه بأن يدفع له مبلغًا إضافيًا مقابل المهر الذي اشتملت عليه الصفقة من غير علمه. أو، هكذا قال، يستطيع المشتري أن يعيد إليه ذلك الحصان الثاني، المهر. فماذا حدث بعد هذا؟ من الطبيعي أن المشتري رفض ذلك الكلام رفضًا تامًا، وقال إن المهر ملك له: كان البيع قطعيًا؛ وهو مشتمل على كل شيء. إلا أن الفلاح قال إن الفرس قد حبلت عندما كانت عنده، وإن ذلك كان أثناء وجودها في عهدته. لا بد أن يكون المهر ابن واحد من الفحول التي عندي. هذا يعني أنه من حقي... و، و، و، هيك، وهيك، وهيك.

... إذا تغاضينا عن بعض جوانب الغباء في هذه القضية، فإن المسألة تظلّ محيّرة. هل يمكن أن يكون الشخص مالكًا لحصان لم يولد بعد؟ فلنتذكّر أن مهمتي هي العثور على الحلّ الأكثر إنصافًا. فما هو الحل الأكثر إنصافًا؟ إنه الحل الذي يجعل حياة الناس أقل صعوبة. طبعًا، هذا ليس أمرًا يمكن حسابه بسهولة؛ فمن يستطيع القول إن الفلاح لم يحزن كثيرًا لخسارته هذا الحصان؟... الآن، بعد أن عرف بالأمر! ومن يعرف شيئًا عن ظروفه؟... لعل ابنته مريضة، أو لعله في حاجة إلى معالجة طبّية خاصّة في القدس! وبطبيعة الحال، هناك حاجات وحاجات. هذا ما يمكن حسابه إلى حد ما. وعلى هذا النحو، يا أبا عمر، طرحت عليّ هذه القضية سؤالًا أخلاقيًا كان، في الوقت نفسه، سؤالًا منطقيًا أيضًا. المنطق ليس منفصلًا عن الحياة، يا زلمه، والفلسفة هي ما نعيش به سواء أكنت فيلسوفًا أم لم تكن».

قال الحاج حسن: «وما القرار الذي توصّلت إليه؟... في شأن ذلك الحصان».

قال أبو عمر: «سمعتك...». مال برأسه فلمعت عدستا نظارتيه كأنهما مرآتان... «لكن، كيف نستفيد من هذه المسألة في بيوع الأراضي؟ ماذا تفعل إذا كان لديك صاحب أرض في بيروت يريد أن يبيع أرضه في الجليل لأن هناك حدودًا الآن تمنع عليه تحصيل غلة الأرض؟ لا يبالي المشترون الجدد بالفلاحين. ماذا يقول ابن عابدين إذا كان القرآن يقول إن صاحب الأرض هو من يفلحها؟ ما أعنيه أن هناك أكثر من منطق، وأن من الممكن أن نتوه بين القصص فلا ترى عيوننا الحقيقة. هذه القصة عن الحصان... من

الممكن استخدامها بخمسين طريقة مختلفة. يمكنك الخروج منها بأية حجة تناسبك».

مصّ الحاج نمر شفته، وتناول جرعة من كأسه ثم أطلق زفيرًا حادًّا عبر أسنانه وهو ينظر إلى العصير: «في نهاية المطاف، ساعدتك القصّة في فهم حجتي. هذا يعني أنها شكل سليم من أشكال المناقشة المنطقية».

قال الحاج حسن: «كيف كان حكمك في القضية، يا حاج؟ قضية المهر والحصان».

كان الحاج نمر موشكًا على الإجابة عندما سمعوا صوت خطوات على السلم. التفت إلى الباب الذي انفتح وأطلّ منه وجه وداد المححّب.

«أتاك ضيف، يا أبا برهان».

نهض الحاج نمر واقفًا. دخل الغرفة رجل شاب. كان يرتدي بدلة أنيقة بلون أزرق سماوي، وعلى رأسه طربوش أحمر داكن. كان شعره الكثيف أسود اللون، وعيناه الخضراوان الكبيرتان لامعتين. كان الطقس في الخارج باردًا بعض الشيء، لكن قطرات من العرق كانت ظاهرة على حاجبي الشاب. عصاه غير ثابتة في يده... نهايتها تحوم قريبًا من الأرض كأنه غير واثق مما إذا كان عليه أن يستند عليها أو يحملها. التفت الشاب إلى الرجلين الآخرين، وحياهما بانحناءة.

«السلام عليكم. اسمي مدحت كمال».

تمتم الجميع: «وعليكم السلام».

قال نمر: «أنا نمر حمّاد...»، ومد يده لمصافحته... «ألا تتناول كأسًا من عصير البرتقال؟... وداد! هاتي كأسًا أخرى، وهاتي مزيدًا من العصير. تفضّل. اجلس».

كان مدحت قد عرف الرجلين الجالسين في الغرفة: رئيس البلدية، أبو عمر جوهري؛ والحاج حسن حماد، الغني عن التعريف. لم يكن سهلًا عليه الاستعداد للقاء الحاج نمر؛ كان وجود الرجلين الآخرين أكثر مما يطيق. تمنى لو أنه استطاع أن يجلب والده معه.

بدأ مدحت يقول: «أنا ابن الحاج طاهر كمال...» جلس فتمنّى من فوره لو أنه لم يجلس لأن الحاج نمر ظل واقفًا... «حفيد محمد كمال». استدار في جلسته نصف استدارة حتى يصير في اتجاه الحاج نمر الذي لا يزال واقفًا عند الباب منتظرًا العصير والكأس. لكنّه أنهى كلامه بمخاطبة الحاضرين جميعًا: «يملك أبي متجر الكمال في الخان ومتجر الكمال في القاهرة. وقد عدت مؤخّرًا من فرنسا، من باريس، حيث كنت أدرس الطب والفلسفة والتاريخ».

انخفضت زاويتا فم أبي عمر جوهري الذي نظر إلى الحاج حسن كأنه يقول إن هذا ليس سيئًا أبدًا. شدّ مدحت على ساقه حتى يوقف ارتجافها.

قال الحاج حسن: «أنا أعرف والدك. إنه صديقي. الحاج طاهر واحد من مؤسسي المستشفى البلدي، يا أبا عمر...». التفت مجددًا إلى مدحت... «وقد ساعدني خلال الحرب».

قال مدحت: «هل ساعدك حقًّا؟». كان ينبغي لهذا الخبر الجديد للتعاون بين العائلتين أن يجعله أكثر جرأة، لكنه أحسّ بشيء من الحيرة لأنه لا يعرف شيئًا عن هذا الأمر، ولأن أحدًا لم يحاول توضيحه له. أحس بالخجل أيضًا وكأن ضعف صلته بوالده قد صار ظاهرًا للجميع. حلّت فترة من الصمت.

التفت إلى الحاج نمر: «أود أن أطلب منك... هل يمكن أن نتحدّث على انفراد، يا حاج؟».

«أجل، بالطبع...» أشار نمر إلى الباب... «تفضّل، اتبعني».

ومع نهوض مدحت، صبَّ أبو عمر لنفسه القدر القليل الباقي من العصير ورفع الكأس ناظرًا إليها في ضوء الشمس.

تقدّمه الحاج نمر إلى غرفة ضيّقة رطبة لها سقف مائل. كانت النافذة مطلّة في اتجاه الشارع ورأى مدحت منها درجات المدخل ذات الشكل البيضوي، الدرجات التي صعدها قبل بضع دقائق.

ضم الحاج نمر يديه معًا. رأى فيه مدحت ملامح تشبه ملامح فاطمة، العينان، والشفتان. استنشق نفسًا عميقًا.

«أريد أن أطلب يد ابنتك زوجة لي».

لم يتغير تعبير وجه الحاج نمر، لكن حاجبيه ارتفعا ببطء: «آه. للأسف، الإجابة هي لا».

نظر مدحت إلى الأسفل وحاول أن يظلّ تعبير وجهه حياديًا. لقد أخفق... بهذه السرعة! كانت حركة ذهنه بطيئة. سمع ضجيجًا من المطبخ وأصوات نساء آتية من الطابق السفلي، وعندما رفع رأسه ونظر إلى الحاج نمر وجد أنه لا يزال ينظر إليه. للأسف، كانت الإجابة لا. «إن استطعت ذلك...». هذا ما قاله جميل عن زواجه من فاطمة. رنّ صدى الكلمات حارًا في أذنيّ مدحت. صار لها معنى جديد. أخيرًا، أفلح في القول: «فهمت». كان صوته خافتًا جدًا.

تنهد الحاج نمر بصوت لطيف، ثم ابتسم له: «شكرًا لزيارتك، ألا تتناول العصير؟».

«لا، أشكرك. أشكرك على وقتك».

ودّ مدحت كثيرًا أن ينزل درجات السلم ركضًا. لكنه أحنى رأسه لزوجة نمر ونظر إلى يدها عندما فتحت له باب البيت لكي يخرج. يد رقيقة، تجاعيدها خفيفة جدًّا، وأظافرها مقصوصة بعناية وملمَّعة. انهارت مقاومته عندما صار في الشارع فانطلق جريًا.

رأى شخصٌ واحد تلك الساقين تجريان، ثم تتوقّفان عند مرور سيارة، ثم تعودان إلى الجري بعد اجتياز الطريق. كان ذلك الشخص في أعلى البيت، خلف النافذة الأخيرة من النوافذ المقنطرة الثلاث. كان فتاة تمزج في وعاء صغير، مسحوق الكحل مع زيت الزيتون مستخدمة فرشاة صغيرة جدًا. كانت تنظر إلى المدينة من نافذتها. كانت أختها، نزهة، نصف مستلقية على أحد السريرين تطلي وجنتيها بكريم أبيض اللون.

«ما الذي تنظرين إليه؟». بدا وجه نزهة حزينًا، مبالغًا في حزنه، وهي تنظر إلى مرآة صغيرة محاولة شد الجلد تحت عينيها.

أجابت فاطمة: «لا شيء».

اختفى الشخص الذي في الشارع، ثم لم يلبث أن ظهر من خلف تعريشات الزهور. ثم عاد إلى الجري رافعًا إحدى يديه إلى طربوشه حتى لا يسقط عن رأسه.

## - 7 -

كان مدحت يجري صاعدًا طريق الجبل. لكن انحدار الطريق ازداد، ففقد عزم اندفاعه وتباطأت خطواته فصارت هرولة. لقد حاول فعل ما أرادوه منه. ليس منتميًا إلى نابلس. هذه الحياة، وهذا النظام، ليسا من أجله. صارت هرولته مشيًا. ركل حصاة في الطريق. بالطبع، لن ترى تيتا الأمر على هذا النحو.

قال بصوت مرتفع: «هذه ليست غلطتي. إنه رجل متكبّر. ليست غلطتي إن كانت ستتزوج ابن عمها. تريدون مني التقدّم إليها في حين أنها مخطوبة بالفعل! تيتا، هذه ليست غلطتي... أظن أنها غلطتك أنت». في مكان مرتفع من الجبل أمامه، رأى شخصًا قاتم اللون كأنه شجرة لها غصن ثخين واحد. قد يكون ذلك الشيء شجرة؛ لكنه ظهر له شكلًا غريبًا عن الأفق الذي يعرفه جيدًا. ثم إن ذلك الشيء كان يتحرّك. سار مدحت متجاوزًا كتلة أغصان فرأى ذلك الشخص مرة أخيرة قبل أن يختفي خلف منطقة مرتفعة من الأرض. كان ضوء النهار في آخره. زاد مدحت سرعته.

أتاه صوت من خلفه: «مدحت! مدحت! انتظر!».

«جميل؟».

«نعم، نعم، هذا أنا». برز جسد جميل الطويل من خلف منعطف الطريق... «لماذا تجري؟»... ضحك جميل، ثم اندفع لكي يلحق به... «هل أنت خائف؟».

«لا».

«هل أنت بخير؟».

«أنا بخير».

«لا يبدو لي أنك بخير».

كشّر مدحت احتجاجًا، ثم قال أخيرًا: «رأيت شخصًا هناك. له لحية كبيرة».

«على الأرجح هو واحد من رهبان العذراء».

«من هو؟».

«قس. يحب الجلوس في أماكن غريبة. أمره غريب حقًا».

«هل هو فرنسي؟».

«ربما. لماذا؟».

«رأيت في كنيس السامريين رجلًا فرنسيًا له لحية».

«الكنيس. ماذا كنت تفعل في الكنيس؟».

«كان ينظر إلى شيء ما، على أما أظن، ورقة، أو كتاب».

«ماذا كنت تفعل هناك؟».

تردّد مدحت ثم قال: «أخبرتك عن هذا. أرادت تيتا أن تعمل سحرًا».

لم يجبه جميل. تساءل مدحت في نفسه إن كان عليه إخباره بما جرى في بيت الحاج نمر. لم يكن واثقًا من احتمال ازدراء جميل.

قال جميل وهو ينحني ويلتقط عصًا كانت إلى جانب الطريق: «تعرف أنها سوف تتزوج». مرّت لحظة قبل أن يدرك مدحت أن جميل يتحدّث عن زواج فاطمة من ياسر. انقبضت معدته: «ماذا تقول؟».

«لقد كتبوا كتابها».

توقّف مدحت. أطلق جميل ضحكة طويلة. انتظره مدحت إلى أن انتهى من الضحك. أخيرًا، قال جميل: «إنني أمزح». رفع عصاه فوق كتفه ورمى بها من فوق حافة منحدر. بدا كأنه غير منتبه إلى انزعاج مدحت. «أظنهم يبيعون كتبهم القديمة، السامريون... وهؤلاء الأجانب يأتون لشرائها».

«لماذا يشترونها؟».

«إنه المال حبيبي، فماذا غيره؟ هذا زمن صعب. وبالمناسبة، أردت إخبارك بأن...».

«هل تعني مالًا من أجل السامريين أم مالًا من أجل الأجانب؟».

«أنا أعمل الآن في الخان، في متجر للسجاد».

قال مدحت: «حسنًا، هذا خبر جيد. يمكننا تناول طعام الغداء معًا».

«أبي يقلّدك... بل يقلد أباك. عليّ أن أمضي سنة هناك قبل أن أنتقل إلى العمل في المكتب. وهكذا فإنني أمضي يومي كله مع السجاد. أمر مسلٍّ». لم تبد نبرة صوته مقنعة.

صار الطريق منبسطًا، وصارا قادرين على رؤية مسافة أمامهما. كان القس الفرنسي نازلًا على درب ضيقة متفرّعة عن الطريق عند المنحدر. رفع ثوبه بيده حتى يسير على الحجارة. ومع وصوله أخيرًا إلى الطريق، فتح كيسًا كان على كتفه ودس فيه كتابًا. كان أطول مما تذكّره مدحت في الكنيس، وأكثر ضخامة. خفق ثوبه بين قدميه عندما سار صوبهما بخطوات واسعة.

قال له مدحت: «بونجور».

ولدهشته، توقف القس تمامًا: «بونجور».

توقف الشابان في وسط الطريق.

قال مدحت بالفرنسية: «هذا ابن عمي، جميل كمال».

حنى القس رأسه وقال: «فرصة سعيدة. أنا الأب أنطوان». مد يده لمصافحة جميل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال جميل: «فرصة سعيدة».

نظر مدحت إلى القلم الذي كان في يد الأب أنطوان. تابع مخاطبته بالفرنسية: «ماذا كنت تكتب؟».

نظر القس إليه. بدت عيناه وردية تمامًا. أجابه القس بالعربية: «ملاحظات. إنني أدرس».

«هل تدرس في الجامعة؟».

«أنا في المدرسة الإنجيلية، في القدس». توقّف لحظة ثم قال: «أنا أستاذ هناك. لكنني لا أدرّس في الوقت الحاضر. هل أنت طالب؟».

«لا. لقد كنت طالبًا. وأنا أعمل الآن. نحن الاثنان نعمل في السوق».

رفرف أنطوان بعينيه عدّة مرّات وقال: «آه. أمر مثير للاهتمام».

أجابه مدحت على الفور: «ليس مثيرًا للاهتمام حقًّا. والواقع هو أنني أراه شيئًا مضجرًا تمامًا. أليس مضجرًا يا جميل؟ يمكنني القول إن ليس فيه ما يثير الاهتمام».

قال جميل بالعربية: «لا أظنّه عملًا مضجرًا كثيرًا». كان على وجهه تعبير غريب.

«لقد عنيت فقط... أنه ليس مما يثير الإعجاب أن يكون المرء طالبًا ثم يأتي ليعمل في السوق. إنه...». رفع مدحت كتفيه... «إنه عمل عادي. وفي الوقت نفسه، لا يمكنني القول إنه شيء سيئ كثيرًا».

بدا كأن ما من رد مناسب على ما قاله. سرت نسمة قوية بين الحشائش على سفح الجبل. لم يقل أحدهم شيئًا. أدرك مدحت أن ذلك الجمود كان بسبب ما قاله؛ وأدرك أنه جعل الحديث متوتّرًا من غير أي داعٍ. بدرت عن القسّ حركة توحي بأنه يريد إكمال طريقه.

قال له جميل: «سررت بلقائكَ».

لم يقل أيٌّ من الشابين شيئًا في طريق عودتهما إلى البيت. ومع مرورهما بأجمة من الأشجار قبل البيت، قال جميل: «هل تعرف... لقد نسيت معظم ما تعلمته من اللغة الفرنسية».

«هل نسيته حقًا؟».

«أجل. إذا لم تستخدم اللغة، فإنك تنساها».

كانت تيتا في انتظاره في المطبخ. وفي غمرة ارتباكه، ألقى مدحت باللائمة على الحاج نمر. لم تتأثر تيتا بكلامه. قالت له: «أنت أحمق تمامًا. كان عليك أن تتركني أفعل ذلك. لماذا منعتني؟».

أجابها بحدة: «هل تعنين السحر؟ ليس لهذا الأمر أي معنى! ثم إنه كان من أجل فاطمة، لا من أجل والدها. كان عليكِ أن تأخذي شعرةً من رأسه، لا من رأسها».

أجابته وهي خارجة من الغرفة: «والآن، عليَّ أن أجد لك فتاة أخرى. أمرك عجيب، عجيب! تريد أن تجعلني أعمل كالحمير».

أجابها مدحت: «هذه ليست غلطتي». لكنها كانت قد ذهبت.

عندما آوى إلى فراشه في تلك الليلة، كان يتساءل في نفسه إن كانت تيتا محقّة: هل كان الحاج نمر سيوافق على تزويجه لو أنه قبل بالسحر؟ كان واضحًا أن هذا الفشل مع آل حماد لن يضع نهاية لمسألة الزواج. إن لم تكن عروسًا له، فستكون له فتاة أخرى. جاء الصباح، فنهض في وقت مبكر وخرج من البيت قبل أن تستيقظ تيتا.

دُهش هشام عندما رأى مدحت ينكبّ متحمسًا على العمل في الدفاتر ذلك اليوم. أجهد عقله طيلة الفترة الصباحية، وطيلة فترة بعد الظهر، وراح يحسب الديون والقروض ساعيًا لا إلى الهدف الظاهري الذي هو إنجاز هذه المهمة أو تلك، بل إلى الإحساس الذي يعقب ذلك. أراد أن يصل إلى ذلك الإحساس بالإرهاق والاستنفاد، إلى ذلك الفراغ الهانئ بعد التركيز. أراد أن يكون جسدًا لا يفعل شيئًا غير العمل، وأراد ألا يبقى في ذهنه حيّز لاجترار الأفكار. غفا سريعًا في تلك الليلة. ثم استيقظ في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

مضت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال. طال به الأمر تلك المدة كلّها حتى تعلّم كيف يتدبّر الحسابات من غير إشراف هشام. لا بد من القيام بعدة أمور في وقت واحد: عليه أن يراقب تراكم الفوائد على كل دين من الديون، وذلك مع البقاء منتبهًا إلى أسماء العائلات المختلفة، وإلى الصلات التقليدية التي من شأنها أن تخفض معدلات حسابات الفائدة، أو أن تسمح للمرء بتسريع تنفيذ إحدى الطلبيات عندما يأتي صاحبها بنفسه. وفوق ذلك، عليه أن يظلّ منتبهًا إلى الطلبيات الجاري تنفيذها، وإلى التقدّم الذي ينجزه الخياط في عمله، فضلًا عن الاهتمام بالنقص الذي يمكن أن يطرأ على أية مادة من المواد المستخدمة في العمل. ومع ازدياد مهارته في هذه التفاصيل، بدأ يجد نفسه في حاجة إلى قدر أقل من الطاقة والتركيز، فبدأ يتزايد الوقت الحرّ خلال يوم العمل وتتزايد معه مسارب التفكير الخطيرة التي تقطع ثورة نشاطه.

لم تعد تيتا إلى ذكر العرائس، ولم يعد مدحت إلى فتح الموضوع. لم يخبر جميلًا بعد عن الفشل الذي واجهه؛ وكلما رأى خطوات ابن عمه الواسعة تقترب من المتجر، كلما رآه يتلفّت هنا وهناك باحثًا عنه، صار يتظاهر بفتور لا يعبر عن حقيقة شعوره. أحس كأن جميلًا أيضًا قد صار جامدًا معه. صحيح أن هذا قد يكون خجلًا باقيًا من فترة البُعد بينهما، لكن هشام ظلّ على إحساسه بأن أحاديثهما صارت أكثر سطحية منذ تلك الليلة في مقهى الشيخ قاسم عندما أخبر جميل عن خطط تيتا. جعله هذا الإحساس

متكتّمًا على مشاعره الحقيقية. لو سأله جميل، لكان مستعدًا للقول إنه لم يتخذ قراره بعد في ما يتعلّق بمفاتحة الحاج نمر. لكن ابن عمه لم يسأله. حاول مدحت الامتناع عن التفكير في هذا الأمر، إلا أن تلك الأفكار كان لها أسلوبها في العودة إليه، مثلما ينحدر الماء على سطح مائل.

وحتى يلهي نفسه عن هذا كلّه، راح يمضي وقته في غرفة الخيّاط بطرس، وصار يجلب له فناجين القهوة ويراقب لفافات القماش تتحوّل إلى أغطية ووسائد وملاءات، وينظر إلى الأحزمة والمناديل الحريرية تتحرّك تحت نقرات سن آلة الخياطة «سنجر» ذات اللونين الأسود والذهبي. كان أكثر ما ينتجه متجر الكمال موجّهًا إلى أهل الريف، مما أدّى إلى شيء من المحدودية في تنوّع تلك المنتجات وأشكالها على الرغم من اهتمام الفلاحين بارتداء ملابس جميلة في حفلات الزفاف. لكن المتجر لم يكن متّجهًا إلى سوق الطبقة العليا: كانت تلك الملابس من اختصاص الخياطين السامريين.

كان متجر الخياطين السامريين يقع عند زاوية شارع قريب من حيّهم. كانوا أربعة خياطين، رجلان وامرأتان. وعلى الأقل، عادة ما يجد المرء ثلاثة منهم يخيطون وهم جالسون في نصف دائرة. كان إيلي صاحب الطبع الأكثر انفتاحًا بينهم: رجل طويل نحيل، ذو شعر صار رماديًا قبل أوانه ووجه زيتونيّ شاب. كان إيلي مستعدًا دائمًا لجعل مدحت يرى ما يعملون عليه، فصار هذا الأمر محطّة ممتعة في كل يوم من أيامه: يأتيهم بعد الغداء، ويتابع سير العمل على المعاطف الصوفية ذات النمط الأوروبي. يراها تتشكّل بين أيديهم، ويرى كيف يثبّتون الزينات المذهّبة على ظهور السترات، والفساتين المعدّة لكي ترتديها النساء في حفلاتهن الخاصة. كانت القطع المنتهية توضع، مطوية ومكوية، بالقرب من مدخل المتجر. وكانت تلك القطع تُعرض معلّقة في واجهة المتجر بعض الوقت إلا إذا عبَّر أصحابها صراحة عن عدم رغبتهم في عرضها. لم يكونوا يعرضونها فترة كافية لاجتذاب العين الحاسدة، بل فقط بما يكفي لكي يرى الناس تفصيلها.

لم تكن الملابس التي ينتجوها غربية الطابع بالمعنى الدقيق للكلمة، على الرغم من أنها «غربية» من حيث الظاهر. وذلك لأن السترات كانت ذات زوايا أكثر حدّة من تلك السترات التي يتذكّرها مدحت من أيامه في باريس. وعلى الرغم من أن الأقمشة كانت مستوردة على الأغلب (على سبيل المثال، جاءت في الآونة الأخيرة منسوجات قطنية كثيرة من إنكلترا)، فعادة ما كانت تخاط مع أقمشة محلية، مما يعني أن ما من شيء كان يبدو أجنبيًا تمامًا. ثم إن السامريين ما كانوا يعتمدون على نماذج تفصيل الملابس الأوروبية لأن تصميماتهم كانت قائمة على الطلب المحلّي مع شيء من التأثير المستمد

من أفلام صامتة نادرة، أميركية أو مصرية، ومن النساء البريطانيات اللواتي يتردّدن على الخان. لم تكن تلك النساء مدركات أن العيون التي تتفحص أشكالهن المكشوفة، من أعلاها إلى أسفلها، كانت تنظر إلى الأقمشة التي تلفّ تلك الأجساد أكثر من نظرها إلى الأجساد في حدٍّ ذاتها. ثم إن نماذج تفصيل تلك الملابس كانت تشهد تحوّلًا من طلبية لأخرى، فكلما تكرّرت خياطة القطعة، كلّما ازداد خضوعها لما يفضله هذا المشتري أو ذاك. وغالبًا ما تظلّ التعديلات الجديدة سارية على الطلبيات اللاحقة. أما في نظر مدحت، فقد بدت هذه التعديلات في أنماط الخياطة أشبه بأغلاط. فالأثواب التي كانت تظهر في الحفلات الباريسية عند مغادرته، ثم سبقته إلى القاهرة على نحو ما، صارت الآن موضع اختبار في نابلس، بأقمشة سوداء من الحرير والقطن. تساءل أول الأمر إن كانت هذه الأثواب مصنوعة من أجل نساء ذوات أجساد ضخمة خاصّة، ثم أدرك أنهم كانوا يزيدون في مقاساتها حتى يمكن ارتداؤها فضفاضة بحسب العادات المحلية... ربما درءًا لاحتمال أن «تُجسّم» جانبًا من جسد المرأة تجسيمًا غير لائق.

شحّت الأمطار في شهر كانون الأول، وتباطأت حركة الأعمال في الخان. وصار أكثر الزبائن يأتون إلى متجر الكمال لا لشراء الأقمشة ولا لزيارة الخياط، بل لتسديد ديونهم، أو للتوسّل من أجل إرجاء التسديد حتى موسم الحصاد. وفي أمسية باردة برودة غير عادية، دخل المتجر رجل محني الظهر كثيرًا وعلى رأسه طربوش بالٍ في عدة مواضع. وضع الرجل حزمة على الطاولة. سأله هشام: «ما هذا؟».

«إنه طلبية القماش من الشهر الماضي». كان ذلك صوتًا مألوفًا. تحرّكت أصابع الرجل بطيئة فوق الحزمة. كانت أوتارها ظاهرة. انحنى مدحت حتى يرى وجهه.

«عمو أيمن!».

«مدحت!».

كان ذلك وجهًا من طفولة مدحت، وجه والد صديقته الصغيرة ذات الشعر الأحمر، هلا سابا. لقد غير الزمان شكله وظهرت غضون طويلة عند صدغيه.

«كيف حالك، يا عمو؟».

قال أيمن وجِلًا: «سمعت بعودتك. تهانينا».

سأله هشام: «أية طلبية؟».

حلّ أيمن رباط الحزمة بحركة حادة. بدأ هشام يفرد القماش.

قال له مدحت: «هشام، لا تفعل هذا».

التفت هشام إليه. رفع مدحت يده وقال بصوت لم يكن صوته المعتاد نفسه: «لا بأس. سوف أتولّى هذا الأمر».

نظر إليه هشام متأمّلًا، ثم حيّا أيمن بإيماءة غامضة من رأسه وتجاوزهما عائدًا إلى الغرفة الخلفية.

قلب مدحت حافّة غلاف الحزمة: «خذ هذا معك. لم يعد عليك دين لنا. خَلَصْ. انتهى الدين».

جرت عينا أيمن على الأزرار التي على صدر مدحت: «أوه، لا. لا، يا مدحت. بارك الله فيك، يا عمو».

لم ير مدحت هشامًا بقية ذلك اليوم. صار لون السماء شاحبًا عندما وقف بالباب يدخن سيجارة. مر به بطرس في طريق انصرافه ملتفًا بمعطفه. قال له إن هشامًا قد انصرف. وقف مدحت ينظر إلى أبواب المتاجر وهي تُغلق واحدًا بعد آخر، وإلى التجار يودّع بعضهم بعضًا. على غرار عائلته، كان يُقال إن عائلاتهم واقفة على الحافة بين الجمهور والنخبة. لكن حقيقة الأمر، مثلما بدت في عين مدحت، كانت أن عائلة سابا وأمثالها هم من يعانون. كانت عائلة سابا ثريّة في ما مضى. وكان هذا أمرًا معروفًا. وعلى الرغم من عدم اتضاح سبب الفقر الذي أصابهم، فقد صاروا من ذلك النوع من العائلات المسيحية التي لم يبق دليل على انتمائها إلى المدينة غير نسائها المحجّبات. تساءل مدحت عن مكان هلا الآن. تساءل إن كانت قد تزوجت.

ظهر جميل مقتربًا عند الزاوية. قال له: «الطقس بارد جدًا. هل تسرع، من فضلك؟».

«أعطني لحظة».

دخل جميل المتجر، في حين تابع مدحت التدخين وهو ينظر إلى الرماد يتصاعد من سيجارته ويذوب مختفيًا. سمع ابن عمه يقول: «ما هذا؟».

«ما هو؟».

«ما شاء الله! أنت فنان».

«أوه، لا...». رمى مدحت عقب سيجارته من بين أصابعه... «لا تفعل هذا، من فضلك». صار عند الطاولة بخطوتين واسعتين اثنتين، ومد يده إلى سجل المحاسبة. حاول حجب الصفحة بذراعه، ورفع صوته مخترعًا ما ظنّه الذريعة الملائمة لشعوره بالانزعاج: «ماذا تفعل؟ ولماذا تنظر في حساباتنا؟».

«أنت من ترك السجل مفتوحًا».

كان السجل راقدًا في وضعية مقلوبة. على الصفحة اليسرى، ظهرت رسوم لبعض المعاطف وعدة أشكال من ساق البنطلون ذي الثنية. وعلى الصفحة اليمنى، كان مدحت قد كرّر، عدة مرات، رسم فستان. أغلق السجل في حين كان جميل يخطو مبتعدًا عن الطاولة، ثم جثا حتى يفتح خزانة حفظ السجلات.

قال وهو يضع السجل على الرف: «لا يجوز أن تنظر إلى أشياء الآخرين».

قال جميل ضاحكًا: «لقد كان مفتوحًا. لماذا ترسم هذه الأشياء؟».

«ولماذا يفعل المرء أي شيء؟».

لم يكن مدحت ماهرًا في الرسم. لم يعلّموهم الرسم في القسطنطينية. وفي مونبلييه، حدث عدة مرات أن رسم مقاطع عرضية لنماذج نباتية حتى يكتب عليها أسماء مكوّناتها ويتذكّرها في مادة علم النبات. الحقيقة هي أن تلك كانت تجربته الأولى في النظر إلى الأشياء ومحاولة نسخها. تمضي العين جيئة وذهابًا بين الورقة والعيّنة الموضوعة على الصفيحة الزجاجية، لكنه لم يحاول من قبل أبدًا أن يرسم شيئًا من الذاكرة، فكانت النتيجة رسومًا خرقاء على سجل المحاسبة. لقد كان يحاول تذكر الناس في الحفلات، والمانيكانات في واجهات المتاجر، وفساتين النساء التي حملت لمسات من أسلوب الملابس العسكرية. لكنه لم يستطع التقاط أيّ من هذه التلاوين كلّها، فكانت التنّورات التي رسمها مثلثات، لا أكثر. بدت كأنها مظلات نصف مفتوحة.

نهض واقفًا. كان جميل واضعًا يديه على بطنه لشدة ضحكه. لكنه هدأ عندما رأى وجه مدحت: «ماذا أصابك؟».

«كاد الظلام يحلّ».

«آه، لا بأس، سأنتظرك في الخارج».

لم يستغرق مدحت وقتًا طويلًا في ترتيب الخزانة وإقفالها. لكنه أمضى لحظة أخرى في تنظيف المساحة المحيطة بالطاولة: كان ذلك أول يوم يمارس فيه شيئًا من السلطة على هشام، فجعله هذا يحسّ بشيء من الاضطراب. تناول المكنسة ونظّف المساحة التي أمام الطاولة حيث كانت فيها بقع خلّفتها الأحذية الملوّثة بالطين، ثم جفّت فصارت ترابًا. كانت على الأرض أيضًا بضعة خيوط. خرج إلى الهواء الطلق حاملًا القفل في يده، فرأى جميل منحنيًا في وجه الريح يدس إصبعه في شق في الجدار الخارجي، ارتدّ جميل إلى الخلف فرأى مدحت ينظر إليه. كان على إصبعه زغب أبيض.

قال: «شباك العنكبوت».

ابتسم مدحت من غير إرادة منه، ثم فتح عينيه على اتساعهما محاولًا إخفاء بسمته.

قال جميل عندما سارا معًا: «كنت أريد سؤالك: هل رأيت سيارات كثيرة في باريس؟».

«بالطبع».

«هل رأيت سيارة بوغاتي؟».

«لا أعرف هذه السيارة».

«إنها سيارة سباق».
«لعلها كذلك. لست أدري».
قال جميل: «لدى الألمان سيارات كثيرة في جنين. في القاعدة العسكرية. ركب تحسين واحدة من تلك السيارات. قال إن السفر إلى القدس استغرق ثلاث ساعات».
«وما الذي جعلك مهتمًا بالسيارات على نحو مفاجئ؟».
«لست مهتمًا. لكن ليس هناك الكثير ممن رأوا عددًا كبيرًا من السيارات».
«لا بد أنك رأيت سيارات في القسطنطينية».
«لم أر سيارة فورد. بالطبع، لا بد أنك رأيت أنواع السيارات كلّها في باريس».
«آه، يا جميل... ماذا بك؟ هذا غباء».
«ماذا؟».
«عليك أن تكف عن هذا».
«أكف عن ماذا؟».
«أنت تكفّ عن كونك...». تردّد قليلًا... «تعرف كيف... تكفّ عن غيرتك مني. ذلك الكلام عن باريس».
شخر جميل شخرة استياء مكتومة.
«لم يكن كل ما مر بي مسلّيًا بالقدر الذي تظنه».
«لست أعرف ما تتحدّث عنه».
تنهّد مدحت. لقد بلغا أطراف المدينة. صارت الأشجار سوداء مع غروب الشمس.
مرت بضع لحظات قال بعدها: «طلبت يد ابنة الحاج نمر. وقد رفض».
«لا بأس... يؤسفني سماع هذا».
«لا، لا يؤسفك. لا أهمية للأمر. ما أريد قوله هو أن أموري أيضًا لا تسير بسهولة».
«لم أقل أبدًا...».
«قلت لك إن لا أهمية للأمر. كان عليَّ ألّا أقول شيئًا عن هذا».
لم يجبه جميل. سارا صاعدَين المنحدر. ومع انعطاف الطريق، أطبقت الذكرى على مدحت. كأن أفكاره تباطأت؛ وكأنها كانت تبحث منذ زمن طويل عن صلة ما، فلم تعثر عليها إلا في هذه اللحظة. لمعت الذكرى في ذهنه: الشرفة التي تعصف بها الريح في مونبلييه، والمرج، والبركة. فريديريك مولينو يسأله عن السامريين في جبل جرزيم. تمسّك بتلك الصورة، وراحت التفاصيل الأخرى المتعلّقة بها تعود إلى الحياة. نظر إلى ساقي جانيت العاريتين المبتلّتين.
خرجا من بين الأشجار.

قال جميل: «هل تعرف كيف تختبر إطار سيارة مثقوبًا؟».

«كيف؟».

انعطف الطريق من جديد، فظهر الجبل الآخر. جعله المساء والبعد يبدو داكنًا.

«تبلّل إصبعك، هيك... وتتحسّس اندفاع الهواء من الإطار». دعك جميل كفيه معًا... «هل تعرف؟ أظن أن عليك المحاولة من جديد».

«محاولة ماذا؟».

«من أجل فاطمة».

«فاطمة؟».

مس جميل كتفه: «أين أنت، يا حبيبي؟ أعرف أنك غاضب. كيف رفض الحاج نمر طلبك؟ قل لي كلماته».

«قال: للأسف، الإجابة هي لا».

«هل قال هذه الكلمات؟ والله؟ حسنًا، على الرغم من ذلك... لو كنت محلّك، لحاولت من جديد. إنه لا يعرفك. سوف تكون زوجًا ممتازًا لابنته».

«الله يحفظك».

«ثم إنني لا أشعر بالغيرة منك. مش معقول، يا مدحت. بل إنني لا أستطيع تصديق أنك قلت هذا. لا أظن أن الـ...».

انعطفا تاركين الطريق فدخلا الدرب المفضية إلى البيت. من بين أغصان شجرة منخفضة، شاهدا العينين الزجاجيتين لمصباحي سيارة غير مضاءين، ومن تحت السيارة، ظهر إطاران.

سمعا صوتًا، وتقدّم صوبهما ظلّ طويل. «مدحت».

انقبضت الأعصاب في بطن مدحت: «أبي. لم أعرف أنك هنا».

قال الحاج طاهر: «وجميل أيضًا! أهلًا وسهلًا، يا عمو. لقد رأيت أباك. أنت تعمل الآن في الخان».

«أهلًا عمو؛ صحيح».

«كنت في اجتماع في حيفا. أتيت في طريق عودتي إلى القاهرة لكي أرى كيف هي الأحوال هنا. دمشق في حالة فوضى. هل تتعشى معنا؟».

أجاب مدحت: «نعم، سيتعشى معنا».

«يا الله».

كانت تيتا في الممر. عندما قبّلت مدحت، أحس بشفتيها صلبتين على خده. سألت جميل: «أين أمك؟».

«في الأسفل».

«كان عليك أن تحضرها معك. اشتقت إليها. تعالوا». أمسكت بطرف معطف طاهر. قالت له: «ماما، كيف الحال في دمشق؟».

«تظاهرات في كل مكان». نزع طربوشه عن رأسه ومرر ثلاث أصابع في شعره الفضي... «إنها تجعل حياة الجميع صعبة، بما في ذلك حياة التجار. لو رأيتم تلك الحشود... أوف».

قال مدحت: «وما ذلك الاجتماع؟».

قالت جدته من الديوان: «أي اجتماع؟».

«مؤتمر في حيفا. هل لدينا شيء حلو؟ أنا جائع».

قالت تيتا: «انتظر العشاء».

أشار طاهر بأصابعه المضمومة إشارة موحية بنفاد الصبر، فنهضت تيتا. استدار إلى الشابين: «إنه النادي العربي، والجمعيات الأخرى، حيفا، يافا، والناصرة...». لوّح بيده كأنما أصابه الملل. لكن هيئته تغيّرت عندما استند إلى ظهر كرسيه. نفخ عبر أسنانه. صار صوته كصوت من يتحدّث أمام جمهور ويشرح شيئًا: «إننا نقيم لجنة لفلسطين كلّها، ثلاثة مراكز، حيفا، ونابلس، والقدس. نتحدّث عن جعل الفلسطينيين يقاتلون في جيش فيصل ضد الفرنسيين».

عادت تيتا حاملة صينية بقلاوة. تناول طاهر قطعة من حافة الصينية، فامتدت خيوط عسلية بينها وبين القطعة المجاورة.

«أين المنديل؟».

قال جميل: «جيش!... أهناك حرب؟».

«هذا محتمل. لقد تركوا فيصل يقيم حكومته، لكن الناس غير مسرورين. هل سمعت شيئًا من صديقك هاني؟». قال هذا وهو يشير إلى مدحت بإصبع وسطى دبقة.

سُر مدحت بهذا السؤال وتمنّى لو أنه يعرف إجابة أفضل. قال: «لم أسمع شيئًا منذ فترة. ينبغي أن أكتب إليه».

استند الحاج طاهر إلى ظهر كرسيه من جديد ووضع ساقًا فوق ساق: «وماذا عنك أنت؟ هل وجدت لك زوجة؟».

في زاوية مجال رؤيته، رأى مدحت عينَي تيتا تلمعان.

«أظن هذا».

سعلت تيتا.

«كنت أفكّر في طلب يد فاطمة حماد. إنها ابنة الحاج نمر». مال جميل إلى الأمام لكي يتناول قطعة بقلاوة. التفت الحاج طاهر إلى تيتا. سألها: «أهي فتاة جيدة؟».

رفعت تيتا كتفيها وأومأت برأسها في وقت واحد.

قال: «دار حماد عائلة طيبة. عليك أن تطلب يدها سريعًا. كم يبلغ عمرها؟».

«في الواقع... لست أدري».

قالت تيتا: «سبعة عشر عامًا»... قالتها بشيء من الصعوبة.

سألها الحاج طاهر: «شو ما لك؟».

«لا شيء».

«أين الطعام؟ يلا».

نظرت تيتا إلى الباب: «أم محمود تطهو العشاء. سيكون جاهزًا بعد نصف ساعة».

«مدحت، أين ساعتك؟».

مرت لحظة قبل أن يفهم مدحت هذا السؤال. صار منتبهًا إلى يديه اللتين وضعهما على فخذيه. لم يستطع إبعاد عينيه عن وجه أبيه وعن لحيته السوداء التي ارتفعت قليلًا عندما أصلح وضع ربطة عنقه، وعن الشعر الرمادي عند صدغيه. طال الصمت. نظر أبوه إليه نظرة مباشرة.

قال مدحت: «يجري إصلاحها».

«ما مشكلتها؟».

«أوه، إنها... فقط... لا تعمل جيدًا. قال إن إصلاحها سيكون سهلًا».

«من هو؟».

«إنه مصلح... الساعات. على الطريق إلى... الطريق الذي...».

هب جميل إلى مساعدته: «في القدس؟».

«في القدس. شخص يوناني. إنه يصلح الساعات، والساعات الجدارية وآلات التصوير... وتلك الأشياء كلّها».

«حسنًا، آمل ألا يتقاضى أجرًا مرتفعًا...». تناول طاهر قطعة بقلاوة جديدة... «وكيف هو الوضع في المتجر؟ لقد رأيت هشامًا».

«جيّد. نعم، إنه جيّد. يعجبني العمل في المتجر».

«يعجبك، لا بأس. سنأخذك إلى المتجر في القاهرة، سيعجبك الوضع هناك أكثر».

ارتاح مدحت عندما جاء وقت العشاء فتحوّلت وجهة الحديث عن السياسة. قال أبوه إن بعض أعيان القدس غير ميالين كثيرًا إلى فيصل. يريدون أن تقاتل فلسطين بمفردها من أجل استقلالها.

«وقد كان هناك بعض الاضطرابات. أنت تعرف كيف هم الناس عندما تهب النار في شيء...».

سأله جميل: «أي نوع من الاضطرابات؟».

قال مدحت: «لا أظن أن هذا سوف يفيد القضية. لسنا أقوياء إلى حد يجعلنا قادرين على أن نكون تهديدًا لأيّ كان. دائمًا، ستكون جيوش الأوروبيين أكثر قوة. إذا كنت عنيفًا، وكنت أيضًا الطرف الأضعف، فلا أظن أنك يمكن أن تصل إلى نتيجة حسنة».

قال جميل: «كيف تعرف أننا سنكون الأضعف؟».

«انظر إلى الحرب».

«كسبت بريطانيا وفرنسا الحرب بمساعدة من العرب».

كشّر مدحت وهز رأسه: «كان هذا شيئًا مختلفًا. كان ذلك تحالفًا. إنه وضع مختلف».

قال الحاج طاهر: «ماشي... أتفق معك في تلك النقطة الأخيرة. وأما في ما يخصّ العنف، أعني... بالطبع، هذا منطقي. سوف نتعامل مع الأمر على هذا الأساس، بعدين، سنتعامل مع هذا كلّه في حيفا. بس، تذكّر أن الناس ليسوا عقلاء جميعًا. فكيف يمكنك أن تقول هذا لشخص جائع؟ أنت وأنا لسنا جائعين. وضعك يسمح لك بهذا التفكير. لا أقول إنني غير متّفق معك؛ لكني أقول فقط إن الشعب يتصرّف على نحو مختلف. الأمر متّصل بالحالة الاقتصادية، على نحو ما».

أومأ مدحت برأسه. نظر في وجه أبيه باحثًا عما يمكن أن يكون علامة على انزعاجه. لكنه لم ير فيه إلا بدايات ابتسامة في فمه وعينيه، فأحسّ بشيء من النشوة. وفي ألق تلك النشوة، اندفع يعرض حججًا جديدة مقيمًا نوعًا من التوازن بين المنظورين: منظور سورية الكبرى الموحّدة، ومنظور الاستقلال الفلسطيني. حاول في حديثه أن يسبر ما قد يكونه موقف أبيه حتى يميل إليه. لكن تخمين أفكار الحاج طاهر صار صعبًا بعد ذلك الكلام الأولي عن الشعب. لم تكتمل الابتسامة التي رأى مدحت بدايتها. نظر إلى مدحت عدة نظرات طويلة لم يستطع مدحت أن يفهم منها شيئًا، وأومأ برأسه عدّة مرات كأنه يخزّن ما يسمعه لكي يحكم عليه في ما بعد.

قال جميل: «لكن فلسطين صغيرة جدًّا. ولا أرى كيف نستطيع القتال من غير دمشق».

قالت تيتا مباهية: «لقد كانت جدّتي من دمشق».

قال طاهر: «لما كان واضحًا أن الصهاينة غير راغبين في الاختلاط معنا، بل في إبقاء اقتصادهم خاصًّا بهم، فهذا يعني أن علينا أن نعتمد على أنفسنا».

استعاد مدحت هذه العبارة في ذهنه عدّة مرّات، لكنه لم يستطع فهم معناها. أدرك أن وجهه قد تجهّم، فأرخى توتر جبهته.

قالت تيتا: «وكيف حال زوجتك وأطفالك؟».
«بخير، كلّهم بخير. ذهب مصباح إلى المدرسة».
«حبيبي، ناولني الخبز».
«متى تعود ثانية، يا أبي؟».
«إلى نابلس؟ في الربيع. الربيع أفضل وقت لإقامة الزفاف».
فرغت أطباق الطعام. وذهب جميل إلى بيته. شرب الحاج طاهر قهوته في الصالون. وفي الممرّ، أمسكت تيتا بذراع مدحت: «لماذا لم تخبره بالأمر؟ لماذا لم تقل له إنه رفضك؟».
«من هو؟».
كانت ساقا أبيه مرئيتين عبر باب الصالون، ساق فوق الأخرى. امتدّ عبر العتبة خيط من دخان سيجارته.
همست جدته: «الحاج نمر».
«آه، فقط... انتظري، يا تيتا. دعيني أحاول مرة أخرى».
«أنت تبني قصورًا في الهواء. تعرف أن الأمر كلّه سيقع على رأسي».
«لماذا على رأسك؟».
«لأن من المفترض أنني أتولى ترتيب الأمر».
«انتظري فقط. أولًا، دعيني أحاول. وإذا لم ينجح الأمر، فسوف أتكلّم».
في الصباح، رفض طاهر اقتراح مدحت بأن يرافقه إلى المحطّة. لكنه أحاطه بذراعه وقبل خدّه. ظلّ مدحت واقفًا عند الباب بينما كانت خطوات أبيه تبتعد على الأرض الحجرية. تجمّعت ذكريات رحيل أبيه في صورة رحيل واحد مثلما تحفر قطرات الماء المتكرّرة شقًا في صخرة. رعشة البرودة لبقائه متروكًا، واليوم كلّه أمامه... كانت هذه «جرعة طفولة» أقوى كثيرًا من كل ما عرفه أو تذكّره منذ عودته.
لم يبدأ مدحت، على الفور، التخطيط لمفاتحة الحاج نمر مرة أخرى على الرغم من أن اقتراح أبيه بعقد الزفاف في الربيع لم يترك له وقتًا طويلًا من أجل تأمين العروس. بدلًا من ذلك، أمضى الأسبوع التالي كلّه منشغلًا بالبيت الذي يسكنه آل حماد. البناء نفسه، بنوافذه المقبّبة الثلاث ومدخله الفسيح، بدأ يظهر في الصور التي يراها في أحلامه. صار يذهب سرًّا إلى ذلك الطريق... يستيقظ أبكر من المعتاد حتى يمر بالبيت في طريقه إلى الخان. كان يقف في الشارع، في برد الصباح، وينظر إلى السقف، ثم يعبر إلى الناحية الأخرى حتى يرى أعلى باب البيت. لم يدقّق في الأسباب التي كانت تدفعه إلى فعل ذلك. ولم يحاول أبدًا الذهاب إلى ما خلف السور. حاول أول الأمر أن يتخيّل

-استنادًا إلى ترتيب النوافذ- موضع الغرفة التي طلب فيها يد فاطمة أول مرة، تلك الغرفة فوق المطبخ بسقفها المائل. لكن تحديد الاتجاهات في داخل البيت اعتمادًا على نظرة خارجية فحسب كان أمرًا مستحيلًا. بعض الأحيان، كان يرى عبر شقوق مصراع النافذة حركة جسد في الداخل؛ لكن البيت لم يبُحْ له بأية إشارات أخرى.

عقد العزم في آخر ذلك الأسبوع. وأفلح في نسيان المهانة التي أحسّها أول مرة. وتجدّدت شجاعته. كان ذهنه صافيًا، ولم يترك لنفسه وقتًا لمزيد من التأمل في الأمر. عمل جيدًا؛ وجرت أحاديث ممتعة بينه وبين بطرس في الغرفة الخلفية في المتجر، وكذلك مع إيلي في متجر السامريين. لم يكن يصلّي: ما كان يفكر إلا قليلًا جدًا في الحياة بعد اللحظة الراهنة، فكيف يمكن أن يفكّر في ما بعد الحياة كلها؟

كان يعمل على الحسابات عصر أحد الأيام، فقلب الصفحات حتى وصل إلى آخر السجل حيث كانت رسومه. كانت الصفحة الأولى صفحة المعاطف. أمسك بالصفحة في موضع اتصالها بالسجل، وبدأ يمزّقها. كان صوت الورق مرتفعًا، سارًّا. ذهبت الفساتين الباريسية. ذهبت البدلات ذات القطع الثلاث. وبينما كان يكوّر الصفحات التي مزّقها، وقعت عينه على الصفحة التي تليها، كانت فيها محاولات متكررة لرسم وجه امرأة واحدة. غمازة في ذقنها، وغضون صغيرة تحت عينيها. أسقط كرات الورق المجعدة من يده وأزاح الصفحة حتى صارت في الضوء. ارتجف قلبه. لقد رسم الشَّعر بطرق مختلفة: رسمه قصيرًا وطويلًا ومردودًا إلى الخلف. لكنه أبرز هذين الملمحين -الذقن والعينين- على حساب بقية الوجه. لم تكن الشفاه صحيحة.

أتاه صوت هشام من الغرفة الخلفية حيث كان يتكلّم مع بطرس: «إذا كنا في حاجة إلى مزيد من التفتا الزرقاء، فهذا يعني أننا في حاجة إلى كمية إضافية من...».

احمر وجه مدحت عندما فكّر في احتمال أن يكون هشام قد رأى هذه الرسوم. وضع كفّيه على خشب الطاولة الدافئ. سوف يستسلم... هذه المرة فقط. مثلما يدخل المرء النوم عامدًا... استحضر ذقنها أول الأمر. انتظر ظهور بقية الوجه. ظهرت له خطوط متكسّرة، وحركات، وهيئة وجهها. شفتاها. وجه حلو، ناعم، مدوّر في أسفله. ألم مفاجئ في معدته. لم تظهر له العينان. كان لا يزال منتظرًا ظهورهما عندما سمع صوت خطوات هشام من خلفه. أرغم نفسه على اليقظة، ثم مزّق الصفحة ثلاث مرات بيديه الراجفتين، ورماها في سلة المهملات مع بقية الأوراق.

قال جميل: «قبل أن تقول، أريد أن أتزوج فاطمة، احرص على أن تتحدّث عن نفسك. أنا مدحت. عشت في باريس. أنا متعلّم. شايف؟ ثم تقول، أريد أن أطلب يد ابنتك، وهكذا دواليك، كذا، كذا».

«هذا ما فعلته المرة الماضية».

«حسنًا، في هذه المرة، عليك أن تمضي وقتًا أطول في الحديث عن نفسك. وبعد ذلك، لا تنسَ الإشادة بالعائلة. وربما أيضًا عليك أن تتأنق قليلًا. ماذا ارتديت في المرة الماضية؟ جرب استخدام ربطة عنق جميلة».

اختار مدحت منديل جيب أزرق مع جوارب حريرية، ولمّع حذاءه. بدأ يتعرّق عندما صار في الشارع. ضغط على مفتاح الجرس الخارجي، فرافقه الحارس إلى أعلى السلم، خلف تعريشات الزهور، حتى باب البيت نفسه.

حتى بعد ساعات من مراجعة الأمر كلّه مع ابن عمه، كان غير قادر على تخيّل هذا الحدث على نحو مختلف أي اختلاف عما جرى في المرة الأولى. ستفتح وداد الباب، وتأخذه إلى الأعلى. توقّع أيضًا أن يجد مجموعة الرجال نفسها، وأن يكونوا جالسين يشربون عصير البرتقال. لكن زيارته الأولى كانت في الخريف، وقد صاروا الآن في أول الشتاء، وبدأت نفحات ثلجية تأتي مع ريح الشمال. صعد السلم. انفتح الباب لحظة أوشك على قرعه. رأى الحاج نمر واقفًا بالباب.

قال مدحت: «إنني آسف. لم أقصد مفاجأتك».

«آه... مرحبًا. بم أساعدك؟ يؤسفني أنني خارج من البيت الآن».

«أريد أن... اسمي مدحت كمال».

«مدحت كمال. السلام عليكم. أنا ذاهب إلى الديوان. تعال وسرّ معي».

«لقد درست الطب...». تردد صدى صوته تحت قنطرة المدخل... «إضافة إلى الفلسفة والتاريخ أيضًا. أعمال أبي في القاهرة تسير سيرًا ممتازًا».

لوح الحاج نمر بيده للحارس عندما خرجا للشارع.

«لقد صار اسم متجر الكمال معروفًا على نطاق واسع. أبي يعمل بالسياسة أيضًا. لقد عاد لتوه من دمشق. وكان حاضرًا في المؤتمر العام الذي عقد في حيفا. سوف يكون واحدًا من ممثلي نابلس في اجتماع لجنة فلسطين بهدف الاتحاد مع سورية».

لم تكن العبارة صحيحة تمامًا، لكنها كانت إضافة مناسِبة؛ لقد قال له جميل إنها ستترك أثرًا طيبًا في ذهن الحاج نمر بعد أن يكون قد نسي التفاصيل التي قبلها.

قال نمر: «جيد جدًا».

أحس مدحت بثقة كافية لمتابعة الكلام: «لهذه الأسباب، أظن أنني سأكون زوجًا جيدًا لابنتك فاطمة».

كانا قد بلغا نقطة في الشارع يبدأ عندها انحداره مع الجبل. توقّف نمر والتفت إليه. كان فاغرًا فمه قليلًا.

«لقد طلبت مني هذا في وقت سابق».

استنشق مدحت نفسًا لكي يقاطعه. لكن نمر تابع يقول: «وقلت لك إن الإجابة -للأسف- لا».

قال مدحت: «أعرف هذا. أعرف هذا. أردت أن أحاول مرة أخرى».

«لا تزال الإجابة هي نفسها».

«هل ستتزوج ياسر حماد؟». لم يكن مدحت قد فكّر في طرح هذا السؤال. أدرك أن وجهه قد بدأ يحمرّ.

«عفوًا! لا... لا. لن تتزوج ياسر». نظر إليه الحاج نمر نظرة فاحصة. ثم بدا عليه شيء من الاستياء الذي لم يظهر على الفور. قال له: «لقد تأخّرت. مع السلامة».

سار الحاج نمر في الشارع المنحدر. وظل مدحت حيث كان. لقد رفضه مرة ثانية. لكنه عرف -على الأقل- أنها لن تتزوج ياسر حماد.

حتى بعد هذا الرفض الثاني، لم يكفّ مدحت عن زيارة بيت آل حماد. لم يسقط الثلج بعد... مطر فقط. مطر يأتي في موجات شديدة، في موجات طويلة غير متوقّعة. ضياء الفجر المرتعش على النوافذ المستدقّة المطلة من فوق السور المرتفع. صارت زيارته الصباحية واجبًا سرّيًا. وخلال الأسابيع التي أعقبت ذلك، انقسم إلى شخصين اثنين أحدهما طبيب الآخر الذي يحرص على مراقبة شهيته. حدد طبيبه الذاتي زياراته إلى بيت حمّاد بزيارة واحدة كل يومين. وفي ظلّ هذا القيد، كان مدحت يعيش في قلبه توقًا عنيفًا أيام حرمانه. وفي الأيام التي يستسلم فيها فيجري نازلًا الجبل في أولى ساعات الفجر، كان يبدأ إحساسه بذلك الارتياح الهانئ الذي يعرفه عاشق يجري إلى لقاء الحبيب. لكنه كان يجري إلى لقاء البيت فحسب، بل حتى ليس إلى لقاء البيت كله: وحدها تلك الأجزاء من النوافذ والسقف التي كانت ظاهرة من خلف السور. على الأقل، ظلّ الوضع هكذا إلى أن كان في صباح أحد الأيام منتظرًا في الشارع تحت المطر الخفيف فرأى باب البيت ينفتح. خرجت من الباب امرأتان في ملابس سوداء. طويلة وقصيرة. لا بد أن تكون إحداهما فاطمة. وقف على أطراف أصابعه، وراح ينظر إليهما. جرى ماء المطر باردًا على وجهه. التفتت إحداهما نصف التفاتة عند نزولها درجات السلم، وفتحت المظلة. اختفتا خلف السور. ثم فُتحت البوابة، وخرجت المرأتان إلى الشارع. لاقت نظرته عينيّ واحدة منهما. ولم يتذكّر بعد ذلك إن كانت الطويلة أو القصيرة. لم يتذكّر إلا أنها نظرت إليه فعرف أنها فاطمة. ثم اختفى رأسها تحت المظلّة وسارتا معًا مبتعدتين في الشارع.

ازداد المطر شدّة، انهمر في كل مكان من حوله. أحس مدحت بالغثيان. نظر إلى

السور الحجري الذي ارتسمت عليه بقع داكنة بفعل المطر، فأتته صورة جانيت حيّة. رآها تلتفت في سمر الطابق العلوي، ورأى خدّها الناعم الممتنع، فداهمته موجة كُره جعلته ينتزع طربوشه عن رأسه. ابتل قميصه. كانت برك الماء في الطريق واسعة عميقة، فلم يبلغ البيت إلا وقد غرقت قدماه بالماء. صرخت أم محمود عندما رأت آثار أقدامه المبتلة في الممر. كان على الطاولة ظرف رسالة موجّهة إليه. جفف يديه بمنشفة وفتح الظرف بإصبعه. إنه خط هاني.

*9 شباط 1920*

*18 جمادى الأولى 1338*

عزيزي مدحت

*أكتب إليك من دمشق -لكني عائد إلى أوروبا مع الأمير فيصل- آمل أن تكون بخير -كنت تكتب رسالة عندما رأيتك آخر مرة- آمل أن يكون الأمر قد سار على أحسن ما يرام. لا بد أنك سعيد مع عائلتك بعد عودتك إلى نابلس. اشتقت إليك، يا عزيزي مدحت -آمل أن نلتقي من جديد عندما تهدأ الأحوال في المنطقة- فالآن، أظنك تعرف أن الوقت صعب وأن آخر جولة مباحثات مع كليمنصو كانت فاشلة، لكن الظاهر أن لا شيء نستطيع فعله غير مواصلة التفاوض- حتى عندما يكون الناس في دمشق، أو في سورية كلها في حقيقة الأمر، في حالة ضيق.*

*بعد انسحاب القوات البريطانية، دخل الفرنسيون المناطق الساحلية - وقعت اشتباكات كثيرة. كان فيصل يراسل غورو بأمل تهدئة التوتر، لكن غورو بدأ الآن يتهمه بإثارة القلاقل. هذا سخف بالطبع - يطلب غورو من فيصل تكذيب الشائعات القائلة إن الفرنسيين يريدون غزو البلاد. كيف يمكنهم أن يتوقّعوا منه فعل ذلك عندما يبدو الأمر هكذا تمامًا؟ كيف يتوقّعون منه الموافقة على حبس محمد عبد السلام والآخرين مع أنهم كانوا يهتفون «يعيش الملك فيصل» في مظاهراتهم في صيدا؟ كيف يتوقّعون منا منع الصحف من تسمية فيصل ملكًا بعد أن صارت سورية مملكته؟ إن طرابلس تعبر عن ولائها لسورية -فكيف يتوقعون منا اتخاذ إجراءات ضد أهل طرابلس؟ سورية في حالة ثورة- من الضروري أن نرسل مندوبين عربًا لتهدئة المنطقة الغربية. يقول الفرنسيون إن عواقب هذا الأمر ستكون مخيفة -أسألك كيف تكون مخيفة إذا ذهب السوريون لكي يناقشوا مستقبلهم مع أبناء وطنهم- يطمئنونهم إلى أنهم سيكونون جميعًا ضمن سورية المستقلة؟*

يقول الفرنسيون إن المسيحيين يريدون الانفصال عن المسلمين -ومن جديد، هذا غير صحيح- إنهم مستمرون في اعتبار الجيش السوري جيش الشريف حسين في حين أنه خالٍ من أي جندي من الحجاز - كلهم سوريون! نحن جميعًا سوريون. يريد الفرنسيون إثارة حرب دينية؛ وقد أوقفوا الآن قوافل المواد الغذائية ومنعوها من الذهاب إلى حلب - فهل هذا سلوك دولة حليفة؟ لا أظن هذا.

وأما عن فلسطين - المشروع الصهيوني مشكلة بالنسبة إلى الجميع. يحاول فيصل أن يكون صادقًا؛ ومن الطبيعي أن يضغط الفرنسيون عليه لجعله يتنازل. إنني متردّد هذه الأيام بين اعتبار نفسي سوريًا أو فلسطينيًا ـ فماذا عن كوني عربيًا؟ -عندما يستخدم الأوروبيون هذه الكلمة، أنا واثق من أنهم لا يقصدون بها إلا المسلمين- بل يبدو عليهم غالبًا أنهم يعنون بها من يعيشون في الخيام. ما معنى هذا بالنسبة إلى المسيحيين واليهود وإلى شعب الشرق عامة؟ وبما أننا نتحدث عن هذا الأمر، فعلينا أن نكون واضحين بشأن ما نعنيه بهذا المصطلح عندما نستخدمه -هل هي مسألة لغة، لا أكثر، أم شيء أكبر من ذلك؟- أقول هذا لأن كلمة «عربي» قد لا تكون أكثر دقة من كلمة «أوروبي» - ونحن نعرف مدى اختلاف الفرنسيين عن الألمان. هذا ما يجعلني أرى أن علينا أن ندعو أنفسنا سوريين -ألم يكونوا يدعون اليهود سوريين في زمن المسيح، وقبل المسيح؟ بلى- لقد أطلق عليهم هيرودوت هذا الاسم.

وفي النهاية، آمل أن نتمكن من تسمية أنفسنا - خلصت البعثة الأميركية إلى أن حلًا يأخذ شعبًا واحدًا بعين الاعتبار سيكون حلًا غير قادر على الاستمرار. لكن، على العكس من ذلك، يا حبيبي مدحت، نعرف كلنا أن الأقوى هو الذي يسود، مثلما يحصل دائمًا.

وأما عن فاروق - عندما غادرت باريس، كان مستمرًا في العمل في مدرسة اللغة حيث ازدادت أعداد الطلبة منذ الهدنة -إنه مشتاق إليك- سألني عن محبوبه المفضل، فتذكرت أن أكتب إليك -وبالطبع، أنا مشتاق إليك أيضا- عسى أن تكون تمتعت بعودة آمنة إلى نابلس. وآمل ألا تكون نابلس في حالة اضطراب نتيجة ما يحدث الآن.

أخوك،

هاني

## - 8 -

قالت أم طاهر: «افحصني. أنا مريضة».

«ماذا؟».

«قلت لك أن تفحصني».

قال مدحت: «لا أستطيع...» تردّد قليلًا. كان يبحث عن عذر مناسب... «ليست لدي أية معدات».

«ألا تستطيع فعل ذلك من غير معدات؟».

أغلق كتابه: «هل لديكِ سعال؟».

«بالطبع، إنني أسعل. ألا تسمعني أسعل في الليل».

«هل يخرج شيئًا من فمك مع السعال؟».

«أحيانًا». جرَّبتْ لكنّ شيئًا لم يخرج. قالت بصوت شاكٍ: «أوه، لست أدري».

«أتألم طيلة الوقت».

«أين تتألمين؟».

«أحيانًا هنا، وأحيانًا هنا. ربما أكون موشكة على الموت».

قال مدحت: «أتظنين أنك تستطيعين الحركة هنا وهناك إن كنت موشكة على الموت؟». ثم فتح كتابه من جديد بحركة فظّة.

«لا أظن هذا».

وضعت يدها على مقبض الباب وقالت له بلا مبالاة معابثة: «في هذه الحالة، أظنني سأذهب إلى العيادة القريبة من المسجد الأخضر».

«لا، لن تذهبي. ستذهبين لرؤية فتيات عيبال في المستشفى! لا أثق بتلك العيادات».

رفعت حاجبها وقالت: «أوه، مسيو».

لم تعد أم طاهر مرة أخرى إلى مطالبة حفيدها بأن يفحصها. كما أنها لم تذهب إلى المستشفى، ولا إلى العيادة مثلما قالت له. لم يكن امتناعها عن الذهاب ناتجًا عن الخوف، أو لم يكن كذلك بالضبط. كل ما في الأمر هو أن المرات التي طلبت فيها مساعدة طبية طيلة حياتها كلّها كانت قليلة جدًا، ومن بينها يوم ولدت طاهر.

وبعد بضعة أيام، وجدتْ مدحت واقفًا عند نافذة المطبخ ينظر إلى الجدار بين الخزانة ورف أوعية التوابل المغبرة. كثيرًا ما كان يسير في نومه خلال طفولته. ولما

كانت أم طاهر معتادة على رؤية ذلك الصبي الصغير السائر في الممر كالشبح، فقد أصدرت صوتًا هادئًا حتى ينتبه إلى اقترابها. شعرت بوخزة الخوف التي ألِفَتها، الخوف من أن حفيدها الواقف أمامها كان في حالة غير طبيعية.

لاقت عيناه عينيها. رأتهما متعبتين، محمرّتين. ارتعشت شفتاه فشد عليهما بقوة.

«تيتا، لا أظنني قادرًا على ذلك».

«على ماذا؟».

«على الزواج».

شدّت على أسنانها: «يستطيع كل إنسان أن يتزوّج. عندما كنت فتاة صغيرة، أحببت رجلًا كان...».

«أعرف، يا تيتا، أعرف هذه القصة».

«يا ستي... يلا، اجلس. استمع إليّ».

«لا أريد أن أسمع القصة. أعرفها».

«لن أحكي لك القصة. سأقول لك إنك غير قادر على رؤية حياتك كلّها في المستقبل. أنت لا ترى إلا هذه الأشياء القليلة التي هي أمامك. إنني أعرفك. ثق بي. لن أختار فتاة غير جيّدة من أجلك».

«أنا...».

«انتظر. استمع بدلًا من أن تتكلّم. هل تعرف كم كنت حزينة عندما قابلت خطيبي؟».

رفع رأسه. كانت عيناه نديتين. هز رأسه.

«لقد صرخت... والله... لقد خجلت أمي. لكن، يا ستي، صدقني... لقد أحببته بسرعة كبيرة. هذا صحيح. كان طيّبًا معي. وكنت سعيدة. كان اختيار أمي وأبي جيدًا».

فجأة، نهض مدحت واقفًا. اندفع صوب الباب.

«إلى أين... ماذا تفعل؟».

التقط إبريقًا زينة نحاسيّ من الخزانة ورماه على الأرض بيديه الاثنتين. اصطدم الإبريق بالأرض وارتد عنها، ثم اصطدم بها مرتين، ثم تدحرج على الأرض.

صاحت به: «كفى!».

استند إلى الجدار فاتحًا فمه كطفل صغير. سال اللعاب من بين شفتيه. انحنت أم طاهر لكي تلتقط الإبريق. سببت الصدمة تشوّهًا فيه.

«لقد أتلفت إبريقي! ألا تدرك كم أنت محظوظ؟ ألا تدرك أن في هذه المدينة أشخاص كثيرين يحسدونك؟».

«وماذا يفيدني ذلك؟».

«ماذا يفيدك؟ أنت مجنون. هل تحاول أن تقتلني؟ سوف أضربك».
«لا أستطيع فعل هذا. لا أستطيع... إنني آسف».
«كف عن القول إنك لا تستطيع».
«لا أستطيع. أريد حريتي».
كان هذا كثيرًا جدًّا. ألقت أم طاهر بالإبريق المسكين على الطاولة: «حرّيتك من ماذا؟».
وضع أطراف أصابعه على فمه، ثم دفع بها إلى الأمام.
«تيتا، ساعديني. ينبغي أن تساعديني. لقد تعبت كثيرًا -لا أريد إلا أن أكون وحدي- . لا أريد إلا... تيتا ساعديني. لا أريد فتاة لا أعرفها».
«مثلما قلت لك...».
«ألا تفهمين؟ أنا أحب امرأة أخرى».
قالت أم طاهر بقوة: «أنت مثل أي شخص آخر، يا حبيبي. عليك أن تنسى. صار الأمر منتهيًا».
قذفها مدحت بنظرة فزعة: «ماذا تعنين بهذا؟».
«أعني أنك الآن هنا. وأنت تسبّب لنفسك المرض بكثرة التفكير - أراك تفكّر كثيرًا؛ وهذا ليس أمرًا جيدًا من أجلك».
عميقًا في رئتيها، شعرت أم طاهر بقعقعةِ عاصفة سعال موشكة على الانفجار.
«سوف أعثر لك على امرأة جميلة. أعدك بهذا. ستكون امرأة جميلة وذكية. سوف تعيش معها وحدك؛ وسوف تكون حياتك مستقلّة. أعدك بأنك لن تعيش معي...».
«تيتا...».
«لن أبقى هنا إلى الأبد؛ فمن سيعتني بك من بعدي؟ من سيحرص على نظافة البيت، وعلى إطعامك، وعلى العناية بك عندما تمرض؟ أتظن أن شبحًا يرتّب لك سريرك؟ أتظنّ أن شبحًا يسهر على نظافة ملابسك؟».
كان مطرقًا برأسه، فغيرت وجهة الحديث.
«يلا حبيبي... سيعتز بك أبوك كثيرًا عندما نجد لك زوجة. سيعتز بك كثيرًا... كثيرًا. وعند ذلك، تستطيع أن تفعل ما تريد فعله. تذهب إلى القاهرة، تعمل مع بابا، تسافر. تفعل أي شيء تريده، وستكون هذه الفتاة اللطيفة الجميلة معك. وسوف تنجب أطفالًا. ستنجب قدر ما تريد إنجابه».
استنشقت نفَسًا حتى تتابع كلامها، لكن السعال قاطعها منطلقًا من فمها.
«تيتا، ينبغي أن تذهبي إلى المستشفى».

«لا»... أفلحت في قول هذه الكلمة؛ وأحسّت به يضع يده على ظهرها. تنفست بصعوبة، وسعلت من جديد.

«أنت تعرفين في أمور الزواج أكثر مني، لكني أعرف في الطب أكثر منك».

«أعطني ماء».

هسيس الماء في الصنبور. ناداها قائلًا: «وبعدين!... أليس المستشفى ملكًا لدار حماد؟».

من بعيد، أطلقت صوتًا معبرًا عن استيائها، وقالت: «دار حماد. إنهم متكبّرون. متكبرون كثيرًا».

كان الجميع على علم بأن حاج توفيق حماد أسس المستشفى البلدي في فورة غضب بعد أن حاولت طبيبة في الإرسالية التبشيرية الإنجليزية جعل أخته تعتنق المسيحية. وبمعونة من أعيان المدينة الأثرياء -كان من بينهم الحاج طاهر كمال- جدَّد الحاج توفيق، مع ابن عمه الحاج نمر، قصرًا قديمًا قائمًا عند جبل عيبال. هُدمت جدران داخلية قديمة لإقامة أربعة أجنحة طويلة؛ ثم جرت الاستعانة براهبات القديس يوسف الفرنسيات للعمل في المستشفى. لم تكن تلك الراهبات ممن يحاولون اجتذاب الناس إلى المسيحية.

كانت أم طاهر تفضّل عدم دخول ذلك المبنى الغريب الفائح براحة الموت والكحول الطبي على الرغم من أن ابنها كان واحدًا من مؤسّسيه. عندما تنفّست، ظلت تسمع صوتًا يشبه صوت عجلات تسير على الحصى؛ لكنها كتمت ذلك الصوت ولم تشتك. إذا سعلت في وجود أشخاص آخرين، فإنها تلقي باللائمة على قلة المطر وما نتج عنها من غبار كثير.

توقف هطول المطر تمامًا في الآونة الأخيرة. بدأت الحقول المُدرَّجة على سفحي الجبلين تتحوّل إلى لون رمادي. وعندما تهب الريح وتتلاطم أغصان الأشجار، تتقصّف أصابعها وتسقط سريعًا. لكن، مع انشغال الإمام بالصلاة لاستدرار هطول المطر مرة أخيرة قبل بدء الثلج، كان الكلام بين النساء منصبًا على مدام عطوان التي ستقيم استقبالًا في باحة قصرها. ستكون أمسية جافة؛ وستكون النساء في مأمن من المطر. لم تكن أم طاهر في مزاج مناسب لحضور الاحتفالات. لكن من الضروري أن تذهب لأن عليها أن تجد زوجة لمدحت قبل عودة طاهر في الربيع.

على الرغم من القرصة الشتائية الباردة في الهواء، كانت النباتات المحيطة بأسوار الباحة تشكّل ما يشبه ربيعًا. كانت الريح تهزّ الأوراق فتكشف عن عروق سطوحها السفلية، واحدة بعد أخرى. تقاطرت الخادمات خارجات من البيت حاملات صوانٍ عليها فناجين القهوة. كان محتوى الفناجين الأسود يهتز ويتلامع.

وفي أحد أطراف الباحة، تجمعت النساء للنظر إلى آلة تصوير مستقرة على حامل ثلاثي القوائم. اثنتان اثنتان، كانت أصابعهن تجري على غطاء آلة التصوير الجلدي، وكن يختبرن بأظافرهنّ السطح الأسود اللامع من حول العدسات متجنّبات مس الزجاج... هكذا قيل لهنّ أن يفعلن. واحدة بعد أخرى، كانت رؤوس النساء تختفي داخل النسيج الأسود للنظر عبر العدسة. كانت صاحبة هذه الأعجوبة امرأة أرمنية من الناصرة اسمها ألماس؛ وكانت واقفة، منتبهة، تشير إلى أجزاء آلة التصوير المختلفة وتنطق بأسمائها. كرّرت كلمة «كوداك» مرات كثيرة.

من الناحية الأخرى من الباحة، كانت مدام عطوان تراقب مسار المشهد الأول في تلك الليلة؛ أو لعله كان المشهد الثاني لأنها، هي نفسها، كانت المشهد الأول: يدها لا تزال ممتدة لاستقبال شفاه الضيفات القادمات، لكنها تنخفض شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت بحيث يكون على الضيفات المتأخّرات، عمليًا، أن يركعن. انزلقت الأساور التي على ذراعها صوب الأسفل، وكانت الأساور التي فوق مرفقها مغروسة في لحمها. حرير فستانها يحيط بكتفيها العاريتين، وفردتا حذائها ذي النعل المقوّس تبرزان بالتناوب من تحت تنورتها كلما نقلت وزنها من قدم إلى أخرى.

لا بد أنها تشعر ببرد شديد... كانت هذه أول فكرة تخطر في ذهن أم طاهر عند وصولها وتقبيلها أصابعها. انضمت إلى أم جميل الواقفة في صف الانتظار أمام آلة التصوير. كانت تسعل. قالت أم جميل: «صحتك».

«إنه الغبار».

صاحت السيدات المجتمعات من حول آلة التصوير: «بتجنن! بتجنن!».

لقد بدأت رئتاي تغنيان: «استمعي إليهما».

قالت أم جميل: «يصعب سماع أي شيء، يا خالتو».

«بتجنن!».

«لكن عليك الذهاب لرؤية فتيات عيبال... إن كنتِ تتألمين».

«لا أحب المستشفيات».

«هل سألتِ مدحت؟».

«سألته. لكنه ليس لديه معدات. قال لي أن أذهب إلى فتيات عيبال. لا أريد الذهاب إليهنّ. شو بسوّي؟».

«كيف حاله؟».

«والله... إنه في حاجة إلى زوجة. الفتيان في عمره، والطاقة التي لديهم... لا يعرفون أين يذهبون بها».

«جميل مثله. أحيانًا يصير مزاجه صعبًا كثيرًا».

بلغتا أوّل الصف. اقتربت أم جميل من آلة التصوير. وتناولت أم طاهر فنجان قهوة من صينية عابرة. كانت القهوة باردة، وشديدة الحلاوة. أخذت رشفة واحدة، ثم سعلت. شدّت على شفتيها.

اندفعت الدموع إلى عيونها فحاولت إخفاءها بأن تقدّمت وانضمت إلى أم جميل التي كانت تنظر إلى العدسة.

قالت أم جميل وهي ترفع القماش الأسود: «يلا. أدخلي رأسك تحته، يا خالتو».

أمسكت أم طاهر بذراع أم جميل حتى تحفظ توازنها. تقبّلت الظلمة ووضعت وجهها أمام العدسة. شهقت. رأت أمامها مستطيلًا زجاجيًا متألّقًا. في أعلى ذلك المستطيل الزجاجي، في أعلاه أو في مكان داخله، كان مشهد الحفلة يعوم مقلوبًا، معكوسًا. ترنحت، وتعلّقت بذراع أم جميل، فتحرّكت الصورة. كانت تلك صورة شبحية: كانت النساء سائرات معلقات من أحذيتهن؛ وكانت الأحذية حيث يجب أن تكون رؤوسهن. تدلت الرؤوس إلى أسفل كأنها ميداليات متأرجحة من حول البركة التي كانت، هي نفسها معلّقة من الأرض كأنها ثريا حجرية ضخمة.

همست: «أولّالّا».

سمعت صوت مدام عطوان الرنّان: «وداد حماد».

التفتت الوجوه المقلوبة. اندفع الدم إلى وجنتي أم طاهر. كانت شاكرة للخصوصية وللعزلة اللتين وفّرتهما لها الستارة السوداء. في الصورة المقلوبة رأسًا على عقب، سارت وداد حماد مبتسمة مادة ذراعيها إلى المضيفة. سارت من خلفها فتاتان. كانت فاطمة أطول الاثنتين... يعلم الله كم كانت جميلة، حتى وهي مقلوبة. كان ذلك كافيًا لجعل أم طاهر تشعر بالدوار. مدّت يدها إلى أم جميل التي أزاحت القماش الأسود عن رأسها. خرجت من تحته إلى الهواء الطلق.

وهناك، في الناحية الأخرى من الباحة، كانت نساء آل حماد الحقيقيات واقفات وقفة طبيعية، غير مقلوبات. كانت فاطمة في فستان مخملي أسود وياقة من اللؤلؤ. وكانت الابنة الثانية أكثر نحولًا؛ عيناها أكثر تقاربًا. فم فاطمة الممتلئ الناضج بدا أكبر مما ينبغي قياسًا على أختها الصغرى.

لا بد أن وصول وداد حماد وبنتيها كان إشارة للخادمات لأن اثنتين منهما تقدّمتا لحظة ابتعاد أم جميل عن آلة التصوير ورفعت كل منهما واحدة من قوائم الحامل الثلاثي فحملتا آلة التصوير إلى زاوية كانت تنتظرهما فيها فتاة ثالثة معها قطعة قماش كبيرة سوداء أكبر حجمًا لكي تغطي الآلة بها. بدت الخيبة على وجوه النساء المنتظرات،

لكنهن تفرّقن سريعًا إلى حلقات بدأت تظهر في أرجاء الباحة؛ واختفت فناجين القهوة من الصواني.
قالت امرأة جالسة على أحد الكراسي وهي تعدّل وضع ذراعها حتى لا تنسكب قهوتها: «زوجته جميلة. والفستان كان غاليًا كثيرًا... بعدين، الياقة. كأنها هلال. فضية. كتير حلو».
«من أين جنى ذلك المال كله؟».
وضعت أم طاهر يدها على صدرها فضغطت أم جميل على ذراعها.
«هل تريدين منديلي؟».
هزّت أم طاهر رأسها.
قالت أم جميل مشيرة إلى فتاة لها شعر متموّج: «إنها جميلة جدًا. من أمها؟».
«لست أدري». كانت أم طاهر مستمرّة في النظر إلى وداد حماد وابنتيها ومدام عطوان.
كانت وداد حماد ترتدي سترة مطرّزة ذهبية اللون لها خطوط حمراء على ظهرها. كانت السترة ضيقة على نحو غير معتاد، عند خصرها. وفجأة، استدارت وداد فرأتها.
«أم طاهر!».
قالت أم طاهر برزانة وجلال: «مرحبا. عاش من شافك». واصلت تقدّمها البطيء.
اجتازت وداد المسافة الفاصلة بينهما. كانت تنتعل حذاء غالي الثمن.
قبلت أم طاهر ثلاث قبلات: «كيف حالك؟ وما أخبارك؟».
«الحمد لله. وأنت، كيف حالك؟».
«الحمد لله. نزهة، فاطمة، سلّما على مدام كمال».
قالت الفتاتان: «السلام عليكم».
قالت أم طاهر: «ما شاء الله. عندك بنتان جميلتان جدًا». أغمضت عينيها وابتسمت.
لم تستطع مواجهة إخفاق مدحت... لم تستطع مواجهة إخفاقه.
قالت مدام عطوان وهي آتية من حلقة قريبة لكي تنضم إليهنّ: «كنا نتحدث عن القسّ الفرنسي. هل رأيته؟».
قالت أم طاهر: «لم أره».
قالت وداد: «كيف هو شكله؟».
قالت سيدة في فستان أخضر طويل سابغ له ياقة على شكل طائر عند ذقنها: «لحية. ثوب طويل. يطرح أسئلة». لوّحت بيدها كأنها تكتب.
قالت المدام: «صحيح. إنه يطرح أسئلة. كلهم يطرحون أسئلة. يريدون جميعًا أن يعرفوا كيف نعيش».

قالت أم طاهر فجأة: «عرفته».

نظرت وداد إليها. سألتها مدام عطوان: «هل رأيته في المستشفى؟».

«لا، رأيته في...». حوّلت نظرة عينيها إلى النافذة المطلّة على الباحة عندما ظهر ضوء منها... «لا أستطيع التذكّر».

قالت المرأة صاحبة الثوب الأخضر: «لماذا يهتم الناس أصلًا؟ لدينا هموم تكفينا. لقد ضقت ذرعًا بالأوروبيين. صرت أكرههم. إنهم أشد الناس غدرًا. أستطيع قول هذا. على الأقل، العربي يكذب عليك في وجهك».

فتحت وداد فمها لتتكلم، لكن مدام عطوان صاحت: «سوف نلتقط صورة الآن».

تبادلت أم طاهر ووداد نظرة مذعورة. رأتا أين اتجهت عينا مدام عطوان: إلى الأعلى. كانت السماء قاتمة. سوف يهطل المطر.

«هل نحن جاهزات لالتقاط صورة؟». ارتجافة ذعر، تململ جمع النساء. كانوا يخرجن آلة التصوير. وكانت عينها الزجاجية تلمع مرتفعة عندما حملت فتاتان قائمتا الحامل الثلاثي وسارت خلفهما فتاة ثالثة تحمل قطعة القماش السوداء التي انزلقت عن الآلة.

«ألماس! ألماس!».

«أنا هنا، يا مدام. من تريدين مني تصويرها».

تردّدت مدام عطوان: «أنا. ثم البقية. أين أجلس؟».

ومن غير أن تنتظر إجابة، سارت في الباحة المبلّطة باحثة عن وسادة غير مشغولة. وضعت الوسادة قريبًا من وسط الباحة بينما تراجعت الضيفات إلى الخلف. جلست على الأرض واتّكأت على الوسادة ومالت جانبًا كأنها واحدة من نساء روما.

سألت إحداهن: «كيف؟».

تحسّست قرطها، ثم أدارته حتى يظهر النقش الذي عليه. خفّضت رأسها لكي تتفقّد عقدها فظهرت طيّات رقبتها.

قالت زوجة شابة انحنت لكي ترتب تنورة المدام: «هيك، يا خالتو».

كانت ألماس، المصوّرة، مستعدة مع آلة التصوير. راحت النساء القريبات تنظرن إليها وهي تضبط فتحة الآلة، ثم تحرّك الرأس إلى الأمام والخلف على امتداد السكّة القصيرة. صاحت: «حسنًا، يا ماما. أديري رأسك جانبًا، قليلًا».

همست لواحدة من الخادمات فجرت الفتاة إلى الداخل، ثم عادت حاملة شيئًا يشبه سلة مهملات مصغّرة لها مقبض خشبي، وصندوق صغير. فتحت ألماس الصندوق. وكما يفعل ساحر أو عالم، أخرجت من الصندوق وعاءين رفعتهما لكي يظهر الملصق الذي على كل منهما: كُتب على أحد الملصقين «مغنيسيوم» وعلى الآخر «B.n».

قالت بصوت مرتفع: «خمس ملاعق من هادا». ووضعت خمس ملاعق في الإناء المعدني... «وست ملاعق من هادا. خمسة، ستة. عود ثقاب، من فضلك».

اشتعل عود ثقاب بوهج كبريتي. خطت ألماس إلى الأمام. يدها على نهاية سلك مزود بمفتاح متّصل بآلة التصوير. وبيدها الأخرى، رفعت الوعاء الذي وضعت فيه المسحوق. تنحنحت المدام الجالسة على الوسادة وأزاحت بإصبعها شعرة عن جبهتها. أمالت ألماس الوعاء حتى يلتقط اللهب. وقبل أن يدرك أحد ما جرى، انطلقت ومضة ضوء ساطعة. عادت الظلمة بالسرعة نفسها. ضجّت الباحة التي صارت غائمة بالتصفيق والصفير. كانت مدام عطوان تنهض واقفة وهي تبتسم. جرت إليها عدة نساء لمساعدتها. كن يصحن: «انتبهي!». انحنت لها ألماس انحناءة صغيرة محرَجة. ظل الوعاء المعدني مرفوعًا في يدها.

ترك الضوء الساطع أثره على عيني أم طاهر. ففوق كل شيء من حولها، فوق النساء المصفّقات اللواتي تتحدّثن في ما بينهنّ، وفوق أجساد الفتيات الشابّات، وفوق المجوهرات المتلألئة، صارت ترى عروق عينيها مضخمة، بيضاء، مثل شرارات البرق.

«كيف حالك الآن، يا أم طاهر؟».

كانت أم جميل واقفة إلى جانبها.

«تمام، تمام».

«الصورة الثانية، السيدات جميعًا!».

بدأ هطول المطر. قطرات صغيرة. بدأت أوراق الأشجار تتراقص في أرجاء الباحة.

وضعوا أم طاهر في الصف الثاني، إلى جانب أم جميل. ألقت نظرة إلى مجموعة الوجوه غير المبتسمة، ثم حدّقت أمامها مباشرة، بينما كانت ألماس تعد مزيج الفلاش الثاني. انفجار الضوء، وصوت مرتفع مرتعش أشبه بصوت تكسر الزجاج... بدأ المطر يهطل غزيرًا.

قالت أم جميل: «أوه، ماما!»، ونشرت منديلها فوق رأس أم طاهر في حين تفكّكت صفوف النساء الثلاثة. على الرغم مما حدث من اضطراب، صفّقت النساء جميعًا للرعد، تمامًا مثلما تصفقن لأي مشهد آخر من مشاهد تلك الليلة. كنّ يصفّرن لماء المطر المنهمر وهن جاريات بحثًا عن ملاجئ لهن عند الأبواب. ساعدت الخادمات ألماس في حماية آلة التصوير وهن يصحن: «يا سلام!».

ذابت الرسميات كلها تحت ماء المطر. اجتمع الحشد الضاحك في الصالون؛ وانهمكت النساء في نفض ماء المطر عن ملابسهن وفي طرد العاصفة بأصواتهن المرتفعة. دخلت امرأة قصيرة محجَّبة الصالون عبر باب داخلي، وسارت إلى وسط

الغرفة، ثم انحنت للمدام عطوان. وقفت في مواجهة بقية النساء وغنت بلحن حزين: «إشمَعنى يا نخ». صمتت لحظة قصيرة أكملت بعدها جملتها... «الكوكايين كخ».

انفجر تصفيق النساء وصفيرهن.

اشمعنى يا نخ
الكوكايين كخ
دا أكل المخ
هلكنا اعمله على غيرنا

قالت أم طاهر: «أم جميل!».

«نعم، حبيبتي؟».

«أريد أن أسألك، هل سمعت في الآونة الأخيرة شيئًا عن مدحت؟».

أمالت أم جميل رأسها بحركة استفهام.

«أعني... هل كانت هناك أية... يعني...».

«آه، لا، لا. لم أسمع أي شيء. ما الذي يشغل بالك؟».

لوّحت بيدها كأنها تطرد رائحة.

قالت أم جميل: «سمعت عن الحاج حسن. هل سمعت عنه شيئًا؟».

«لا، أخبريني».

«فقد أرضه التي في الوادي؛ فقدها كلها. باعها لليهود بسعر بخس».

«لماذا؟».

«سمعت ثلاث قصص. الأولى هي أنه قلق على زوجته لأن جنونًا أصابها. الثانية هي أن الأرض لم تكن تغل جيدًا، وهو كان في حاجة إلى المال. والقصة الثالثة هي أنه يقامر. لا أعرف القصّة الصحيحة من بين هذه القصص».

أثناء كلام أم جميل، لاحظت أم طاهر أن وداد وفاطمة حمّاد كانتا واقفتين معًا على مسافة قريبة منها. كانت فاطمة تنظر إلى الأرض، لكن وداد كانت تنظر إليهما. صار وجه وداد رماديًا.

تابعت أم جميل تقول: «أشعر بالحزن على ابنه. لم يبق لديه شيء يرثه».

لم تدرك أم طاهر إلا في وقت لاحق، أي بعد أن تركتها أم جميل عند عتبة البيت، أن تلك الحفلة كانت إخفاقًا لها. لم تقم بأي استطلاع بحثًا عن فتيات للزواج.

انفجر سعال في بطنها، ثم خرج من فمها.

إن كانت موشكة على الموت، فعلى الأقل، ستلتحق بأم مدحت في السماء. تخيّلت نفسها ممدّدة على النعش؛ وتخيّلت أم جميل المنتحبة تعتني بجسدها. وجه جلبا

وعينان مغمضتان. لا، عينان مفتوحتان. فليغلقوا عينيها قبل دفنها... إنها حركة لطيفة. رفعت يدها في الظلمة وحاكت تلك الحركة بإصبعيها. ثم راحت تفكّر في مدحت. لا تستطيع تركه. تنهّدت فأحسّت بكتلة بلغم في حنجرتها. سعلت من جديد فأحست بنبضات كهربائية في صدرها.

كان الصباح كالحًا. لم تترك عاصفة الليلة الماضية خلفها غير البرد. ببطء، لفّت أم طاهر جسدها بعدّة طبقات من الملابس. لقد قرّرت أخيرًا أن تذهب إلى المستشفى.

آلمت الريح حنجرتها واختطفت أنفاسها من رئتيها. سلكت الطريق الشمالية التي تنعطف غربًا، فخرجت من المدينة واقتربت من سفح جبل عيبال. كان أول ما انتبهت إليه في ردهة المستشفى تلك الرائحة السكريّة الحادّة، تخترق مؤخّر رأسها. في وسط الردهة صندوق كبير من أجل قطع النقود. ومن خلف الصندوق صف من نوافذ طويلة تظهر منها أرض زراعية وحديقة ممتلئة أشجارًا. ومن أسفل إحدى النوافذ، ظهرت نهايتا عمودين... لعلهما أذنا كرسي. هناك شرفة. دسّت يدها في محفظتها لكي تضع شيئًا في صندوق المال. ظهرت ممرضة إلى يمينها. أشارت الممرضة لأم طاهر بأن تتبعها.

كان الجناح طويلًا، غاصًا بالأسرّة. لوحات معلّقة، مائلة على جصّ الجدران غير المستوي؛ ومصباح غازيّ ضخم معلّق من السقف. تفادت أم طاهر النظر إلى شاغلي الأسرّة، لكنها رأت عند أطراف مجال نظرها أنهنّ كنّ جميعًا فتيات ليس على رؤوسهن شيء غير قطع صغيرة من قماش مربوطة من تحت الشعر. قعقع حذاء الممرضة على بلاط الأرضية، وتحرّكت أغطية الأسرّة بينما كانت المريضات تنظرن إلى أم طاهر السائرة من خلفها. أهذا ما تفعلنه طيلة النهار؟... تستلقين في الأسرّة وتنظرن إلى من يأتي ويروح؟ لا بد أن هناك غرفة أخرى، غرفة خاصّة، غرفة تستريح فيها السيّدات المتميّزات الأكبر سنًا.

اتجهت نظرتها إلى السرير قبل الأخير. كانت الأغطية عليه ساكنة جدًّا فبدا أول الأمر خاليًا. لكن امرأة كانت راقدة على ذلك السرير. كانت مستلقية على ظهرها، تنظر إلى السقف. لم تكن تلك وضعية نوم أو رقاد.

سألتها الممرضة: «كيفك، يا مدام؟».

قالت أم طاهر مشيرة إلى المرأة الساكنة: «شو؟ حيّة؟».

أجابت فتاة لها ضماد على عينها كانت مستلقية في السرير التالي: «نعم، حيّة. إنها مجنونة».

خاطبها رجل من مدخل غرفة مضاءة: «اسمك، من فضلك؟». تحرّكت الممرضة، «تفضّلي». أدخلت أم طاهر عبر ذلك الباب، ثم أغلقته من خلفها.

كان رجل عربي أصلع يغسل يديه في حوض.
«أنا الدكتور إبراهيم. ما اسمك؟».
«مهدية أم طاهر كمال».
«شكرًا». جفّف الدكتور إبراهيم يديه بقطعة قماش، ثم التقط لوحة للكتابة... «اجلسي، من فضلك».
المكان الوحيد الذي يمكن الجلوس فيه سريرًا هشّ المظهر عليه بطانية بيضاء. والغرفة شديدة الترتيب على الرغم من ازدحامها بأشياء كثيرة. تركّز انتباه أم طاهر على الرفوف التي أمامها. عليها تشكيلة من زجاجات شفّافة عليها لصاقات مواجهة لها. بينما كان الطبيب يفتح درجًا، ثم يغلقه من جديد، مدّت أم طاهر يدها إلى زجاجة صغيرة جدًّا في آخر ذلك الصف. كانت حروف الكتابة على اللصاقة أشبه بحبات الأرز.
«هل تستطيعين القراءة بالفرنسية؟».
رفعت رأسها. كان الطبيب قد ارتدى مريلة.
«لا أستطيع القراءة أبدًا».
«آه، هذا يعني أن العربية والفرنسية سواء. لا تخافي، فأنا لن أفحصك. إنني طبيب جراح. ها هي الأخت سارة آتية. صباح الخير، يا أخت سارة. هذه مدام كمال. لدى المدام مشكلة رئوية».
كانت الممرضة التي دخلت من الباب قبل لحظة امرأة قصيرة القامة لها شعر أسود ووجه ممتلئ. قالت: «لا بأس».
تناول الطبيب أنبوبًا مطاطيًا كان حول رقبته وقدّمه إليها. قال رافعًا يده بالتحية وهو يخرج من الغرفة: «فرصة سعيدة، يا مدام كمال».
كانت الأخت سارة قادرة على التكلّم بالعربية أكثر قليلًا من الممرضة الأخرى. طلبت من أم طاهر أن تنزع حجابها، ثم وضعت القرص المعدني البارد الذي كان في نهاية الأنبوب المطاطي على صدرها، وطلبت منها أن تتنفّس. وبعد ذلك قالت لها أن تنحني إلى الأمام ورفعت ثوبها حتى تضع القرص المعدني على ظهرها. كان جلدها قد جعل القرص أدفأ قليلًا من ذي قبل، لكنه لا يزال باردًا. طلبت منها أن تتنفّس من جديد. نفّذت أم طاهر ما قيل لها وسمعت الحشرجة في رئتيها، سمعتها مضخّمة نتيجة انتباه الممرضة، وأحسّت نقرات شيء معدني بارد من حول عمودها الفقري. برد ظهرها المكشوف. أدركت أن الممرضة قد ابتعدت عنها.
«هل هو السل؟».
قالت أخت سارة: «لا. لا، إنه ليس سلًّا». كانت تكتب شيئًا في سجل كبير.

لا حاجة إلى نومها في المستشفى. أعطتها الممرضة زجاجة دواء صغيرة لها سدادة مطاطية، وقالت لها أن تضع نقطتين منها في وعاء كبير من الماء الحار، ثم تستنشق الأبخرة في كل مساء قبل أن تنام.

عند خروجها، رأت أم طاهر عبر نافذة الردهة رأسًا صلعاء عليها حزوز كأنها كثبان رملية. نزلت درجات المدخل، وسلكت مسارًا طويلًا ملتفًا خلف المستشفى. رأت الرجل جالسًا هناك، في زاوية الشرفة المسيّجة. كان جالسًا على كرسي هزاز. ثوبه ضارب إلى اللون الأبيض، وعلى كتفيه شيء يشبه شالًا. كانت على رأسه قبعة سوداء عريضة الحافة. بطانية فوق ساقيه. بدا لها كأنه يرسم المشهد الذي أمامه.

اختارت كرسيًا بعيدًا عن النافذة. بدأ قلبها يهدأ مع لحظة هدوء في المشهد من حولها: هدأت الريح كأنها تسترد أنفاسها قبل أن تعصف بالعشب من جديد.

وقف القس بعد برهة، واقترب منها. سألها بلغة عربية بطيئة فيها لكنة واضحة إن كان يستطيع الجلوس على مقربة منها. أشار إلى أحد الكراسي، ليس إلى جوار كرسيها تمامًا، بل بعده بعدة كراسٍ. أومأت برأسها، وأحكمت لف منديلها، وشدّت حجابها على رقبتها. لكن القس لم يلتفت إليها ولم يعرها أي اهتمام. اكتفى بأن وضع بطانيته على ساقيه وجلس مواجهًا المشهد، ثم تابع الرسم. لعله لم ينتقل من مكانه إلا لكي يغير زاوية النظر إلى المشهد الذي أمامه. تحشرجت أنفاسها. راحت تصغي إلى همس قلمه على الورق، وإلى زقزقة عصفور آتية من بعيد، وإلى تكتكات الساعة على الجدار البعيد.

سألها بعد بضع لحظات. كان مستمرًا في الرسم: «هل تأتين إلى المستشفى كثيرًا؟».

«لا. لا أمرض كثيرًا. بعدين، حفيدي درس الطب».

نظر إليها: «أوه، حقًا؟ أين درس؟».

«في فرنسا».

«آه، أنا من فرنسا. أين درس في فرنسا؟».

«في باريس. وفي... مونبليانو... مونبيلـــ...».

قال القس: «أوه».

تبادلا بضع عبارات عن المستشفى، وعن الحرب، وعن البريطانيين. جعلها القس تضحك عندما قصّ عليها نكتة عن التنافس بين البريطانيين والفرنسيين. بدأت تخبره قصّة طريفة من عندها، قصّة معروفة عن السامريين والكاهن اليوناني الماجن، لكنها انتبهت إلى أن قلم القس لم يكن يرسم، بل كان يخط كلمات على الدفتر. قطعت قصتها وسألته: «ماذا تكتب؟».

انزاح القلم عن الورقة. توقّف الرجل عن الكتابة.

«أكتب شيئًا أريد أن أتذكّره. إنني آسف. تابعي القصة».

لكنها لم تتابع قصتها. قالت له إن عليها أن تذهب لكي تتناول دواءها. فتحت باب الشرفة لكي تذهب من تلك الناحية، عبر الأشجار. صارت في الممر السفلي، فالتفتت ورأت شخصين على الشرفة: القس، وامرأة. كان ثوب المرأة الأسود يهتز... يداها تتحركان تحت حجابها.

عادت إلى المستشفى بعد يومين. وصلت قبل نصف ساعة من موعد بدء عمل العيادة، فطلبوا منها الانتظار على الشرفة. وهناك كان القس جالسًا في الكرسي الهزاز، ومعه الكتاب. حيّته بإيماءة من رأسها، فأجابها بمثلها وعاد ينظر إلى المشهد الذي أمامه. زقزقة العصافير، وتكتكة الساعة. لم يتكلّم القس. كانت أم طاهر تراقب حركة عقرب الدقائق. وأخيرًا، استنشقت نفسًا عميقًا، مضطربًا.

«سمعت أنك تتحدّث مع آل حماد».

اهتزّت لحيته الطويلة مع حركة رأسه. رفرف بعينيه عدة مرات.

قال لها: «لقد كان الحاج نمر حمّاد في غاية اللطف معي. وبالطبع، هذا المستشفى لهم».

قالت أم طاهر: «كيف حالهم؟ وما أخبارهم؟ لم أرهم منذ بعض الوقت».

حلّت برهة صمت، ثم قال القس: «هل سمعت بنفي الحاج حسن؟».

«أوه، نعم، نعم، معروف. وقد باع أرضه في وادي الأردن. مسكين هذا الرجل». صمت لحظة.

«وماذا غير هذا؟».

«أظن أن هذا كل ما أعرفه عن آل حماد؟ دعيني... دعيني أنظر في دفتري». تنهدت الصفحات وهو يمر بيده على زواياها.

«وماذا عن... من كان... في زيارة السامريين منذ فترة قصيرة؟».

تحدّته بعينيها، وتذكّرت قصتها عن الكاهن اليوناني. كان ذلك تبادلًا للقصص. روت له قصة، وروى لها قصة.

«نعم... كانت هناك سيدة تطلب سحرًا من أجل حفيدها...».

خفق صدرها.

«بمعزل عن ذلك، عندما كنت هناك في إحدى المرات، رأيت رجلًا من واحدة من العائلات الكبيرة. لكن، لم يُسمح لي بالجلوس معهم. لقد ذهبوا إلى غرفة أخرى».

«آه. من أية عائلة كان؟».

«كان الرجل من عائلة عطوان».

«عطوان! هل تعرف... السحر الذي يطلبه... من أجل من؟».

«لا أعرف. أتذكّر كلامًا عن طائر. أظنني لم أسجل ذلك عندي. كنت أحاول أن أكون... أن يكون مسلكي محترمًا».

انتفخ خداه، ثم ارتخيا، واهتز ذراعاه مع إصداره صوتًا يشبه السعال. أدركت أنه يضحك.

قالت بسرعة حتى يستأنف قصته: «بالطبع، بالطبع». انفتح الباب. قالت لها الممرضة: «مدام».

قالت أم طاهر وهي تنهض: «شكرًا، يا أبونا».

«آمل أن أراك مجددًا، يا مدام».

## - 9 -

من قمة جبل جرزيم الشرقية، كان الأب أنطوان يراقب الريح تهبّ في الوادي وتعبث بالأشجار وتحرّك الأعشاب. كان المشهد كلّه ينبض مع فقدان الريح عزم اندفاعها، ثم استعادتها إياه من جديد. أحسّ بتقلّب ضغط الريح على جسده القوي، أحس به يدفعه برفق إلى الأمام ثم إلى الخلف، وراحت ياقة ثوبه السوداء تنقلب إلى الأعلى وترفرف مثل فستان امرأة ترقص.

كانت الصخرة التي جلس عليها أشبه بضرس عملاق. وكانت في قمتها شديدة النعومة، فكان سهلًا عليه تخيّل مئات الأشخاص الذين استخدموها مقعدًا لهم على مر العصور... رعيان، وجوّالون، وجوّابو آفاق مثله. كانت أمامها صخرة أخرى أصغر منها يستطيع المرء أن يسند إليها قدميه، ثم يزداد الانحدار شدّة، وتختفي الأرض فيظهر مشهد قلاع بيضاء وأشخاص يسيرون. شجرة زيتون عتيقة ضخمة منتصبة إلى يساره، لحاء جذعها مشوّه متعرّج؛ يرى المرء، إن أمعن النظر فيه، جمهرة من أجساد ممتطة أو جاثمة، فاغرة أفواهها مثل خاطئي العصور الوسطى يوم الحساب الأخير. كان طول محيط جذع الشجرة يناهز ثلاثة أمتار. هذا ما قدّره أنطوان بنفسه ذات صباح عندما بسط ذراعيه حول ذلك الجذع. سمع مرات كثيرة مزاعم تقول إنها أقدم شجرة في فلسطين كلّها. كان ينبغي التعامل مع هذه المزاعم بشيء من روح الفكاهة لأن الأدلاء يخبرون الناس دائمًا عن أعاجيب يأملون أن تجعل أيدي من يسمعونها تمضي أعمق قليلًا في جيوبهم. لكنهم كانوا محقّين في اعتبارها أعجوبة. كان أنطوان يجد نفسه في هذه البقعة مرة بعد مرة، بسبب وجود هذه الشجرة، هذه العجوز الجميلة التي هي إضافة رائعة إلى المنظر.

وفي الوادي، في الأسفل، هناك جدار يعقوب. بدأ الروس يبنون كنيسة من حوله منذ أكثر من عشر سنين؛ لكنهم توقّفوا عندما قامت الثورة عندهم فصارت الكنيسة أشبه بأطلال، قبل اكتمالها؛ وظل جدار يعقوب نصف مكشوف، حتى بعد إزالة الأنقاض التي كانت من حوله. كان ذلك على الرغم من حقيقة أن الديانات الإبراهيمية كلها، تلك الديانات التي يمكن أن تنفق الدهر كله في مماحكاتها على الآثار والمواقع الجغرافية، تتّفق أخيرًا فيما يخص هذا الموقع، تتفق على أنه جدار يعقوب الذي التقى يسوع المسيح عنده المرأة السامرية و... بحسب إنجيل يوحنا: «كان مرهقًا بعد رحلته، فجلس عند الجدار»، وطلب منها أن تسقيه. لكن أحدًا من النابلسيين لم يحد عن الطريق حتى

يشير للزائرين إلى البئر، وذلك على الرغم من شدة اهتمامهم ببقية المزارات في ذلك الوادي. لم يكن أحد من النابلسيين مهتمًا بالسائحين الأوروبيين، على الإطلاق، عدا قلة من الأدلاء الطموحين. كانت أحياء بأسرها تنشأ في المدن الأخرى من أجل الحجاج والباحثين عن التحف. إلا أن نابلس لم يكن فيها حتى فندق واحد من أجل الغرباء.

لكن هذا ما كان يجعل نابلس مدينة مثالية من أجل أبحاث أنطوان: مدينة باقية على حالها، لم يمسّها شيء. لم يكن أهلها يؤدّون ما رأى يافاويين فقراء يفعلونه، إذ يرتدون ملابس الرعاة لملاقاة المسافرين القادمين على السفن حاملين شظايا خشبية يزعمون أنها من صليب المسيح نفسه. هذا غير موجود أبدًا في نابلس. وعلى الرغم من وجود العنصرَين المسيحي والسامري في المدينة، بل ربما نتيجة وجود هذين العنصرين، كانت نابلس نموذجًا ممتازًا لمدينة إسلامية. كان أنطوان يرقبها بحب من الأسفل ومن الأعلى، ويسجّل كل ما يجمعه من أقاويل ونمائم يسمعها من المرضى في المستشفى البلدي.

من الناحية الرسمية، كانت لأنطوان وظيفة أستاذ الدراسات الشرقية في المدرسة التطبيقية للدراسات الإنجيلية في القدس. التحق بهذه المدرسة طالبًا منذ نحو عشرين عامًا، أي قرابة الوقت الذي شهد قضية درايفوس عندما حظرت فرنسا الأخويات الدينية، فهجر الدومينيكانيون مدينة ليون أفواجًا. كان أنطوان الشاب قد سمع في الدوائر الكنسية عن مدرسة الأب لافينيو الجديدة في القدس. أرادت مدرسة لافينيو الدفاع عن الكاثوليكية في مواجهة الحداثيين. إلا أن أسلوبها كان غير معهود: سيحاول الدارسون -في واقع الأمر- الوفاء بمتطلّبات علم التاريخ، فيحلّلون كلمات الإنجيل ويدرسونها ضمن سياقها مستخدمين طرائق «حديثة»، لكنهم سيستخدمون ما يتوصّلون إليه للذود عن الإيمان بما هو فوق الطبيعة.

في ذلك الوقت، كان أنطوان في التاسعة عشرة ولم يكن قد غادر فرنسا أبدًا. سافر من مرسيليا إلى بور سعيد. ومنها، ذهب بالقطار إلى القدس واكتشف عند وصوله أن شهرة لافينيو الواسعة قد نسبت إلى مشروعه حجمًا أكبر من الواقع. لم يكن الدير قد بُني بعد، لكن القساوسة جهّزوا الأرض من حول قبر القديس ستيفانوس. قيل لأنطوان أن يقيم مع ثلاثة من الدارسين الذين أتوا في أول الفصل الدراسي في مهجع مؤقت في موقع كان مسلخًا تركيًا.

لكن أمله في الأب لافينيو لم يخِب. رجل متوسّط الطول ذو فم ودود معوجّ ولحية بنية متواضعة ورأس دَبّ فيه الصلع... رجل انتقلت عدوى حماسته إلى الفتية الجدد من غير تأخير. خرج أنطوان من الاجتماع التمهيدي بانطباع عن هذا الرجل مفاده أنه

صاحب رؤية، كبير القلب، توّاق، لديه الجرأة الكافية -ليس من غير وجل- لقيادتهم جميعًا في الطريق إلى الحقيقة.

ثم كان هذا الانطباع متبادلًا بعد أسبوعين فقط. كان الأخ أنطوان نجم الصف في اللغات الساميّة؛ وقال لافينيو إنه رأى فيه عقلًا ثرًّا يحمل تطلعًا إلى طموحات سامية. وعلى امتداد دراسته التي استمرت خمس سنوات بعد ذلك، ثم بعد زمن طويل من رسمه راهبًا. قام لافينيو بدور الموجّه الشخصي لأنطوان. كان يشجّع حماسة أنطوان واستقلاله ومزاياه. لقد كان أنطوان عقلًا متّفقًا مع عقل لافينيو: الكاثوليكي النادر الدؤوب، صاحب الإيمان الذي بلغ نقاؤه حدًّا يسمح له بأن تظلّ عيناه ذاتا الرؤية الصافية ناظرتين إلى الأرض دائمًا.

كانت أزمة الحداثة أزمة شخصية لكل من يأخذ بالإنجيل اللاتيني. وقد تجلّت جرأة لافينيو في طرح هذا الأمر علنًا وفي دفع مدرسته إلى مواجهة جماعية. لقد علّمهم أن الدفاع عن الإيمان والتماس المعنى الحقيقي يوجبان عليهم أن يطبّقوا التحليل الأدبي على النص الإنجيلي من غير خوف. فهل كان جَملًا ذلك الذي مرّ في سُم الإبرة؟ أم كان -نتيجة اعوجاج النص أو اعوجاج فهمه- خيطًا، لا أكثر؟ قرأ الإخوة الشباب الأناجيل باللغة اليونانية بعد أن اشتدّت عزيمتهم بفعل إيمان معلمهم وبعد سيرهم اليومي في الأرض التي سار عليها يسوع المسيح، وعيشهم في مكان يعلو طابقًا واحدًا فوق بقايا قبر القديس ستيفانوس. درسوا الآرامية المحكيّة وأحاطوا بأسئلة يصعب إحصاؤها، وواجهوا بعزم تلك الحقيقة البشعة، حقيقة أن الإنجيل اللاتيني الذي نشأوا عليه، كان، في حدٍّ ذاته، وهمًا. لكن تصوّر جسد المسيح الحقيقي كان سهلًا في أنفاس القدس المجنونة؛ وكان سهلًا تصوّر يديه المعروقتين اللتين كانتا تشفيان المرضى ثم تشوهتا تحت السماء الحارة الشاحبة قبالة الجلجلة البيضاء كالعظام. أمدّتهم هذه الرؤى بالشجاعة في المواضيع التي كانوا يعرفون أن البروتستانت قد اضطربوا فيها.

على الرغم من أن الهدف الأكبر كان ميتافيزيقيًا، فإن رؤية لافينيو للمدرسة كانت محلّية، وكانت مادّية تمامًا. أنفق الرجل طاقة عظيمة في البحث عن مدرّسين يطوّرون المناهج التعليمية للغات والآثار والجغرافية. كبر حجم المدرسة، وانبثق عنها جناح من أجل مهجع جديد. اعتبر الإخوة والآباء أنفسهم في صورة توما الأكويني: كل ما في الأرض والسماء متلاقٍ، ولكلٍّ جوهره. وباعتبارهم باحثين، كانوا يسعون عبر قدراتهم العقلية إلى الوصول إلى تلك الجواهر، كأنهم حجّاج يضعون أيديهم على الصخرة التي غُسل المسيح عليها بعد صلبه.

لكن عين البابوية اليقظة لم تكن مطمئنة تمام الاطمئنان. فمن منظورها اللاتيني،

بدا «أسلوب لافينيو التاريخي» شبيهًا إلى حد يثير الريبة بالنزعة الحداثية التي زعم أنه يهاجمها. جرى حظر شروحات لافينيو لسفر التكوين. لكن هذا لم يثن عزيمة أولئك الباحثين؛ بل إن أخبار الارتياب البابوي شدّت من عزيمتهم في واقع الأمر. سرت حمى التفاني في غرف المحاضرات المرتجلة. لقد كانوا روادًا. واجهوا غضب فرنسا أول الأمر؛ وها هم الآن يواجهون غضب روما. إنهم إخوة زملاء يشقّون طريقهم معًا في خضم العاصفة العقلانية متّجهين بعقولهم صوب المنارة المقدّسة للمرجعية الكنسيّة.

ظهرت سيارة في الناحية البعيدة من المدينة. تقدّمت مثلما تتقدّم خنفساء على امتداد طريق الوادي، ثم مرّت بشخص ضئيل يحمل شيئًا. تنحّى الشخص جانبًا، وعلت من خلف عجلات السيارة سحابة غبار عند المنعطف. لا شك في أنها سيارة واحد من البريطانيين. لا يملك أي عربي في نابلس سيارة مع أن سائقي السيارات يكونون أحيانًا من السكان المحليين. على الرغم من الغبار، تابع ذلك الشّخص سيره. سجل أنطوان ملاحظة: سؤال السيدات في المستشفى - سيارات؟

بدأت أصوات المؤذّنين يقاطع أحدها الآخر. حرّك الأب أنطوان قدمه. كانت امرأة في عباءة سوداء تخرج عن الطريق متّجهة إليه. كان على رأسها غطاء... بل خمار. إنها الأخت لويز.

«أخت لويز! لم أعرفك أول الأمر».

نهض واقفًا وأشار لها بالجلوس على الصخرة حيث كان جالسًا. لم تجلس عليها. بل اتجهت إلى خلف الصخرة ودارت من حولها. كانت تسير بخطوات حذرة. بشيء من الصعوبة، جثم على الأرض إلى جانبها.

«كيف حال المرضى اليوم؟».

«لدينا صبي جديد مصاب بالأنفلونزا».

«يبدو من صوتك أنك غاضبة».

شدّت الأخت لويز على شفتيها. قالت: «قد أكون غاضبة...». تنهّدت... «لدي ما أقوله لك. إن مناقشات تجري بيننا منذ بعض الوقت؛ لكننا توصّلنا إلى قرار. قريبًا، سنترك المستشفى في أيدي النابلسيين».

«هل ستفعلون هذا حقًا؟».

«في هذه المرة، أجل. سنتابع تدريب فتيات محلّيات، لكن هذا سيكون كافيًا في آخر المطاف. يريدون منا توسعة مدرسة البنات. لا تنظر إليّ بهذه الطريقة. فهذا مرسوم بابوي. تعجبهم حقيقة أننا نظيفات جدًا». عبست بدلًا من أن تبتسم... «يرون في هذا خصلة إسلامية. لذا، سيكون لدينا مركز ملحق بنا لتوزيع الأدوية، وسوف نستمر في

زيارات القرى. وأما المستشفى... تعرف أن إبراهيم طبيب ممتاز. وأعرف ما يعنيه هذا بالنسبة إلى أبحاثك. لكني أظن بأن إبراهيم لن يعترض على جلوسك في الشرفة. أنت ترى مقدار تعبي. إنهم يتهموننا بالتجسّس، ولحظة يصل مصابون من القدس، يصيرون، من جديد، شديدي الرغبة في بقائنا. هذا أمر مرهق».

بدت الأخت لويز في غاية التعب. كان لها وجه كوجه سلحفاة جميلة: وجه ذابل بارز العظام.

كانت أخوات القديس يوسف جماعة هادئة صبورًا. وكن يصارعن أعيان نابلس منذ سنين. اتهمن بجرائم كثيرة، من تحويل مريضاتهنّ إلى المسيحية، إلى الإضرار بعمل الأطباء المحليين. وبعد أن أصابهنّ وباء التيفوئيد خلال الحرب، اكتسبت الباقيات منهن مناعة تجاه هذا المرض، فازدادت قيمتهنّ. وهذا ما جعل رئيس البلدية في ذلك الوقت، الحاج نمر حماد، يحثّهن على البقاء، ثم طلب منهنّ إدارة المستشفى البلدي الجديد. لم تكن الممرضات تحصلن على تمويل من البريطانيين. كانت حياتهنّ متقشّفة، وأجسادهن نحيلة؛ وكان لهنّ ذلك المظهر النظيف المتحفّظ لمدبرات منزليات قديرات. وكان أكثر ما يثير إعجاب أنطوان فيهنّ عدم تعلّقهنّ بهويتهنّ الفرنسية. لقد كنّ يخدمن الرب وحده.

«كيف يسير عملك؟».

«أوه، هكذا وهكذا. أخشى أنني لم أتمكّن من تحقيق الانسجام...». نظر أنطوان إلى وجهها... «الأمر هكذا: أنظرُ إلى ملاحظاتي في يوم من الأيام فأرى فيها أشياء مهمّة. أرى طرقًا يمكن السير فيها. ثم أنظر إلى الملاحظات نفسها في يوم آخر فلا أستطيع تذكّر ما ظننته قيّمًا فيها». نقر على غلاف دفتر ملاحظاته الجلدي بإصبعين ثخينين. كانت صلته بالأخت لويز متميّزة. يزول عنه تحفظه كله عندما يكون معها. كانت تبدو قاسية من الخارج، لكنها تنجح دائمًا في انتزاع الاعترافات منه على الرغم من كونه عادة شخصًا شديد التكتم. وكان واضحًا أنها تفعل هذا من غير أن تقصد فعله. وبما أن نابلس كانت، من الناحية العملية، مغلقة في وجه الأغراب، فقد كانت الأخت لويز أيضًا عونًا كبيرًا في بحثه. المرض، والمستشفيات، والأدوية. هكذا يصير المرء مألوفًا لدى الناس. كانت تمدّ أنطوان بمرضى راغبين في التكلّم؛ وكانت صلته بالمستشفى نقطة مهمة لصالحه في أعين أولئك المرضى الناقهين. لقد بدأ أنطوان يصير معتمدًا عليها اعتمادًا تامًا – لا في اكتساب معلومات عن النابلسيين فحسب، بل في اكتساب معلومات عن نفسه أيضًا.

قالت له: «من المؤكّد أنك تكتب عن المدينة».

«صحيح، صحيح. لكن ملاحظاتي تبدو الآن أشبه بسجل للنمائم المحلية. يقلقني أن النتائج التي ينبغي أن أتوصّل إليها... لكني، بالطبع، أستبق نفسي هنا».

«أخبرني بما صار لديك حتى الآن».

«قوائم. عداوات وتحالفات. عائلة ضد عائلة. هذا الشخص خاصّة، عطوان...». ربّت بسبابته على غلاف دفتره... «إنه صاحب مصنع الصابون، هل تعرفينه؟ لديه دائمًا ثأر لدى شخص ما - لكن هذه، بشكل عام، ظاهرة نابلسية جدًا. هذه المدينة...». نظر إلى بيوت المدينة في الأسفل ثم هزّ رأسه... «الغيرة والفضائح كلها بين هذين الجبلين».

«هكذا يكون الأمر دائمًا... الفضائح موجودة في كل مكان».

قال بصوت منخفض: «لا، لا أظن هذا. الأمر مختلف هنا. وعليّ القول إن هذا يسحرني. هناك شيء قوي في الهواء».

وكأنما استفز الهواء بهذه الكلمات فتحرّكت الريح، وراحت مسبحة الأخت لويز تتأرجح وتنقر على الصخرة.

«على أية حال، إنني أبحث عن الشكل».

«الشكل!».

«شكل العمل. إذا بنيت حبكته على الدسائس والنمائم المحلية، فما الصورة التي سيقدمها؟».

بسطت الأخت لويز كفيها: «أهي حياة مدينة مسلمة؟».

«سيكون هذا ميدان عملي، بالتأكيد. لكن، أليس هذا أمرًا قليل الأهمية بعض الشيء؟ يريد المرء دائمًا أن يشرح شيئًا -لا بأس-، إنها تعاليم الكنيسة. أتساءل إن كنت مخطئًا عندما اخترت مدينة مسلمة...».

«كان مشروعك الماضي عن البدو».

«صحيح. لكنك ترين كيف أن الصحراء تحفظ الناس من التغيير. كان ذلك على صلة مباشرة بالدراسات الإنجيلية لأن البدو باقون على حالهم منذ زمن الإنجيل. كنت أعرف هذا منذ البداية».

«واصل عملك الآن. وعسى أن يصير الأمر واضحًا لك».

لم يقل أنطوان شيئًا. مر بإصبعه على حافة دفتره.

«سوف أحزن إذا غيرت رأيك». ابتسمت له ابتسامة سريعة... «أعني إذا قرّرت نقل دراستك إلى مكان آخر». وضعت يدها على الصخرة حتى تنهض على قدميها... «عليَّ أن أستعدّ من أجل الصباح. وأنت، لا تتأخر. الطقس بارد، وسرعان ما يحل الظلام. آمل أن تبيت عندنا الليلة».

«يجب أن أعود إلى القدس. لقد غبت فترة أطول مما ينبغي. يقولون إن الثلج سيهطل».

«إذًا، إلى اللقاء، أيها الأب أنطوان. آمل أن أراك عما قريب».

«إلى اللقاء».

عاد إلى صخرته بعد انحدارها صوب الطريق. كانت أنفاسه ثقيلة. فتح دفتره ووضع قدمه على الجلمود الصغير الذي أمامه.

لقد تغيّرت الأحوال منذ الحرب. ازدادت أعداد الدارسين لديهم، وصار الحفاظ على نقاء رؤية لافينيو للمدرسة أمرًا مستحيلًا. مع أن زملاء أنطوان في القدس كانوا ممن تسرّ المرء صحبتهم، ومع أن له أصدقاء بينهم، فقد صار الآن يشعر بأنهم يمثّلون المصالح الفرنسية أكثر من المعتاد، وأكثر مما ينبغي. كان هذا مختلفًا تمامًا عن حال لويز وبقية الأخوات في نابلس. بطبيعة الحال، كانت المدينة المقدّسة كلها تحت الحصار، لا الفرنسيون وحدهم: كلّ أوروبي متمسّك بركنه؛ عيادة هنا، وكنيسة هناك، ومرفق تبشيري عند الزاوية، وأستاذ آثار فوقه بطابقين. كانت الأعلام ترفرف على كل شرفة كأن الجنرال ألنبي لم يفعل شيئًا. وعلى الرغم من تظاهر الدبلوماسيين بالعلمانية، فقد كان هناك تداخلٌ بين العصبيات العامة التي هي أشبه بسلسلة ممتدة ممن يريدون إنقاذ أرواحهم، إلى من يريدون إنقاذ أرواح الآخرين، إلى من هم ليسوا أكثر من أشخاص جشعين متعطشين إلى أي شيء قديم، أو أي شيء يحظى بالتقدير. باختصار، لم يكن هناك أي وجود لشيء «مُنزّه» عن المصلحة. وحتى في أوساط من كانوا في الظاهر موجودين بفعل الإيمان وحده، فقد كان على المرء أن يبذل جهدًا كبيرًا لكي يفصل النبضات الروحانية بين أضلعهم عن نبض انتمائهم الوطني الذي كان في هذه الأيام شيئًا يبدو كأنه مستقر في عظام الناس. يعلو الدم إلى وجوههم عند اكتشاف وثيقة جديدة، وعند أي ذكر لأسطورة بيزنطية أو لأسطورة من بلاد ما بين النهرين؛ وكانت عشرات التمائم والحُجُب تُجمع كل يوم، وتُفحص الكتابات بعناية على الطاولات في المكاتب المطلة على سوق التوابل. ومع أن أولئك الأشخاص كانوا يدعون أنفسهم علماء ويضعون على صدورهم بطاقات تحمل أسماءهم، فقد بدأ يصير صعبًا التمييز بين السائح والأكاديمي، لأن عيون الجميع صارت فيها تلك النظرة الوحشية نفسها.

إلا أن أنطوان ظلّ محافظًا على عزمه الذي كان لديه أيام دراسته اليتيمة عن جماعات البدو؛ ظلّ محتفظًا بها الآن في عمله عن نابلس. وبحماسة غير منسجمة مع لحيته البيضاء العاجيّة، واصل معلمه، الأب لافينيو، تشديده على أهمية الدراسات

الإثنوغرافية، حتى قبل أن يستطيع المرء تبيّن كيف يمكن لهذه الدراسات أن تنير درب الإيمان. ظل لافينيو يزيّن مديحه بتذكِرات يطلقها من خلف طاولة مكتبه الذي تناثرت عليه الأوراق: «كن دقيقًا، يا أنطوان، حتى عندما يكون كل ما من حولك غامضًا. لا يجوز أن تعزو إلى موضوع دراستك ما هو ليس فيه حقًا».

وكان أنطوان يتساءل في نفسه إن كان الدارسون دائمًا أصحاب حماسة متعصّبة، بمعنى من المعاني. إلا أن القدس كان لها نوع من قوة كيميائية توقظ ما لعله يظل نائمًا من غيرها. فمنذ أيام، رأى امرأة سويدية معروفًا عنها عامّة أنها تعيش على منحة دراسية أكاديمية من الجمعية اللاهوتية، رآها تنوح نواحًا حقيقيًا بعد مرور مشهد يمثل صلب المسيح. كان في ذلك المشهد عربيّ طويل الأنف يجرّ حِملًا من الحطب وينقل قدميه بصعوبة، كأنه دمية، نازلًا في طريق «درب الآلام». من المؤكّد أنه كان، هو نفسه، يشعر بذلك أحيانًا، يشعر بأن حركة الصحراء تُعمّده. وبينما تعبث الريح بلحيته وهو جالس هناك، عند أقدم شجرة في فلسطين، قبالة وادي نابلس، كان يسجل في دفتره كيف أن لجاذبية ما وراء الطبيعة قدرة مدهشة على اجتياز المسافة كلها من تلال يهوذا حتى تبلغ أكداس الكتب في مكتبة هادئة حيث يكاد المرء يسمع الصهاينة البريطانيين يستعجلون عاصفة التقدّم بأصواتهم الصارخة.

ظلُّ غيمةٍ عظيمة مبعثر الأطراف مثل شكل قارة من القارات مرّ فوق المدينة وانحدر صوب الوديان التي في الجبلين. لم يعد أنطوان قادرًا على رؤية شيء غير المستشفى البلدي: استطالة صغيرة عند سفح جبل عيبال رابضة وسط أشجار الزيتون. لكنه لم يعد قادرًا على رؤية مقر الأخوات الفرنسيات. لعله مختف خلف واحد من تلك القصور العالية.

وبينما لملم أشياءه ونزل إلى محطة الباصات، فكّر فيما قالته له لويز عن مغادرة المستشفى. كان غريبًا أن يحنّ النابلسيون إلى الأتراك هذا الحنين كلّه الذي يجعلهم يقلقون هذا القلق الدائم من التجسّس. ففي آخر المطاف، ألم يكن الأتراك مضطهديهم؟ مرَّ به فلّاح سائر على الطريق يقود بغلًا محمّلًا في طريق الجبل.

لعل لدى الناس قدرة على نسيان قيود قوانين الماضي. يبدو لهم الماضي أبديًا: يصير ما جرى أمرًا لا يجوز انتهاكه؛ ولا يحتفظ المرء بالاحتمالات الأخرى زمنًا طويلًا... ما لم يحدث يطويه النسيان. وأما في اللحظة الحاضرة، فإن المرء يصير أكثر انتباهًا إلى ما قد يكون ممكنًا *لو أن*... تُمسك روابط الحاضر بالمرء من معصميه وتجعله يتذكّر الزمن الذي لم تكن فيه تلك الصرامة كلها. هذا يعني أنه كان طبيعيًا، مع سير

الجنود البريطانيين أمام السجن القديم، أن يتذكّر النابلسيون لطف الضباط العثمانيين ومودتهم، وأن يتذكّروا زيجاتهم من بناتهم، فيصدمهم أن أولئك الآباء البريطانيين لم يجعلوا أبدًا واحدة من بناتهم تتزوّج عربيًا.

اتجه إلى أول باص ذاهب إلى القدس، ودفع الأجرة. حل وقت الغروب مع بلوغهم باب العامود.

## - 10 -

تساقط الثلج في الليل. وفي الصباح، كانت السماء تغطي نابلس بدخان أبيض كثيف تراكم على الأرض كثبانًا بلغ ارتفاعها مستوى الفخذ، فأحلّ الصمت على البيوت. لم تزقزق العصافير. وخلال أيام غزت الرطوبة الحبوب المخزونة وأصابت الخضار بالعفن. صار الجيران يلفّون سيقانهم بالقماش حتى يخوّضوا في الثلج إلى أبواب جيرانهم الآخرين. وأما الأخبار التي ما كان ممكنًا تناقلها بهذه الطريقة ظلّت من غير أن يتناقلها الناس.

وشّحَت النوافذ المطلة على جبل جرزيم بقع من جليد. لزم مدحت غرفته فلم يكن يخرج منها إلا وقت الطعام. لم تفتح أم طاهر موضوع الزواج منذ آخر كلام جرى بينهما. لكنها صارت من غير شيء يشغل أوقاتها، غير الخياطة، فشغل بالها ما سمعت القس يقوله عن السامريين. بطبيعة الحال، من الممكن ألّا تعني هذه النميمة الصغيرة أي شيء على الإطلاق؛ فمن الممكن أن يكون أي شخص هدفًا للعنة التي كان شاهدًا عليها (الطائر في السحر يعني دائمًا أن هناك لعنة). وعلى الرغم من هذا، راح ذهنها يرسم على صفحة الثلج الأبيض خلف نافذة المطبخ نابلسيين حاسدين يكيدون لحفيدها. مكائد ضد إمكانية زواجه. مكائد ضد سلامته العقلية. كان ذهنها يجري من غير ضابط: قد يجد مدحت صعوبة في رؤية ما يتجاوز حافة أنفه. لكن أم طاهر كانت تتخيل احتمالات المستقبل لزمن أطول كثيرًا.

في أواسط شهر شباط سنة 1920، أطلّت براعم القندريس الأولى برؤوسها عبر الثلج على سفوح الجبلين. ذاب الثلج دوائر من حول أعناقها. انفكت عقدة السماء؛ ثم لم تلبث أخيرًا أن تركت الهواء خاليًا، أزرق اللون. صار الثلج على الجبلين بقعًا متفرقة. وصارت الشوارع رمادية. وخرج أهل المدينة إلى الدروب، وراح الأطفال يلعبون في الأماكن المفتوحة.

وذات صباح في شهر آذار، استيقظ الجميع ليجدوا أن البرد قد رحل عنهم. الهواء يتحرك، والعصافير تزقزق، والجليد يسيل في الوديان ماءً فتمتلئ الشوارع ثلجًا لم يذب تمامًا بعد. بدأت نساء نابلس تخرجن في نزهات إلى رأس العين للجلوس عند مساقط المياه بصحبة سلال من المكسرات، بينما يغسل أطفالهن الخسّ في الماء المثلِج،

وتحيط أكفّهم بأوراقه حتى لا يأخذها اندفاع الماء. عادت الصحف إلى التداول؛ وفُتحت خطوط التلغراف. سمعت نابلس أخيرًا بما كان جاريًا في دمشق وفي القدس.

سرعان ما صارت المفاوضات بين فيصل والفرنسيين، تلك المفاوضات التي تحدّث عنها هاني في رسالته إلى مدحت، أمرًا معروفًا للجميع. ومثلها صارت معروفة أخبار اندلاع العنف في المناطق الداخلية. امتد الاضطراب إلى فلسطين؛ وظهرت صور لأشخاص في مدن الساحل يحملون لافتات تقول: «فلسطين جزء لا يتجزأ من جنوب سورية»، و«لا مكان للصهاينة في فلسطين». كتب واحد من الصحافيين: «قمع البريطانيون المظاهرات قمعًا عنيفًا. صارت المظاهرات الآن محظورة».

قال صوت: «هل سمعت شيئًا حتى الآن؟».

كان مدحت قد وصل إلى المتجر قبل لحظات، وخلع سترته. وكان رأس المتكلّم مرئيًا في الظل عبر ثغرة في واجهة المتجر. لكن رؤية وجهه كانت صعبة.

قال مدحت مخمّنًا: «برهان؟».

أجابه برهان: «صحيح، هذا أنا. هل سمعت شيئًا؟».

ظهر وجه عادل جوهري إلى جانب برهان، وظهر معه مصباح غازي أنارهما معًا، وألقى على الأرض شعاعًا من ضوء. «هل تتحدّثان عنه؟».

بسط مدحت كفيه وصدر عنه صوتٌ دالٌّ على التعجب.

قال عادل: «هناك بعض الأخبار. أظن أن فيصل صار ملكًا».

«صار ملكًا على ماذا؟».

«هذا ما نحاول معرفته».

رفع برهان كتفيه وصاح مخاطبًا شخصًا غير ظاهر لمدحت: «أنت، أنت... هل هذه صحيفة؟ آه، آسف، يعطيك العافية».

قال هشام بعد أن تنحّى عادل لكي يسمح له بالمرور: «صباح الخير، يا مدحت. هل سمعت هذا الخبر عن الملك فيصل؟».

«ما الذي تعرفه؟ لم نسمع أي شيء عنه».

قال صوت آخر: «صباح الخير، مدحت».

«نحن لا نعرف شيئًا. آه، قيس، لم أرك».

قال قيس: «سوف تعرف بعد لحظة...». كان مبتسمًا... «انظر ماذا لديَّ؟».

قال برهان: «من أين أتيت بها؟».

«عاد أبي من القدس قبل ساعة».

صاح شخص في الخارج: «إن لدى قيس صحيفةً».

قال مدحت: «هيا إذًا».
قال برهان: «ماذا قلت؟».
قال مدحت: «أسرع، هاتِ الصحيفة».
كان الخبر قد شاع في السوق، وتضخّم. ومع وصول الرجال وتزاحمهم في متجر الكمال، أُرغم قيس على التنحّي جانبًا. دفع مدحت بعض الصناديق إلى الخلف حتى يفسح مجالًا، ثم ناول قيسًا صندوقًا فارغًا في حين كان الآخرون يتسابقون إلى الكراسي الموجودة. بدأ شروق الشمس.
قال قيس: «هل نحن جاهزون؟».
«أجل».
قال رجل متقدم في السن وهو يلوح بيده المصابة بالتهاب المفاصل: «لحظة، لحظة. هل لديكم قهوة؟».
صاح قيس: «فيصل!». وقف على الصندوق منفرج الساقين مثلما يقف واحد من الخطباء.
همس مدحت للرجل: «تفضّل، يا حاج». ناوله فنجان قهوة.
«إعلان الأمير - فيصل - ملكًا - على سورية».
تصفيق وصفير. نظر مدحت من فوق بحر الرؤوس التي أمامه فرأى وجه جميل المستند إلى عضادة الباب طاويًا ذراعيه على صدره. تلاقت عيونهما.
صاح مدحت: «هل تقول الصحيفة أين هي سورية؟».
قال قيس: «انتظر! انتظروا، انتظروا جميعًا! دعوني أقرأ بقية الخبر».
لكن الجمع صار أكبر من أن يكون إسكاته ممكنًا. حاول بعض الأشخاص جعل الواقفين يغنّون أغنية فلاحية قديمة. رفع هشام ذراعيه النحيلتين، ثم بسط كفيه وخفضهما مشيرًا إلى الناس بالسكوت. لكن ذلك كان من غير جدوى. شقّ مدحت طريقا إلى زاوية قيس.
«هل تقول الصحيفة فلسطين؟».
قال قيس: «أجل. دمشق عاصمتنا».
قال رجل طويل القامة وهو يخرج نظارتين من جيبه: «أعطني الصحيفة».
قال قيس: «وهكذا، نحن الآن جزء من سورية...». التفت إلى عادل... «صحيح؟».
رفرفت عينا عادل. حدّق في المقالة وقال: «لست أدري. ألم يحظروا المظاهرات عندنا؟ تذكّر... ليس لدينا جيش».
قال جميل: «فيصل لديه جيش».

في تلك الليلة، طلب الشقيقان باسل ومنير مراد مساعدة مدحت وجميل فيما اعتبروه «عملية». كان واحد من أخوالهما قد قاتل مع فيصل في الثورة العربية ضد الأتراك، ثم جلب معه علم الشريف حسين. كان علمًا أحمر وأسود وأبيض عاد الرجل على صهوة حصانه ملوّحًا به. قبيل منتصف الليل، صعد باسل ومنير إلى أعلى مبنى البلدية حاملين ذلك العلم معهما ثم رفعاه على السارية الخالية. وكان مدحت وجميل يدوران من حول البناء، كما قيل لهما، ويومئ كل منهما برأسه عندما يمر بالآخر. ومع صفرة من باسل، التقيا خلف البلدية لمساعدة زميليهما في النزول.

رأوا العلم في الصباح، رأوه عبر الدرب الجبلية: ألوان الثورة العربية التي صارت الآن ألوان الاستقلال العربي. إنها ترفرف الآن فوق المدينة فتجعل الريح مرئية.

قال جميل: «أمر حسن أن يشعر المرء بأنه يفعل شيئًا. هل تدرك ما أعنيه؟».

في ذلك اليوم، ظلّ مدحت يتجوّل عند الخان ويراقب الشارع إلى أن خيّم الليل. عمّت الإثارة الجميع. تجمعت كل حركة صغيرة، وكل تلويحة يد، وكل خطوة، في موجة كبيرة من الحركة مثلما تهتز أوراق أشجار منفردة في الغابة إلى أن تصير أوراق الأشجار كلها حيوانًا متحرّكًا واحدًا. أُزيل العلم في الصباح التالي. لكن هذا ما كان مهمًّا. لقد رآه الجميع.

على الرغم من مساهمة مدحت وجميل في «عملية العلم»، فقد أنفقا معظم الوقت خلال الأسابيع القليلة التالية مع قيس كرك وعادل جوهري، لا مع الأخوين مراد. كان كلام منير وباسل كلّه شعارات؛ وكانا متفقين دائمًا. لكن قيس وعادل كانا يحبان المجادلة. بعد العمل، سار الأربعة معًا، مدحت وجميل وقيس وعادل، إلى مقهى الشيخ قاسم لتحليل أنباء الصحف. كان عادل عضوًا في الجمعية الإسلامية-المسيحية، وكان أول من أخبرهم عن خطة التظاهر في القدس تأييدًا لفيصل خلال مهرجان النبي موسى.

لم يعرف مدحت موعد وصول أبيه؛ لكن شهر نيسان صار قريبًا، ولم تجد له تيتا عروسًا حتى الآن. لم يتعجّل تذكيرها بالأمر. كان نيسان أيضًا شهر المناسبات والمواسم الدينية في المنطقة كلّها؛ وكان النبي موسى، أي زيارة المسلمين قبر موسى في الخليل، قد صار في الآونة الأخيرة أكثر تلك المناسبات أهمية. يوافق مهرجان النبي موسى الجمعة العظيمة بحسب التقويم الأرثوذكسي؛ إلا أن زيارة قبره في الخليل اكتسبت في السنوات الأخيرة طابعًا أكثر علمانية نتيجة ازدياد مشاركة المسيحيين فيه، أو على الأقل نتيجة ازدياد إقبال المسيحيين على السفر إلى القدس في يوم الأحد الأول من شهر أيار. كان يهود القدس يشاركون أحيانًا -لكن الأرجح أنهم لن يشاركوا هذه السنة-. لن

يشاركوا لأن واحدًا من التداخلات عاثرة الحظ في التقاويم المختلفة قد جعل يوم النبي موسى موافقًا أول أيام الفصح اليهودي.

قال عادل وهو يحث مدحت وباسل على الإسراع في سيرهما: «هذه فرصة رائعة...». كان جميل يسبقهم جميعًا... «يستطيعون حظر مظاهراتنا، لكنهم لن يُقدِموا على حظر مناسبة دينية. إنهم يتحدّثون دائمًا عن المحافظة على الوضع القائم. ستكون ردة الفعل هائلة جدًا».

كان ذلك في يوم الجمعة؛ وقد أخذوا النارجيلة معهم إلى رأس العين. مروا في الطريق بباسل الذي وقف يدخّن في طريق قيصرية. سألهم باسل عن وجهتهم، فدعاه عادل إلى الذهاب معهم. تبادل مدحت وعادل نظرة سريعة عندما سألهم باسل إن كان يستطيع أن يجلب منير معه. كان من الممكن احتمال واحد من الشقيقين، لكن احتمال الاثنين معًا ليس سهلًا. قال له عادل: «لماذا لا تلحقون بنا هناك؟»؛ فما كان من باسل إلا أن تخلّى عن فكرته وقال: «أنا قادم، أنا قادم»، ثم سار إلى جانب مدحت.

«هل أنت ذاهب؟».

قال باسل: «إلى النبي موسى؟ بالطبع، نحن ذاهبان».

مد يده ليحك أسفل ظهره. فتح سترته عندما فعل ذلك. ظهر مسدس في حزام بنطاله. كانت قبضة المسدس عند خصره؛ وكان ظاهرًا عليها أنها ملمعة حديثًا.

«هل أنت جاد؟».

ظل باسل ينظر أمامه. ظهر الاستياء على وجهه.

«ما الذي تخططون لفعله؟».

قال باسل بعد لحظة: «هل سمعت بجابوتنسكي؟».

«لا».

«إنه صهيوني. لقد بدأ إنشاء جيش صهيوني. إذا أردنا هزيمتهم، فعلينا أن ندرّب أنفسنا».

كان عادل متقدّمًا عليهما. انفجر ضاحكًا. لوّح جميل بذراعيه الطويلتين فلمع كمَّا قميصه في الشمس.

قال جميل: «لديه أيضًا كلب صغير. لقد أسماه نيلا».

قال مدحت: «أريد أن أسألك... لماذا تأخذه معك إلى رأس العين؟».

«إنني أعوّد نفسي على حمله».

استدار عادل إليهم وقال: «عند أي نبع تريدون أن نجلس، يا شباب؟».

قال مدحت: «النبع الذي يعجبك».

نساء جالسات في حلقة عند قارعة الطريق. تحرّكن جميعًا وابتعدن مسرعات مع اقتراب مجموعة الذقون السوداء. قال مدحت: «هل لديكم مسدسات أخرى؟».

قال باسل: «هل تريد واحدًا؟ أظن أننا نستطيع أن نحصل عليه قبل المهرجان. الشخص الذي ينبغي الحديث معه...».

قاطعه مدحت: «لا، لا، لا أريد مسدسًا».

قال باسل مبتسمًا: «من باب الاحتياط، حبيبي. من باب الاحتياط».

مر اليوم الأول من المهرجان من غير أية حادثة. بدأ الزوار رحلتهم إلى القدس فصلّوا في المسجد الأقصى، ثم خيّموا حول أسوار المدينة القديمة لقضاء الليل، وبعدها تابعوا الطريق إلى الخليل. التقى مدحت وجميل صباح يوم الاثنين قبل بزوغ ضوء النهار. ومع انحدارهما نازلين على الطريق الجبلية، سمعا الزوار ينشدون في السهل. شاهدا قافلة المهرجان متقدّمة على الطريق بطبولها وصنوجها... كان الناس محتشدين في الفجر الذي لا لون له.

استقل جميل ومدحت القطار الأول الذاهب إلى طولكرم حيث انتقلا إلى القطار الذاهب إلى اللد. وعلى رصيف محطة اللد كانت هناك نساء إنكليزيات حاملات مظلّات مطوية. لاحظ مدحت مظهر الثقة في وجوههنّ، ذلك المظهر الشائع بينهنّ جميعًا. وبعد برهة، أدرك أن أيًا من تلك النساء لن تقابل نظرة عينيه. اختار واحدة لا على التعيين. شعر مسترسل أشقر برتقالي مجموع من تحت قبعة قبيحة الشكل. قفازان جلديان رخيصان. وآلة تصوير.

قال جميل: «لقد تعبت منذ الآن».

لم تنظر ذات الشعر البرتقالي إليه. اقترب القطار من رصيف المحطة مصدرًا هسيسًا شديدًا، فتقدّمت مع رفيقاتها للصعود إليه. كانت النساء كلّهنّ ذاهبات بالقطار. تذكّر مدحت صور القطارات الفرنسية الذاهبة بالجنود إلى الجبهة. وذكّرته مظلات النساء ببنادق أولئك الجنود.

«أظن أن عادلًا هناك».

أشار جميل إلى نهاية رصيف المحطة قبل أن يمسك بالمقبض الذي عند الباب ويصعد إلى القطار. خفض رأسه لكي يمر من تحت ذراع أحد الواقفين. وفور انسلال مدحت من خلفه، أغلق موظف القطار الأبواب. هدر المحرك، واختفى رصيف المحطة من النافذة. كانت عربة القطار مغلقة دافئة. رأوا الموكب سائرًا على الطريق باتجاه القدس متعرّجًا عبر الوديان.

غرق مدحت في أحلام اليقظة على امتداد الساعات الثلاث التي تلت ذلك. فكر في

ما قاله هاني في رسالته عن تسميتهم أنفسهم سوريين، وتساءل عما يمكن أن يحدث بعد هذا. قد تنشب حرب من أجل الاستقلال. فما الذي ستفعله الحرب بنابلس؟ كان يعرف ما تفعله وكيف يعلّق زمن الحرب سرَيان القواعد المعتادة. قد تحرّره الحرب من سلطة أبيه. ستكون سورية حرة -وسيكون مدحت حرًا-. لاقى جميل نظرته، وغمز له بعينه. كانت الجبال خلف النافذة تقاطع أشعة الشمس فتغيّر الظلال العابرة ملامح وجه ابن عمه. ومن خلفه، كانت امرأة أجنبية جاثمة على المقعد. فإلام تؤدّي تلك الحرية؟ لقد كانت تيتا محقّة: إنه لا يعرف ما يريد. تداخلت صورة الملك فيصل حاكمًا على فلسطين مع رؤيته لنفسه في القاهرة، متزوّجًا لديه أطفال صغار. حاول البحث عن مصدر هذه الصورة، احتار عندما أدرك أنه يتخيل نفسه متزوجًا من ليلى.

كان صوت الطبول يصارع إيقاع المحرك. صاحت امرأة باللغة الإنكليزية: «هناك الكثير جدًّا من الناس». امتلأت النافذة رؤوسًا وأعلامًا. كان هدير الناس يصل إليهم مكتومًا مثل صوت شلّال عبر الوادي.

اعترض مدحت سبيل جميل بذراعه حتى يسمح للمرأة بالنزول من العربة قبلهما. شكرته كثيرات؛ وعندما انحنى لهنّ ورفع طربوشه عن رأسه، ضربه جميل على صدره بظهر يده وضحك. كان النزول من العربة أشبه بالنزول في عاصفة رعدية.

صاح رجل إنكليزي يضع قبعة: «مايكل، أليس هذا هو موكب الخليل؟ ظننت أنهم لن يصلوا إلا بعد ساعة من الآن».

ساروا خلف الحشد صوب المدينة القديمة. كان رجل أنيق المظهر يضع طربوشًا حاملًا غرامافونًا على رأسه، لكن موسيقى الغرامافون لم تكن مسموعة. ازداد الحشد كثافة وتباطأت حركته، ثم ظهر من أحد الطرق الجانبية حصان عليه رجل مكتنز الجسم له شارب صغير. كان الزرّان الأوسطان في صداره مفتوحين، فكشفت حافتا الصدار عن قميص أبيض منتفخ عند بطنه.

كانت ذقن الرجل محتقنة: «يا رفاق! كونوا مسالمين في سلوككم. يا رفاق!».

توقّفوا عند باب يافا خلف مجموعة شباب أوروبيين رفضوا التقدّم أكثر من ذلك. أمسك مدحت بذراع جميل.

«هل سندخل؟».

صاح: «بالطبع»؛ ثم اندفع عبر المجموعة تاركًا ذراع جميل لكي يصفّق، وحمله تيار الناس عبر قوس البوابة.

كان الأوروبيون قد تنحّوا جانبًا. ومع اعوجاج الموكب للدخول عبر البوابة، رأى مدحت أن ذيله كان مؤلّفًا من نساء عربيات. حملت أكثر النساء رايات ولافتات،

كالرجال. بل كانت في أيدي بعضهنّ رايات الشريف حسين. كانت النساء تصحن بشيء ما.» فلسطين أرضنا» كانت العبارة الأولى؛ لكنه لم يستطع تمييز العبارة الثانية. وعلى الفور، حملهم تيار الناس في اندفاعه. سرعان ما وجدوا أنفسهم يمرّون عبر البوابة ويصيرون في الهواء الطلق في الناحية الأخرى (جذب مدحت كم ابن عمه وقال له: «ابق معي»). شاهدا مزيدًا من النساء على الشرفات في الأعلى. تنثرن المناديل الملونة فوق الرؤوس.

بدأ درويش صوفي يرقص إلى جوار مجموعة من ضاربي الطبول. كان مرتديًا ثوبًا طويلًا وسترة مخملية عتيقة. جسده يدور مرّة إلى هذه الناحية ومرة إلى تلك، فيدور ثوبه معه وينفتح وتتلوّى طياته. وكان يهز رأسه أمامًا وخلفًا موقّعًا بقدميه على الأرض. علت غمامة من غبار. صار الموكب المندفع جمهورًا ملأ الفراغ من حوله. بدأ التصفيق، ثم طغت أغنية على أغانٍ كثيرة متناثرة وانتشرت أصداؤها في المكان. أفلت مدحت كم جميل عندما دفعه أحدهم إلى مقربة من الدرويش. ازدادت سرعة قدمي الراقص، ثم ازدادت، وصار مدحت قريبًا منه إلى حد جعله قادرًا على سماع صوت الرجل: «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله».

ثم حدث أمر غير متوقّع. أحس مدحت انفجارًا كليلًا في صدره وهو يتحرك نصف مدفوع من الناس على الجانبين. كان شيئًا قريبًا من البهجة، لكنه أكثر عمقًا، أكثر صفاء. بدأ يحرّك رأسه مع الإيقاع النابض، وتحرك لسانه في فمه المغلق. كان غير قادر على رؤية قدمَيّ الدرويش، لكنه وقف ينظر إلى دورانه بتلك السلاسة الميكانيكية كأنه مدفوع بعزم معصميه المرفوعين المتوتّرين. قبضت يد على عنقه.

«هل كل شيء على ما يرام؟».

كان شعر جميل متلبّدًا، وجبهته لامعة. زبد على شفته العليا. «انظر، انظر. دبكة».

أخلى الدرويش المكان أمام جمعٍ من الفلاحين. كانت أذرعهم متشابكة؛ وكانوا يثبون راقصين. كانوا يندفعون، واحدًا تلو آخر، إلى مركز الحلقة الخالية من الناس، فيقفزون ويلوّحون بسيقانهم. انطلق صوت المزامير من مكان ما. نظر مدحت إلى ساقيه. كان حذاؤه مغبرًّا. أحس دفعة في صدره.

«هل تحسن الدبكة؟».

«لا، لا أعرف». ضحك ضحكة لاهثة، وتراجع إلى الخلف.

كانت مجموعة النساء في آخر الموكب قد تحرّكت فصارت تحت القنطرة. ومع تزايد الزحام، تجمعت النساء عند الجدار، ورحن يصفّقن. لفتت انتباه مدحت واحدة في أول مجموعة النساء. لم تكن تصفّق. كانت تنظر إليه مباشرة. بل كانت تحدّق فيه. كانت واقفة

في سكون تام. حاول إبقاءها في مرمى نظره، في حين كان كل شيء من حوله يتحرّك؛ ثم عرف أنها لاحظت نظرته لأنها استدارت عنه سريعًا. ظل جسدها كلّه ساكنًا تمامًا. شقّ مدحت طريقه في اتجاهها حتى من غير أن يفكّر في جميل. صحيح أنها لم تحرك رأسها، لكنه استطاع رؤية بياض طرف عينها ينقلب سوادًا عندما اتجه بؤبؤها إليه. من غير العين الأخرى، كانت هذه العين الوحيدة كأنها شيء، فلم ينشأ لديه إحساس بأنه يلاقي نظرة شخص آخر. كان يراها تنظر إليه، فحسب. اعترض جسدٌ مجال نظره. دفع الشخص الذي أمامه حتى يرى المرأة من جديد فتلقى ضربة على كتفه عندما تحرّكت حلقة الراقصين. بدأ الجمع يتحرّك. اندفعت صوبه جموع الحجيج عند البوابة؛ وعندها استدارت المرأة. لقد عرفها: فاطمة حمّاد؛ العينان وطرفاهما المنحدران قليلًا. على الرغم من أنه لم يتمكّن من رؤية بقية وجهها، فقد كانت العينان كافيتين لاستحضارها كلها.

كان التيار شديد القوة. جرفه إلى جهة اليمين، وذابت فاطمة في جدار النساء. استدار مدحت لكي يخبر جميلًا بما رآه، لكن كل شيء كان في حالة حركة. لم يكن ابن عمه هناك. وقف ينظر إلى الوجوه العابرة.

أتاه صوت: «مدحت! مدحت!».

إنه صوت باسل مراد. كان يلوّح له بيده واقفًا على مسافة بضع أقدام منه، على مسافة نحو سبعة أجساد، أو ثمانية. كان القسم من الحشد الذي فيه باسل يتحرك أسرع من الناس الذين من حول مدحت، فانجرف إلى الأمام مع اندفاع الموكب. حاول مدحت مقاومة التيار، وفكّر في الجري عائدًا إلى باب الخليل، إلى حيث النساء.

استدار فرأى أن النساء لم يعدن في مكانهن السابق. نظر إلى التيار المندفع أمامه وهو يعوجّ حتى يمر عبر الفسحة التي تزداد ضيقًا. كان الناس يدفعونه من الخلف. لا بد أن جميلًا هناك، في مكان ما. لوّح بيده في جهة الموضع الذي ناداه منه باسل، لكنّه لم يره هناك. ما عاد أمامه شيء يفعله غير الاستسلام. تقدّم سائرًا مع الجموع.

قبل بزوغ الفجر، كانت فاطمة ونزهة قد التقتا برهان في الصالة لكي يلوحوا لزوار النبي موسى عند انطلاقهم. كانت أمهم في اللد. لن تعرف شيئًا. سمعوا من الشوارع المظلمة صوت المزامير والطبول. وعلى الفور، تذكّرت فاطمة مهرجان النبي روبين. رفّة من ذكرى: الإثارة الناعسة، والاستيقاظ باكرًا في الخيمة، وسماع الموسيقيين يدوزنون آلاتهم.

ضخّمت الظلمة وقع أقدامهم. ازداد صوت الموسيقى ارتفاعًا مع سيرهم في الشارع الشمالي إلى أن ظهر لهم الحشد الراقص. قبيل الفجر، كانت المصابيح مرفوعة بالأيدي وعلى العصي، وكانت نيرانها تتهادى كأنها نجوم مندفعة غائمة.

كانت المجموعة الأكبر من المودّعين مكوَّنة من نساء المدينة. انضمت الأختان إلى المجموعة؛ وبدأت نزهة تزغرد متردّدة. ضحكت ونظرت إلى الخلف باحثة عن فاطمة. ظهر برهان لحظة عند حافة الجمع، ثم اختفى. ثم نفض عنه تردّده ودخل سرب الرجال المتفرق. وقف متباعد القدمين، وارتفعت يداه مصفّقتين.

«فاطمة؟ أهذه أنت؟».

«مين؟».

«أنا منى الجيّوسي. هل عرفتِني؟».

زوج من العيون، وأهداب شاحبة.

«منى؟ عرفتك، طبعًا! كيف حالك؟ لم أرك منذ أيام المدرسة».

كان الناس يغنّون ويدقون بأرجلهم على الأرض: «*اكشفْ عليّا، يا طبيب...*».

قالت منى: «تعالي معنا. سنذهب بالقطار من طولكرم. ستكون الطرق مزدحمة».

«إلى القدس؟».

«الرحلة آمنة. سنذهب للفرجة فقط. تعالي».

قال صوت رقيق: «ينطلق القطار بعد عشرين دقيقة».

قالت منى: «إذا كنت تريدين... فاطمة». بدأت المجموعة حركتها. أمسكت فاطمة بذراع أختها. نشقت نزهة بأنفها.

قالت نزهة: «إذا سأل، سأقول إنك ذهبت لتقديم المساعدة في المدرسة».

نظرت فاطمة باحثة عن برهان. كان ينظر في اتجاه آخر ويلوّح بمنديل سرقه من خزانة أمه.

كانت مجموعتهم اثنتي عشرة فتاة على رصيف المحطة. وفي عربة القطار، جلسن في ثلاثة صفوف من المقاعد الخشبية بينما بدأ الفجر يلوح عبر النوافذ.

خدّرت الإثارة ذهن فاطمة. مع أن نزهة ستفي بوعدها حتمًا، فقد يُخبر برهان أباهم الذي سيخبر بدوره أمهم... بالطبع. كانت فاطمة تخشى جانب أمها. لم يكن أبوها صانع القوانين الحقيقي في البيت؛ كان كأنه القانون نفسه، وكان اسمًا تهدّد وداد أطفالها بغضبه حتى تشيع الخوف في نفوسهم. حتى وقت قريب، كانت فاطمة مقتنعة بأسطورة غضب أبيها العظيم، وكانت تصمت عندما يدخل البيت. لكنها سمعت صوت أمها في الصباح الذي أعقب الاستقبال الذي أقامته مدام عطوان. كان صوتها آتيًا من مكتب أبيها، مشحونًا بالعاطفة.

كان أبوها يقول: «أعرف، أخبرني حسن. أنا من نصحه بالبيع».

«أأنت الذي نصحه بالبيع؟».

«أجل».

«فظيع! الرجال يطلبون يد البنت ليل نهار، وأنت تريد رفضهم جميعًا».

«ليل نهار؟».

«أعرف قصة مدحت كمال. لقد كنت في البيت. لا تتظاهر بالدهشة».

«كفى».

«أتقول لي كفى على الرغم من أنك قرّرت ألا تخبرني بذلك أيضًا؟ لقد دعتنا جدته لتناول القهوة عندها. يا الله، يا الله، من لديها زوج مثل زوجي؟» صوت اصطفاق كفين.

«قلت لك كفى».

«إنها مطلوبة جدًّا. لن تظل مطلوبة إلى الأبد. هل تريد تزويجها أميرًا؟ قل بالضبط، من هو الزوج المثالي في نظرك؟ يا نمر، إنها ليست جميلة جدًا. وهناك آلاف الفتيات الجميلات. الجمال ليس نادرًا. لكني أعرفك، وأعرف أنك ستنتظر إلى أن يتهاوى اسم العائلة وينساه الناس. أتريدني أن أموت؟ أهكذا هو الأمر؟ تريدني أن أموت... تريد أن تقتلني؟ ما من امرأة غيري لديها زوج مثلك».

أدركت فاطمة في وقت لاحق أنها شهدت ثغرة في تحالف والديها. كان هذا إشارة إلى أن أمها ليست، بالضبط، ناقلًا لمشيئة أبيها. أدركت أن التهديد بعبارة «سوف يغضب أبوك» قد لا يكون صادقًا على الدوام. منذ ذلك الوقت، صارت فاطمة تخشى غضب أمها، لا غضب أبيها. لم تعد تخشى القانون نفسه، بل حارسة القانون. بدأت تنظر إلى أبيها وتفكّر في أنها خُدعت بسهولة شديدة. كان يبدو لها منشغلًا بحياته خارج البيت إلى حد يجعله غير منتبه إليهم كثيرًا. صحيح أنها اجتذبت قدرًا أكبر من اهتمامه خلال السنوات الماضية، لكن رغبته الآن في تأمين زيجة حسنة لها كانت أشبه بامتداد لدور القاضي الذي يلعبه: كان ينظر إليها عن بعد.

قالت منى: «لا تخافي. لن نظل هناك أكثر من بضع ساعات... حتى نسمع الخطابات فقط».

في ضياء الفجر، لاحظت فاطمة غضونًا دقيقة حول عيني صديقتها.

قالت فاطمة: «هل أنت متزوجة؟».

قالت منى: «لا». ابتسمت عيناها... «لقد صرت معلمة في مدرسة الفاطمية. وأنت، هل تزوجت؟».

أدارت فاطمة وجهها صوب النافذة: «لا، ليس بعد».

ظللن منتظرات على رصيف المحطة بينما كانت العربات تفرغ ركابها. ظهرت

زعيمة في مجموعتهن: امرأة محجَّبة أكبر منهن سنًا معها مظلّة بيضاء حملتها أمامها كأنها صولجان. راحت المرأة توجّه حركتهنّ في الشارع.

أمسكت منى بيد فاطمة: «لقد اشتقت إليك».

وضعت فاطمة يدها على صدرها تعبيرًا عن مشاعر مماثلة ففاجأها عنف نبضات قلبها.

فاضت الطرق بالناس. لا تزال ريح الليل في الهواء. تجمعت النساء معًا. تمنّت فاطمة لو أنها انتعلت حذاء أكثر دفئًا. وعند باب يافا، تحت برج الساعة، كان تيار الناس المندفع يصب في بحر كبير؛ وكان من يركبون الخيول قد ترجّلوا وراحوا يقودون خيولهم من أعنّتها. ضجيج هائل. أدركت أنها أخطأت تمامًا عندما ظنّت أن هذا سيكون شيئًا شبيهًا بمهرجان النبي روبين. كان ذلك مهرجانًا على الشاطئ المفتوح؛ وكان فيه أطفال: لكن هذا مهرجان للرجال. لم تر قبل الآن هذا العدد كلّه من الرجال. راحت تنظر إلى حركاتهم الخشنة، وإلى أفواههم ورقابهم المكشوفة. في عقلها، صار الارتحال إلى النبي موسى وترك البيت من أجل الزواج شيئًا واحدًا. كلاهما محفوفٌ بالمخاطر، وكلاهما منفِّرٌ. ضمت يديها معًا من تحت منديلها. وراح إبهامها الحر يعبث بعقدة حزامها بحركة عصبية.

«قفن عند الجدار، يا أيتها السيدات».

تبعن المظلّة البيضاء إلى حيث الظلّ تحت القنطرة.

قالت منى وهي ترفع يديها لكي تصفق: «لم أتوقّع هذه الكثرة».

نظرت فاطمة إلى الرجال. أحسّت بأنفها يسيل، فمدّت يدها تحت حجابها.

كان ذلك لحظة رأت مدحت كمال. الذي ظاهرًا لها لأن من أمامه حيّز خالٍ يرقص أحدهم فيه الدبكة. عرفت شكله لأن برهان رآه مارًا عند بيتهم منذ عدة أسابيع، فناداها لكي تنظر من النافذة. كان الآن يضحك. رافعًا يديه لكي يدافع عن نفسه في مواجهة شاب آخر له أنف مستقيم كالسهم، شاب أطول منه قليلًا وأكثر سمرة. كانت رؤية مدحت بلسمًا لصدغَيْ فاطمة. لم يكن رجلًا مخيفًا. سمرة وجهه النحاسية، وابتسامته. وقفت تنظر إليه. على نحو ما، كان موجودًا في المشهد، ومنفصلًا عنه، مثلها، يراقبه. كان في مظهره شيء من الحرية، في ضحكته تلك. تكلم مع رفيقه. عادت الضحكة إلى وجهه، وانفرجت أساريره.

ثم غزا ضرب الطبول صدرها من جديد، وداهمتها فكرة باردة، فكرة أن ذلك كله يمكن أن يكون من اختراعها. أن يكون شيئًا أدى إليه، كالعادة، التوق الذي لا يفتأ يعاود مخيلتها. لم تكن تعرف مدحت كمال. سمعت باسمه، وركّبت صورة له مما سمعته عنه

من برهان. كان واضحًا أنها منحته تلك الشخصية وحرّرته من قيود المشهد الذي من حوله. هذا ما ميزه وما جعلها تراه مختلفًا، بشريًا، في بحر الرجال هذا.

استدار قليلًا أمام ضغط الراقصين، وظهر على وجهه عبوس بسيط شد حاجبيه الضاحكين إلى الأسفل -ضياء الشمس شديد على قسمات وجهه- فعرفت أنه التقط نظرتها. فوجئت فأشاحت بوجهها جانبًا. ثم لم تستطع منع نفسها فعادت تنظر إليه من زاوية عينها مثلما يلقي مخلوق نظرة حذرة على ظلّه. كان مستمرًّا في النظر إليها. وهي كانت واثقة من أنه عرفها على الرغم من الحجاب على وجهها. رأت الآن أنه متجهٌ إليها، من غير ريب. إن لكل فكرة ظلًا. خطر لها أن من المحتمل أن يكون تحديقها فيه هو ما شده إليها. لقد حرّضته على ذلك؛ ومن المستحيل أن يكون قد عرفها. لم تكن إلا امرأة دعت رجلًا إلى الاقتراب منها. تناهبتها الاحتمالات، ففعلت الأمرين معًا في اللحظة الأخيرة: نظرت إليه مشجعة، بعينيها الاثنتين. ثم استدارت وانسحبت إلى وسط المناديل والفساتين والمظلات، إلى وسط بقية النساء.

بدأت مشاجرة أمام النادي العربي عندما ظهرت كؤوس ورقية من فوق رؤوسهم. أمسك مدحت كأسًا، فانسكب بعض المحتويات وجف على أصابعه جفافًا سريعًا، وتحول إلى شيء لزج مقرف. كانت في الكأس قليل من عصير الليمون. سال اللعاب في فمه. فتح فمه: كان السائل دافئًا، حلوًا.

كانت الجدران مكتظة بالمحتفلين. وعلى شرفة النادي العربي، كان هناك صف من رجال بطرابيش يرتدون بدلات بيضاء، ويحملون أوراقًا صغيرة مثبتة على ربطات أعناقهم. لوَّح أحد الرجال بعلم لكي يلفت انتباههم. ومن جديد، ظهر باسل على مسافة بضعة أشخاص إلى الأمام. كان يلكم الهواء بقبضتيه ويصيح.

ارتفع صوت الأنشودة وقد عزّزته أصوات جديدة: «فلسطين بلادنا! واليهود كلابنا! فلسطين بلادنا! واليهود كلابنا!».

سرت الكلمات بين الناس، تناقلتها الأفواه. «فلسطين بلادنا، واليهود كلابنا». اخترقت الكلمات أذني مدحت، واجتاحت دماغه. سرعان ما فقد إحساسه بالضيق، بالعرَق والاتساخ، بعطشِهِ الذي أيقظه عصير الليمون. صارت أجسادهم جسده. ومن جديد، أحس في صدره باندفاع تلك الفرحة الغريبة. كان الإنشاد نابضًا في صدره من غير كلمات. وفي هذه المرة، انتشر الإحساس حتى بلغ أطرافه فراحت تتحرّك مستجيبة لما حولها. كان يصفق، وتضرب قدماه الأرض.

التفت مدحت فرأى قبضة يد تهوي على وجه شخص عند البوابة؛ ورأى رُشاشًا داكنًا يتناثر على الجدار. زال عنه خَدَره في تلك اللحظة. صعد إلى فمه طعم معدني.

آلمه صدره، وآلمته أذناه. أوقد الاصطدام شعلة ذعر. ترنّح أحد الأشخاص، وتغيّرت وجوه أخرى... صارت متغضنة كأنها وضعت أقنعة. تدفق البصاق، ولمعت الأعين، وتصلّبت الأطراف فصارت هراوات. كانت الكلمات حقيقية في تلك اللحظة، حقيقية بكل ما فيها من عنف. عاد جسده إلى نفسه؛ وأحسّ على ظهره وذراعيه بوخزات أوبار معطفه الصوفية عبر قميصه الذي بلّله العرق فلم يعد يقيه إياها. وأخيرًا، بدأ الخطيب الأول على الشرفة إلقاء كلمته، وانقطع ضرب الطبول مثلما تهمد نسمة ريح.

من خلف الخطيب، نُشرت راية عليها صورة تشبه الأمير فيصل. نظر مدحت خلفه من جديد. كان مشهد العنف الذي رآه قد انتهى. لم يعد يُرى رُشاش الدم على الجدار؛ لكن برج الساعة القائم عند باب حيفا كان بعيدًا عنه؛ وكان هناك بشر كثيرون في طريقه. كم كان مخطئًا عندما ظن أنه قادر على العثور هنا على جميل!

بدأ الجمع يتحرّك من جديد. كان الجدار الأقرب إلى يمينه. شق مدحت طريقه بين الناس... ذراعان متعرّقتان تقابلان ظهورًا متعرّقة. «اعذروني، اعذروني». اتخذ وجهه هيئة شخص موجوع، لكن هذا لم يفده في تسريع عبوره. كان الجدار خشنًا، شديد الرطوبة. وكان عاثرو الحظ الواقفون عنده مضغوطين عليه ضغطًا شديدًا جعل مدحت يدرك السبب الذي دفع ببعضهم إلى تسلقه. فتى صغير يبكي. أخرج مدحت منديلًا من جيبه ومده إليه، لكن الصبي لم ينتبه إلى نسيج المنديل القطني الذي تدلى أمام وجهه. ظلت الدموع تفيض من عينيه وتقطر منهما.

عاد الإنشاد من جديد. ومن خلف الصبي، رأى مدحت فتحة في الجدار.

«عمّو، خذ المنديل».

مد يده فمس ظهر الصبي. أجفل الصبي وضربه على بطنه. زفر مدحت وقد فوجئ بالضربة. نظر إلى وجه الصبي المتقلّص الذي استدار عنه من جديد، ثم استنشق نفسًا عميقًا واندفع إلى تلك الفتحة التي في الجدار. كانت الفتحة مؤدّية إلى زقاق مزدحم بالناس يفضي إلى ساحة. لكن الزقاق كان منحدرًا فسمح له برؤية أن الحشد الذي فيه غير ممتدٍ مسافةً بعيدةً. شقّ طريقه عبر الناس، وظلّ يتظاهر بالألم: شفتاه منحنيتان إلى الأعلى مثل وجه صبي باكي.

برد العرق على ظهره في هواء الشارع فشهق. كانت أضلاعه تؤلمه. قاده الزقاق إلى العبور من تحت قنطرة ثقيلة؛ ولم يمضِ وقت طويل حتى لم يعد للحشد من أثر غير ذبذبات خافتة في الحجارة. أسند ظهره إلى الجدار. أشاع الجدار برودة لطيفة في رقبته. رفع رأسه فرأى رقعة من سماء زرقاء محبوسة بين الأبنية من حوله.

سمع صوتًا جديدًا آتيًا من الجهة الأخرى. إيقاع آخر، قرع طبول آخر، يقترب منه.

اتضح له أن قرع الطبول كان إيقاع مشية عسكرية. واحد، اثنان. واحد، اثنان. أقدام تضرب الأرض الحجرية. ظهر الزوج الأول قادمًا من عند منعطف الشارع. ثم مروا به كأنهم جيش من أشباح. لم يلتفتوا إليه. واحد، اثنان. واحد، اثنان. سترات بلون بيج، وربطات عنق، وبنطلونات قصيرة. أحذية عسكرية؛ واحد، اثنان. كان أول ما فكر فيه هو أن البريطانيين أتوا بجيش لحماية المهرجان. لكنه نظر إلى الوجوه فأدرك أنهم ليسوا من الإنكليز، ولا جنودًا من المستعمرات الهندية. تذكّر ما قاله باسل عن «جيش صهيوني». تابع الجنود مرورهم به. لا بد أنهم مئات. لم يكونوا رجالًا فقط، رأى شعورًا مموّجة، مردودة إلى الخلف، مثبتة بالدبابيس. كانوا سائرين جميعًا على إيقاع واحد، بنادقهم على ظهورهم، وأحزمة الطلقات على جذوعهم. واحد، اثنان؛ كانت أقدامهم تصفع الأرض. انعطف الزوج الأخير عند الزاوية. لقد ذهبوا.

جرى مدحت هاربًا. لو قاتل في جيش من الجيوش، فلعلّه كان يدرك كيف يكف هذا العدد الكبير من الناس، كلهم معًا، عن كونهم يشبهون البشر. لقد سمع من قبل عن هذه الحشود، وكتب عنها في الجامعة مقالات تناولت الثورة الفرنسية، ورأى صورًا لها، وسمع أخبارًا ـ لكنه لم يكن يومًا في واحد منها. ما أخافه أكثر من أي شيء آخر، وما جعله يرتعد عندما تحول سَيره إلى ركض وسمع أصوات صيحات من خلفه، كان ذلك الإحساس الذي أتاه من قبل. حمى الوحدة تلك، هناك، في النادي العربي.

خرج من باب النبي داوود، ومر بعدد من رجال الشرطة عند أسوار المدينة كانوا ينظرون إلى جهة الداخل ويؤرجحون أسلحتهم. كانت شمس الظهيرة حادة. وكان صف سيارات التاكسي ممتدًا طيلة المسافة حول باب العامود. تضاءل أثر الأدرينالين عندما رأى أن عليه أن يسير تلك المسافة. لكنه لم يخطُ إلا خطوات قليلة قبل أن يجري صوبه شرطي على رأسه خوذة. كانت يد الشرطي ممسكة ببندقيته، تثبتها في مكانها.

«أريد تفتيشك».

«عفوًا».

رفع الشرطي بندقيته.

رفع مدحت يديه.

«أريد تفتيشك».

«لكني ذاهب».

«ابقِ يديك مرفوعتين».

أيقظت يدا الشرطي الخشنة الألم في أضلاعه. ضغطت يداه على المنطقة المحيطة بحزام مدحت، ثم انحدرتا تتحسّسان كل ساق من ساقَيْه، وتتحرّيان نهايتي بنطلونه.

طلب منه أخيرًا أن يخلع حذاءه. كان جورباه غارقين في العرق. آلمه أسفل قدميه عندما داس على الأرض.

«لا بأس. يمكنك الذهاب».

ظهرت سيارة تاكسي في الطريق. صفّر لها مدحت، ولوح بيده. جلس في مقعدها الخلفي وقال لاهثًا: «نابلس».

قال السائق: «علينا أن نذهب عبر الطريق الأطول».

«ماشي، اذهب في الطريق الأطول».

أغمض عينيه وأراح رأسه على المقعد الجلدي. أبواق سيارات، وصيحات: صار تنفسه منتظمًا: صار قادرًا على النوم. وفي احمرار أجفانه المغلقة، ظهر له جميل. ظهر جميل ملقى في بركة من أجساد. انفتحت عيناه.

كان نسق من الزوار القادمين إلى المدينة سائرًا في طريق موازٍ لطريق السيارة. وكان راكبو دراجات إلى جانب الطريق يرفعون أكفهم إلى جباههم.

قال سائق التاكسي: «ينبغي أن يحذّرهم أحد». انحنى فوق المقوَد حتى ينظر عبر زجاج السيارة.

قال له مدحت: «صحيح».

كانوا يقرعون طبولهم. استحضر مدحت صورة جديدة لجميل: تخيّله أطول كثيرًا من بقية الناس، سائرًا يشق طريقه عبر الجموع كأنه سبّاح مبتل كلّه يخوض في الماء خارجًا من بحيرة.

قالت تيتا: «ماذا حدث؟».

«أريد ماء».

«ماذا حدث؟».

«لست أدري. ما كان علينا أن نذهب. لقد كانت فكرة غبيّة».

«أين جميل؟».

تجرع مدحت الماء، ثم مسح فمه.

«هل تركته هناك؟».

«لا، يا تيتا. لقد كان الزحام شديدًا. لن تدركي ذلك».

«ماذا؟ ما هو الشيء الذي لن أدركه؟».

«كان حشدًا كبيرًا، يا تيتا. لقد كان... لقد كان...». جلس ووضع رأسه بين يديه...

«لن يصيبه شيء».

«علينا أن نخبر أم جميل».

«لماذا نثير قلقها؟ انتظري. انتظري قليلًا».

نظرت إليه تيتا. كانت تلك الكلمة «قليلًا» قبولًا منه. لم يلبث أن نهض واقفًا، معترفًا بهزيمته.

قال لها: «يلّا».

كانت نظرة واحدة إلى وجه أم جميل كافية لأن يعرف مدحت أنه لن يخبرها إلا بحقيقة مخفّفة. جلسوا إلى طاولة المطبخ، فحاصرته المرأتان بالأسئلة. وفي غمرة إجهاده، وجد نفسه مضطرًا إلى ذكر بضع حقائق مترابطة وبضع صور مما رآه: الجموع، والأعداد؛ والحَر، والإنشاد؛ انفصاله عن جميل، فراره -أكد لهما على هذا- بأن من الأفضل أن يسير مع الحشد حتى يعثر عليه. ثم إدراكه بعد ذلك أن الأمر مستحيل؛ والخطابات التي صار شبه عاجز عن تذكّرها؛ وأعلام فيصل؛ وفراره. فتحت المرأتان فميهما كأنهما طفلتان جالستان أمام الحكواتي. وبعد برهة، رفعت أم جميل يديها وشدّت على شفتيها. لاحظ مدحت أن رأسها قد بدأ يرتعش، فتمنى لو أنها لم توقفه عن الكلام... تمنى أن يصحح ما قاله وأن يتدخل في مسار تخيلاتها. الآن، لم يعد مدافعًا عن نفسه في مواجهة تيتا، فقد صدمته بقوة كبيرة فكرة أن ما فعله كان فظيعًا: لقد ترك جميلًا. كانت المعلومات التي ذكرها لهما (حتى في نسختها المخففة) كافية لتوبيخه على فعلته.

قالت تيتا: «سأغلي ماء».

رمت تيتا على الطاولة حزمة ميرمية مجففة. التقط مدحت أول ورقة على ساقها.

«لم يحدث شيء. أنا متأكد من هذا».

تجمّعت الدموع في عيني أم جميل، ثم تقاطرت على غضون وجهها.

قالت تيتا: «لم يحدث شيء».

غلى الماء. انسكب الشاي سائلًا ذهبيًا. كان تنفّس أم جميل مضطربًا. صبت تيتا ثلاثة فناجين، وراحت تبحث في خزانة المؤونة عن خبز وعن مرطبان كرات اللبنة المحفوظة في زيت الزيتون. وضعت بضع كرات في طبق. راح مدحت يمسح الزيت بحركة بطيئة وينظر إلى جريانه على بورسلان الطبق.

كانت الساعة قد قاربت السابعة مساء عندما سمعوا صوت الباب. صاحت أم جميل: «أوه، ماما».

صرّت قوائم كراسيهم عندما تحركت على الأرض. كانت عين جميل متكدّمة، وشفته مجروحة، وياقة قميصه مسودّة من العرق والغبار. أمسك بطرف الخزانة فجأة كأنها موشكة على السقوط.

قال مدحت: «أوه، يا إلهي».
قال جميل: «أنت هنا».
حاول مدحت أن يقول شيئًا. أصابه الذعر عندما وجد أنه عاجز عن ذلك.
قالت أم جميل: «ماذا أصاب وجهك؟».
«أصابني مرفق واحد من الناس...». غمز بعينه... «كانوا يرقصون. أين ذهبت؟ لقد أضعتك. كنت أحاول العثور عليك».
قال مدحت: «إنني آسف ـ الشرطة، لقد، لقد ذهبت».
قالت تيتا: «لقد تركته! تركته يتلقّى الضرب».
قال جميل: «لقد كان محقًّا».
قالت أمه: «اجلس، يا حبيبي».
لم يجلس جميل: «كان ذلك سيئًا. لقد توجهوا مباشرة إلى حي اليهود». نظر إلى عيني مدحت، ففهم مدحت أن هناك المزيد مما لم يقله جميل... «أغلق البريطانيون الأبواب. كان عليَّ انتظار حلول الظلام حتى أتسلّق السور».
«وهل باسل...؟».
«لم أر باسلًا. كنت أحاول الخروج من هناك. صدقًا، ليست لدي أية فكرة عما جرى».
«أنت مصاب!». صرخت أم جميل بهذا وهي تشير إلى كتفه. شهقت أم طاهر.
قال جميل وهو يقرّب كتفه منه: «لا، يا ماما. هذا ليس دمي».
حل عليهم الصمت.
قال مدحت: «ما كان ينبغي أن نذهب».
صرخت تيتا مكرّرة كلامه: «ما كان ينبغي أن تذهبا». بدت كأنها تعارضه.
رفع جميل يده قائلًا: «لا، لا... كان ذهابنا أمرًا صحيحًا. كان مهمًا أن نرى هذا».
كانت النساء قد خرجن من الحشد المضطرب وانسحبن سريعًا واحدة بعد أخرى، في نسق واحد.
كان الاضطراب أكثر شدّة خارج باب يافا. شقّت النساء طريقهنّ إلى أطراف الحشد. جرت فاطمة التي أفقدها الذعر صوابها هاربة من الشمس الحارّة والتجأت تحت مظلة أمام صيدلية كريستاتس. لحقت بها بضع نساء ممسكات حجبهن بأيديهن حتى لا تنزلق عن رؤوسهنّ. تجمّعن إلى جوارها عند زجاج الصيدلية. كان يوم أحد، وكانت الصيدلية مقفلة. وواجهتها صورة للسكون. أظهر نور الشمس الغبار المتراكم على صف من زجاجات الدواء الخضراء. كان الظل مطلقًا خلف المساحة المضلعة التي

ألقتها المظلة. ثم حجبت الظلمة الضياء المغبر، وعلت صيحات إنكليزية فوق ذلك الضجيج. أتى نحو عشرة رجال شرطة مهرولين في الشارع، وعلى رؤوسهم قبعات ميدانية مدوّرة حمراء. تردّدوا عندما انبعث صراخ مرتفع من عند باب الخليل. في ذلك الاضطراب كلّه، كان صعبًا تمييز أي عنف حقيقي - إلى أن أمسك شخص واقف على الهامش بقميص شخص آخر، فاندفع إنكليزي طويل القامة يشبه الفقمة بأنفه الثقيل وكتفيه المنحدرين وجرى شاهرًا سلاحه.

قالت قائدة الفتيات: «يلا، يا بنات». رفعت مظلّتها فوق اثنتين من رفيقاتها... «إلى سيارات التاكسي».

سرن معًا في الطريق، ثم توزّعن على السيارات. غطّت فاطمة وجهها بكفيها وقرأت آية الكرسي. ثم صرخت فجأة: «أنا لا أحمل نقودًا».

قالت منى: «لديَّ نقود. إنني آسفة. لم أكن أعرف. لو كنت أعرف، لما أخذتك معي».

«أنا بخير. الحمد لله. كلنا بخير».

كانت فاطمة أول من أوصلتها سيارة التاكسي إلى بيتها. استعدّت لمواجهة أمّها، ولصياغة نسخة من الحقيقة تكون، على الأقل، غير محرجة كثيرًا لها... فكيف يمكن أن يصدّق أي شخص كذبتها عندما تصل إلى البيت مكسوة بالغبار هكذا. وقفت في الممر، وأصغت. لكنها لم تسمع شيئًا. لم تعد أمها بعد.

غسلت وجهها في الحمام. ثم خلعت ملابسها كلّها وغسلت جسدها كله. أصوات الحشد لا تزال تدوي في أذنيها. صور من المسيرة، ومن الشغب الذي جرى... بحر الرجال الزاخر... رجال مندفعون في ذهنها؛ ومن بينهم، انبثقت قناعة نحتتها أشكالهم فذابت في الفضاء وصارت شيئًا صلبًا، واضحًا.

كانت نزهة مستلقية على بطنها في غرفتهما. كانت تقرأ مجلة.

«هل برهان هنا؟».

«أوه، لقد عدت. أجل، إنه هنا. لكنّه لن يقول شيئًا. كيف كانت الأمور؟».

«عنيفة».

بدت الدهشة على نزهة: «هل تريدين شيئًا من المطبخ؟».

هزت أختّها رأسها نفيًا. خرجت فاطمة من الغرفة، وهبطت السلم. همست عند باب مكتب أبيها: «بابا». لم تسمع صوتًا. رفعت صوتها قليلًا: «بابا».

سمعت صوت صرير الكرسي: «من؟».

«فاطمة».

قاوم الباب فتحه. كان عالقًا بالسجادة.

دفعته، فانفتح الباب على غرفة المكتب الحارّة بفعل أشعة الشمس. كتابان ضخمان مفتوحان على الطاولة التي كان أبوها جالسًا إليها. والغرفة مزدحمة بالوسائد. وكانت فيها رائحة خانقة قليلًا، رائحة ورق وأجساد. لمعة سكرية على زجاج النافذة.

«ماذا؟» كانت نظارتا نمر مرفوعتين على جبهته.

«هل أستطيع الجلوس؟».

بدا عليه قدر طفيف من الحيرة، لكنه لم يعترض.

قالت: «بابا... أريد أن أسألك عن...». مرت بإصبعها على ساقها، من فوق فستانها، ورفعت رأسها ناظرة إليه. لم تنظر إلى وجهه، بل إلى رف الكتب. تناهى من مكان ما صوت موسيقى آتيًا من غرفة أخرى... «أنا خائفة».

«خائفة؟».

أطرقت برأسها.

«آه، لا تكوني خائفة من ذلك. ولا تستمعي إلى ما تقوله أمك». نزع نظارتيه عن جبهته وجلس جانبيًا على كرسيه... «إنها لا تعرف. استمعي إليَّ، يا حبيبتي، سوف نجد لك زوجًا. لا تقلقي. سنجد زوجًا ثريًا. اسمٌ حسن. عائلة حسنة».

«وماذا عن مدحت كمال؟».

استنشق نفسًا لكي يتكلّم. ثم زفر الهواء من جديد. هز رأسه وقال: «يا فاطمة، عائلة كمال ليست بشيء».

«لماذا؟».

«لأني أريد لك شيئًا أفضل. أريد...». تحرّكت شفتاه سريعًا من غير صوت كأنه يلتقط الكلمات ثم يتخلّى عنها... «كيف تجرؤين على التشكيك في ما أقوله؟...». استطاع الكلام أخيرًا، لكن المفاجأة ظهرت في نبرة صوته... «أنا أبوك، حقًا، عيب، يا فاطمة. عيب».

«أنا آسفة. لكني خائفة. مدحت...».

قال نمر: «لماذا تريدين مدحت؟ هل طلبت منك أمك أن تقولي هذا؟».

«أخبرني برهان بعض الأشياء عنه. وأريد أن...».

قاطعها: «تريدين الزواج من مدحت كمال».

«أجل».

«لكنه ليس كفؤًا لك».

«لماذا؟ لماذا هو ليس كفؤًا لي؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

فتح فمه من جديد. لكنها أخرجته، هذه المرة، من مرحلة الغضب فدفعته إلى إجابة سريعة: «لأنه ليس جيدًا لك بما فيه الكفاية. ليس جيدًا بما فيه الكفاية لأن يكون صهري! من هي عائلة كمال؟ لا شيء...». ظهرت حشرجة في صوته... «يلا... أخبريني، ما الذي يعجبك فيه؟».

تردّدت فاطمة. يا له من يوم عجيب! يومٌ فتحَ ثغرات في أماكن لم تكن تتوقّعها. حاولت استحضار ملامح مدحت التي عرفتها، لكنها لم تكن ملامح كثيرة.

قالت: «يعجبني أنه كان في فرنسا. يدعونه الباريسي. وهو راقٍ جدًا. هكذا يقولون. يعجبني مظهره».

«هل يعني هذا أنك رأيته؟».

قالت سريعًا: «جعلني برهان أراه... من النافذة».

«عليّ أن أتكلّم مع برهان».

«لم يقصد برهان ذلك. الحقيقة أنني طلبته منه. أردت أن أعرف. إنها غلطتي لأنني سمعتك تتحدّث عنه مع ماما. تساءلت... كيف هو شكله؟ كان برهان معي، فأشار إلى النافذة عندما كان مارًا في الشارع -مع أشخاص آخرين- قال لي برهان إن ذلك الشاب هو مدحت كمال».

«وأنت قرّرت أنه يعجبك».

«أجل».

« يا ربي. يا ربي. من أين تأتي أموالهم؟».

«من الملابس. لديهم عمل في الملابس. في نابلس وفي القاهرة... على ما أظن».

«حسنًا، أظن أن مالهم سيكون في مأمن. ليست أموال الجميع في مأمن...». هز رأسه... «ينبغي أن أفكر في الأمر».

انزلق في جلسته واستند إلى ظهر كرسيه. مرّت بضع لحظات قبل أن تدرك أن تلك كانت إشارة لها بأن عليها أن تنصرف.

«شكرًا، يا بابا».

«يلّا».

كان هذا هو القرار الذي اتخذته فاطمة في الحمام. إن كانت قد اخترعت اختلاف مدحت عن غيره من الرجال، فإن شيئًا تخترعه يظلّ أفضل من شيء لا تعرفه أبدًا. سيكون اعتمادها على قناعة لا أساس لها، ومبادرتها إلى اتخاذ القرار، أفضل لها من أن تجد نفسها مُقادة من رقبتها قبل أن يُلقى بها في الهاوية... إلى البحر.

# .11.

كيف بدأت حالة الشغب والاضطراب؟ هذا هو السؤال الذي طرحه الناس. كانت كل قصة تخالف الأخرى، وكل شاهد عيان يقسم على أن شهادته أكيدة. فبحسب إحدى الروايات، بدأ العراك عندما أمسك فتى يهودي براية النبي ومزّق طرفًا منها. قالت روايات أخرى إن حامل تلك الراية بصق على امرأة أرثوذكسية متقدّمة في السن ودعاها صهيونية ابنة كلب. قصص أخرى لم تأت على ذكر الراية أبدًا، بل ركّزت على حادثة وقعت في ردهة فندق أمدورسكي حيث ضُرب بالعصي رجل عجوز حتى تكوّم على الأرض. قال البعض إن العجوز كان يهوديًا، وإن عربًا هاجموه؛ في حين قالت قصص أخرى إن الرجل كان عربيًا، وإن من هاجموه كانوا يهودًا من جيش جابوتنسكي. لكن القصص اتفقت على أن أحدًا أتى لمساعدة الرجل الذي كانت الدماء تنزف من رأسه على الأرض الرخامية، إلا أن المهاجمين سرعان ما طعنوا ذلك الذي حاول مساعدة الرجل، وأن أولئك المتوحّشين هم من ينبغي أن يتحمّلوا مسؤولية العنف الذي اندلع على الفور في الشارع، أمام الفندق. في ذلك العنف، قُتل أربعة من العرب وخمسة من اليهود؛ وكانت أعداد الجرحى أكثر من ذلك كثيرًا.

كانت طبيعة مدينة القدس القديمة من بين أسباب عدم اليقين. تتلوّى أزقتها وتتعرّج تعرجات غير متوقّعة، وتحول الدرجات التي في تلك الأزقة دون مرور أي حصان أو عربة. ثم إن حجارة مبانيها صلبة مصمتة إلى حد يجعل ما يحدث في أحد الشوارع غير مسموع في الشارع المجاور. وعلى الرغم من إنفاق البريطانيين شهورًا في وضع خريطة للمدينة، ومع أنهم كانوا يعملون على تقسيمها إلى أربعة أحياء من أجل الهويات الأربع الرئيسية فيها (تصميم سوف يصير ذائع الصيت ويفترضه الجميع أبديًا بحيث يصير العربي الذي يبيع -بعد خمسين سنة من ذلك- قلادات عليها أحياء المدينة الأربعة قد نسي أن ذلك التقسيم كان اختراعًا بريطانيًا جرى فرضه حتى يتمكّن الجنود من الحركة في الطرق بسهولة أكبر، وحتى يستطيعوا أن يقولوا لكل رجل يلقونه: أنت مسيحي، أنت يهودي، أنت أرمني؛ وذلك استنادًا إلى اسم أقرب شارع). لكن البريطانيين كانوا لا يزالون يتوهون في المدينة في شهر نيسان من سنة 1920، وكانوا لا يزالون يسألون

الناس عن الاتجاهات. ثم إن عددهم كان قليلًا جدًّا صبيحة مهرجان النبي موسى، مما سمح للقتال بأن يستمر ثلاثة أيام كاملة. فخلال تلك الأيام الثلاثة، ظل الريش المتطاير من الأسرّة يسقط من النوافذ شبيهًا بالثلج الذي سقط في الآونة الأخيرة، فيبلغ الأرض ويختلط بالدم الذي يشع لونًا أسود في المجاري، لكنه لا يلبث أن يسيل عند لمسه ويعود أحمر اللون. وعندما جرى فرض حظر التجول في نهاية تلك الأيام الثلاثة، كان لون الدم الأحمر قد عاد فاسودّ من جديد بفعل السخام، وكان الزعماء الذين قادوا الجموع واستحثّوها بكلماتهم التي ألقوها من فوق سطح النادي العربي على الاحتجاج على البرنامج الصهيوني مهما تكن التكلفة، أو دعوها إلى التزام الهدوء وحسن السلوك في احتجاجاتها، قد فروا إلى مصر وصدرت بحقهم أحكام غيابية بالحبس.

قال الأب أنطوان: «لم نعد في القرن الثاني عشر، أيها الأب. ولا يتوقّع المرء أن يجد نفسه في خضم حرب دينية».

رفع الأب لافينيو رأسه فمسحت لحيته سطح مكتبه. مد يده لكي يمسك ورقة ويمنعها من الإبحار إلى الأمام.

«هذه ليست حربًا دينية، يا أنطوان. لقد كانت حوادث شغب. من فضلك، لا تكن دراماتيكيًا. لم يمض زمن طويل على وجود البريطانيين هنا، لكني لا أعرف ما هي مشكلة هذا القلم!... كفّ الحبر فجأة على الانسياب منه».

ضغط على الورقة بسن قلمه فارتسم عليها خدش دقيق.

«أنا قلق على المسيحيين».

قال لافينيو وقد ظهر على وجهه ما يوحي بابتسامة صغيرة: «أأنت قلق على المسيحيين؟ هذا يذكّرني بشيء. سيكون اجتماع الجمعية الشرقية الفلسطينية الجديدة يوم الخميس القادم. فهل تأتي؟ سوف ألقي الكلمة الافتتاحية».

«وكيف هذا؟».

«لقد اختاروني رئيسًا لها». لمعت عيناه كأنهما نديّتان. لعل هذا بفعل الضوء.

«رائع. تقبّل تهنئتي».

«سوف نستضيف الاجتماع هنا، في الدير. لذلك، لا تذهب إلى نابلس، من فضلك... هذه المرة فقط».

«بالطبع، سأبقى هنا».

ضغط لافينيو على قلمه من جديد وقال: «ليكن الرب معك، أيها الأب». قال هذا من غير أن يرفع رأسه.

خفض الأب أنطوان رأسه لكي يضع قبعته، ثم سار خارجًا إلى حرّ الدير. كان ذلك في شهر أيار؛ وكان الحر قد اشتد كثيرًا في القدس. لزمت خطواته الحيّز الظليل الضيّق عند الجدران عندما سار في اتجاه المهجع.

على الرغم من أن قرار إقامة حكومة مدنية بريطانية في فلسطين كان قد اتخذ لتوّه، فقد ظل أنطوان مضطربًا نتيجة ما جرى من حوادث في مهرجان النبي موسى. لقد كان هنا، في القدس، عندما جرى الناس في الشوارع ووقفوا في تلك الباحة نفسها عند الضريح المقدّس وتدفّقت جموع الرجال مندفعة عبر البوابات الخشبية المرتفعة. انفتحت ثغرة في الحشد وصفعه منظر: نقّالة محمولة مائلة ميلًا خطيرًا. دم يسيل على الحجارة. جسد واحد من زوار الضريح... ذراع متدلية، ذراع رجل بريء قُتل في صلاته.

لم يحدث أبدًا أن شعر بهذا الاضطراب كله طيلة السنين التي أمضاها هنا. كان الفتيان العرب عند زوايا الشوارع يجعلون قلبه يخفق سريعًا. وعلى شرفة المستشفى في نابلس، بدأت أعصابه تخونه ويجد صعوبة في الكلام مع الناس. ظنّ أن من الأفضل أن يناقش الأمر مع مرشده. لكنه رأى الآن أنه كان مخطئًا؛ ولم يكن الألم الناتج عن هذه الغلطة هيّنًا عليه. صعد درجات السلم إلى غرفته مفكّرًا في الطريقة المثلى لمناقشة الأمر كله مع الأخت لويز.

بعد ظهر ذلك اليوم، صعد إلى الباص المنطلق شمالًا، فبلغ بيت الأخوات قبل مغيب الشمس. وجد الأخت سارة في الممر فأخبرته بأن لويز ذهبت في زيارة طويلة لعيادة طفل مريض في قرية تبعد مسيرة سبع ساعات. لا يعرف أحد متى يمكن أن تعود. أنفق أنطوان الأيام الثلاثة التالية في المستشفى عاكفًا على تسجيل غرائب الأقاويل التي يسمعها. كان يشعر بالتوتر وبأنه على حافة الألم. لم تظهر الأخت لويز، فعاد إلى القدس مثلما وعد الأب لافينيو؛ عاد محرومًا من مصدر راحته المعتاد.

جاء بعد ظهر يوم الخميس. وبقي أمامه نصف ساعة قبل الذهاب إلى لقاء جمعية لافينيو. رفع أنطوان رأسه عندما كان جالسًا في مكتبة المدرسة، فرأى أنه لم يعد وحده هناك. كان ثلاثة من رجال الشرطة البريطانيين يصعدون الدرجات المفضية إلى قاعة المكتبة. لو لم يسرعوا فينزعوا قبعاتهم ويتخذوا هيئة أشخاص خاشعين يدخلون أرضًا لها حرمتها، لظن أنطوان أنهم آتون لإلقاء القبض عليه.

قال البريطاني الذي في الوسط: «مساء الخير، أيها الأب أنطوان. اسمي ميجور هودجز».

أجابه أنطوان: «مساء الخير».

«أتينا طالبين مساعدتك».

لم يكن هودجز رجلًا قصيرًا. لكنه أوحى بالقصر لأن ضخامة رأسه غير متناسبة مع جسده. شعر بين الرمادي والأبيض؛ وشارب داكن قصّه بحيث صار مرتفعًا على شفته العليا. ذقن صغيرة -أو لعلّها ذقن بدت صغيرة إزاء كتلة اللحم التي تحتها-، كتلة نافرة من ياقة القميص، مكوّرة تحت ذقنه. اهتزت كتلة اللحم عندما تنحنح والتفت بجسده المتيبّس كله ونظر إلى واحد من مرافقيه.

«سمعنا، أيها الأب أنطوان، أن لديك شيئًا من الخبرة بأحوال نابلس».

«الخبرة؟ أوه، لست أعرف شيئًا عن الخبرة. لكن لديّ اهتمام، بالتأكيد. إن لدي اهتمامًا بنابلس».

«نعم. في ما يتعلق بنابلس هل أستطيع الجلوس؟».

«بالطبع».

«اجلسا، أيها السيدان».

زعقت قوائم الكراسي الثلاث عندما سُحبت على الأرض الحجرية. جلس ميجور هودجز بالقرب من أنطوان ممسكًا بالقمة الجلدية لقبعته الميدانية.

«المشكلة في نابلس هي طبع أهلها العنيد. بالمناسبة، هل معنا أحد هنا؟».

«نحن وحدنا».

«جيد. نابلس، أسوأ مكان». خفض صوته... «مشكلتنا هي أنه ليس لدينا أي معلومات استخباراتية من هناك منذ سنة 1917، أو نحو ذلك. طلبنا من الراهبات الفرنسيات مراقبة الوضع هناك. لكن المشكلة في نابلس -وأظنك تعرف هذا- أنها مدينة من المتعصّبين. فيها كثير ممن يثيرون المشكلات. هذا هو التعبير الذي نطلقه في دائرة التحقيق الجنائي على من يقومون بأعمال الشغب. في واقع الأمر، لعل نابلس أسوأ من الخليل».

خفض أنطوان رأسه في إشارة إلى أنه مصغٍ إلى ما يقال؛ لكنها لم تكن إشارة موافقة على ما سمعه.

«إذا ألقينا القبض على واحد من مثيري المشكلات في القدس، فإن هناك احتمالًا بنسبة اثنين من ثلاثة لأن يكون من نابلس أو من نواحيها. هذه هي الحقيقة. ما أريد قوله هو أننا نجد بعض الصعوبة في الحصول على معلومات كثيرة عن الأرض. لقد أنشأنا دائرة جديدة في الآونة الأخيرة، لكني سأكون صادقًا معك، وأقول إن من غير المجدي أن يخلع أي منا ملابسه الرسمية... لن يتحدّث إلينا أحد».

ألقى أنطوان نظرة سريعة في اتجاه الشرطيين الآخرين. كان لأحدهما سالفان برتقاليان كبيران. وكانت للآخر ملامح رقيقة، كأنه مراهق.

«إننا نبذل جهدًا كبيرًا لكي نجعل أحد السكان المحليين يتعاون معنا. لكننا كنا نقوم باستطلاعاتنا، فسمعنا أنك تعرف شيئًا عن ذلك المكان. ما نحاول فعله هو معرفة مقدار ما كان مخططًا له مسبقًا من تلك الحوادث التي جرت في الآونة الأخيرة. وبما أن نابلس من أكثر الأماكن تنظيمًا من حيث، أعني، النشاطات... إضافة إلى ما قلته لك من أنها أكثر عنادًا... فإذا كانت هناك خطة من جانب أولئك الذين يثيرون الاضطرابات، خطة يمكن اعتبارها خطة منهجية لتحريض الناس وإثارتهم، فإن علينا أن نراقب ذلك. هل تفهم ما أعنيه؟ في الجانب اليهودي، لدينا معلومات كافية. لكن أمر العرب مختلف بعض الشيء. انظر، سوف أكون صريحًا معك. لقد أدركنا الوقت، وعديدنا قليل هنا. بدأنا أخذ بصمات الأصابع، لكن ما نحن في حاجة إليه حقًّا، هو المعلومات والأسماء والصلات. الشائعات التي تسري في السوق. تلقّينا منذ نحو ثلاث سنين تقريرًا واحدًا عن العائلات الكبرى هناك. لكن الأمور في تغيّر مستمر. وسوف أقول لك إنه كان صعبًا جدًا العثور على عربي من نابلس يمدّنا بالمعلومات... شخص نستطيع أن نثق به. ويتكلّم الإنكليزية أيضًا...». استنشق نفسًا، ونظر إلى أنطوان... «ما نريد معرفته هو...».

«إن كنتُ قد سمعت شيئًا».

أومأ برأسه: «صحيح. وأيضًا... بعض المزيد. لقد كنا نتساءل عما إذا كنت مستعدًا للعمل معنا. أعرف أنك رجل دين، لكن هذا الأمر شائع كثيرًا بين رجال الدين... صدّق، أو لا تصدّق. نعرف أنك تتكلّم العربية؛ ونعرف أنك صاحب خبرة كبيرة في دراسة العرب...». ابتسم بطريقة متهكّمة... «سوف تتلقى تعويضًا عن ذلك. سوف يكون تعويضًا قليلًا، لكنك ستتلقى نظير خدماتك شكر حكومة جلالة الملك».

أطبق الرجل شفتيه وشد عليهما موحيًا بأن كلامه قد انتهى. لاحظ أنطوان أن أصابعه كانت مطبقة على قبعته بقوّة شديدة، وأن الجلد تحت أظافره صار أبيض اللون. استدار أنطوان ونظر عبر النافذة في الجانب الآخر من مقصورته في المكتبة.

«ما الذي سيتطلبه ذلك؟».

«يتطلب التجوّل في الأسواق، وتسقّط الأخبار من هنا وهناك. كمّية قليلة من الأخبار لا بأس بها على سبيل البداية. فقط، حتى نتمكّن من تخمين من قد يكون وراء إثارة المشكلات. وبعد ذلك، اكتساب بعض الأصدقاء».

تمهّل أنطوان، ونظر إلى السماء. نابلس مدينة عنيدة. لعلّها كذلك. إنها معقّدة مثل محرّك جميل تتشاجر أجزاؤه المختلفة حتى تجعل المركبة تتحرّك. وهؤلاء رجال شرطة حمقى، أتوا بهم من أنحاء الإمبراطورية لكي يتعاملوا التعامل نفسه مع كل حالة

اضطراب في مستعمراتهم. على الرغم من هذا، وعلى الرغم من شدّة ازدرائه لهم، أحسّ أنطوان بما يشبه لمحة من – من أي شيء؟... احتمال؟

لعله -في حقيقة الأمر- لديه المعلومات التي يحاولون الحصول عليها. كانت لديه معلومات كثيرة عن عائلات نابلس. من يعادي مَنْ، ومن يصادق مَنْ. وكان على معرفة بالجرائم المرتكبة. وبالطرق التي يتّبعونها للثأر. لم يخطر له يومًا أن أفعال الانتقام أو العقاب تلك، الأفعال التي كان يسجّل ملاحظات عنها بعض الأحيان، يمكن أن تكون شيئًا يهتم به البريطانيون. كان ينظر إلى تلك الأمور كلها نظرة باحث أنثروبولوجي، لا أكثر. لكنها موجودة لديه، مسجّلة في دفتره، جاهزة لدراستها وتحليلها. نبضت في ذاكرته صورة المشهد الدامي يوم النبي موسى.

«أوه، يا إلهي. ارحمني واشملني بعطفك». وضع يديه على بطنه وخفض رأسه... «اسمعني، يا إلهي. أنا غير واثق من دربي. أرشدني في دربي، في ما سأقرره. أنا خاشع أمامك».

كانت عينا الرقيب متسعتين.

«إنني آسف. لكن، وفي حقيقة الأمر، ليس لديَّ ما أعطيكم إياه».

قال الرقيب بنبرة تعمَّد أن يظهر فيها قدرًا محسوبًا من الإحساس بالمفاجأة: «آه، في تلك الحالة، حسنًا... إذا لم يكن لديك مانع من إعادة التفكير في الأمر...». وضع يديه في جيبه وأخرج مغلفًا مختومًا وبطاقة... «اسمي ميجور هودجز. مقرّي في قيادة الشرطة في المجمّع الروسي القديم».

«إجابتي هي لا».

تردّد هودجز: «واضح. واضح. قلت لا. على أية حال، سأعود بعد بضعة أيام لكي أرى... لكي أرى كيف هو... شعورك». نهض هودجز قبل أن يتمكّن أنطوان من مقاطعته مرة أخرى... «هيا أيها الشابان. ودعا الأب. إلى اللقاء، أيها الأب أنتوني. نحن ذاهبون».

كان في الاجتماع عند الأب لافينيو عدد من الطلاب اليهود والعرب؛ إلا أن أكثر الحاضرين كانوا من الإنكليز والفرنسيين، بعضهم من المدرسة؛ فضلًا عن بعض الأميركيين واليونانيين والأرمن، ومن بينهم قساوسة وحاخامات يرتدون أثوابهم وقبعاتهم الكهنوتية. لم يكن دارسو الآثار والدبلوماسيون متميزين عن الآخرين، إلا بدرجة اعتنائهم بمظهرهم واستخدامهم زيت الشعر. على الرغم من الإعلان لعامّة الجمهور عن هذا اللقاء، فقد كان الحاضرون الوحيدون من غير الباحثين ممن تمكّن أنطوان من تمييزهم أربع نساء يتجاذبن أطراف الحديث في الصف الأخير. راحت كل

منهنّ تهمس للأخرى بأن تصمت عندما وقف الأب لافينيو على المنبر أمام المجتمعين. جلس أنطوان في مقعد فارغ عند الممر الأوسط.

كانت ارتجاف لافينيو، الملازم له، دائمًا شديد الوضوح عندما وقف وحده خلف الطاولة. ارتعشت يداه وهو يضع نظارتيه على عينيه؛ وكان اهتزاز رأسه شيئًا بين الإيماءة والارتعاش.

بدأ يقول مع ابتسامة عريضة: «ما الذي نفعله هنا؟ إننا نمثّل منظرًا غريبًا حقًا. أوروبا، وآسيا، والعالم كله كان فريسة أبشع محنة عرفها التاريخ. لكن الأرض تدور. فعلى امتداد العالم، نرى الحكومات عاكفة على دراسة كيفية التوصّل إلى تزويد مواطنيها بخبز يومهم. وها نحن هنا، أيها السادة، مجتمعون لمناقشة معاني الكلمات، وقواعد النحو، وحقائق الجغرافيا القديمة، وأزهار البراري، والأغاني العتيقة، والكتابات المنقوشة على صخور فلسطين...». أطلق ضحكة خافتة... «لكننا نعرف أن هذا عمل مهم. ما نقوم به ليس عديم الفائدة. لا، بل على العكس، إن كان لشيء أن يخترق حُجُب ظلمة المستقبل، وإن كان لأي شيء بشري أن يتمكّن من إلقاء الضوء على الحاضر، ومن إرشاد خطانا في طريقنا، ومن شد عزمنا في هذه المسالك، ومن إحياء أسمى آمالنا، فهو الدرس المستخلص من الماضي. إنه نور التاريخ». صمتَ لحظة ريثما قلب الصفحة ووضع إصبعه على السطر الأول... «لكننا لا نريد أيَّ مزيد من ذلك النوع من التاريخ الذي كان وليد الخيال، التاريخ الذي يرسم لوحات ضخمة ويرتّب ضمن تسلسل أنيق مزيجًا من حقائق ومعلومات لا سبيل إلى ضبطها. لا نريد هذا. منهجنا، أيها السادة، منهج الإحكام والمعلومات الدقيقة، على الرغم من أنها قد تبدو أكثر تواضعًا من حيث مظهرها. الدراسة المتأنّية الصبور، ذلك هو التاريخ في يومنا هذا. ولهذا السبب، فإن قوى شخص واحد ما عادت كافية. لقد مضت أيام هيرودوت، بل حتى أيام بوسويّ وماكاولي. سنعمل معًا، أيها السادة. والواقع أنني أنظر من حولي الآن فأرى أن من الصعب -بكل تأكيد- أن تجتمع في أي مكان غير القدس هذه الجمهرة المتنوّعة من المهارات التي تمثّلونها هنا، على هذه الأرض التي شهدت تغيّرات عميقة على مر العصور من خلال التنوّع الاستثنائي لحضاراتها».

مع التصفيق، نزع لافينيو واحدة من عدستي نظارتيه. أشار إلى رجل اقترب لكي يساعده في نزول الدرجات، بأن يبتعد عنه، ثم سار مباشرة إلى مقعد في الصف الأمامي. ارتفع حاجبه الثقيل وهو يبتسم للشخص الجالس إلى جانبه.

كانت هناك كلمة قصيرة أخرى ألقاها القنصل الأميركي؛ ثم أعلنوا عن استراحة

تسبق قراءة الأوراق الأولى. جرى تقديم الشاي في غرفة مجاورة. قال أنطوان للخادم: «أريد حليبًا فقط».

نظر إليه الفتى من غير أي تعبير على وجهه.

أشار أنطوان إلى إبريق الحليب، وقال له بالعربية: «بسّ حليب».

وإلى جانب هرم من البسكويت المستورد، قال رجل ذو شعر طويل أشقر له فرق في وسط رأسه: «يا له من شيء بشع. إن ذوق الأتراك فظيع حقًا».

قال شخص آخر: «يبدو كأنه منارة».

قال رجل ثالث، أقصر قامة: «هل تتحدّثان عن برج الساعة؟».

أجابه الأشقر: «أجل. إن ستورز راغب في إزالته».

كان أنطوان على معرفة جيدة ببرج الساعة. ذلك البرج عند باب حيفا. كان أثرًا باقيًا من أيام السلطان. بُني باستخدام حجارة مقصوصة بالآلات، فكان متنافرًا بوضوح مع نمط بناء سور المدينة القديم. برج أبيض اللون، مستقيم الخطوط، له قنطرة على شكل حدوة حصان مقلوبة مرتفعة صوب الشرفة المحيطة بالساعة. وفي القمة، هلال في وسطه نجمة. كانوا يقولون إنه بني ليكون رمزًا إلى ميل السلطان إلى الحداثة في زمن شهد تغيّرات كبيرة.

اقتربت نهاية استراحة الشاي. أعلن أحدهم عنوان الورقة الأولى -«طبقات الأسماء في اللغة الحاميّة»- ومع بدء انتقال الناس إلى القاعة، وجد أنطوان لافينيو عند الباب. أمسك يد مشرفه الناعمة المعوجّة بين يديه، وهنأه على كلمته الرائعة. قال له إنها كانت مقدّمة ممتازة.

«ألن تبقى معنا؟». فم لافينيو مفتوح. كانت شفته السفلى تنزف قليلًا.

«لدي ما أقوم به. إنني آسف. أعدك بأن أحضر اللقاء التالي».

وصل أنطوان إلى مكان إقامة الأخوات فوجد الأخت لويز في غرفة الطعام الصغيرة. كانت جالسة إلى الطاولة وحدها تشرب كأس ماء.

كانت غرفة الطعام في مقر إقامة الأخوات قد شهدت توسعة منذ بضع سنين، وذلك من خلال إزالة جدار يفصلها عن مستنبت زجاجي صغير؛ فصار ذلك المستنبت أشبه بغطاء زجاجي لعلبة مقلوبة على جانبها، وأتاح للأخوات الجالسات إلى طاولة الطعام رؤية الحديقة الوارفة من خلفه، تلك الخضرة التي كانت الآن غارقة في شبه ظلمة... مرجٌ صغير وصفٌّ من أعشاب مزهرة إلى جانبه. صليب معلق على كل جدار من جدران غرفة الطعام. ومن السقف تدلّى مصباح نحاسي على شكل وعاء عميق له حامل معوجّ وخرزات فضية متّسخة. لم يكن المصباح مضاءً.

«يا أخت...». جلس أنطوان فصرّت عيدان ظهر الكرسي. وضع يديه على الطاولة الرخامية فأحسّ بالإعياء يهبط عليه... «يا أخت، لقد مررتُ بلحظة غواية».
ظلّت الأخت لويز صامتة. ثم قالت له: «أنت تعرف، يا أنطوان، أنني لا أستطيع منحك غفرانًا».
كانت على الطاولة الرخامية علامة مدوَّرة عند حافتها. مسّ العلامة بإصبعه. كانت خشنة. لقد ترك أحدهم نصف ليمونة مقلوبًا في هذا الموضع.
سألته الأخت لويز: «ماذا فعلت؟».
لم يستطع إخفاء الحزن في نبره صوته... «لم أفعل. هذا هو نصري».
أراح يده على الرخام البارد، وراح يصغي بعناية لكي يتأكّد من كونهما وحيدين تمامًا. ثم نظر في عيني لويز اللتين كان فيهما -هذا ما لاحظه- ذعر أكبر كثيرًا مما بدا في صوتها.
قال لها: «كيف تستطيعين هذا؟ أعني، كيف تستطيعين أن تظلّي نقية هذا النقاء كلّه من غير أن يمسّك شيء».
نظرت في عينيه: «كيف؟ أنجح في هذا لأنني لست وحدي...». أشاح بوجهه، لكنها تابعت كلامها... «لا ينبغي أن تفقد شجاعتك».
«نسيتُ كيف بدأت أصلًا...». سمع نحيبًا في صوته وأحس بحاجة إلى إخفاء وجهه... «ساعدني، يا رب. لست أدري ما يجري لي».
«لم تنس إلا لأنك وحدك».
نظر أنطوان إليها: «وحدي؟».
«ألا تريد إخباري بما جرى؟ يمكننا أن نذهب إلى مكان آخر...».
«لا ضرورة. أستطيع إخبارك هنا. سوف أخبرك هنا. هل يمكنك، هل يمكنني إغلاق الباب؟».
نهضت الأخت لويز واقفة، وفي ثانية واحدة، أدارت المفتاح في الباب، ثم جلست من جديد.
قال: «كنت في المكتبة». رفع رأسه ونظر إلى زجاج الأبواب القاتم حيث ظهر انعكاس صورتهما بين القضبان... «نعم، كنت وحدي. في القدس. في مكتبة الدير. جاء شرطي لرؤيتي. كنت أقرأ... ليس ما كنت أقرأه مهمًا. كان معه رجلان آخران...». خفض رأسه... «ربما ينبغي أن أبدأ من قبل ذلك... لست أدري من أين أبدأ».
«لا بأس في البداية من هذه النقطة. كنت في المكتبة».
«نعم، في المكتبة. جاء الشرطي. كان معه رجلان آخران. سألوني إن كنت مستعدًا

لمساعدتهم. مسألة متعلّقة بالخبرة... أنت تفهمين هذا. قالوا إن نابلس تقلقهم، وإن أهلها هم الأشد تعصبًا... قال هنا شيئًا، أيها الأخت، قال إن ثلثي مثيري المشكلات في النبي موسى كانوا من نابلس. هل تصدّقين هذا؟».

كانت الأخت لويز تلوي بين أصابعها قطعة خبز في الطبق الصغير. لم تكن عادة امرأة تعبث بالأشياء هكذا... «لقد عانينا مشكلات في نابلس، أنت تعرف هذا...». أسقطت كسرة الخبز من يدها ونفضت بقاياها عن أصابعها... «لكن عليَّ الإشارة، قبل أن أقول أي شيء آخر، إلى أننا لا نزال هنا».

«لكنكم ستغلقون المستشفى».

«لن نغلق المستشفى، أيها الأب. بل ننقله إليهم، فحسب. ونحن نعتزم البقاء... ستظل عيادتنا، وستظل المدرسة، وسنواصل زياراتنا إلى القرى. أيها الأب، تعرف أن غايتنا لم تكن أبدًا تغييرهم. نحن لا ندعو أحدًا إلى تغيير دينه، ولا نعظ الناس بديننا، ببساطة، نحن نقوم بالواجب الذي قرّره الرب». رسمت إشارة صليب سريعة.

«صحيح. أعرف هذا. لكن مشكلة التعصّب هذه، أعني أنكم واجهتم مشكلات. أنتِ من أخبرني بهذا. ثم إن في هذه المدينة حماسة متّقدة. أنا واثق من هذا. إنني أحب نابلس. لقد أحببتها. لكنك تعرفين... عندما رأيت ذلك المشهد الفظيع في المدينة، جعلني ذلك أشعر بأنني كنت أتغافل عن شيء، أتظاهر بأن لا أهمية له... لقد أعطاني الرقيب هذه».

أخرج من ثوبه مغلّفًا، ثم فتحه. كانت في المغلف ورقة واحدة. كُتِب فيها: سرّي للغاية.

الفئات
وطنيون
موالون للفرنسيين
معادون للبريطانيين
معادون للصهاينة
يمكن التحكّم بهم

مرت بضع لحظات قالت الأخت لويز بعدها: «يمكن التحكّم بهم. يا إلهي! هل وافقت على ذلك؟ على مساعدتهم؟».

«لا. لقد أخبرتك. قلت لهم لا».

«لكنك كدت تتعاون معهم».

«كدت أتعاون، أوه، نعم. لقد كدت أتعاون معهم! دعيني أعود إلى ما جرى قبل ذلك. في البداية، كنت في مهرجان النبي موسى. لقد رأيت تلك الأشياء الفظيعة. وأحسست،

يا أخت لويز... أحسست بأنني ربما كنت قد أخطأت. كنت واثقًا جدًا بأن من الأفضل ألا تكون لي أية علاقة بما يجري. لكن، كيف أستطيع الاستمرار بالتظاهر بعد رؤيتي تلك الأشياء- أقول هذا لأنه كان تظاهرًا! كنت أتظاهر بأنني أستطيع الاهتمام بالعادات المدنية وحدها. وكأن العادات المدنية يمكن أن تكون موجودة وحدها. أعني، أن أنظر إلى الممارسات الواقعة ضمن نطاق القانون -قوانينهم، أو القوانين البريطانية- وكأن الإثم ليس جزءًا من حياة المجتمع. لكني كنت مخطئًا، فهذه الأشياء جزء من كل».

نظرت إليه الأخت لويز نظرة سريعة ثم أدارت وجهها صوب الباب المفضي إلى الحديقة.

تابع أنطوان كلامه بنبرة محمومة: «لا يستطيع المرء أن يسجّل ملاحظاته متظاهرًا بأن ما من إطار يضمها معًا. لا بد من إطار ما، دائمًا. أنا من فرنسا. وأنا مؤمن حقًا بأن فرنسا تحمي الكاثوليك في الشرق. أنا جزء من هذا. لست مفصولًا عنه لي انتقاداتي، نعم، لكني لست منفصلًا. لقد بدأت أتساءل عما إذا كان هناك غاية لعملي... حتى أساعد نفسي في استيضاح السبّب وقبول موقعي كجزء من هذه الآلية كلّها بحيث لا أتظاهر بأنني موجود، على نحو ما، خلف حدودها...». سكت لحظة... «لست أدري، أيتها الأخت. أنا غير قادر على تحديد الموضع الذي أخطأت فيه. إنني ضائع. لكنني أعرف أنني أخطأت. لا أعرف إن كنت مخطئًا في قول لا، أو في هذا». أشار إلى نفسه، وإلى جسده، وإلى وجهه... «في هذا التساؤل المستمر. لقد كانت هناك غواية. يا أخت، لست واثقًا من إحساسي الغريزي نفسه».

انحنت إلى الأمام قليلًا، ووضعت الورقة على الطاولة: «هيا، أيها الأب. ماذا؟ لا تبك».

«لست أبكي. لكنّي ضائع، بكل بساطة».

«أتساءل إن كنت سمعت شيئًا».

«إنني أسمع أشياء كثيرة. تخبرني النساء في المستشفى بأشياء ومعلومات كثيرة. قد تبدو صغيرة، لكنها تعطي لمحة عن الوضع عندما توضع معًا، إن لم أقل إنها تعطي صورة عن الوضع وعن النشاطات التي تجري، لست أدري إن كانت نشاطات إجرامية أو غير إجرامية، لكنها سرية بالتأكيد. وبالتأكيد، هذه معلومات مفيدة لـ...».

«بالتأكيد، هذا صحيح. أنت تسمع أشياء كثيرة. لكن الحقيقة أنني عنيت شيئًا آخر. سوف أطرح عليك سؤالًا مباشرًا. الحقيقة هي أنني أتساءل، أيها الأب، عن السبب الذي جعلك تعترف بهذا لي وليس للقس الذي هو مخوّل بهذا على الوجه الصحيح. هذا ما كنتَ قادرًا على فعله، بسهولة، في القدس».

«ماذا؟ هل تعنين أنني...».
«لا يجوز أن تعتبر هذا رفضًا من جانبي».
تفرّس في وجهها. كان قادرًا على رؤية اضطرابها، على الرغم من الظلمة.
تابعت تقول: «لكن هذا يستدعي سؤالًا».
بدأ السقف فوقهما يردّد صوت خطوات. صريرٌ مرتفعٌ، ثم اصطدام جسم ثقيل بالأرض.
قال أنطوان بصوت منخفض بعد فترة صمت قصيرة: «عندما قلتِ لي إنني وحدي... ماذا عنيت بهذا؟».
«كنت أشير إلى أخواتي هنا، بالطبع. هذا لأننا نتخذ قراراتنا معًا. أعرف أن لديك المدرسة الإنجيلية. لكنني أعرف أيضًا أنها ليست مثل هنا -أنت قلت لي هذا بنفسك- فالناس فيها يأتون ويذهبون. ليس لديكم هناك هذا الشيء المشترك نفسه... لا أعني الرؤية المشتركة بالضبط، بل الغاية التي هي مشتركة بيننا هنا. عندما تعثُر واحدة منا، تجد حولها كثيرات يُنهضنها من جديد».
«إذًا، لم تكوني تريدين القول إنني وحيد بمعنى أنني من غير إله».
من جديد، تهاوى ضبط النفس الذي لديها. بدت مذعورة... «أوه، لا-يا إلهي». كان واضحًا أنها غير قادرة على الاستمرار. مضت السكين أعمق فأعمق مخترقة إحساس أنطوان بالعار.
تحرّك مقبض الباب. نادى صوت من الممر: «هل يوجد أحد هنا؟».
«لحظة واحدة».
نهضت الأخت لويز وفتحت الباب. كانت خلفه شابة ترتدي ملابس التمريض. بدت الحيرة على وجهها. كانت في يدها شمعة.
«آسفة جدًا، يا أخت ماريان. لا بد أنني أقفلت الباب من غير أن أقصد إقفاله».
ألقت الأخت ماريان نظرة سريعة في اتجاه الأب أنطوان: «أتيت لإيقاد المصابيح».
نهض واقفًا بدوره، ومد يده بسرعة إلى الورقة التي على الطاولة. انحنى فوقها حتى يحجب وجهه.
قالت الأخت لويز: «أرجو أن تتركينا وحدنا قليلًا، يا أخت. سوف ينتهي حديثنا بعد لحظات».
انحنت الأخت ماريان لهما، ومدّت يدها إلى مقبض الباب. نظرت الأخت لويز في عيني أنطوان، وانتظرت إلى أن تلاشى صوت وقع خطوات ماريان.
قالت له باقتضاب: «نصيحتي أن تواصل عملك. إن لعملك قيمة. لا تترك تفكيرك في

الأمم والقوانين والسلطات يؤثّر على عملك. إن للمدرسة الإنجيلية سمعة طيبة من حيث التزامها الحياد، تذكّر هذا، وتذكّر أن له نتائجه. لا تكن مشاركًا، إن استطعت. تجنّب ذلك. خذها مني...». كانت عيناها المحدقتان فيه مليئتين بالمعنى الذي تحاول جاهدة إيصاله إليه... «الأمر لا يستحق. أرجو أن تعذرني الآن، لأن عليّ أن آوي إلى الفراش».

نزل الجميع في الصباح لتناول القهوة. كانت أبواب صالة الطعام المطلّة على الحديقة مفتوحة لتلقّي نسيم الصباح. عادت الأخت لويز إلى ذاتها المنيعة القادرة، لكن أنطوان لاحظ أنها ليست واحدة من الذاهبات إلى المستشفى، فقد سمع الأخت ماريان تقول أثناء سيرهنّ إن لديها زيارة إلى قرية أخرى.

لم ينه حديثهما الليلة الماضية المعضلة التي يعانيها أنطوان. بل إن كلمات الأخت لويز الأخيرة فاجأته وجعلته يرقد في فراشه مستيقظًا يفكر في ما سمعه. كان يفكر أيضًا في ما قاله هودجز من أن هذا النوع من العمل كان *«شائعًا جدًا بين رجال الدين، صدّق أو لا تصدّق. لقد طلبنا من الأخوات الفرنسيات أن يراقبن الوضع»*.

خرج إلى شرفة المستشفى فوجد الكراسي خالية كلّها. وفي الزاوية القصيّة، كان كرسيه الهزاز يتأرجح في الريح. جلس مسندًا ظهره إلى حواف ظهر الكرسي المألوفة، وفتح دفتره على صفحتين متقابلتين فارغتين، وبدأ يرسم المنظر. كان يعرف هذا المنظر جيدًا إلى حد كاد يجعله غير محتاج إلى النظر إليه. ثلاث شجرات زيتون في المقدّمة. وأرض منحدرة عليها ظلال وصخور. وجبل عيبال منتصب في الخلفية. ومن فوق الجبل، كانت السماء.

خاطبه صوت مشرق: «يا أبونا، زمان ما شفناك».

انفتح باب الشرفة وخرجت إليها امرأة قصيرة طويلة الرقبة.

قال أنطوان: «رندة! السلام عليكم. كيف حالك؟».

كانت رندة خادمة منزلية متنقّلة متزوّجة من عامل في مصنع الصابون. ولما كانت تحب النميمة (من أجل النميمة في حدّ ذاتها)، فقد كانت من المصادر المفيدة لبحث أنطوان. اعتاد إعطاءها بضعة قروش بعد كل حديث يجري بينهما. كان في البداية يتمتم بكلمات من قبيل، «هذا مقابل تعبك». لكنه توصّل إلى أن من الأفضل الزعم بأن ذلك المال كان حسنة من رجل دين إلى امرأة فقيرة، ولا علاقة له بالمعلومات التي تقدّمها إليه. لكن تمويه تلك الصفقة لم يكن أمرًا سهلًا على الدوام: هي تتكلّم، وهو يدفع. إلا أن رندة كانت تقوم بدورها من خلال الشكوى من آلام ظهرها، ومن أن الأسبوع الذي انقضى كان شديد الصعوبة، وكذلك من ارتفاع أسعار المواد الغذائية. كان هذا كلّه يوفّر ذريعة لدفع المال بحيث يبدو كأنه فعل تلقائي.

قالت وهي تجلس بالقرب منه: «أووف... ظهري يؤلمني».

قلب أنطوان الصفحة في دفتره: «سلامتك. إذًا... هل هناك قصص جديدة في الآونة الأخيرة؟».

قالت هامسة: «وقعت مشاجرة دامية بين دار مراد ودار الشوّاف. ذهب واحد من دار مراد لزيارة دار الشواف. لقد قطع ابن الشواف أشجاره».

«لماذا قطع أشجاره؟».

ظهر الفزع على رندة: «لأنه رفض أن يدفع له مالًا».

أومأ أنطوان برأسه. سجل التاريخ في زاوية الصفحة العليا، إلى اليمين: 20 أيار 1920؛ ثم كتب: *مراد - الشواف*.

«وغير هذا، ماذا يقول الناس في المدينة هذه الأيام؟».

قالت من جديد: «أووف، مشكلات، مشكلات».

«أي نوع من المشكلات؟».

عضت على شفتها، ثم قالت: «يعني... هل سمعت عن حوادث الشغب؟ الشغب في نابلس؟ في يافا، وحيفا. حوادث شغب في البلاد كلها. أمر سيّئ جدًا».

«بسبب الصهاينة».

«الصهاينة سيئون كثيرًا. يريدون أخذ الأرض».

«والناس، ماذا... ما الذي يفعله الناس تجاه هذا الأمر؟».

«سوف يقاتلون».

«من الذي سيقاتل؟».

«الشباب».

قلب أنطوان الصفحة عائدًا إلى رسمه، وأضاف ظلًّا خفيفًا إلى صخرة صغيرة في المقدّمة؛ ثم ظلل صخرة أخرى. كان يرسم الظلال مميلًا قلمه.

«قولي لي... كيف هو شعور الناس بعد حوادث النبي موسى؟».

«الناس يتجادلون».

ظلّ منتظرًا.

تنهدت وقالت: «يقول بعض الناس، فلنعط اليهود شيئًا. ويقول آخرون، إذا أعطيتموهم شيئًا، فسوف تعطوهم كل شيء. ولن يبقى لنا شيء. هذا لأن في إنكلترا يهودًا كثيرين. ثم إن المندوب السامي البريطاني الجديد، يهودي أيضًا. يعني هذا أنها إمبراطورية يهودية. يتجادلون، ويتجادلون. هكذا هم دائمًا. نابلس مدينة الحَسَد والفَسَد». كانت هاتان الكلمتان، «الحَسَد والفَسَد» عبارة نابلسية شائعة.

«وما رأيك أنت، يا رندة؟».

راحت تعبث بأظافر يديها: «لست أدري، يا أبونا».

«عندي سؤال. هل ترين أن نابلس أكثر -كيف أعبِّر عن هذا- أكثر اندفاعًا من بقية المدن في فلسطين؟».

«بالطبع».

انتظر أنطوان. تذكّر ما قاله هودجز، «مدينة من المتعصبين». سألها: «ما معنى ذلك؟».

مطّت رندة شفتيها: «إنهم يجلبون الأسلحة. في نابلس».

دُهش أنطوان: «أسلحة».

«من البدو».

«فهمت. هل هذا في نابلس وحدها؟».

رفعت كتفيها. كان عنكبوت على الدرابزين يرفع إحدى قوائمه الواهية كخيوطه ويتحسّس بها الهواء. حاول أنطوان العثور على سؤال آخر.

ثم قالت رندة: «سمعت مروان يقول إنهم ينقلونها في جرار العدس. يلتقون في قرية...». توقّفت عن الكلام.

تساءل أنطوان: «مروان؟».

لكن رندة لم تقل شيئًا بعد ذلك. تدحرج قلمه واستقر في ثنية الدفتر، بين الصفحتين.

«وكيف حال أسرتك؟».

«إنهم جائعون كثيرًا. الدجاجات، لدينا مشكلة مع الدجاجات. كان الحرّ في الأسبوع الماضي شديدًا عليهنّ».

أخرج أنطوان محفظته الجلدية، تناول منها شلنًا.

# - 12 -

في شهر أيار من سنة 1920، وبينما كان الناس يتحدّثون جميعًا عن الانتداب، كان مدحت يفكّر في فاطمة حمّاد. كان يتذكّر خاصة رؤيتها في النبي موسى. وكلما استحضر صورتها المتردّدة هناك، يأتيه إحساس حادٌّ، جسدي، قريب من ذلك الإحساس الطاغي الذي جعله يتجوّل حول بيتها في الصباحات المبكرة كمن يسير في نومه متمنيًا أن تستجيب النوافذ لتحديقه فيها.

اقترب وقت العشاء. شم رائحة البصل، وسمع قعقعة الأطباق. نظر إلى سقف غرفته مقاومًا رغبته في النوم. صار يتمنى في الشهور الأخيرة أن يستطيع إقناع نفسه وجعلها راغبة في الزواج. خطر في ذهنه الآن أنه قد نجح في ذلك. لكنه استعاد صورة عينيها الناظرتين إليه، فأحس بإغراء القدر، بإغراء حقيقة أنه عرفها، وأنها عرفته، بين مئات الناس الذين كانوا هناك. كان حشد الناس الذي تذكّره مدوّيًا في صدره، ومعه عنفه المموّه، فانتصب جالسًا. كانت كتبه مصطفة على طوار النافذة وضوء آخر النهار يأتيها منحرفًا. بحث عن ورقة وقلم. ليس لديه طاولة في غرفته. طاولة المكتب الوحيدة في البيت، موجودة في الغرفة المجاورة، في غرفة أبيه غير المستخدمة... الغرفة المجاورة.

سمع صوت جدّته تصيح: «يا أم محمود».

جلس على الفراش، وتناول كتابًا لكي يسند الورقة إليه، ثم وضع رأس القلم على الزاوية العلوية اليسرى من الورقة. كانت هذه عادة قديمة. أن يتتبّع خيوط الحدث، ويرسم تشخيصًا له، ويشرح الأسباب التي أدت إلى هذا الشيء أو ذاك. كتب عنوانًا: فاطمة حماد. نظر إلى هاتين الكلمتين مكتوبتين من اليسار إلى اليمين، بحروف لاتينية. ألا ينبغي عليه كتابة اسمها بالعربية؟ كتب «فاطمة حماد» بالعربية. لكنه لم يهتدِ إلى كلمات أخرى بعد ذلك. كان كل ما جال في ذهنه باللغة الفرنسية. رفع رأسه، وعصفت به نوبة غثيان عندما تخيّل ورق جدران غرفته في مونبلييه، والنافذة المطلة على المرج الأخضر. شعر بألواح الأرضية الخشبية الباردة تحت قدميه.

تلك الحركة في ذهنه... رقصة المنطق والمصادفات. من المؤكّد أنها لن تظل متّسمة دائمًا بما عاشه في بيت آل مولينو. لم يكن راغبًا في الانطلاق على سطح الحياة من غير أن يحاول، على الأقل، فهم معناها. لم يكن راغبًا في ذلك الجزء من نفسه الذي تحرّك، قاتمًا، عندما رأى رقصة الدرويش في حرارة الحشد المنشد. ظل فترة طويلة متردّدًا،

حاملًا قلمه في يده. كتب بعد برهة: «عزيزتي جانيت». عزيزتي جانيت... ماذا؟ نظر إلى الورقة شاعرًا بالغباء. رسم قلمه دائرة. ظلّل الدائرة بقلمه، بخط متكّسر من الحبر.

وفي اليوم التالي، كان مدحت جالسًا يقرأ في المتجر، في حين وقف هشام في الخارج. كان الهواء أصفر اللون لكثرة غبار الطلع. لقد اشترى هذا الكتاب منذ سنتين، من على ضفة نهر السين. راح يقلّب صفحات الكتب المعروضة للبيع فصادف في أحدها فقرة عن الأرض المقدسة. دفع ثمن الكتاب على الفور. ومنذ ذلك الوقت، صار لديه شيء يختلسه اختلاسًا لقضاء الوقت: قراءة وصف المكان الذي جاء منه، والانتقال إلى ذلك المشهد المرسوم بدقّة من خلال تلاوين لغة أخرى، المكان الذي انتهى به الأمر إلى التوق إلى رؤيته، إلى رؤية ملاعب طفولته من خلال الكتاب... وكأنه ليس الآن موجودًا فيها. سقط ظلّ على صفحة الكتاب، فأجفل.

قال الحاج نمر حماد: «السلام عليكم».

غمغم مدحت بإجابة. كان الحاج نمر يرتدي معطفًا صيفيًا له حزام على خصره. بدا له نحيلًا. بخطوة واسعة واحدة، اقترب نمر حماد من الزاوية التي كانت فيها سترات معلّقة معروضة للبيع، ثم نظر إلى المدفأة الصغيرة، وإلى فناجين القهوة. اقترب من جدار عليه رفوف اصطفّت فوقها أقمشة مطوية. مس لفافة قماش كانت على مستوى عينيه... قماش عليه أزهار زرقاء مطبوعة على أرضية صفراء. جذب إليه حافة القماش كأنه طبيب يفحص الشفة السفلى لأحد المرضى. دعك القماش بإبهامه.

سأله مدحت: «هل أستطيع مساعدتك في أي شيء؟ إذا كنت تبحث عن قطعة من أجل مناسبة خاصة، فأنا أنصحك بالذهاب إلى الخياطين السامريين...». كان يتكلّم بسرعة شديدة. انتبه فحرص على نطق الكلمات نطقًا واضحًا... «إن متجرهم خلف منعطف الشارع. وأما نحن...». رفع كتفيه... «فأكثر المواد لدينا من أجل الفلاحين».

عاد نمر ينظر إلى الرفوف. كرّر من خلفه: «الفلاحين... وهل ستعمل هنا؟».

«عفوًا؟».

استدار الحاج نمر فواجهه. كان محجرَا عينيه شديدي الوضوح. وشاربه كثيفًا، رمادي اللون.

قال مدحت بنبرة حذرة: «إنني أتدرب هنا. بعد التدريب سأكون في القاهرة، حيث أبي...». توقّف قليلًا، ثم أضاف: «متجرنا في القاهرة أكبر من هذا. إنه متّسع».

أومأ نمر برأسه: «وهل خطبت؟».

قال مدحت: «لا. لم أخطب».

أومأ برأسه من جديد: «في هذه الحالة... في هذه الحالة، وإذا كنت تريد أن تتزوج ابنتي، فأنا موافق».

فغر مدحت فاه. أحسّ بضحكة تعلو في صدره، وبيد تحجب فمه، يده التي ارتفعت حتى تُسكت ضحكته.

«شكرًا. بارك الله فيه، يا حاج».

نهض من كرسيه فوقف على ساقَيْن صارتا كأنهما سائلتان. سمع نفسه يقول: «نعم، بالطبع، إن شاء الله، أريد أن أتزوج ابنتك».

انزاحت عينا الحاج نمر عنه: «إذًا، سنتوقّع أن تزرونا قريبًا، حتى تطلب يدها».

«نعم».

«وينبغي أن يكون الزفاف بعد رمضان».

«نعم، نعم، بالطبع...».

«مع السلامة».

كان الصمت في المتجر هائلًا بعد اختفاء معطف الحاج نمر مبتعدًا في الهواء الأصفر. أطلق مدحت ضحكة واحدة مرتفعة الصوت كثيرًا. وفجأة، أراد أن يجري. جلس ووضع ساقًا فوق ساق. كانت قدمه العليا المتقوّسة تهتز سريعًا كأنها تضغط على دواسة غير مرئية، ثم تفلتها. وأخيرًا، ظهر شخص بالباب. قفز مدحت واقفًا على قدميه.

«هشام، عليّ أن أذهب! عليّ أن أذهب!».

جرى صاعدًا طريق الجبل. كانت في طريقه ثلاث فلاحات: تخطاهنّ سائرًا على حافة الطريق. تراب سائب يتفتت تحت قدميه. ظلّ يجري حتى وصل البيت.

«تيتا! تيتا! أين أنت؟ لقد وافق الحاج نمر».

ظهرت مرتدية قميص نومها. كان شعرها الرمادي مربوطًا في جديلة خلف رأسها. أطلقت صرخة فرحة ثم شدّت أذنيه، وجذبت رأسه إليها.

«متى، متى، متى؟».

«آخ، آخ».

«عليك أن تخبر والدك فورًا».

«قال لي إن علينا أن ننتظر حتى نهاية شهر رمضان».

«ما الذي جعله يغير رأيه؟».

«لست أدري».

«خبّر جميل. روح. نخبر والدك بعدين. حبيب ألبي!».

صفّقت بيديها، وأطلقت صرخة صغيرة.

قال مدحت: «أنت مجنونة».
كانت أم جميل تقطع الطماطم في المطبخ؛ وعلى أصابعها بذور الطماطم وعصيرها. قالت له: «جميل في المتجر...». ظهرت ابتسامة على وجهها... «ماذا حدث؟».
«سأخبرك في ما بعد. أريد أن أخبر ابن عمي أولًا». شدّ على ساعديها، وقبّلها.
طار نازلًا طريق الجبل. توقّف في ظلّ شجرة كبيرة قبل بلوغ أسفل الطريق. كان يلهث. رفع رأسه إلى السماء الصافية. كان محميًا من أشعة الشمس المباشرة، فتمكّن من رؤية السماء متألّقة وسط الأوراق الخضراء التي فوقه، أوراق خضراء متوهّجة في الضوء كأنها أجساد حشرات. تابع طريقه مشيًا. أصلح ربطة عنقه، وأزاح الشعر عن صدغيه. أمام السوق، كان الرجال يدخّنون النارجيلة في الحر. حيّا وجوههم التي التفتت إليه. داس في بركة ماء متجمعة عند باب متجر الجبن فبلل الماء ساق بنطلونه... رشاش الماء الرمادي الداكن. صاح: «مش مهم!». شم رائحة الحليب المتخمر. كان أربعة من رجال الشرطة الإنكليز سائرين عند تقاطع الشارعين. ومن خلفهم ثلاثة من العرب –في ملابس الشرطة أيضًا– بنادق. حمّالات الطلقات القماشية. أومأ واحد من الإنكليز برأسه: لا بد أن فرحته كانت ظاهرة. أجابه مدحت بهزّة رأس مماثلة. في تلك اللحظة، كان حبّه طاغيًا، عامًّا؛ وكان قادرًا على مشاركته، حتى معهم.
كانت أفكاره سلسلة ممتدة. أية مدينة هذه! سار في الزقاق مفكرًا في أن الأطفال ينتمون إلى حيث هم، مفكّرًا في العلاقات التي تربط أقدامهم الصغيرة إلى الأرض... في ملاحظات الناس عليهم، هذا يشبه ذاك... توقّعات مبنية على أسس كثيرة. وأما الكبار، فإن روابط الطفولة لا تظل مصدر انتماء، على الرغم من إمكانية استمرارها. المرء في حاجة إلى شيء آخر... وها قد صار لديه الآن ذلك الشيء. سيكون الآن منتميًا. كانت غايات أفعاله تتضح له كأنها جدار متين في وسط النهار. هذا ما كان ينقص حياته في نابلس. ما أغرب أن يكون قد أدرك هذا الغياب قبل لحظة واحدة فقط من امتلائه بفيض المعرفة الرائع، معرفته ذلك وهو سائر إلى متجر السجاد. خلال سنوات غيابه عن نابلس، كان هذا الذي عرفه الآن موضوع توقه وحنينه. وكم كان ذلك غبيًا لأن إحساسه هذا لم يكن إحساسًا بالماضي. لا، لا، لا، بل هو إحساس بالمستقبل! كان هذا واضحًا... أمر منسجم إلى حدٍّ عجيب. كل ما حدث في الماضي قاد إلى هذه اللحظة الحاضرة. مجازفات أوروبا كلها، والمصادفات كلّها، والعجب كله، بل حتى النبي موسى، وما رآه وأحسّه من رعب، والألم والعار كلاهما، وكل ما في ممرّات ذلك المتحف القديم... كان ذلك كله يشير إليه، في هذه اللحظة. ما كان قادرًا يوم أمس على تمييز رغبته في فاطمة حماد عن بقية الرغبات، عن والده، وعن حاجته إلى ما كان محرومًا منه، عن

حاجته إلى امرأة. لكنه صار الآن قادرًا على رؤية هذا كلّه بعد أن صارت غنيمته في يده. كان ذلك جدارًا صلبًا أمامه. كان أساس بيت. وقد أطاع. وقد عصى. لقد كان واحدًا منهم، وكان هو نفسه. هو، بجسده القوي، من وضع اللبنة الأولى؛ وقد رآها الناس. رآها الحاج نمر حمّاد وتنبأ، مثلما تنبأ هو، بالصرح الذي سيعلو ويرتفع.

كان متجر جميل مظلمًا لازدحامه بالسجاد المعلّق على كل جدار، وفي النوافذ. خطا خطوة إلى الداخل فملأت أنفه روائح وبر الحيوانات وأصبغة الصوف التي تغلي في الظلمة. كان جميل يرتدي قميصًا خفيفًا، وفي يده وعاء وفرشاة. رأى زبونًا يشرح له النقش المطلوب، ويحرك يديه في الهواء. كان جميل يومئ له برأسه. رفع سبابته عندما رأى مدحت.

قال مدحت لحظة خروج الزبون: «لقد وافق الحاج نمر». عض على شفته السفلى ثم ابتسم... «سوف أتزوج فاطمة».

«مبروك».

انتظر مدحت سماع المزيد. ثم كان هو من مَدّ يده وصافح يد ابن عمه. نظر في عيني جميل فرآهما غير مبتسمتين. أحسّ بثقلٍ في معدته.

قال شاب من داخل المتجر: «جميل، هل تريد هذه الأشياء، أم أننا سنرميها؟».

كانت في يده خرقتان.

قال مدحت: «حسنًا، أراك في ما بعد». نظر إلى ابن عمه مرة أخرى، لكنه لم ير شيئًا، فاقترب وقبّله على خده حتى يخفي وجهه عنه. أحسّ برقبة جميل متعرّقة تحت كفه. لا بد أن ذهنه مشغول بأمور أخرى.

وفي طريق عودته، راح مدحت يتساءل في نفسه عما إذا كان نجاحه، آخر الأمر، مع الحاج نمر قد أيقظ الغيرة القديمة في نفس ابن عمه. كان واضحًا له أن تلك الغيرة قد تراجعت في الماضي عندما اعترف لجميل بفشله. اضطرم الغضب في صدره. لكن تفكيره في إخفاقه السابق قاده، مجدّدًا، إلى فكرة نجاحه الحالي... فكرة حارة، سعيدة. أحس شعاعًا من نور يضيء ذهنه عندما لامس تلك الفكرة. الآن، ما عاد شيء قادرًا على أن يغطيها ويطغى عليها. لقد تركّزت نفسه كلّها من حول تصميمه؛ وقد فاز.

لوّح بيده لعامل التلغراف: «يا معلم، أريد إرسال برقية إلى القاهرة».

ناوله الرجل ورقة من رزمة الأوراق المُعدّة التي كانت أمامه. كتب مدحت: «وافق الحاج نمر. سوف أتزوج فاطمة حماد. وسيكون الزفاف بعد رمضان. هل ستأتي إلى نابلس من أجل طلب يدها رسميًا؟ سلامات. مدحت».

دفع الأجرة، وحيا الرجل، ثم انصرف.

فكر في اعتزاز أبيه فأحسّ بنشوة تسري في عموده الفقري. سار مسرعًا في طريق الجبل. المدينة في الأسفل، ومبانيها البيضاء، وشرفاتها، ومآذنها.

فتح الباب فسمع أصواتًا نسائية. كانت أم طاهر في الصالون، تشرب القهوة مع صديقاتها. رفع يده مسلمًا.

«سلام».

قالت له جدّته: «اجلس معَنا، يا تيتا».

صاحت أم داود: «مبرووووك».

«آه، شكرًا لك، يا خالتو. لا بد أن جدّتي أخبرتكنّ جميعًا».

صاحت أم طاهر: «لماذا أنت حزين هكذا؟».

«لست حزينًا. لكني متعب. حماستي كبيرة جدًّا. لقد أخبرت جميلًا»؛ قال هذا مومئًا برأسه صوب أم جميل.

قالت أم طاهر وهي تنظر إلى رفيقاتها: «كن سعيدًا. الربّ لا يعطي دائمًا».

قالت إحداهنّ: «فاطمة حمّاد!».

قالت أخرى: «حلوة».

مدّت تيتا ذراعها مرحِّبة به فجلس إلى جوارها ودسّ ظفره تحت غلاف قطعة شوكولاته. كانت أم جميل في منتصف حديثها عن مشكلات مبيعات السجاد التي باتت تشهد ركودًا. وكانت بقية النساء توافقنها على كلامها. ليس الوضع هناك مثلما هو في متجر الأقمشة. لا علاقة لاقتراب رمضان بالسجاد. قالت أم جميل أيضًا إن اهتمام ابنها بالمتجر ليس كما يجب. إنه سابح في عالم مختلف، وحده.

سألت مدحت: «ما رأيك أنت؟».

«إذا أردتِ الصدق، فإنني لا أراه كثيرًا. لقد كنت شديد الانشغال». لوّح بيده في الهواء كأنه قد بدأ بالفعل استعداداته للزفاف... «لكنني، لست أدري... قد تكونين محقّة. يبدو لي مختلفًا. وهو يمضي وقتًا طويلًا مع صديقيه من دار مراد».

«لم يعد شيء على حاله منذ عودتكما من القدس بعد ذلك الشغب».

قالت أم داود: «عن جد... تغيروا».

قالت تيتا: «جميل... لعله في حاجة إلى العثور على زوجة. تعرفين أن هذا غير صحّي. لا بد للشاب من متنفس».

قال مدحت: «تيتا!».

قالت امرأة أخرى: «أظنّ أنها مسألة متعلّقة بالسن. والله العظيم، ظل طبع ابني نكدًا إلى أن بلغ الثلاثين. والله العظيم».

قالت تيتا: «زوّجيه، وسوف يكون في أحسن حال».
قال مدحت: «لعله لا يحب السجاد كثيرًا».
مطّت أم جميل شفتها حائرة وقالت: «قد تكون محقًّا».
سرعان ما انتشرت أنباء خطبة مدحت. ففي الأيام التي تلت ذلك، كانت نساء لا يعرفهنّ تزغردن عند رؤيته؛ وكان الرجال المسنّون يضحكون قائلين له: «دار حماد! دار حماد!». وسرت شائعات عن أن أبا عمر الجوهري سيشهد على عقد الزواج بنفسه. بل إن الحاج عبد الله عطوان حياه بإيماءة من رأسه في مساء يومٍ حارٍّ عندما رآه في ساحة المنشية.
صاح الحاج عبد الله: «الباريسي. لقد سمعت الخبر».
أجابه مدحت برزانة محسوبة: «شكرًا لك».
ضحك عبد الله... كانت ضحكة قصيرة مرتفعة الصوت. ازدادت الغضون على صفحتي وجهه عمقًا عندما ضحك. أدرك مدحت أنه بادر الحاج عبد الله بالشكر قبل أن يسمع منه تهنئة.
لكن الحاج عبد الله أسرع فقال: «نعم، أحسنت. نادرًا ما نسمع أخبارًا طيبة في نابلس هذه الأيام. والناس تحب الأعراس».
كانت البداية الرسمية للانتداب البريطاني على فلسطين الموضوع الثاني الدائر على ألسنة الجميع. وكثيرًا ما كان مدحت يسمع بعد عودته من العمل أصوات نساء تطرح أسئلة من قبيل: «هل تعرفون الفرق بين البريطانيين والفرنسيين؟». انتشرت في الشوارع منشورات وزّعها مكتب المستعمرات البريطاني. منشورات مكتوبة بالعربية والعبرية تقول إن عصبة الأمم صادقت على الانتدابات الأوروبية. سوف تحكم فرنسا سورية ولبنان؛ وسيحكم البريطانيون فلسطين. لن تحصل هذه البلدان على استقلالها. وسيكون الانتداب إجراء مؤقتًا في الطريق إلى الحكم الذاتي، أي إنه فترة من الإشراف «إلى أن يأتي وقت تصير فيه هذه البلدان قادرة على إدارة أمورها بنفسها».
وبعد أيام، وصلت برقية من والد مدحت: لديه مشكلات مالية في عمله. ستحلّ هذه المشكلات قريبًا، لكنها تقتضي بقاءه في القاهرة. ونتيجة هذا، لن يتمكّن من الحضور للمشاركة في طلب يد فاطمة رسميًا من ذويها. قالت البرقية: «سأكون في نابلس وقت الزفاف في شهر تموز. وبعد بضعة أيام، سأقوم بتحويل المال من أجل المهر وتحضيرات العرس. أنا فخور بك».
شعر مدحت بحنين كبير. لم تكن في البرقية كلّها كلمات تحمل أية مشاعر، غير هاتين الكلمتين: «فخور بك».

طوى ورقة البرقية نصفين. دخل غرفة أبيه المظلمة. استنشق نفسًا عميقًا، ثم سار إلى طاولته. جلس إلى تلك الطاولة.

كانت الغرفة أصغر كثيرًا من غرفة مكتب الحاج طاهر في القاهرة. وما كان فيها شيء غير طاولة مكتب مع كرسي، وتلك الخزانة عند الجدار، ورف كتب صغير إلى جانب النافذة المطلّة على المنحدر حيث كان عصفور يقفز بين أغصان شجرة الزعرور في ذلك الغسق. لم يكن في الغرفة مصباح. فتح مدحت الدرج فتدحرج فيه قلم. التقط القلم وتناول ورقة من كدسة أوراق كانت إلى جانبه، ثم أغلق الدرج بقدمه.

كان غطاء القلم ممتلئًا حبرًا. نظر إلى الورقة الفارغة وهو يدير القلم بين أصابعه. لطخ الحبر أصابعه وإبهامه عندما كتب على الورقة: «والدي العزيز». كانت رؤية هاتين الكلمتين في الظلام صعبة.

تناول ورقة أخرى.

*عزيزي هاني،*

*سوف أتزوج من فاطمة حماد، ابنة الحاج نمر حمّاد. أعرف أن الوضع في دمشق مخيف. لقد أثارت الأحداث الأخيرة قلقنا جميعًا. لكني آمل أن تتمكّن من حضور الزفاف، سوف يكون، تقريبًا، في اليوم الثالث من عيد الفطر. آمل أن تكون بخير. لقد اشتقت إليك. أنا سعيد لأنني سأتزوج. لكن المزاج العام في نابلس ليس سعيدًا. نحن قلقون على مصيرنا. أتمنّى لك كل الخير والبركة في شهر رمضان. رعاك الله.*

*المخلص لك،*

*مدحت*

في غياب الحاج طاهر، أصرّت تيتا على المشاركة في طلب يد فاطمة. كان من المحتمل كثيرًا أن تصرّ على ذلك حتى لو كان الحاج طاهر موجودًا. وعندما أتى اليوم الموعود، أمضت وقتًا طويلًا إلى أن قررت ما سوف ترتديه: فستان أزرق، وقرطان فضيان. وصلت مع مدحت إلى دار حماد فوجدا بقية رجال دار كمال في انتظارهما هناك. كان جميل مستندًا إلى الجدار. لوح أبو جميل لهما بيده عندما رآهما يقتربان. كان وصفي هناك أيضًا، ومعه شقيقاه الاثنان.

قال جميل مشيرًا من فوق كتفه إلى شخص نحيل ينزل التل مسرعًا: «ها هو تحسين».

صاح أبو جميل: «لا تركض. سوف يتلف حذاؤك».

ضحك مدحت متوتّرًا عندما قرع أبو جميل الباب. أتى البواب، فدخلوا تباعًا... صفّ من البدلات والطرابيش. سارت أم طاهر في آخر الصف، مع مدحت. لقد

نسي مدحت اتساع الصالة في هذا البيت. كانت أشبه بصالة كنيسة. وعلى الرغم من أن الحاضرين من دار حمّاد كانوا أكثر من زوارهم، فقد بدوا للوهلة الأولى مجموعة صغيرة تحت ذلك السقف المرتفع ذي القناطر.

وقف الحاج حسن في آخر المستقبلين: كان هناك الحاج توفيق، وبضعة رجال مسنين آخرين، وعدد كبير من رجال أصغر سنًا. والحاج نمر واقف إلى جانبهم، ضامًّا يديه. كانت لحى رجال دار حماد أشد بياضًا، بقدر واضح، من لحى رجال دار كمال الذين كان أبو جميل أكبرهم سنًا. واحدًا بعد واحد، صافح رجال دار كمال أيدي رجال دار حماد قائلين: السلام عليكم، وعليكم السلام، السلام عليكم، وعليكم السلام.

كان مدحت يتقدّم مع صف المسلّمين، فرأى فاطمة واقفة خلف مستقبليهم، عند أريكة بعيدة، إلى جانب أمها. كان شعرها مفروقًا عند منتصف رأسها، ومربوطًا في عقدة منخفضة عند رقبتها. على وجهها حجاب رقيق أبيض يغطي أنفها وفمها. فستان بلون كْرِيم، وعقد طويل من اللؤلؤ. كحل كثيف في عينيها. ابتسم لها. نظرت إليه، لكنها لم تجبه بابتسامة. حذاؤها: أزرق سماوي. بقوّة لم يعهدها بنفسه، انفصل مدحت عن صف المسلّمين وسار إليها بخطوات متّسعة. أخرج من تحت سترته زهرة من شقائق النعمان كان قد قطفها من سفح الجبل. تأرجح رأس الزهرة اللامع على ساقها الضعيفة. مدت فاطمة يدها فهزّته رؤية أصابع يدها: عريضة عند منبتها، مستدقة عند أظافرها. ضحكة صغيرة من فمها المحجوب عندما تلاقت عيونهما. كان الجميع ينظرون إليهما: الحاج نمر، ووداد، وأخت فاطمة، وأخوها الأصغر. ابتسامة كبيرة على وجه تيتا.

دخلت القاعة خادمة معها صينية القهوة الأولى، فانقسم الرجال إلى صفين منتظمين. خرجت وداد، ثم عادت تحمل صينية ثانية. سارت بالصينيتين بين صفّيّ الرجال الذين تناول كل منهم فنجانًا. ثم تنحنح أبو جميل، وقال مخاطبًا الحاج نمر: «إن ابننا، ابن الحاج طاهر كمال، يتشرّف بأن يطلب يد ابنتكم فاطمة حماد لتكون له زوجة». صمتٌ قصير. أومأ الحاج نمر في اتجاه أفراد عائلته، فرفعوا جميعًا فناجين القهوة إلى أفواههم، في وقت واحد. وضعوا فناجينهم في الصينية فحرّروا أيديهم لكي تصفق. راح بعضهم يصفّر أيضًا. تقدّمت أم طاهر وعانقت وداد. قبل أبو جميل خد مدحت.

لم يستطع مدحت إبعاد عينيه عن فاطمة. ظلّت مُطرِقة إلى الأرض، لكن ابتسامة كانت، بالتأكيد، على شفتيها. سيكون عليه أن يعيش على هذه الابتسامة، طيلة شهر رمضان.

بعد طلب فاطمة، لم يرَ مدحت جميلًا -لم يره حقًّا- إلا عند طاولة الطعام في المساء عندما نزل مع تيتا إلى الطابق السفلي بعد المغرب. أمضى مدحت معظم أوقات

العصر في الأيام الأولى من رمضان مع عادل جوهري وقيس كرك. كانوا يتحدّثون لتسلية عقولهم في حين تعتاد أجسادهم الصيام. وبعد وجبة الإفطار، كان ثلاثتهم يذهبون للفرجة على الحكواتي في الساحات وهو يحرك دماه المعلّقة بالخيوط، أو يرتادون المقهى المزدحم حيث يكون الراوي واقفًا على كرسيه، يسرد قصصه وعينه على طربوشه المقلوب لتلقّي القطع النقدية من الحاضرين.

كان عادل وقيس رفيقين ممتازين. يحب كل منهما الآخر من غير حسد؛ وقد تقبّلا مدحت من غير أية أسئلة. كان لقيس مظهر صريح، يكاد يكون ساذجًا، فضلًا عن سلوكه المتحفّظ الشبيه بسلوك الرجال الأكبر سنًا؛ كفّان كبيرتان، وشعر وجه غزير، وميل إلى العبوس قليلًا عند الضحك كأنه يجد كل ما يقال سخيفًا بعض الشيء. لقد نشر أربع مراجعات أدبية في صحيفة مقدسية، فصار يتحدّث عن الانتقال إلى القدس لكي يعمل في هذا الميدان، على الرغم من أن الابتعاد عن عمل العائلة في صناعة الصابون لن يكون موضع ترحيب عند أبيه وأعمامه.

كان عادل أكثر مرحًا من قيس؛ لكن آراءه كانت مثقلة بطابع اعتيادي. عاد السنة الماضية من الجامعة في بيروت. وفي بحثه عن قضية، انضم إلى الفرع المحلي للجمعية الإسلامية - المسيحية. كان واحدًا من أصغر أفراد الجمعية سنًا؛ وكان يمضي نصف الوقت في إلقاء محاضرات سياسية على قيس ومدحت بعد أن شارك في التوقيع على عريضة ضد الانتداب الوشيك.

وفي تاسع أيام رمضان، خرج الثلاثة من المسجد بعد صلاة المغرب وذهبوا لتناول طعام الإفطار في بيت عادل.

قال قيس: «كنت أريد أن أسألك... ألا تزال تريد أن تعمل طبيبًا؟».

قال مدحت: «طبيب! لا. لماذا تسألني؟ لقد تخليت عن هذا منذ زمن بعيد».

«إذًا، ربما السياسة!».

«لا. السياسة ليست لي. سأظلّ في مجال تجارة الأقمشة. من المحتمل أن نعيش في القاهرة حيث يعيش أبي».

«حتى بعد أن تعلّمت الطب!... يعني! الأعمال العائلية فقط!».

قال عادل: «لا تذهب إلى القاهرة».

سأله قيس: «لم لا؟».

«نحن في حاجة إلى مدحت هنا. الناس يحبون مدحت».

قال قيس كأنه يغني: «يا الباريسي».

قال عادل: «تلزمنا هنا شخصيات جيّدة».

قال مدحت: «حسنًا، كما تعرف، لقد أدركت شيئًا في واقع الأمر. أدركت أن المسألة غير متعلّقة بأعمال العائلة وحدها. إنه أمر أكثر من ذلك... يعني، إنه شيء... لم أفهمه جيدًا حتى الآن...»، ثم خلص إلى: «لكن، إذا كانت الأعمال مزدهرة في القاهرة، فسوف نعيش في القاهرة. الأمر بسيط».

قال قيس: «أفهم هذا، من الصعب أن يكون المرء حرًّا هنا».

«لا، لا، الأمر هذا ما أردت قوله. الأمر غير متعلّق بالحرية. إنه مسألة... الانتماء».

قال قيس: «أنت تعرف ما يُقال عن نساء نابلس. إذا أخرجتهنّ من نابلس، فإنهنّ يصرن قويات جدًّا. إن كنت تدرك ما أعنيه».

تظاهر عادل بالاستياء: «شو هادا؟ سوف يتزوّج عما قريب».

كان عادل يعيش مع أمه وأبيه وإخوته وأخواته في مركز المدينة -لكنه يصر على القول إنهم يعيشون في غربها- في الطابق الأرضي من بيت على النمط القديم مع أنه حديث البناء. بيت له فسحة داخلية صغيرة وبركة لجمع ماء المطر. جلسوا إلى الطاولة في الخارج، ثم انضم إليهم شقيقا عادل الصغيران، ثم تلاهما أبوه. كانت المباني من حولهم مظلمة، لكن ألقًا شاحبًا غريبًا ظل ظاهرًا في السماء. صحا ذهن مدحت في تلك البرودة المنعشة فبدأ يقصّ عليهم حكاية. «ذات يوم، كنت مسافرًا بالقطار في فرنسا».

قال والد عادل الذي كان سمعه ثقيلًا: «بماذا؟».

ردّ عادل: «قال إنه كان مسافرًا بالقطار».

«كنت على متن هذا القطار فرأيت رجلًا جالسًا، هناك».

أشار إلى قيس الذي كان جالسًا على مسافة كرسيين منه.

شجّعته عينا قيس على الاستمرار. كانتا متسعتين في ضوء الشمعة.

قال مدحت: «كان كْتير مرتَّبْ. في غاية الأناقة. ربطة عنق». كان يشير إلى جسده وهو يصف الرجل، ثم نصب قامته من جديد... «شارب دقيق جدًا. أشقر الشعر. قبعة راح كل منا ينظر إلى الآخر، هيك». أغمض عينيه وخفض رأسه قليلًا في تحية رسمية.

فعل قيس مثله موافقًا على اتخاذ دور الفرنسي الأشقر. ثم ضحك.

«وبعد ذلك، انطلق القطار».

قال عادل: «إلى أين كنت ذاهبًا؟».

«أوه، إلى ليون».

«لماذا؟».

لوّح مدحت بأصابعه وقال: «هذه قصة أخرى. ثم نهض الرجل ونزل من القطار. وكانت وجهتي المحطة التالية. أثناء خروج القطار من المحطة، لاحظت أن الرجل ترك

شيئًا على مقعده. شيء صغير، من الجلد، هكذا. إنه محفظة. أخذت المحفظة -مسيو، مسيو! لوّحت بيدي من النافذة- خَلَصْ، لقد ذهب الرجل. شُوْ صار؟ جلست ممسكًا تلك المحفظة. لم أرد أن أتركها لكي لا يسرقها أحد...».

قال قيس: «هل كان في المحفظة نقود؟».

«نقود كثيرة. ألف، أو ألف وخمسمئة فرنك فرنسي. شُوْ صار؟ لا أستطيع أخذ هذه النقود، فهذا أمر معيب جدًا. نظرت في المحفظة فوجدت عنوانًا. بطاقة صغيرة بهذا الحجم. عليها اسم وعنوان».

قال عادل: «ما اسم الرجل؟».

قال مدحت: «اسمه لوران».

اندفعت موجة احمرار من أحشاء مدحت لحظة نطقه هذا الاسم، ثم صعدت إلى وجهه. أحس جلدة رأسه مشتعلة. لوران. لوران العزيز. كانت هذه أول مرة يتذكّره.

قال والد عادل بنبرة لطيفة: «يلا كمّل».

تابع مدحت بصوت أكثر انخفاضًا بعد أن رفع رأسه ناظرًا إلى زرقة السماء الشاحبة وأطلق زفيرًا بطيئًا: «إذًا... كان العنوان كذا كذا، مكان في كذا، بالقرب من ليون. نزلت من القطار، واجتزت رصيف المحطة، يعني، هناك جسر صغير فوق خطوط السكة. انتظرت القطار التالي. كان موعده بعد خمس عشرة دقيقة، أو شيء من هذا القبيل. ثم نزلت في المحطة التي نزل فيها الرجل الأشقر. أخذت سيارة تاكسي -هناك الكثير الكثير من سيارات التاكسي في فرنسا- وقلت للسائق: خذني إلى هذا المكان من فضلك. كانت رحلة قصيرة. وصلنا. ما هو المكان؟ إنه قلعة. قلعة حقيقية. والله العظيم. بِسَمّوها شاتُوْ بالفرنساوي. ممر طويل هكذا، وأشجار. صرت في الممر فرأيت خيولًا تجري في الحقول».

في باحة بيت مظلمة، يشي بياض العيون باتجاه نظرة كل شخص. وعندما قال مدحت جملته الأخيرة عن الخيول، التقط نظرة قيس المشكّكة تنزلق في اتجاه عادل. لم يقم عادل بأية محاولة لإخفاء اختلاج صدره. ارتعاشة بسيطة قد لا تكون أكثر من تجشؤ بعد الطعام؛... لكنها جعلت مدحت يستعجل الوصول إلى آخر قصته.

«دققت على الباب، وسألت عن هذا المسيو: لوران. قالوا لي إنه ليس مسيو فحسب! إنه دوق! هذه ليست كذبة، أقسم بالله. رأيت ذلك الرجل الأشقر قادمًا عبر باب بعيد...». أشار إلى نافذة في الجهة الأخرى من الباحة فيها مصباح متّقد... «عانقني الرجل وصافحني الخدم جميعًا... ثم صارت تلك صداقة عظيمة. لقد كان

ممتنًا لي كثيرًا. قال إنه لم يكن يشك أبدًا في أن ذلك المال قد ضاع. بقيت عندهم ثلاثة أيام. ثم عدت إلى باريس».

قال شقيق عادل الأصغر: «مِشْ مَعْؤول. هذا مدهش».

نظر عادل في عيني مدحت وراح يضحك. تساءل مدحت الذي كان لا يزال تحت تأثير ذكره المفاجئ لاسم لوران، ولا يزال يشعر بالضعف، إن كان عادل سيشكّك في صدق هذه الحكاية فيحرجه. ثم تغيّر شيء ما؛ انحلّت عقدة العضلات المتوترة في جوفه فراح يضحك بدوره. حرر ضحكةُ صديقَه فارتدّ إلى الخلف ودق براحة يده على ركبته.

لعل ما من أهمية لأن يكون قد اختلق هذه القصة. لقد كانت قصة جيدة، وهذا أكثر من كافٍ. إنها الطريقة الأفضل للإفصاح عما في نفسه؛ فلا فائدة من التصويب المباشر. ومع هدوء ضحكاتهم، عاش مدحت لحظة نادرة من إدراك الذات. أحس بحضوره من خارجه، لا في المكان وحده، بل في الزمان أيضًا. ففي لمحة واحدة، رأى هذا الدور الذي أدّاه أمام أولئك الرجال في نابلس نوعًا من انعكاس لشخصه الذي كان في باريس، إنه الدور الذي كان يؤدّيه مع النساء. لقد كان على الدوام متميّزًا باختلافه. وفي مرات كثيرة، خلال جلسات الغزل، كان يتعمد استخدام لغة فرنسية ضعيفة (في تلك الفترة، كاد يصير طلق اللسان بالفرنسية) لاكتشافه أنه يستطيع أن يلعب بسهولة دور المهرّج الجذّاب مع الاحتفاظ، في الوقت نفسه، بفتنةٍ ما يظل مبهمًا خفيًا. كانت هناك دائمًا نواة خبيئة بين الطيّات، غموض يثير نوعًا من التوق إلى اكتشافه. لقد أتاه هذا الإحساس الآن، من جديد، تلك النظرة المزدوجة.

فكّر في نظرة عيني جانيت الثاقبتين متّجهتين إليه من الناحية الأخرى من الطاولة. تساءل عما قد تراه في هذا الاختلاق؛ ولاحظ، كمن يلاحظ من بعيد، احتمال الشعور بالخجل. سرعان ما حل الغضب محل الخجل. لكنه ضبط ذلك الغضب فمرّت اللحظة وانقضت.

ومع اكتمال حلول الظلام، انتقل الحديث -كالعادة- إلى النبي موسى. كان والد عادل مصرًّا على أن اتخاذ قرار الانتداب على فلسطين هو ردة فعل على ما حدث يومها؛ وكان مصرًّا على أنهم ضيعوا فرصهم نتيجة ذلك الفصل الدامي. وكرر عادل، الذي كان نصف مؤيد لوجهة نظر أبيه، بعض حججه المعتادة عن استخدام الحوار في مواجهة خسارة كل شيء. كانت تلك المناقشة قد جرت مرات كثيرة من قبل، فلم تتجاوز الحجج المكرّرة المعتادة. فقدوا حماستهم؛ لكن مدحت تذكّر فجأة المسدس الذي كان مع باسل، تمامًا مثلما تذكر جانيت: ظهرت له تلك الصورة من لا مكان. شيء غريب: لقد نسي تمامًا أمر المسدس. جاءت موافقة الحاج نمر بعد حوادث النبي موسى بفترة قصيرة جدًا، ولا بد أنها طغت على كل شيء آخر في دماغه.

قال: «هل جرى إطلاق نار في النبي موسى؟».
أجاب عادل: «بالطبع، كانت هناك طلقات نارية».
قال والد عادل: «ماذا؟».
ظن عادل أن والده لم يسمع جيدًا، فصاح: «لقد قلت، بالطبع...».
قال أبوه: «لكنك لم تخبرني عن هذا».
«لم أرد إثارة قلقك».
«من أتى بالأسلحة؟».
«وما أدراني أنا؟ كان لدى جابوتنسكي أسلحة. إنهم اليهود، على الأرجح».
قال مدحت: «أوه، أتذكر...».
لمعت في ذهنه صورة أخرى. ذلك الجيش في القدس، أو تلك الميليشيا.
قال قيس: «ماذا تتذكر؟».
لكن قيس كان الشخص الوحيد الذي سمع ما قاله مدحت، لأن الجميع كانوا مستمرين في كلامهم.
لوّح مدحت بيده: «لا شيء». لقد فوجئ بنفسه. وفي طريق عودته إلى البيت، أدرك أنه كاد ينسى ما رآه نسيانًا أعمى... رجال ونساء جابوتنسكي سائرين في تشكيل عسكري. لقد حلّت نسخة حوادث النبي موسى التي رواها لكل من تيتا وأم جميل محل الذكرى الحقيقية. أمر غريب جدًّا! أحس إحساسًا منذرًا بالخطر أن في عقله زوايا مظلمة لا يراها. وتساءل قانطًا عما قد يكون نسيه غير ذلك، أو عما يمكن أن ينساه.
في اليوم التالي عاد مدحت من عمله، وسار صاعدًا في طريقه إلى البيت. نادى جدته عندما صار بالعتبة. رأى مغلف برقية على الطاولة: برقية من القاهرة.
ناداها من جديد: «تيتا»، ثم التقط البرقية عن الطاولة ودخل المطبخ.
كان المطبخ خاليًا. باب الخزانة مفتوح. أغلقه. لم يجدها في الصالون، ولا في غرفتها. سار إلى غرفته حيث كانت شمسٌ حمراء في النافذة تلامس الأفق. وقف على سجادة الصلاة، وبدأ يصلي. رفع يديه إلى أذنيه، ثم انحنى، ثم استقام، ثم ركع. رفع رأسه بعد ركعتين فأجفل: تيتا جالسة على سريره.
«لقد أخفتني! هل أنت شبح؟».
دموع في صوتها: «لقد ارتكبت غلطة. سامحني. غضبتُ كثيرًا من أم محمود. لقد ذهبت».
«لماذا؟».
«لست أدري ما حدث...». رفعت يديها في الهواء، ثم تركتهما تسقطان من جديد...

«لست أدري ما يحدث لي هذه الأيام. لقد أحرقتْ طعام العشاء، وأحترق أسفل القدر، ففقدت أعصابي. لم أكن أتخيّل أبدًا أنها ستذهب مثلما فعلت».

جلس إلى جانبها. رأى أصابعها مرتعشة في حجرها: «أوه، أوه، يا تيتا. لا بأس، يا تيتا. لا أهمية للأمر. انظري... لقد أرهقتِ نفسك».

«بل هو مهم! العرس! أم محمود... إنها طبّاخة ممتاز... هي ممتازة عادة... نحن في حاجة إليها من أجل المَنْسَف».

«لن يحدث شيء. سنجد غيرها».

«أريد أم محمود. لا تخبر والدك بهذا!».

«سوف نجد، أتعرفين... لماذا لا أذهب لرؤية أم محمود. سأرى إن كنا نستطيع إصلاح الأمر».

«آه، هل ستذهب إليها؟...». نظرت إليه وبدأت دموع تقطر من عينيها... «إنني أحبّها. إنها عندنا منذ زمن بعيد جدًا».

«سأذهب، بالطبع. وسيكون كل شيء على ما يرام».

«أعرف، أعرف. ما هذا؟».

كانت تشير إلى مغلف البرقية الذي رماه على السرير. في ضوء الشمس الأخير، كان لون الورق الأبيض ورديًا.

«إنه المهر، على ما أظن».

ابتسمت له ابتسامة ساخرة، من خلال دموعها: «ألن تفتحها؟».

«كنت أصلّي».

«الصلاة قبل المال. حبيبي. مسلم صالح».

فتحت المغلف من أعلاه، وأخرجت البرقية منه. كف فمها عن الابتسام. تجهم وجهها: «لا أفهم شيئًا. ماذا تقول البرقية؟».

«هاتي حتى أرى».

*العزيزان أم طاهر ومدحت،*

*لقد توفي زوجي الغالي. رحمة الله عليه. أصابته نوبة قلبية. كان في غرفة مكتبه. وكنا نائمين جميعًا. أرجوكما، تعالا.*

*ليلى*

فغر مدحت فاه.

سألته تيتا: «أليس المهر؟».

«بابا».

سرت في ظهر مدحت موجة تشنّج حادّة قاتمة. أغمض عينيه بشدّة وأسند ذقنه بصدره كأنه يتّقي ضربة.

كان ذلك كافيًا بالنسبة إلى تيتا. انزلق ثقلها عن الفراش وهبطت إلى الأرض. نظر إليها فرأى ارتجاف ظهرها المنحني. بدأت تبكي. عويل منذر خفيض، ثم أنين طويل. بدأ يزداد حدة. يدها الواهية تضرب الجدار. كان شيء زلق ينبع في رأس مدحت. كان نواحها أغنية، شيئًا تتمسّك به. كانت ساقاه وذراعاه خفيفة كلّها، إلى حدّ الألم. نظر إلى يدها تضرب الجدار. سقط السرير مبتعدًا. واختفت الأرض.

سيسافران إلى القاهرة في الصباح. وجد مدحت في المطبخ أرزًّا باقيًا من وجبة سابقة. غلى ماء في قدر على النار، ثم أضاف الماء الحار إلى الأرزّ. حرك الأرزّ إلى أن تفتت كله وصار ما في الوعاء مزيجًا سائلًا. سكب الماء الزائد الذي صار عكرًا في المصرف الذي عند الباب الخلفي. دخلت تيتا عندما كان يضع ورق العنب المحشي البائت الباقي في طبق. من غير أن تقول أية كلمة، سكبت الأرز الباقي في مقلاة عميقة وضعتها على النار، وراحت تبحث بين أكياس التوابل في الخزانة. كان الخبز الذي سخّنه قد صار صلبًا عندما فرغت تيتا مما تفعله. تناولا طعامهما صامتين.

استيقظا في الصباح الباكر على صوت قرع طبل المسحراتي عند بيتهما. وبعد السحور، ذهبا بالقطار إلى طولكرم، ثم انطلقا منها في القطار الذاهب مباشرة إلى القاهرة. كان المسافرون قلة في شهر رمضان، فحظيا بأربعة مقاعد بالقرب من عربة الطعام. جلس مدحت إلى جوار النافذة. ظلت تيتا تدعو طيلة الرحلة، وتهتز أمامًا وخلفًا، وترفع رأسها من حين لآخر فتنظر إلى السقف باسطة كفيها. أحس مدحت بعزلة غريبة جافّة كأن كل ما في جسمه من سوائل قد تبخر.

بلغا القاهرة عند المساء. جرت إصلاحات كثيرة في المدينة منذ أن زارها قبل ثمانية شهور؛ وصارت مزدحمة بالمحتفلين بعد الإفطار. أخذتهم سيارة تاكسي من المحطة إلى شارع عريض فيه مقاهٍ ومكتبات ورجال ينتعلون جزمات مرتفعة يحرسون المداخل اللامعة لمتاجر كبيرة. بلغا البيت في العباسية فانتظرا على السلم عدة دقائق قبل أن تفتح لهما الخادمة الباب. أدخلتهما إلى الصالون. كانت ليلى ترتدي ملابس سوداء. صار وسطها أكثر امتلاء، لكن ذلك لم يكن مظهر امرأة حبلى. بدت حانقة عندما مدت يدها للسلام على مدحت. اقترب منها فرأى عينيها محمرتين من البكاء.

«لقد أصابته نوبة قلبية...». ارتعشت شفتها العليا... «رحمة الله عليه. كان يأكل... كان يأكل... الفستق الحلبي. كان في غرفة مكتبه. رجل أحمق».

تمتم مدحت: «العوض في سلامتك». بدأ ذهنه يتصوّر المشهد، لكنه أوقفه. أغمض عينيه... «رحمه الله».

قالت ليلى: «ماما...». واقتربت من حماتها التي لم تحبّها يومًا.

بدأت أم طاهر تبكي: «أين هو؟».

«لقد دفناه».

«دفنتوه؟ ومن غسله؟».

قالت ليلى: «أنا غسلته».

أرسلت ليلى الخادمة مع مدحت وجدّته لكي تريهما الغرفة التي سيتقاسمانها. نظرت تيتا شزرًا إلى السقف وإلى الوسائد المخملية على الفراش. فراش رقيق زاويته مرتفعة قليلًا عن الأرض. وضع مدحت حقيبته إلى جانب الفراش بينما كانت تيتا تسأل الخادمة عن مكان الحمام. همست له عندما عادت: «اذهب وانظر». ثم جلست ببطء على كرسي في الزاوية. استشارت بوصلتها، ثم أدارت الكرسي في اتجاه القبلة، جعلته مائلًا قليلًا عن النافذة. استلقى مدحت على الفراش وغفا سريعًا.

لم يجدها على الكرسي عندما استيقظ. أتته أصوات من الأسفل، صاعدة إليه عبر الأرضية. كانت على ظهر سترته غضون مقوّسة. فتح حقيبته وأخرج منها سترة أخرى.

سمع صوتًا مرتفعًا من الأسفل: «إنه كبير جدًا، أليس كذلك؟».

أجابه صوت آخر: «ماري! لم أعرف أنك آتية».

ذهب إلى الحمام. كان فيه مرحاض أبيض حديث، في آخره. وإلى أحد الجانبين، كان حوض استحمام ذو قوائم. وقبالة الحوض مغسلة ذات رقبة طويلة نابتة من الأرض. كانت تلك القطع الثلاثة بيضاء لامعة كأنها أسنان نظيفة. ركع مدحت على البلاط حيث كان قليل من الماء متجمّعًا في الفواصل الجصية. أسند رأسه إلى حافة حوض الاستحمام البورسلانية. كانت تلك الحافة قاسية، باردة. نادى أحدهم باسمه. وبعد لحظة طويلة، سمع خطوات رقيقة وصوت طفل.

«مدحت؟».

أجابه بصوت متزن: «إنني قادم». نهض واقفًا، وفتح الصنبور، ثم أغلقه، ثم فتح الباب.

إنه مصباح، أكبر إخوة مدحت غير الأشقاء. طفل ذو سمرة داكنة، طويل الساقين، وجِل. كان على شفته العليا زغب خفيف. انتظر إلى أن انتعل مدحت حذاءه. ثم تقدّمه نازلًا السلم. وفي الأسفل، كانت الصالة ممتلئة رجالًا ونساء. قالت ليلى بصوت مرتفع: «هذا هو ابنه. ابنه البكر».

تنحّى مصباح عند أسفل السلم. حلت لحظة صمت مرتبك لم يتقدم خلالها أحد لتحيته. وبعدها، أدرك الضيوف المعزّون من عَنَته ليلى بكلامها، فاتجهوا إلى مدحت. سار في الصالة من خلف مصباح، وراح يصافح أيديهم من غير أن يحتفظ في ذهنه بأي اسم أو وجه. رأى ليلى تتلقى صينية طعام من شخص ما وتخرج بها عبر باب في الناحية الأخرى. كانت الكراسي مصفوفة عند الجدران. وكان الأطفال يدخلون ويخرجون. شقيقا مدحت الصغيران، نديم ونشأة، في بدلتين من المخمل. وأختاه دنيا وانشراح في فستانين عليهما خطوط متقاطعة. ظل مصباح واقفًا وحده عند الزاوية.

قال رجل كهل: «كنت أعرف والدك معرفة جيّدة جدًا». وضع في يد مدحت مصحفًا فضّيًا ثقيلًا... «لقد كان رجلًا طيبًا، صالحًا».

ظل الضيوف جالسين زمنًا طويلًا، وتحولت تمتماتهم الخاشعة إلى ثرثرة كسول. كان الأطفال قد ذهبوا إلى النوم منذ وقت طويل. وكانت تيتا مع مجموعة من النساء القاهريات. داهمتها نوبة سعال. دعكت واحدة من النساء ظهرها. لكن ليلى اغتنمت الفرصة وقالت: «عليكِ أن تذهبي إلى النوم، يا أم طاهر. إلى الفراش». وأخيرًا، ارتدى آخر الزوار معاطفهم ولفّت النساء أوشحتهنّ على رقابهنّ، ثم ودّعنهم.

عند منتصف الليل، أفاق مدحت على شيء يشدّ أذنه. فتح عينيه فرأى وجه تيتا الكبير الشاحب منحنيًا فوقه.

«لا تنم على ظهرك هكذا. تبدو كأنك ميت».

«ماذا؟».

«لم أستطع النوم. أنا خائفة».

لقد كان يحلم. لم يعرف موضوع حلمه. أتت الأفكار متزاحمة إليه.

شدّ نفسه إلى الأعلى وانزلق إلى جانبها.

أطبقت الظلمة عليهما من جديد. كان الفراش خارج الغطاء باردًا تحت كفه؛ فيه شيء من الرطوبة. وكانت تيتا نائمة، مديرة ظهرها إليه. سمع صوت شخيرها الهادئ.

في غياب مواعيد الوجبات التي تحدّد أجزاء النهار، ربط مدحت نفسه بمواعيد الأذان. كان يحصي الساعات وأنصاف الساعات بين أذان وآخر. كلما رفع المؤذن إلى الناحية الأخرى من الشارع صوته، كان مدحت يخرج من الغرفة التي اجتمعت الأسرة فيها كلها فيصعد لكي يتوضأ ويصلي. وكانت تيتا تمضي فترة الصباح كلها في غرفتهما، مهتزّة على كرسيها، رافعة كفيها إلى السماء، ثم لا تلبث أن تنضمّ إلى بقية أفراد الأسرة عند الظهر. كان الأطفال يبكون، ثم يصمتون، ثم يبكون. ليس واضحًا مقدار ما كانوا يدركونه مما حدث، ومقدار ما شرحته ليلى لهم. لكنّهم كانوا قد التقطوا الحزن الذي

يعمّ المكان؛ وكانوا يعبّرون عنه على فترات متقطعة بحيث لا يغيب زمنًا طويلًا. ترفع تيتا عينيها إلى السماء كلما انفجر بكاؤهم. من المؤكد أن مصباح كان كبيرًا بحيث يفهم ما وقع، لكنه لم يكد يبكي أبدًا. كان أيضًا الطفل الوحيد الذي بلغ عمر الصيام؛ وكان ينظر حزينًا إلى أختيه وأخويه يُسكتون دموعهم بالطعام وقت الغداء. كان الطعام سلواهم الوحيدة؛ لكن الطعام نفسه كان فاصلًا مؤقتًا. وكانت كل محاولة أخرى لمساعدتهم أو لعناقهم أو لتهدئتهم تلقى صدًى عنيفًا منهم. ومن حين لآخر، كانوا ينطقون هذين المقطعين: ما – ما، مع أنه لم يكن يبدو عليهم أنهم يريدونها عندما تأتي وتحملهم.

كانت دنيا ذات الشعر الأشقر أكثر الأطفال شبهًا بأبيها بوجنتيها ذات العظام العريضة مثل وجنتيه. لا يزال في أنفها انحناء الطفولة الأولى الحلو؛ وكثيرًا ما تتغضّن جبهتها عندما تعبس. كبر نشأت منذ الخريف؛ وكانت ليلى تمسكه من حين لآخر وتنفخ مستاءة وهي تشد قميصه المنشمر عن بطنه. كان لانشراح ونديم عينا ليلى؛ وكان أنف نديم رقيقًا مثل أنفها، إلا أن جمجمته العريضة وشفتيه الرقيقتين لم تكن تشبه أحدًا. استهلكت هذه التأملات العقلية ساعات مدحت بين الصلوات. لا بد لمدحت اليوم من مواصلة السير إلى جانب الهاوية. ولن يبقى لديه وقت الليلة لأنه سيكون محاطًا بالناس. سيعودان غدًا إلى نابلس. وعند ذلك، سيكون هذا كله قد غاب في الماضي.

مع حلول المساء لم يجد مدحت أية شهية إلى الطعام.

أبعد الطبق عنه وقال: «لست جائعًا».

قالت تيتا حانقة: «لقد كنت صائمًا. وأنت نحيل جدًّا».

قد يكون هذا صحيحًا، لكن بقاءه جائعًا كان أمرًا رائعًا. هذا يجتذب الطاقة كلّها إلى معدته فلا يفكر في شيء.

جاء الليل فنام نومًا عميقًا. لكنه استيقظ مجفلًا قبل ساعات من بزوغ الفجر. كانت همهمة أنابيب المياه الخفيضة صاخبة في أذنيه فظن، أول الأمر، أنه استيقظ بسببها. ثم أدرك أن معدته تقرصه. كانت تجعله في حالة دوار، حتى مع استلقائه في الفراش. خرج بهدوء من الغرفة، ونزل إلى الطابق السفلي. وقبل دخوله المطبخ، رأى باب غرفة مكتب أبيه. كان الباب مغلقًا. فتحه.

كانت المصاريع الخارجية للنوافذ مغلقة، لكن أصابع صفراء من ضوء مصباح الشارع امتدت إلى الغرفة عبر ألواحها المائلة. كان الكرسي ملتصقًا بطاولة المكتب التي انتشرت على محيطها أكداس من الأوراق تاركة مستطيلًا خاليًا في الوسط. كانت في الغرفة رائحة أبيه، رائحة المسك، ورائحة التبغ.

هاجمه كل شيء دفعة واحدة. وما كان يستطيع فعل شيء لإيقافه... لم يحتط له بأي

دفاع. لا بد أن هذا المشهد كان ينتظره متأهّبًا خارج مجال رؤية عقله الذي كان يستيقظ في تلك اللحظات، معتمدًا على المعلومات التي عرفها. والآن، بدأ يرى ذلك المشهد الذي لا يمكن إيقافه. رأى، وأحس... فمٌ ممتلئ فستقًا حلبيًا... صدر أبيه يتشنّج. الذعر المطلق، الوشيك: ذراعا أبيه وقد أوثقتهما قبضة مفاجئة، وألم عميق غير واضح ينبض في بطنه، وملاك الموت يدخل الغرفة عبر نافذتها نصف المفتوحة، والفستق الحلبي نصف الممضوغ يتناثر من شفتيه ساقطًا على صدر قميصه. لهاثه ووجهه المتّقد. الجسد يتقلّص حتى يتقيأ الفستق الحلبي الذي ابتلعه. ثم هدوء... الجسد راقدٌ حيث انتهت الحياة، منكب على الطاولة.

حدّقت طاولة المكتب في مدحت. رفع ساقه وركلها. كانت ثقيلة فلم تنحرف إلا قليلًا. ركلها من جديد، بقوة أكبر. ثم كرّر الركل وهو يلهث مُحمِّلًا حركة ساقه اليمنى ثقل جسده كله وقوته كلها. ثم ركلة أخرى انحرفت معها طاولة المكتب انحرافًا تامًا إلى أحد الجانبين فظهرت آثار قوائمها بقعًا بيضاء على الأرض.

اجتاح الغضب العاصف جسده. لقد فعل كل شيء من أجل هذا الرجل. وكان كل خيار موجهًا من أجل رأي هذا الرجل. وقد نجح! لقد خطب ابنة حماد! فأين هو أبوه الآن؟ تشقّقت حياة مدحت كلّها وصارت أعواد قصب واهية. انهارت أعواد القصب من غيره. انهال على الطاولة لكمًا بقبضتي يديه. أحسّ في أصابعه ألمًا زاد من جنونه، فراح يضرب الطاولة بحافّة يده، يضربها بإيقاع يشبه إيقاع أغنية تيتا. سمع أنينًا منسابًا من فمه المتقلّص ألمًا. التقط إحدى الأوراق ورأى عليها، من غير أن يقرأ، عنوانًا متعلّقًا بالحصول على ترخيص. كانت الأوراق كلّها مراسلات خاصة بالعمل. بحركة مبالغ فيها، مزّق الورقة فرأى انفصال رأس حرف «ص» الشبيه بالوسادة عن ذيله. كان تمزيق الورقة مثل إسالة الدم، فجعلته صدمة ذلك الصوت يهدأ.

سمع صوتًا قادمًا من الصالة. مهما يكن ذلك الذي كان مدحت فيه، فقد سقط عنه الآن. جذب طاولة المكتب إليه لاهثًا لهاثًا مضطربًا - جذبها من حافتها العليا أول الأمر، لكنّها لم تتحرّك، فانحنى وأمسك بساقيها وشدها إليه فجعل كدسًا من الأوراق غير مثبت بثقالة يرفرف مُصدرًا هسيسًا. جمع الأوراق التي سقطت بعد أن أعاد الطاولة إلى مكانها التقريبي. مد يده ليفتح الباب فلاحظ أنها تنزف. كان بالباب أخوه مصباح. كان شاحبًا جدًّا. بدا عليه الارتياح عندما رأى مدحت. لعلّه كان خائفًا من وجود روح عائدة إلى الغرفة، أو من جنّي موشك على الخروج من ذلك الباب. خفض رأسه واستدار لكي يذهب. في تلك اللحظة فقط، أدرك أن الدموع كانت تسيل على وجهه. مسحها بكم قميصه، وصاح: «انتظر».

كان مصباح قد بلغ منتصف المسافة إلى المطبخ. مسح مدحت على رأسه بكفه، وتفقد أزرار سترته. لعق بلسانه الدم الذي على يده.

«انتظر. أردت أن أقول لك، أن أتحدّث معك. فلنجلس هناك».

جلسا على الأريكة في الصالون المظلم. سمع صوت تنفس مصباح، وألقى نظرة إلى يديه الصغيرتين الجاثمتين على ركبتيه. كان الصبي قد ارتدى ملابس النهار. كمّا سترته المخملية قصيران بعض الشيء. كان وجهه مرتخيًا من خلف شفتيه المغلقتين؛ عيناه جاحظتان. كان وجهه غريبًا: حاجبان ثقيلان، وملامح وجه دقيقة ناعمة كوجوه البنات.

«أردت أن أقول لك...». حاول مدحت جعل صوته أكثر رقّة... «هل تعرف أنني فقدت أمي عندما كنت صغيرًا جدًّا. كنت صغيرًا مثل دنيا».

تحرّكت عينا مصباح الكبيرتان في اتجاهه.

«سيكون كل شيء على ما يرام».

قال هذا وانتظر. لكن الصبي لم يقل شيئًا.

«سيكون بابا سعيدًا في الجنة. هناك أحسن. لقد كان مسلمًا صالحًا. كان رجلًا طيبًا صاحب أخلاق. وسوف ينال ثوابه. هل فهمت؟ سوف يكون سعيدًا. نعم، أظنّه سعيد منذ الآن. فكّر في هذا».

«صحيح».

«كان أبًا جيدًا». قالها مدحت بصوت متكسر.

قال مصباح: «صحيح»، ثم أشاح بوجهه عن مدحت وقد ارتسمت عليه ملامح بهجة مفاجئة كأنه تذكّر شيئًا.

ظلت تيتا نائمة حتى شروق شمس ثالث يوم لهما في القاهرة؛ ثم حان وقت الرحيل. وقفت ليلى بباب البيت تلوح لهما بيدها مودعةً وقد ضيّقت عينيها. كان أطفالها حول ساقيها. تحركت سيارة التاكسي، وانتظر مدحت سماع بداية تعليقات تيتا اللاذعة عن ليلى وعن البيت. لكنه فوجئ بأنها لم تقل أي شيء. ظلّت تنظر من النافذة. انتبه مدحت إلى أن هذه قد تكون زيارتها الأولى إلى القاهرة.

وفي القطار، كانت تيتا تتنقّل بين حركات الصلاة والدعاء المعتادة وبين حالة قريبة جدًّا من الهياج، كانت تعبر عنها يداها المبسوطتين المتصلّبتين المرفرفتين من جهة إلى أخرى كأنها تعزف على العود. كانت تقول: «ماذا سنفعل؟»؛ تقولها بدرجات مختلفة من القنوط كأنها تخاطب بها أشخاصًا مختلفين: تخاطب نفسها أحيانًا؛ ويكون واضحًا في أحيان أخرى أنها تخاطب مدحت. لكنها كانت بين هذا وذاك، بعض المرّات، ثم تغرق كلماتها داخلها فتعود إلى الدعاء من جديد، وتختلط كلماتها بصوت مفتش

التذاكر وصوت آخر معلن عن المحطة التي وصلوا إليها... صوت يعدّد أسماء الأماكن كأنها سلع معروضة للبيع. وكان مدحت يكرّر عبارات فارغة كثيرة لطمأنتها، من بينها: «سيكون كل شيء على ما يرام»، ومن بينها «أنا معك».

سار القطار على امتداد ساحل غزة؛ وكان البحر على مقربة منهما متلألئًا تحت أشعة الشمس البيضاء. للمرة الأولى في حياته، تمنّى مدحت أن يكون أكثر تدينًا. لقد كان يصلّي، بالطبع؛ لكنه كان يشعر أحيانًا كأن صلاته أشبه بفعل عمومي، على الرغم من كون الصلاة فعلًا شخصيًا. كان يشعر بأن المرء يتعلّم دروس القرآن على نحو روتيني متكرّر، ويكون محاطًا بها من كل جهة، ويسمعها كثيرًا. كان ذلك نسيج عالمه، لكنه لا يحتل الجزء الحيوي المركزي في عقله، ذلك الجزء الذي كان نابضًا بهذه الحركة، على متن القطار، مندفعًا إلى الأمام في حين يحاول صاحبه جاهدًا أن يمسك أجزاءه كلها في مكانها. في طفولته، شعر بهذا الفضول نفسه إزاء أسرار العقائد الأخرى -إزاء المسيحية ونارها المقدّسة؛ وإزاء الأبجدية التي يستخدمها السامريون- لكن ذلك الإحساس خفت كثيرًا عندما كان لا يزال صغيرًا، عندما راحت التقاليد الدينية تبدو له أمرًا دنيويًا، أو عالمًا من القوانين والنواظم الأخلاقية المترافقة مع القصص القديمة نفسها، ومع الأعياد نفسها. كانت تلك أفعالًا، لا أفكارًا.

صار الآن ملتفتًا إلى الماء، محاولًا تثبيت نظره على الأفق البطيء خلف الأشجار التي تندفع غائمة وراء خط القطار، وعلى زوارق الصيادين المنعزلة وهي تتهادى فوق الأمواج. شعر كأنه يتلمّس شفة شيء كبير جدًا، شيء أسود أشبه بالبئر، وعاء كان في الوقت نفسه خواءً. فكّر، من غير أن يفكّر تفكيرًا محدّدًا... مجرّد شعور عند حواف عقله المتعَبة... فيما كانته غاية الوحي في أصوله. ما الذي يجعل من المهم كثيرًا أن يتجادل الناس، فيصلُ جدالهم حدَّ استخدام السيف، في معنى أن يكون لله يدين، وفيما إذا كان هو صانع الكون. ومن تحت هذا كله، كان ذلك الإلحاح الحي، مسألة الكبر الأصلية تلك: مثلما يمكن أن تكون مسافة عدة أميال على الأقدام مجرد لا شيء بالنسبة إلى العقل، من نابلس إلى القاهرة، رحلة يوم واحد بالقطار؛ لكن المسافة نفسها، إن وُضعت رأسيًا، تكشف صغر الجسد، وتبعث فجأة فكرة الموت. أيكون المرء في حاجة إلى مواجهة الأرض، أنفه في اتجاه ترابها، حتى يشعر بالمسافة الممتدة من فوقه؟ كان في هذا شيء من تركيبته الأخلاقية. لكن، لماذا... لماذا يجد نفسه مفكّرًا، في لحظة موت شخص آخر، في اختفائه هو؟

قالت له جدّته: «ماذا سنفعل؟»... وكأن هذه الفكرة لم تخطر في بالها إلا في تلك اللحظة.

أجابها وهو يصر على أسنانه: «سيكون كل شيء على ما يرام».

لقد كان عقله منهجيًا على الدوام. تلك هي المشكلة. كان يرسم شيئًا فوق شيء. وكان برميل الظلمة الذي أحسّه بدأ يتهاوى تحت أصابع عقله، ولم يستطع التقاطه، بل لم يفعل أكثر من تشويشه من خلال استعارات سقيمة حولته إلى شيء آخر. اختبر الحياة الآخرة -اختبارًا تجريديًا- مثلما جاء وصفها في الكتاب المقدس. لم يستطع تصوّر أبيه في روضة، في جنة. كانت تلك صورة زائفة. لم يمتلكها.

قالت جدته: «حبيبي، لا تبكِ».

«سيكون كل شيء بخير».

جعل تفكيره يتّجه إلى فاطمة، إلى صور خرساء لحياة الزوجية. صارت الدقائق ساعات، فوصلوا إلى طولكرم. صاروا مستعدين للقطار الذي سيأخذهم إلى نابلس. وصلوا إلى البيت وقت العصر. لم تكن هناك أم محمود لاستقبالهم. ظهر شيء عند عتبة الباب. مغلّف أبيض. نصفه في الظل؛ وخاتم البريد الدائري. كانت رؤيته أمرًا مخيفًا. لقد صار أي مغلف أمرًا مؤلمًا. تجاهلته تيتا تجاهلًا تمامًا، وراحت تعالج القفل بالمفتاح. التقط مدحت المغلف بعد أن تجاوزت تيتا العتبة.

*18 أيار 1920*

*29 شعبان 1338*

عزيزي مدحت،

*ألف مبروك - لا بد أنك سعيد إلى أقصى حد. آمل أن أتمكن من القدوم لحضور العرس - أظنك سمعت بأن الفرنسيين يحشدون قواتهم في مواجهتنا - لا أستطيع قول الكثير. لن أقول إلا أن فيصل متوتر، وإن هناك مطالبات تأتي من الأطراف كلها. يظن الناس هنا أن في فلسطين حرية أكثر مما لديهم - بعد كل ما سمعوه من أخبار المظاهرات. سوف نرى.*

*دار حماد عائلة ممتازة - أحسنت صنعا - آمل أن نحتفل معًا.*

*أخوك،*

*هاني*

مكتبة
t.me/soramnqraa

## - 13 -

كان المنفّذ الرسمي لوصية الحاج طاهر محاميًا من سيناء اعتاد أن يساعده في تجارة الأقمشة. وأما المنفّذ غير الرسمي الذي كانت صلاحياته أوسع أثرًا من صلاحيات المنفذ الأول، فهو ليلى. لقد كانت ليلى دائمًا فطنة في ما يتصل بالأمور المالية. ولم يكن الأمر غير ذلك عند وفاة زوجها. ففي غضون أسبوع من العودة إلى نابلس، تلقّى مدحت حصته من الميراث. كانت ليلى قد سدّدت ديون الحاج طاهر ثم قسّمت الباقي على نفسها، وعلى مدحت وبقية الذكور، فضلًا عن حصتين صغيرتين لكل من دنيا وانشراح. استخدم مدحت نصيبه لدفع مهر فاطمة، واشترى بيتًا في أطراف المدينة الجنوبية لكي يعيشا فيه بعد زواجهما. كان البيت من طابق واحد. وكان العجوز الذي سكنه من قبلُ قد أخذ ما فيه من أثاث. وأما تجهيزات المنزل الجديدة فقد اختارتها وداد ودفع الحاج نمر ثمنها. وبما أن أم طاهر في حداد، فقد تولّت وداد تحضيرات العرس كلّها. سيكون حفل الزفاف بعد يوم واحد من انتهاء الصوم؛ وسوف يستمر طيلة أيام العيد الثلاثة. ولم يتأخّر من شاء حظُّهم الطيب أن يكونوا مدعوين عن المباهاة بتلك الدعوة كثيرًا. استفاد الخياطون السامريون من تلك المناسبة، فقد أسرعت ضيفات العروس إلى شراء ملابس كثيرة من متجرهم.

لم يتمكّن هاني من القدوم. لقد دحر الفرنسيون قوّاتهم في دمشق فذهب إلى المنفى مع الأمير فيصل: أرسل من عمان برقية اعتذار عن الحضور. كان الغياب سمة مسبقة لذلك العرس. وكانت كل فرحة في ذهن مدحت تردّد صدًى حزينًا.

ساهم إيلي السامري في انتقاء ملابس مدحت: طربوش أطول من المعتاد، وربطة عنق منقوشة، وأنعم منديل لديه لكي يضعه في جيب سترته، وحذاؤه الإيطالي اللامع ذو المقدّمة المستدقة، حذاء بني اللون له مقدّمة سوداء وشريط من غرزات مزدوجة متكسّرة على امتداده. ارتدت فاطمة فستانًا أبيض أوروبي الطراز له عقد من الساتان على شكل فراشات عند كتفيها ومرفقيها، وخصر منخفض مع وشاح عريض. كانت أختها قد عالجت حاجبيها بمعجونة من الدقيق والسكر المذاب؛ ثم موّجوا شعرها وصففوه من حول وجهها وجمعوه من الخلف في جديلة لُفت على مؤخر رأسها. ثبّتت أمها إلى أعلى رأسها خمارًا من شبكة متّسعة الثقوب. جوارب حريرية بيضاء متجعّدة

حول كاحليها. خرجت من بيت أهلها حاملة أشياء كثيرة بيديها المزينتين بالحنة: شظية من خشب، ومرآة، ومقصّ، ومكعَّب سكر.

هبت الريح ليلة-الزفّة؛ وظلت الشموع تنطفئ مرة بعد مرة. وبعد زيارة الحمّام والرقص الذي تخللته زغاريد كثيرة، ثم قراءة الفاتحة وتلقّي التبريكات عند باب دار حماد، سار العروسان في رأس الموكب المتقدّم على أنغام المزمار والعود، وعلى ضوء المصابيح الفينيسية الملوَّنة وحدها، قاصدين البيت الجديد في الناحية الغربية الجنوبية من المدينة، حيث انتشر الناس قبالة الباب يغنّون الأغاني ويطلقون أمنياتهم بأن يكون دخول العروسين بيتهما «قدمًا خضراء». اجتاز مدحت وفاطمة العتبة، وأغلقا الباب من خلفهما، ثم وقفا صامتين يصغيان إلى أصوات الناس العائدين صوب المدينة. ابتسم كل منهما للآخر ابتسامة مهذّبة. كانت عيناها مؤطرتين بخطوط كثيفة من الكحل، وعلى وجهها طبقة كثيفة من البودرة.

قال لها: «مرحبًا».

وردّت عليه: «مرحبًا».

كان على أرض الغرفة مصباح كبير مما يُستخدم في الخارج. قرفص مدحت بثقة زائفة وضغط على اللسان الذي يرفع زجاجة المصباح، ثم أشعل الفتيل بعود ثقاب أخرجه من جيبه. حمل المصباح من مقبضه وأشار إليها بأن تتبعه. هكذا أمضى مدحت وفاطمة، بطريقة عفوية، الجزء الأول من ليلة زفافهما في التعرف على حديقة بيتهما الجديد.

كانت رقعة الأرض كلّها واقعة على سفح منحدر؛ وكانت الحديقة الخلفية مكوّنة من سلسلة من أربع مصاطب ضيقة. كانت المصطبة الأولى أعرض المصاطب، وفيها طاولة وثلاثة كراسٍ من الحديد المشغول. مساكب مربعة في المصطبتين الثانية والثالثة يبدو أنها كانت في ما مضى أحواضًا للزهور والخضار، لكنها صارت الآن مزدحمة بأعشاب برية غزتها الممرات. وفي المصطبة الرابعة التي كانت أضيق المصاطب جميعًا، كان هناك قِنّ دجاج ضخم إلى جانب أجمة ورد متشابكة الأغصان قُطفت ورودها كلها. كان سطح القن الإسمنتي متشقّقًا. رفع مدحت المصباح ونظر الاثنان إلى داخل القن. لا دجاج فيه، لم يريا فيه غير آثار بيضاء قديمة على الأرض. استدار مدحت فألقى المصباح المتأرجح ضوءًا مترجرجًا على البوابة الخلفية المنخفضة، وامتد ظلّ متطاول على الدرب الذي خلفها. لمع حرير فستان فاطمة في الضوء. عادت صوب البيت صاعدة درجات الحديقة، فأسرع مدحت لكي ينير لها الطريق.

«ألا تحبين أن تأكلي شيئًا؟».

«لا».

فكّر في أن يسألها: «هل أنت متعبة؟»، أو: «ألم يحن وقت الذهاب إلى الفراش؟». لكنه وجد نوعًا من إيحاء محرِج في كل عبارة اهتدى إليها ذهنه فآثر أن يظلّ صامتًا.

في داخل البيت، أشعل المصباح الآخر، وتقدّمها نازلًا الدرجات الثلاث المؤدّية إلى غرفة النوم، كانت الغرفة باردة نصف غائرة في الأرض. حجارة الجدران غير مطلية، وليس في الغرفة غير نافذة صغيرة مرتفعة، مغلقة في وجه ظلام الليل. سرير مزيّن بمفرش حريري أبيض. وعلى الجدار المقابل، بين كرسيين كبيرين منجّدين بلون أخضر، انتصبت خزانة مرتفعة مطعمة بالصدف ولها قوائم مقوَّسة. عند الباب، مرآة معلّقة في إطار دائري. وقف يراقب فاطمة وهي تنظر إلى كل ما في الغرفة. لم يكن الأثاث وفق ذوقه لأنه قديم الطراز، أنثوي؛ لكن هذا أمرٌ لا يد له فيه لأن ذلك الأثاث جاء هدية مَن الأم لابنتها. لا تزال الحنّة على يديها. رأى دائرتين سوداوين تحت عينيها. كانت متعطّرة كثيرًا. وضع مدحت المصباح على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، ثم همس لها: «حبيبتي»، وأمسك يدها المزيّنة بالحنة.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة خائفة. تقدّم صوبها وأفلح في تقبيل جبهتها قبل أن تتراجع مبتعدة عنه. بحركة بطيئة، قبض على ذقنها المشيحة عنه فأدار وجهها وطبع قبلة على واحدة من عينيها المتعبتين، ثم على العين الأخرى. كانت يده اليسرى عند وسطه. لوى زر بنطلونه الأعلى جانبًا، وحرره من عروته.

«ماذا تفعل؟».

«لا شيء، أخلع ملابسي».

خفض رأسه باحثًا عن شفتيها. وضعت كفَّيها على صدره.

«حبيبتي».

تراخى مرفقاها، وتركته يقبل فمها؛ لكنّ يديها ظلتا على صدر قميصه. إلا أن زر بنطلونه الثاني أطلق صوتًا أكثر ارتفاعًا من الأول، فتصلّبت ذراعاها من جديد.

«لا تخافي».

أفلت معصماها من قبضته. غارت ابتسامتها. خطت خطوة غير واثقة، ثم تعثّرت وتهاوت جالسة على حافة السرير. سمع صوت فرقعة مرتفعًا. رفعت أطراف فستانها فرأى أن كعب حذائها قد انكسر.

«دعيني أساعدك».

لكنها كانت سريعة جدًا. كانت لها أصابع موسيقيّ، ففكت رباط حذائها الأول كأنها عازف بيانو يؤدي مقطوعة سريعة. وفجأة، صارت قدماها خارج فردتي الحذاء،

فانحنت لكي تدسّهما تحت السرير. كان وجهها قرمزيًا عندما رفعت رأسها. لم يكن مدحت قد تقدّم صوبها أكثر من خطوة واحدة، لم يكمل خلع بنطلونه.

«سيكون الأمر أسهل من غير ضوء». مد يده لكي يطفئ المصباح. أطلق زفرة عندما حلت الظلمة. جلس مدحت على السرير.

«لا تقترب مني».

فوجئ بأن صوتها جاء من مسافة عدة أقدام.

«سوف أصرخ».

لم يبق في الغرفة ضوء غير شعاع واهٍ متسرّب من حول مصراع النافذة... من ضوء القمر، أو من مصدر بعيد آخر. جعل ذلك الشعاع جسد فاطمة واضحًا، لكنه لم ير وجهها. رأى مرفقيها ينثنيان؛ أصابعها مسترخية، لكنها مستعدة. صار الصمت ثقيلًا.

«أنت زوجتي».

استنشقت نفسًا طويلًا، عميقًا. في تلك اللحظة، بدا لمدحت أن الأمر طبيعي: إنها تهدّئ نفسها. رأى أصابعها العشرة تتوتر من جديد. لم يقترب منها أبدًا، لكنها أطلقت تلك الصرخة التي توعدت بإطلاقها. دوّت تلك الصرخة حادة في الهواء واخترقت أذنيه كأنها إبرة.

«آه، يا إلهي. لا. لا تفعلي هذا، أرجوك».

لم تغير تلك النغمة الوحيدة، المفزعة. شهيق، ثم تابعت صراخها مع أن شدّة الصوت تراجعت مع استمراره. لحظة توقّفٍ لاهثٍ أخرى. كانت الآن على مستوى النافذة، فتمكّن من رؤية وجهها. كانت عيناها متسعين، وصدرها يعلو ويهبط.

«لن أقترب منك. لن أفعل لك شيئًا. توقّفي فقط. أرجوك».

لم تصرخ بعد ذلك، لكنها ظلّت مستعدة للصراخ. اعتادت عيناه نصف الظلمة فرآها تجلس على الكرسي القريب من النافذة. رفعت قدميها إلى مقعد الكرسي كأنها تريد احتضان ركبتيها بذراعيها، لكنها لم تلبث أن نهضت واقفة وأمسكت بحافة الخزانة لكي تحفظ توازنها، أو هذا ما بدا له، لأنه رأى، بعد لحظة واحدة من ذلك، قائمتي الخزانة القريبة منه ترتفعان عن الأرض مصدرتين صريرًا، ورأى فاطمة ترفع إحدى قدميها عن الكرسي وتشدّ نفسها إلى الأعلى. ترنّحت قوائم الخزانة الأربع، وسمع مدحت حفيف فستان فاطمة، استقرّت فوق الخزانة. يداها الشاحبتان قابضتين على التاجين اللذين في أعلاها.

«لم تعد تستطيع الاقتراب مني الآن».

، عن عينيها، لكنه لم يرَ إلا يديها.

قال لها: «هذا صحيح».

نظر إلى الكرسي الخالي، وتصوّر نفسه لحظة واقفًا عليه، محاولًا إنزالها عن الخزانة. ظلّت يداه مستقرتَيْن على خصره. أفلتت ضحكة من بين شفتيه؛ بدت ضحكة قاسية. اصطدمت ساقه بالسرير، فجلس عليه.

قال كأنه يخاطب نفسه: «الله أكبر».

كان لولب المصباح قاسيًا نتيجة الصدأ، فآلم أصابعه عندما حاول رفع الفتيل. ازداد ضوء المصباح شدّة، فانفتحت الغرفة أمامه: ها هي هناك، متربّعة فوق الخزانة. رفع قدمه فأسندها إلى ركبة الساق الأخرى. خلع فردة الحذاء اليمنى بسرعة، لكن الفردة اليسرى تطلبت يديه الاثنتين، وأفلتت «أووف» صغيرة من حلقه عندما جذبها ليخلعها. أرخى ربطة عنقه مستخدمًا سبابته.

«هل ستبقَيْن هناك طيلة الليل؟».

أراد أن يبدو صوته عارفًا، بل حتى متكبّرًا. لكن سؤاله بدا متوسّلًا فاكتسبت منه فاطمة قوة، على الفور. ظلت صامتة. خلع سترته، ثم خلع قميصه. أطلق سلسلة زفرات مفخّمة وحرص على تجنّب النظر إليها طيلة ذلك. ثم استلقى بعد أن بقي في ملابسه الداخلية وحدها، فكان دوره في أن يجفل عندما نظر إليها. أمر طبيعي... لقد كانت محدّقة فيه طيلة الوقت.

«هل تريدين أن أساعدك في النزول عن الخزانة؟».

«لا».

«هل أترك المصباح مضاء؟».

لم تجبه. دخل الغرفة تيار هواء من مكان ما، فتمايلت شعلة المصباح يمينًا وشمالًا واسودّ الزجاج في موضع تضيّقه. مد يده إلى المصباح حتى يخفّف إضاءته. كان خفض الفتيل أسهل من رفعه. حرّرت الظلمة إعياءه الذي كان يكتمه منذ عدة أيام، فابتلعه الإعياء بعد لحظات. ونام.

ليل من غير أحلام لم يستمر إلا لحظة واحدة. استيقظ فوجد نفسه مستلقيًا على ظهره، مثلما غفا. كان السقف من فوقه مظلمًا فظن أول الأمر أنه لم ينم إلا بضع ساعات. لكنه انتصب جالسًا فرأى ضياء الصباح البارد متسرّبًا عبر شقوق النافذة. كانت فاطمة نائمة على الكرسي، متكوّرة بحيث تجمّع ثوب زفافها حول فخذيها؛ وكانت قدماها المزينتين بالحنة مضغوطتين معًا مثل كفّين مضمومتين تضرّعًا. نهض من السرير حتى يراها بشكل أفضل. كان فمها مفتوحًا. وكان الشعر خلف رأسها مشعّثًا، منفلتًا من ضفيرته. سرت رعشة في أجفانها المغمضة وتقلّص فمها عندما سقط ظلّه

عليها. استدار على عقبيه. سيتركها تغيّر ثيابها وحدها وتستكشف المكان بمفردها حتى تألفه من غير وجوده.

كانت حقيبته في الصالة، مفتوحة. أغلقها بلطف. تذكّر أنها كانت رفيقته الوحيدة في أسفاره. لا تزال تحمل خدوشًا وآثارًا تركتها مستودعات السفن وأيدي عمال الأمتعة. كان في أعلى الحقيبة بنطلون من الكتان. ارتداه في الصالون الذي كان غرفة ضيّقة حسنة الإنارة تتلقى الضوء الآتي من الحديقة كله. ارتدى معطفه، وخرج قاصدًا جبل جرزيم.

كانت خطته أن يبيع بيت العائلة. ستنتقل أم طاهر للعيش مع أم جميل في الطابق السفلي. وسيستخدم المال الناتج عن بيع الطابق العلوي في سداد نفقات معيشتها. ومع أن هذا ما كان ليحدث إلا بعد الزفاف، فقد صارت أم طاهر تمضي معظم وقتها في الطابق السفلي. وجدها مدحت في مطبخ أم جميل. كانت تحرّك العسل بإصبعها في كأس الشاي.

قالت له: «ماذا تفعل هنا؟ أين زوجتك؟».

ألقى بنفسه على كرسي، وتنهّد، ثم باح لها بمجريات ليلة الزفاف. أصغت تيتا إليه مهتمة. ثم بدأت تضحك.

«ماذا فعلت لها؟».

«ماذا تعنين بقولك ماذا فعلت لها؟».

«يعني... فاطمة كانت خائفة. عليك أن تكون متأنّيًا، يا حبيبي...»، ثم صاحت فجأة: «أم جميل، تعالي». ظن مدحت أنها تريد سؤال خالته عن أمر لا علاقة له بالموضوع، لكن ظنّه خاب عندما بدأت تيتا تحكي لأم جميل ما قاله لها قبل قليل. حاول أن يوقفها، «ليس عليك أن...». لكنّها أسرعت في كلامها، وراحت تتوقّف وتشهق متعجبة عند المواضع المناسبة. وكانت أم جميل تنقل عينيها المتّسعتين دهشة بين مدحت وأم طاهر، وتومئ برأسها الذي يشبه رأس طائر. بدأت ابتسامة تظهر على شفتيها كأنها عرفت نهاية الكلام.

ختمت أم طاهر كلامها بالقول: «وهكذا، قلت له إن عليه أن يكون متأنّيًا، يعني، كانت الفتاة المسكينة خائفة، صحيح ولا لأ؟».

«هل حاولت مداعبتها؟».

قال مدحت: «أوه، يا ربي. لا أستطيع هذا».

قالت أم جميل: «لازم... لا بد من هذا. يعني، القبلات، يعني، مهمّة جدًا».

قال بصوت بائس: «لا، ذلك ليس.... سوف أعود. كانت هذه غلطة».

خرج مسرعًا. لا يزال الوقت مبكرًا على العودة إلى البيت الجديد، حيث تنتظره فاطمة، أو حيث تخشى فاطمة عودته. اتخذ مساره القديم نازلًا إلى المدينة، ثم اتجه إلى الخان.

لم يجد كرسيًا في المدخل، لكن متجر الكمال بدا خاليًا. وفي الداخل، أتت أصوات من جهة غرفة الخياط، كان بطرس جالسًا خلف طاولة العمل وثلاثة رجال واقفين من حولها. رفعوا رؤوسهم عند دخول مدحت، ثم أتوا للسلام عليه. إنهم أصدقاؤه القدامى، الخياطون السامريون. ابتسموا جميعًا، وتقدّم منه إيلي مهنئًا. قال له إنهم استمتعوا كثيرًا في حفل الزفاف.

«أين هشام؟».

«لقد خرج باحثًا عنك».

«ما المشكلة؟».

نظر إيلي إلى بطرس الذي كان جالسًا خلف طاولته.

قال بطرس: «انتظر إلى أن يعود هشام».

مضت نصف ساعة غريبة بعد هذا الكلام حاول خلالها مدحت، عدة مرات، أن يقاطع حديثهم مطالبًا بالإجابة عن سؤاله. وفي كل مرة، كان الخياطون الأربعة يتبادلون تلك النظرات المضطربة ويهزّون رؤوسهم قائلين: «انتظر إلى أن يعود هشام».

أعدَّ بطرس القهوة، وقرّب السامريون كراسيهم لسؤال مدحت عن الزفاف. لكن بال مدحت ظل منشغلًا بما امتنعوا عن قوله له، وراح ينظر في وجوههم باحثًا عن شيء يستدل به. أجاب عن أسئلتهم من غير اهتمام. بل إنه كفَّ حتى عن النظر صوب الباب لترقّب وصول هشام، ففوجئ عندما ظهر خلف كرسيه.

قال هشام للخياطين: «هل قلتم له؟».

نهض مدحت واقفًا وقال: «لا، لم يخبروني. ما الأمر؟».

بدا القلق على هشام. قال له: «أبوك».

انتظر مدحت التتمّة: «ماذا عن أبي؟».

«لقد، لقد...». ابتلع هشام ريقه ونظر إلى الأرض.

قال مدحت: «ماذا؟».

«لقد سجّل التجارة كلها باسم أم مصباح».

«ماذا؟».

«التجارة، أعماله. صارت باسم زوجته».

صمت مدحت برهة، ثم قال: «ماذا؟».

رفع هشام كفيه.

«ما معنى هذا؟».

كان المعنى واضحًا. وكانت وجوههم ناطقة بالإشفاق عليه. شد إيلي قبضتيه على مسند الكرسي. كان واضحًا أنه متألّم عليه.

«نحن متعاقدان، أنا وهو...». أشار هشام إلى الخياط فرأى مدحت ارتعاش يديه... «متعاقدان لكي نعمل عندها. وأما أنت، يا حبيبي... إنني آسف. أنا، أنا...».

«هل كنت على علم بهذا؟».

تغضّن فم هشام: «إنني آسف».

أطلق مدحت زفرة حزينة: «كنت تعرف، لكنك لم تقل لي شيئًا، يا هشام».

قال هشام بصوت متوسّل: «لم أرد أن أجعلك تذهب إلى والدك بتلك الصورة... لم أرد أن تذهب إليه وأنت تشعر... تشعر بالغضب».

«وما الذي يفترض أن أفعله الآن؟». شعر مدحت بأن وجهه يتقلّص. تمنى لو أن الآخرين لم يكونوا موجودين. لقد كان ذلك سؤالًا سخيفًا؛ وبالطبع، لم يجبه عليه أحد... «منذ متى كان تعاقدكما؟».

«يأتينا الأجر من القاهرة. لا مبيعات في نابلس».

«هشام... منذ متى كان تعاقدكما؟».

ألقى هشام نظرة يائسة في اتجاه الخياط.

قال مدحت: «فهمت. أنتما في حاجة إلى هذا الأجر. لا مشكلة».

لكنها كانت مشكلة! كبرت الصدمة وتحوّلت غضبًا عندما سار في الشارع. بحث حوله عن شيء يركله بقدمه. حجرٌ سائب من حجارة الشارع. ثمرة طماطم قديمة تقشّر جلدها. ضرب الجدار بظهر يده فأحس بألم غير قليل يسري فيها. ثم سار مبتعدًا بخطوات سريعة. لا يطيق أن يخرج أحد الآن من الخياطين لمواساته.

كيف له أن يذهب الآن ويواجه فاطمة؟ كيف يقول لها إن مورد رزقه قد انقطع فجأة؟ إنه مورد الرزق الذي كان عنصرًا جوهريًا في إقناع الحاج نمر بأنه سيكون زوجًا مناسبًا لابنته. ليس له شيء مسجّل باسمه غير البيت المظلم الصغير الذي اشتراه مؤخرًا، والقن الفارغ الملوث بزرق الدجاج في أسفل الحديقة. سيكون عليه أن يقسم المال الناتج عن بيع البيت القديم بينه وبين تيتا... وحتى ذلك المال لن يدوم طويلًا. دفن وجهه في كفيه عندما فكر في تيتا. صادف واحدًا من العمال في مدخل متجر السجاد.

قال له: «أين هو جميل؟ جميل، هل لديك لحظة؟ أريد أن أكلمك».

أخذ ابن عمه إلى الشارع وشرح له ما اكتشفه قبل قليل.

بدا جميل مذهولًا: «ماذا؟ هذا مستحيل. من المؤكّد أنها، على الأقل، ستتركك تعمل في المتجر».

«ماذا؟ مثلما يعمل لديها هشام؟ هل تعرف مقدار ما يتقاضاه هشام؟ لا أستطيع أن أعيل أسرة، مع جدّتي... على أية حال، لن أعمل لدى تلك المرأة حتى إذا دفعت لي...».

«هذا مستحيل. هذا غير ممكن، يا مدحت. هل تأكّدت من الأمر؟ ألم يعدك والدك بأن يصير العمل لك؟».

بسط مدحت كفيه.

«لا أستطيع تصديق هذا. لا بد أنها هي... هي التي أقنعته بذلك. المشكلة في تلك المرأة هي أنها...».

«لا أعرف ما أستطيع فعله».

«هذا أمر لا يصدّق».

زمجر مدحت: «صحيح، صحيح. إنه أمر لا يصدّق».

«لكن والدك... أمر مدهش حقًا».

عند سماع كلمة «والدك»، شعر مدحت بشيء ينعقد في صدره فصرخ: «والدي!».

ألقى جميل نظرة في الشارع: «فلنمشِ معًا».

تركه مدحت يقوده. سارا في الشارع المحاذي لمدرسة الفاطمية. مرا عند الأطراف العليا لرفيديا. ثم قرية بلاطة. ثم في الطريق الذاهب شمالًا عبر الجبال. وبعد برهة، فقد مدحت الدافع إلى الكلام. لقد جعله الغضب يشعر بالخدَر. راح ينظر في السهل بغباء. كانت السماء الزرقاء مبيضة عند قمم التلال حيث يتّخذ اللون الأخضر مسحة وردية. كانت أجمات برّية مدوَّرة منتشرة على امتداد المنحدر إلى جوارهما؛ وإلى الأمام، كان ضياء حاد يرسم معالم الأثلام في الصخور الرمادية.

تمتم مدحت قائلًا: «أنا متعب...». كان قول هاتين الكلمتين مريحًا له، فكرّرهما: «أنا متعب».

لكن ذلك لم يكن صحيحًا. لقد بدأ المشي نفسه يغسل التعب عنه ويزيل المياه الراكدة التي شعر بأنها موشكة على إغراقه، إن بقيت في نفسه. جعل سيرهما الصاعد أفكاره تجري من جديد.

«هل تعرف أن الجميع هنا يدعونني الباريسي؟».

«أعرف».

«أمر غريب. لم تمض إلا سنة واحدة. لكني أشعر كأن ذلك كان منذ زمن بعيد. إنني أتساءل... ماذا يحدث إذا عدت؟».

«حبيبي، لا تستطيع العودة. حياتك هنا».

«أية حياة؟...» ضحك ضحكة لا مرح فيها... «ليس لديَّ شيء...».

«من فضلك، لقد تزوّجت لتوك أجمل امرأة في المدينة. أنت ناجح. هذا رأي الجميع».

«لقد تزوّجتها من أجله. كان من الممكن أن أسافر. لم يكن لدي شيء يبقيني هنا...».

«أنت لم تتزوج من أجله فقط. أنا أعرفك. لقد أحببتها».

صرّ مدحت على أسنانه: «لا يمكنك أن تحب امرأة غريبة عنك. لا وجود لشيء من هذا القبيل».

كانا قد بلغا القمة حيث ينحدر التل من جديد قبل أن يعلو مرة ثانية. دبّت الحياة في كل شيء من حولهما عندما توقفا عن الحركة.

«هل تريد معرفة ما جرى الليلة الماضية؟ فاطمة، إنها - لقد هربت مني. تسلّقت الخزانة، وجلست فوقها، ولم ترض أن تنزل عنها».

أدار عينيه في اتجاه ابن عمه منتظرًا سماع ضحكته. كان جميل قد وضع قدمه على صخرة ريثما يلتقط أنفاسه. وضع يده على كتفه.

«سوف يصير الأمر أكثر سهولة. إنها امرأة. هي لا تعرف شيئًا بعد».

قال مدحت: «أرجو ألا تخبر أحدًا بهذا. أردت أن أكون صادقًا معك... أظن أن تيتا قد أخبرت الجميع».

«ستكون بخير. أنا واثق من أنك ستكون بخير».

«جميل... لماذا لا تحبني إلا عندما أرتكب غلطة؟».

أبعد جميل يده عن كتفه، ثم قال: «يا ربي. هذا غير صحيح. مدحت، أنت مغرور كثيرًا». انفجر ضاحكًا.

«ماذا تعني بهذا؟ مغرور، كيف؟».

«ماذا أعني! حقًا، تظن أنك مركز كل شيء. آه، لا، لم أكن أعني هذا. شْوَيّة... لا تغضب».

«لستُ غاضبًا. كل ما في الأمر هو أنني لا أفهمك».

«لا بأس. هل تريد أن تعرف ما جرى في حياتي خلال الشهرين الماضيين؟ هل أنت مهتم بمعرفة هذا؟». أمال جميل رقبته بطريقة غريبة، وبدا لحظة كأنه يتحدّث مع نفسه. تابع كلامه بنبرة أكثر لطفًا... «قبل كل شيء، أقول لك إنني رأيت شخصين يُقتلان. الأول، ثم الثاني. أمامي تمامًا. على بعد أقدام قليلة. رأيت الدم، وكل شيء. رأيت آخر...». ضم شفتيه معًا... «كان الشخص الأول يهوديًا، شابًا، في مثل سنك. وكان

الثاني عربيًا، قتله أصدقاء الشاب اليهودي. لقد ظل ذلك في عقلي، هل تفهم؟ ظل عالقًا هناك».

«هل حدث هذا يوم النبي موسى؟ لم أعرف بالأمر».

«أنت لم تسأل! أنت... حتى لم تسأل. عدت من هناك، وكنت غارقًا من جديد في عالمك، تقرأ الشعر. الباريسي الذي يتجوّل هنا وهناك بربطات العنق الملوّنة. حتى إنك لم تسألني عن أي شيء. خرجت فحسب».

كان مدحت يحاول تذكر تلك الفترة بعد النبي موسى. ماذا حدث. كان يحاول تذكّر ما جرى، وما كان يفعله آنذاك، عندما وخز ذلك الاتهام الأخير عقله كأنه شوكة.

«لقد قلت لك قبل قليل، تعرف أنني أضعتك في الزحام. كيف تتوقّع أنني أن أعثر عليك».

لوّح جميل بيده: «أعرف». لعلّه لم يكن يريد ذكر هذا، لكنه قاله في غمرة النقاش... «ليس عليك إلا أن تنظر خارج نفسك قليلًا. البلد في حالة خراب. لدينا فلاحون جائعون يتجولون هنا وهناك ويسلبون الناس. هل تعرف عدد الناس الذين تعرّضوا للسلب في الأسبوع الماضي وحده؟ هل أصغيت يومًا إلى ما يتحدّث به الناس؟».

«جميل، لقد مات أبي... كيف تستطيع قول هذا لي وأنت لا تعرف ما كنت... أنت لم تعد تراني، تقريبًا».

«لا أحد يشتري سجادًا هذه الأيام، لكنهم يواصلون المجيء إلى المتجر حتى ينظروا ويتظاهروا بأنهم يريدون الشراء. فهل تعرف لماذا يأتون، لأنه ليس لديهم شيء آخر يفعلونه. أنا حزين لموت والدك؛ لكننا فقدنا دمشق. والآن، سيكون لدينا بلد يهودي هنا لأن هذا ما يعمل عليه البريطانيون. يعني، خَلَصْ. سيصير الأمر مثلما كان في أسوأ أيام الأتراك. بل ربما يصير أسوأ من ذلك». تابع جميل سيره صعودًا، ثم توقّف لحظة بعد أن اجتاز مسافة. لم يستعد الاثنان أنفاسهما بعد.

قال مدحت: «لماذا تفعل هذا بي؟».

كانا عند انقطاع في سفح الجبل... تجويف صغير يكاد يكون كهفًا. جعلت الريح مدحت يشعر بالبرد لأنه لم يرتد إلا قميصًا. وفوق وجه جميل الهادئ، طارت خصلة شعر إلى الجانب الآخر.

«لا أستطيع تصديق أنك قادر على عدم الإحساس بي إلى هذا الحد».

رفع جميل ذراعيه النحيلتين وقال: «الإحساس بك!».

استدار مدحت على أعقابه، وبدأ السير في الاتجاه الآخر، نازلًا التل. ما أجمل الجاذبية! لولا الجاذبية، لتوقّف جسده عن السير. لسقط. لم يعد يريد شيئًا غير أن

يختفي، أن يعود إلى الوراء في الزمن. كان الحاضر صخرة عارية لا ملجأ فيها. في الماضي، ينتهي الألم كلّه، ويصير كل شيء واضحًا... لا يعود هناك شيء قادر على إيلامه.

«مدحت!». ظل سائرًا. وظلّت الشمس مشعّة بوضوح مخيف. ما من أمان.

عندما وصل إلى الطريق، رأى أن جميلًا لم يلحق به. انسلّت سحلية عند قدمه فمرت من فوق حجر، ثم اختفت. وقتها، عندما واجه الخواء الممتد أمامه، عاد ذلك الإحساس إليه: إنه الإحساس الكاوي الذي اعتاد أن يحنّ إليه، إحساسه بالأمان في مهجعه في القسطنطينية. لكنه الآن احساسٌ أشد قوة، بكثير. تهاوت خطوط جسده حارقة جلده. لم يكن لديه سبيل للتفريج عن ذلك غير الجري.

أخرجت فاطمة ملابسها ورتبتها في الخزانة، ثم جرّت حقيبة مدحت عبر الدرجات الثلاث إلى غرفة النوم. ضحكت عندما فتحت الغطاء. إن لدى هذا الرجل ملابس أكثر مما لديها. مسّت الطبقة الأولى؛ شيء ناعم، نوع من رداء منزلي... رداء ثقيل له بطانة ذات لون كستنائي داكن. قمصان، وربطات عنق... ساتان ونسيج قطني عليه رسوم. مدّت يدها إلى الغطاء حتى تغلقه، وعندما رفعت ذراعها اليمنى، أرغمتها وخزة حادة في عنقها على إفلات الغطاء. دعكت تلك البقعة ووقفت تنظر إلى انعكاس صورتها. كانت إحدى كتفيها أعلى من الكتف الأخرى. اختلاف واضح. إنها في حاجة إلى تناول الحِلْبة.

امتلأت خزانة الطعام بأطباق كثيرة أعدها أقاربهما. أطباق أرز فوق أوعية فيها ملوخية وكوسا ومقلوبة. كان في الخزانة أيضًا كيسان من ثمار الطماطم والخيار الطازجة، وسلتان من الفاكهة. لكنها لم تعثر على حلبة. وجدت كيسًا فيه أوراق عنب مجفّفة. بذراعها التي لا تؤلمها، أخرجت الفاكهة من الخزانة ووضعتها على الطاولة. كانت ثمرات الجوافة صغيرة، قاسية. برتقالات على قشرتها تراب أبيض. وضعت على النار قدرًا من الماء حتى يغلي ثم تناولت بصلة وسكينًا كبيرة. جلست إلى الطاولة، وقطعت البصلة نصفين، ثم راحت تقطعها عرضيًا حتى تساقطت كلها أجزاء لامعة. بدأت تغني. وعندما عبق البخار في الغرفة، فتحت النافذة المطلة على الغرفة حيث بدت الكراسي المعدنية المتّسخة بائسة في ضوء النهار. ضغطت بأصابعها على رقبتها.

ولما بدأ الأرزّ يبرد، سمعت صوتًا من جهة باب البيت. لم تستدر عند دخول مدحت. وضعت رزمة من أوراق العنب، ثم سكبت زيت الزيتون في وعاء عميق. خرج مدحت بعد لحظة. لفّت أول مجموعة من أوراق العنب وهي تصيخ السمع علّها تسمع شيئًا آخر يمكن أن يشير إلى وجوده في البيت. أي صرير، أو أي وقع خطوات. لكن

الصوت أتاها من جهة اليمين، من خلفها، من الصالة المجاورة للمطبخ. سارعت إلى إخفاء دهشتها.

قال لها: «ألا تعدين لي قهوة؟».

مسحت يديها بمنشفة معلّقة بحزامها. ثم فتحت الخزانة. أكداس من الأطباق.

«إنها في هذه، هنا».

«والركوة؟».

«هذه ـ لا. بل هذه. هل لديك... كل ما يلزمك؟».

«حلبة. حلبة. ليس لدينا حلبة...». فتحت علبة القهوة... «لكن، أجل. لدي كل شيء. آه، ما عدا...». التفتت إليه.

«ما عدا ماذا؟».

«من سيجلب الماء؟ كانت لدينا بئر في بيتنا».

قال مدحت: «سوف يأتي السقّاء. ليس البيت بعيدًا. لكن، أعني... هل ستكون أمورك مقبولة؟ هل تلزمك خادمة؟».

«آه. لا أظن هذا. على الأقل، ليس الآن».

بدأت القهوة تفور. تناول فنجان القهوة الذي سكبته له. لكنه لم يشرب منه في البداية. ظلّ جالسًا إلى الطاولة ينظر عبر النافذة بينما كانت أصابع فاطمة منهمكة في العمل. أنجزت لف أربع مجموعات من ورق العنب ووضعتها على الطبق مع البقية.

قالت له: «فيمَ تفكر؟».

رفع مدحت رأسه ونظر إليها. لم تدرِ إن كان سؤالها قد أزعجه. لكنه قال لها بعد لحظة: «كنت أفكر... كنت أفكر في شيء جرى لي في فرنسا».

«هل يجعلك هذا التفكير حزينًا؟».

«ليس تمامًا. لقد كان، كان لي صديق مات. لقد كان رجلًا شديد الذكاء. كانت لديه فكرة عن الحياة تقول إن الحياة كلها شيء واحد، بما في ذلك الموت...». أخذ رشفة من فنجان القهوة... «لست واثقًا من أن لهذه الفكرة معنًى عميقًا. ماذا تُعِدّين؟».

مرت لحظة صمت قصيرة، أجابته بعدها بصوت جعله عدم التصديق رخوًا: «ورق عنب».

«أنت ماهرة جدًا...». خفض رأسه صوب الطاولة كأنه أراد النظر إلى ما تصنعه من جهة أخرى... «إنها صغيرة جدًا».

«لقد علمتني أمي. في الحقيقة، لا... لم تعلمني أمي. تعلِّمت هذا من الأتراك. أنت تعرف أن أتراكًا كانوا يعيشون في الطابق العلوي في بيتنا».

غمست ورقة عنب جديدة في الزيت. كانت تشعر بنظراته متجهة إليها.
«لم أكن أعرف هذا».
ظلت آخر حبات الأرز عالقة أسفل القدر. جرفتها بالمعلقة فتساقطت في الطبق متجمعة على شكل كتلة بيضوية الشكل.
«نحن متزوجان الآن». قالت هذا وعضّت باطن خدها.
ضحك مدحت فعرفت من صوت ضحكته أنه أشاح بوجهه عنها.
«نعم. نحن الآن متزوجان».
مع حلول المساء، اعتبرت فاطمة نفسها منتصرة. لكن هذا لم يجعلها تشعر بأية بهجة خاصّة. لم يمسها مدحت طيلة النهار، ولم يشر أبدًا إلى الليلة الماضية. ظلّا يتحدّثان بالطريقة اللطيفة غير المباشرة نفسها، من غير أية مبادرة إلى ذلك النوع من السلوك الذي يكون متوقعًا بين زوج وزوجته في خلوة. ظلت فاطمة تفكّر في النساء الضاحكات في الحمّام ليلة زفافها. كن عارفات كيف ينبغي أن يكون الأمر. هذا الزواج منتمٍ إليهن حقًا، إلى تلك الأجساد العارية التي تثرثر في البخار، الأجساد التي ظلّت ماثلةً في زوايا ذهنها. ومع اقتراب غروب الشمس، اكتشفت أنها استنفدت كل ما لديها من قدرة على تمالك النفس في إعداد تلك الرزم من ورق العنب. أمضت برهة في بكاء خفيض عند نافذة المطبخ. عند استعادته في الذاكرة، بدا لها غريبًا ذعر الليلة الماضية من هذا الجهل الكسيح بما سيحمله اليوم لها. الآن، بعدما أخفى انحسار ضوء الشمس جسد امرأة في ناحية من الغرفة وجسد رجل في الناحية الأخرى، ورماهما في صورة غامضة لمستقبل غير واضح يمتد فيه الزمان والمكان أبعد كثيرًا مما يستطيع ذهن فتاة واحدة تصوره... تضاءل أمام صوت تنفّسه، تضاءل ألف مرة، خوفها من بضعة إنشات أو من بضع لحظات. حتى عندما كانت واقفة هنا، عند النافذة، لم تدرِ ما تفعله بيديها. انتهى بها الأمر إلى ضمهما معًا بقوة جعلت أصابعها تكتسي بقعًا وردية وحمراء. حاولت التركيز على الساعات التي أمامها، لكن عقلها الحرون ظلّ يقفز إلى بانوراما سنوات بأسرها، سنوات من هذا المجهول نفسه، سنوات كان آخرها ملفعًا بالضباب.
ومع حلول الليل، جلس مدحت يقرأ في الصالون، في حين جلستْ هي تعزف على العود. كانت هذه مزية... المرأة القادرة على عزف العود. حاولت أن تعزف كأنها تعزف لنفسها، لمسرّتها، كأنها لا تكاد تعرف أنه موجود هناك. بل راحت تغنّي الكلمات بصوت خفيض كأنها تتمرّن من أجل مناسبة أخرى.
لكنها استبعدت خطر أن يرفع رأسه وينظر إليها،، فمنحها هذا حرية النظر إليه مليًا. بدا لها متعبًا. كان شاحب الوجه. وكانت أجفان عينيه مرتخية. أعجبها شكل ذارعيه من

تحت أكمام قميصه المرفوعة. توقّفت عن العزف في منتصف أغنية وأراحت العود في حضنها، ثم مسَّت مفاتيح ضبط أوتاره.

قالت له: «ماذا تقرأ؟».

«ماذا؟».

كانت تلك هي النظرة نفسها، نظرته إليها من قبل عندما سألته عما كان يفكّر فيه. كان وجهه معبّرًا جدًا. فيه جاذبية، لكن... لعله أيضًا وجه ناطق بنوع من قلة الانتباه. رفع الكتاب حتى تراه. كان بلغة أوروبية. غلافه من قماش أحمر، وعلامة حريرية سوداء متدلّية من كعبه. كانت تلك العلامة متغضنة كثيرًا.

قال: «إنه فلوبير. هل تتكلّمين الفرنسية؟».

«لا. القليل من الإنكليزية فحسب. أعرف ثلاث كلمات ألمانية».

«ما هي تلك الكلمات؟».

«أبينديسّن. ميتاغيسّن. هيسّه Abendessen. Mittagessen. Heisse. كنت أعرف كلمات أخرى، لكنّي نسيت».

عبس قليلًا ومال برأسه جانبًا. انفرجت شفتاه.

أجابت: «بعد رحيل الأتراك. أتانا الألمان».

«آه، صحيح. أتذكّر هذا. لقد أخبرني أبي».

ظلّ ينظر إليها لحظة، ثم عاد إلى كتابه. تساءلت في نفسها إن كانت القصّة التي يقرأها حزينة. رفع رأسه من جديد. كان واضحًا أنه موشك على قول شيء. ظلّ كذلك لحظة، فانتظرت انتظارًا غير مريح إلى أن عدل عن الأمر. أسندت ظهر العود المحدّب إلى الجدار.

قال لها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

«إلى المطبخ».

لم يكن لديها ما تفعله في المطبخ. مرّت بخرقة رطبة على حافة الطاولة. كان فيها شق يمكن أن تتجمّع فيه الأوساخ. ظلت الخرقة نظيفة. لقد فعلت الشيء نفسه في وقت سابق.

حرصت على أن تسبق مدحت إلى غرفة النوم حيث خلعت ملابسها أمام المرآة ولبست قميص النوم. وعندما دق الباب ودخل، كان مرتديًا بيجامة من قطعتين، زرقاء لها حواشٍ سوداء. لو كانت في الليلة الماضية، لكان ممكنًا أن تثير هذه الصورة ذعرها، لكنها ضحكت الآن: كان معناها أنه قد توقّع سلوكها فأخرج بيجامته في وقت سابق. لم تكن أزرار سترة البيجامة مغلقة كلها، فانفتحت قليلًا عند طية الصدر عندما صعد

إلى السرير. انزلقت إلى جانبه. كانت الأغطية ثقيلة. ظلا برهة راقدين في صمت، على ظهريهما. ثم قال لها:

«هل ذهبت لرؤية موكب النبي موسى في القدس؟».

توقّف تنفسها: «أجل».

«رأيتكِ هناك».

أنشَبَ الإحساس بالخطر مخالبه في عقل فاطمة. الأزواج مثل الآباء والأمهات... ينتبهون إلى عار المرأة. ظلّت منتظرة، متجمّدة.

«هل ذهبتِ وحدك؟».

همست: «أجل». أحسّت برغبة شديدة في البكاء.

«لا تخافي».

لكنَّ هاتين الكلمتين لم يكن لهما من أثر غير تذكيرها بالليلة السابقة التي ما عادت تبدو لها بعيدة، بل حاضرة جدًا. راح قلبها ينبض عنيفًا. تمنّت الظلمة، وودت أن تخفي الحرارة التي صعدت إلى رقبتها ووجهها. ألقت نظرة سريعة عاجزة في اتجاه المصباح إلى جانبه. شعرت بأنها مكشوفة، تمامًا مثلما كان شعورها قبل أن تتسلق الخزانة وتجلس فوقها.

«لماذا أنت خائفة؟».

تحرك الغطاء فوقها. كان ينقلب في اتجاهها. رأت بياض عينيه.

«أعرف إحساسكِ. أنت خائفة. لا أرى مشكلة في ذهابك إلى النبي موسى. لكني سألتكِ لأن... هل رأيت هناك شيئًا؟ هل رأيت شيئًا مخيفًا؟».

«لم أر شيئًا. كنت هناك فترة قصيرة فقط... وصلت، ثم انصرفت...».

قال لها: «إلا أن ذلك كان غريبًا... ألا تظنين هذا؟ ذلك الحشد. أولئك الناس الغاضبون جميعًا».

استنشقت نفسًا عميقًا مرتفع الصوت: «إنهم غير متعلّمين. يعني، فقراء. الفقراء غاضبون. هذا هو سبب وجود الزكاة لدينا».

انقلب مدحت على ظهره. أطفأ المصباح. بدأ إحساس فاطمة باحمرار وجهها يزول عنها. راحت تصغي إلى همهمة النسيم الهادئة. وعندما استعادت هدوءها، قالت له بصوت خافت: «ألا تحكي لي عن باريس؟».

«باريس؟».

«أريد أن أعرف».

بدأ يحدّثها. صوته منخفض، وعبارات رسمية: «لقد عشت في باريس خلال

الحرب. لم يكن فيها إلا قلة من الرجال. لم يكن فيها غير من تقدّمت السن بهم. وأيضًا، كان هناك بعض العرب».

بدا كلامه متردّدًا أول الأمر، لكنه سرعان ما استرخى واسترسل في حديث طويل من جانب واحد. كانت كلماته ترسم صورًا، فبدأت فاطمة ترى الشرفات والمقاهي ذات التراسات، وتسمع جلبة الناس وأصوات الزجاج والأواني الخزفية وهي سائرة في شوارع مهجورة، وفي ممرات مسارح ممتلئة نساء متزيناتٍ، متعلقةٌ آمالهن برجال مضوا إلى الحرب. حرّرها الظلام من ارتباكها، فاقتربت من تردّدات صوته المنبعث خفيضًا من حنجرته، اقتربت من الحرارة المنبعثة من صدره نصف العاري. أحسّت بتلك الحرارة على كتفها عندما انقلبت على جانبها ففاجأها قربُ جسده من جسدها. كانت مدركة أنه يكشف لها في كلامه عن أجزاء من حياته الخاصة، وأن هناك مشقّة في الاستمرار، وفي ترجمة ذلك من أجلها. أثّر في نفسها أنه يكشف لها عن أسراره، أنه يمنحها ثقته. وبجسارة متجدّدة، وضعت يدها على صدره. فأحست بقلبه يلاقي يدها عبر ذلك النسيج الناعم.

«هل يمكن أن نذهب إلى باريس في يوم من الأيام؟».

ضغط على أصابعها: «ربما».

قال شيئًا آخر لم تسمعه. اهتدت إلى فمه، وقبلته. تلامست جبهتاهما تلامسًا غريبًا مرتبكًا. كانت شفته الحليقة متعرقة قليلًا.

قالت له: «لا تنظر إلي».

«لا أستطيع رؤيتك. الظلمة شديدة».

كان واضحًا أنه يكذب لأنها لا تزال قادرة على رؤيته. أغمضت عينيها. إحساس محتدم بالخجل. كان جلدها حارًّا، لكنه، أيضًا، محبحب من البرد. توتّرت مترقّبة عندما مست يده ردفها. ثم رأت شبحه متردّدًا فأمسكت برقبته وجذبته إليها.

استيقظت في الصباح فوجدت نفسها وحدها. سمعت عاملَين يتصايحان من بعيد، يتبادلان التحية، أو يقولان شيئًا عن عملهما. نهضت، ونقعت ملاءة السرير في المطبخ. تحلّلت البقعة الحمراء وصار الماء في الوعاء عكرًا. فتحت النافذة الكسيحة فاندفع النسيم داخلًا المطبخ. اضطرب وجه الماء في الوعاء، وبرّد الهواء الجلد عند رقبتها.

لم تكن مرتاحة تمامًا، لكنها أحسّت بأنها ثابتة، مستقرّة. سرت الريح في الحديقة فجعلت الشجرتين القريبتين تتحرّكان في دوائر؛ وتمايلت الأجمات الصغيرة مضطربة. هذا الحيّز خارج البيت: مغلق ومفتوح معًا، كلّه لها، اندفعت إلى غرفة النوم فأخرجت من خزانتها معطفًا، ولفت كتفيها ورأسها بشالٍ من القطن. لم يبق ظاهرًا منها تحت

المعطف غير كاحليها فوق شبشبها البيتي. فتحت باب الصالون المفضي إلى المصطبة الأولى في الحديقة، ثم أدارت المقبض وأمسكت بواحد من الكرسيين الحديديين المستندين إلى الطاولة في وضعية مائلة، فجعلته مستقرًا على قوائمه الأربع. ظلّت قريبة من باب البيت الخلفي، على الرغم من أنها لم تكن قادرة على رؤية شيء بعد الحديقة، غير الجبل.

لماذا فضّلت البقاء قريبة من الباب إن لم يكن هناك من يمكن أن يراها؟ كان بيتهما على أطراف المدينة. وكان هذا سببًا لقلقها أول الأمر؛ لكنه بدا لها الآن رائعًا. قلقها من عيشها بعيدة عن المركز، عن البيوت التي تعرفها، عن أسرتها، قد بدأ الآن يخبو. فلعل هذا يعني، في آخر المطاف، أنها ستتحرّر من ضرورة التقيّد بما يقرّره الآخرون. فكّرت في استيقاظها على الأصوات الآتية من الحقول... ألن يكون رائعًا أن تصير فلاحة؟ وأن تكون حرّة هكذا؟ أن تنطلق إلى العمل في الصباح وتصيح إلى جانب الرجال، مثلما يصيحون؟ كان المشهد الذي انبسط أمامها مشهدًا حقيقيًا. فحتى قبل أن تبلغ العين ذلك الزبد المتداخل من بياض وزرقة في الأعلى، كان النسيم في الأسفل رائعًا، النسيم الذي وقفت تنظر إليه مبدّدًا سكون الحديقة... راح حبل غسيل معلّق في الرواق يتأرجح من جهة إلى أخرى كأنه عقد. انتبهت إلى أن عليها أن تنشر ملاءة السرير حتى تجف على ذلك الحبل. دخلت، وعصرت الملاءة على المغسلة. ثم حملتها إلى الخارج. انبسط النسيج القطني على امتداد حبل الغسيل، وانفردت طياته تحت أصابعها الخَدِرة.

لعل صوت الريح هو ما حال، في البداية، دوّن ملاحظتها ذلك الشخص. كان واقفًا في سكون تام عندما انتبهت إليه. أجفلت، واستيقظ إحساسها بالألم في رقبتها. لم تسمع صوت فتح البوابة؛ ولم تسمع صوت خطوات. كان ذلك الخيال كلّه في الظل، على المصطبة قبل الأخيرة، وقد أخفى ميَلان الأرض نصفه السفلي. رفعت يدها إلى جبهتها لتحجب الشمس عن عينيها فرأت ذلك الشخص يتحرّك، يصعد الدرجات. رأت أنه امرأة فزال عنها الذعر الذي انتابها في البداية: فستان فلاحي ثقيل، ومن غير حجاب. توقّفت المرأة على المصطبة الثانية، فصارت فاطمة قادرة على رؤية وجهها. وجه امرأة كبيرة السن، لكن أسنانها تبدو سليمة. كانت عيناها كبيرتين، رقيقتين، وجبهتها متطاولة. وكانت إحدى يديها ممسكة بالشال على صدرها.

صاحت المرأة بصوت خشن منخفض: «لقد قرعتُ الباب».

تقدمت فاطمة في اتجاه الكرسيين خطوة، في اتجاه باب الصالون. ذُعرت عندما رأته مفتوحًا.

قالت المرأة: «أنت لم تسمعيني».

صاحت فاطمة: «من أنت؟».

لكن الريح حملت صوتها وطارت به.

ظلّت المرأة واقفة هناك... وقفة متحدّية. داهم فاطمة إحساس غريب، إحساس بأنها هي الدخيلة على هذا المكان، لا تلك المرأة. كان إحساسًا ناجمًا عن ثقل غريمتها، عن ثباتها؛ في حين أحسّت فاطمة نفسها خفيفة، لا أهمية لها، كأنها خرقة. لعل هذه المرأة كانت مقيمة هنا! لعلها كانت تعمل لدى صاحب البيت السابق. أو لعلها واحدة من الجن! رفعت فاطمة ذراعها وصرخت بأعلى صوت استطاعته: «اخرجي من بيتي. اخرجي من حديقتي. اخرجي».

رفعت المرأة راحتَي يديها معًا؛ كانتا منحنيتين كأنهما ممسكتان شيئًا: «سيدتي. سيدتي، من فضلك».

نظرت إليها فاطمة. هل جاءت هذه المرأة متسوّلة؟ أيجدر بها أن تجري إلى باب الصالون؟ -لعل المرأة قد سمعت عنها، عن العروس الجديدة، فرأت في عزلتها وصغر سنها فرصة مناسبة للسرقة- يسمع المرء أشياء مخيفة هذه الأيام. لكن فاطمة لم تجرِ إلى البيت هاربة، بل ملأها غضب حارق... أغضبها احتمال أن يفكر أحد في أنها فريسة سهلة. شدّت معطفها على جسدها، وأحكمت تثبيت وشاحها حول رأسها. قامت بهذه الحركات الصغيرة بسرعة، وبحدّة، كأنها تحاول إظهار قوتها. منحت هذه الثواني القليلة المرأة الغريبة فرصة حتى تقول ما عندها.

«سيدتي - أتيت لرؤية زوجك».

«من؟».

«أتيت لرؤية زوجك...». للمرة الأولى، بدا التردّد على المرأة... «مدحت بك».

صاحت فاطمة: «ماذا تريدين منه؟».

«أريد القول له إنني آسفة».

تقدّمت الغريبة إلى الأمام خطوة كأنها تريد الصعود إلى الشرفة، ورأت فاطمة التجاعيد الجلدية العتيقة حول عينيها عندما خفضتهما ناظرة إلى الأرض. «هل تقولين له هذا بدلًا مني؟ إنني آسفة...». ظهرت في عينيها دموع حقيقية تدحرجت فضية اللون على وجهها... «قولي له... أم محمود آسفة كثيرًا لأنها تركته. وهي حزينة لوفاة والده، الله يرحمه. قولي له، من فضلك، يا سيدتي».

التقت عيونهما لحظة، ثم أمسكت بشالها وشدّته على صدرها وابتعدت نازلة الدرجات، ملوّحة بيدها الحرّة، ثم استدارت وانحنت قبل ذهابها: «يسلمو إيديكي، يا مدام. يسلمو إيديكي، الله معك». مدت يدها إلى البوابة وفتحت مزلاجها... «الله يخليكي. سلام. سلام. سلام».

# الجزء الثالث

# - 1 -

قبل نصف ساعة من الموعد المقرر لشنقه. كتب فؤاد مراد، عم هاني مراد، وصيته على ورقة خالية انتزعها من آخر إحدى الروايات. كان جالسًا إلى جانب حارسه، قريبًا من المشانق. فانتزع الصفحة من الكتاب بعناية كبيرة. انحنى فوق غلاف الكتاب حتى يظلله من الشمس التي خلفه وتصير الرؤية واضحة من أجل الكتابة.

*أكتب هذه الوصية في الساعة الثامنة ونصفًا من ليلة السبت، الرابع عشر من شهر شوال سنة ألف وثلاثمئة وثلاث وثلاثين هجرية؛ حيث حُكم عليَّ بالموت عند التاسعة من الليلة المذكورة. أعني أنني أكتب هذه الوصية قبل نصف ساعة من موتي. أكتبها بعد أن أخذوا واحدًا من رفاقي المحكومين معي، محمد عبد الكريم، لشنقه. فرحت لأنه ذهب لملاقاة وجه ربّه. إنني أفتح صدري للموت، مرحّبًا به. وإذا تركت هذا العالم، فأنا أتركه مسلمًا، مؤمنًا بالله وبالحياة الآخرة.*

*ها هي يدي ثابتة، لا ترتجف،...*

مضى القلم يكتب، متعثّرًا فوق خشونة سطح الكتاب حيث كانت حروف عنوانه المذهّبة. عَيّن عمه منفذًا لوصيته، وحدّد مقدار المال الذي سترثه كل واحدة من أخواته، والمبلغ الذي ستناله زوجته. سيذهب القسم الأكبر من ثروته إلى ابنته الوحيدة سحر.

*... وحتى ألقى الموت مرتاح الضمير، أقول إنني مدين لربيع الدرّة بخمسة قروش ونصف قرش لقاء المناشف التي أحضرها لي في فندق كونتيننتال.*

في تلك السنة، سنة 1915، كانت سحر مراد في السادسة من عمرها. إنها السنة التي وقف فيها أبوها، فؤاد، على منصة المشانق في عاليه، وإلى جانبه سوريان آخران. كانوا مقيَّدين، مُغلّفين -حرفيًا- بجرائمهم المكتوبة على أوراق ضخمة مثبّتة تحت آباطهم مثلما تثبَّت المريلة.

كانت ذكرياتها على النحو التالي. في بيتهم في جنين، جاءهم رسول حاملًا مغلفًا. خرّت أمها على ركبتيها أمام باب البيت. كان الوقت صيفًا. كان الحر شديدًا. وبعد ذلك بأيام -أو لعلها أسابيع- أتاهم زائر.

دخل البيت رجل طويل القامة. قال: «صباح الخير، يا أختي». نظر إلى سحر وانحنى

حتى صار وجهه عند وجهها. قال: «ما شاء الله»، ثم مسّ شعرها. خاطب أمها وهو مستمر في النظر إليها: «لدينا ما ينبغي أن نتحدث فيه».

وبعد أيام من ذلك، سمعت سحر صوت رجل آخر في الصالون. ظنّته صوت أبيها فأتت لكي تستطلع الأمر.

قال الرجل: «ها هي». لم يكن الرجل أباها. فتح ذراعيه لها فتقدّمت منه بخطى حذرة. وعلى الفور، وجدت نفسها في الهواء، مستندة إلى كتف الرجل. ذراعُه مقعدها. كانت قد كبرت على هذا، فسمعت لهاث الرجل الذي حملها. قال بصوت مبتهج: «سأراكِ بعد بضع سنوات فقط، يا حبيبتي».

كان الزائر الثالث شخصًا تتذكّره سحر بوضوح أكبر. دوائر تحت عينيه. رائحته غير مستحبة. نظر الرجل إليها، لكنه لم يهتم بأن يحييها مثلما فعل الآخران. لم يفعل أكثر من أن التفت إلى أمها وقال لها: «يلا. تكلمي». بدا القلق على أمها؛ ذلك القلق الذي ظلّت سحر تتذكّره دائمًا.

لم تكن تعرف بالضبط متى أدركت أن أبيها قد مات: هل كانت عملية فهم متدرّجة، أم كانت هناك لحظة كشْف محتها من ذاكرتها في ما بعد. كانت تتذكّر قلق أمها. وكانت صباحات أيام عطلة نهاية الأسبوع الأوقات الوحيدة التي تتركها فيها أمها فتأتي امرأة اسمها مريم لكي تعلّمها القراءة. وأيضًا بعد ظهر كل أحد عندما تأتي خادمة اسمها نورا لإنجاز بعض الأعمال المنزلية. كان الضيوف نادرين، لكن سحر أدركت دائمًا أن هناك من هو آتٍ إلى بيتهم لأن أمها تضع حجابًا وتقفل على سحر باب غرفتها. خلال ساعات الوحدة تلك، كانت سحر تفتح الدرج وتُخرج أوشحة أمها فتلفها على رأسها. لم تكن في غرفة النوم مرآة لكي ترى نفسها فيها.

لكن طفولة سحر، على وجه العموم، لم تكن متّسمة بالوحدة فقد نشأ لديها فضول صاخب في كنف تلك النساء الثلاث ـ أمها، ومريم، ونورا. كانت تلعب ساعات في الحديقة خلف البيت، وتتأمّل جذور شجرة الكستناء، وتقتلع العشب، وتستكشف التربة تحته. كانت مريم تأتيها بكتب؛ وكانت تلك الكتب بوابات إلى بلاد بعيدة وإلى أزمنة بعيدة في الماضي. ومع تطوّر قدرتها على القراءة، انغمست سحر في قراءة كتب تاريخ الإسلام، ومضت عبر الحبكات الرومانسية في الروايات المصرية. وفي الأمسيات، كانت تلخص لأمها ما تعلمته. لم تكن أمها تعرف القراءة.

كانت تتذكّر أمرين عن والدها: الأول جلوسها على ركبته. تعلو الركبة وتهبط فتضحك سحر متأرجحة، تضحك ضحكة مترجرجة مضحكة في حد ذاتها. الأمر الثاني إحساسها بيديه الكبيرتين ترفعانها من تحت إبطيها. وبعد أن صار عمرها أحد

عشر عامًا، أي سنة انتهاء الحرب، سألت سحر أمّها أخيرًا عن سبب موت أبيها. فوجئت عندما قدمت إليها أمها إجابة مباشرة. آنذاك، كانت الأم جالسة على كرسي تزيل الطين عن حذائها باستخدام قطعة قماش رطبة.

قالت أمها: «كان صديقًا للناس الذين لا يحبون الأتراك».

وقفت سحر على ساق واحدة وسألت أمها: «ولماذا لم يكونوا يحبون الأتراك؟».

خفضت أمها يديها ونظرت أمامها مباشرة. معصماها معقوفان إلى أعلى حتى لا يمسّ الحذاء ثوبها. قالت: «لأنهم... كانوا محتلين».

تنهّدت سحر. كان هذا الإحساس قد بدأ يصير مألوفًا لديها: الإحساس المختلط بين الخيبة والشفقة وهي ترى أمها تصل أقصى حدود معرفتها.

ثم قالت أمها: «نحن العرب... كما تعرفين، أردنا الاستقلال».

من تحت الخرقة، امتد على جلد الحذاء شريط من ضوء.

«أين هم الأتراك الآن؟».

«في تركيا، على ما أظن».

قالت سحر: «والآن لدينا الإنكليز».

«صحيح. يقولون إن هذا أمر مؤقت قبل أن ننال استقلالنا. إن شاء الله. إن شاء الله، سيكون هذا أفضل من أيام الأتراك».

كانت سحر في الثالثة عشرة عندما أتاها الحيض. انهالت عليها تحذيرات كثيرة. قالت لها أمها: «عليك أن تأتي وتخبريني. لحظة حدوثه، تقولين لي إنه حدث».

كيف يمكن ألّا ينتابها الخوف بعد كل هذه التحذيرات، ومن غير أن تعرف معنى هذا الحدث؟ سارت إلى غرفة النوم بخطوات ثقيلة، وأخبرت أمها. لعلها توقعت أشياء مختلفة، لكن ما حدث كان أمرًا لم تتوقعه: شدت أمها على يدها بقوة جعلتها تحسّ نبض دمها في أصابعها. حدّقت في سحر كأنها تحاول النظر من خلالها.

«ما المشكلة، يا ماما؟».

استنشقت أمها نفسًا عميقًا، جازمًا: «سوف تتزوّجين».

غمرت سحر موجة جديدة من خيبة الأمل نفسها، لكنّها ظلت صامتة، منتظرة انجلاءها عنها. كانت مشفقة على أمها لمحدوديتها، ولوحدتها. قالت لها أخيرًا: «سوف أسمح لك بأن تعيشي معي». فتحت أمها فمها ونظرت إليها كأنها موشكة على الضحك. لكن ذلك لم يكن إلا بداية بكائها.

«لا، لا يا ماما. لا تبكي هكذا».

«سحر، عليَّ أن أقول لك شيئًا. أولًا، أعطني منديلًا».

بعد موت أبيها، أتى أخوالها الثلاثة لزيارتهما. فهل تتذكّر هذا؟

تذكّرت سحر الرجل ذا الرائحة الكريهة، صاحب الدوائر تحت عينيه: «أتذكّر».

«كان كل واحد من إخوتي يريدك زوجة لابنه. لماذا؟ لأنك ورثت القسم الأكبر من ثروة والدك. إنهم رجال سيئون. لا يزالون يزورننا. مرات كثيرة. أراهم كل شهر. لم أسمح لهم برؤيتك. والآن، لا، لن نقول لهم إنك صرت جاهزة. سوف نجد طريقة...».

قررتا الاحتفاظ ببلوغ سحر سرًّا بينهما. بل إنهما كتمتا ذلك السر حتى عن نورا ومريم، وفتقتا طيات فساتين سحر لإخفاء ثدييها اللذين سيكبران.

أمضت سحر على هذه الحال سنة كاملة. للمرة الأولى في حياتها، تقلّص عالمها الصغير الذي عاشت فيه تقلّصًا محزنًا، وما عادت قادرة على الثقة باثنتين من ساكناته. كانت تجلس في النهار وتنظر عبر الباب إلى الحديقة مشتاقة من غير أن تجرؤ على أن تخطو خطوة إلى ذلك الفضاء المكشوف حيث يمكن أن يراها أحد، أو أن يختطفها أحد. صحيح أن فضولها لم يغدُ أقل شدة من ذي قبل، لكن جزَعًا صار الآن يخالطه؛ وكبر انشغال بالها بأخوالها حتى كاد يصير هاجسًا.

لم يظهر على مريم ما يشير إلى انتباهها إلى ما حدث، أو إلى ما كان يحدث أمامها. صارت الدروس أحاديث بينهما لأن سحر كادت تضاهيها من حيث القدرة على القراءة. وما عاد يلزمها شيء غير التمرين. كانتا تقرأان الصحف معًا، وتناقشان آخر الأنباء. لكن ما تحمله الصحف من جديد لم يكن كثيرًا؛ فقد هدأت البلاد بعد حوادث الشغب التي جرت خلال السنة الماضية، وصار أكثر ما تأتي به مريم من الكلام الذي يتناقله الناس في الخارج يدور حول سكة القطار التي يجري استصلاحها. كانوا يتحدّثون أيضًا عن شيء اسمه الهاتف. هناك واحد في مكتب البريد يستطيع المرء أن يتحدّث عبره مع شخص آخر بعيد عنه، حتى لو كان ذلك الشخص في القدس. هكذا قالت لها. ينتقل الصوت عبر أسلاك. وفي الربيع، أتت مريم بخبر أكثر غرابة. لقد قرأت عنه في واحدة من الصحف المحلية، ثم جاءت تغطية واسعة له، على صفحتين كاملتين، في صحيفة مصرية كانت مريم من مشتركيها.

في الثامن والعشرين من شهر أيار سنة 1923، نزلت امرأتان من القطار. كانت إحداهما ذات شهرة واسعة: زوجة شخص قتله البريطانيون. كانت المرأتان عائدتين من مؤتمر في روما. ولحظة نزولهما من عربة القطار، ران الصمت على أصدقائهما وأنصارهما ممن كانوا مجتمعين على رصيف المحطة للترحيب بهما. كانت المرأتان ترتديان ملابس سوداء. وكان فستان كل منهما طويلًا يبلغ كاحليها. كان على صدر إحداهن حلية فضية كبيرة معلّقة من سلسلة ثخينة. وعلى صدر الأخرى شريطة معقودة

على شكل وردة. كان غطاءا رأسيهما مثبتين خلف أذنيهما. شهق أشخاص كثيرون. لم يكن على وجه أي منهما حجاب. ابتسمت إحداهن. ورفعت الأخرى رأسها. ثم انفجر حشد النساء من حولهما في تصفيق عاصف. خلعت كثيرات حجبهن وكشفن عن وجوههن. بدأ وميض آلات التصوير.

لاحظت سحر ارتعاش أصابع مريم عندما قلبت الصفحة.

سألتها سحر: «ما معنى هذا؟».

قالت مريم: «لست أدري».

جاء الصيف، فصارت سحر تمضي أشد ساعات النهار حرارة وأكثرها إزعاجًا في القراءة مستلقية في سريرها. أزاحت كتب التاريخ جانبًا، وعاشت على الروايات وحدها. وبعد ظهر أحد الأيام، كانت على وشك إنهاء رواية عن ملكة مصرية حكمت منذ قرون. كانت تحاول منع نفسها من استعجال الوصول إلى ذروة القصّة لأنها ستحزن عندما ستنتهي. انتبهت إلى دخول أمها الغرفة.

قالت أمها: «إنهم يعرفون».

كانت سحر مستلقية على ظهرها. وضعت الكتاب على صدرها، وقالت: «من هم، وماذا يعرفون؟».

«أخوالك. سيزورنا اليوم اثنان منهم. ومن الممكن أن يأتي الثالث في أية لحظة».

كان هاني مراد توّاقًا إلى أن يختط لنفسه حياة سياسية مهمة عندما وصل إلى باريس أول مرة. وبعد قضائه سنة في العمل مع الأمير فيصل، بدأ يحلم بحياة عائلية. ومع استقرار الوفد في دمشق آخر الأمر من أجل إقامة الحكومة الجديدة، تعاظمت المصاعب التي صار يواجهها، وهو وبقية المستشارين والمعاونين، مع تزايد عدوانية الفرنسيين. راحت أنوار حركتهم تنطفئ واحدًا بعد آخر بفعل الرقابة، وتحوّل القلق العام إلى قلقٍ شخصيٍّ، فبدأ كل من في القصر يفكّر في إخفاقاته الخاصة. هكذا بدأ نمو ذلك الحلم السرّي عند هاني. بدأ يتصوّر نفسه في مكتب للقانون. عاد يفكّر في الكتابة، من الممكن أن يعود إلى ذلك الكتاب عن تاريخ الأتراك الذي كان يترجمه. صار يتخيّل بيتًا له، في نابلس، في القدس... وزوجة... راحة الاطمئنان إلى معرفة أنه سيصير قادرًا على توقّع محتوى كل ساعة من ساعات يومه.

انتهت المقاومة العربية للفرنسيين في سورية بإخفاق ضخم في سنة 1920؛ وكانت خسارة حرب الاستقلال شبه فورية. فر هاني والأمير من دمشق، ثم كانت قبلات الوداع الأربع بينهما في المقعد الخلفي لسيارة تاكسي. قبِل فيصل قرار البريطانيين بتعيينه ملكًا على العراق حيث ستكون مستشارته الأولى امرأة إنكليزية. وفي ربيع سنة 1923، عاد

هاني إلى فلسطين؛ عاد فلسطينيًا. توقّع مسبقًا ألا يكون له خيار في هذا الأمر. لقد قُضي، الآن على الأقل، على حلمهم بإقامة دولة عربية موحّدة في المشرق.

وجد القدس هادئة عندما بلغها. أو، وجدها هادئة كعهده بها. بدأ يزور الصالونات ويربت على ظهور أصدقائه مبتسمًا عندما يقبّلونه. كان يشارك في المناقشات ويقدّم مداخلات طويلة بارعة عندما يُسأل عن رأيه. هل ينبغي لهم التعاون مع البريطانيين ونظامهم شبه الديمقراطي إن كان ذلك يعني قبول الصهيونية؟ أم إن عليهم أن يتّجهوا إلى المقاطعة الشاملة، وأن يواصلوا مسعاهم إلى الاستقلال من غير أية مهادنة... فهذا ما كان من حقهم سواء من ناحية الوعود السابقة أو من ناحية الحق الطبيعي؟

كانوا يسألونه: «ما رأيك، يا هاني؟ هل يمكن إقناع الإنكليز بالعدول عن التزامهم تجاه الصهيونية؟».

كانوا يجرّون هاني إلى طاولاتهم، أو يرغمونه على الجلوس معهم. وكان يُبَحّ صوته وهو يعرض وجهة نظره. استأجر شقة في القدس. ورتب لقاءات مع زعماء العائلات الكبيرة. يجتمع معهم ويحدّثهم عما اكتسبه من خبرات وأفكار، ويسألهم عن الجانب الذي يميلون إليه، التعاون أم المقاطعة. كان يتابع الصحف كلّها، ويرصد الرأي المحلي. اشترى طاولة مكتب وضعها عند النافذة في شقته الجديدة المطلّة على باب دمشق. كان ينظر من تلك النافذة إلى جموع الناس الداخلين والخارجين.

ارتحل بالقطار شمالًا لزيارة أقربائه. كانت أم سحر، أرملة عمّه، تحتل صدارة تفكيره في ذلك اليوم: لطالما خشي أن تعتبره سببًا في مقتل زوجها.

منذ سنين، خلال مرحلة السذاجة الأولى في باريس، بعث هاني برسالة إلى جنين يحث فيها عمه فؤاد على الانضمام إلى مجموعته من المفكّرين العرب في المنفى ممن كانوا يجتمعون في الأمسيات، في بيت واحد منهم، وتدور بينهم مناقشات منتعشة متفائلة. كانت الحرب قد بدأت، وصار أصدقاؤه في مهب تيارات جديدة. كان هاني شابًا، مفعمًا بالمُثل، فأراد مشاركة هذا العالم الجديد مع عمه. عادة ما كانت مجموعته تستخدم الترميز في مراسلاتها. لكن هاني كتب رسالته إلى فؤاد بلغة عربية واضحة لأن فؤادًا ما كان قادرًا على فهم لغة الرسائل المرمّزة. لم يتلقَ منه ردًّا أبدًا. وبعد فترة وجيزة، بلغ هاني نبأ إعدام فؤاد. صارت رسالة الدعوة تلك هاجسًا عند هاني؛ تلك الرسالة التي تهوّر فألقاها في صندوق البريد في شارع دي فور في باريس.

أمضى سنين كثيرة في التمرين على الاعتذار الذي سيقدمه إلى أرملة عمه. لكنه وصل إلى جنين فوجدها قد تغيرت كثيرًا: كان معصماها بارزين من كمي فستانها، وظهرها الرشيق صار منحنيًا. عندما رأى تلك المرأة الوحيدة النحيلة في الممر غير

المُنار، أبصر الطبيعة الأنانية لرغبته في الغفران، وعرف أن عليه ألا يقول شيئًا. سوف يكون ثقيلًا عليها أن تنبش تلك المأساة التي صارت مدفونة عميقًا في الماضي. كم كان غريبًا تخيله أنها ستظلّ مثلما عرفها، أنها ستظل محبوسة في أيام حدادها الأربعين بينما يعيش سنوات كثيرة من عمره. ابتسمت عندما أمسك هاني بيديها، وسألته عن أحواله. راحت تحدّثه عن أمور كثيرة. تطرّقت إلى ذكر ابنتها. ظهر ضياء الشمس نابضًا من خلف الغيوم فأنار الغرفة، وبدأت قطع الأثاث ورفّ الكتب تظهر له لامعة حينًا، كامدة حينًا. قال لها إن رؤيتها قد سرّته، وإنه اشتاق إليها. لكن الحقيقة كانت أن ذلك البيت قد أثقل عليه، وأنه أحس انفراجًا عندما حان وقت انصرافه.

قالت له عند الباب: «أنت تذكّرني به».

«من؟».

ابتسمت.

«لقد كتبتُ رسالة...» بدأ يقول هذا غير قادر على إيقاف نفسه... «أرسلتها من باريس...».

هزت رأسها. لا تزال مبتسمة.

قال لها: «إن كان هناك ما أستطيع فعله من أجلك، فعليك أن تخبريني».

وفي طريق عودته إلى القدس، توقّف هاني لرؤية صديقه القديم مدحت كمال.

كان مدحت مقيمًا، منذ زواجه قبل ثلاث سنوات، في ذلك البيت الصغير عند أطراف المدينة مع زوجته وطفلته الأولى. كان اسم الطفلة مسرّة. عمرها سنة واحدة.

خلافًا لأرملة عم هاني، لم يتغيّر مدحت إلا قليلًا منذ آخر لقاء بينهما. لم يتغيّر فيه غير بطنه الذي صار أكثر تكوّرًا. شعره كثيف، طويل. للوهلة الأولى، ظنّ هاني أن ذلك الملمح الصبياني الذي كان في وجهه قد اختفى. لكنهما جلسا في الصالون، وانتهت التحيّات والمجاملات، وبدأ المزاح، فارتفع حاجباه إلى الأعلى مثلما كانا يرتفعان في الأيام الخوالي، وبان عليه ذلك الملمح المُتشاقي المألوف. حاول هاني أول الأمر أن يجعل ابنة مدحت الصغيرة تجلس في حضنه، لكنها بدأت تقاوم وتصيح محتجة، فأتت فاطمة من المطبخ وحملتها إلى المطبخ صامتة وهي تهزّها بين ذراعيها.

قال هاني: «حزنت عندما سمعت بوفاة والدك. رحمه الله».

«أوه...». لوّح مدحت بيده في الهواء كأنه يبعد تلك الفكرة؛ لكنه بدا غير قادر على قول أي شيء آخر. كان المعمول الذي أعدّته فاطمة لا يزال حارًّا، شديد الهشاشة، فراح الاثنان يأكلانه صامتين. قال مدحت: «لقد بدأنا عملًا جديدًا. خياطة الملابس. أعمل مع واحد من السامريين. وكذلك معي بطرس، خياطنا القديم. نخيط بدلات».

قال هاني: «هذا رائع. أهنئك. أدعو الله أن يديم الصحة على عملك».
ابتسم مدحت: «بعدين... نستورد أيضًا ملابس نسائية من القاهرة».
قال هاني: «حسنًا... ترى أنني أبدو زري المظهر. ربما آتي إليكم. صارت هذه البدلة عتيقة. لقد اشتريتها من ذلك المتجر، هل تتذكره؟».
«هل هو المتجر الذي فيه بائعة شقراء؟».
«بالضبط. كانت لديهم ربطات عنق ممتازة».
«لا يزال عندي ثلاث أو أربع منها».
«غير معقول!».
ضحك مدحت، وقال: «إنها عندي. تشغل ربطات العنق نصف مساحة واحد من الدروج. تراني فاطمة مجنونًا. لكن، أخبرني عن الحياة السياسية، كيف هي الآن؟».
«لقد هدأ الصهاينة قليلًا، فبدأ العرب يتشاجرون في ما بينهم. النشاشيبي، والحسيني... أظنك تعرف هذا».
«الوضع نفسه في نابلس».
«لكني متفائل في شأن الوفد الذي سيذهب إلى لندن. إنني متفائل».
لم يكن هناك ما يدعو إلى التفاؤل. ولم يدرِ هاني ما جعله يتظاهر بهذا أمام مدحت. لعله شيء مما يحدث بين الأصدقاء بعد فراق طويل: تكون الانطباعات الأولى بعد الفراق أكثر أهمية من الأمور الحقيقية الأولى لأنها تظلّ مثقلة بالتوقّعات التي تخلقها الذكريات المشتركة. يتطلّب اللقاء الحقيقي الأول تواضعًا؛ لكن اللقاء الأول بعد مرور زمن يتطلّب قدرًا من التظاهر. الحقيقة أن أعضاء الوفد الجديد الذاهب إلى لندن كانوا قد تلقّوا نصيحة من داعميهم البريطانيين بأن يعتدلوا في مطالبهم. قالوا لهم: لا تطالبوا بالاستقلال، لأنكم لن تحصلوا عليه. أظهروا المودة. أظهروا أنكم مسالمون. اطلبوا أن يكون لكم مساهمة في القرارات الخاصة بالهجرة. عندها، ستبدون منطقيين؛ وقد تشملكم القوى النافذة بعطفها!
مرّت بضعة أيام، فقاطع العرب انتخابات المجلس التشريعي. كان قبول أية مؤسسة بريطانية يعني قبولًا بالحكم البريطاني.
رُن الهاتف عندما كان هاني جالسًا خلف طاولة مكتبه ينظر إلى الناس عند باب دمشق.
رفع السماعة: «معك موظّف الهاتف. هل أنت هاني مراد؟».
«نعم، معك هاني مراد».
«مدام مراد على الخط».

صوت تكة، ثم صرير، ثم أتى صوت آخر: «عمتو، هل تستطيع أن تأتي إلينا؟».
«أهلًا، عمتي. ما الأمر؟».
«هل تستطيع أن تأتي؟ أنا لست... لا أريد أن... لا أريد الحديث على...».
قال هاني: «مفهوم...». صارت السرّية الآن جزءًا من طبيعته... «سوف آتي سريعًا».
في مدخل البيت، بدت أرملة عمه أكثر ضعفًا وهشاشة مما كانت في المرة الماضية.
«قلتَ لي إنني إذا كنت في حاجة إلى أي شيء... هل كنت تعني ما قلته؟».
أجابها هاني: «بكل تأكيد».
«صارت ابنتي في الرابعة عشرة. إنها وريثة فؤاد الوحيدة. ثلاثة من أخوالها...».
أدرك هاني ما تريده منه حتى قبل أن تمضي بعيدًا في سرد القصة. مد يده فاستند إلى ظهر الكرسي.
«آه، طبعًا!...». أشارت أرملة عمه إليه بأن يجلس... «جعلتني شدة قلقي على ابنتي أنسى واجب الضيافة. سوف أغلي الماء للقهوة».
قال هاني بينما راحت أرملة عمه تبحث في خزانة المطبخ: «إن فارق السن كبير جدًا. هل تعرفين كم صار عمري؟ أربعة وثلاثون. عندما تصير في العشرين، فسوف تدرك...». استقرّت يده فوق يده الأخرى... «أفهم أنك واقعة في مشكلة. لكني لا أعرف إن كان هذا سيكون أمرًا صحيحًا لكي...».
استدارت أم سحر إليه حاملة غلاية القهوة. قالت له: «أعرف كيف ربّيتها. لن يكون لديها ذلك الإحساس أبدًا. أرجوك، يا عمتو، ليس أمامي أي خيار آخر».
مضى وقت المجاملات. وضعت الغلاية على الموقد. جلست إلى جانبه وضغطت بأصابعها على يده. بحثت عيناه في وجهها. لقد كان يحب زوجها. وقد ترك هذه المرأة من غير حماية. انخفضت عيناه إلى يديها. يدان نحيلتان إلى حد جعل مفاصل أصابعهما نافرة كأنها قطع نقود معدنية.
«هل أستطيع رؤيتها؟».
كانت سحر تستمع إلى حديثهما من خلف الباب عندما نادتها أمها. انتظرت لحظة قبل الدخول. إنه كابوس. هل يُعقل هذا؟ خال جديد؟
قالت لها أمُّها: «هذا رجل طيب».
كان الرجل الطيب شخصًا بدأ الشيب يظهر في شعره. رجل طويل، نحيل، تعطيه أجفان عينيه الثقيلة مظهرًا ساخرًا. ابتسم الرجل لسحر. أحسَّت بالغثيان.
وضعت أمها على وجهها حجابًا في تلك الليلة. بكت وراحت تدعو بصوت مرتفع.

وبعد حلول الليل، أخذوا سيارة إلى القدس. نامت سحر في المقعد الخلفي؛ لكنها كانت تستيقظ من حين لآخر على صوت المحرك فتمسك يد أمها.

لا بد أنهم حملوها على السلّم حملًا، لأنها استيقظت في الصباح فوجدت نفسها إلى جانب أمها الغافية. كان صوت رجل يأتي متقطّعًا من خلف الجدار. انسلّت سحر من الفراش، وشقّت الباب قليلًا فرأت الرجل الطيب نفسه واقفًا إلى جوار طاولة عند النافذة. كان يتكلّم في شيء لامع أدركت على الفور أنه هاتف.

كان الشيخ أقصر من سحر قامةً. بدا لها رأسه مثل جوزة لامعة. وصل في الساعة الحادية عشرة ووضع رزمة أوراق على الطاولة ثم فتح المصحف. قال من غير أن يلتفت إلى سحر إن أمها ستكون وكيلتها. جلست على حافة الأريكة البعيدة كأنها بطلة قصّة تستسلم لمصيرها، في حين كان هاني وأمها يقرآن الفاتحة ويجيبان على الأسئلة الشرعية التي يطرحها الشيخ. في غضون دقائق معدودة، جرى التوقيع وتم كتابها.

مس هاني رأس سحر بعد ذهاب الشيخ، وقال: «سوف نرسلك إلى المدرسة».

*11 شباط 1924*

*عزيزتي سحر،*

*قبل كل شيء، أرجو ألا يزعجك قولي إنني وجدت غلطتين نحويتين في رسالتك الأخيرة. لقد كتبتِ: «من بين اثنتا عشرة فتاة في صفي، هناك أربع مسلمات فقط». لقد نصبت العدد، وقلت «اثنتا عشرة»؛ لكن عليك أن تتذكري أن هناك حرف جر قبلها، مما يعني أنه يجب أن تكون «اثنتي عشرة»، لكنك أصبت عندما كتبت «أربع مسلمات» لأن العدد ينبغي أن يخالف المعدود. وأما الغلطة الثانية فهي في استخدام فعل الشرط - تذكّري وجوب حذف النون.*

*أنا منشغل في السياسة، كعهدي دائمًا. هناك مجادلات كثيرة. هل يتكلّمون في هذا كثيرًا في المدرسة؟*

سلامات،

هاني

*15 آذار 1924*

*عزيزي هاني،*

*أشكرك على تصحيح أغلاطي. دروسي تسير على ما يرام. أجد متعة في دروس الجغرافيا والتاريخ واللغة الإنكليزية. توقّعت أن أحب دروس*

الأدب، لأنني أحب القراءة. لكن المعلمة لم تعجبني. هي شديدة الثقة دائمًا بأنها محقّة، ولا تحب أن تسمع أي رأي آخر.
معلمتي المفضلة هي الآنسة شميدت. إنها تعلّمنا الجغرافيا. لا تبدو لطيفة أول الأمر، لكني أراها شخصًا ذا ضمير حي. ثم إنها ذكية أيضًا.
في مدرستنا، لا تتكلّم المعلمات في السياسة، لكن الطالبات تتكلمن كثيرًا. المفتي ليس محبوبًا لدى أكثر الفتيات هنا. وحتى الفتيات المسلمات صرن يتحدّثن عن عدم رغبتهن في وضع الحجاب. لا تقل هذا لأمي، من فضلك. هل تجد صعوبة كبيرة في عملك؟ وما رأيك في المفتي؟
سلامات،

سحر

23 كانون الأول 1924

عزيزتي سحر
آسف لأنني تأخرت في الرد على رسالتك. فقد كانت مشاغلي كثيرة، كعادتها. أخفقنا في عقد مؤتمر آخر لأن الانقسامات عميقة جدًّا. الهجرة الصهيونية في تزايد؛ وبيع الأراضي جارٍ في كل مكان؛ ولم يشكّل العرب جبهة متّحدة حتى الآن. لست واثقًا إن كان من المستحسن أن أكشف عن رأيي في المفتي. والحقيقة أنني لم أتوصّل بعد إلى رأي واضح. أفضّل ألا أتّخذ موقفًا ثم أتمسّك به كأنه مسألة شرف؛ فأنا أرى هذه العادة منتشرة في كل مكان. وهذا مما يلحق الضرر بالحركة الوطنية. يزعم الناس أن لديهم مبادئ، لكنهم غير معنيين حقًا إلا بالمحافظة على نفوذهم. لا يحاولون رؤية الصورة الكبيرة. ونحن نتشاجر ونتشاحن في ما بيننا في حين تؤخذ الأرض من تحت أقدامنا.
أعرف أنك تفضّلين قراءة القصص والروايات، لكني أنصحك بقراءة الشعر حتى إن لم يكن مما يعلمونكم إياه في المدرسة. ابدأي بقراءة شعر البارودي لأن فيه عبرًا أخلاقية كثيرة. يعجبني كثيرًا الشاعر المصري حافظ إبراهيم. وها هو جزء من قصيدة لأحمد شوقي. أرجو أن تستمتعي بقراءة شعره:

والنجم يلحظنا بعينٍ ... ما تحول ولا تحيد
حتى إذا دعت النّوى ... فتبدد الشّمل النضيد
بتنا ومما بيننا ... بحرٌ، ودون البحر بيدُ

ليلى بمصر وليلها بالغرب، وهو بها سعيد
تحياتي لك،

هاني

17 كانون الثاني 1925

عزيزي هاني،

استمتعت بقراءة ما كتبته لي عن المشكلات التي تواجه العرب في هذا الوقت.

أعجبتني القصيدة كثيرًا. قرأت بعض أشعار البارودي وشوقي، لكنني سأقرأ المزيد منها.

سمعنا عن المظاهرات التي قامت وقت زيارة اللورد بلفور. أليس هذا مثالًا على قدرتنا على تأجيل خلافاتنا من أجل قضية أكبر؟

آسفة لأن هذه الرسالة قصيرة. هذا اليوم مخصَّص للألعاب الرياضية. وسوف أذهب لألعب التنس.

سحر

مكتبة
t.me/soramnqraa

26 أيار 1925

عزيزتي سحر،

سررت كثيرًا برؤيتك في بيت أمك. أنت تكبرين سريعًا؛ وأعترف بأنني فوجئت كثيرًا عندما رأيت كم صرت طويلة. ثم إنك أيضًا متحدّثة بارعة.

أكتب إليكِ من عمان. أتيت لزيارة صديقي الملك فيصل، ملك العراق، في اجتماع لمناقشة الثورة الجديدة في سورية. يسرني أن أكون معه لأنه مثال للرجل الشريف المهتم كثيرًا بمصائر الآخرين.

هاني

29 حزيران 1925

عزيزي هاني،

أنهينا امتحانات آخر السنة. وقد بدأت العطلة الآن. وبما أن أمي لا تريد أن أعود إلى جنين، فسوف نبقى في يافا حتى شهر آب.

هل أنت في سورية؟ إننا نسمع أخبارًا عن الثورة ضد الفرنسيين. آمل أن تكون في القدس. لكن، بما أنني سأرسل هذه الرسالة إلى القدس، فسوف تكون فيها عندما تقرأها. أدعو الله ألا تكون في سورية.

صرت أقرأ الصحف بعد أن انتهت المدرسة. هل سمعت عما حدث بعد

إقدام الحكومة البريطانية على تحويل المياه من إحدى القرى العربية وإعطائها لليهود الذين يبنون بيوتًا في القدس؟ لجأ العرب إلى القضاء، فربحوا القضية! أظن أن هذا دليل على أن الحكومة البريطانية حكومة منصفة، وعلى أنهم يتقيدون بقوانينهم عندما تُطرح الأمور بطريقة سليمة.

سلامات،

سحر

2 تشرين الأول 1925

عزيزتي سحر،

ابتسمتُ عندما قرأت ردة فعلك على قضية المياه. من الممكن أحيانًا أن يبدو القانون أمرًا مملًا؛ لكنه، في أحيان أخرى -صحيح- القانون هو مادة الحياة. وأما إن كانت الحكومة البريطانية منصفة أو غير منصفة، فهذا ما ينبغي النظر فيه.

لم أكن في سورية، لحسن الحظ. لقد كنا ننظّم لجنة مركزية من أجل إغاثة الضحايا السوريين منذ بداية الثورة. وقد كتبنا إلى عصبة الأمم محتجّين على القصف الفرنسي الوحشي على مدينة دمشق.

لقد بدأت أتساءل إن كنا، في فلسطين، في حاجة إلى ثورة مثل التي في سورية. إن في الشمال بعضًا ممن يدعون إلى الثورة. المأساة الآن هي أن الحركة الوطنية الفلسطينية ليست لها أية استراتيجية. يدخل البلاد أكثر من ألف مهاجر يهودي كل شهر، ومن الواضح أنهم يريدون إقامة دولة يهودية. قد نكون أكثرية في البلاد، لكننا نعامل كأننا أقلية. أرى أنهم يريدون جعلنا كذلك. السياسة البريطانية المزعومة، سياسة المحافظة على الوضع القائم، سياسة زائفة تمامًا.

إنني أبني بيتًا جديدًا في حي المصرارة، وآمل أن يعجبك. المعماري الذي يبني البيت تركي؛ وقد صمم بيوتًا كثيرة أخرى في الحي. وفي هذه الأثناء، أعمل على قضايا النزاعات العائلية والنزاعات على الأراضي. فالظاهر أننا عندما ندخل مرحلة اضطراب سياسي، يشيع لدينا جو من التطبّع بطباع البريطانيين. فعلى سبيل المثال، لدينا أحزاب كثيرة.

لقد عدتِ إلى المدرسة الآن. كيف كانت بداية سنتك الأخيرة في المدرسة؟

سلامات،

هاني

*15 تشرين الثاني 1925*

*عزيزي هاني،*

*لقد كان لبداية السنة الدراسية الأخيرة إحساس غير معتاد. سوف أحزن لترك صديقاتي، مارغو ولميس خاصّة. أعرف أنني سأستمر في رؤيتهن، لكن ليس كل يوم. لكن حماستي كبيرة أيضًا. لدينا الليلة حفل موسيقي في الباحة. وسوف تعزف لميس على البيانو.*

*ما أخبار البيت في المصرارة؟ أحسّ الأمر غريبًا عندما أفكر في أنه لم تبق إلا بضعة شهور. كان لدينا اليوم درس خياطة، فصنعت لنفسي قبعة على شكل عمامة. آمل ألا تجد هذه التفاصيل مملّة، لكنها كل ما عندي؛ فسامحني!*

*سحر*

*9 كانون الثاني 1926*

*عزيزتي سحر،*

*التفاصيل التي كتبتها لي في رسالتك غير مملّة على الإطلاق. أمر رائع دائمًا أن أسمع منك ما تفعلينه، يومًا بيوم. عما قريب، سوف تروين لي هذه الأمور، على العشاء، إن شاء الله. لعلي قلت لك هذا من قبل، لكن لغتك العربية تحسّنت تحسنًا هائلًا؛ كما أن خطك جميل جدًا.*

*اعذريني لأن رسالتي مختصرة. لكن عليَّ الآن أن أستعدّ لحفل استقبال هذه الليلة سيحضره المندوب السامي. وسوف أشارك غدًا في اجتماع مع عدد من الزملاء في المدينة القديمة. أنتظر بفارغ الصبر رؤيتك في شهر أيار. صار البيت جاهزًا.*

*سلامات،*

*هاني*

عندما خرجت سحر، غير محجَّبة، من بوابة المدرسة آخر مرة في ذلك الربيع، أخذت سيارة تاكسي أوصلتها مباشرة إلى بيت زوجها الجديد في حي المصرارة الواقع في غرب مدينة القدس غير بعيد عن أسوار المدينة القديمة. وهناك رأته ينتظر في أعلى السلم، عند باب البيت المفتوح. لم يكن طويل القامة مثلما تتذكّره. ومن المؤكد أنه بدا أكبر سنًا. في المدرسة، صار هذا الرجل موضع حسد زميلاتها، ومنبع اعتزاز صامت لديها. لكن إحساسها الأول عندما دخلت عتبة البيت، مرتدية فستانها الجديد، حاملة حقائب الكتب، كان أن هاني غير مطابق للصورة التي رسمتها، وتحدّثت عنها، وهامت بها.

كان البيت مؤلفًا من طابقين. وكانت فيه غرف كثيرة. له قناطر فوق نوافذه المطلة على الشارع. كان الطابق الأول متمركزًا، وفق نمط البناء التقليدي، من حول باحة فيها بركة ونافورة. وكانت الأرض مزينة ببلاط أسود وأحمر وأبيض. رنّت خطواتها على بلاط الأرضية عندما سارت خلف زوجها لترى غرف المعيشة. وقع زلزال في أريحا بعد سنة من ذلك، فبلغت اهتزازاته القدس، وظهر صدع في هذه الأرضية المبلطة امتد عبر الباحة وتوقف قبل وصوله إلى البركة التي في وسطها. وبعد أن هدأ الغبار الذي ثار في المدينة، وأحصيت الإصابات، اضطلعت سحر بمسؤولية إصلاح الأرضية. جمعت مع خادمتها القطع المتكسرة التي تشقّقت ونتأت من أماكنها تاركةً تجاويف خشنة في الأرض. كان هاني منشغلًا كعهده دائمًا فلم يتذكّر المصدر الذي أتى منه المعمار بالبلاط. استعارت سحر مجلات مستلزمات البيوت المصرية من زميلاتها في جمعية المرأة، ووضعت على رأسها قبعتها الشبيهة بالعمامة، وذهبت إلى متجر للسيراميك في الحي الأرمني آخذة معها كيسًا صغيرًا من شظايا البلاط لكي تحاول أن تشتري مثلها. عرفها صاحب المتجر بسبب زوجها، فلم يتأخّر في إظهار اهتمامه وفي نشر عشرات النماذج من البلاط والبورسلان على الطاولة. لكن أيًا منها لم يكن مناسبًا: كلها لامعة أكثر مما ينبغي؛ كما كانت البلاطات التي تحمل رسومًا غير مناسبة على الإطلاق، لأنها متشابهة مكررة، بدلًا من أن تكون جزءًا من رسم يمتد على الأرضية كلها. بدأ صاحب المتجر يتعرّق لإحساسه بالحرج، وظل مصرًا على مواصلة البحث في مستودع متجره إلى أن نطقت سحر اسم المعمار بنبرة غاضبة وسألته إن كان ذلك الرجل قد اشترى السيراميك من متجره.

قال الرجل: «آه، يا مدام. لو حدث هذا، لكان شرفًا كبيرًا لي».

«أفهم من إجابتك أنه لم يشتر هذا السيراميك من عندك».

وعندما استدارت لكي تنصرف، قال صاحب المتجر إن في وسعها أن تسأل المعمار نفسه، وإنها تستطيع العثور عليه في المسجد الأقصى. إنه على رأس فريق الترميم هناك بعد الأضرار التي أصابت المسجد نتيجة الهزة الأرضية.

وجدت المعمار جاثمًا في الزاوية الغربية لمجمع المسجد الأقصى مرتديًا بدلة زرقاء داكنة. رأى سحر تقترب منه فنهض واقفًا وابتسم لها. مسطرة في إحدى يديه وورقة متسخة في اليد الأخرى. شاربه الثخين المطلي بالشمع فيه شعرات بيضاء، وشعره المتعرق مردود إلى الخلف كأنه قمة مائلة جانبًا.

قالت سحر: «لقد بنيت بيتنا، وأنا أحاول العثور على البلاط الذي وضعته في باحة البيت».

تظاهر المعمار أول الأمر بأنه يحاول تذكّر البيت الذي وصفته له. لكنْ، سرعان ما اتضح أن ذلك كان تظاهرًا فحسب. اعترف لها بأنه بنى بيوتًا كثيرة في ذلك الحي، وبأنه أوكل أمر اتخاذ القرارات المتعلّقة بالأمور التزيينية، كاختيار البلاط مثلًا، إلى مساعديه ومتدربيه، الذين كانوا كثرًا، فضلًا عن تغيرهم دائمًا.

قال لها آخر الأمر: «أظن أنهم طلبوه من إيطاليا».

«إيطاليا؟»

«أجل. لكني غير قادر على تذكّر المكان».

شكرته حزينة، فسألها عن اسمها وظل ممسكًا بيدها ناظرًا في عينيها لحظة أكثر مما هو ضروري. انسحبت سحر وعادت أدراجها إلى متجر السيراميك الأرمني، حيث اندفع صاحب المتجر من خلف طاولته فور رؤيتها.

قالت له: «هل أستطيع رؤية نماذج البلاط مرة أخرى؟».

اختارت مجموعة مؤلفة من بلاطات سوداء، وأخرى زرقاء، وأخرى حمراء، بعد أن قارنتها، وهي حزينة بالنماذج التي كانت معها. من بين البلاطات الجديدة، كانت الحمر أسوأها. استقرت في مكانها في أرض باحة البيت إلى جانب البلاطات الأصلية ذات اللون الأحمر المائل إلى البرتقالي فظهر اختلافها المبتذل الصارخ.

لكن ألوان البلاطات الجديدة خبت بعد سنة واحدة. لم يكد هاني ينتبه إلى أي اختلاف؛ وعندما لفتت نظره اكتفى بالقول: «لقد أحسنتِ صنعًا». وبعد مرور سنتين، لم تعد رؤية تلك الاختلافات تلفت نظر سحر نفسها، فقد اعتادتها، بل صارت تعجبها أيضًا. وفي يوم من أيام الخريف في سنة 1929، ازدحمت باحة البيت بمئتي مندوبة من المنظمات النسائية أتين من أنحاء البلاد كلها بقبعاتهن وأحذيتهن المرتفعة التي تردّد وقعها على البلاط كأنه صوت المدافع. جلست النساء المقدسيات من زوجات كبار الوجهاء على الكراسي، في حين ظلت البقية واقفات عند الجدران، مصغيات إلى ما يقال. كن يرفعن أيديهنّ طالباتِ الكلام.

أثارت الاضطرابات التي وقعت عند الجدار غضب الجميع. لقد كان حائط المبكى عند اليهود، وحائط البراق عند المسلمين، فهو المكان الذي عرَج منه النبي إلى السماء. كان اليهود قد أقاموا فاصلًا بين الجنسين، مما شكّل تغييرًا للحالة القائمة في ذلك الموقع المقدّس، أي للحالة التي كانت على أيام العثمانيين ثم حافظ عليها البريطانيون. بدا ذلك كأنه خطوة في اتجاه الاستيلاء على المكان كلّه. نشبت اضطرابات بعد ذلك: مات عرب ومات يهود. لكن العرب عوملوا بعد ذلك معاملة أقسى كثيرًا من معاملة اليهود، وحُكم على كثيرين بالشنق.

انتخبت النساء مدام حسيني رئيسة للاجتماع. رفعت يدها طالبة الصمت. سوف يخرجون في مسيرة إلى مقر الحكومة. وسوف يذهب وفد -من أعضائه سحر ذات العشرين عامًا- إلى المفوَّض السامي وزوجته حاملًا قائمة مطالب؛ وسوف يعلن الوفد عن قرار النساء بالتظاهر.

(قص هاني الحكاية على مدحت: «رفعت النساء كلّهن الحجب عن وجوههن -هكذا- وقالوا له، سوف نتظاهر، وسوف نحتجّ على إعلان بلفور وعلى سوء المعاملة التي يتلقّاها العرب. فماذا قال المفوض السامي؟ لقد قال، سوف أوقف المظاهرة بالقوة إن اضطررت إلى ذلك. فماذا فعلت النساء؟».

قال مدحت: «ماذا؟».

«ظللن مصرّات على التظاهر. لكن، سيتظاهرن في السيارات».

قال مدحت مبتسمًا: «لا!».

«بل نعم. مئة وعشرون سيارة».

جلست سحر في المقعد الخلفي لسيارة بويك 154، خلف السائق. وإلى جانبها امرأة مسيحية من حيفا اسمها جميلة. وفي المقعد الأمامي، إلى جانب السائق، جلست سيدة كبيرة السن هي السيدة عبد الله. مدّت السيدة عبد الله يدها أمام المقوَد وأطلقت بوق السيارة. انطلقت أيضًا أبواق السيارات التي في الأمام والسيارات التي في الخلف؛ وكان الرصيفان على الجانبين مزدحمين برجال الشرطة. مرّت النساء بباب دمشق في قافلة كبيرة من السيارات المطلقة أبواقها؛ ورحن يهتفن بالشعارات عبر النوافذ المفتوحة. وأمام كل قنصلية أجنبية، ترجلت خمس نساء من السيارات التي في المقدّمة وذهبن لتقديم مذكرتهنّ. ومع حلول الساعة السادسة والنصف، أي مع اقتراب غروب الشمس الحارة، تفرّقت السيارات رافعة الرايات عبر أحياء المدينة معيدة النساء إلى أحيائهنّ وبلداتهنّ وقراهنّ.

في مساء يوم من أيام سنة 1933، كرّر هاني هذه القصة على مسامع مدحت. كانت واحدة من تلك القصص الكثيرة عن زوجته التي يبدو عليه استعداد دائم لروايتها معتزًا بها. كان في تلك الليلة قد عاد لتوّه من العراق مرهَقًا. خرج ليشتري سجائر فلمح صديقه في أول شارع حيفا بالقرب من فندق الملك داود الجديد. عرف هيئة مدحت على الفور: قامته المنتصبة، ومشيته المتئدة في الشارع كأنه يتملّى تفاصيله على مهلٍ ويقيّمها بهدوء؛ زوج من القفازات في يده. لحق به هاني بعشر خطوات واسعة.

قال وهو يمسك صديقه من كتفه: «ماذا تفعل هنا؟».

وقفا أمام الفندق، أمام ذلك المبنى الكبير ذي النوافذ الكثيرة كأنه مقرّ حكومي.

قال مدحت: «هاني! أتينا إلى السينما». تحوّلت هيئته المستغربة إلى ابتسامة. أسبل عينيه؛ وكان شاربه المشمّع جيّدًا منتصبًا على شفته العليا... «جدتي والأطفال – لقد دخلوا إلى السينما، لكني أحببت استنشاق الهواء. لكن، لقد اشتقت إليك، يا هاني. مضى أكثر من سنة منذ أن رأيتك آخر مرة. أين كنت هذه المدة كلها؟».

«كنت في بغداد في الآونة الأخيرة. ذهبت للمشاركة في جنازة الملك فيصل».

قال مدحت: «برافو...». قالها وهو يومئ برأسه استحسانًا كأن هاني قام بالمهمة التي كلّفه بها... «رحمه الله. كان رجلًا عظيمًا. ما رأيك، هل ندخل ونتناول شرابًا؟».

مرت أمامهما امرأة ترتدي فستان سهرة رماديًا ودخلت ردهة الفندق متأبّطة ذراع رجل سائر معها. تبعهما مدحت وهاني، فألقت المرأة عليهما نظرة قلقة من فوق كتفها. انعطفا في ممر يفضي إلى بار الفندق. انداحت في البار أنغام بيانو يبثها غرامافون في الزاوية. كانت الجدران داكنة اللون؛ وكانت صورة عامل البار تنعكس على الخلفية فتعطي انطباعًا بوجود عدد لا نهاية له من الزجاجات والوجوه. اختار مدحت مقعدين قريبين من النافذة المطلة على حديقة الفندق الوارفة المغلقة: مصابيح كهربائية بين الشجيرات تنير طاولات عليها سائحون مبتهجون وصحافيون رماديون.

«كأسا ويسكي».

قال هاني: «لن تحزر أبدًا من رأيت هناك».

هز مدحت رأسه كأنما يريد فتح أذنيه حتى يسمع جيدًا.

«فاروق العظمة».

«يا إلهي. هل رأيته في بغداد؟».

«كان مسافرًا لكي يلتقي امرأة. أنت تتذكّر كيف كان فاروق».

مال مدحت مبتعدًا عن البار ممسكًا حافته حتى يحفظ توازنه.

قال هاني: «لقد سألني عنك. أراد أن يعرف إذا كنت مستمرًا في القراءة، وإذا كنت لا تزال عاشقًا».

«أوه، حسنًا. يمكنك القول له إنني عاشق».

«هل تعرف؟... لقد صار أصلع. وهو لم يتزوج، بالطبع».

«يدهشني هذا».

«هل يدهشك؟ كانت فلسفته كلها ضد الزواج».

ظهرت في المرآة، من خلف الزجاجات، امرأة جذّابة متوسّطة السنّ في فستان أسود. راح مدحت يراقبها وهي تخرج من القاعة عبر باب خلفي. قال لهاني: «لا أظن

أن فاروق كان ضد الزواج. كل ما في الأمر هو أن لديهِ ولعًا خاصًا بفكرة العلاقات النسائية من غير زواج».

ضحك هاني وشرب رشفة من كأسه: «انظر إلينا. رجلان متزوجان!».

كان هذا مقدمة لقصة هاني التي شرع يحكيها بعد تنهيدة طويلة. كان مدحت قد سمع نسخًا كثيرة من هذه القصة، لكن هاني استفاض هذه المرة في وصف تفاصيل إنقاذه زوجته الصغيرة من براثن أخوالها الثلاثة الجشعين فأتى بها إلى القدس تحت جناح الظلام.

صارت تلك الواقعة كلها -مروية على هذا النحو، بكلمات هاني- قصّة تقارب السخف في بعض مواضيعها. وخلال الشطر الأكبر من كلام هاني، كان مدحت يبتسم ويضحك في اللحظات المناسبة. لكن هاني انتقل إلى الحديث عن دور زوجته في التظاهرات واللجان النسائية (حقائق معروفة إلى حد جعل تعبير الدهشة الظاهر على وجه مدحت زائفًا تمامًا، على الرغم من كونه ضرورة من ضرورات الحديث). لكن أجزاء من تلك القصّة ظلّت تفاجئه بقوة غريبة. لقد بقي في هذه القصّة عن أخوال سحر شيء غير مطروق. شيء كأنه ظلّ لشيء آخر لم يُقَل. وحتى تلك الأجزاء التي كانت فكاهية، بل ربما تلك الأجزاء تحديدًا -الرجال الثلاثة، والاتصال الهاتفي من قبل أرملة عمه، والرحلة الليلية- ظلت موحية بشيء أكثر حدّة، بشيء أكثر عمقًا من مسألة إحباط المساعي الآثمة التي كانت تستهدف سحر. جالت في خاطر مدحت فكرة مفادها أن قصة تراجيدية مروية على عجل، يمكن أن تنقلب بسهولة إلى حكاية كوميدية يضحك من يسمعها لأنها تصير مجرّدة من عمقها. واصل صديقه إخباره عن المقالات الصحافية التي امتدحت زوجته -«والكلمات التي ألقتها، عن الوحدة، وعن الحرية، حقًا إنني فخور بها»- إلا أن مدحت كان نصف مصغٍ إليه فحسب، لأنه غرق في التفكير في الكيفية التي ستُروى بها حكايته بعد موته، بعد أن يصير غير ممسك بزمام ذكرياته، فتنطلق تلك الذكريات خببًا في أفكار الآخرين ومخيّلاتهم الملونة.

كان هاني يقول: «المأساة هي أن ثلاثة من العرب قد شُنقوا. عدد أقل كثيرًا من عدد الذين صدرت عليهم الأحكام أول الأمر. لكن هذا كافٍ لترك أثر في الذاكرة، ولجعلهم شهداء. الموت يخلق هذه الأساطير، كما تعلم».

قال مدحت: «صحيح. هذا فظيع. هل تعرف تلك القصة عن رجل لقبه بربر في نابلس».

قال هاني: «لا. لا أعرف تلك القصة».

«ألا تعرف. لا بأس، سأحكيها لك. يقال إن هذا الرجل كان يكره لقبه الذي أطلقوه عليه لأنه كثير الكلام في صغره».

في المرآة، بين زجاجات الجن والبراندي، ظهرت المرأة ذات الفستان الأسود من جديد؛ ظهرت لحظة وجيزة، وكان معها الآن شبح رجل في بدلة من التويد.

«عندما كبر ذلك الرجل بنى مسجدًا في نابلس أطلق عليه اسمه الحقيقي. سليم باشا، أو شيء من هذا القبيل، لست أتذكّر هذا الاسم، ثم سافر الرجل إلى السّلط، وبقي فيها سنوات كثيرة. وعندما عاد إلى نابلس، سأل صبيًا صغيرًا في الشارع عن موضع مسجد سليم باشا. أجابه الصبي: هل تعني مسجد بربر؟».

ضحك هاني ضحكًا شديدًا، ودفع نفسه إلى الخلف، على مقعده. أجفل عامل البار عندما انفجرت ضحكته، ثم أدرك أنهما يضحكان، فضحك بدوره.

## - 2 -

لم يشعر مدحت بأي ذنب بعد هذه الليالي التي أمضاها في الشرب في بار يرتاده الأوروبيون واليهود. كان في حاجة إلى شيء من التحرّر من نابلس، من جوّها المحتدم الخانق. والحقيقة أنه كان في حاجة إلى استراحة من بيته، ومن إجابات فاطمة التي تزداد حدّة، ومن سهولة ميل أطفاله إلى العنف، فقد جعل هذا كلّه بيتهم أشبه بمنطقة عمليات حربية لا عمل له فيها غير فك الأذرع المتشابكة، وإصدار الأحكام على المتخاصمين وتقرير من كان ظالمًا منهم ومن كان مظلومًا.

كان لمدحت وفاطمة أربعة أطفال. أتت مسرّة في البداية، ثم أتى طاهر. ثم وُلد خالد، ثالثهم، سنة زلزال أريحا؛ وكان خالد الطفل الوحيد الذي لم يبك بين يدي القابلة.

وُلدت الطفلة الرابعة سنة 1929، أي بعد سنتين من ولادة خالد. كانت تلك السنة التي شهدت حوادث حائط المبكى، ومجزرة اليهود في الخليل، ومسيرة سحر مراد إلى مقر المفوض السامي... السنة التي وقعت فيها فاطمة فريسة الاكتئاب لأنها حملت من جديد وأحست -في الثامنة والعشرين من عمرها- بأنها لم تعد سيدة جسدها. استلقت سرًّا في حوض الاستحمام، ذات يوم، وابتلعت محتويات زجاجة من بذور الحرمل المطحونة التي كانت كالتراب رائحة ومذاقًا. اشترت هذه الزجاجة بثمن باهظ من واحد من الأطباء الدجالين القلائل الباقين في المدينة القديمة. ناولها البائع الزجاجة مرفقة بإيحاءات محرجة وغمزة منفّرة من عينه. مضت بضع ساعات، فكانت نتيجة ذلك العقار السري الغامض إسهالًا حادًّا مؤلمًا، لكن من غير دم ومن غير سقوط الجنين. وبعد شهور من ذلك اليوم، التقى جلد غادة المحمر هواء الربيع البارد في المستشفى البلدي، ففرح مدحت وازدادت فاطمة إعياء.

عادة ما كان مدحت يساعد زوجته في الاستعداد للاستقبالات التي تقيمها مرة في الشهر لسيدات نابلس البارزات، سنة بعد سنة، وذلك بأن يأخذ الأطفال إلى جدّتهم، ثم يسافر إلى القدس بسيارة التاكسي حتى يمضي الليل هناك مع صديقه الصحافي قيس كرك، ومع الفتيات الراقصات في مقهى معاريف. كفّ عن دعوة جميل الذي كان يسخر من هذه المشاريع؛ لكنه يتمكّن بعض الأحيان من إقناع عادل جوهري بالانضمام إليهما، فيذهب الثلاثة بالسيارة إلى شاطئ البحر ويطوفون بشرفات الفندق المطلة على الماء. يدخن مدحت واحدة من سجائر عادل الصغيرة مرتديًا روب دو شامبر مفتوحًا

ومن حول عنقه واحد من أوشحته المطبوعة المستوردة من فرنسا مضمخًا بكولونيا فارينا جيغينوبر.

في المدن الساحلية تفارق مسكوت عنه بين مسلك الناس في الليل ومسلكهم في النهار، بين عراك الإنسان العامل مع احتياجاته والحرّية التي يعيشها الراقص. على الأقل، هكذا كانت نظرة مدحت إلى التناقضات التي لم تزعجه مثلما تزعج صديقه عادل جوهري. كانا في «كازينو كافيه» في يافا ذات ليلة من ليالي صيف 1934، فجرى حديث مع رجل لم يلبث أن بيّن لهما أنه صهيوني متحمّس.

قال عادل وهو سائر خلف مدحت إلى رصيف مرسى المنار بالمصابيح: «لا أستطيع تصديق حتى إنني كنت أتحدّث معه. هل تصدّق هذا؟ أنا لا أستطيع تصديق ذلك».

ربّت مدحت على ظهره، واندفع في مناقشة طوباوية هادئة بينما كانت أمواج البحر تتكسّر على مقربة منهما. كان اتقاء الاختلاط مستحيلًا لأن الطرفين يعيشان في بلد واحد؛ وقد كانا في تلك الليلة ينظران معًا إلى مجموعة الراقصات نفسها، وكانت الموسيقى صادحة والنبيذ متدفّقًا، وقد روى أحدهم نكتة، فلماذا لا يستمتع المرء بالصحبة حتى إن كانت ستنتهي مع بزوغ الفجر؟

كانا تحت مصباح الشارع. قال عادل: «حبيبي مدحت، أنت ساذج». ظلّ مدحت صامتًا. كان يفكر في جميل. لا يزال يراه في الولائم العائلية، ويعرف الأخبار المهمّة في حياته؛ لكن ذلك القرب الشديد الذي كان بينهما لم يستمر بعد مجادلتهما في اليوم الذي أعقب زواج مدحت. صارت لقاءاتهما نادرة. بل إن ذلك بدأ منذ حوادث النبي موسى. لم يتزوّج جميل، فقد كرّس آخر خمس عشرة سنة من حياته «للقضية» ولحشد التأييد الشعبي لمقاطعة الانتداب ومؤسساته. كان مدحت مدركًا أن فاطمة معجبة بإنجازات جميل؛ وكان يعتبر هذا انتقادًا ضمنيًا لقلة إنجازاته. لكن الأطفال كانوا يُبدون خشية من جميل عندما يجلسون على مقربة منه في العيد... إلا خالد الذي كان ينظر إلى جميل مسحورًا فيجعل مدحت يشعر بالخجل من نفسه.

أشار إلى النادل عندما عادا إلى الصالة. وبعد نحو ساعة، كان عادل يقبّل روسية سوداء الشعر اسمها بولينكا. رآهما مدحت من الزاوية حيث كانت واحدة من الراقصات جالسة في حضنه.

في سنته التاسعة والثلاثين، وعلى الرغم من اعتزازه بأنه شخصٌ محبٌّ للحياة، لم يعد مدحت قادرًا على أن يعتبر نفسه صادقًا، ورجلًا معافى. قال الطبيب إنه يأكل كثيرًا. وكان يكثر شرب القهوة أيضًا، ويدخّن كثيرًا جدًّا. ثم إنه كان شديد الولع بالعرق – لكن العرق كان خطيئته السرّية التي لم يفصح عنها، حتى أمام الطبيب.

ظل نحو أسبوع ونصف أسبوع بعد ولادة غادة يعاني ذعرًا ليليًا غريبًا: يشعر بأن السرير يهتزّ كلما أغمض عينيه حتى ينام. اتهم فاطمة أول الأمر، وظنّ بأنها سبب اهتزاز السرير. وعندما أنكرت هذا، بدأ يتخيّل أن الغرفة كلها تهتزّ، وأن هناك من يمشي على سطحها. فقد المنطق سلطته بعد انتصاف الليل؛ وفي الليلة التالية، كان الاهتزاز أشدّ من ذي قبل، فغدا مدحت واثقًا من أن الأرض نفسها تهتز، ومن أن ذلك كان إنذارًا بزلزال جديد. ظل في حالة انتباه شديد، ينتظر ويسجّل كل رعشة بسيطة، فصار شبه عاجز عن النوم. لكنه لم يعاني صامتًا، بل يوقظ زوجته مرة بعد مرة ويسألها إن شعرت بهذه الهزّة، أو بتلك. جاء الصباح، فتولّت فاطمة تحرّي الأمر. أرغمت مدحت على الاستلقاء على الأريكة، ثم على العشب. لم تسفر هذه التجارب عن شيء، لكنّ مدحت تكلّم في الليلة التالية عندما كانا في الظلمة، على سريرهما.

«هناك إيقاع واضح. دوم - دوم، دوم - دوم».

صرّ السرير عندما انتصبت فاطمة جالسة ونظرت إليه. كانت عيناها لامعتين في الظّلمة، وشعرها المظلّل مثل كومة مموّجة.

قالت له: «هذا صوت تنفسك. أنت أبله».

راح مدحت يصغي بانتباه شديد. إنها محقّة. كانت الاهتزازات متوافقة مع كل ضربة من ضربات قلبه... مع شيء من التأخّر البسيط. إنه نبض الدم في جسده. ضربت فاطمة كتفه، فانفجر مدحت ضاحكًا. قالت هامسة: «ستوقظ الأطفال». لكنها فاجأته بعد لحظة واحدة: قهقهت ومالت مستندة إلى رأس السرير وتلوّت ساقاها تحت البطانية. كانت تلك لحظة حميمة لم تلبث أن طالت فصارت ساعة سعيدة، أو ساعتين، واهتز السرير هزات أشد من المعتاد. وفي اليوم التالي، قال الطبيب لمدحت إن عليه أن يقلل من استهلاك القهوة والسكر في الساعات التي تسبق النوم. لكن ما حدث في واقع الأمر أنه اعتاد ذلك الاهتزاز المنتظم الذي ما عاد يبدو له شديد الوضوح بعد أن عرف سببه.

كانت الساعات الحميمة التي يمضيها مع فاطمة صباحية أكثر الأوقات. يكثُر ذلك بعد أن يمضيا الليلة متباعدين، هو في القدس أو في الساحل، وهي في واحد من تلك الاستقبالات في نابلس. وكان مدحت مقتنعًا بأن تغيير الروتين هو الشرارة التي تطلق ذلك غالبًا، لأنه يجعل كلًا منهما غريبًا عن الآخر وينعش في نفسيهما شيئًا من الحنين إلى أيام زواجهما الغامضة الأولى. يعود بعد أمسية في الخارج، فيجد أن نفحة من التغيير قد جعلت زوجته ترقّ، وخلّصتها من ميلها المعتاد إلى السخرية (يفترض مدحت أنها استهلكت ما لديها منها في الليلة الماضية). وفوق هذا، كانت يبدو عليها الهدوء نتيجة رؤيتها حال المجتمع واطمئنانها إلى أن بقية العالم -بقية نابلس، بالنسبة إليها- ليست

في حال أفضل من حالهم. في هذه الأوقات، تكون الرغبة عند كل منهما ممزوجة بإدراكه أن الناس قد رأوا الآخر، بأنهم قد رأوا وقيّموا ما يريانه الآن، وهما مستلقيين على سريرهما في ضياء الصباح المتسلّل من النافذة. كان كل منهما يغازل الغيرة التي تستدعيها هذه الفكرة من الظلمة؛ لأن الغيرة، في هذه الحالة، كانت اشتداد الشهوة، فهي تستدعي بقية العالم إلى غرفة النوم فتجعل سهلًا عليهما أن يكونا وحيدين.

تشرين الثاني 1935. اقترب مدحت من المطبخ فسمع أصواتًا. رنت خطواته على الأرضية المبلطة، فصمتت تلك الأصوات. ضباب الصباح يحجب الجبل البعيد عن نافذة المطبخ. ومن تحت الضباب، بدت الأشياء التي في الحديقة بلون الرماد: أشجار، وقطع أثاث، وأجمات، وجدار. كانت فاطمة جالسة إلى الطاولة رافعة ركبتيها إلى صدرها وقد وضعت كعبيها على حافة الكرسي. كانت رقبتها لا تزال متوتّرة مما أوحى له بأنها لم تتّخذ تلك الوضعية إلا قبل لحظة. وإلى جانبها، كانت أختها نزهة منحنية فوق شيء مسطَّح على الطاولة.

لقد كبرت نزهة أكثر من أختها خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، على الرغم من أنها أصغر من فاطمة. لم تتجاوز الثلاثين. لكن الشيب بدأ يظهر في الشعر المحيط بوجهها، وارتسمت غضون صغيرة من حول فمها. كانت فاطمة تعتبر أختها بسيطة (من خلف ظهرها)؛ لكن نزهة لم تكن امرأة بسيطة. كل ما في الأمر هو أنها ظلّت خالية البال على نحو لم تكُنه فاطمة أبدًا.

قال نزهة: «انظر هنا، لقد وجدنا هذه بين أشياء أمي».

أدارت أصابعها النحيلة الصورةَ حتى تصير في اتجاه مدحت. كانت صورة جعلها الزمن باهتة، فيها صفان من نساء مرتديات فساتين أنيقة. بعض النساء راكعات في مقدمة الصورة. كانت أكثر الوجوه غائمة، خطوط وبقع في أماكن الأفواه والعيون. وهنا وهناك، كان جزء من فستان، أو حلية، واضحًا وضوحًا تامًا. وفي خلفية الصورة، كانت تعريفات أصص الزهور ظاهرة، ومن فوقها كتلة ضبابية من أوراق نبات حقيقية.

أشار مدحت بإصبعه الصغير إلى واحدة في الصف الثاني كان وجهها من الوجوه القليلة الظاهرة. قال: «هذه أنت». كانت نزهة الصغيرة تنظر إلى آلة التصوير مباشرة. وكانت الفتاة إلى جانبها لطخة رمادية.

«صحيح، هذه أنا. ألا يبدو أننا نرقص؟».

تمعّن مدحت أشكال النساء التي في الصورة محاولًا رؤية حركتهنّ.

«أين أنتم. أين التقطت الصورة؟».

«لست أدري. أليس هذا غريبًا؟ في تلك الأيام، لم تكن لدى الناس آلات تصوير.

ولهذا، فأنا لا أستطيع...».
قال فاطمة بصوت ضجر: «استقبال دار عطوان». كان أنفها وجبهتها لامعين تحت الضوء القادم من النافذة.
قالت نزهة: «آه، صحيح، دار عطوان. لكن، لماذا كنا نتحرّك هكذا؟».
قال مدحت: «لا بد أن السبب...».
قالت فاطمة: «لا بد؟».
نظر إلى رقبة زوجته المتوتّرة، ثم التقط الصورة وقرّبها إلى عينيه. نظر إلى أصص الزهور.
«إنها تمطر». أعاد الصورة إلى الطاولة.
كان أكثر ما يثير انزعاجه ذلك الجهد الذي تبذله فاطمة لكي تُظِهر أنها غير مهتمّة بشيء. كانت تلك سمة أرستقراطية يمقتها كثيرًا؛ لكن فاطمة كانت لديها مزية طبيعية في هذا الأمر، لأنها قادرة على التعبير عن ضجرها بمجرّد إبقاء وجهها ساكنًا من غير تعبير. عندما تسترخي عضلات وجه فاطمة، تصير زوايا عينيها وفمها متهدّلة فيوحي مظهرها بأنها غير مهتمة بإبقاء عينيها مفتوحتين. كان يحب استفزازها أحيانًا، وهذا ما جعله يضع الصورة على الطاولة بعيدًا عن متناولها. إلا أن نزهة، كعادتها دائمًا، تدخّلت بأسلوبها المرح وناولت أختها الصورة فأعفتها من القيام بأية حركة حتى تراها. نظرت فاطمة إلى الصورة ولم تقل شيئًا.
قرع مدحت باب غرفة بناته، فجرت غادة خارجة لملاقاته.
«بابا، بابا، بابا. حلمت بأن زلزالًا قد حدث».
قال مدحت: «يا إلهي! مسرّة، هل أنهيتِ تمشيط شعرك؟».
كانت مسرّة تجدل شعرها فناولته المشط وهي مستمرّة بالنظر في المرآة. جلس مدحت على الفراش وجذب غادة حتى صارت بين ركبتيه. لكنها تابعت كلامها: «كانت لدينا هزة أرضية، ثم ذهبنا في عطلة». مَسَّ مدحت عقدة الشعر الناتئة إلى جانب رأسها: «لماذا أنت مشعّثة هكذا؟ هل جعلتك الهزّة الأرضية تتقلبين في الفراش؟».
قرقرت غادة ضاحكة وأمالت رأسها إلى الخلف. أدارها لكي ينظر إلى مؤخر رأسها. حاول فكفكة تشابك شعرها بضربات خفيفة بالمشط إلى أن بدأت تنفرد. وضعت غادة يديها على رأسها وهو منهمك في معالجة العقدة المتشابكة. وعندما انفكّت، سرّح خصلاتها المتموّجة. زوج من الجوارب النظيفة على الكرسي. قرفص عند قدمي غادة، فأمسكت برأسه حتى تحفظ توازنها عندما رفعت ساقها وظلت واقفة على ساق واحدة.
«الحذاء». أشار إلى صف الأحذية الذي تحت النافذة... «طاهر، صباح الخير، يا

حبيبي».

كثيرًا ما كان ابنه البكر يقترب من غير أن يشعر به أحد. كان طاهر طويلًا بالنسبة إلى ولد في الحادية عشرة. ولد له طبع هادئ ونظرة جريئة. كان على رأسه المتطاول شعر أسود مموّج. تجاهل تحية أبيه، ومضى إلى الباب، ثم اختفى.

«مسرّة، هل أنت جاهزة؟ خالد؟ أين خالد؟».

قالت مسرّة: «أعطني أربع دقائق ونصف دقيقة».

«أين خالد؟».

«إنه في الفراش».

«ألم توقظيه؟ انهض يا خالد».

«لقد أيقظته!...». التفتت مسرّة إليه مستنكرة سؤاله، فتأرجحت ضفيرتها المكتملة عند رقبتها بينما ظلّت ممسكة بالضفيرة الأخرى التي لم تنه ربطها بعد... «لقد عاد إلى النوم».

انطلق الصبيان إلى المدرسة بعد إفطار سريع مكوّن من الزيت والزعتر مع الخبز.

انتظر مدحت في الصالة إلى أن ودّعت البنتان أمهما وخالتهما. أمسك مدحت بيد غادة. كان الضباب بدأ ينقشع، لكن المطر هطل في الليل فتكوّنت على حذائه طبقة رقيقة من التراب. ظهر رشاش طيني على مقدمة حذاء غادة: رفعها من تحت إبطيها وشد ساقيها على بطنه بينما طوقت عنقه بذراعيها.

أمسكت مسرّة بفستان غادة: «أستطيع حملها».

«إنها ثقيلة جدًّا عليك».

«لا، ليست ثقيلة. أنت لا تعرف كيف تحملها».

لم يجبها بشيء. بلغوا الأرض المرصوفة بالقرب من المدرسة. حان وقت إنزالها.

«أمسكي يدها فقط».

بدا الرضا على مسرّة. قالت لأختها: «تعالي، يا صغيرة».

كانت بنتاه تظهران وتختفيانِ بين الأوراق الملصقة على باب المدرسة. حملت سبع أوراق، أو ثماني أوراق، الرسالة نفسها: «الحق فوق القوة، والشعب فوق الحكومة». هبّت ريح من شارع قريب؛ وعندما وصلت إليه، رفرفت الأوراق كأنها أعلام مثبتة إلى سياج. «قاتلوا البريطانيين، قاتلوا اليهود، قاتلوا الخونة العرب - التوقيع، الشباب الثائر».

وفي آخر الممر الإسمنتي، تزاحمت بنات المدرسة صاعدات الدرجات المفضية إلى الباب.

عندما تزوج مدحت وفاطمة في سنة 1920، كانا يعتزمان الرحيل عن نابلس في آخر

المطاف. لكن أحلام كل منهما عن الذهاب إلى أوروبا، أو إلى القاهرة، بدأت تتضاءل مع زيادة استقرارهما هنا في هذه المدينة بما فيها من شبكات خدّاعة حيث يعرفان الناس ويعرفونهما. هذا ما جعل الرحيل إلى أرض جديدة يبدو قطيعة حادة كثيرًا.

لكن حقيقة الأمر هي أن مدحت، من غير أعمال أبيه، لا يملك شيئًا خارج نابلس. فالبداية من الصفر في بلد آخر، أو حتى في مدينة أخرى، ستعني بداية من غير أي شيء على الإطلاق. كان «نوفوتيه غادة»، المتجر الذي افتتحه مع إيلي السامري بعد إغلاق متجر الكمال في نابلس، قائمًا في المدينة الجديدة بين مصرف باركليز ومتجر للتجهيزات الرياضية. وكان أداء النوفوتيه حسنًا على الرغم من التقلّبات المعتادة كلها: منذ خمس سنين، شهدت المدينة طفرة قياسية في المبيعات مع ازدياد الاهتمام بالأزياء النسائية، فبدت نابلس حينها كأنها تحاول اللحاق ببقية المدن. لم يختفِ الحجاب اختفاء تامًّا، لكنه رقّ فصار قطعة شبه شفافة من الشيفون مثلما حدث في النواحي المحافِظة في القدس والمدن الساحلية. صارت التنورات تنتهي عند الركبة؛ وصارت الجوارب الطويلة السوداء تختفي من رفوف النوفوتيه بعد وقت قصير جدًا من وضعها عليها.

لم يكن أهل نابلس كلهم فرحين بحسن طالعهم. فعلى امتداد السنوات الماضية العشر، دبت البرودة في علاقة مدحت مع كثيرين من معارفه؛ وفي مناسبات متعدّدة، كانت مجموعة نساء تتوقّف أمام متجره ظانّات أن أحدًا لا يراهنّ وتلقين نظرات غاضبة على الفساتين المعروضة. أشارت تيتا إلى أن هذا كان يحدث في أيام والده: «يكون الرجل العصامي معرّضًا لأن تصيبه عين الحسود أكثر ممن ورث مكانته عن أبيه... «هذا واحد من الأسباب التي جعلته ينتقل إلى القاهرة».

قال لها مدحت: «حقًا؟». لم يدر في خلده يومًا أن أباه أراد الفرار من نابلس.

قالت تيتا: «يقولون إن عضة الأسد أهون من عين الحاسد».

وبطبيعة الحال، كان الناس ينظرون إلى مدحت فيرون فيه رجلًا تزوج امرأة من أسرة أعلى منه منزلة، رجلًا يجري خلف الملذّات، رجلًا متفائلًا ناجحًا مع النساء، رجلًا خليّ البال يحب الغرب. ومع أن مدحت لم يكد يجني مالًا كافيًا لأن يرحل بأسرته إلى الخارج، سرعان ما صار -مع زوجته- محل حسد في المدينة. رجل أنيق، ساحر، متعلّم جيّدًا. لم يكن بيتهما مثل قصر دار عطوان، لكن الاستقبالات التي تقيمها فاطمة كانت ذائعة الصيت لبهائها ولمظهر اللامبالاة المدروس الذي تتّخذه مضيفتها عندما تكون جالسة على كرسيها الأرمني. بل إن موهبتها في العزف على العود كانت في حدّ ذاتها سببًا لغِلّ ضيفاتها: تعيد العود إلى غلافه المبطن بالمخمل وهي تتلو سورة الفجر

همسًا حتى تدرأ عنها الحسد، بينما تنهي ضيفاتها كؤوس شراب الليمون وتنصرّفن خارجات عبر بوابة الحديقة.

في سنة 1935، كانت المخاوف تضرب أطنابها في نابلس. ومع المخاوف، ساءت العلاقات بين الناس. صارت الإصبع التي تشير إلى العدو تنحرف صوب أقرب المارقين. وكان المرء المعني بكلمة «مارق» أيّ جار يمكن اعتبار حماسته الإيديولوجية ضعيفة. كانت المستوطنات اليهودية تكدّس ترسانات من الأسلحة والذخائر، لكن النخب العربية واصلت مشاحناتها حول درجات التعاون مع البريطانيين، فصارت حركتها الوطنية مشلولة. كانت أجراس الإنذار تدّق في أوروبا، وشهدت الهجرة اليهودية زيادة كبيرة بفعل تدفّق اللاجئين. لم يجد النابلسيون قناة ملائمة لغضبهم فانعكس هذا على سلوكهم في الأسواق. صار المرء يمر في سوق البصل فيسمع صياحًا عنيفًا غير متناسب أبدًا مع أهمية أي شيء مما يجري من تعاملات تجارية. بل إن جماعات النساء نفسها صارت تجمعات غاضبة: تقف نابلسيات، بحجبهن الرقيقة، على المنابر أمام مكتب البريد، رافعات أيديهن إلى السماء، مطلقات غضبهنّ على النفاق البريطاني، وعلى كل نابلسي يبدي تراخيًا عن نصرة القضية.

كان عادل يأسف للاقتتال الداخلي. بل إن باسل مراد صار يتّهمه بأنه غير جذري كما ينبغي له أن يكون. لكنه كان يقول أيضًا -وهو يضع كأسه على الطاولة- إن من الممكن أن يرى المرء العداوات العتيقة ترتفع إلى السطح وتتّخذ هيئة خصامات سياسية. وفي أكثر من مرة، عاد مدحت إلى البيت فوجد فاطمة تبخّر زوايا غرفة المعيشة بدخان المريمية المحروقة، وتتمتم بتعويذاتها. حاول أن يسخر من الأمر حتى يزيل عنها قلقها، لكن هذا لم يكن مفيدًا في تقليل خوف فاطمة من العين الشريرة الحاسدة التي يمكن أن تستهدف زوجها لأنه ليس ناشطًا سياسيًا، ولأن له في عمله شريكًا سامريًا.

واصل النوفوتيه ازدهاره النسبي، لكن إيلي كان يعزو التباطؤ الذي شهدته المبيعات في الآونة الأخيرة إلى تطورات الوضع السياسي. لم يعد الناس راغبين في الظهور بمظهر القادرين على إنفاق المال. فهذا ليس بالأمر الحسن من أجل المقاومة. في الشهر الماضي وحده، اكتُشفت في يافا براميل من الذخيرة المتّجهة إلى اليهود، فدعا العرب في فلسطين كلّها إلى إضراب يستمرّ يومًا واحدًا. أصرّت مسرّة على أن يأخذها مدحت معه إلى المسيرة الاحتجاجية، لكن غادة تعثّرت وسقطت في الحديقة فجرحت ركبتها ورجته أن يظلّ معها. أعقب ذلك جدال صاخب لا معنى له، فانتهى الأمر بأن أمضى الأطفال يوم الإضراب عابسين في غرفهم، في حين ظل مدحت في البيت نائمًا.

عانت صناعة الصابون أكثر من غيرها. لم تكن أحوال السوق المصرية حسنة؛ ثم

أقام اليهود لديهم مصانع بهدف تصدير الصابون، وراحوا يبيعون «الصابون النابلسي» المصنوع من زيت الخروع الذي هو أرخص كثيرًا من زيت الزيتون. وذات ليلة، في القدس، أقرّ قيس كرك لمدحت وعادل، وهو يضحك ضحكة فيها قدر من الاستغراب، بأن والده صاحب مصنع الصابون الشهير صار الآن معتمدًا على دخله الذي يجنيه من عمله في الصحافة. وكثيرًا ما كان مدحت يمر ببوابة مصنع الصابون المفتوحة فيسمع صياح عبد الله عطوان وهو يتحدّث مع أحدهم عن اليهود. ما كان النمو الذي تشهده نابلس المحصورة بين جبليها مثل نمو غيرها من المدن. فبالمقارنة مع يافا وحيفا وعكا والقدس -كلها مدن مفتوحة على البحر، فيها كهرباء وسينمات كثيرة، وتمرّ عبرها طرق السياحة والحج المسيحي- كانت هذه المدينة تتآكل وتتراجع في عزلتها الريفية، وتعيش على ذكريات أمجادها الماضية، ويُكثِر أهلها على نحو مصطنع من استعادة ذكريات الأيام التي كانت بلدتهم تحمل فيها اسم «دمشق الصغرى».

وكان مدحت أحيانًا يقول لفاطمة في وقت متأخر من الليل: «عندما يتطوّر النوفوتيه، نصير قادرين على التفكير في الذهاب إلى القاهرة».

لكن كل شخص، بل حتى الأطفال، كان يشعر بضرورة البقاء في نابلس. إن عليهم واجب البقاء فيها. لا بد من تناسي الخصومات المحلية؛ فكما يقول البدو: عدو عدوي صديقي! صحيح أن نشاط مدحت قد لا يكون مثل نشاط جميل وعادل، لكنه يظل نابلسيًا... يتنفّس كلُّ من في نابلس ذلك الهواء المشحون نفسه.

لم يكن مدحت، أكثر الأحيان، ليتوقّف لحظة ويفكّر في ما كان يمكن أن يكون؛ لكنه كثيرًا ما يرفع رأسه عن سجلات المتجر فيسمع صوتًا مثل صوت ريح عاتية تعصف عند أذنيه وينتابه إحساس بالدوار كأنه واقف على ظهر سفينة ينظر منها إلى مجرى حياته. كان معلّقًا هناك، على حدّ اللحظة الحاضرة، يلتفت فيلمح في البعيد كيف كانت تقلّبات قدره. شكلُ زواجه، وعمله، وأسرته، وبيته. عند النظر من هذه الزاوية، يصير السؤال عن الخيارات لا محلّ له أبدًا.

غالبًا ما كان يسمع أخبار جميل عن طريق عادل. لقد كان جميل يخوض مناقشات في النوادي الوطنية، ويلقي خطبًا، ويكتب عرائض، ويحشد تحالفات، ويستفيد من الصلات عبر نهر الأردن للحصول على أسلحة من البدو. أحيانًا، رأى مدحت في حياة قريبه دربًا آخر لحياته. يتذكّر أيام شبابه عندما كان طالبًا منغمسًا في دراما «المنفى» في باريس مع فاروق وهاني وبقية الأصدقاء، ثملًا بقناعته أن المناقشة أمر مهم، إن كانت منتجة، وبأنه ماضٍ (وهو يشير بيديه محدّثًا أصدقاءه، مع كأس من الشراب) في سُبلٍ فكرية حقيقية المعنى، جزءٌ صغير من صورة كبيرة لرجال يخوضون نقاشًا في غرفة.

لكن الكلام صار الآن مثقلًا بالعرق... صار الآن يتمتم ويبتسم لجميل ولغيره من أبناء مدينته. هذه ليست حياته.

***

اقترب مدحت من نوفوتيه غادة، فرأى إيلي منكبًّا على الطاولة. كانت أذنا إيلي بارزتين من تحت طربوشه؛ وكان إصبعاه يعبثان بلحيته.

انتصب إيلي في جلسته. عيناه متسعتان. قال له: «صباح الخير». هسهست الصحيفة عندما أزاحها عن الطاولة. مال مدحت برأسه حتى يقرأ عناوين الصحيفة.

«ماذا حدث؟».

«لا، ليس هنا. لقد حدث لدينا أمر».

«عن جَدّ؟».

«تعال وانظر».

سار خلف إيلي إلى غرفة الخياطة. لم يصل بطرس بعد، لكن مصراعي النافذة الخارجيين كانا مفتوحين. كان على طاولة الخياطة وعلى كدس من الأقمشة القطنية مصباحان بتروليان. رأى مدحت أن زجاجة كل من المصباحين مكسورة، مسننة الحواف.

مَسَّ مدحت الزجاج المكسور وقال: «آه، يا حرام! هذه ليست كارثة. أين هي قطع الزجاج؟».

قال إيلي بصوت فيه نبرة توجُّس: «ليس ثمن الزجاجتين مشكلة. المشكلة هي كيفية حدوث هذا. لماذا انكسر المصباحان؟».

لم تكن علامات التطيّر غريبة عن مدحت لأن زوجته أيضًا تعاني تلك البليّة، وكذلك جدّته. لقد لاحظها من قبل في سلوك إيلي: نظرة العين المتمهّلة إلى زاوية مظلمة، وحركة الشفتين المتمتمتين بدعاء للحماية. لكن إقرار إيلي بشيء من هذا القبيل إقرارًا مباشرًا كان أمرًا غير معتاد.

«أتظنّ أن أحدًا فعل هذا؟ ليس هذا ما أظنه، يا إيلي».

«إنني أقول لك. المصباحان معًا؟ في نظري، هذه علامة».

رأى مدحت أن حطام إحدى زجاجتي المصباحين كان قطعًا منتظمة مسننة مثل تاج ملك: «لدينا مصباح ثالث، أين هو؟».

اصطدم مصراعا النافذة بالجدار الخارجي عندما دفع إيلي القضيب الذي يغلقهما. وفي النور الإضافي البسيط الذي أتاحته النافذة، راح مدحت يفتح الخزائن.

على غرار أشياء كثيرة أخرى، كان لعدم وجود الكهرباء في نابلس منشأ سياسي.

فمنذ أكثر من عشر سنين، صوّت مجلس المدينة على قرار بمقاطعة شركة الكهرباء التي كانت شركة صهيونية يساندها البريطانيون. ظل هذا الرفض لنور الكهرباء مصدر اعتزاز لدى النابلسيين: لم يظهر هذا الإجماع في أي مكان آخر في فلسطين؛ لا في حيفا، ولا في يافا، ولا في القدس.

كان من حسن حظ مدحت وإيلي أن واجهة متجرهما المتّسعة جعلت الحاجة إلى الإنارة بالمصابيح خلال ساعات النهار محدودة. إلا أن بطرس كان يستخدم المصابيح كثيرًا في غرفته الواقعة في آخر المتجر حيث يتأخر في العمل حتى الليل.

صعد مدحت السلم المفضي إلى المستودع. وضع صندوقًا فارغًا فوق صندوق فارغ آخر، واقترب من الدرابزين فرأى إيلي يتحرّك بين الرفوف في الأسفل. سرعان ما وقف إيلي على الدرجة السفلى ومال بجسده حتى يخاطب مدحت.

«أبو طاهر، ينبغي أن أقول لك شيئًا».

اعوجّ جسده أكثر من قبل حتى يتمكن من رؤية عيني مدحت. كان جلده صافيًا إلى حد يجعله يبدو، في بعض حالات الإنارة، أشبه بجلد طفل. كأنما كان اعوجاج وقفته أكثر مما يطيقه، لأن جسده عاد إلى موضعه، فراح يتكلّم كأنه يخاطب رف ربطات العنق التي أمامه.

«لقد كان هناك ـ منذ بضع سنين... سمعت أن شخصًا عمل لك سحرًا. أتذكر... أتذكر عندما أخبر أبو سلامة أمي بذلك».

ظلّ مدحت صامتًا لحظة. همد جسده، على الرغم منه.

«هل تعرف من فعل هذا؟».

«لا».

«لكنك تظنّ أن ذلك الشخص هو السبب في ما حدث الآن!».

«لست أدري. الناس ينظرون إليك، ويقولون في أنفسهم... أبو طاهر، هذا زمن صعب...». التفت إيلي ونظر خلفه خائفًا... «الناس غاضبون. ماذا؟ لماذا تضحك؟».

كان مدحت قد وضع رأسه بين يديه: «لأننا، يا حبيبي، لا نستطيع اعتبار كل سوء يصيبنا ناتجًا عن السحر، أو عن عين حاسدة».

«الأمر ليس مضحكًا».

بَسَط كفيه... «إنني آسف. لن أضحك.... على أية حال، ألم تقل قبل قليل إن هذا حدث منذ سنين كثيرة».

«صحيح».

«إذًا، لا بأس. لا أظنّ أن هناك الكثير مما يمكننا فعله الآن، أليس هذه صحيحًا؟».

«بل نستطيع فعل شيء. يمكنك أن تبحث عن السحر».

«أين أبحث عنه؟».

«سيكون في بيتك، في مكان ما. طائر، على الأرجح. ومعه علامة».

هزّ مدحت برأسه يمينًا وشمالًا: «آسف، يا حبيبي، لكني لا أؤمن بهذه الأمور. إنني آسف. مصباحان. طيب، لكن... سأبحث عندما أعود إلى البيت إن كان هذا يجعلك تشعر بالراحة...». صاح بهذه الكلمات، ثم بدأ ينزل درجات السلم... «يلا، فلننصرف إلى عملنا».

كان مدحت يبالغ في إظهار المرح، تمامًا مثلما يتصرّف مع فاطمة. فكلما ازداد تطيّر زوجته وخوفها، كلما أصر مدحت -مع ابتسامة- على أن ما من دليل يؤيّد ظنونها. لكنه لم يكد يبدأ عمله في ذلك اليوم حتى راحت أفكار غير مريحة تدور في رأسه. هل كان ممكنًا أن يتمنّى له أحد في نابلس قدرًا من سوء النية يبلغ حدًا يجعله، أو يجعلها، يلجأ إلى السحر من أجل الإساءة إليه؟ حتى إذا كان المرء غير مؤمن بهذه الأشياء، فإن المشاعر السيّئة تظلّ مشاعر سيئة، وتسبّب الأذى بطرق كثيرة. راح يستعرض في ذهنه أشخاصًا من مدينته. فكر في جميل. لكنه واحد من أقاربه المباشرين، ولا يمكن أن يقدم على فعل شيء من هذا القبيل.

كان إيلي صاحب المبادرة إلى التعاون مع مدحت: قال إنه فكّر في ذلك بسبب ما يتحلّى به مدحت من ذوق في الملابس، وكذلك بسبب ما أظهره من اهتمام بعملهم في متجرهم في الحي السامري. وبعد أن وافق مدحت وشرعا في التخطيط لمشروعهما، سأله إيلي إن كان لا يزال محتفظًا بألبوم الرسوم الذي كان لديه.

«ألبوم الرسوم! أي ألبوم؟».

قال إيلي: «كنت ترسم نماذج للملابس بعد عودتك من باريس. سمعت هذا من... لست أتذكر ممن سمعت».

لم يكن مدحت قد رسم شيئًا غير تلك الرسوم في آخر دفتر الحسابات القديم في متجر والده. لقد انتزع تلك الصفحات من الدفتر وأتلفها منذ عهد بعيد. فهل يعقل أن تكون تلك الرسوم الأولية الفجة قد تضخمت في ذهن إيلي إلى حد لا تستحقه فصارت «ألبومًا»؟ لا بد أن هذا من فعل جميل. أو هشام. لا يظل خفيًا أي شيء يحدث في هذه المدينة.

أجابه مدحت من غير كبير اهتمام: «آه، نعم، ذلك الألبوم. صحيح، لقد رميته منذ زمن بعيد. لكني قادر على رسم غيره. قد أتمكّن من رسم تلك التصاميم... بمساعدتك طبعًا، يا عزيزي إيلي».

لما كان هذا كلّه قد جرى في أعقاب ذيوع الأنباء عن مآل عمل والده، فقد بذل

مدحت جهدًا غير قليل حتى يبعد عنه إحساسه بأن إيلي قدّم إليه ذلك العرض بدافع من الشفقة. بطبيعة الحال، لا يباشر المرء مشروعًا مع شخص آخر بقصد الإحسان إليه؛ لكنه شعر بضرورة التأكيد على مهاراته وخبراته، فنانًا ورجل أعمال ومثقفًا، وأن يدير قلم الرصاص بين أصابعه ويحدّق في البعيد دعمًا لفكرة أنه يقدّم تنازلًا عندما يقبل بالعمل مع إيلي. وهكذا بدأت العلاقة بينهما ضمن نوع من التظاهر، ثم استمرت على المنوال نفسه لأن كلًا منهما كان ميالًا إلى الامتناع عن قول ما يعنيه بالضبط. من ناحية مدحت، كان هذا السلوك نابعًا من رغبته في التأثير على شريكه وفي عدم الإساءة إليه؛ وأما بالنسبة إلى إيلي، فقد كان نوعًا من الحذر المتأصّل لدى فرد من طائفة دينية معرّضة للخطر تحاول البقاء ضمن إطار ثقافة أخرى. لم يكن من الأمور المعتادة أن تنشأ علاقة بين سامري ومسلم.

على الرغم من أن مدحت ما كان لديه أي دليل على أن إيلي يخفي عنه أسرارًا، فقد كان يلمح نوعًا من السرّية في جوانب كثيرة من سلوك شريكه. ذلك المَيل إلى الانتظار قبل الإجابة على أي سؤال؛ وذلك الجنوح إلى الصمت بدلًا من قول لا. اكتشف أنه صار تواقًا إلى الفوز بثقة إيلي مثلما كان تواقًا، تقريبًا، إلى اكتساب ثقة فاطمة. انتهى به الأمر إلى الاستياء من فاطمة نتيجة تحفّظها. لكن، إن كان إيلي حذرًا، فإن لديه سببًا، على الأقل. منذ أسبوع فقط، قال لمدحت إن السامريين استيقظوا على صوت حجارة منهالة على بيوتهم. قال له ملوّحًا بربطة عنق طلب منه بطرس أن يلقي نظرة عليها: «نحن لسنا يهودًا». بدأ أكثر السامريين خوفًا يهجرون حيهم في المدينة القديمة وينضمون إلى سكان المستوطنة الجديدة على جبل جرزيم. ولم يكن المرء قادرًا على تحديد المعتدين وإفهامهم أن الحَوليات اليونانية والآرامية تقول إن الإسرائيليين القدامى قد انفصلوا عن السامريين منذ زمن بعيد جدًّا يعود إلى عهد النبي موسى. ففي نظر مُزارع فقد أرضه، كانوا كلهم سواء، كانوا كلهم «يهودًا».

قبل الهزة الأرضية، دعا إيلي مدحت إلى العشاء في مساء يوم من أيام الربيع. كانت آخر مرة يذهب فيها مدحت إلى حي السامريين تلك الزيارة برفقة جدّته، الزيارة التي أفشلها مدحت، من أجل عمل سحر يجعل فاطمة تحبّه. كان ذلك منذ سبع سنين؛ والواقع أن الأمر تطلّب هذا الزمن كلّه حتى يدعوه إيلي إلى بيته. وفي طريقهما، توقّفا للسلام على الكاهن الكبير العجوز. وجدا باب بيت أبي سلامة مفتوحًا. لم يكن الكاهن في الغرفة الأولى. سبق إيلي مدحت إلى الغرفة الثانية وهو يصيح: «مساء الخير، يا أبا سلامة».

كان أبو سلامة رجلًا عجوزًا؛ وكان ممكنًا تمامًا أنه لم يسمع الصوت أثناء اقترابهما.

أو لعلّه كان بطيئًا في إخفاء ما كان يفعله. سواء أكان هذا أو ذاك، فقد أدرك مدحت لحظة دخولهما الغرفة أنهما قاطعا شيئًا يحدث هناك.

كان أبو سلامة جالسًا إلى جانب فتى صغير السن إلى طاولة اصطفّت عليها مجموعة أشياء. في مركز الطاولة، رأى مدحت ورقة مخطوطة طويلة مثبتة بحجرين، من أعلاها وأسفلها. كانت زواياها الأربع ملتفة إلى أعلى. وإلى جانبها وعاء عميق فيه ماء صافٍ تخلّله أثر بسيط من لون ما. وإلى جانب وعاء الماء كانت هناك كومة خرق رطبة. هاون ومدقته إلى الناحية الأخرى إلى جانب زجاجة فيها سائل داكن اللون. كانت بقايا السائل على الزجاجة ذات مظهر لزج. وعند حافة الطاولة القريبة من مدحت وإيلي، كانت هناك ورقة عليها خيوط أوراق الزعفران. رأى مدحت خرقة متدلية من يد أبي سلامة. بدلًا من أن يلقي عليهما العجوز التحية، وقف ينظر إليهما وقد انفتح فمه قليلًا كأنه شقّ في وجهه الشبيه بحجر شوته الشمس.

نظر مدحت إلى إيلي علّه يفهم شيئًا. شحب لون إيلي. انحنى أمام أبي سلامة، وتمتم بتحية متلعثمة، ثم دفع مدحت أمامه وخرجا من البيت.

أدرك مدحت من هيئة وجه صديقه المذعورة أنه رأى شيئًا ما كان ينبغي أن يراه. لقد تعلّم منذ زمن بعيد ألا تسجّل ذاكرته ما لا ينبغي أن يراه. لكن، وبينما كان إيلي سائرًا به إلى بيته في صمت مطبق، طغت قوةُ جذبٍ غامضة على ميلِ مدحت الغريزي إلى التجاهل. كان جزء من تلك القوة فضولًا، وجزء منها شيئًا يصعب تحديده. لعله نوع من الإدراك... أو، لعله انجذاب ما. كان ذلك لمحة من أمر أوسع نطاقًا. لقد كان الكاهن الأكبر يصبغ الوثيقة. وكانت بقعة من اللون ظاهرة على الورقة. كان ما رآه زعفرانًا؛ ولا بد أن في تلك الزجاجة اللزجة عُصارة أو صِباغًا.

تحاشى إيلي النظر في عيني مدحت طيلة وقت العشاء. كانت شفته السفلى ترتجف، وكان يحدق من غير انقطاع في أمّه المسنّة وهي تضع أمامهم طبق البطاطس المحشوة إلى حد جعلها تسأله، «ماذا بك؟ هل على وجهي شيء؟». وكان مدحت ممتنًا لذلك الصمت. لقد كان ذعر شريكه ناطقًا بخجله، من غير أي ريب. من الممكن أن يشير هذا إلى أن بعض الوثائق التي يشتريها الأجانب من السامريين ليس أكثر من وثائق مزيفة – وهذا ما قد يشير، بالطبع، إلى وجود قدر من التلاعب في نشاطاتهم الأخرى. فهل هذا أمر معيب؟ ليس بالضرورة. تخيّل مدحت شخصًا أجنبيًا، فرنسيًا، حاملًا وثيقة مزوّرة؛ وتخيّله منكبًّا على ترجمة ذلك الأثر السامري وهو جالس في إحدى مكتبات أوروبا. تخيّله يضع تلك المعلومات الأصلية في خزانة الكتب. ومع تلك الصورة في ذهنه، أدرك أن السامريين -في حياتهم الحقيقية- يحاولون تدبّر أمرهم بسلوك طرق التفافية

من حول ما في أذهان الناس من أفكار مسبقة عنهم. إنهم يلفّقون حتى يكونوا أحرارًا؛ هذا كل ما في الأمر: فهم فقراء من الناحية المادية؛ لكنَّ هناك أسبابًا أخرى أيضًا. عندما يخترع المرء ذاته، فهو يقاوم ما يخترعه الآخرون: أن تزوّر يعني أن تبدع. وقد كان أمرًا مفهومًا تمامًا، على سبيل المثال، أن يتولى الكاهن الأكبر عملية الصباغة بنفسه ولا يتركها لمن هو أقل منه منزلة. على المرء أن يكون دقيقًا عندما يزيّف شيئًا. لا بد من براعة، ومن عين فنان، حتى يعرف كيف يختار ما يخفيه من علامات.

***

وصل بطرس إلى المتجر بعد نحو ساعة من رؤية مدحت المصباحين المكسورين. ثم استغرق ثلاث دقائق في إخراج المصباح الثالث. لقد خبأه تحت كومة من القماش. أقرّ بأنه اعتاد أن يفعل هذا تحسبًا لضياع المصباحين الآخرين. وأما عن الزجاجتين المكسورتين، فقد قال: «إنه خفاش، على الأرجح». خلع معطفه، وبدأ يأخذ قياسات زبونه الأول في ذلك اليوم مستخدمًا شريط قياس أمسكه بين أسنانه.

مرت بقية اليوم من غير حوادث تذكر. ثم اعتذر مدحت وانصرف قبل وقت إغلاق المتجر لأن لديهم ضيوفًا على العشاء. وصل إلى بيته في الخامسة والنصف. وفي الساعة السادسة، رُن جرس الباب.

«مساء الخير، حبيبي».

دخل هاني مراد الباب المفتوح مرتديًا معطفًا بلله المطر.

قالت سحر من بعده وهي تمد رأسها عبر الباب: «مساء الخير».

عانقهما مدحت. أتت فاطمة من غرفة النوم مرتدية فستانًا أسود ذا ياقة مدوّرة. قرطان لامعان متدلّيان من أذنيها، وعقد فضي متعدّد الطبقات يلمع على صدر فستانها الأسود.

لقد نشأت بين المرأتين، بفعل الضرورة، صلة ذات طبيعة متوتّرة. كانت بينهما ست سنوات فقط -زمن ينقص سنة واحدة عن الفارق بين فاطمة ومدحت- لكن ذلك كان كافيًا حتى تجد فاطمة مشكلة في التعامل مع سحر على أنها ندٌّ لها. على مر السنين، صارت فاطمة شديدة الاهتمام بالمكانة الاجتماعية، مثلما كانت أمها من قبلها. وكان يبدو عليها أحيانًا مَيْل إلى فرض ذلك على سحر... ميل كانت سحر تتجاهله تجاهلًا مهذّبًا لأنها تعرف كيف تقدّم التنازلات الضرورية، ولأن لديها قدرة غير طبيعية على أن تبدي اهتمامًا وتبسُّطًا.

سحر وهاني كانا تجسيدًا حقيقيًا للمقدسيين المتحرّرين على الرغم من انحدار عائلتهما من تلال نابلس. والواقع أنه يمكن للمرء القول إن المقدسي المتحرّر حقًا

هو الشخص الآتي من مكان آخر، الشخص القادر على التصرف على هواه في تلك العاصمة لأنه ابتعد عن أقربائه. كانت سحر مستمرّة في نشاطها في الحركة الوطنية وفي ميدان حقوق المرأة في العالم العربي كله، بما في ذلك المطالبة برفع سن الزواج، والتخلّي عن الحجاب. وقد صارت شهيرة لأنها تتحدّث في الاجتماعات وتلقي الكلمات في التظاهرات. كانت النساء اللواتي تخالطهنّ من فئات المجتمع كلّها، بما في ذلك نساء من أوساط فلاحية؛ الطبقات كلّها، والديانات كلّها.

كلما أمضيا وقتًا مع هاني وسحر، يتخيّل مدحت أن زوجته تصير -ويا للمفارقة- أكثر حرصًا على إظهار عزّتها النابلسية، وتغدو أقل ميلًا إلى المهادنة بالمقارنة مع طبيعتها المعتادة، وكأنها تصير تجسيدًا لروح المدينة نفسها. قالت فاطمة بنبرة جامدة وهي تقبّل خدَّي سحر: «كيفك، شو أخبارك». قال مدحت وهو يأخذ المعطف من هاني: «كيف كانت رحلتكما؟».

«آه، كانت على خير ما يرام».

أشارت فاطمة إشارة كسلى في اتجاه غرفة الطعام. قالت: «هل تحبّان أن نجلس هنا؟».

أخذتْ حقيبة سحر ووضعتها في غرفة نوم الضيوف؛ ورأى مدحت عيني هاني تتبعانها. كانت زوجته قد تأنّقت لهذه الأمسية أكثر من سحر التي اكتفت بفستان قطني بسيط.

جلسوا في غرفة الطعام التي ينيرها مصباح، هاني قبالة مدحت، وسحر قبالة كرسي فاطمة الخالي. سماء سوداء في النافذة. سمعوا صوت المطر كأنه أجنحة تصفع الزجاج. عادت فاطمة تحمل صينية. لقد سكبت السلطة في أفضل ما لديها من أطباق البورسلان: مجموعة أطباق ألمانية مزينة. كانت شديدة الحرص على هذه الأطباق التي تزيّن كل منها فراشة مذهّبة وسلسلة من أزهار صفراء ووردية على امتداد حوافها. إنها هدية من أمها. ولما كانا غير قادرين على تحمّل تكلفة شراء أطباق خزفية جديدة، فقد كان ضروريًا توخّي الحرص عند استخدام هذه الأطباق التي لا يتقادم طرازها أبدًا. كانت للأطباق الألمانية خزانة خاصّة بها لها قفل مزدوج.

قال هاني: «أين الأطفال؟»

سكبت فاطمة ملء ملعقة في طبقه: «إنهم عند أمي».

ابتسم مدحت: «هل اشتقت إلى الأطفال؟...». غمز بعينه باتجاه سحر... «لعل هذه علامة».

قالت فاطمة: «أخبرينا يا سحر عن تلك المجادلات بين النساء في طولكرم. هل

تعرفين عنها شيئًا؟».

قال مدحت: «أية مجادلات؟».

ابتسمت سحر وقالت: «ليست أكثر من مناقشات سخيفة. وإذا أردت الصدق، فأنا لا أعرف عنها الكثير».

ضيّقت فاطمة عينيها عندما سكبت الطعام لنفسها. وبدا عليها أنها موشكة على طرح سؤال آخر، لكن هاني قاطعها.

قال مخاطبًا مدحت وهو يزيح جسده قليلًا هذه الناحية وتلك كأنه يحفر الكرسي من تحته: «ما يميز النساء هو أنهنّ، على وجه العموم، أفضل من الرجال كثيرًا عندما يتعلّق الأمر بالتعاون. نستطيع تعلّم الكثير منهنّ. هذه الفرق والأحزاب في حالة فوضى. لا تزعم الآن أن نابلس ليست على الدرجة نفسها من السوء! إنني أحاول العثور على طريق بين التعاون ومبادئي».

قالت سحر: «أظنّ أنه أمر صعب. يصعب على بعض أولئك الناس أن يتخيّلوا المستقبل. يقلقهم احتمال الخسارة. وأما نحن النساء، فإننا نتعاون دائمًا، تحت السطح. لذا، يبدو منطقيًا أن نكون قادرات على تنحية ما لدينا من... ما لدينا من...».

أسعفها مدحت بالكلمة التي ظنها مناسبة: «أنانية؟».

«صحيح. يمكنك أن تقول هذا». عاد اللون إلى وجنتي سحر. كان لديها ذلك الألق اللطيف الذي يجعل الأذن مسرورة لسماع أي شيء تقوله... تابعت قائلة: «لكن المنافسة تظل موجودة، حتى بين النساء. ما أعنيه هو أن التعاون صعب في الوقت الحاضر لأنك غير قادر على تخيّل الجانب الآخر... أشارت بيدها حتى تعبر عن الجانب الآخر، كأنها تطوي عجينًا... «بما أننا لم نعرف الاستقلال أبدًا، فنحن لا نعرف كيف هو».

قال هاني: «بالطبع، ليس هذا ما تقوله في الكلمات التي تلقيها. لا بد من حمل رسالة توحّد الناس».

«على كل حال، لم أعد ألقي كلمات كثيرة».

ابتسمت لفاطمة. نظرت فاطمة إليها لحظة، ثم استجابت لابتسامتها برقّة تعاطف من عينيها.

تابع هاني كلامه مخاطبًا زوجته: «لكن الناس قد تعلموا منك...». ثم التفت إلى مدحت... «الأمر كما عبّرت عنه. وأنت تعرف أن هذا أكثر من نصفه. أحيانًا، يكون من الأفضل أن يأتي الكلام من امرأة. تستطيع المرأة قول أي شيء».

قال مدحت: «هل تستطيع المرأة قول كل شيء؟».

قالت فاطمة: «ماذا عن القسّام؟».

قال هاني: «ماذا عن القسّام؟».
«كيف ينظر إلى الأمر؟».
«حسنًا، من الواضح أن هناك اختلافًا. القسّام شيخ، داعية».
قالت فاطمة: «لكنَّ له تأثيرًا، خاصّة بعد العثور على تلك الأسلحة في يافا. الناس راغبون في الإصغاء إلى ما يقوله».
نظر مدحت إليها نظرة دهشة.
قال هاني: «بين الفلاحين، نعم. لكن، بطبيعة الحال، لهذا أثر مختلف. أعني، وجود امرأة تتكلم...». أشار إلى زوجته... «هذا حسنٌ من ناحية الأوروبيين. وهو حسن من أجلنا أيضًا. هذه علامة على الاستنارة، على مجتمع متقدّم. إنها دليل على قدرتنا على أن نحكم أنفسنا. لهذا قلت إن المرأة تستطيع قول أي شيء».
ظلّت فاطمة مصرّة على رأيها: «لكنَّ البريطانيين خائفون من القسّام، بالطبع».
اتسعت عينا هاني وقال: «أوه، بكل تأكيد. وهم غير خائفين من النساء».
انضم مدحت إلى حديثهما وقال: «إذًا، هل يعني هذا أن لك صلة حقيقية مع القسّام؟».
قال هاني: «أجل، جرى تواصل بيننا. من الممكن أن يكون حليفًا قويًا». رفع كتفيه وبسط كفيه وهو يقول هذا كأنما يلتمس لنفسه عذرًا... «غير مجموعة القسّام، لا نجد أحدًا في أي مكان -ربما عدا نابلس- مستعدًا للثورة على البريطانيين... يعني، بالسلاح. والناس أيضًا غير مستعدّين للعصيان المدني الذي أقول منذ سنين إنه السبيل الأمثل للمقاومة. لقد قرأتَ الأخبار، وأنت تعرف الأعداد. اليهود مسلّحون. وإذا وصل الأمر إلى استخدام السلاح فسوف يتبيّن أن القسّام أقوى كثيرًا من أولئك الديمقراطيين كلّهم».
ران صمت طويل. قسم مدحت قطعة خبز، فتصاعد البخار منها متلويًا في ضوء المصباح.
قالت سحر: «هذا البيت جميل».
قالت فاطمة: «إن تدفئته صعبة. هناك تيارات هواء من ناحية الجبل».
«هذا يساعد في جفاف الملابس المغسولة».
قال مدحت: «لقد رأيتما الحديقة من قبل، أليس كذلك؟».
قالت سحر: «أجل، أجل. لقد رأيتها في زيارتنا السابقة. حديقة جميلة».
«من المؤسف أننا في الليل. لو كان الوقت نهارًا لأخذتكما لرؤية الدجاجات».
قالت فاطمة: «ولماذا تكون سحر راغبة في رؤية الدجاجات».

لوّح مدحت بقطعة الخبز في الهواء: «والورود، والأشجار، إلخ. لكني أرى دجاجاتنا رائعات».

تبادل سحر وهاني ابتسامة بينهما. عادوا إلى تناول الطعام، فنهضت فاطمة وذهبت إلى المطبخ.

قال هاني: «لقد توقّف المطر».

قال مدحت: «لن نذهب لرؤية الدجاجات في الظلام...»؛ انتظر إلى أن يضحكا. لكنه تابع الكلام عندما رأى أنه انتظر عبثًا... «هل أضع موسيقى؟».

صاحت فاطمة من المطبخ: «انتظر إلى ما بعد العشاء».

قال مدحت: «إن لها أذني خفّاش».

قال هاني: «لقد استمعنا في القاهرة إلى موسيقى رائعة».

أيّدته سحر: «آه، صحيح. كانت موسيقى رائعة».

إلا أن الوقت لم يتسع لكي يتابعوا كلامهم عن الموسيقى لأن فاطمة عادت إلى الطاولة؛ وصار لا بد من امتداح اللحم الذي يتصاعد منه البخار، ومن تحته الأرز المفلفل المزيّن بالصنوبر. وضعت فاطمة على الطاولة أطباقًا جديدة. قالت لسحر: «إذًا، سوف يكون لديكما أطفال».

نظر إليها مدحت عابسًا وهو يمدّ يده لكي يتناول ملعقة السكب.

قالت سحر: «كيف تعرفين هذا؟».

قالت فاطمة: «سمعتك تقولين إنك لم تعودي تلقين كلمات كثيرة. فكان هذا هو السبب الذي تبادر إلى ذهني».

جلست المرأتان تشربان الشاي في الصالون بعد العشاء. انتظر مدحت إلى أن خرجتا من غرفة الطعام، ثم رفع حاجبه مشيرًا إلى هاني، وسأله: «عرق؟».

«بالتأكيد».

استدار هاني في كرسيه، وقرفص مدحت قبالة الخزانة.

«فاطمة لا تعرف».

«لا تعرف ماذا؟».

«تظنّه حليبًا».

«معقول؟».

«هناك أشياء يكون عليك أن تبقيها سرًّا. آه... الموسيقى. لقد نسيتها. دعني أرى. دعني أرى».

على الرغم من ثقل الوجبة على معدته، كانت رشفة عرق واحدة كافية لكي ينحَلّ

الوثاق الذي طوّق عقله، فأحسّ بالخفة. سار بخطوات بطيئة صوب الرف، ومر بإصبعه على مجموعة من الأسطوانات. اختار أغنيات حلبية. وضع الأسطوانة، ثم أنزل إبرة الغرامافون. انسابت الموسيقى.

قال: «أفكر أحيانًا...».

بدأ الغناء مع الموسيقى.

«قل لي، يا عزيزي... ما الذي تفكّر فيه؟».

مال صديقه إلى الخلف، ووضع ساقًا فوق ساق، ثم أراح ذراعه على مسند الكرسي. يعرفه هاني منذ سنين طويلة. ليس هذا فحسب... لقد عرفه في باريس. لم يكن معه في مونبلييه، لكنه الشخص الوحيد الذي كوّن صورة عن المظهر الكامل لحياة مدحت. بل لعلّه رآه بشكل أفضل لأنه كان يراه من بعيد... يعيش دائمًا في مدينة مختلفة. يتيح البعد نوعًا خاصًا من الوضوح، مثلما يرى المرء خط الشاطئ واضحًا عندما ينظر إليه من البحر. جلس مدحت على كرسي سحر، وبدأ يتكلّم في عموميات مجرّدة.

«لا تكون الأشياء في أحسن حال دائمًا. وعادة ما يكون هناك انفصال بين الداخل والخارج. في حياتنا. في مسلكنا. ألا تظنّ هذا؟».

قام هاني بحركة يعرفها مدحت، حركة صارت الآن أسلوبًا مميزًا تمامًا له: مال برأسه جانبًا وقد فتح فمه وأغمض عينيه الاثنتين إغماضًا شديدًا، ثم فتح واحدة منهما ناظرًا إلى زاوية الغرفة كأنه يحاول إجراء عملية حسابية في ذهنه: «أممم، أعني... الحقيقة، لا. لست متّفقًا معك. أنا مؤمن بأن يكون المرء متّسقًا. وأظن، نعم، أنا مؤمن بالاتساق...». راح يدير كأسه بحركة بطيئة على سطح الطاولة وهو يتكلّم... تعرف أن من الناس من يتمسّك بموقفه كأن شرفه معتمد على ذلك التمسك، لذا، وبغض النظر عن الوضع، يظلّ متعلّقًا بهذا الموقف لأن... لأن عائلته تقول إن عليه يتعلّق به، أو أي شيء من هذا القبيل. إنها مسألة شرف. هذا واضح. لكن، في آخر المطاف، نجد دائمًا أن أولئك الناس أشخاص فاسدون... تقريبًا. يقولون شيئًا ويفعلون شيئًا آخر. بطبيعة الحال، من الممكن لأي شخص أن يخطئ، لكنّ هؤلاء الناس المتشدّدين في آرائهم... هذا لأنهم يشعرون بالحاجة إلى تمويه سلوكهم...». رفع إصبعه في الهواء... «بعد قول هذا، أظن أيضًا أنك عندما تجد شيئًا يقنعك، فإن عليك أن تتمسّك به...». تحرّكت يده في خط أفقي كأنما يمسح سطحًا بكفها... «على سبيل المثال، علينا أن نحافظ على سياسة عدم التعاون مع البريطانيين. بكل تأكيد. وأنا ما أزال مقتنعًا بأننا يجب أن نصل إلى سورية الموحّدة... في آخر المطاف، على الأقل. هذا ما هو حقٌّ لنا، فقد قاتلنا إلى جانب الإنكليز. وهذا حقنا. وقد كدنا نحصل عليه، كدنا نصل إليه. إلا أن النقطة الأساسية تظلّ أننا لا يجوز

أن نكون ذرائعيين على حساب إمكانية أن نغيّر رأينا. هذا نوع مختلف من الاتساق... أن يكون المرء مرنًا. أظنني كنت مقتنعًا بهذا على الدوام. كنت مؤمنًا بـ... بالشك».

لقد ابتعد الحديث كثيرًا عما كان مدحت يعنيه في البداية، فظل ذاهلًا لحظة. وقبل أن يتمكن من التدخّل لإعادة الحديث إلى ما كان يريده تابع هاني كلامه:

«خذ مسألة النساء مثالًا على هذا. لقد كنت أرى -وأنا واثقٌ من أنك كنت ترى مثلي- أنه لا ينبغي للنساء، لا ينبغي لهنّ أبدًا، دخول ميدان السياسة. كنت مقتنعًا بهذا اقتناعًا تامًا، ورأيت في اشتغال المرأة بالسياسة فكرة سيّئة؛ فللنساء دورهنّ. تنتهي مهامهنّ عند باب البيت. والآن، اتضح لي أنني كنت مخطئًا. فما الذي أستطيع قوله؟ لقد صححتُ قناعتي. لماذا كنت أقول هذا؟ آه، نعم، نعم. لأن على المرء أن يكون مرنًا، وألا يظلّ متمسّكًا بفكرة ثابتة. بالطبع، لم أكن متزوّجًا في ذلك الوقت. وقد غير الزواج كل شيء...».

«نعم...» قالها مدحت مندفعًا، محاولًا أن يمسك بزمام الحديث... «الزواج يغيّر كل شيء. الحقيقة أنني لم أكن أفكر في السياسة عندما قلت تلك العبارة - لكني أظنك محقًّا، فهذه نقطة فلسفية كبيرة الأهمية...» ضحك، وشعر بأنهما قد عادا بالزمن عشرين سنة... كانا في باريس، في غرفة الجلوس عند فاروق... «كنت أعني شيئًا أكثر بساطة، شيئًا عن الحياة الداخلية. عندما لا تكون حياتك... مكتملة...». نظر إلى هاني محاولًا عدم إحراجه... «الأشياء التي كنت تتمنّاها في شبابك - أعني أن الماضي يصير نوعًا من فلسفة خاصة بصاحبه، تلك الأشياء التي تتذكرها. إني أتذكر أمورًا...». هز رأسه بحركة مسرحية.

انفرج فم هاني عن ابتسامة: «آه، فهمت، هذا هو مدحت القديم!». أدار العرق في كأسه... «يا صاحبي الفيلسوف... يا صاحبي العاشق...». قال كلمة «عاشق» بالفرنسية.

أخطأ مدحت التصويب من جديد. قابل صديقه بابتسامة صامتة. بلغت الأغنية نهايتها وأتى بعدها فاصل قصير، ثم بدأت أغنية أبطأ لحنًا. أطلق ضحكة، ولوّح بيده: «اشتقت إليك، حبيبي». صبّ مزيدًا من العرق، وأضاف إليه الماء من الإبريق فصار غيمة بيضاء في كأسه.

«وأنا اشتقت إليك أيضًا».

تبادلا نظرة محبّة. لم يكن يرى هاني أكثر من مرة أو مرتين في السنة كلّها. لكن صداقتهما لم تفتر أبدًا. كان هذا على العكس من العلاقة بين مدحت وجميل. مع جميل، قربٌ مكاني وتباعدٌ عاطفي.

بدأ مدحت يقول بصوت مختلف، جاد: «لكن، مما كنت تقوله...» -إذا لم يستطع

الكلام من قلبه، فهو يظل قادرًا على تفادي التورط في أداء دور مهرج رومانسي- «... يمكن لهذا أن يكون أيضًا ناتجًا عن انعطاف حاد، أليس هذا صحيحًا؟... عندما يتمسّك الناس بقناعاتهم، ويتجاهلون الواقع. بل ربما... هل هذا ممكن... ربما يكون الأمر متعلّقًا بطبيعة الدين نفسها. رؤية الوحدة تحت الخلافات».

قال هاني: «آه، أتمنّى هذا، يا حبيبي. ليته كان صحيحًا...» هزّ رأسه... «الحقيقة أنني أظن الخلاف هو ما يجعل شخصًا كالقسّام جذابًا إلى هذا الحد. شيخ داعية، من خارج هذا المجتمع، يستطيع الجميع التواصل معه. يعني... تخيّل أنك فلاح مسلم فقير. ما معنى كلمة 'أمّة' عندك؟ لم تكن لديك أمّة من قبل! لم تسافر من قبل، ولم تقرأ، فلماذا تريد أمّة؟ يعني... هذا مفهوم مجرّد كثيرًا - لديك أرضك، ورزقك، ودينك. إذًا، المسألة هي... كيف تجعل هؤلاء الناس مشاركين... نُبيّن لهم أن أرضهم في خطر، وأنهم يستحقّون أن يكونوا مواطنين، وأنهم يستحقّون أن يتمتعوا بحقوقهم. هذا ما نحاول فعله. لكن ما يفعله القسام الآن يستجيب مباشرة لإيمانهم...».

سمعا صوت باب البيت، ثم أتى صوت ابنة مدحت الصغرى تقول: «أهلين».

قال مدحت وهو يستند إلى ظهر الكرسي ويضع كفيه على صدره: «أهلًا، بابا».

«كفى. قلت كفى».

قال مدحت: «ماذا يحدث؟».

مدت نزهة رأسها عبر الباب: «لا شيء. يتشاجرون فقط. مساء الخير... آه، هاني، كيفك. لم أرك. شو أخبارك؟». ابتسمت مميلة رأسها جانبًا. كانت متقطعة الأنفاس... «أين سحر؟».

أجابها مدحت: «في الصالون. أهلًا بابا. أوه، ما هذا الذي على قميصك؟».

كان خالد قد ظهر من تحت ذراع نزهة. وكان وجهه غاضبًا.

«غادة ألقت عليَّ طينًا».

ألقى مدحت نظرة سريعة في اتجاه هاني ثم عاد إلى ابنه: «يلا، اغسله سريعًا قبل أن تراه أمك».

قالت نزهة: «سأغسله بنفسي».

رن الهاتف في الصالون. هب مدحت واقفًا على ساقيه وأزاح خالدًا من طريقه. نظرت إليه فاطمة عندما دخل إلى الصالون.

«هل وصل الأطفال؟».

أومأ برأسه وتناول سماعة الهاتف. كان يحب هذه الحركة... اليد القوية ممتدة إلى الجهاز لكي تتناول فمه النحاسي. لكن كآبة غريبة ناتجة عن العرق لم تلبث أن حلّت

محل سروره لحظة وضع السماعة على أذنه... تلاشت صورة الرجل المعتز بهاتفه.

«معك موظف الهاتف. إيلي كاهن يطلب مدحت كمال».

«معك مدحت كمال».

قرقعة على الخط.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«مدحت».

«معك».

«مدحت، لقد شب حريق».

«ماذا تقول؟».

«حريق! حريق في المتجر. أضرم أحدهم النار في المتجر».

«لا».

«نعم».

«أنا قادم الآن».

تأرجحت السماعة عندما أعادها إلى مكانها.

قالت فاطمة: «ماذا حدث؟».

زعقت غادة: «بابا، قل له أن يتوقّف عن هذا...». دخلت الغرفة راكضة... «بابا».

صاح مدحت: «ليس الآن».

أجفلت غادة وتوقّفت عند باب الغرفة.

نهضت فاطمة وقالت: «ماذا حدث؟».

قال مدحت: «لا شيء. لدينا مشكلة في المتجر».

قاد هاني السيارة. كانت السماء أشبه بسائل أسود موشك على الانسكاب. وكان مدحت قد بدأ يتخيّل ردة فعل فاطمة عندما يخبرها. بدأ يتخيل إحساسها بأن أمرًا معيبًا قد حدث لها... دائمًا... محرجًا لها. وأما بالنسبة إليه، فلم يعد الإخفاق قاتلًا مثلما كان في ما مضى. صار لديه الآن نوع من الإحساس بأن الحواف المتكسّرة جزء من الكل، وبأن المستقبل يسير في طريق مرسوم. إذا لم تكن هناك إلا نتيجة واحدة، فما الفائدة من أن يخاف المرء؟ لكن، فاطمة، كانت في حالة توازن قِلق بين تصوراتها عما أُنجز وما لم يُنجز، عمن رأى ومن لم يرَ؛ وسوف تدفع بها هذه المصيبة إلى حالة غضب شديد.

بلغت رائحة الحريق مقعد السيارة قبل شارعين من وصولهما إلى المتجر. هل كان ذلك دخانًا... ذلك الذي يحوّم في الظلمة فوق البيوت؟

«لا، لا، لا، لا...». ضم يديه المتعرّقتين معًا... «لا، لا، لا، لا...». انعطفا، فكان عند الزاوية جمع من الناس. بدا أن النار قد انطفأت. ملابس الشرطة البريطانية؛ وخيول

ترجّل راكبوها؛ وسيارتا إطفاء من نوع فورد تندرز متوقفتان إلى الجانبين وقد امتدت منهما خراطيم المياه. أوقف هاني السيارة، فترجّل مدحت محاولًا النظر عبر الظلمة الضبابية. صدمته رائحة فظيعة، لاسعة، حلوة وحامضة في وقت واحد. وعندما اقترب، راحت أشياء محترقة تتطاير في الهواء تطايرًا فوضويًا من حول رأسه كأنها فراشات سوداء. سمع شخصًا يناديه باسمه. جرى إيلي إليه. كانت الريح تجذب بنطلونه إلى الخلف وتظهر نحول ساقيه. يداه سوداوان. رأى مدحت عينيه دامعتين.

بدا البناء أعمى كلّه. كان زجاج النوافذ محطمًا، وعلى الواجهة الحجرية ألسنة السخام ممتدّة صوب الأعلى. عمود دخان متصاعد في الهواء يتحوّل إلى ضباب لا شكل له ويحجب النجوم. كان رجل إطفاء في انتظارهما لكي يفتح لهما الباب المعدني الحار. سار أمامهما إلى داخل المتجر. كانت الرؤية صعبة. وكان شعاع الضوء المنبعث من المصباح الكهربائي في يد رجل الإطفاء يكشف عن دوامات بلون رمادي. كانت في الغرفة رائحة غريبة أشبه برائحة لحم فاسد. بدت الصناديق في غرفة المستودع في الأعلى سليمة. لم تبلغ النار إلا جزءًا من الحاجز. لكنهما دخلا غرفة بطرس فتضاعفت شدة الرائحة... حموضة القماش المحترق. أشار شرطي إلى الطاولة التي انهارت وصارت كومة من رماد. قال: هنا بدأ الحريق. ثم أشار إلى النافذة الخلفية التي أدخلوا منها أنبوب الماء: عمود ثخين من سخام أسود يكسو الفراغ بين حافّة النافذة والسقف. أمسك إيلي بذراع مدحت: «سيكون كل شيء فائحًا برائحة فظيعة».

انتبه مدحت إلى أن هاني قد دخل المتجر معهما. تجنّب النظر إليه. كان الرماد يتفتّت تحت أقدامهم عندما ساروا خارجين. وفي الخارج، كان جمع الناس قد تفرّق.

تقدم مدحت خطوة صوب متجر التجهيزات الرياضية وقال: «هل أصاب الحريق المباني المجاورة؟».

أجابه إيلي: «لا. المصرف سليم أيضًا...». ثم خفض صوته... «ذلك المصباح. عرفت أن شيئًا كهذا سوف يحدث».

«هل علم بطرس بما جرى؟».

«ليس لديه هاتف. اتصلت مع أمه. اذهب الآن إلى البيت، يا أبا طاهر، ونم. سوف نتعامل مع الأمر في الصباح».

«سأكون هنا عند الفجر».

استدار إيلي فصار في مواجهته: «أوه، لا. لن تكون هنا. سوف تبحث في بيتك عن ذلك الشيء الذي قلت لك أن تبحث عنه».

قال هاني: «فلنعد إلى البيت. يلا، يا حبيبي. امشِ». وعندما فتحا بابي السيارة، قال

له: «يؤسفني ما جرى. لا أستطيع التعبير عن هذا. إنه أمر فظيع. إن كان هناك شيء أستطيع فعله، وحتى إذا كنت تريد أن نذهب الآن... إذا أردت البقاء وحدك...».

أجابه مدحت: «لا، بالتأكيد لا...». أفلح في رسم ابتسامة... «إنها الصدمة. وأنا آسف. لا يجوز أن تذهبا الآن. أنا من يتعيّن عليه أن يقول إنه آسف. ليس هذا ما كنتما تتوقّعان رؤيته بعد رحلتكما الطويلة».

«خَلَصْ. سأفعل كل ما أستطيع فعله لمساعدتك. سأذهب إلى جنين صباح غد. لكن، إن كان هناك أي شيء أستطيع فعله عندما أعود...».

بلغا البيت. أحسّا بنظافة الهواء هناك. دوى صوت إغلاق بابَي السيارة في الظلام. كان البيت هادئًا. كان مدحت متوتّر الأعصاب عندما نزل الدرجات المفضية إلى غرفة نومه. سمع حركة زوجته في الداخل. الحريق، والعين الحاسدة: الخطر، والفضيحة. الشيئان اللذان يثيران جنون فاطمة.

## - 3 -

كان واضحًا لمدحت أن فاطمة تجد أنّ حياتهما ليست أكثر لمعانًا، وهذا مصدر ألم بالنسبة إليها. إنها زوجة شريك في متجر، لا زوجة شخص صاحب منزلة رفيعة! في سنواتهما الأولى، كان يستعيدان كثيرًا أسطورة حبهما، وكيف طلب مدحت يدها مرة، ومرتين، ثم قرّرت اختياره في المرة الثالثة. كانت هذه الحكاية أساسًا لكل ما أتى بعدها، لكل الأشياء التي تخيّلها كل منهما عن الآخر، عن بعد، أشياء اتضح أن أكثرها غير صحيح، أو اتضح أن هناك عوامل أخرى تجعلها أكثر تعقيدًا. وهكذا، فقد اضطرب الأساس وصار في حاجة إلى بذل مزيد من الجهد من أجل إعادته إلى توازنه. لم تعد فاطمة تحب استعادة ذكريات الأيام الأولى. وكان واضحًا أن تذكّر الزمن الذي سبق وصول مستقبلها إلى طريق مسدود كان يعذّبها. ما الذي أرادته من زواجها... بالضبط؟ وفي أي شيء -تحديدًا- أخفق مدحت؟ أفي أن يكون ثريًا؟ أفي أن يأخذها إلى الخارج؟ أفي أن يكون، بكل بساطة، شخصًا مختلفًا؟

ظهر الصدع الأول عندما تبيّن أن متجرَي الكمال قد سُجِّلا باسم ليلى. لم يبدُ على فاطمة أول الأمر أنها أدركت ما يعنيه ذلك. لكن السنين تتالت، وكانت ترى مدحت يكافح حتى يبني شيئًا من لا شيء، فراحت تبالغ في كلامها عن منجزاته بين صديقاتها، وخلقت فجوة بين الواقع وأمنياتها، فجوة استقرّت فيها خيبة أمل عنيفة. وفي الوقت نفسه، كان واثقًا من أن أكاذيبها تلك قد زادت من شهرة نوفوتيه غادة بين النابلسيات. وكان شاكرًا لهذا. كانت النساء معجبات بفاطمة. وخلافًا لمدحت، كن شديدات الميل إليها، وكن يتمنين تقليدها... تقليد هيئة الضجر التي تتّخذها زينة لها. إذا أخبرت فاطمة بضع نساء بأن البدلات القاهرية التي يبيعها زوجها تماشي أحدث اتجاهات الأزياء، فسرعان ما تصير كذلك في نظرهنّ.

في تلك الليلة، لم يقل مدحت لفاطمة إن من الممكن أن يكون أحد قد حسده وعمل له سحرًا. كان الحريق خبرًا كافيًا لتلك الليلة. قلل من شأن ما حدث بينما كانا يغيّران ملابسهما استعدادًا للنوم. قال لها إنه حريق صغير، وعزا زفراته اللاإرادية إلى ردة فعل إيلي المبالغ فيها. قال لها إن أولئك السامريين يضخّمون الأمور دائمًا... جنازة كبيرة، والميت كلب! لم يتلف في المتجر شيء لا يمكن تعويضه.

استيقظ مضطربًا في صباح اليوم التالي. انطلق هاني إلى جنين. وعندما عاد مدحت

بعد إيصال البنتين إلى المدرسة، وجد في المطبخ رسالة تقول إن فاطمة وسحر ذهبتا إلى إحدى الصديقات. اتصل مع إيلي، فردت زوجته. قالت إنه ذهب إلى المتجر من أجل إزالة الأنقاض. لكنه ترك له ملاحظة: ابدأ بمداخل البيت. وبعد ذلك، انظر بين جذور الأشجار، وقرب الأحواض، وتحت الحجارة. صحيح أن من يدفعون المال لقاء السحر السامري يعرفون أن عليهم ألا يستخدموا أماكن التخزين، لكن عليه أن يتفقّدها أيضًا لأن من يضع السحر يمكن، إن استبد به الخوف، أن يسرع إلى إخفاء ما معه في خزانة.

كان في بيتهم ثمانية أبواب. لم يجد حجارة سائبة، ولا شقوقًا في الملاط. لم يجد شيئًا مخفيًا فوق الأبواب، ولا تحت عتباتها. تذكر أن بلاطةً عند الباب الخلفي كانت متقلقلة منذ سنين، لكنه جثا إلى جانبها حاملًا سكينًا، وتفحص تلك البقعة فوجد الإسمنت صلبًا. لم تخرج البلاطة من مكانها. وبعد برهة، قرر أن لا معنى لمواصلة ذلك.

جثا على ركبتيه ممسكًا بقضبان كل سرير حتى ينظر تحته. سرعان ما تمنى لو أن معه مساعدًا أكثر رشاقة منه. كان عليه أن يذهب إلى المتجر ويأتي بإيلي معه لكي يساعده وينصحه. بمعزل عن هذا كلّه، لو كان هناك أحد يرى ما يفعله في تلك اللحظة، لوجد مدحت نفسه قادرًا على الضحك من نفسه.

بعد عشر سنين من افتتاح نوفوتيه غادة، تلقّى مدحت رسالة من أخيه غير الشقيق مصباح. لم يجر بينهما أي تواصل منذ جنازة أبيهما. كانت نبرة الرسالة نبرة رجل ناضج؛ وكان فيها إحساس رجل ناضج بالذنب. لقد كتب له لكي يوضح –متأخرًا– أن أباهما كان غارقًا في الديون وقت وفاته.

كان مدحت يقرأ الرسالة في الصالون، فاستند إلى الجدار عند الباب في تلك اللحظة. مضت رسالة مصباح في وصف كيف أن الحاج طاهر كان قد دفع مبلغًا كبيرًا من المال كفالةً لإخراج واحد من أصدقائه من السجن في القاهرة، ثم مات قبل أن يتمكّن من استرداد المال. أنفق مصباح وأمه جهدًا كبيرًا وزمنًا طويلًا في محاولة استرداد المال من ذلك الرجل، لكن أخطاء قانونية كثيرة أدت إلى فشل محاولتهما. تراجعت قيمة أعمال العائلة تراجعًا كبيرًا. وقد انتقلوا من العباسية إلى بيت أصغر في حي أرخص. لم تنته الرسالة هنا. الظاهر أن مصباحًا كان مدركًا مدى حدّة إحساس مدحت بالظلم، فبدا أنه وجد في سوء أحوالهم المالية في الآونة الراهنة مناسبة لمزيد من التفكير في ما جرى. وحتى قبل أن تمر عيناه على تتمة الرسالة، رأى مدحت الاتجاه الذي كانت ماضية فيه. أغلق الباب قبل أن يجلس على الكرسي عند الهاتف. كادت النار تخمد في المدفأة؛ وتسلّلت رائحة مأكولات فاطمة عبر شقوق إطار الباب.

*... كان والدنا فخورًا بك. لقد قال هذا أكثر من مرة. وعليّ إخبارك بأنه كثيرًا ما كان يقوله أمام أمي، وبأن ذلك لم يكن يسرّها دائمًا. كان فخورًا بتعليمك، وفخورًا بأنك درست الطب. فخورًا بأنك موضع تقدير رفاقك. ولهذا السبب أظنني أعرف، بل عليَّ القول إنني أعرف، أن والدنا كان يراك شخصًا قادرًا على الوقوف والاستمرار بمفرده بعد أن تلقى تعليمًا عاليًا وحقّق حضورًا رائعًا في المجتمع. لهذه الأسباب. كان يرى أنك غير محتاج إلى المساندة التي تحتاج إليها أمي. كان لديها عبء ثقيل، خمسة أطفال. يؤسفني أن توزيع الإرث لم يكن أكثر إنصافًا. لكن، وبالنظر إلى قلة المال الذي تركه لنا، فإنني قادر أيضًا على فهم قراره بأن أمي كانت أكثر حاجة إلى الاستقرار الذي قد يظل المتجر قادرًا على توفيره لها، على الرغم من تراجعه.*

كان ذلك اعتذارًا مرتبكًا: نصفه التماس للأعذار، ونصفه دفاع. لم يكن واضحًا أيضًا مقدار ما اشتمل عليه هذا الشرح لما فعله والدهما من معرفة حقيقية، ومقدار ما اشتمل عليه من تخمين. نظر مدحت إلى صياغة العبارات التي تحدّث مصباح فيها عن اعتزاز أبيه، وعن اعتقاده بأن مدحت كان «قادرًا». لقد كان استنتاج مدى موثوقية هذا الكلام من الأسلوب أمرًا مستحيلًا.

طوى الرسالة ثلاث مرات، وضغط على الطيات بأظافره. ما مبرر العودة إلى هذه الجروح القديمة؟ لقد ثبّت الموت مشيئة أبيه منذ زمن بعيد. وبعد ذلك، لم يعد هناك شيء يمكن أن يعرفه المرء معرفة أكيدة. بدا له أن ما قاله مصباح عن دوافع والده أمر قابل للتصديق؛ وبدا له ممكنًا أن يكون ذلك الكلام مفيدًا له في تخفيف سواد تلك القسوة التي مارسها أبوه عليه. لكن، ما من تفسيرٍ -مهما يكن مقنعًا- قادرٍ على شفاء الجرح شفاء تامًا، ذلك الجرح الذي ظلّ منسيًا، ولم يتلقّ علاجًا... ظل واحدًا من قروح مفتوحة كثيرة في أعماق عقله. سرعان ما غرقت مسرّته باعتزاز أبيه في غياهب الحزن، وفي هوّة خجله القديم من قصته الكاذبة التي لم يشكّك فيها أحد، تلك القصّة التي أذاعتها تيتا بين الناس، قصة أن مدحت درس الطب. الخجل يستدعي الغضب، دائمًا؛ وقد انتهى مدحت من الغضب. طوى الرسالة مرة أخرى وألقى بها في النار. التهم اللهب الورق فتجعّد سريعًا، ثم استحال رمادًا.

الواقع أنه شعر براحة لأن أبيه كان معتزًّا به. نادته فاطمة إلى العشاء. تردّد صوتها في الممر. انتظر انجلاء الألم، لكنه كان شديدًا. ضغط على جبهته بقبضة يده. نعم، لقد قرر الزمنُ الذي أمضاه في فرنسا ما سيأتي بعده. كم هو رائع أن أباه رأى ذلك الاعتزاز كافيًا لأن يكون ابنه قويًا. لم يخبر أحدًا عن رسالة مصباح. لكن الشهور تتالت، وبدأ يتساءل

في نفسه عما إذا كان أبوه غير مخطئ تمامًا في ظنّه. لقد اعتمد على نفسه بالفعل، فصار الآن -أو، لعله صار الآن- أحسن حالًا من إخوته وأخواته غير الأشقّاء. فلعله، بعد أن عاشَ في الخارج من غير حماية، واعتاد صعوبات الحياة وعلاقاتها في وقت مبكر، صار أكثر استعدادًا منهم لمواجهة الكارثة عندما أتت.

لم يجد شيئًا في الخزائن، فذهب لتفتيش الأشجار في الحديقة. لم يكن لديه معوَلٌ، فاستخدم ملعقة طعام لكي ينبش التربة من حول الجذور. تعرّق؛ وتصاعدت الحرارة إلى صدره من تحت قميصه. وجد صحيفة قديمة ركع عليها وراح ينبش التراب بيديه. كان ضباب الصباح الفائت قد عاد، لكن بقوّة أقل. وأفلحت الشمس في أن تطل عبر الغيوم فكانت لسعاتها على رقبته من الخلف كلسعات الحمّى. بدأت الدجاجات توقوق في قنّها عند أسفل المصطبة. ركع على ركبة واحدة ومسح وجهه بأسفل كفه. كان سقف قن الدجاج الإسمنتي مرئيًا من هناك. بعد أن هدأت جلبة الدجاجات، خطر في ذهنه أن القنّ يمكن أن يكون مكانًا ممتازًا لإخفاء السحر. إنه مكان شديد القرب من بوابة البيت، من الممكن أن يدخل شخص بسهولة من غير أن يراه أحد فيدفن شيئًا في القش هناك.

كانت رائحة زَرْق الدجاج تفاجئه دائمًا. فتح مدحت باب القن ذا الشبك المعدني مسافة كافية لأن ينزلق إلى الداخل. غطى فمه وأنفه بمنديل الجيب. تجمّعت الدجاجات في ناحية من القن وراحت تتقافز وتقوقئ وتخطو بطريقتها الخرقاء التي يحبها كثيرًا.

قال مخاطبًا دجاجته: «يلا، يا شباب، يلا. أخبروني أين خبأ ذلك الشخص السحر؟».

كان القش متناثرًا على الرفوف التي تبيض عليها الدجاجات. لا بيض هناك. اقتربت منه دجاجة صلعاء وراحت تتفحّص قدمه وتدير رأسها هذه الناحية وتلك وتنظر إليه بطرف عينها. اصطدمت مقدّمة قدمه بالصينية التي يضعون فيها الحبوب لإطعام الدجاج.

أتاه صوت فاطمة: «أبو طاهر، ماذا تفعل؟».

استدار. كانت فاطمة وسحر واقفتين عند البوابة السفلى تنظران إليه من تحت غطائي رأسيهما.

قالت سحر: «هل تجمع البيض؟».

كان وجه فاطمة شديد الشحوب.

قال مدحت: «حبيبتي»، ورفع فردتي بنطلونه عند الركبة حتى يخرج من القن. دعك أصابعه التي اتّسخت، وأزاح خصلة شعر عن وجهه مستخدمًا رسغ يده. كانت زوجته تحاول ضبط تنفسها. رأى أمامه خيارًا: إما أن يتحمل غضبها، أو أن يقول لها الحقيقة فيستفيد من مَيْلها إلى التطيّر بحيث يوجّه غضبها وجهة مفيدة. بدا له أن قول الحقيقة

سيكون أكثر لطفًا بالنسبة إلى كل منهما. قال: «ينبغي أن أتحدّث معك».

التقطت سحر الإشارة. أصدرت البوابة صريرًا عندما فتحتها وصعدت الدرجات المفضية إلى البيت. ارتدّت أذنا فاطمة إلى الخلف، وتقلّصت جبهتها كأنها مستعدة للهجوم، أو للتراجع. لم يكن أمامه وقتٌ كافٍ لتقدير ما إذا كانت ستتّخذ جانبه أو ستلومه. لكنه بدأ الآن، وعليه أن يتابع.

همس لها: «قال لي إيلي إن هناك سحرًا. هناك عين حاسدة أصابتني. بل أصابتنا».

جرت عيناها على وجهه بسرعة كبيرة. صارت أنفاسها ضحلة، فعرف أنه نجح في ما أراده.

«هل أنت واثق من أن السحر في هذا البيت؟».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«متى كان ذلك السحر؟ إذا كان قديمًا، فمن الممكن أن يكون في البيت القديم».

«آه، صحيح. نعم، قد تكونين محقّة...». بدأت الدجاجات تقوقئ وتتقدّم. فتح باب القن... «نعم، هذه فكرة رائعة، يا حبيبتي. قال إيلي إن ذلك حدث منذ وقت بعيد».

قالت فاطمة: «فكرة رائعة! لا، لا. هذا ليس أمرًا رائعًا».

أصدرت صوتًا كالأنين، واتّجهت عيناها صوب الشرفة كأنما رأت شيئًا يتحرّك هناك.

صار البيت القديم الآن ملكًا لابن عمه وصفي. لا تزال أم طاهر تعيش مع أم جميل وأبي جميل وجميل. وقد قرروا مجتمعين أن يبيعوا الطابق العلوي لواحد من أفراد العائلة: اخترَ الجارَ قبلَ الدار؛ هذا ما يقوله الناس أكثر الأحيان. عادت أم محمود إلى العمل هنا. صارت تعمل لدى وصفي وزوجته. على الرغم من أن السن قد تقدمت بها، فقد حافظت أم محمود على حيويتها وكانت تحتضن مدحت كلما رأته. في وجود هؤلاء السكان معًا في بيت واحد، كان مدحت يزورهم جميعًا عندما يزور واحدًا منهم. وعلى الرغم من أنه سار الآن على أطراف أصابعه متّجهًا إلى الباب الخارجي لبيت وصفي آملًا ألا ينتبه إليه أحد، فقد صاح به صوت آت من إحدى نوافذ الطابق السفلي.

«خالتو!».

كانت أم جميل تلوّح له متحمسة من خلف مزهرية عند النافذة.

قال مدحت: «مرحبًا، يا خالتو. ما أجمل هذه الشجرة، هناك!». أشار بيده إشارة غامضة، ثم حوّل اتجاه خطواته صوب باب الطابق السفلي.

نادته جدته: «أهلًا، يا تيتا».

كانت تيتا جالسة على الأريكة وأمامها كمية من الأقمشة المطرزة. وعلى المقعد إلى

جانبها، استقرّت مجموعة من كرات الصوف الملونة، وصنارات مغروسة فيها. أتت من المطبخ قعقعة القدور وصوت ماء يغلي. علا صوت أم جميل فوق تلك الجلبة.

«سمعنا عن الحريق في المتجر».

قالت أم طاهر: «نعم، ماذا حدث؟ اجلس».

«آه، يا إلهي». قال مدحت، ثم تنهّد وجلس في كرسي ذي مسندين ووضع طربوشه على الطاولة التي أمامه.

«ماذا؟».

«لا نعرف ما حدث، يا تيتا».

«هل الأضرار كبيرة؟».

«لا، ليست كبيرة. إيلي يحصي الأضرار. إنها مجرد حادثة. المصابيح... تعرفين كيف».

قالت أم جميل وهي تقترب منهما حاملة صينية فيها فناجين القهوة الحارّة: «يا الله! من الأفضل لنا أن نحصل على كهرباء».

صدر عن أم طاهر صوت استياء. قالت كأنها تخاطب القطعة التي تطرزها: «تعاوُن»، وراحت تحرك الإبرة كأنها قوس كمان، وتدير النسيج من تحتها.

*... تعاون!*

صارت هذه الكلمة الآن واحدة من الكلمات التي يردّدها الجميع؛ وحتى النساء اللواتي صرن في الثمانين من أعمارهن يقُلنَها بنفحة من الثقة في صحة هذا الموقف.

قالت أم جميل لمدحت: «ذهب جميل إلى واحد من تلك الاجتماعات».

«فهمت».

«إنه اجتماع وطني. شيء عن تنظيم إضراب».

أومأت برأسها بحركة موحية بالأمل. لا تزال تنقل إلى مدحت أخبار نشاطات جميل بطريقة كان واضحًا منها أنها ترجو أن تكون لديه معلومات أخرى يشاطرها إياه. وكثيرًا ما كانت تعبر عن قلقها من أن ابنها لا يبدي أي اهتمام بالزواج. كانت تقول أحيانًا: «لا يتزوّج الناس كثيرًا هذه الأيام». لكنها تقولها بنبرة مفتقرة إلى الاقتناع، وتتوقّف عيناها عند مدحت علّه يؤكّد ذلك أو ينفيه. كان يشعر أحيانًا بأنه متعاطف معها؛ وكان مدركًا مقدار ما تجده من صعوبة من فهم سلوك ابنها انطلاقًا من المعلومات المحدودة التي تستطيع الحصول عليها وهي جالسة في غرفة المعيشة في بيتها. إلا أن أشد مشاعر التعاطف من جانب مدحت ما كان ليسعفها زمنًا طويلًا.

ابتسم مدحت وقال: «ماشي». أنقذته أم جميل من احتمال أن تندفع جدته في كلام كثير لا فائدة منه. إلا أنها قالت فجأة: «ما شاء الله! صار شكلك مثل شكل أبيك».

«حقًا؟ آه، يا تيتا».

«أنت تشبه أمك عادةً. لكنك اليوم تبدو شبيهًا بطاهر. الله يرحمه. إنه وجهك. صار وجهك الآن أكبر».

«شكرًا. كيف صحتك؟».

«إنني أموت دائمًا. أعطني السكر، من فضلك. تؤلمني رئتي، ومثانتي... شكرًا لك، لكن الحياة هكذا. ألم تكن فاطمة راغبة في المجيء معك؟».

«إنها في البيت. لدينا ضيوف. هاني وسحر».

«هانيَ! كيف حال هاني؟ حبيبي هاني. أنا أحب هاني».

«إنه بخير. إنه بخير. مشغول. مشغول».

قالت أم طاهر مستنكرة: «مشغول! الجميع مشغولون».

«هل وصفي في البيت؟».

قالت أم طاهر: «آه، وصفي. إنه أسوأهم جميعًا. لا يكاد يأتي لرؤيتنا. هل يأتي، يا خالتي؟».

كشّرت أم جميل تكشيرة أرادتها ابتسامة مجاملة، وهزت رأسها، ورشفت قهوتها وهي تنظر إلى صدع في الجدار.

لم يكن وصفي في البيت، ولا زوجته، لكن بابهما لم يكن مقفلًا. لقد بقي في البيت أكثر الأثاث الذي كان موجودًا في طفولة مدحت. كانت التغيرات التي أدخلها وصفي وزوجته غير ملحوظة تقريبًا، عدا قطع البورسلان التزيينية على الجدران، تلك القطع التي لا تزال تيتا تتذمّر منها لأن لونيها، الأزرق والأبيض، لم يكونا متناسبين مع الكراسي الدمشقية. وكان لدى مدحت إحساس دائم بأنه دخيل في هذا البيت، خاصّة عندما يلقي نظرة على الغرفة التي كانت له في الطفولة، وذلك (جزئيًا، بسبب ما فيها من أشياء مألوفة) ـ أُضيف إلى الغرفة سرير جديد من أجل ابن وصفي الصغير. لم يعد في تلك الأشياء أي سحر من الماضي. وهي لا تجعله يشعر بشيء غيرَ تقدّم السن به، غيرَ بُعده عن ذلك الزمن الذي كانت فيه تفاصيل هذه الغرفة أشياء يومية في حياته.

مر بأصابعه على الجص المحيط بعتبة المطبخ. وحدّق في بلاطات العتبة، وتحسّس حوافّها بقدمه. دخل غرفته القديمة. كان ولدا وصفي نظيفين، منظّمين، فلم يجد تحت السريرين شيئًا غير أحذيتهما. وجد في الخزائن ثيابًا وبطانيات وملاءات احتياطية.

دخل غرفة نوم والده التي صارت الآن غرفة وصفي وزوجته. دُهش مدحت عندما

رأى أنهما مستمران في النوم على السرير ذي الطراز الأوروبي، ذلك السرير نفسه الذي أحضرته ليلى من القاهرة منذ زمن بعيد عندما لم تكن الطرق معبدة بعد، قبل أن يصير هناك خط قطار مباشر. نظر إلى الأرض، وإلى الجدران. فتح الخزانة وتحسس جدرانها، من بين الملابس، بأسرع ما استطاع. لم يجد شيئًا، فأغلق أبواب الخزانة وذهب إلى غرفة مكتب أبيه.

كان التغير في هذه الغرفة أقل مما وجده في بقية الغرف. طاولة المكتب نفسها لا تزال مستقرّة في مكانها عند النافذة؛ ولا يزال الكرسي نفسه موجودًا. رفّ الكتب نفسه، لكن الكتب التي عليه تغيّرت. نسخة قديمة من كتاب «روح القوانين» لمونتيسكيو كانت راقدة فوق بقية الكتب كأن أحدًا قرأ فيها مؤخرًا فوضعها كيفما اتفق. كانت مجلدًا ذا غلاف بُنّي محمرّ، على كعبه حافتان نافرتان فوق العنوان وتحته. تناول الكتاب عن الرف، وفتحه بين يديه.

**تكون حركة الناس دائمًا زائدة التراخي أو زائدة العنف. ففي بعض الأحيان، تقلب مئة ألف ذراع كل ما تجده أمامها؛ وفي أحيان أخرى، يكون سير مئة ألف قدم بطيئًا مثل زحف الحشرات.**

تحرّك ذهنه عبر هذه الكلمات ثقيلًا، متيبّسًا. لم يقرأ شيئًا بالفرنسية منذ سنين. كانت رفوف الكتب في بيته مليئة بالكتب الفرنسية، لكنّه ما عاد يفتحها لأنه صار يجد عناءً كبيرًا في شق طريقه بين صفحاتها.

حاول منذ بضع سنين أن يتكلّم بالفرنسية مع واحدة من راهبات القديس يوسف الكاثوليكيات. كانت أخوية «فتيات عيبال»، مثلما لا يزال بعض الناس يسمونهنّ، قد تخلّت عن إدارة المستشفى البلدي منذ زمن بعيد، فوضعتها بين أيدي عدد من الأطباء المحلّيين ممن تعلموا في الغرب، وبعض الممرضات اللواتي تمرّنّ على أيديهنّ. لكن التعلق بهذا المبنى ومرضاه لم يفارق قلوب فتيات عيبال، فظللن مواظبات على زيارة المكان من حين لآخر وعلى تكرار نصائحهن القديمة. كانت جدته تزور المستشفى للاطمئنان على صحتها مرة كل أسبوع، على الأقل. صارت تحب هذا المكان بعد أن زالت عنها قلّة ثقتها فيه. كان مدحت يأتي معها أحيانًا. وفي واحدة من تلك الزيارات، حاول أن يتكلّم مع راهبة مسنة مهزولة ألزمها المرض فراش المستشفى. كان اسمها الأخت لويز. لكن مدحت وجد نفسه غير قادر على قول شيء غير «بون سوار». كانت الكلمات في فمه كأنها أجسام قاسية جافة لا يستطيع مضغها. ثم إن الحرج الذي أحسّته تيتا جعل الأمر أكثر سوءًا. عاد إلى البيت، وحاول قراءة الشعراء القدامى الذين كان

يحبهم. قالت فاطمة، إنها وجدته نائمًا بعد نصف ساعة من ذلك... نظّارته على عينيه، وصفحات الكتاب مضغوطة على صدره.

أرغم نفسه على قراءة تلك الفقرة في كتاب مونتيسكيو. كان كمن يقلّب رمالًا ثقيلة محاولًا أن يعثر على شيء صلب تحتها. شعر بأن أجزاء عقله تتحرّك مثل مسننات ساعة شديدة البطء.

صار ضوء النهار الآن مكتملًا. نظر مدحت فرأى أشعة الشمس ممتدة داخل البيت؛ لكن الجو لا يزال باردًا. كان متقوّس الكتفين، رافعًا الكتاب إلى وجهه. دخلت أشعة الشمس المنخفضة عبر النافذة بزاوية أعمت بصره، وأنارت أصابعه التي صار لونها أحمر متوهّجًا. كانت ذرات الغبار تلمع في شعاع الشمس وتُدوّم مع تيار الهواء. سقط شعاع شمس حاد مخترقًا الظلال على الأرض، فلمح مدحت زاوية مبلّطة. لقد كان في تلك الزاوية شيء، فيما مضى. لعله صندوق دروج، أو رف، أو كرسي. أمر غريب أن يعرف المرء غرفة طيلة سنين كثيرة، وأن يألف محتوياتها كلّها، لكن شيئًا يُزال منها فيجد نفسه عاجزًا كل العجز عن تذكر ذلك الشيء. وهناك، حيث كان ذلك الشيء موضوعًا، رأى مدحت بلاطة واضحة تحت ضوء الشمس. كانت حوافها سوداء. وضع كتاب مونتيسكيو جانبًا وقرفص في تلك الزاوية. تحسّس البلاطة بأصابعه فوجدها غير ثابتة. لا بد له من استخدام سكين.

كان المطبخ باقيًا على حاله، لكن الملاعق والسكاكين في الدرج كانت مختلفة. اختار سكينًا له مقبض عظم، ثم ركع من جديد في غرفة المكتب وأدخل حافة السكين المدورة في الشق عند حافة البلاطة. ارتفعت البلاطة مصدرة صوت احتكاك. أمسكتها أصابع يده اليسرى من حافتها: كانت ثقيلة؛ وأحس بالسكين تنثني تحت ذلك الثقل. اكتشف أن البلاطة أكثر عمقًا مما بدت عليه. وعندما أفلح أخيرًا في إخراجها، اندفعت في الهواء لفحة غبار وقشور من الإسمنت المفتّت. وضع يده في الحفرة وتلمّس حواف جسم أصغر من البلاطة وأخف منها. أخرج صندوق سيجار خشبيًا.

مسح الغبار عن الصندوق. كانت على حافته المفتوحة لصاقتان ممزّقتان لهما لون رمادي مخضرّ. وكان الورق الملون حول محيط الصندوق مهلهل الحواف. انفتح الغطاء بسهولة، وفاحت من الصندوق رائحة تبغ قوية، حادّة، حلوة، فيها نكهة صنوبر. شم رائحة أبيه. شعر كأن لحيته تخدش خده.

كانت في الصندوق أشياء كثيرة. مسح أصابعه بساق بنطلونه قبل أن يمسها: تمثالان صغيران من البرونز؛ امرأتان إغريقيتان، وبقع خضراء في طيات فستانيهما وعلى وجهيهما. وإلى جانب التمثالين، وجد قطعة قماش مطوية. فتحها: كانت ناعمة بلون

الكُريم. لم يجد عليها أية علامات، ولم تكن حوافها مكفوفة. لعلها خرقة لتنظيف التمثالين! علبة صغيرة من الورق المقوى فيها خاتم، خاتم امرأة ـ خاتم فضي عليه نقش. أمسك بالخاتم بين إبهامه وسبابته وأحس بصدمة حقيقية. أيعقل أن تكون هذه الأشياء لوصفي؟ لكنه كان واثقًا، واثقًا من الرائحة، أنها لأبيه. لكن، لمن يكون هذا الخاتم؟ أهو لأمه؟ استبدّت به الحيرة. من غير وجود والده، تصير هذه الأشياء من غير معنى وتنقطع خيوطها كلّها. لكن شكل ذلك الرجل الذي كان اسمه الحاج طاهر كمال بدأ يتغيّر في ضوء هذه الأشياء. ذلك الجانب الذي كان غائبًا في الظل راح يكبر في الظلمة. يعرف مدحت أن أباه لم يكن أبدًا شخصًا متطيّرًا؛ بل على العكس من هذا... كان عقلانيًا جدًّا. وقد تمكّن من تحويل العمل الذي ورثه عن أبيه إلى مشروع مزدهر ينظر إليه كثير من الجيران نظرة حسد. لكن تجميع الأشياء هكذا، وإخفاءها... هذا سلوك شخص حذر، شديد الريبة. خاتم فضي في علبة سيجار مخبأة تحت بلاطة؟ ليس الخاتم مزينًا بالمجوهرات. وهو ليس شيئًا ثمينًا إلى حد يستوجب إخفاءه. ماذا في العلبة أيضًا؟ امتدت يده داخل العلبة من جديد. مجموعة وثائق. شريط جلدي رقيق، مهترئ، فيه ثقوب من أجل البُكلة. كان طلاء الجلد متشقّقًا، متفتّتًا؛ وترك على أصابعه أثرًا بنيًا كأنها غبار. راح يقلّب الوثائق. كانت في المغلّف الأول صورة بيت مطبوعة على صفيحة معدنية. لم يعرف ذلك البيت. وضع الصفيحة تحت الضوء فلمع معدنها. ليس هذا بيتًا في نابلس. كان مدخل البيت من حجارة مخططة، وعلى نوافذه قضبان حديدية. لا أشخاص في الصورة. انتقل إلى المغلف الثاني. كان لونه ليلكيًا. قرأ الكلمات التالية على المغلف: مكتبة سُر مَن قرأ

السيد مدحت كمال.

دار عائلة كمال

نابلس

فلسطين

حدّق في تلك الكتابة، في الخطّ. وبحركة يد خبيرة، ضغط حواف المغلف لكي يفتح أعلاه، ثم أخرج منه الرسالة. بدأت يداه ترتعشان. على العكس مما جرى عندما قرأ تلك الفقرة من كتاب مونتيسكيو، دخلت الكلمات رأسه من غير صعوبة على الإطلاق.

*7 تشرين الأول 1919*

*عزيزي مدحت،*

*عندما رحلت، رحل من بعدك دفء بيتنا. أظننا لم ننتبه إلى مقدار البهجة*

والسرور اللذين كان حضورك يضفيهما على حياتنا. ليتني تصرفت بطريقة مختلفة - ليتنا نستطيع استعادة ما خسرناه. لكنك على حق؛ فمحاولة ذلك ليست إلا عبثًا. أمنيتي الوحيدة ألا يكون ما جرى أمرًا نهائيًا.
أشعر كأنني أكتب في الفراغ -أمر غريب ألّا أعرف كيف سيكون إحساسك عندما تقرأ هذه الرسالة، ليتني أستطيع رؤية وجهك-آه، يا مدحت. أفكّر أحيانًا في أنني أحسّك في أنفاسي. ليس احتمال هذا الإحساس سهلًا.
لقد كانت سنوات الحرب الطويلة مرهقة لنا جميعًا. والآن، بعد انقضائها، أود أن أسألك شيئًا أخيرًا: هل ستعود؟ أعرف أنه لم يمر وقت طويل على وصولك؛ ولهذا لا أتوقّع أن تكون عودتك فورية. لا أريد أن أتوسّل، لكني أود إخبارك أنني مشتاقة كثيرًا لصحبتك. لقد قسوت عليك. أرجو أن تدرك أنك لم تكن وحدك المخطئ في ما جرى. وآمل، بل أتمنّى، أن نستطيع إصلاح بعض ما انكسر في تلك الحادثة، على العشاء. لا أستطيع إخبارك كم حزنت عندما استيقظت فوجدت أنك قد رحلت. لا أستطيع إخبارك. لا يزال الندم يملأني، والألم، حتى بعد أربع سنين. في البداية، لم أدرك أن ذلك كان ندمًا لأنني ألهيت نفسي عنه وانضممت إلى ماريان في ديفون لي بين. لم أصلح للعمل كممرضة -هذه هي الحقيقة- لكنهم كانوا في حاجة إلى من يقدّم العون، حتى في التنظيف؛ وعلى الرغم من قلّة ما كان متاحًا من وقت في ظل ذلك العدد من الجرحى المتدفّقين على المستشفى، فقد كنت أحب أن أقرأ لهم في الأمسيات، أن أقرأ لأولئك الذين كان موتهم مؤكّدًا.
لم تكن ديفون مكانًا سعيدًا؛ لكني لم أجد نفسي مع ذلك العدد الكبير من الأشخاص منذ وقت طويل. كان هذا، في حد ذاته، إلهاءً لذهني. يسعدني أيضًا أن ماريان لم تكن مضطرة إلى أن تعيش محنتي معي. كانت هناك حديقة على مقربة من المستشفى، حديقة خالية أكثر الأحيان. كنت أشعر بالسكينة فيها، فأجلس في هدوء تام، وأفكّر فيك. وعند رحيلي، عند انتهاء الحرب التي كانت سحابة على عيون الجميع، صار واضحًا لي تمامًا ما قد فعلتُه.
لست أعرف على وجه التحديد ما جرى بين سيلفان وأمي، لكنّي أفهم أن من المحتمل أنها كانت تحبّه. لكني لا أظنّه سلك مسلكًا غير شريف، فالحقيقة أنه هو الذي أنهى تلك العلاقة. أظنه كان بمثابة أخ كبير لها؛ وقد كان حريصًا عليها، بالتأكيد. لست أعرف إلا أنه رفض الفكرة عندما سأله جدي إن كان

سيتزوجها. هذا كل ما أعرفه. والحقيقة أنني لن أتوصّل إلى معرفة أي شيء آخر. سيلفان شخص صعب، وهو يصير أكثر صعوبة كلما تقدّمت به السن. لم يكن لطيفًا معي، عدّة مرات، عندما حاولت أن أسأله. أحسست بأن هناك جرحًا؛ وبأن ليس من حقي أن أمس ذلك الجرح. فضلًا عن هذا، فقد صار يمضي في باريس أوقاتًا أطول من ذي قبل. نادرًا ما نراه.

آسفة لأنني جررتك إلى قصص أمي، ولأنني جعلتك تظن أنني أريد منك حلّها. كل ما أردته في الحقيقة كان شيئًا من الراحة، وأن يكون لدي من أتحدث معه. لقد كان ذلك هاجسًا غير صحّي. تلك الليلة البشعة قبل رحيلك... لم أدافع عنك... أنا في غاية الأسف! العذر الوحيد الذي أستطيع التماسه لنفسي هو أنني كنت مصدومة، وأنني لم أتمتّع بالقوة اللازمة للتحكّم بعقلي ودوافعي ورغباتي. في تلك اللحظة كان ولائي لأسرتي - لأبي... فعائلتي، في نهاية المطاف، مكوّنة مني ومنه فقط، وليس عندي غيره - هو ما كان يملي عليّ أفعالي في مواجهة ذلك التمزّق. كان ذلك سلوكًا تلقائيًا، غريزيًا، على الرغم من أنني أستعيد الآن ما حدث فأرى أنني كنت مخطئة. وأما عن أمي، فإن لديَّ الآن إحساسًا قويًا بأن وقت طي صفحة الماضي قد حان منذ زمن بعيد، وقت التوقّف عن محاولة معرفة سبب موتها. لقد منعني هاجسها زمنًا طويلًا من عيش الحاضر عيشًا كاملًا. أشعر بأن عقلي كان عالقًا في ذلك اللغز، كشيء معلّق من خطّاف... وقد كان صعبًا، وسيكون صعبًا، تخليصه من غير ألم. لكن عليَّ أن أفعل هذا وإلا فلن أذهب إلى أي مكان. أرفض أن أظلّ منتظرة هناك، إلى الأبد. كم كانت كثيرة الأشياء التي نسبتُها إليها، لكنها كانت حقيقية في ما يتعلّق بي: عدم الرغبة في الحياة، وجعل نفسها مريضة بحيث لا يكون عليها أن تخطو خارجًا، أن تسير في العالم. أظن أنه ليس من الصعب أن يقال هذا عنّي... لأنني، قبل كل شيء، أشعر بأنه منعني من تقديرك حقّ قدرك، يا مدحت العزيز. لكن، كم مرّة قلت في هذه الرسالة «أشعر»! لست بارعة في كتابة الرسائل!

حلّ الشتاء هنا. وقد تجمّدت البركة في الحديقة. مونبلييه هادئة الآن. لست أدري إن كنا سنقيم أية حفلات أخرى. لقد دوزنّا البيانو يوم أمس. وأنا أتمرّن على العزف. مشتاقة إليك كثيرًا. عد، من فضلك!

المخلصة دائمًا،

ج

مضى مدحت في القراءة، ولم يكن منتبهًا إلى أي ألم على الإطلاق. لكنه اقترب من آخر الرسالة، وأحس بدنوّ لحظة عودته إلى وجوده في تلك الغرفة؛ فما كان منه إلا أن عاد إلى الصفحة الأولى، وبدأ القراءة من جديد. ثم قرأ الرسالة مرة ثالثة، ثم مرة رابعة، إلى أن صارت الكلمات أشبه بتميمة يردّدها، وما عاد يعرف كم مرّة كررها.

سقط خارجَ الزمن الحاضر. جانيت إلى جواره، تكلّمه. كانت تلك أعجوبة. نقلته تلك الأوراق نقلًا تامًا إلى زمان آخر، وإلى مكان آخر. كان مع جانيت في الحديقة، عند البركة. كان سائرًا في شارع في مونبلييه. كان جالسًا في قاعة المحاضرات، واثقًا من عودته إليها في المساء. كان يسير قبل الفجر فيجدها في الممر. سمعها تتنفّس عند أذنه.

سمع صوتًا. انفتح غيابُه فجأة فوضع الرسالة على الأرض.

«مدحت! هل أنت بخير؟».

رجل واقف فوقه، يحجب عنه الضوء.

«ماذا أصابك؟ ماذا أصابه؟».

إنه وجه جميل، صديقه؛ زادته الشمس سمرة. بدا قلقًا، أو حانقًا.

«مدحت؟».

نظر مدحت من حوله. إنه في غرفة أبيه. كان الضياء شديدًا. نظر من بين ساقي جميل فرأى طاولة المكتب، والنافذة. رأى أسفل الطاولة؛ ورأى السماء من أسفل. صفعته الغرفة على وجهه. الشفافية البشعة للزّمن الحاضر، وهذا البياض الجارح. شطر من عقله، شطر مكبوت منذ زمن بعيد جدًا، انبثق منفلتًا مع موجات من الألم. بدأ يئن. شعر بحرارة جسد جميل عندما جثا إلى جانبه. صار وجه صديقه مرئيًا بوضوح.

«لماذا احتفظَ بها؟».

«احتفظَ بماذا، يا مدحت؟».

«لماذا احتفظَ بها؟».

«مدحت؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

أتى شخص آخر. رأى ساقين مقتربتين منه.

«ماذا يفعل؟».

أيُّ تطيّر ذلك الذي جعل والده يحتفظ بالرسالة. نظر مدحت إلى وجه جميل متسائلًا. هل ظنّها أبوه شيئًا من فعل السامريين؟ هل ظنّها شيئًا من تلك الأشياء التي يكتبونها ثم يصبغونها بلون زائف؟ هل ظنها سحرًا لأنها مكتوبة بلغة أخرى؟ وضع كفيه على الأرض.

«هذا غير حقيقي».

«ما هو غير الحقيقي؟».

كان الأنين ينساب من فمه: «كُفّ عن لمسي».

«ما هو غير الحقيقي، يا مدحت؟».

هل ظن أبوه أن لها قوة تفوق قوّته... لمجرد أنه لم يستطع قراءتها؟ أجل. أدرك الآن ما جعل أباه يظن ذلك. حتى هو كان قادرًا على إدراك هذا.

«مدحت، حبيبي، ينبغي أن تنهض».

هنا شيء يتجاوز الطبيعة. قبضت يداه على بطنه. كان معلّقًا على الحائط جسم ضخم، شبه شفّاف، كأنه بركة ماء معلّقة جانبيًا. بدأ قلبه ينبض عنيفًا.

«مدحت، هل تستطيع سماعي؟».

كان هاني إلى جانبه. عيناه ممتلئتان حبًا، وقلقًا. آه، هاني... أراد أن يقول له هذا. لم يستطع قوله. سالت دموعه على وجهه.

«هل تستطيع إيقافه على قدميه؟».

«مدحت، عليك أن تساعدنا. أمسكه من يده».

«عليَّ أن أعود. علي أن أعود. لا تمنعوني».

قال هاني بلطف: «تعود، إلى أين، يا حبيبي؟ أنا لا أمنعك. هل تستطيع النهوض؟ أمسِكهُ من ذراعه، بهدوء».

في تلك اللحظة فقط، بعد أن أنهضوه فصار واقفًا على قدميه، انفجر صوت رنّان. كان مثل نصل فضيٍّ حاد ينغرس في طبلتي أذنيه. ضغط مدحت بيديه على أذنيه. وانطلق أنينه. كان شيئًا يتظاهر بأنه حسن، يتظاهر بأنه جميل. لكنه كان ألمًا، ذلك الرنين المرتفع الصوت... كان ألمًا. اخترق كأنه فيروس. كان يقتحمهما، يفعل ما لا ينبغي له فعله. يجب أن يتولى أحد الأمر، وأن يُسكِت ذلك الصوت.

قال لهما عندما كانا يقودانه خارج الغرفة: «أوقفا الصوت!».

سار الزمن بطيئًا في الممرّ. كان مدركًا أنهما يقودانه، وشعر بالأرض تصطدم بقدميه. لكن النسيج صار الآن مشقوقًا، شقًا صغيرًا؛ وصار مدحت قادرًا على النظر من خلاله. كان هناك من يرغمه على النظر من خلاله. رفع ذراعه، وشعر بنبض ناءٍ في ساقه.

«مدحت، مدحت، اجلس هنا. أنا هاني. اجلِس، من فضلك».

قال مدحت: «هاني! أنت صديقي».

قال هاني: «أجل، أجل. أنا هنا. كيف تحسّ الآن؟ هل أنت...».

قال مدحت بالفرنسية: «Je suis complètement lucide. Une lucidité absolute. Qu’est-ce que c’est, qu’est-ce que c’est cette folie»[1].

وكأنه لم ير نفسه إلا الآن... تهاوى إلى الخلف فجلس على مقعد السيارة الجلدي، وبدأ يضحك.

(1) أنا واعٍ تمامًا. إنه وعي مطلق. ماهذا؟ ما هذا الجنون؟

## - 4 -

رأت فاطمة الطائرة عندما كانت في طريقها إلى بيت أهلها، رأتها تطير فوق جبل عيبال كأنها حشرة على ذيلها علامة ومروحة في مقدمتها، صوتها مسموع حتى من مسافة بعيدة. كانت تعلو قليلًا وتهبط قليلًا كأن ريحًا رخيّة تتقاذفها، ثم تتقدّم، وتدور، وتنحرف جانبًا مظهرة جناحَيها الرائعين.

إنه يوم الأربعاء. عادة تزور أهلها أيام الجمعة. رأت من عتبة الباب مسحة قلق تعلو وجه أمها.

قالت وداد وهي تتراجع حتى تتيح لها الدخول: «لدينا ضيوف».

«من؟».

«عمو حسن، والقس الفرنسي».

قالت فاطمة: «أي قس فرنسي؟».

«إنه صديق والدك. يلا... سنشرب القهوة».

قالت فاطمة: «هل يمكن أن نتكلّم على انفراد؟».

لكن أمها كانت قد استدارت مبتعدة وبدأت تصعد السلم.

وعند فسحة السلم، دفعت وداد الباب فانفتح، وصار الصوت المكتوم واضحًا: صوت أبيها.

«هذا هو رأيي. وبصدق، أظن أن...».

لم يجر أي تقديم رسمي للمرأتين عندما دخلتا الغرفة. لكن الحاج حسن، الذي كان على رأسه طربوش ذو لون بني داكن، حيا ابنة أخيه بهزّة بسيطة من رأسه، وألقى عليها القس الفرنسي نظرة سريعة قبل أن يضيف شيئًا إلى ما كان والدها يقوله قبل لحظة. جعلت وداد ابنتها تجلس على الكرسي الشاغر الوحيد. وأما هي فجلست على الكرسي الصغير. ألقت فاطمة على الفرنسي نظرة فضولية. كانت حاشية ردائه الأسود متسخة. وكانت لحيته البيضاء تمامًا خشنة قاسية كأنها مكنسة، وحاجباه الخشنان ممتدّين على جبهته. كانت السماء تبدو من النوافذ رمادية اللون على الرغم من زرقتها في الخارج. وعلى الطاولة، صينية عليها بسكويت وقهوة. كتاب ضخم غير مجلّد، صفحاته غير مفتوحة بعد، كان على الطاولة الصغيرة إلى جانب الحاج نمر.

قالت وداد: «سوف تذهب بعض النساء لكي تأخذن طعامًا ورصاصًا».

سألها الحاج نمر: «من هُنّ؟».
أغمضت وداد عينيها.
قال لها: «آمل أنك، على الأقل، لست واحدة منهن».
قالت فاطمة: «يأخذن رصاصًا، أين؟». سرَت نظرة سريعة بين حسن ونمر، فأضافت فاطمة سريعًا بنبرة فاترة لم تردها: «لقد رأيت الطائرة، في الخارج».
تحقّق الأثر المطلوب. التفت حسن ونظر إليها. سألها: «هل استطعت رؤيتها؟».
«أجل، كانت تطير في ذلك الاتجاه».
«فـَ... قتلوا واحدًا منهم، كما تعلم...»؛ قال هذا وهو يلتفت إلى محدثيه... «قتلوا واحدًا من البريطانيين».
«وأين هم الآن؟».
قالت أمها: «مختبئون».
قال نمر بنبرة من أزعجته تلك المقاطعة الطويلة: «النقطة التي أردت توضيحها هي أن المرء لن يكون مبالغًا أبدًا مهما أصر على هذه الأمور».
قال حسن: «أية أمور؟».
قال نمر: «مثلما أن من الأفضل جعل الحكومة لا مركزية، فإن من الأفضل جعل تطبيق القوانين الدينية غير مركزي أيضًا، وذلك بحسب احتياجات المجتمع المدني».
قال حسن وهو يمد يده لكي يأخذ قطعة بسكويت: «إن هذا الحديث يدور بيننا -حرفيًا- منذ سنين».
ألقت فاطمة في اتجاه أمها نظرة مستفهمة، لكن وداد رفضت أن تنظر إليها... رفعت رأسها.
قال أبوها: «عندما تكون موجودًا في الدولة، فإن القوانين المدنية والقوانين الدينية تكون مثل قوانين الطبيعة».
صار الآن يخاطب القس الفرنسي وحده، لأنه بدا الشخص الوحيد الذي يستمع إليه. نفض حسن فتات البسكويت عن صدره غير منتبه إلى أن قطعة من التين المهروس، من حشو البسكويت، التصقت بذقنه.
«فقط عندما نتخطّى ذلك وننظر إلى معالمه الخارجية، نكون قادرين على رؤية أنها أبنية من صنع البشر، وأنها غير ممتدة إلى ما لا نهاية».
غمغم حسن: «أبنية، من صنع البشر!...». نظر إلى القس الفرنسي معبّرًا عن عدم قدرته على تصديق هذا، لكنَّ عيني القس كانتا تنظران إلى نمر وحده.
تابع نمر كلامه: «إن لدى الفلاحين هذه المحبة للقديسين والأولياء المحلّيين،

وللزعماء... هذا، يعني، ما لا يجيزه الدين. لكن القوانين تتشوّه ويتغير شكلها على أطراف العالم الإسلامي».

لم تعد فاطمة تواقة إلى انتهاء الحديث. لقد استجمعت العناصر الضرورية، واندفعت إلى المشاركة. قالت: «بابا، حيفا ليست على أطراف العالم الإسلامي. وأنصار القسّام ليسوا من الفلاحين فقط».

نظر إليها أبوها نظرة متمعّنة. على مر السنين، اكتسبت فاطمة الحق في أن تكون لها آراؤها المختلفة عن آرائه. لقد صارت معروفة بأنها صاحبة منطق، وصار موقعها في أحاديث من هذا النوع أشبه بموقع أرملة اكتسبت مكانتها بفعل العمر وبفعل موت الآخرين. لكنّ أحدًا لم يمت، ولم تتجاوز فاطمة الثانية والثلاثين. خلافًا لها، لم تكن نزهة لتحضر أحاديث من هذا النوع؛ وكان الظن السائد أنها لن تجد شيئًا تقوله إن حضرتها: على الرغم من هذا، كان شباب فاطمة يجد تعبيرًا عنه في أنها تتمادى أحيانًا. فأن تعارض والدها معارضة مباشرة في حضور آخرين، حتى إن لم يكونوا إلا واحدًا من أقربائها ومعه رجل دين...! حبست أنفاسها غير عارفة إن كان لها أن تشعر بمزيد من الجرأة لأن الفرنسي الجالس إلى جانبها كان يومئ برأسه متحمّسًا.

قال القس الفرنسي: «إنها محقّة...». كانت له لكنة واضحة... «الحقيقة أنني كنت في حيفا في الأسبوع الماضي، ووجدت أن أكثر المهتمين بخطب القسّام كانوا من العمال. عمال سكة الحديد، وعمال الميناء، وعمال البريد. لم يظهر هذا التأييد له بين الفلاحين إلا في الآونة الأخيرة».

ضيّق الحاج حسن عينيه ناظرًا إلى لحية القسّ، واهتز حنكه قبل أن يتكلّم. رفع يده وقال: «أستطيع التأكيد لك، أيها الأب أنطوان، أن هؤلاء العمال هم في الأصل فلاحون. فـَ... هم فلاحون هاجروا إلى حيفا عندما فقدوا أراضيهم. حتى... لا أعرف إن كان استخدام كلمة عمال صحيحًا فـَ... أكثرهم عاطل عن العمل، مش هيك؟».

ارتفعت عينا الفرنسي إلى السقف مفكّرًا في ما سمعه.

قال الحاج نمر لفاطمة بنبرة صوت تحاول تلطيف وقع ملاحظتها الأخيرة: «ما عنيته، يا بابا، هو أنهم راغبون في زعيم محلّي. هذه هي عقلية الفلاحين. يحبون الشيخ والولي. يجمع القسام بين الأمرين: الديني والسياسي. لم يكن الأمر هكذا من قبل».

قال الفرنسي: «قد لا يعجبك ما سأقوله...». تجهّم وجه الحاج حسن استباقًا لما سيسمعه... «لكن في مدرستي بعض الدراسات التي تناولت هذا الأمر».

قال نمر بنبرة مرحة كأنه لم يسمع شيئًا: «هل ستنزل عند فتيات عيبال في نابلس؟».

ابتسم الفرنسي... «أجل، لكنني لست واثقًا من أنهن لا يزلن فتيات».

لمحت فاطمة عبوسًا ظهر على وجه أبيها ثم اختفى.

نهضت أمّها واقفة، ولوحت بيدها كأنها تشير إلى حيوان حرون: «خَلَصْ فاطمة. تعالي. سنعِدّ الشاي».

نهضت فاطمة. جعلت وجهها خاليًا من أي تعبير حتى تخفي انزعاجها من إبعادها عن الحديث... تمامًا مثلما فعلت عندما بلغت باب البيت قبل عشرين دقيقة، عندما أرادت إخفاء كرَبها وضيقها.

بعد قضائها فترة الصباح مع سحر، صارت فاطمة غير قادرة على العودة إلى البيت وحدها لشدّة خوفها من ذلك البيت الذي أصابته، أو لم تصبه، عين شريرة. كانت متألّمة أيضًا بسبب ما حدث في الحديقة عندما رأت زوجها في قن الدجاج، وعندما رأت يديه الملوّثتين بالتراب، وكانت سحر تنظر من خلفها. الحسد والعين الشريرة يسيران معًا؛ لكن فاطمة كانت تشتهي الحسد ويخيفها غيابه. فمن عساه يشعر بالحسد تجاه صورة زواجها التي رأتها سحر؟ ذهبت سحر إلى جنين، وأتت فاطمة تلتمس الملجأ في بيت أهلها.

كثيرًا ما تأتي إليهم عندما تشعر بالقلق، مع أن هذا البيت لم يكن أبدًا الملجأ الذي يلزمها. كان أمرًا غير منطقي، بالطبع، توقُّعُ أن يبقى هذا المكان على حاله بعد زواجها، أو أن يعود إلى طبيعته القديمة؛ لكنها أملت دائمًا (خلافًا لما أنبأتها به زيارتها السابقة) في أن تعبر عتبة الباب فتجد جو البيت وسلوك ساكنيه وألوان زيناته تمامًا مثلما ألفته عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. كان بها حنين إلى المكان الذي اعتادت أن تأمن فيه على وضعها؛ وإلى المكان (هذا أكثر أهمية) الذي لم تكن مسؤولة عن خدمته. كانت فاطمة، إلى أن تزوجت، كأنها جائزة لم يفز بها أحد بعد. وكان معنى الزواج أن هناك من حدّد ثمنها. لم يكن مهمًّا أنها اختارت زوجها بنفسها: ففي عيون نابلس، جرى النظر إليها وتقييمها، وجُرِّدت من غموضها الثمين، من كونها صغيرة السن غير محدّدة المعالم بعد. كانت هذه هي الحقيقة التي أُرغمت على العيش في ظلها. نسيت كم كانت بنتًا تكره أن تكون في تلك الحالة غير الواضحة، وصارت تنظر إلى شبابها وترى -بعينين تظنّهما صافيتي الرؤية- أن ترقُّبَ المجد كان، في حد ذاته، هو المجد الحقيقي، وكان ينبغي صونه.

في لحظات الكرب هذه، كان للتغيير في بيت أهل فاطمة أثر شديد عليها؛ إلا أن احتياجات قلبها كانت تطغى دائمًا على أية خيبات في ذاكرتها فتغيب الحقائق عن ذهنها. آه، إنها تتذكّر الآن: أمها النّكدة حيث كانت حنونًا، وأبوها المتصلّب حيث كان مرنًا. إنه يؤكد اليوم على رأيه في القَسّام من خلال المعالم القديمة نفسها لرؤيته

المتصلّبة إلى العالم متجاهلًا تلك الحقائق التي صار الكل يعرفها، حتى فاطمة. بعد سنوات التعلّم كلّها، والسعي إلى وضوح الرؤية، تجمّد نمر في منتصف الطريق إلى القمة، وصارت أفكاره منقوشة على الحجر عند نقطة من مسار تطوّرها فراح يطبّقها الآن على كل شيء من غير تمييز.

عطست أمها عندما دخلتا المطبخ البارد.

«طلبتِ أن نتكلم على انفراد».

«صحيح».

«ما الأمر؟».

«أنا قلقة، فحسب. وأنا متعبة».

«ماذا حدث؟».

أمسكت وداد بطبق كان مسنودًا إلى خزانة المطبخ، ومسّت بظفر إصبعها شقًا دقيقًا على حافته.

«شب حريق في متجر زوجي».

فوجئت أمها: «مش معقول. هل هو حريق كبير؟».

«يقول إنه صغير».

«هل تظنين أن أحدًا أشعل النار هناك؟».

قالت فاطمة كأنها تدافع عن نفسها: «لست أدري»؛ دارت من حول الطاولة... «أنا متوتّرة، هذا كل شيء».

«لا تتوتّري. خير، إن شاء الله».

«نعم، نعم».

وضعت وداد الطبق: «ماذا قال زوجك؟».

قالت فاطمة: «يقول إنها ليست مشكلة كبيرة». لا تحب الحديث مع أمها عن مدحت. ففي العلاقة بينهما، كان مدحت تعبيرًا عن إرادتها الحرة... «لست أدري، ماما. أحس... لا أعرف بماذا؟».

«إذًا، كيف حال أطفالك؟».

«بخير، بخير».

«أنت لا تحضرينهم إلى بيتنا».

«ماذا تعنين بهذا؟ لقد أحضرتهم الليلة الماضية».

«لكنك لا تأتين بهم معك عندما تزورينا. تأتين وحدك دائمًا».

«نعم... أحتاج إلى الراحة أحيانًا. ولا أفهم لماذا...».

«أتظنين أن هناك راحة في حياتي؟».

«لماذا، يا ماما... لماذا أنتِ... لماذا تنفعلين سريعًا؟».

«عفوًا، ماما...». أتاهما صوت الخادمة سلمى خفيضًا. كانت واقفة عند الباب المفضي إلى غرفة الطعام... «هناك شخص في الخارج».

أضافت سلمى عندما مدّت وداد يدها إلى مقبض الباب المؤدّي إلى الصالة: «لا، آسفة يا ماما. إنه هناك». أشارت إلى الخلف، إلى النافذة المطلّة على حديقة المطبخ.

تبعتها وداد حتى عتبة الباب، ثم تراجعت فجأة.

سألتها فاطمة: «من هو؟».

«لا أعرف».

تقدّمت فاطمة حيث كانت أمها فرأت ساقين طويلتين لرجل يسير جيئة وذهابًا على امتداد حوض الزهور. توقّفت الساقان وانحنى الرجل حتى ينظر عبر النافذة.

قالت فاطمة: «هذا جميل. إنه ابن عم مدحت».

قفز جميل من الحوض المرتفع إلى الأرض، ولوّح لسلمى بيده من غير أن يبتسم. كان له ذلك المظهر الضامر والخدان الغائران، مثلما يكون مظهر الراديكاليين الشباب، مع شالٍ ملفوف حول رقبته.

ظهرت وداد مرتدية معطفها، فتجاوزت فاطمة وفتحت النافذة. صاحت به: «لماذا لا تأتي من الباب؟».

قال جميل: «طرقت الباب ولم يجبني أحد. هل أستطيع أن أتكلم مع ابنتك؟».

قالت فاطمة: «ماذا حدث؟».

خاطب فاطمة من فوق كتف أمها: «آسف، يا مدام. هل أستطيع أن أكلمك لحظة؟».

«ألا تريد الدخول؟».

«وقعت حادثة لمدحت».

قالت فاطمة: «وقعت ماذا؟».

«حادثة. هل تفهمين هذا؟»

قالت وداد: «هل هو حي؟».

«أجل، أجل. إنه حيٌّ».

حاولت فاطمة ألّا تجري. زررت معطفها بأصابع مرتعشة وهي سائرة صوب جميل الذي كان قد ذهب إلى باب البيت ووقف على الشرفة منتظرًا وصولها.

قالت فاطمة: «أين هو؟».

أجابها جميل متكلمًا بسرعة كبيرة: «مهلًا، مهلًا. إنه في بيت أمي. وهو الآن بخير.

إنه نائم. لا نعرف ماذا جرى...». مد يده إلى البوابة المنخفضة ففتحت فاطمة قفلها... «أظنه أصاب رأسه. إنه ليس...».

«ليس ماذا؟».

«إنه ليس... صاحيًا... يعني. وهو، قليلًا...». مر بيده أمام وجهه.

«ماذا تعني بهذا؟».

«سترين بنفسك».

ومع انعطافهما عند الزاوية متخذين الطريق الجنوبي إلى جرزيم، أحسّت فاطمة برغبة في ضرب جميل.

«ألا تستطيع إخباري بما جرى؟».

«قلت لك إنني لا أعرف ما حدث. سترينه بنفسك بعد لحظات».

فتح جميل باب البيت. كان هاني وأم طاهر جالسَيْن في الصالون؛ وكانت أم طاهر تهزّ جسدها إلى الأمام والخلف وهي جالسة على كرسيها.

صاحت عندما رأت فاطمة: «إنه نائم. لا توقظيه!».

قالت فاطمة: «ماذا جرى له؟».

قفز هاني واقفًا. في ضوء النهار، بدا شعره رماديًا جدًا. لاحظت فاطمة كدمة على خده. قال لها بنبرة لطيفة: «لقد وجدناه في الأعلى. كان في حالة سيئة جدًّا عندما وجدناه».

سار معها في الممر. ثم توقّف أمام باب أم طاهر. أدارت فاطمة مقبض الباب. قال هاني: «سوف أنتظرك هنا». أومأت فاطمة برأسها.

كان السرير تحت النافذة عند الجدار البعيد. رأت صدر مدحت يعلو ويهبط تحت الأغطية... تنفسه عميق منتظم. لم يكن ظاهرًا منه غير قمة رأسه الأسود اللامعة عند رأس السرير. اقتربت منه. كان نائمًا على جنبه، وجهه في اتجاه النافذة، فلم تستطع رؤية شيء غير طرف حاجبه وتقوّس فتحة أنفه وشفتيه المنفرجتين المنضغطتين على الوسادة. صرّ الفراش تحت ثقلها. مسّت شعره المنسدل على جانب وجهه، وأزاحته فكشفت عن عينه المغمضة.

همست له: «ماذا حدث؟». وضعت كفّها على رأسه الدافئ: ارتعشت جفونه، لكنه لم يأتِ بأية حركة غير ذلك. مرت بإصبعها على حدود شعره متفحّصة رأسه برفق كأن من الممكن أن تجد فيه جرحًا.

بعد خروجها من الغرفة، التفت كل من في الصالون إليها. كان الرجال واقفين، والنساء جالسات. استعادت رباطة جأشها وتوجّهت بالكلام إلى هاني: «كيف آذى نفسه؟».

تبادل هاني نظرة سريعة مع جميل: «سنرى كيف تكون حاله في الصباح».

قال جميل: «قد تكون الصدمة جزءًا من هذا الأمر. الحريق، وتلك الأشياء. سمعنا صوته في الأعلى. كان غاضبًا جدًا».

قالت فاطمة: «ما الذي عثر عليه؟». كانت تفكّر في أنه وجد السحر.

تقلّصت تقاطيع وجه هاني بفعل المفاجأة. ظل لحظة لم يقل فيها شيئًا. كانت عيناه كأنهما تشاوران عيني جميل: «سوف آخذها إلى الأعلى».

جرح الضياء في الأعلى عيني فاطمة. كانت السماء زرقاء شاحبة، والريح مستمرّة مما جعل الأوراق الباقية على الأشجار تهتز من غير انقطاع. دارا من حول البيت في الطابق العلوي. فتح وصفي الباب لهما.

«مرحبًا، فاطمة. كيف حاله؟».

أجابه هاني: «إنه نائم. أريد أن أريها العلبة».

قال وصفي: «تفضّلا». ثم سار في الممر أمامهما.

نادرًا ما تأتي فاطمة إلى هذا البيت. يدخلان بيت أم جميل عندما يأتيان لزيارة عائلة مدحت. وإذا كان وصفي في البيت، فإنه ينزل إلى الأسفل وينضم إليهم. الآن بعد أن صارت عارفة بقصّة نظرِ مدحت إليها عبر ثقب المفتاح في الصالون، صارت لهذا البيت هالة خاصّة عندها، هالة مرتبطة بتلك الحادثة جعلتها شديدة التأثر بتصميم البيت الذي يشبه المتاهة، وبذلك الانطباع الذي يقول لها إن كل باب مغلق هنا يمكن أن يكون فتحة للنظر منها. تقدّمهما وصفي إلى غرفة مكتب الحاج طاهر، ثم ظل في الخارج عند دخولهما. مد هاني يده إلى شيء على الطاولة. كان ذلك الشيء صندوق سيجار.

«وجدته ينظر إلى هذه الأشياء». بسط أصابعه النحيلة على العلبة وفتح غطاءها برؤوس أصابعه.

كانت في الداخل عدة أشياء. هزت فاطمة الصندوق قليلًا عندما مدت أصابعها بين محتوياته. تمثالان برونزيان صغيران لامرأتين. خاتم. قطعة قماش ليس فيها شيء. ومغلّف. فتحت المغلف فوجدت فيه صورة بيت مطبوعة على لوحة معدنية.

«ما هذه الأشياء؟».

قال هاني: «لا فكرة عندي».

«هل كان في العلبة شيء آخر؟».

«لا شيء».

«هاني، هل ضربك مدحت؟».

رفع هاني يده إلى الكدمة التي في وجهه بحركة تشبه حركة امرأة تذكّرت شيئًا: «أجل، لا أظنه تعمّد ذلك».

إحساس شديد بالخجل جعل فاطمة تغمض عينيها. رأت على باطن أجفانها المغلقة -كما يتذكّر المرء بوضوح مشهدًا حقيقيًا- صورة زوجها المسكين يلوح ويضرب بيديه مُضيّعًا لطفه وكياسته.

غادر الأب أنطوان بيت الحاج نمر حماد بعد وقت قصير من خروج فاطمة. كانت الطائرة مستمرّة في تجوالها فوق الجبال: لم يعثر الإنكليز بعد على العُصاة. سيقتلونهم عندما يجدونهم، بالتأكيد... ولو كان ذلك لمجرد جعلهم عبرة للآخرين.

تنهّد وتابع سيره. كان يأمل أن تكون هذه الزيارة إلى الحاج نمر نقطة النهاية في مشروعه: وضع نسخة مطبوعة من دراسته عن نابلس بين يدي شخص نابلسي سيقرأها، أو يمكن أن يقرأها، على الأقل. خلال سنوات بحثه، كان الحاج نمر واحدًا من الأعيان القلائل الذين أمدّوه بالمعلومات. فباعتباره واحدًا من مؤسسي المستشفى، كان الرجل على علاقة طيبة مع الراهبات؛ وخلافًا للآخرين، كان على أتم الاستعداد للإجابة عن أسئلة أصدقائهن المتعلّقة بالمدينة وعائلاتها. صحيح أن الحاج نمر تقبّل الكتاب شاكرًا، لكن أنطوان استطاع ملاحظة عدم اهتمامه. إنه الأسلوب النابلسي، بالطبع... ألا يكون المرء مباشرًا. ومنذ بدء مطاردة القسّام يوم أمس، صار لدى أهل المدينة ما يشغل أذهانهم عن أي أمر آخر، على الرغم من أن هذا لم يساعد الأب أنطوان في أن يبعد عن نفسه أساها من أن أحدًا لم يبد اهتمامه بكتابه.

مع انحداره نازلًا الشارع المؤدي إلى محطة الباصات، غطست الطائرة خلف البيوت. كان صوت هديرها مرتفعًا، مختلطًا بأصوات جسد أنطوان نفسه، بصوت أنفاسه في حلقه وخروجها عبر فتحتي أنفه، وبرنين عقبَيْ حذائه على حجارة الطريق. صار على قمة التل فظهرت له الطائرة من جديد: شذرة بيضاء صغيرة، زواياها رمادية كأنها ظلّ، محلّقة خلف مأذنة المسجد.

تذكّر منطاد غراف زيبلن الذي بدا أكثر غرابة عندما طار فوق القدس قبل بضع سنين. خرج كل من في المدرسة الإنجيلية لمشاهدة المنطاد عندما ظهر ذلك الجسم العملاق عند حافة السماء قبل عاصفة مطرية. أسبغت حالة الطقس على الحادثة كلها مظهرًا عجائبيًا: أشعة الشمس منسكبة عبر الغيوم المرعدة، وتلك المركبة الطائرة الفضية تبرز من الضباب وتحوم أربع مرات فوق المدينة القديمة... أنبوب منتفخ ضخم ينزلق فوق القباب والمآذن. قال أحد الإخوة في المدرسة إن القدس بدت أشبه بمدينة غارقة في البحر، وبدا المنطاد مثل غواصة آتية لاستطلاع أطلالها. على ارتفاع مئة متر فوق كنيسة القبر المقدّس. أوقف المنطاد محركاته ونشر علمًا ألمانيًا، فانفجر التصفيق والصياح في أنحاء جبل الزيتون كلها. ما أكثر ما تغير من أمور خلال أربع سنين! الآن، ما عاد

هناك احتمال لأن يسمح البريطانيون لمنطاد ألماني بأن يطير فوق القدس وعليه تلك الصلبان ذات النهايات السوداء مرسومة على زعانفه.

بلغ الباص القدس وقت الغسق. كان مركز الشرطة هادئًا عندما وصل أنطوان.

وضع الحارس صحيفته من يده: «مساء الخير، أيها الأب. أنت آتٍ في وقت متأخر».

طبقة من غبار على مصباح مكتب الاستقبال.

«أود أن أسلّم تقريري».

«مايكلز في المكتب الخلفي».

كانت أنفاس أنطوان ثقيلة في الممر. الآن، بعد اكتمال عمله العلمي عن نابلس، صار على عمله مُخبرًا أن ينتهي أيضًا. كان في السابعة والستين، ويفكّر في أن يتقاعد في نابلس. ماتت الأخت لويز بالتيفوئيد منذ ثلاث سنين. وكان أنطوان الشخص الوحيد الذي قاتل من أجل دفنها هنا. قال للأخت ماريان إن نابلس موطنها: من الواجب دفنها هنا، في المقبرة الكاثوليكية عند سفح جبل عيبال. لكن الأخوات تلقين أوامر من عائلة الأخت لويز، ولن يخالفن تلك الأوامر. نُقل جثمانها إلى فرنسا؛ وكانت التكلفة كبيرة. منذ ذلك الوقت، صارت ماريان صلة الوصل الأولى بين أنطوان والأخوات، مثلما كانت لويز. إلا أنها لم تكن قادرة أبدًا على منحه الرفقة وراحة النفس اللتين كان يجدهما عند لويز. يتذكّر أنطوان لويز فيدرك أنها كانت الشخص الوحيد الذي ألِفَه حقًّا. صحيح أنه خسر معركته من أجل دفنها، لكن بقاءه في نابلس هذه الأيام، مع الأخوات، كان في نظره مثل زيارة قبرها ووضع الزهور عليه.

كان أمرًا طبيعيًا أن يتوقّع الأب لافينيو بقاء أنطوان في الدير في القدس بعد اعتزاله الرهبنة. لكن صحة لافينيو كانت في تدهور سريع. وبعد أن صار أنطوان من غير لويز، ما عاد واثقًا من قدرته على احتمال رؤية أستاذه وهو يشيخ ثم يموت.

رفع مايكلز رأسه ونظر إليه عند دخوله. بدت نظارته صغيرة جدًا على وجهه. ألقى ضوء المصباح دائرة صفراء ساطعة على مكتبه.

«مساء الخير، أيها الأب. أنت آتٍ في وقت متأخر».

«مساء الخير، أيها المفتش. لقد جلبت تقريري».

«ضعه هناك، من فضلك».

«أود أن أضيف شيئا، شيئًا له علاقة بالشيخ القسّام».

وضع مايكلز قلمه على الطاولة.

«كنت اليوم في زيارة لعائلة من أعيان نابلس. وكانوا يتحدّثون عن الشيخ وعن مطاردته مع رجاله. ذكروا أن هناك نساء تنقلن أسلحة عبر الجبال».

«هل هذا وارد في تقريرك؟».

«لا. لم أسمع به إلا بعد ظهر هذا اليوم».

«فهمت...». بدا عليه الغرق في تفكير عميق... «هل لديك المزيد في شأن تهريب الأسلحة؟».

«هناك المزيد في تقريري. قال أحد المصادر -مريضة في المستشفى- إنهم يأتون بالأسلحة عبر نهر الأردن. يأتون بها من عشائر البدو. ينبغي أن أحصل على مزيد من المعلومات».

«حاول الحصول على بعض التواريخ، والأوقات. سوف أنبّه بقية عملائنا إلى هذا الأمر».

لم يخبر أنطوان الأخت لويز بموافقته على التعاون مع البريطانيين. كان هذا على الرغم من حقيقة أن تلميحها نفسه إلى أن عليه فعل ذلك هو ما أقنعه بفعله. لقد قالت له: «خذها مني. الأمر لا يستحق». على أن ذلك التلميح نفسه كان العامل الذي جعله يبدأ ابتعاده عن اعتبارها موضع ثقته. لقد أثارت كلماتها في نفسه إحساسًا بالعار، إحساسًا لم يلبث بعد ذلك أن صار شيئًا يصعب احتماله. في تلك الثواني القليلة، كشفت لويز عن اختلال التوازن الكبير في تلك العلاقة الخاصة بينهما: كم كان كثيرًا ما يبوح به لها؛ وكم كان قليلًا ما تبوح به.

كان مايكلز قد حل محل هودجز، فبدأ التعاون بينهما من خلال طلب معلومات أساسية عن نابلس: سكانها، ونشاطاتها الاقتصادية، وأهم الشخصيات فيها. ومع احتدام الأوضاع، صار أنطوان يقدّم معلومات أكثر تحديدًا. إلا أن البريطانيين بدوا له، بشكل عام، أكثر اهتمامًا بالنشاط الشيوعي بين اليهود، ولم يكونوا مهتمين كثيرًا بالحصول على معلومات استخباراتية عن العرب. فعلى سبيل المثال، لم يُثر قلقهم أول الأمر تقرير من أنطوان تحدّث عن شحنات أسلحة تأتي من شرق الأردن. كانت تلك معلومات خلُص إليها من أحاديث سمعها في المستشفى. قال له مايكلز: «فقط، ابقِ عينيك مفتوحتين».

أجابه أنطوان: «أنت تعني أن أبقي أذنيَّ مفتوحتين!».

*لا تتورّط، فالأمر لا يستحق ذلك.* لا يزال أنطوان يعود إلى تلك الكلمات فيسمعها بصوتها من جديد، كلمات نصف مهموسة كأنها نوع من الاستدراك. كثيرًا ما كان يتساءل عن طبيعة الدور الذي تقوم به، وإن كان دورًا لصالح البريطانيين أو لصالح الفرنسيين؛ وكذلك عما كان يضنيها إلى حد جعلها تنصحه بالابتعاد عن هذه الأمور. الحقيقة أن أنطوان لم يجد في عمله مع البريطانيين عبئًا في حد ذاته على الرغم من

اعتباره البريطانيين مفتقرين إلى شيء من الكفاءة. بل إن ذلك العمل كان تخففًا من بعض العبء الواقع عليه، عبء مراقبة نابلس ورؤية تفاقم الاضطراب، واقترابه من لحظة انفجار عنف منفلت. كان تقديم المعلومات صمام أمان أخلاقيًا بالنسبة إليه: إنه يساهم في إبعاد الخطر. ففي الشهر الماضي مثلًا، أبلغهم أنطوان عن حديث جرى بين أربع سيدات مسلمات من أكابر نابلس. وفي مجرى ذلك الحديث، أشارت امرأة منهن إلى أن هناك خطة سرّية يجري إعدادها. لقد كان مصدر راحة لنفسه احتمال أنه يمكن أن يكون قد لعب دورًا، ولو صغيرًا، في رسم طريق تلك الطائرة المحلّقة فوق الأشجار.

انقضت خمس عشرة سنة منذ أن بدأ دراسته عن نابلس. الكتابة الأخيرة -التأليف الأخير لملاحظات جمعها على امتداد عشر سنين وترتيبها في فصول وجداول مرجعية- جعلته يعيش نشوة حقيقية أو هناء خاصًا زاد انقضاؤه من ألقه وجعل عودته إلى ذاته سقوطًا. وعلى الرغم من تهنئة لافينيو، فقد خلت الدراسة من تطرّق ملموس إلى الإيمان المسيحي؛ إلا أن تحليل أنطوان كان دقيقًا شاملًا. كان معتزًا خاصة بوضوح عرضه كيف أن جبلي المدينة قد حفظاها مثلما حفظت الصحراء أهلها البدو. ثم إن بحثه في اضطهاد النساء كان أصيلًا جدًا؛ وذلك بالنظر خاصةً إلى العقبات الكثيرة التي تعترض الاتصال المباشر مع نساء نابلس. بطبيعة الحال، كان المستشفى وصِفة أنطوان الكنسية سلاحَيْه السرّيين. يحظى رجل الدين، مسيحيًا كان أو غير مسيحي، بثقة كل من في هذا المكان. والواقع أن أكثر معلوماته التي قدّمها إلى مايكلز كان مستمَدًا من المصادر نفسها.

إلا أن أحدًا في المدرسة اللاهوتية لم يُبدِ اهتمامًا بنشر الكتاب. عاد أنطوان من فرنسا حاملًا نسخًا مطبوعة، وقدّم عرضًا مكثّفًا لدراسته في الجمعية الشرقية الفلسطينية ضمن حلقة عُرضت فيها دراسات أخرى عن النباتات وعن الجليل، وكذلك عن الخصائص النحوية لأشكال الأفعال القديمة المختلفة. تقلّص عدد من يحضرون هذه اللقاءات، وانقضى عهد الملاحظة والدراسة الذي دشّنه لافينيو منذ زمن بعيد. فماذا كان ذلك العهد؟ هل كان نوعًا من الإحساس بهدف مشترك؟ أم إنه بدأ يخطئ التذكّر؟ جرت مناقشة مهذّبة في استراحة الشاي بعد إلقاء الكلمات. ابتسم له لافينيو وقبّل خدّه. لقد صار أكبر كثيرًا من أن يستطيع خوض أية مناقشة جدية، لكنه خرج من صومعته لكي يسمع كلمة تلميذه القديم. كان هذا كل شيء.

صار عليه الآن أن ينظر إلى الأعلى. لقد رحلت لويز. كانت السماء موضع الشرف لها. وكانت رغبته أن يبقى خارج المجتمع في فلسطين، فاختار البقاء. كل دليل اتّبعه -هذا ما سيكتشفه- قد قاده... أين؟ إلى نشر كتاب لن يقرأه، في أحسن الاحتمالات، إلا عدد قليل جدًا من الناس. مع هذا، وبعون الرب، كم صارت سنوات البحث تبدو له

سعيدة عند النظر إليها من هذه المسافة! لقد رسمت تلك المدينة المسلمة خطًا واضحًا تخلل حياته كلها. صار الآن مستنفَدًا، وعليه أن يتقاعد، لكن أفق إنهاء معلوماته وقطع دربه الأخير عبر فلسطين ألقى غمامة قاتمة على كل شيء كانت له مساهمة فيه، وصار مشتاقًا إلى آخر ما لديه من أوهام عن الواجب وكأنها عودة إلى النعيم.

كانت الطاولات في صالة الطعام في الدير مزيّنة بالشموع. ومع وجبة مكوَّنة من اللحم المطهو والأرزّ، كان راهبان، فرانسيسكاني ودومينيكاني، يناقشان وحدة الكنيسة أمام جمهور من الطلبة يتابع المناقشة بأعين متسعة. سقطت على لحية الأب لافينيو نقاط بنيّة من مرق اللحم، وكان محدّقًا في البعيد بعينين زجاجيتين. وبعد العشاء، تخلّف أنطوان عن حضور القداس وسار إلى مبنى المهاجع مجرجرًا قدميه. لاقاه مراسل في الظلال.

قالت الرسالة: مات القسّام. من فضلك، عد إلى نابلس. ج. م.

انطلق في ساعة مبكرة في صباح اليوم التالي. ووصل الباص إلى نابلس بعيد الحادية العشرة. نزل أنطوان من الباص ومر بمصنع عطوان للصابون فلاحظ أن لوحاته الإعلانية قد رُفعت، وأن واجهة المتجر كانت مقفلة. كان مكتب البريد مقفلًا أيضًا. اجتاز الجسر المتداعي فوق خط القطار، ثم لم تمض إلا دقيقة واحدة حتى صار بين أبنية نظيفة معتنى بها، وأحواض زهور متأخّرة لم تذبل بعد، وأشجار فاكهة في الحي الغربي. كان هذا حيًّا راقيًا لم يتأثر بالهزة الأرضية إلا قليلًا. أنوار مشعّة في نوافذ مقر إقامة الأخوات: كان لدى أنطوان إحساس بالعودة. القدس غريبة، وفرنسا أكثر غرابة منها. نابلس هي موطنه.

مد يده إلى البوابة فسمع موجات من أصوات آتية من الداخل. انفتح الباب مع أول نقرة عليه. أدخلته الأخت ماريان. طارت أختان كأنهما حمامتان. صعدتا السلم فاهتزت الأيقونات المعلّقة على الجدار.

«ماذا يجري هنا؟».

ثبتت أصابع ماريان خمارها عند صدغيها وقالت: «أوه ـ الأب أنطوان». كانت عند قدميها سلّة مغطاة ببطانية.

«أخت ماريان، إنني في حاجة إلى...». قالت هذا أخت أصغر سنًا، لها نظارتان وتقاطيع حادّة بارزة... «أوه، يا إلهي». كانت بين ذراعيها حمالة رصاص قماشية.

اتجهت عينا أنطوان إليها. حدّق فيها.

قالت الأخت ماريان: «سوف أفسِّر هذا، أيها الأب. لكن... عليك أن تكتم الأمر عندما يصل الجنود، وإلا فسوف نكون في خطر».

«نعم، بالطبع».

قالت مشيرة إليه بالدخول إلى قاعة الطعام: «سنكون كلنا في غاية الهدوء عندما يأتون».

جلس أنطوان إلى طاولة الطعام. وجلست الأخت ماريان إلى جانبه وراحت تصلّي ضامة يديها. نظر إلى شفتيها المتمتمتين. انتابته لحظة ذعر عندما أدرك أنه ارتكب غلطة.

قرعٌ عنيف على الباب في الصباح. مثلما توقّعت الأخت ماريان، وقف سبعة جنود عند حافّة الشرفة.

«نريد أن نطرح بضعة أسئلة».

كانت الراهبات هادئات جدًا. وفوق هذا، فوجئ أنطوان بمدى ما لاحظه في سلوك الجنود من تراخٍ واضطرابٍ. كانوا ممسكين بقبعاتهم إلى جانب بنادقهم. تخيل أنه سمع في مطالبتهم بالمعلومات توقًا كامنًا إلى راحة أكثر اتساعًا؛ إنها تلك الراحة التي يلتمسها الرجال عادة من الراهبات وطيّات أثوابهنّ. تعرّف في ذلك التوق، بالطبع، على صورة نفسه في شبابه. آلمه التفكير في الأخت لويز فانسحب حاملًا عذابه وابتعد عن الأنظار. جلس في زاوية بعيدة من زوايا صالة الطعام.

إنها الصالة نفسها. الطاولة نفسها التي بدأ الجنود يجرّون الكراسي للجلوس من حولها... الطاولة التي اعترف عندها أنطوان للويز بأنه واقع تحت إغراء تقديم المعلومات إلى البريطانيين. لم يكن يعرف لماذا لم يخطر في ذهنه، وقتها أو بعد ذلك، أن من الممكن أن تكون لويز قد اتّخذت الموقف المعاكس. ولكن، لماذا لم تقل له ذلك أبدًا؟ لعلها أدركت قراره فآثرت أن تحفظ سرها -أحنى رأسه- نعم، بدا له هذا الأمر محتملًا. في نهاية المطاف، لا يستطيع المرء أن يلومها على ذلك.

اتخذ وجه الأخت ماريان هيئة متعاطفة. كانت لا تقل قدرة عما كانته الأخت لويز؛ بل كانت ممثّلة أكثر براعة منها. كرّرت بعض العبارات المبتذلة عن طبيعة العرب وهي تسكب القهوة في سبعة فناجين صغيرة.

عندما انصرف الجنود آخر الأمر، صعد أنطوان السلم من غير أية كلمة. كان ظاهرًا من نافذة غرفته راعٍ يقود قطيعًا متكاسلًا في الوادي. ومن خلف باب غرفته المغلق، كانت الأخوات تتهامسن في الصالة. تساءل في نفسه إن كان قد أخطأ في نظرته إليهنّ، وإن كانت المصالح الفرنسية هي الدافع وراء مسلك أخويتهنّ في آخر المطاف... النيّة في زعزعة الحكم البريطاني. لم يبدُ له هذا أمرًا يستطيع تصديقه.

ضغط على فمه بأصابعه وواجه الفكرة التي كان يتفاداها دائمًا. في جذر الأمر، لا بد من وجود تحالف أكثر عمقًا بين الأخوات والعرب. كانت لويز ترى فيهم شيئًا لم

يستطع رؤيته. تصبّب عرقًا باردًا، وتعلّقت عيناه بصورة العذراء فوق النافذة متلفّعة بأشعة مرسومة من نور أصفر. كان يتساءل: لو عرف الحقيقة قبل هذا، فهل سيكون إحساسه تجاه نابلس مختلفًا؟ كم كان هذا كله غريبًا! أحسّ بما يشبه وخز الإبر في وجهه فغطاه بيديه. هل يمكن أن يكون رأيه في شعب كامل قابلًا للتغيير هكذا؟ هل يمكن أن يكون خاضعًا هكذا لآراء أقرانه؟ لا، ليس لآراء أقرانه... لويز!

أقيمت جنازة القسّام في اليوم التالي في مسجد عند ميناء حيفا. قرأ أنطوان والأخوات عن آلاف الأشخاص الذين تدفّقوا إلى حيفا آتين من أنحاء البلاد كلّها مما تسبب بتأخر الجنازة ساعة كاملة.

قالت الأخت سيلين بصوت مزقزق مع زقزقة كرسيها الهزاز: «هذه علامة على ما سوف يأتي».

كانت صحف باللغة الفرنسية موزّعة على طاولة الطعام. ما عادت الأخوات ممتنعات عن قول أي شيء بعد أن صار أنطوان محل ثقتهنّ. لقد استغرب نبوءة الأخت سيلين. علامة على ما سوف يأتي!

«كيف كان القسّام؟».

قالت الأخت ماريان: «القسّام؟ ذكيّ جدًّا. مخيف. ومن الواضح أنه كان صاحب جاذبية شعبية كبيرة».

قال لها: «تعرفين أن الجمعية الشرقية الفلسطينية كانت حمقاء بعض الشيء. كثيرًا ما سمعتهم يقولون إن العرب ليس لديهم رأي عام. يصوّرونهم على أنهم جماعة من الأغبياء الذين تحكمهم نخَبهم. والآن، انظري. لقد استطاعت الجموع الخاملة تنظيم نفسها بنفسها».

لكن تكشيرة الاستياء على وجهه كانت غير متّسقة مع إطاره العقلي. انتمع بوضوح محَيِّر إلى ذكريات كثيرة عن نفسه وهو يستشهد بأقوال تحمل شبهًا مؤلمًا بتلك الآراء التي يتظاهر الآن بازدرائها. هذه المدينة المسلمة «الضائعة في الجبال». تحرّكت شفتاه بالكلمات التي تذكّرها... «منقطعة عن الحركة الكبرى في العالم».

كانت الأخت سيلين محقّة. فقد صار واضحًا على امتداد ذلك الشتاء أن البريطانيين قد صنعوا من القسّام شهيدًا من غير أن يريدوا ذلك. والآن، صار رعاياهم الذين كانوا يتصورونهم أشبه بفلاحين توراتيين ومحتالين مشرقيين مصابين بعدوى الرغبة في أن تكون لهم أمّة... دبت فيهم الحياة على نحو خارق للطبيعة. وفي شهر كانون الثاني من سنة 1936، اجتمع سياسيون محلّيون في مصنع للصابون في نابلس، وناقشوا إعلان إضراب عام. واصلت عصابات مسلّحة تستلهم خطى القسّام تجوّلها في المناطق

الريفية. هجمات على مدنيين يهود تعقبها أعمال انتقامية ضد العرب. وفي نيسان، نظّم العرب لجانًا للإضراب في البلاد كلها، واتفقوا على قائمة بمطالبهم وأهدافهم ـ تمثيل متناسب، وإيقاف الهجرة اليهودية ـ ثم انتقلوا إلى رفض دفع الضرائب وإلى إضراب تجاري شمل البلاد كلها.

وفي التلال، ازداد العنف ضد الجنود والمستوطنين اليهود.

لم تكن لدى البريطانيين قوات كافية ولا معرفة وافية بالمنطقة. ومع تحول الشتاء إلى الربيع، تلقّى أنطوان برقيات كثيرة من مايكلز. «ننتظر تقريرك. ج. م.». «تقرير من أجل القيادة. ج. م.». «هل نرسل لك أحدًا؟ ج. م.». وعندما أتت البرقية الرابعة، أرسل أنطوان الرد التالي: «أعتذر، لكني مرضت مرضًا شديدًا في الآونة الأخيرة ولزمت الفراش. سوف أذهب إلى المستشفى عما قريب. المخلص أ. ك.».

على الأقل، لم تكن الجملة الأخيرة كاذبة. انطلق إلى المستشفى بعد ظهر ذلك اليوم. كان ذلك في شهر أيار. وفي الشوارع الصامتة، كانت خطوط التلغراف المقطوعة تتأرجح في النسيم. أكياس الرمل مكدّسة أمام مكتب البريد لحمايته من القنابل. وبقعة دم على الرصيف. وعند منعطف الشارع، سيارة عسكرية بريطانية مقلوبة على ظهرها، ونوافذها محطمة، ونهايتا حدوة الحصان على لوحة العدادات فيها تشيران إلى الأرض. منزل مدمّر جاثم بين أكوام من الأنقاض كأنه مستعد لأن ينتصب واقفًا في أية لحظة. ألقى التحية على الممرضات في ردهة المستشفى بإيماءة من رأسه واتخذ موقعه القديم في زاوية الشرفة. لم يعد كرسيه الهزاز موجودًا هناك. جلس على واحد من الكراسي العادية مواجهًا كرم الزيتون، وفكّر في لويز عندما مدّدوها على طاولة الطعام ملفوفة بكفنها. ظل أنطوان ينظر إليها زمنًا طويلًا. فكّر في يديها الموضوعتين واحدة فوق الأخرى على صدرها، في الجلد الذي كان يغطي عظام أصابعها كأنه نسيج رقيق أصفر.

تسرّبت أصوات رجال آتية من الصالة، أعلى ثم أعلى، إلى أن انفتح باب الشرفة وخرجت ممرضة لكي تثبتانه في مكانه. تدفّق إلى الشرفة أكثر من عشرة رجال. أذرع مضمَّدة، وسيقان مضمَّدة، وعكازات كثيرة، ورجل مصاب بجرح في رأسه، وآخر فقد يده. جلسوا يتحدّثون، صاخبين. حيّا واحد أو اثنان منهم أنطوان بهزة رأس. أجاب بإيماءة جادة. لم يستطع أن يتذكّر خروج هذا العدد الكبير من المرضى دفعة واحدة إلى الشرفة في أي وقت مضى. على مسافة كرسيين منه، كان رجل رمادي الشعر ذو عينين زرقاوين كاللهب يطقطق أصابعه. قال عن ألمه: «حادّ، ثم كلل متواصل». كان يتكلّم بلهجة مدينية راقية. لم يقل الرجل الجالس إلى جانبه شيئًا. كانت لذلك الرجل هيئة مقاتل مستعد على الرغم من الشاش الملفوف على رأسه وعلى ذراعه. بدا كأن من

الممكن أن يمد يده في أية لحظة فيمسك بالدرابزين الخشبي المتقشّر الذي يفصلهم عن البرية ويقذف بنفسه من فوقه كمن يقفز إلى صهوة حصان مندفع، ثم يختفي بين الأشجار. ومن بعده، جلس كهل ذو غطاء رأس أبيض له أنف منحوت نحتًا. كان يشرب القهوة. شغّل أحدهم جهاز لاسلكي. أصدر الجهاز طنينًا، ثم بدأ يتكلّم... «هجوم على الطريق الواصل بين نابلس وطولكرم قرابة الساعة السادسة مساء. وقد تم الإبلاغ عن وقوع إصابتين...». مضت ساعة فنقرت ممرضة على زجاج النافذة. عند تلك الإشارة، نهض أولئك المتشمّسون واقفين، متخلّين عن جلستهم المريحة، فوضعوا البطانيات على الكراسي، ثم ساروا صفًا واحدًا ودخلوا المبنى.

وفي الصباح التالي، وصل أنطوان إلى الشرفة فوجد فيها عددًا من المريضات. سار من خلف كراسيهن وجلس في الزاوية. لم يمضِ على جلوسه وقت طويل قبل أن يسري في الشرفة همس جعل صمتًا حيوانيًا يخيم على الجالسين جميعًا. ظهر في كرم الزيتون، أسفل الشرفة، جمع من الرجال العرب. كانت معهم أسلحة متنوّعة، بنادق طويلة، وسكاكين مطبخ، وبعض العصي مدبَّبة الرؤوس. وفي لحظة واحدة، جرى الرجال صاعدين المنحدر، ثم تفرّقوا سائرين على الصخور. جاء في أعقابهم جنود بريطانيون، لكن سياراتهم لم تستطع المرور بين الأشجار. وبعد ترجّلٍ أخرق، ساروا تحت الأغصان بأحذيتهم العسكرية الكبيرة متردّدين متلفّتين هنا وهناك لدراسة المكان واختيار المسار المناسب. اختفوا، ثم ظهروا من جديد، وتقدموا بين أغصان الزيتون الكثيفة. وعندما تمكّنوا أخيرًا من شق طريقهم إلى أعلى التل -هذا ما سمعه أنطوان في وقت لاحق- لم يجدوا هناك غير فلاحين يحرثون الأرض ويقومون بأعمالهم الزراعية المعتادة.

واصل أنطوان زيارة المستشفى في كل يوم يجد طقسه لطيفًا، فسمع هناك قصصًا كثيرة. من قاتل هنا، ومن قاتل هناك، ومن كان خائنًا، ومن قتل ذلك المستوطن اليهودي، ومن قتل ذلك الشرطي. كان عارف عبد الرزاق شخصية ذائعة الصيت. اشتهر بأنه يظهر في مكان من الأماكن، ثم يظهر بعد لحظة في مكان آخر على مسافة عشرة كيلومترات ويطلق النار على شخص هناك. وكانت الشائعات التي تتحدّث عن اليهود تتراوح بين ما هو قابل للتصديق وما هو بعيد عن العقل تمامًا: شائعات عن مذبحة، وعن خطط لاحتلال الحرم القدسي، أو عن أعمال شنيعة أخرى... شائعات يتشرّبها المقاتلون كمن يتشربون وقودًا. كانت حرارة القصص وحيويتها إكسيرًا للعنف. وكان أقوى المنشطات قصص كثيرة عن البريطانيين الذين هم مصدر كل شر وظلم تشهد عليهما الأجساد المجلودة والنازفة في المستشفى أبلغ شهادة.

لم يُظهِر أي من المرضى انزعاجًا خاصًا إزاء وجود أنطوان. كان هذا بفضل صلته مع «فتيات عيبال» اللواتي كن موضع احترام كبير في المستشفى، وكنَّ، بالطبع، يقدّمن المساعدة إلى العُصاة في الآونة الأخيرة... على الرغم من أن المرء كان يمكن أن يتساءل عما إذا كان هذا السلوك كله من قبيل «المعروف». كان ممكنًا أيضًا أن يكون الناس قد اعتبروا أنطوان شخصًا مأمون الجانب نسبيًا لأنه فرنسي، وليس بريطانيًا. بل يمكن أيضًا أن يكون قسم منهم قد ظنه واحدًا من نزلاء الجناح لن يلبث أن يعود إلى فراشه. أو لعلهم لم يجدوا سببًا للاعتراض على وجوده بينهم لأنهم يرونه عجوزًا مجنونًا. من الممكن أحيانًا أن يصل المرء إلى أشياء كثيرة جدًّا إذا كان عجوزًا مجنونًا!

لم يكن بين يديه دفتر، ولا قلم. ولم يسجل أية ملاحظات. كان مكتفيًا بالمراقبة ورؤية الفرضية التي قامت عليها دراسته تتفكّك وتتهاوى أمام عينيه. كانت فرضيته أن لنابلس، المعزولة عن العالم بين جبليها، شيئًا من خصائص الكهرمان: سائلٌ أول الأمر، ثم يتصلّب فيصير مادة حافظة ويقدم للعين الفضولية الناظرة صورة للأشياء في خلاصاتها الأولى. لكن، انظر الآن كيف يمكن للعادات أن تتفكّك سريعًا متخلّية عن شكلها النقيّ. وحتى هذه العادة، عادة الجلوس على الشرفة... أشخاص من الطبقات كلّها جالسين جنبًا إلى جنب، على الرغم من أن المرض يسوي بين الناس دائمًا، فقد كان من يقصدون المستشفى في ما مضى مقتصرين على المسيحيين وأبناء الطبقات الدنيا. ومع تقادم عيادات الأطباء المحلّيين في نابلس، ومع ثقة الناس المطلقة في الطب الحديث وتوسّع مرافق المستشفى وتحسّن طعامه وتوفّر القابلات المدرّبات فيه، وخاصة مع هذه العادة الجديدة، عادة الجلوس في الهواء الطلق، يمكن أن يكون مقبولًا أن يفسّر المرء التغيرات الحاصلة في المستشفى البلدي، باعتبارها صورة مصغرة عن تغيرات كبيرة في المدينة. وبالطبع، لم يكن هذا بالضرورة أمرًا غير معتاد: الحرب تغيّر عادات الناس؛ وقد صار الوضع يبدو أشبه بالحرب. وفوق هذا كله، يأتي الإضراب في حد ذاته، تأتي حقيقة أن العرب استطاعوا الإقدام على فعل جماعي واسع النطاق يستمر هذا الزمن الطويل كله، كان هذا أمرًا متميزًا بكل ما في الكلمة من معنى، أمرًا يتجاوز تمامًا قدرة أنطوان على الفهم.

بعد ظهر يوم من أيام أيار، كان أنطوان جالسًا ممسكًا بحافّة قبّعته حتى لا تطير مع ريح الربيع الشديدة. لكن حالة الطقس لم تكن رادعًا للمرضى الذين خرجوا للجلوس في الشمس كعادتهم. إلا أن أشعة الشمس لم تكن وافرة. نظر أنطوان إلى تدرّجات اللون الأبيض في السماء، وإلى تداخل اللونين الأصفر والأزرق عند حواف الغيوم.

«صباح الخير جميعًا».

خرج إلى الشرفة رجل ضخم يرتدي بدلة صوفية خفيفة من ثلاث قطع. كان يبتسم للمرضى واضعًا يديه خلف ظهره.

عبس وجهه وهو يقول مخاطبًا رجلًا عجوزًا عن الباب: «يا حاج، كيف حال رئتيك؟ هل هما أحسن؟».

أجابه العجوز: «أحسن، أحسن».

«الحمد لله».

استدار في اتجاهه المريض العاجز الجالس على الكرسي التالي، لم يستطع أنطوان سماع إجابة، لكنه رآه يهز رأسه متعاطفًا مع الرجل. كان واضحًا أن الطبيب ليس في خشية من التقاط عدوى مرض من الأمراض لأنه كان يضع يديه على ظهور الكراسي في مروره. التقط أنطوان شذرات من أحاديث بلهجات مختلفة. رجال وصبية من الفلاحين، وقرويون من خارج نابلس، ومرضى من الطبقة العليا كان يبدو عليهم أنهم على معرفة سابقة بهذا الطبيب، وذلك احتكامًا إلى طريقة كلامهم معه. سرى تعبير انزعاج في ملامح وجه رجل متوسّط العمر مصاب بعدوى في أذنه.

قال مقاتل مضمَّد: «ماذا؟ إنني أتألم طبعًا. أطلق النار عليَّ اثنان منهم، على مسافة قريبة. ليس أكثر من متر واحد. نعم، أشكرك». أومأ برأسه واستدار جانبًا، ثم أطلق أنينًا مبالغًا فيه عندما مسّ مرفقه.

قال صوت آخر: «يكون حادًّا بعض الأحيان. ويكون ضعيفًا في أحيان أخرى».

«يؤسفني سماع هذا».

«أعطوني قطع جليد، لكني أحسست الجليد حارًا جدًا فأقلقني هذا».

«لا تقلق. هذا أمر طبيعي».

جاء من بين الأشجار هدير منبئ بموجة ريح جديدة لم تلبث تلك الريح أن ساقت الأصوات في الاتجاه الآخر.

«Bonjour, Monsieur[1]».

كان صاحب البدلة ذات القطع الثلاث واقفًا إلى جانبه؛ وجهه داكن لأن الشمس خلفه. سأله زوج من اليديش إن كان الكرسي شاغرًا. بسط أنطوان كفه.

«Merci[2]».

---

(1) صباح الخير سيدي.
(2) شكرًا.

سأله أنطوان: «Vous parlez français?[1]».

نشق الرجل بأنفه: «Bien sûr. J'ai habité en France depuis longtemps Pendant la guerre[2]».

«Pendant la guerre-en battaille?[3]».

«Non, non. Pour les études[4]».

«De médécine?[5]».

«Oui. J'ai pris le serment d'Hypocrite[6]». راح يربت على جيوبه مفتشًا عن شيء ما. كانت على ربطة العنق البنية حول عنقه نقوش على شكل حلقات خضراء.

صحح أنطوان ما قاله الرجل: «D'Hippocrate[7]».

«Oui, le même[8]».

قال أنطوان وهو يضرب ركبته بكفه: «آه. عرفتك الآن. أنت صاحب متجر الملابس. متجر الكمال».

حلّت فترة صمت. أخرج مسيو كمال منديلًا طويلًا من جيب سترته الأمامي، ثم تمخّط فيه. أشاح أنطوان بوجهه ناظرًا إلى أشجار الزيتون كأنه ينظر إلى البحر. راح يصغي إلى الأشجار.

قال مدحت: «منطقة بروفانس. إنها جميلة جدًا».

قال أنطوان: «هذا صحيح. أما أنا، فأفضّل المكان هنا. يذكّرني هذا المشهد بمنظر منطقة بروفانس، لكنك تتكلّم الفرنسية جيدًا، يا دكتور».

أجابه مدحت بالعربية: «لست دكتورًا».

نظر أنطوان إليه نظرة سريعة. اختفى المرح؛ وصار وجهه ذو الوجنتين الممتلئتين والحاجبين الرشيقين أكثر حدّة. هبّت الريح منحدرة في الوادي وألقت بنفسها على

---

(1) هل تتكلم الفرنسية؟

(2) طبعًا. عشت في فرنسا منذ زمن بعيد. أثناء الحرب.

(3) أثناء الحرب! هل قاتلت هناك؟

(4) لا، لا، كنت أدرس.

(5) هل كنت تدرس الطب؟.

(6) أجل. لقد أديت قسم أبقراط.

(7) هو قسم أبقراط الشهير الذي يؤدّيه الأطباء قبل بدء ممارسة المهنة. أخطأ مدحت في نطق الاسم فصار معناه «المنافق». يدور الحوار بين الرجلين بالفرنسية.

(8) نعم هذا هو.

درابزين الشرفة. تطاير شعر مدحت إلى الخلف كاشفًا عن جبهته، فأغمض عينيه. بدا الجيبان اللحميان الرقيقان على وجنتيه كأنهما منضغطان على عظام وجهه، وارتسم فمه خطًا أفقيًا متجهّمًا. رفرفت شعرات شاربه الصغير رفرفة لا تكاد ترى في مجرى الهواء.

«في أي سرير تنام».

قال أنطوان: «أوه، أنا لست مريضًا». وأطلق ضحكة.

أجابه مدحت: «لا سرير لرجل الدين! إلى أين وصلنا؟».

وعندها، التفّت أصابع مدحت حول ذراع الكرسي بحركة شديدة البطء، ونهض واقفًا. تحرك سائرًا من خلف الآخرين، ثم توقّف قبل الباب. خرجت ممرضة مسرعة.

أمسكت بذراعه: «ها أنتَ هنا. لماذا ارتديت ملابسك هكذا؟ تعال، ارجع، يا عمو، ارجع».

هطل المطر في طريق العودة. قطرات المطر السريعة المرئية أحسّها أنطوان باردة على كفّيه ووجهه. وجد الأخت ماريان عند الكنيسة تحمل بيدها مظلّة. كانت تسوّي طية معطفها على صدرها. ابتسمت له عندما عرفته.

«هل أنت مسرورة كثيرًا، يا أخت ماريان؟».

رفعتْ المظلّة فوق رأسيهما معًا، وراحا يسيران.

«أمر غريب أن يتأثّر مزاج المرء بسلوك واحد من التلاميذ».

«هل كان عندك درس؟».

«يصعب كثيرًا توقعّ سلوك الأطفال. كانوا اليوم في غاية الحماسة».

«في أي عمر هم؟».

«بين السابعة والثامنة. إنهم يرسمون أزهارًا، معظم الأحيان... ما عاد... انظر إلى هذا الرسم. أليس رائعًا؟».

ناولته المظلّة وراحت تُخرِج رزمة أوراق مخبأة تحت معطفها. رفعت الورقة الأولى: رسم طفولي لـ«قلب العذراء الطاهر»... قلب أحمر صغير نابض بأشعة نور ذهبية كالنصال. وعلى الورقة التي تحتها، رأى قمة زهرة بنفسجية لها ساق أخضر.

«رسم ممتاز».

«إنها مسلمة...». شدت الأخت ماريان على شفتيها ومطّتْ حنكها كابتة ابتسامتها... «أعطوني هذه الرسوم هدية. سوف أعلقها في غرفة الطعام. كيف الوضع في المستشفى؟».

أومأ أنطوان برأسه محييًا سائق عربة يجرّها حصانان. كان يفكر في طريقة يصف بها نهاره لماريان.

قالت الأخت ماريان: «لدينا لحم خروف على العشاء».

«هذا ممتاز».

«تلقّت الأخت مارغريتا خروفًا هدية من فلّاح جُرح بالقرب من جنين».

«هل عالجت جرحه؟».

«أظنه فقد يدًا».

صارا عند الباب. أدارت الأخت ماريان المفتاح؛ ومع دخولهما الصالة الظليلة الباردة، سألتْه: «هل قررت ما ستكتب عنه في الفترة القادمة؟»

كان هذا، على الأقل، ما أطلق لسانه. اندفع قائلًا: «لا أظن أنني سأكتب شيئًا، يا أخت».

شعر بمغزى كلماته لحظة خروجها من فمه. لكن الأخت ماريان لم تكن الشخص المناسب لأن يقول لها هذا الكلام... من جديد، أخطأ قلبه فظنّها لويز. لكن ماريان لم يكن لديها ما يمكّنها من قراءة ما عناه أنطوان، أو من الاهتمام به. كان سؤالها نوعًا من المجاملة. فرَدَت ورقة مجعّدة اختلطت ألوانها بماء المطر.

قالت وهي تنحّي الورقة جانبًا وتلتقط غيرها: «علينا جميعًا أن نتقاعد في وقت من الأوقات. زارنا في الأسبوع الماضي مساعد مدير التعليم، مستر جيروم. كان شديد الإلحاح في إشارته إلى أن مناهجنا التعليمية لا يجوز أن تكون أدبية أكثر مما ينبغي. يقلقهم أن من الممكن أن نبث في رؤوس الفتيات أفكارًا».

«ما المقصود بهذه الكلمة، *أدبية*؟».

«يفضلون أن نعلمهم التطريز، وأن نكتفي بهذا، على ما أظن. والقواعد الصحّية أيضًا، فهم مهتمون بها. يسمي المفتش هذا الأمر *المحافظة على الوضع الراهن*، أي إبقاء البنات العربيات في البيت، أو المحافظة على التقاليد، كما يقول. المضحك هنا»، قالت هذا مبتسمة. لاحظتْ بقعة على مفرش الطاولة فانحنت فوقه لكي تزيلها بظفر يدها... «الأمر المضحك هو أن إرسال البنات إلى المدرسة صار عادة مألوفة عند الناس. لا يكاد يوجد لدينا كادر كافٍ للاستجابة. والظاهر أن كل أب في نابلس صار راغبًا في أن تتعلّم بناته التاريخ، فهل تعرف السبب؟ لكي يصير تزويجهن أكثر سهولة! يحب الرجال المسلمون النساء اللواتي تُجِدن الكلام...». تنهدت وهي تنصب قامتها... «أظن أن لديهم جميعًا هذا الهدف».

وضعت الرسوم على الخزانة المنخفضة، ثم رفعت المفرش كاشفة عُري الطاولة البني اللامع من تحته. كانت على الطاولة نفسها بقع تركنها مَن هُنَّ أقل تدقيقًا منها.

قالت وهي تفتح الخزانة لكي تأخذ منها مفرشًا آخر: «على أية حال، لم تفلح مراقبة كتب التاريخ في إيقافهم».

«منذ متى، يا أخت، هذه المساعدة؟».

«مساعدة العرب؟».

«أجل».

«هل تقصد المساعدة التي أقدّمها شخصيًا؟».

«بل أنتنّ جميعًا».

نظرت في عينيه: «منذ نهاية الحرب. تعرف، أيها الأب، أن من الممكن تعريف المساعدة بطريقة فضفاضة جدًا. وأما في ما يخصّ القسّام، في البداية، تمثّلت المساعدة في التزام الصمت، فقط. ثم، شيئًا بعد شيء، يدرك المرء أنه قد اتّخذ جانبًا في الصراع. من الممكن أن يكون معنى الامتناع عن تقديم المساعدة إلى أحد الجانبين مساعدة إلى الجانب الآخر».

قال أنطوان بنبرة باردة: «صحيح، بالطبع». لكن رغبته في المعرفة تغلّبت، بعد بضع ثوان، على رغبته في إثبات أنه يعرف هذا الكلام من قبل. قال لها: «والأخت لويز؟ ماذا كانت...».

«الأمر نفسه. هذا ما نفعله كلّنا، كلّنا. إذا كان هذا ما نفعله هنا، فلماذا نقف ضد السكان المحليين؟».

«حقًّا، لماذا؟ ومن أين... إن كنت أستطيع السؤال... من أين حصلتن على الأسلحة؟».

«أوه، أيها الأب... كانت تلك كمية بسيطة من الذخيرة». مدّت المفرش الجديد على الطاولة. رفرف القماش وانحدر متثاقلًا عند حافة الطاولة. مدت ذراعها لكي تسوّي غضون المفرش براحة يدها المبسوطة.

استدار لكي يذهب، وعند الباب، لم يستطع منع نفسه من أن يقول لها:

«أحب أن أعرف كم كان هذا كله محتومًا. القتال، و... الوضع كله...». ترقّبَ ردة فعلها... «شعب لديه حاجة يعتدي على حقوق شعب آخر».

تجهّم وجه الأخت ماريان، مثلما توقّع.

قال أنطوان: «لقد أنفقت المرحلة الأخيرة من حياتي...». فوجئ عندما آلمته هذه الكلمات... «في محاولة إنشاء صورة لهذه المدينة. فبحسب دراستي، لم يكن لدي شيء أفعله غير هذا. لكن، هل يكون على المرء دائمًا أن يسعى إلى التبسيط، وأن يجعل الصورة أكثر اتساقًا؟».

فتحت ماريان درج أدوات الطعام.

إنه يفقد اهتمامها؛ لكنه لم يستطع التوقّف: «يا أخت ماريان، إنني أراقبهم بالمعنى الحرفي للكلمة. لست أعرف السبب. ولست أعرف سبب وجودي هنا. لقد صارت نابلس حياتي كلّها. لا أستطيع تركها. لكن، ما من معنى لمراقبتهم، ما من معنى أستطيع إدراكه. لست أساعد أحدًا».

قالت الأخت ماريان وهي تحصي عدد شوكات الطعام: «هل أنت راغب في المساعدة؟ أنت لست مبشّرًا».

«لستُ مبشّرًا».

«أنت في خدمة المعرفة». قالت هذه الجملة ببساطة، وقعقعت الشوكات في يدها عندما وضعتها على الطاولة.

## - 5 -

صار جناح المستشفى أصغر حجمًا في ذهن مدحت. كلما فتح عينيه، يدهشه صغره قياسًا بعدد الأسرة بين الجدارين. الآخرون يتحرّكون جميعًا، وينامون، ويرفرفون بأعينهم، ويسعلون، ويصلّون، لكنه يغمض عينيه فتنسد أذناه، وتنسحب ستارة من حول سريره. يصير المكان دافئًا، هادئًا.

فتح مدحت عينيه في الجناح الضخم، وأدار رأسه لكي ينظر عبر النافذة التي خلفه: كرم زيتون. الأشجار واقفة فيه صفوفًا كأنها تجمّدت بعد أن تخفّفت من أثقالها. كانت الشجيرات الفتية نحيلة، زاهية اللون؛ وكانت العجائز منها ثخينة الجذوع، كثيرة العقد. مد يده وأمسك واحدة من وسطها. زمجر التراب عندما اقتلعها من الأرض، وثارت موجة من ضباب بنّي كثيف. مشكلة الأجسام أنها تترك شيئًا خلفها، حتى عندما تسقط. إلا أن هذه الشجرة ظلت واقفة مكانها مع أنها لا تزال في قبضة يده التي اجتثتها. أمسك بالشجرة التي ظلّت واقفة في الحقل من غير أن يصيبها سوء فصارت الآن رقاقة واهية ذابت في حرارة كفّه وتسرّبت عبر يده.

كان جني ثمار الزيتون قد اكتمل لتوّه، لكن الأشجار حملت -منذ الآن- ثمارًا جديدة خضراء كأنها أشياء قاسية صغيرة مختبئة بين أوراقها. كان واضحًا أن كل شيء ينمو دائمًا.

ساعدته الممرضة جمانة في الجلوس في فراشه. فكت بأصابعها الجافة أزرار قميصه، ثم أزاحته عن ظهره. سمع صوت انبثاق الماء من الإسفنجة عندما عصرتها فوق الإناء، فتنمّل جلده ترقّبًا. بدأ الدفء الرطب عند كتفيه، ثم دخل التجويفين الناعمين المشعرين تحت إبطيه. عادت الإسفنجة فانغمست في إناء جمانة. مرت بالإسفنجة على رسغيه حيث دغدغته حافّتها القاسية؛ ثم وصلت أخيرًا إلى كفّيه ـ هذا هو الجزء الذي جعله يضحك. شخص آخر يغسل له يديه؛ إحساس لم يحلم به أبدًا. وبعد ذلك الصدر، وطيات جذعه... تنضغط الإسفنجة في تلك الأخاديد لإزالة أوساخها. ثم الرقبة، الناحية التي تعبّر عن النظافة أكثر من أي ناحية أخرى؛ فعندما تكون رقبتك مدعوكة جيدًا، تشعر بالنظافة إلى حد قد يجعلك غير محتاج إلى الاستحمام. لماذا يكون الأمر هكذا؟ ربما لأن الرقبة قريبة من الدماغ. انحدرت الحرارة الواخزة على امتداد ظهره... بدأ الدفء يبرد في الهواء.

كانت هناك أوقات تئنّ فيها بقية الجناح وتسعل وتتكلّم وتصلّي فيدير رأسه لينظر عبر النافذة إلى كرم الزيتون في ضوء القمر. كانت جمانة تترك مصراع النافذة الخارجي مفتوحًا قليلًا، من أجله -ظنّ أنها تتركه من أجله خاصّة- فيغدو مدحت مقتنعًا بأن ذهنه لم يكن، في حياته كلها، أكثر صفاء مما هو الآن. لقد جاء إلى المستشفى منذ بعض الوقت؛ لكنه لا يعرف المدة على وجه التحديد. شهور؛ ممكن! لقد اكتشف في نفسه قدرة عظيمة على التفكير، قدرة صار يفترض أنها ظلّت عددًا كبيرًا من السنين هاجعة في داخله. من عساه يعرف لماذا تحدّث عن هذه الأمور؟ لعله كان يسير في نومه... مفرَغًا بفعل أيام تدور وتتفكّك، بفعل أسرته، وبفعل المتجر وأشياء صغيرة أخرى تمتص الزمن مثلما تمتص حبات الأرز الماء حين توضع فيه. لكنه الآن راقد في سرير المستشفى، ومن حوله سعال وثرثرة وبكاء وهذيان، إلا أنه متخفّف من شِباك تلك الوقائع اليومية، منغمس في تفكير يجعله يحسّ هدوءًا وسلامًا نسبيَّيْن. تظهر المشكلات عندما يتوقّف عقله، عندما يصير جسدًا؛ وهذا لأنه لا يستطيع القيام بالأمرين معًا. يبدأ لحمه بالانتفاخ عندما يتوقّف عن التفكير. ولا يعود هناك ما يمكن فعله: جسده شيء ورديٌّ ضخم... ينظر إلى يديه مذعورًا. فكر؛ فكر؛ هذا بلسم -لكنه لا يحقّق شيئًا- هذا فعل فحسب، حركة مهدهدة من فوق أشياء منذرة بالخطر، أشياء تتوالد في زوايا الجناح. عامت أفكاره من شيء إلى شيء، فأحاطها بكفّيه حتى تتفحّص أصابعه نسيج... ومحتوى هذه الأشياء؟ إنه هو نفسه، أكثر الأحيان. كان يرقص بين فكرتين، ثلاث أفكار، أربع أفكار عن نفسه، أي عن مدحت كمال؛ وكانت هذه الأفكار تتداخل كأنها خرائط متضاربة لمكان واحد. كان ينظر إلى اختلافات تلك الأفكار ولا يصل إلى أية نتيجة. يدخل أبوه تلك الأفكار أحيانًا. لحظات قصيرة كان يلقي خلالها على الرجل نظرة جانبيةً فحسب. لم ينظر إلى الصندوق، لم يزعج تلك الأشياء التي لا معنى لها.

كان راقدًا إلى يمينه صبي ساقاه مكسورتان اسمه سامي؛ وكان يبكي طيلة الليل.

«ألا تسمع ذلك الصوت؟».

«ماذا؟ أي صوت؟».

«إنه مرتفع. لا يتركني أنام».

«لا أسمع شيئًا».

«إنه صوت لا يحتمل».

قال مدحت آخر الأمر: «لا بد أنه صوت أنابيب المياه».

خطر في ذهنه أنه كان شخصًا يكثر من قول أشياء من قبيل: «لا بد أنه صوت أنابيب المياه». «أوه، لا بد أن هذا بسبب الطقس». «لا بد أنه كان هذا، لا بد أنه كان، لا بد أنه كان ـ أهو لا بدّ حقًا؟». أجل، لا بدّ. مكتبة سُر مَن قرأ

أصابعها الرقيقة الطويلة، وأظافرها المدورة كالبدر. لماذا يتذكّر ذقنها جيّدًا؟ كانت الذقن صغيرة جدًا؛ وكانت فيها غمازة. كان مصباح يتأرجح معلقًا من السقف.

أطبقت عليه فورًا موجة ذعر فأمسكت يداه ملاءات السرير: لن يكون شكلها مثلما كان. قبض على الملاءات ومد ذراعيه. كم سنة مضت، واحدة اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست، سبع، ثمان، تسع، عشر، إحدى عشرة، اثنتا عشرة، ثلاث عشرة. أحصى خمس عشرة سنة. أكثر من خمس عشرة سنة! عشرون سنة. عشرون سنة. أدارت وجهها. انقبضت معدته إشفاقًا. وجهه حارّ، رطب، غارق في دموعه، مسكين مدحت. قال بصوت مرتفع: «مسكين مدحت».

همست الملاءات، فأدرك أن شخصًا يستدير حتى ينظر إليه. قال لنفسه: «حبيبي مدحت. عيوني. مسكين، مسكين مدحت...». بدأ ينتحب من جديد. في تلك اللحظة، عندما كان غارقًا في إشفاقه على نفسه، لم تبد له السعادة بعيدة جدًا.

حلم بأم جانيت، بآريان مولينو، وكانت آريان تلك هي جانيت. استيقظ وتفقّد أشجار الزيتون -لا تزال هناك، صارخة في الفجر- ثم تذكّر الحلم، وتذكّر حقيقة أن المرأتين كانتا شخصًا واحدًا. قد يتّضح شيء من هذا. في الوقت نفسه، جعل الضباب كل شيء أسود اللون مثلما تصير زجاجة قنديل الزيت من الداخل.

بدأ الضوء يتغيّر في الحديقة. صعد درجات حديقة بيته الخلفية، وأحس بإيقاع قدميه المألوف: تتقدّم الساق اليمنى، ثم يستدير جذعه نصف استدارة حتى يقدّم الساق اليسرى. وعلى المصطبة العليا في الحديقة صادف اليوم الذي عثر فيه على الرسالة كأنها ورقة من أوراق اللعب وُضعت في غير مكانها، ثم اكتشفت من جديد. نظر إلى النهار، وتحرّكت أطرافه مصطدمة بأشياء صلبة وبأشياء طرية. فكر في ذعره؛ اقترب من ذعره جانبيًا حتى لا يكشف جزءًا كبيرًا من سطح جسمه. تجسد ذعر حلمه الأول، واجتازت أحشاؤه حدود جلده خارجة إلى الهواء الكاشف. في تلك المرحلة، كان أكثر إحساسه تقزّزًا.

الآن، بعد أن استعاد قدرته على التفكير، ما عاد غزو الماضي يثير في نفسه ذلك الذعر كلّه. كان الذعر الجديد الذي فاق الأول شدّة هو حقيقة أن الجميع يتظاهرون بأن الماضي لا يفعل ذلك. كان الجميع يعيشون على جلد الحياة، متظاهرين بأنهم لا يعرفون ما يقفون عليه. فكيف يستطيع، هو، مدحت كمال، العودة إلى التظاهر الآن بعد

أن عرف كم كان كل شيء واهيًا؟

قالت له تيتا: «مرحبًا».

دُهش لرؤية تيتا جالسة عند سريره. كانت جالسة على كرسي في مواجهته. كان الوقت نهارًا. وكان جائعًا قليلًا. سمع خطوة في الصالة. كان وجه جدّته مكتسيًا تعبيرًا مختلطًا من الإعياء والخوف. تفحّص مظهرها كأنه ينظر إلى صورة. وجهٍ تجاعيده كثيرة جدًا. تجاعيده فاقت كثيرًا ما كان في ذهنه... إن استعاد صورتها منفصلة عما يراه الآن. عبوس يخفي شفتها العليا، وشفة سفلى وردية مسطحة لامعة، وتجاعيد صغيرة في الأسفل، متجهة إلى الأعلى، كأن شيئًا يشد الذقن، إلى حافة الجلد الوردية تلك. عينان مدمعتان، بنّيتان مزرقّتان، لونان مختلطان. وجنتان ثقيلتان بيضاوان متداعيتان إلى غضون عميقة عند خط الحنك. شعر رمادي، طويل، خفيف، مزاح عن وجهها، مربوط خلف رأسها. جسد ضخم وصغير: ضخم عند الصدر، لكنه متضائل أيضًا. منكمش. بدت ضعيفة؛ ولولا وجنتيها لبدا وجهها تجسيمًا لجمجمتها. صدمه أن الحياة عادةً لا تغادر الإنسان دفعة واحدة، بل تنقط تنقيطًا، وببطء، تدُقّ وتتطاول مثل شعلة لهب طويلة.

قال لها: «لا تذهبي، يا تيتا».

شدّت على شفتيها فازدادت غضون وجهها عمقًا: «لا بد لي من الذهاب آخر الأمر. ألا تريد أن تتركني أذهب حتى آكل؟».

استلقى مدحت على فراشه وغاص فيه. تساءل إن كان يمكن أن يختفي. كان صعبًا عليه أن يظلّ ممسكًا نفسه عندما يكون من حوله أشخاص كثيرون... هناك أشخاص آخرون كثيرون، وهم يزاحمونه ويخرجونه من نفسه. حاول استحضار واحدة من أفكاره الأربع عن نفسه، تلك الأفكار التي كانت لديه قبل لحظات فقط، أو قبل أيام فقط، لكنه لم يستطع العثور على أي منها. لم يبقَ لديه غير هذا الشيء الغريب المقتطع منه. كان كأنه هو نفسه، لكن معكوسًا. كان نقشًا على شيء آخر. مرت الأسابيع. زارته تيتا. اصطنع مدحت ابتسامات وعبارات من تلك الصيغة القديمة، ذلك الحنق الخفي إزاء نقاط ضعف جدته... ينظر إليها موسّعًا عينيه، أو متّخذًا هيئات معبّرة أخرى اعتاد اتخاذها. كان ينظر إليها عندما يتجهّم وجهها فيشعر بخفقة عطف في صدره. كانت تجاعيدها كثيرة جدًا. بدأ مدحت يستخدم صوتًا أكثر منطقية وتعقّلًا، كأنه صوت طبيب، لكن هذا سرعان ما صار شيئًا زائفًا غير صالح للتطبيق. حل به التعب بعد حين، وصار راغبًا في أن ينام قليلًا.

ظهرت لحظة على سطح ذاكرته. ابنته غادة تخوض في بركة ماء في الحديقة. مدّت ذراعيها إلى الخلف حتى تقفز، فارتفع الماء وداعب ساقيها. انحلّت رايةٌ وسقطت.

كان الوقت شتاء عندما أعلنت تيتا أنهم سيأخذونه بعد بضعة شهور إلى مستشفى الأمراض النفسية في بيت لحم الذي يديره البريطانيون. من المحتمل أن تكون الممرضات هناك مدرّبات على التعامل مع حالات مثل حالته.

قال لها: «نعم. فكرة جيدة».

استعان هاني ببعض علاقاته حتى يتخطّى مدحت قائمة المنتظرين. دخلت هذه المعلومات عقله كأنها إشاعات، ثم لم يلبث أن نسي مصدرها.

قال لها في مرة أخرى: «أشعر بأنني صرت أحسن حالًا. لا أظنني في حاجة إلى الذهاب إلى بيت لحم».

«بل عليك أن تذهب. الممرضات هناك...». ارتعش حاجب تيتا، وبدا عليها الذعر. سقطت في داخل مدحت كتلة خوف لا شكل لها: ما الذي فعله فأخافها؟

قال لها بصوتٍ لطيفٍ: «أنتِ لم تفهمي قصدي. أنا لست مريضًا. لست مجنونًا. لكني حزين جدًا. حزين فحسب. هذا كل ما في الأمر».

قالت تيتا بصوت خافت: «نعم».

زارته فاطمة. جلست حيث كانت تيتا جالسة وحدّقت فيه بنظرة غاضبة متجمّدة.

«أين الأطفال؟».

«في البيت».

«كيف حالهم؟».

نظر إليها، إلى يديها المطبقتين في حجرها، وشعر بشفقة هائلة مثل التي شعر بها عندما زارته تيتا. كانت مشاعره بعيدة عنه. لم يقل شيئًا. لكنه أحسّ بنفسه تذوب وتنحلّ من جديد وهو راقد هناك، مشفق على زوجته. قبض على حافتي الفراش بيديه الاثنتين حتى يستطيع التماسك إلى أن تنجلي عنه تلك الموجة. وعندما انجلت، فتح عينيه فرأى امرأة جالسة حيث كانت فاطمة. كان حجاب أسود ثقيل يغطّي وجه المرأة فلا يظهر منها غير عينيها.

«لماذا وضعتِ حجابًا؟».

قالت فاطمة: «علينا جميعًا أن نضع الحجاب».

قال مدحت: «هذا مستشفى، وليس مسجدًا».

تنهّدت فاطمة. مرّت بهما ممرضة حاملة لفافة من الضمادات.

تابع قائلًا لها: «يفاجئني أنهم سمحوا لك بالدخول. إنهم غير مهتمين بالنظافة إطلاقًا».

«مدحت، لقد أمرنا الثوار بأن نضع الحجاب جميعًا».

«الثوار؟».
«ربما لكي يصير مظهرنا مختلفًا عن النساء اليهوديات».
«الثوار؟».
«نعم، هناك ثورة. يقودنا الآن الفلاحون الأبطال».
«ماذا حدث للمتجر؟ لقد شب حريق في متجري، يا فاطمة».
«وهناك إضراب أيضًا. المتاجر مغلقة كلّها».

لم يعد يتذكّر تتمة هذا الحديث. يعرف أنه عانى صعوبة لأنه كان مرهَقًا بعد ذلك. وعندما استيقظ، وجد أنهم قد قيّدوه في سريره بأن شدوا الغطاء فوقه بقوة كبيرة ووضعوا نهاياته تحت الفراش. كان الهواء دافئًا والغطاء المشدود فوقه ـ غطاء مكوّن من ملاءتين خفيفتين ـ يُظهر معالم ساقيه وبطنه. مُنزَلَقٌ من القماش يصل بين قمة بطنه وركبتيه كأنه شراع مشدود في الريح.

كانت فاطمة تضع وشاحًا عندما أتت لزيارته في المرة التالية. لكن الوشاح كان ملفوفًا تحت رقبتها، فظلّ وجهها كلّه مكشوفًا، وليس عيناها وحدهما. ضحك مدحت وقال لها: «لقد غيّرت موضة ملابسك، يا عزيزتي».

لم تكن لديه أيّة فكرة إن كانت فاطمة قد أجابت على ملاحظته هذه. لقد غرق تمامًا في واحدة من أفكاره ولم يكن لديه غير إدراك غامض لحقيقة أنه واصل الكلام وأنها كانت تجيبه. استيقظ فوجد أنها قد ذهبت، ولم يستطع تذكّر شيء مما دار بينهما.

ولما كان الطقس في تحسّن، فقد سمحت له جمانة بأن يخرج للشرفة لاستنشاق الهواء. جعله تيار الهواء على وجهه يشعر بالانتعاش؛ وجاءته واحدة من أكثر لحظاته صفاء، هنا، في الخارج. تبادل بعض الأحاديث مع عدد من المرضى الناقهين وزوارهم؛ واعترته دهشة شديدة عندما رأى أن الربيع قد أزاح الشتاء من الحقول واحتل مكانه.

وفي أحد الأيام، بعد أن ساعدته جمانة في ارتداء بدلته ووضع ربطة عنقه، خرج مدحت سائرًا إلى درابزين الشرفة، مستندًا إلى عصاه. التفت فلمح رجلًا جالسًا في آخر الشرفة. سقط قلبه إلى أسفل معدته. سمع صوتًا رنانًا، حادًّا.

«ماذا يفعل هنا؟».

استدارت جمانة لتنظر، وسألته: «من؟».

كان ذلك الدكتور مولينو. لقد تقدّمت به السنّ كثيرًا؛ ومن المؤكد أن جسده لم يعد مرنًا أو رشيقًا. صار أكثر امتلاء، مع لحية، لكنّه هو من غير ريب. نظر مدحت في عيني جمانة.

همس: «أبعديني عن هذا المكان».

ولحظة قوله هذه الكلمات، فاجأته فكرة جديدة. عاد قلبه إلى مكانه. إن كان الدكتور

هنا، فقد ينقل رسالة منه إلى جانيت.

قالت جمانة وهي تمسّد ذراعه: «آخذك بعيدًا عن ماذا؟ ماذا رأيت؟».

بدأ مدحت يرتعش. قال لها: «رجل أعرفه...». صار عقله كله زبدًا. ما الرسالة التي ينبغي أن يطلب منه نقلها إلى جانيت؟ رفع ذراعه مشيرًا إلى الرجل... «هناك».

«أين؟».

نظر من جديد، ثم صمت. لم يكن الرجل الجالس في آخر الشرفة الدكتور مولينو. الحقيقة أنه كان قسًّا عجوزًا. قسٌّ له لحية بيضاء كبيرة وعلى رأسه قبعة سوداء ذات حافة عريضة.

أخذوه إلى بيت لحم بسيارة فيها سخونة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سأل: «أين هاني؟».

«في الصرفند».

«الصرفند؟».

«نعم».

«وأين فاطمة؟».

«إنها تعتني بالأطفال».

جلست تيتا وأم جميل إلى جانبيه في مقعد السيارة الخلفي. بدأت المرأتان تتلوان الأدعية. كانت في انتظارهم أمام مستشفى بيت لحم ممرضتان. قالت واحدة منهما لأم جميل وهي تساعد مدحت في الجلوس على كرسي ذي عجلات: «يمكنكم زيارته أيام الثلاثاء».

انفجر مدحت باكيًا. ظهرت تيتا من خلف السيارة. استندت بيدها إلى هيكلها.

«ما المعالجة التي ستقدمونها إليه؟».

قالت الممرضة الطويلة: «ما من معالجة؟».

«ماذا؟».

«ليست لدينا علاج هنا. إذا أردتم معالجته، فعليكم الذهاب إلى المستشفى اليهودي في القدس».

قالت تيتا لأم جميل: «ما معنى وضعه هنا؟».

قالت الممرضة الطويلة: «هل تريدون السرير، أم لا؟ هناك قائمة انتظار طويلة جدًّا. لدينا ما لا يقل عن مئة شخص...».

«ما المدة التي سيكون عليه قضاؤها هنا؟».

«بحسب حالته».

قبّلتا مدحت مرات كثيرة. لم يحاول إخفاء دموعه. كان الممر الذي دفعوا فيه كرسيه مظلمًا. أتى هدير أصوات من خلف الأبواب. أصرّ على خلع بدلته بنفسه عندما حاولوا فعل ذلك. فاجأه قبولهم. تساءل بمرارة وهو يفك الأزرار وحده في غرفة صغيرة ويضع بنطلونه على السرير إن كان هذا آخر ما سيلقاه من حسن معاملة بفضل صلته بهاني مراد. وضع سترته وقميصه بأناقة على الفراش ذي الملاءة الرقيقة وارتدى الثوب الأخضر الذي أعطوه إياه. سجّلوا وزنه، ثم دفعوا كرسيه إلى سرير في آخر الجناح بين الجدار المجصّص البارد ورجل له جبهة ناتئة. كان ذلك الرجل بدينًا حقًّا. بدا عليه سرور شديد عندما رأى مدحت. لكن نظرة واحدة إلى جارِ ذلك الرجل الساكن على سريره كانت كافية لأن يدرك مدحت أنه صار محرومًا من الرفقة. كان مدركًا حجم جسده عندما اقترب كرسيّه من السرير، وأحس بوخزة نفور واشمئزاز من فكرة أن هذا الشخص المجنون قد يتخيل أن هناك تشابهًا بينهما.

قال مدحت للرجل: بون سوار، مسيو»؛ ثم تمتم قائلًا للممرضة عندما وضعت الغطاء عليه: «أشكرك، مادموازيل».

قال الرجل: «أو لا لا!... الباريسي».

قال مدحت وهو يجلس في الفراش: «نعم. لقد عشت في باريس».

لم يثنِ هذا عزم الرجل، ولم يمنعه من الكلام. وقبل انقضاء وقت طويل، صار مدحت على علم بالإشاعات التي كانت تنتقل بين الأسرّة، بما فيها إشاعة عن كبيرة الممرضات السابقة التي كان اسمها مس ويتاكر. لقد «انهبَلتْ» مس ويتاكر، وأصابها ما عبّرت الممرضات البريطانيات عنه بقولهن إنها «فقدت صوابها»، فحبست ممرضة فلسطينية في واحدة من الزنزانات المخصّصة للمجانين الخطيرين. جرى ترحيل مس ويتاكر، وأُدخلت إلى مأوى قريب من بيروت.

قال له الرجل: «لقد كان على البريطانيين أن يدفعوا لقاء ذلك. لقد دفعوا من أجلها، لكنهم لا يكادوا يستطيعون دفع شيء من أجلنا. ما المدة التي أمضيتَها في قائمة الانتظار؟».

قال مدحت بنبرة باردة: «ليس كثيرًا».

وأخيرًا، صمت. سمعه مدحت بعد برهة يخاطب جاره الذي من الناحية الأخرى؛ لكنه لم يستطع سماع أية ردود.

لم يشعر بالهدوء في هذا الجناح، فعلى امتداد الأيام التي تلت ذلك، لاحظ أن هناك روائح باقية عند عودتهم من صالة الطعام. وحتى يتجنّب الدوس على بقعة دبقة إلى جانب سريره، كان عليه أن يثني قدمه وينتبه جيدًا إلى موضع قدمه عندما ينهض واقفًا.

صار ينفق طاقته في محاولته تجاهل صوت الأنين، فضلًا عن أصوات عويل مشؤومة تخترق الجدران في الليل آتية من الممر. وعندما يتوقّف العويل فجأة، يتساءل مدحت عما إذا عقله قد انتصر، عما إذا كان قد نجح ذلك النجاح كلّه في حجب الأصوات التي لم يعد الآن يسمع منها شيئًا، حتى إن حاول السماع. لكنه سرعان ما بدأ يسمع أصواتًا أخرى، أصوات تقلب المرضى وتمتماتهم، فأقلقه التفكير في سبب انقطاع صوت العويل وفيما استخدموه مع ذلك الشخص من مهدّئات ووسائل أخرى. اشتاق إلى التمتمات البريئة في المستشفى البلدي في نابلس. وعندما أتت الممرضة البريطانية إلى سريره وقالت له إنه اختير لمقابلة خاصة مع كبيرة الممرضات، لم يستطع منع نفسه من القول لها: «من فضلك، اتركوني أخرج من هذا المكان. أنا لست مجنونًا في حقيقة الأمر». ساعدته الممرضة في الجلوس على الكرسي ذي العجلات بينما واصل التوضيح لها أنه يفضل الاستفادة من هذه الفرصة لكي يمشي. دفعت الممرضة كرسيه عبر الممر المظلم الذي اجتازه يوم وصوله إلى أن بلغت غرفة مكتب في نهايته البعيدة.

كانت كبيرة الممرضات امرأة طويلة لوحت الشمس بشرتها. وجه كثير النمش، وشعر أسود مشعّث محبوس تحت قبعة بيضاء. أبلغته بالإنجليزية من خلف طاولتها المعدنية أن الممرضات تعتبرنه «مطيعًا». حلّل مدحت كلماتها، ثم ترجمها إلى الفرنسية، فنظرت إليه بشيء من الريبة. أومأ برأسه لأنه فهم بأن عليه أن يبدي استجابة لتلك النظرة ثم شبك أصابعه في حجره. كانت تلك حركة تعرفها أصابعه معرفة جيدة، حركة صاحب المتجر الراضي بالاستماع إلى ما يقوله واحد من الزبائن. تخلّلته موجة كبيرة من الشعور بالمهانة، فضغط أطراف أصابعه بين مفاصل أصابع اليد الأخرى.

قالت كبيرة الممرضات: «سوف ننقلك إلى مكان أفضل، يا مستر كمال... إلى جناح إعادة التأهيل».

لاحظ أن لها فمًا يشبه منقار الطائر... فم فيه فراغ بين باطن الشفة ومقدمة الأسنان يسمح لها بأن تخبئ فيه الحَب من أجل فراخها.

كان الجناح الجديد يتلقّى قدرًا أكبر من ضوء النهار، على الرغم من أن النافذة ذات القضبان المعدنية عند سريره كانت مطلّة على جدار داخلي آخر. كان على يساره شخص من الخليل اسمه يوسف قدري. وإلى يمينه بولندي اسمه هنريك. كان هنريك شديد النحول، أشقر الشعر، قدماه بارزتين من بين عمودي أسفل السرير. كان عازف كمان؛ وكان ناجيًا من المذابح في بولندة. كان يوسف نحيلًا مثله، ولم ينطق بأية كلمة أبدًا. إلا أن هنريك كان يقول كلمات كثيرة جدًا. كانت لغته الفرنسية ممتازة.

في اليوم التالي، قال له هنريك: «هل تعرف سبب وجودنا هنا؟». ألقى نظرة صوب

النافذة، فبرزت أوتار رقبته مثل أوتار البيانو.

سأله مدحت: «لماذا؟».

«لأن لنا حياة داخلية؟».

«لنا ماذا؟».

«هذا هو داءُ أن يكون المرء متمدّنًا. ولهذا السبب، هناك مجانين يهود أكثر من المجانين العرب».

نظر مدحت إلى وجه هنريك. كانت زاويتا عظمَي وجنتيه الحادّين تُبرزان ضخامة كرتي عينيه اللتين كان جفناهما منسدلين قليلًا كأنّهما ظلّان شمعيان.

«لا».

قال هنريك: «بل نعم. نحن مغَرَّبون عن الطبيعة. نحن متمدّنون. وأما العرب... أنتم متّحدون مع الطبيعة».

أطلق مدحت أنينًا، ووضع الوسادة فوق رأسه. أغمض عينيه وراح يتابع إيقاع خطوات قدميه في حديقة بيته... صاعدًا مصاطبها.

يمين يسار، يسار يمين. غيّر الإيقاع في منتصف الطريق: يسار يمين، يسار يمين. استيقظ مجفلًا واصطدمت نهاية قدمه العارية بعمود السرير المصقول البارد.

كان الوقت صباحًا. وكانت إلى جانب سريره ممرضة.

قالت له بصوت مبتهج غير متناسب مع تعبير وجهها: «لديك زوار. تعال إلى غرفة الزيارة. تعال الآن».

دس قدميه في شبشبه وسار خلفها في ممر فيه أسرّة مصفوفة على امتداد واحد من جداريه، وكراسٍ مصفوفة على امتداد الجدار الآخر. تساءل كيف يكون حال من يرقد في هذا الممر مع وجود من يسيرون جيئة وذهابًا عند قدميه. بعد الممر سلّم يؤدي إلى غرفة صغيرة عارية الجدران لها باب ينفتح على حديقة جافة. فوجئ كثيرًا بأن الصيف قد جاء. كان هناك مريضان جالسان مع زوارهما. وكانت تيتا عند الباب تعصر أصابع يديها في حجرها. جلس على الكرسي الخالي إلى جانبها ورأى، في عينيها، أن المستشفى فظيع.

قال لها: «آه، يا تيتا».

أحسّ بخجل شديد كأنه من يمثّل المستشفى. مالت لكي تهمس له بشيء فلمح الفستان القطني الذي ارتدته من تحت معطفها، ذلك الفستان الذي عليه نجوم متراصّة مطرّزة بلون أزرق بحري. أدرك بعد لحظة أنها لم تقل شيئًا. نظر في عينيها من جديد فرأى -مع وخزة ألم في صدره- أنها كانت موقنة بأنه لن يفهم. انتصب جدار بينهما.

أراد كثيرًا أن يقول لها: إنني أفهم. لكنّ شيئًا حارًّا، واطئًا، كلّه ألم، كان ينبثق ويمنع فمه من الكلام كلما هم بأن يقول شيئًا. كان يشعر بالتوتر الظاهر على وجهه. أراد إخبارها بأن هذا المكان ليس مكانه. كان ينظر إلى معاناتها وكرَبها وهي جالسة على ذلك الكرسي إلى جانبه تستنشق أنفاسًا عميقة ثم تفلتها. كانت امرأة تقول من خلفه: «سوف تبدأ باسمة الذهاب إلى المدرسة في الأسبوع القادم...».

فجأة، نهضت تيتا واقفة على قدميها. سقط ظلّها عليه عندما انحنت لكي تقبّله. قالت شيئًا للممرضة الواقفة عند الباب، ثم سارت بخطوات متهادية على مفصل وركها الذي يؤلمها، فامتدت كل نقطة في جسمه محاولة اللحاق بها.

عاد إلى الجناح فوجد هنريك يقرأ كتابًا وقد وضع على وجهه نظارة. كان عنوان الكتاب مختفيًا تحت أصابعه.

سأله بالفرنسية: «Qu'est-ce que vous liscz?[1]».

«Un roman[2]».

انتظر سماع المزيد. كان الضوء الآتي من النافذة مشعًّا بلون أزرق على الجدار الذي أمامه، فأحسّ مدحت بما يشبه العار لأنهم لم يضعوا الأسرّة على نحو يتيح للمرضى أن ينظروا إلى الخارج. ليس في الخارج منظر يستحق النظر إليه. لعل الممرّضات كن غير راغبات في وضع أفكار في رؤوسهم. لقد أخبره جاره في الجناح السابق عن أشخاص حاولوا الفرار.

قال هنريك: «كان البرد شديدًا على السفينة».

ظنّ مدحت أول الأمر أن هنريك يقرأ شيئًا في الكتاب بصوتٍ عالٍ، ثم لاحظ أن الرواية المفتوحة كانت مقلوبة في حضن هنريك.

«عفوًا؟».

«وكان الزحام شديدًا...». نظر في عيني مدحت... «إنني أتحدّث عن السفينة. عندما أتيت إلى هنا، عندما أتينا، أنا وأسرتي».

«آه».

«كان ذلك في شهر أيلول. وهذا ما جعلنا نتوقع أن يكون الطقس لطيفًا. لكن الطقس كان مخيفًا...». قال هذا بنبرة من يروي نكتة، ثم ابتسم... «كان عددنا بالمئات. سافرنا بالقطار، أنا وزوجتي وابني ألكسندر. سافرنا بالقطار إلى بلغاريا. كان قد تم تجاوز

---

(1) ماذا تقرأ؟

(2) رواية.

الحصة المقرّرة من المهاجرين لتلك السنة؛ فكنا ذاهبين في سياحة! تظاهرنا بأننا قادمون إلى فلسطين لقضاء العطلة. لم تكن معنا أمتعة كثيرة. أنا واثق من أن الحراس كانوا يعرفون أننا لسنا ذاهبين لقضاء العطلة. الحقيقة، أظنّهم تلقوا تعليمات بأن يقدّموا لنا المساعدة. لكن، كان علينا أن نبحر من بلغاريا على متن تلك السفينة. قالت زوجتي إنني لا أستطيع أخذ كماني معي، فمن يأخذ معه كمانًا عندما يسافر في عطلة؟ عارضتها أول الأمر. كنت مصمّمًا على أخذ كماني معي. ثم التقينا واحدًا من المسؤولين؛ كان اسمه ليبا. دفعنا... دفعنا سبعمئة وخمسين زلوتي عن كل واحد منا. أنا وزوجتي وابني دفعنا ألفي زلوتي، بل ألفين ومئتين وخمسين زلوتي. هل تستطيع تخيّل هذا؟ أعطونا جوازات سفر بأسماء جديدة. صرنا من عائلة وولمارك. صار اسمي الجديد هنريك وولمارك. لن أقول لك اسمي القديم، لأنه بقي مع كماني في بولندا. ثم قال هذا المسؤول إنني لا أستطيع أخذ كماني معي. قال إن السائحين الذين يحملون آلات موسيقية يثيرون الشكوك. لكن، إذا...». استدار هنريك ونظر إلى مدحت من جديد. ارتفع جفنا عينيه للمرة الأولى فكشفا عن بياض صافٍ من حول البؤبؤين الزرقاوين الرماديين... «إن كان حرس الحدود يعرفون ما نفعله حقًّا، فما المشكلة في أن يكون كماني معي؟»

بدا عليه ترقّبٌ حقيقيٌّ كأنه ينتظر إجابة. لم يقل مدحت شيئًا. لقد قرّر أنه غير راغب في سماع قصته.

قال هنريك أخيرًا: «البريطانيون هم الإجابة عن ذلك السؤال. لكنّي سأصل إلى هذا. انطلقنا أول الأمر في رحلتنا السياحية البحرية...». قهقه ضاحكًا... «زوجتي وأنا، أحضر كل منا معطفين. وبقي كل منا مرتديًا المعطفين معًا...». ضحكة أخرى... «والكسندر -ألكسندر المسكين-. لقد كان يقول لي: بابا، لقد بردت كثيرًا، ألا تشاركني معطفك؟ لا أعرف السبب... إن كانوا حريصين جدًّا على انتقالنا إلى هنا، فلماذا لم يجعلوا سفرنا أكثر راحة؟ والطعام... أقسم أن قبطان السفينة كان يتعمّد تعذيبنا. وضعت ألكسندر تحت معطفي، وجلسنا معًا، ورحنا نغني».

حلّت فترة صمت. أطلق يوسف قدري أنينًا، وتنهّد هنريك. انتظر مدحت. رفع هنريك كتابه ونظر إلى غلافه. استطاع مدحت رؤية عنوان الكتاب. رأى أنه باللغة البولندية.

قال هنريك أخيرًا: «كان الوضع سيئًا أصلًا بالنسبة إلى اليهود. لكنه لم يكن سيئًا إلى هذا الحدّ. لقد كنت من المحظوظين. كان لي عم وعمة يعيشان في بانزيغ».

استدار مبتعدًا عن مدحت فانشمرت حافة سترة بيجامته كاشفة عن خصره النحيل. تساءل مدحت في نفسه إن كان هنريك قد جاء بنفسه إلى المستشفى، أو أن أسرته وأصدقاءه أتوا به، مثلما حدث لمدحت. قرر أن ينتبه يوم الثلاثاء القادم إن كانت

الممرضة ستأخذ هنريك إلى غرفة الزيارات. لم يستطع مدحت أن يرى في هنريك أعراضًا واضحة تدل على عدم استقراره. لكن... ربما (انزلق في فراشه عندما فكّر في هذا الأمر، حتى صار جسده عموديًا)... ربما كان لمرضه أثر سلبي على قدرته على تمييز السلامة العقلية من غيرها عند الأشخاص الآخرين.

الآن... هذه فكرة مخيفة. كان مدحت حبيس دماغه فلم يستطع أن يثق في مدركاته نفسها. فكر في الصوت الرنّان الحاد الذي ينفجر أحيانًا في أذنيه؛ ثم راح يفكّر، من غير احتراس، في طبيعة حالته العقلية.

كان لديه عشرون عامًا لكي يفكّر فيما حدث في بيت مولينو. توصّل منذ زمن بعيد إلى تشخيص الاتهامات التي وجّهها إلى سيلفان لوكلير على أنها كانت زلّته القاتلة، الفعل الأخير الذي دفع بجانيت بعيدًا عنه لحظة كان ممكنًا أن تكون في صفه. وقد قبِل هذا مثلما يقبل المرء نهاية قصة عن شخص آخر. كان مستوعبًا تلك النهاية عندما كتب إلى جانيت من باريس لكي يودّعها، عندما صار قادرًا أخيرًا على أن يعبّر عن نفسه باللغة الفرنسية السليمة التي أراد أن يعبّر عن نفسه بها... عندما قرأ متمهّلًا رسالته على مسمع من هاني في شارع سبونتيلي حريصًا على أن تكون كل فاصلة في موضعها الصحيح. وبعد ذلك عاد إلى فلسطين ومحا -تدريجيًا، لكن بكل تصميم- كل سبب باق للأمل. كان يتقدّم بشجاعة وعزم متعاملًا مع اندفاع الزمن. نعم، كان يثني على نفسه لأنه فعل هذا. ومع مضي الزمن، تراجع الماضي. ثم تزوّج، وأنجب أطفالًا، وصار صاحب دخل ومركز اجتماعي... الحقيقة أنه كان شخصًا صنع نفسه بنفسه.

إذًا، سيكون صعبًا عليه ألا يرى في هذه الرسالة سلاحًا أُرسل عبر حاجز الزمن لكي يطعنه. لو أنه بقي في مونبلييه، ولو أنه لم يكن معتزًا بنفسه ذلك الاعتزاز كله، فلعل كل شيء كان سيتخذ مجرى مختلفًا. حركة جانيت عندما أشاحت عنه بوجهها في الممر ظلت مطبوعة في ذهنه: رفضت أن تنظر إليه. فكيف كان له أن يعرف أنها... لم تكن قطيعة نهائية؟ علا غضبه واتجه إلى جانيت. لقد كانت أنانية إلى حد غير معقول. وكم كان مما يوافق طبعها -حقا- أن تمدّ يدها وتفسد حياته في هذه المرحلة المتأخّرة.

للحظة، سمح لنفسه بهذا. أغمض عينيه وراح يتخيل. تحسّس المتراس الذي أقامه في وجه خيالاته؛ تنهّد جسده كلّه عندما أزاحه. لقد كان هنا، في نابلس. آتيًا لتوه من السفينة. وهنا، في الممر، كانت الرسالة التي حملت اسمه. يلتقط الرسالة، وتمزِّق أصابعه غلافها. يسمع صوت جانيت، وتكون الآن لكلماتها معانٍ مختلفة تملأه إحساسًا بقرب وقوع أمر، بقرب الفرصة، بقرب الأمل - يحمل حقيبته التي لم يفتحها بعد، وينبض قلبه عنيفًا، ويسير عائدًا في طريق الجبل. قطار إلى طولكرم، وقطار

إلى الإسكندرية. سوف يترك كل شيء: تيتا، وأباه، وعائلته، وكل شيء. إنه في القطار الذاهب إلى مصر. سوف يبحر إلى مرسيليا. ها هي هناك، تنتظره على رصيف الميناء. يراها من بعيد، ويرى شعرها الداكن. والآن، يرى وجهها... يراها. والآن، يحتضن جسدها الحقيقي، ويندس أنفه في شعرها. ملأت الدموع عينيه، وابتسمت ذاته كلّها ناظرة إلى جانيت على سقف غرفة المستشفى.

صرير شيء قريب: حذاء الممرضة المطاطي على مسافة عدة أسرة، ومريض يعطس. ترفرف عينا مدحت، ويمسح الدموع عن وجهه.

لاحظ أن أفكاره قد اكتسبت براعة أكبر. راح يراقب أحاسيسه: هدوء، لا اضطراب في عينيه، ولا تشوش في الرؤية. شبك أصابعه فوق بطنه، وركّز تفكيره. هل كان هذا ممكنًا؟ هل بلغت عاصفة اضطرابه أوجها، ثم انحسرت؟ كان في قدمه تشنّج، فرفع ساقه وأدار كاحله حتى يزول التشنّج عنه. كانت ساقه ضعيفة، آلمته. انقلب حتى ينظر إلى هنريك الذي كان مستلقيًا على ظهره أيضًا، طاويًا ذراعيه، يلوك شفته السفلى. نظر من فوقه إلى يوسف قدري. كان يوسف نائمًا.

وإلى هذا المستوى الواضح الجديد في عقله أتت فاطمة، ثم أتت تيتا، ثم إيلي والمتجر المحترق، ثم وقائع البيت كلّها، وأطفاله. وثب قلبه. عليه أن يعود. هم يريدونه. لقد استطاع من قبل أن يستوعب الألم؛ وسوف يفعل هذا من جديد. لم تكشف رسالة جانيت إلا عن شيء واحد هو أن أباه كان قاسيًا، وأنه خانه. وبالطبع، كشفت أيضًا عن أن ذلك الحب لم يضِع عندما ظن أنه ضاع. لكنه ضائع الآن... إذًا، لا معنى للأمر.

قال بصوت مسموع: «لقد أحببنا آباءنا أكثر مما ينبغي».

حرّك فكّه السفلي محاولًا درْء دموعه. فكر في غادة، ورأى نفسه يحملها: هل سيفعل بها مثلما فعل أبوه به؟ هل سيتركها؟ كان ذلك عذابًا، وما كان لينتهي. لكن، في ضوء هذا كله، ماذا لديه الآن مما يمكن أن يصلحه؟ لا يستطيع الرد على رسالتها. ولا يستطيع الاتصال بها هاتفيًا والقول: جانيت، ها أنا. أتحبين أن نلتقي؟ لا يستطيع أن يصعد إلى سفينة مبحرة إلى مرسيليا. لا يستطيع اجتياز تلك المسافة كلها.

التقط لمحة قاتمة سريعة من نفسه عندما كان شابًا، هناك، واقفًا على الرصيف الآخر. بقية من قصة هنريك، من نمطها ونبرتها، ذلك الكلام عن اسمه القديم الذي تركه في بولندا مع كمانه، شيء عن تلك الخصيصة من خصائص البعد، تخلط الزمان والمكان معًا وتمنح شكلًا لصورة شاب ينزل من القطار في مونبلييه. انظر إليه: شاب أرهقه التعب يجر حقيبته الكبيرة، لا يعرف شيئًا عن الغنى الكامن في مستقبل مجهول؛ شاب ممتلئ حماسة وخوفًا. كيف ينتقل المرء من هناك إلى هنا؟ الهوة كبيرة جدًا. تحسّس

مدحت بقدمه مَضِيقًا يقسم حياته، يفصل حياته الممتلئة بذلك الحس القديم بالمستقبل عما تبين له في ما بعد، عن الضفة التي كان واقفًا عليها. لقد كان رجلين اثنين: واحد هنا، وواحد هناك؛ رأى ذلك الواحد الذي هناك، الشاب، الرشيق، البريء، غير المستعد للمعركة. أحس بالأسف على ذلك الشاب؛ لم يكن يعرف ما ينتظره.

قال: «الوضع هنا مختلف كثيرًا عمّا دُفعت إلى توقعه».

أجابه هنريك: «تمامًا».

بدأت أصوات تتخلّل السقف، ووقع أقدام، وقعقعة أطباق. أتت ممرضة معها لوحة كتابة، وأخذتهم إلى الأعلى حتى يتناولوا طعامهم. دفع مدحت بقدميه في فردتي الشبشب المستطيلتين عند سريره، ثم سار متثاقلًا خلف هنريك.

كانت الصالة عابقة برائحة الطعام. وقف مدحت خلف هنريك في صف الانتظار عند القِدر، وراح ينظر إلى وجوه من يسيرون إلى الطاولات حاملين أطباقهم. تساءل إن كان أي منهم عاقلًا مثله، محبوسًا مثله لأنه كان شاهدًا على جزء متهتّك أو ممزق من نسيج العالم. كان واضحًا أن من الناس الموجودين هنا من يمثلون صورة المجانين الحقيقيين الذين لا يجد أي شخص صعوبة في تمييزهم، حتى الأطفال: أشخاص يغنّون، أو يجلسون صامتين، ذاهلين، أو أشخاص غير قادرين على الجلوس منتصبين على كراسيهم. لكن مظهر أشخاص كثيرين هنا، على غرار هنريك، كان موحيًا بالمتمدّن وضبط النفس.

قالت المرأة صاحبة المغرفة: «انتباه، انتباه».

تموّج السائل البني المخْضرّ في الطبق وراح يترك على حوافه طبقة رقيقة من زبد محبحب عندما سار مدحت إلى حيث جلس هنريك. أتى يوسف قدري من خلفه. جلسا إلى ناحيتين متقابلتين من طبق فيه خبز مصنوع من حنطة سوداء. راحت أصابع يوسف تعبث بشوكة الطعام.

كان مدحت يكره أسلوب الممرّضات في مراقبتهم أثناء تناول الطعام. لقد تعلّم أن يأكل ببطء من غير أن يلفت نظر أحد؛ فمن يمتنع عن الطعام، أو من يأكل بشهية ظاهرة، يكون من تتجه الأعين إليه وتسجل أقلام الممرضات تصرفاته. سارت كبيرة الممرضات، العملاقة، بين الطاولات كأنها قبطان سفينة. غمس مدحت قطعة خبز في طبقه.

قال هنريك: «أحب الاستماع إلى كلامهن...». انتبه مدحت إلى ثلاث ممرضات تتحدّثن واقفات إلى الناحية الأخرى... «يخيل إليهن أنني غير قادر على سماعهنّ... لكني أسمعهنّ. صفٌّ مسرحيٌّ تعبيريٌّ... هذا ما قالته الآن واحدة منهنّ. يا لها من عبارة».

كان لكل شيء ترتيبه الملائم. أولًا، تجرف الممرضات الطعام الباقي في الأطباق وتفرغنه في دلو، ثم تضعن تلك الأطباق على عربات معدنية غريبة الشكل وتدفعنها ذاهبات بها. عندها فقط، تنزلق قوائم الكراسي على الأرض مصدرة صريرًا لأن المرضى يصيرون قادرين على النهوض والانصراف.

وفي الجناح، كان أحدهم قد أضاء مصابيح السقف لأن وقت الظلمة قد اقترب. وكانت بقعة الشمس التي يرتسم فيها ظل قضبان النافذة قد استطالت إلى جهة اليمين وكادت تخبو. نزع مدحت شبشبه واندسَّ تحت بطانيته.

قال هنريك: «أمسك البريطانيون بنا في مضائق الدردنيل».

أصغى إليه مدحت من غير أن يقول شيئًا. أراد أن يعرف نهاية قصّة هنريك. أراد أن يعرف كيف وصل هنريك إلى هذا المكان. أغمض عينيه ورأى صورًا مدوّخة: بحر بنفسجي، ورذاذ ناعم، قطرات ماءٍ ثارَ وتهاطل فوق فراشه. واجه جسده في الظلام، وكان قلبه خافقًا. فتح عينيه ووجّه طاقته كلها صوب أذنيه.

«لاحقونا، ثم أوقفونا ومنعونا من بلوغ الميناء، وهكذا كان علينا أن نعود إلى اليونان. كنا في غمٍّ شديدٍ. تستطيع أن تتخيّل هذا. كانت زوجتي تبكي. نزلنا في تينوس. في ذلك الوقت، كنا قد أقمنا صداقات مع بعض الأشخاص الآخرين؛ وكان هناك أكثر من ثلاثمئة واحد منا. ثلاثمئة وخمسون، على ما أظن. أحببنا خاصّة، ذلك الرجل، يوليان، شاب شديد الحماسة لحركة هيحالوتز. نحن لم نكن متحمّسين لها كثيرًا. كانت زوجتي معجبة بها، لكن معظمنا كان... أنت تعرف... كنا فقراء في بولندا، ولم تكن الحياة جيدة بالنسبة إلينا. حصلت عندنا مذابح، ولم تُرِد زوجتي أن يكبر ألكسندر هناك. كانت تخشى أن ما حدث في أماكن قريبة منا، سيحدث عندنا أيضًا. سمعنا تلك القصص عن فلسطين، وعن الحياة في فلسطين... يوليان، كان شخصًا شديد الحماسة. علّمني عن الحركة الصهيونية أشياء كثيرة لم أكن أعرفها. بقينا في اليونان شهرًا، ثم انطلقنا من جديد في شهر تشرين الأول. أوه، يا مدحت، كان ذلك فظيعًا».

عندما صار الخطاب موجّهًا إليه مباشرة، تحرّك مدحت ونظر إلى صاحب القصة. كان هنريك مستلقيًا على ظهره، محدّقًا في السقف. كان يتكلّم ويحرّك يديه.

«عشرة أسابيع في البحر. صرت أتساءل عن السبب الذي جعلنا نأتي أصلًا، لماذا أتينا؟ تذكّرت». ربّت على يده بأصابع يده الأخرى... «إنها زوجتي. زوجتي أرادت أن نأتي. حاولنا العودة إلى اليونان، لكنَّ اليونانيين لم يقبلوا استقبالنا هذه المرة...». كان مدحت ينظر إلى يديّ هنريك المتحرّكتين مثل أعشاب بحرية في ضياء الشمس الواهي الآتي من النافذة... «حاولنا مرة أخرى أن نرسو في تل أبيب، لكن ممنوع. والآن، هل

تتخيّل هذا، كانت قد مضت عليّ في البحر عدة شهور، وكنت مشتاقًا إلى كماني. هذا ليس بالأمر البسيط. إنني أتألم، فكل ما أراه ماء بماء. ليس ماء أزرق اللون. ماء قذر، رمادي، أخضر سقيم. كان الوقت شتاء، والسماء مسودّة؛ وكنا قد اشترينا من اليونان معطفًا إضافيًا حتى يلبسه ألكسندر، لكنا لم نكن نملك مالًا كافيًا لشراء شيء آخر. لم نتصور أننا سنبقى في البحر تلك الفترة كلّها. تخيّل هذا». مدَّ سبابته وإبهامه، وترنحت يده اليمنى... «التقنين، وحصص الطعام الصغيرة... أسوأ حتى من هنا. خبز بائت. شيء فظيع».

... «وأخيرًا، في إحدى الليالي، كنا منتظرين في البحر المتوسط على مقربة من الشاطئ، جاء يوليان وأيقظنا فنهضنا من أسرّتنا. قال لنا: سنذهب وحدنا، فهل تأتون معنا؟ سألته، كيف؟ قال يوليان، قوارب النجاة. قلت، وماذا عن شباب الحراسة؟ قال لي يوليان إنهم يعرفون بالأمر، وهم آتون معنا. لعلنا كنا أربعين، أو خمسين، شخصًا. نزل الجميع إلى قوارب النجاة. بعضهم لا يزال في ملابس النوم، لكنهم لم ينسوا أحذيتهم. لقد فعلنا شيئًا سيئًا جدًا... أخذنا قوارب النجاة التي في السفينة. جذفنا في الظلام، وكان الطقس باردًا. تركنا معظم أمتعتنا، لأن القوارب كانت صغيرة، لا تستطيع أخذ أمتعتك. تلك الليلة في البحر، يا إلهي، كانت مظلمة، وكنا هناك، مرتجفين، متّجهين صوب أضواء الشاطئ».

صمت هنريك.

قال مدحت: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

قال هنريك: «حسنًا، ها أنا هنا». أنزل يديه ووضعهما على البطانية. ذراعاه ممتدان باستقامة، كأنه طفل.

انتاب مدحت إحساس بأنه أُخرِج من القصة قسرًا. تساءل إن كان، على نحو ما، قد سهى عن الحدث الذي كان ذروة القصّة، الحدث الذي يفسر كيف صار هنريك في هذا المأوى. حاول التفكير في طريقة تسمح له بسؤاله عن زوجته وطفله. لم يهتد إلى الكلمات المناسبة. في تلك اللحظة، اختفت بقعة الضوء عن الجدار، وغدت الدوائر الصفراء التي يرسمها نور المصابيح على السقف أكثر سطوعًا. طنّت بعوضة وطارت متكاسلة، متخمة بدم أحدهم، ثم حطت واستقرت قوائمها على الجدار عند السرير.

سمع صوتًا يقول: «أشكرك على رسالتك».

صفعة من يد، وبقعة دم ظهرت على جص الجدار.

لم يكن مدحت في حاجة إلى الالتفات صوب من كلّمه. كان قادرًا على الإحساس بها إلى جانبه. شعر بوهج الإثارة والترقّب.

أطلق ضحكة: «آه، نعم، الرسالة. أهلًا بك. حقًّا. كان هذا مبعث سرور لي. وعليّ القول... أراحني أنها وصلتك».

استدار حتى ينظر إلى وجهها. كم كان هذا غريبًا! لم يستطع يومًا تذكّر وجهها بهذا الوضوح كلّه. ابتسمت فظهرت تلك الغضون الرقيقة في جلدها، تحت عينيها. مد يده ومسّ كتفها، فشهق عندما أحسّ الضغط المألوف لجسدها تحت كفه. زال عنه حنقه كله.

قالت جانيت: «عندما سافرت،...». أطرقت برأسها محاولة العثور على كلمات... «رحل دفء البيت من بعدك». ابتسمت له... «كنت عديمة الفائدة كممرضة، لكنهم كانوا في حاجة إلى العون، حتى في أعمال التنظيف».

«أنا واثق من أن أداءك كان أفضل مما ظننتِ».

مست يده فبثّت أصابعها الجافة الباردة رعشة جديدة في صدره. استنشق الهواء وأحسّ بالحرارة المنبعثة من جسدها. كان هذا يحدث حقًّا.

قالت: «لقد مرّت أربع سنين منذ أن غادرتنا في مونبلييه. أربع سنين! لا أستطيع التصديق».

هزّ رأسه: «أنا لا أصدق أيضًا. صوتك... اشتقت إلى صوتك».

«أتمنى ألا يكون ما جرى أمرًا نهائيًا». ظهرت تقطيبة غم على جبهة جانيت، وتهدّلت وجنتاها تحت طرفي عينيها.

قالت له: «عشت في ألم زمنًا طويلًا».

«أعرف هذا».

تلك الحقيقة! كم مرة حاول تصوّرها فلم يظفر إلا ببقية واهية مما يستطيع ربطه بها. شد قبضته على كتفها، وأحس بالعظم الصلب. مد يده الأخرى ومس أسفل ذقنها بإصبعه، أحس بنعومة خدها الباردة العجيبة، واندفع طوفان من الأحاسيس إلى أذنيه وأنفه وحلقه -أشعة الشمس على المرج، وكريستال الثريا، وشجرة عبر النافذة- صدى كنيسة مظلمة عالية، ورائحة عصير العنب المتخمّر، وأصوات تتردّد أصداؤها منعكسة عن الجدران.

أحسَّ باحتراقٍ في معدته، وحرارة تصعد إلى رقبته. كان هناك صوت رنّان مرتفع.

قالت جانيت: «ليتني استطعت رؤية وجهك».

أمسك بيديها وضمّهما معًا.

قال لها: «لكنّي هنا».

بدأ ذعره يزداد.

«أشعر أحيانًا كأنني أحسّك في أنفاسي».

قال هنريك: «ليتني أستطيع أن أكون في المستشفى الذي في القدس».

نظر مدحت من حوله. كان هنريك جالسًا في سريره، يدعك عينيه.

«سمعت أن لديهم هناك معالجات تجعلك تغرق في غيبوبة. تعبت كثيرًا من يقظتي».

قال مدحت: «جانيت؟».

«من هي جانيت؟».

مدّ مدحت يديه فلم تجدا شيئًا غير الهواء.

«حسنًا، لماذا لم تذهب إلى القدس؟».

قال هنريك: «كانت التكلفة كبيرة جدًّا». بدا في صوته شعور بالإساءة.

نظر مدحت إلى هنريك فرأى يديه تدخلان تحت الغطاء وتزيحانه عنه من جديد. رأى في يديه قرصًا ذهبيًا. دعك هنريك حافة القرص بإبهامه. كان ذلك ساعة جيب. فتح غطاءها فكشف وجهها، ثم بدأ يقرن لولبها الصغير. حدّق مدحت في الساعة. كانت تصدر صوتًا، تكتك. رأى أرقامها من مكانه، كانت أرقامًا عربية. وثب قلبه مصارِعًا رئتيه.

قال ببطء: «من أين حصلت عليها؟».

«حصلت على ماذا؟».

أشار مدحت: «هذه. هذه الساعة».

قال هنريك: «أوه، هذه! أتتني هدية».

«من قدّمها إليك؟».

كان تعبير الدهشة الذي ظهر على وجه هنريك ممتزجًا بشيء آخر. فضول. كان ينظر إلى مدحت بفضول واهتمام.

قال له: «لماذا تسألني؟ لقد أتتني هدية من واحد من أصدقائي».

انفتح فمه المباهي أكثر مما كان ضروريًا.

«هل أستطيع رؤيتها؟».

«لا».

انتظر مدحت لحظة، ثم قال: «أرجوك».

قال هنريك: «لماذا أعطيك إياها؟ لا أريد أن أعطيك إياها».

استدار جسد مدحت كلّه تحت غطائه إلى أن صار في مواجهة هنريك تمامًا: «ما اسم الصديق الذي أعطاك الساعة؟».

«سيرينا».

«لا، هذا غير صحيح».

قال هنريك: «أنت مجنون». بدت عليه البهجة.

كرّر مدحت بنبرة أكثر برودة كما لو أن الفكرة لم تخطر في ذهنه إلا الآن: «من أعطاك هذه الساعة؟» لكن حركة يده أفشلت حيلته، فقد امتدت من غير أن يستطيع السيطرة عليها: «دعني أراها. دعني أراها».

ضحك هنريك وقال: «إنها ساعتي. لا أستطيع إعطاءك إياها. أتظنّ أنني يمكن أن أعطي عربيًا مجنونًا شيئًا ثمينًا إلى هذا الحدّ؟ هل فقدت عقلك؟».

«أعطني إياها! أعطني إياها!...». كان مدحت قد ترك سريره وعثرت أصابعه على رقبة هنريك، فراح يضغط عليها ضغطًا شديدًا جعل عينا جاره تجحظان ووجهه يحمرّ محتقنًا. دفع صدر مدحت بيديه، لكنهما كانتا أضعف من أن تقدرا على دفعه. راح غريمه يصرخ بالبولندية، ثم بالفرنسية.

«Lâchez-Moi! Lâchez-Moi[1]».

أمسك أحدهم بمعصمَيْ مدحت، وطوّق آخر وسطه. جرّوه فأعادوه إلى سريره. ضغطوا ذراعيه وساقيه فوق فراشه.

تحشرج صوته في حلقه: «لا، لا، لا...». أمسكت به أربع أيدٍ وثبّتته على السرير. كان صدره يحترق. «لقد قتلته. أنا قتلته. أنا قتلت لوران». عب فمه الهواء... «لا، لا لشيء، قتلته لا لشيء».

(1) اتركني! اتركني.

# - 6 -

كانت غادة كمال مولعة بالجنازات. تنتهي المدرسة في الساعة الثالثة، فتصغي علّها تسمع صوت طبول. فإذا سمعت طبولًا عند خروجها من المدرسة، حتى إن كان الصوت خافتًا، آتيًا من بعيد، فهي تتبعها. تراقب الطريق بحثًا عن أية إشارة توحي بحركة غير معتادة، وتصغي إلى ما خلف أصوات السيارات بحثًا عن بقايا أصوات حزينة، هناك -حيث تتباطأ حركة الشارع، ويفسح المشاة الطريق منعطفين في الأزقة- تعدو غادة حاملة علبة السندويتشات الفارغة ضامة إياها إلى صدرها؛ تنعطف عند زاوية، ثم عند زاوية أخرى، حتى تصل أخيرًا إلى موكب الجنازة، إلى الأشخاص المرتدين ملابس سوداء أو زرقاء داكنة، الرجال أولًا، ثم النساء، ثم الطبول. أهل الجنازة عند جسد الميت تتناوب أصواتهم صائحة «لا إله إلا الله»، فيردّد الآخرون من خلفهم «لا إله إلا الله». تندسّ غادة بين صفوفهم، تغمرها ضخامة الأصوات، وتلاحق النعش مسرورة، تتبعه طيلة الطريق إلى المقبرة.

كان من بين الجوانب الحسنة للإقامة في بيت سيدو نمر وتيتا وداد خلال فترة غياب بابا أن بيتهما أكثر قربًا من المدرسة ومن مركز المدينة. لكن البيت ليس له سوى مدخل واحد؛ وهذا أمر سيّئ. في بيتها، كانت تتسلّق بوابة الحديقة السفلى وتخرج، ثم تتظاهر بأنها أمضت الوقت كله بين النباتات والزهور. لكن أسوار حديقة بيت سيدو كانت عالية. وكان معنى هذا أن غادة تفضح نفسها كلّما رنّت جرس الباب؛ وكانت تفضح نفسها حتى إذا لم ترن جرس الباب، لأن أمها تسأل بقية أفراد الأسرة إن كان أحدهم قد سمع صوت الجرس. فتكتشف، في الحالتين، إن كانت ابنتها الصغرى قد عادت إلى البيت أم لم تعد. كانت مسرّة تراوغ محاولةً الدفاع عن أختها فتقول: «لست أدري. ربما سمعت الجرس، وربما لم أسمع الجرس». لكنّ طاهرًا كان يتعمّد أن يظل منتبهًا. تسأل الأم: «أين غادة؟ هل عادت غادة إلى البيت؟».

يجيبها طاهر: «اسألي عمّن مات اليوم، سوف تكون غادة هناك في الجنازة».

لكن حقيقة الأمر هي أن أمّهم لم تبدي اعتراضًا حقيقيًا على ذلك. على أن ما كان يزعج غادة هو إحساسها المتزايد بأنها غير قادرة على فعل شيء من غير أن يعرف به الجميع. وكانت ترى أن هذه واحدة من المشكلات الناتجة عن أنها تكبر.

أخبرتهم أمهم عندما دخلت مرة إلى غرفة نومهم في بيت سيدو، مرتدية قميص

نومها البني الخفيف، بأن إقامتهم في بيت جدَّيهم سوف تستمر إلى أن يعود أبوهم. نفخت غادة استياء من غير أن تقول شيئًا، وألقت بنفسها على سريرها. سمعت مسرّة تسأل أمها عن وقت عودة أبيها؛ فكانت الإجابة: «لست أدري».

لم يأت بابا إلى عيد ميلاد غادة السابع. يومها، قال لها خالد: «تعرفين أنك لم تكبري إلا يومًا واحد، لا سنة واحدة. هذا وهم». أُعلن الإضراب العام في يوم عيد ميلادها. وهذا ما كان معناه أن عيدها قد ضاع تمامًا لأن المدعوين جميعًا لم يتحدثوا إلا عن الإضراب عندما أتوا لتناول الحلوى. كانت المصيبة في حياة غادة أن الناس يتجاهلونها عندما تريد أن ينتبهوا إليها ويهتموا بها، لكنهم يلاحظونها عندما تريد ألا ينتبه إليها أحد.

إلا أن هدوءًا غير معتاد كان يسود الشوارع منذ يوم ميلادها، باستثناء أصوات إطلاق النار في الليل. وعندما تُرافق غادة إحدى الجنازات، كانت ترى أبواب المتاجرِ مغلقة، ومصاريعها المعدنية مقفلة، والأرض خالية من الفضلات والمهملات الناتجة عن حركة السوق، ومن الأوراق والشرائط والعلب الفارغة التي تكون منتشرة في الشارع وقت إغلاق السوق في الأيام المعتادة. ففيما عدا جماعات من الفلاحين المسلّحين تظهر في المدينة أحيانًا، لم تر غادة أي شيء يشير إلى أن أحدًا يضرب أحدًا آخر[1].

كانت تتساءل، وهي تصعد التل الخالي في اتجاه المقبرة الشرقية جارّة من خلفها لفافة صوف تدعوها «قطتها»، إن كان رجال نابلس قد ذهبوا إلى القدس لكي يضربوا الناس هناك. تخيّلت أباها عند باب دمشق في القدس يضرب بعصاه رجلًا آخر. لكن، مهما يكن الأمر، فقد جعل هذا الهدوء الجديد ترصُّد أصوات الجنازات أكثر سهولة؛ وصارت غادة قادرة على إدراك النعوش قبل أن تبلغ القبور.

كانت تفضّل الجنازات المسيحية لأن فيها موسيقى، فضلًا عن ضرب الطبول. وكانت تحدّق في وجوه الموسيقيين مسحورة بحركة أصابعهم السريعة. تسير واثقة الخطى، فلا يشك أحد في أنها تعرف المتوفّى. لقد ألِفَت المقابر كلّها، وصارت تفاصيل شواهدها معروفة لديها مثلما يعرف المرء منظر بلدته عندما تلوح له من بعيد وهو عائد إليها بعد غياب. كانت تعرف المقابر المسيحية القائمة عند الكنائس المختلفة. النصب والتماثيل الأرثوذكسية والرومية؛ وكذلك مقبرة المسلمين الغربية حيث تدفن عائلة أمها موتاها وتحرص على إعادة طلاء قبورهم باللون الأبيض؛ والمقبرة الشرقية القائمة إلى جهة الشمال، قريبًا من جبل عيبال ومحطة القطار. بعد أن يتم إنزال التابوت الذي

(1) اللبس بين كلمتي «إضراب» و«ضرب» في ذهن غادة الصغيرة.

يضم جسد المتوفّى في باطن الأرض، وتلاوة الشيخ أو القس بعض العبارات الدينية، تنطلق غادة بين شواهد القبور وتسير في الشوارع الهادئة عائدة إلى بيت جديها.

وفي إحدى أمسيات شهر حزيران، ظلت غادة في المقبرة بعد أن انصرف حشد المشيّعين. راحت تنظر عبر باب كنيسة الروم الأرثوذكس الذي تزينه قنطرة من فوقه. كان مطرٌ متأخّر قد جعل رائحة غنية تنبعث في المكان، خارج الكنيسة؛ وكان حذاؤها متّسخًا بطين المقبرة. لكن رائحة البخور لا تزال منبعثة من داخل الكنيسة، بقايا رائحة من المباخر التي كانت تتأرجح في الممرات قبل دقائق. لم يبق في المكان أحد غير القس مرتديًا ثوبه الأسود الطويل، ومن فوقه قبعة. لحيته منشورة فوق طيات ردائه. كان يوقد الشموع؛ شمعة نحيلة مشتعلة في يده يقرّب رأسها من فتيل كل شمعة حتى ينتقل اللهب إليها.

كان النهار يزداد طولًا. إلا أن غادة لم تتوقّع حلول الليل بهذه السرعة لأن الهواء الرطب بعد المطر ظلّ محتفظًا بدفء النهار. ولم تلاحظ بدء انحسار الضوء في السماء من خلفها إلا عندما سمعت أصوات المآذان تنطلق داعية إلى الصلاة. شهقت. كان الجري أول ما أملته عليها الغريزة؛ وكانت ستجري نحو البيت لولا ظهور أشخاص يجرون في الشارع أمام الكنيسة، في تلك اللحظة نفسها.

تقطّعت أنفاسها، وتراجعت خطوة تحت قنطرة المدخل. تزايدت أعداد الراكضين في نصف الظلمة. كوفياتهم تخفق متطايرة من خلف رؤوسهم، وأقدامهم تصفع الأرض. كانت قادرة على سماع حفيف ثيابهم على أجسادهم وقعقعة الأشياء التي كانت في أيديهم. أحكمت قبضتها على علبة السندويتشات ولزمت مكانها من غير أية حركة. تناقصت أعدادهم الآن، وصار يمر أمامها اثنان أو ثلاثة منهم. كان في المشهد شيء غريب؛ إنّ أيًا منهم لم يكن يتكلّم. سمعت رشقة رصاص في البعيد، فزادت أشباح الفلاحين من سرعتها. ظهرت امرأة عند أحد الأبواب على الناحية الأخرى من الشارع. تنحّت المرأة جانبًا، ومر ثلاثة رجال راكضين عند بيتها من غير أن يخفّفوا سرعتهم.

«ماذا تفعلين هنا، يا صغيرة؟».

رفعت غادة رأسها. كان القس مستندًا إلى قنطرة الباب بكفّ يده. حاجباه الكبيران جعلا محجري عينيه في الظل.

«أين أبوك وأمك؟».

نظرت إليه غادة موشكة على البكاء.

«لا تبكي. لا، لا، لا».

راح يقول ذلك الكلام عديم المعنى الذي يستخدمه مع الأطفال الأشخاص الكبار

الذين لا أطفال لديهم، ثم قرفص لكي يحملها. ولم تلبث أن وجدت نفسها في الهواء، ذراعاه حول وسطها. حملها ودخل بها إلى الكنيسة. انفجرت الدموع من عينيها غزيرة بعد أن انهار سدّها الوحيد في مواجهة الخوف عند أول لمسة عطف.

«هل تعرفين مكان بيتك؟».

«بالطبع، أعرف مكان بيتي». قالت هذا بنبرة ازدراء.

همس لها مشيرًا إلى الباب: «سوف ننتظر إلى أن يختبئ الثوار».

ظهرت مركبتان مدرعتان كبيرتان. رأتهما عبر الباب كأنهما تتحرّكان على خشبة مسرح. كان على المركبتين مصابيح كاشفة أنارت الطريق أمامهما. وأخيرًا، أصوات، صياح بالإنجليزية.

استندت غادة بظهرها إلى خشب مقعد الكنيسة القاسي اللامع في حين أغلق القس الباب وأقفله، ثم عاد فقرفص أمامها بحيوية لا يتوقّعها المرء من قس. كان يكلّمها من جديد، لكنها لم تستطع سماعه. كانت شديدة الانشغال بدموعها التي لا تعرف التوقّف، والتي ترهقها. أحسّت بقماش خشن عند أسفل أنفها. ثم صار القس إلى جانبها، جالسًا على المقعد. طلقات الرصاص تزعق خلف الباب. حاول أن يضع يديه الكبيرتين العجوزتين على أذنيها، لكنها دفعتهما عنها. لم يخيّم الهدوء من جديد، ولم تتوقّف غادة عن البكاء، إلا بعد أن اكتمل سواد الليل. فتح القس الباب على الليل المظلم، ثم حملها من جديد.

وخلال سيرهما، كان ينشد بصوت مرتفع، «ارحمنا يا رب، ارحمنا. لأننا متحيّرون عن كل جواب». ترنيمة بطيئة منغّمة شديدة الكآبة. كانت غادة متعلّقة بعنقه؛ وكانت تحسّ اهتزازًا عميقًا في جانب جسدها لأن علبة السندويتشات التي حملها القس في إحدى يديه تحت ساقيها كانت تصطدم بفخذه. مرا بجماعة جنود يحاولون النظر عبر نوافذ واحد من البيوت، فرفع القس صوته بترنيمته. رفع الجنود رؤوسهم مثلما تفعل الحيوانات، ونظروا إليه. أضاف القس بضع كلمات إنجليزية كانت غادة تعرفها من المدرسة: «المجد للآب والابن والروح القدس». فقد الجنود اهتمامهم به.

همست له عندما أنزلها عند باب بيتها: «شكرًا، أيها الأب».

قال لها: «تصبحين على خير». كانت علبة السندويتشات متدلية من أصابعه. مسّ قمة رأسها، ثانية خاطفة. استأنف إنشاده عندما بلغت منتصف السلم. وفي النور الواهي المنبعث من النوافذ، رأت أسفل ثوبه يتمايل من جانب لآخر.

فتحت لها أمها الباب: «أين كنت حتى الآن؟».

«أوصلني القس إلى البيت».

«القس!...». صفقت أمها الباب. كانت فتحتا أنفها متسعتين غضبًا: «لن تذهبي إلى الجنازات بعد الآن. لن تذهبي إلى الجنازات. إذا لم تعودي إلى البيت بعد انتهاء المدرسة، سوف تلحق بك الغولة، وتأكلك».

نظرت غادة إلى قسمات وجهها. تلك الرقبة الممتطّة حنقًا. رأتها بشعة بشاعة فظيعة.

«أين كانت غادة؟».

سأل طاهر الواقف في الممر مرتديًا بدلة صوفية وطربوشًا كبيرًا على رأسه.

قالت غادة: «اذهب من هنا».

«لا تقولي هذا لأخيك».

ابتسم طاهر ابتسامة سريعة وتابع سيره مغنيًا بالإنجليزية: «كان لغادة مهر صغير، وكان لونه أبيض كالثلج. أين ذهب المهر، وأين ذهبت غادة؟ لا نعرف شيئًا عن هذا».

قالت فاطمة: «أين تعلمت هذا؟».

هز الصبي كتفيه: «أوزلبارت، أوزلبارت، أين كنت؟ ذهبت إلى دمشق لأرى الحاج أمين».

«كفّ عن الكلام بالإنجليزية».

تجاوزت غادة أمّها. وعندما لم تلق ممانعة، صعدت السلّم جريًا متّجهة إلى غرفتها. كانت مسرّة جالسة في النافذة ترثو ثقبًا في فستانها الذي بسطته على ساقها. رفعت رأسها عند دخول غادة ونظرت إليها.

استلقت غادة على ظهرها مترقّبةً عقوبتها. كانت مصغية في انتظار سماع صوت خطوات. وكلما اقترب الصوت، تحبس أنفاسها. لكن الخطوات كانت تتجاوز الباب في كل مرة. انقلبت على جانبها فصار وجهها إلى الجدار. همهمت الريح، وكان مطر خفيف ينقر زجاج النافذة.

استيقظت فكان الوقت صباحًا. لقد ذهبت أختها. كانت عليها بطانية أزاحتها عنها فرأت أنها لا تزال ترتدي ملابسها. لقد خلع أحد حذاءها من قدميها ووضعه على الأرض.

غيرت سروالها الداخلي. وضعت قدميها في حذائها من غير أن تمسّ الطين الذي تيبّس عليه، ثم أخذت قطعة جبن من المطبخ وخرجت من البيت. لم تر أثرًا لأمها. كان الصباح لطيف البرودة، مشرقًا. سيارات قليلة في الشارع، وما من أحد يسير على قدميه. مجموعة جنود مسلّحين جالسين في صندوق شاحنة فورد ثندر، منحنين على بنادقهم. لم يهتم الجنود بها. توقّفت لحظة عند أعلى الشارع الصاعد من بيت سيدو. ثم انعطفت صاعدة في الطريق العلوي المؤدّي إلى بيتهم القديم. تخيّلت في سيرها أن بابا سيكون

هناك. أمّها الشريرة تمنعها من رؤيته. بلغت منتصف الطريق فاستولى عليها شوقها إلى الصورة التي تخيّلتها. وما إن بدت لها زاوية البيت من بعيد حتى بدأت تجري مستعدّة للقفز بين ذراعيه. توقّفت عند الباب ضاحكة، متقطّعة الأنفاس.

كانت مصاريع النوافذ الخارجية مغلقة. بردَ الهواء في ظل الشجرة. استفزّها الباب المغلق. لكن شوقها إلى بابا كان قويًا فوضعت يدها على الدرابزين الحديدي الصدئ المتقشّر وصعدت الدرجات. أدارتِ مقبض الباب، لكنها ظلت تحاول إلى أن تعرّقت أصابعها على الحديد البارد ولم ينفتح. ثم سمعت صوتًا. في البيت، أو قرب البيت، لم تستطع معرفة ذلك، انسلّت هاربة. نزلت الدرجات وراحت تجري. بدا لها الطريق أكثر طولًا، وآلمتها ساقاها. كان حذاؤها يصفع الأرض صفعًا. أبطأت جريها عند التقاطع. صارت تمشي، لكن ظل قلبها يجري.

قالت سحر عند عتبة الباب: «كنت أبحث عنك. قال لي جيرانك إنك هناك».

كان ذلك في أول العصر. ولم تكن فاطمة تتوقّع أن يأتيها أحد. كانت سحر متعرّقة بوضوح لشدّة الحر.

«هل أنت واثقة من أن عليك أن تسافري وأنت في هذه الحال؟».

«لعلّ هناك أشياء كثيرة لا ينبغي لي فعلها». تنهّدت سحر وبسطت أصابعها فوق بطنها الحبلى.

جلستا معًا في غرفة الاستقبال الكبيرة، فاطمة على الأريكة في مواجهة الباب، وسحر على كرسي عند الزاوية. كان الانتفاخ قد بلغ رقبتها، وكان لها ذلك المظهر الثقيل المتبلد لشخص مرهَق لم يعد يحتمل نشاط جسده.

«تفضّلي...». قالت فاطمة هذا مشيرة إلى طبق فيه بلح... «هل كان هناك جنود كثيرون؟».

أومأت سحر برأسها: «على الطريق من القدس. رأيت قطارًا مقلوبًا».

«الحمد لله. كيف حال زوجك؟ هل هو محتجز حتى الآن؟».

«أجل، لم أسمع إلا القليل. أعرف أنه يتابع نشاطه في سجنه. يوجّه رسائل إلى البريطانيين، وإلى المفوض السامي. بكلمات أخرى، إنه يعمل...». وضحكت... «قال لي إنهم يمارسون التأمل كل يوم. إنها الطريقة الوحيدة للتأقلم مع الوضع».

«هل يخرجون إلى الهواء النقي؟».

قالت سحر: «أجل، إنهم يخرجون».

«سمعت أن هذا أمر مهم».

«وماذا عن مدحت؟».

قالت فاطمة: «مدحت لا يكتب...». صمتت لحظة... «ساقه تتماثل إلى الشفاء».

«هذا جيّد. جيّد».

نظرت فاطمة مليًا إلى سحر. هاني هو الشخص الذي تريد كثيرًا أن تتكلّم معه. إنها توّاقة إلى سماع تأكيداته بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وبأن الغمّة ستنجلي سريعًا. سيقول لها إن مدحت يعاني اضطرابًا مؤقتًا وسوف يُشفى عما قريب. هذا لأن هاني، وبصرف النظر عن كونه معروفًا بأنه شخص عاقل، يعرف مدحت أحسن مما يعرفه أي شخص آخر. كان في حاجة إلى من يقول لها إن هناك سببًا منطقيًا خلف ما حدث كلّه. عادة يكون مدحت من يقول لها هذا. لقد صار صعبًا عليها أن تحافظ على توازنها من غيره، وأن تتجاذب أطراف الحديث مع أهلها... ذلك الخوف الدائم من المصيبة، الخوف الذي تحسه دائمًا عند حافة وعيها فتستيقظ كل صباح متقطّعة الأنفاس غير راغبة في تناول الطعام. صحيح أنها تعيش الآن مع أبيها وأمها، لكنهم لا يوفّران لها أية سلوى. أبوها ذاهل إلى حد يجعله غير قادر على مناقشة أي شيء معها، وتحفظ أمها القديم إزاء مدحت لا يزال واضحًا... يفرض نفسه دائمًا.

لم تكن قادرة على صياغة أي شيء على صورة سؤال. لقد اعتادت ارتداء درعها الاجتماعي اللامع، والظهور بمظهر غير المحتاجة إلى شيء. وكانت راغبة في أن تمنحها سحر شيئًا من الراحة، لكنها لم تعرف كيف تعبّر عن تلك الرغبة. بعد بضع ثوانٍ من التفكير، انتبهت إلى أن سحر تبتسم ففهمت أن وجهها كان يوحي بأنها موشكة على الكلام. قالت لها: «كم تظنين أن الإضراب سيستمر؟».

«أظنهم سيقدمون تنازلات خلال شهر أو شهرين».

«من هم؟».

«البريطانيون». هزّت سحر ساقها بحركة ثقيلة وأفلتت نفَسًا كانت تحبسه... «تعرفين أن هناك أشخاصًا يقولون إن البريطانيين، إن كنا محقين، سيفهمون منطقنا، بالطبع. إن لديهم هذه الفكرة عن العدل البريطاني، كما تعرفين. لكن، إذا أردتِ الصدق، يا فاطمة، فظنّي هو أن البريطانيين مصدومون. لقد فاجأناهم وصدمناهم. هذه هي الطريقة التي يمكن أن تجعلهم يرضخون. يدعون ذلك جريمة. مش مَعقُول. إذا كانت الرغبة في وطن جريمة...» ضحكت وارتفعت نبرة صوتها المتعب للمرة الأولى... «فكلنا مجرمون! عليهم أن يحبسونا جميعًا».

«آه، يا ربي، لا». أحسّت فاطمة بالأسف على سحر. وبعد لحظة، حلّت محلّ ذلك الإحساس موجة من الأسف على نفسها. قالت لها: «من الأفضل أن تكتفي بطفل

واحد».

«واحد!».

«أربعة أطفال كثير جدًا».

«هل يصعب عليك أمرهم؟».

هزّت فاطمة رأسها وهمست: «غادة».

أتى صوت من الخارج: «فاطمة! فاطمة! افتحي الباب».

«لحظة، لحظة».

كانت أم طاهر واقفة أسفل درجات السلم. على رأسها قطعة قماش رقيق مربوطة تحت شعرها. بدت مرهقة. مدّت يدها إلى الأعلى؛ فتحت أصابع كفّها ثم أغلقتها. نزلت فاطمة درجتين وطوت ذراعها حتى تشبك أم طاهر ذراعها بها وتستند إليها.

«ماذا حدث؟ هل كل شيء بخير؟».

«بخير، ماما». تحرّكت أم طاهر ببطء مجرجرة ساقها. لم تكد تعتمد على ذراع فاطمة في سيرها... «باستثناء أن وصفي وجميلًا قد جعلا بيتنا ممتلئًا بالمقاتلين، وبأوساخ منتشرة في كل مكان. فظيع. أكاد أموت من هذا. الضجيج. أحذيتهم...». شهقت عندما دخلت الغرفة ورأت من فيها... «سحر! أين زوجك! أو لا لا، كبرت بطنك كثيرًا».

«إنه في معسكر اعتقال. كيف حالك؟». نهضت سحر واقفة على قدميها وانحنت صوب أم طاهر وقبّلتها قبلتين.

«ألا يزال هناك؟ الله يعطيك العافية، حبيبتي». ربّتت أم طاهر على ذراعيها... «لقد رأيت مدحت اليوم».

قالت فاطمة بصوت خفيض: «كيف حاله؟».

مطّت أم طاهر شفتيها، ولم تبتسم: «أين غادة؟».

قالت مسرّة التي دخلت الغرفة في تلك اللحظة: «اسألي عمّن مات اليوم...». فتحت ذراعيها متّجهة إلى جدّتها... «مرحبًا، تيتا».

قالت أم طاهر: «من مات اليوم؟ أين جدتك؟».

قالت وداد بنبرة سخرية مرهَقة وهي تدخل الغرفة: «لا أزال حيّة...». ثم قالت بصوتها الاجتماعي الصادح: «كيف حالك، كيف حالك». قبّلت الضيفتين. قالت كأنها تخاطب بطن سحر: «ما شاء الله! في أي شهر صرتِ؟».

قالت سحر: «مات اليوم أشخاص كثيرون في عين الحرامية. سبعة. أعني سبعة شهور، لا سبعة قتلى. لا أعرف عدد الذين قتلوا».

«من؟».

جلست أم طاهر وقالت: «آه، إنه شيء من تلك الأشياء التي تحدث عادة. يضع الثوار صخورًا في الطريق. تصل سيارة الجيش وتتوقّف. يخرج منها الإنجليز، فيبدأ الثوار إطلاق النهار عليهم من التلال. قتل عدد من الثوار، وذهب الباقون إلى بيتنا».

قالت فاطمة: «هل هم المقاتلون الذين في بيتك؟».

«أجل، أجل».

«مسرّة، اصعدي إلى الأعلى».

«لماذا يا ماما؟».

قالت أم طاهر: «دعيها تبقى هنا. ينبغي أن يعرف الأطفال. نحن نقاتل جميعًا. حتى أنت وأنا».

قالت سحر: «ما عداي. أنا لا أقاتل».

قالت أم طاهر: «حبَلُك قتال. سوف تلدين مقاتلًا. سيكون صبيًا، إن شاء الله».

قالت وداد: «وكيف حال حفيدك؟».

ضيّقت أم طاهر عينيها: «ساقه تُشفى سريعًا».

«لستِ في حاجة إلى...». بدأت وداد قول هذه الكلمات بنبرة لطيفة، ثم سكتت.

قالت فاطمة: «مسرّة، اصعدي إلى الأعلى».

قالت مسرة: «لماذا؟».

فتحت أم طاهر كفّيها: «لا بأس، إنه يتحسّن».

قالت مسرة: «أنا أعرف مكان بابا».

نظر الجميع إلى البنت. كانت تسريحة شعرها المنفوخة الجديدة تجعلها تبدو كبيرة لولا وقوفها على ساق واحدة وتمايلها إلى الأمام وإلى الخلف.

قالت مسرّة: «هو في مستشفى المجانين».

قالت أم طاهر: «بابا ليس مجنونًا. بابا حزين فقط».

سألتها مسرة: «ولماذا هو حزين؟ هذا ما لا يرضى أحد أن يقوله لي. هل هو حزين على فلسطين؟».

ضحكت أم طاهر: «ربما. قد يكون حزينًا على فلسطين».

قالت وداد: «وكيف المستشفى؟».

قالت فاطمة: «لا أريد مزيدًا من الكلام في هذا الأمر. ماما، لا تنظري إليّ هكذا».

«أنا لا أنظر إليك».

قالت أم طاهر: «علينا أن نخرجه من المستشفى».

قالت فاطمة: «لماذا؟». لكنها هزّت رأسها لكي تحول دون ردّ أم طاهر... «كلما

تكلّمنا أكثر،...».

قالت سحر: «لن أخبر أحدًا. هذا وعد...». وضعت يدها على قلبها وظلّت يدها الأخرى تحت بطنها كأنها ترفعه إلى الأعلى... «ليس لدي من أخبره أصلًا. في الحقيقة أنني أعيش وحدي».

قالت أم طاهر: «هل تعيشين وحيدة؟ وأنت هكذا؟ يا سلام؟ ماذا يجري لنا؟ ينبغي أن يكون معك أحد. عليك أن تأتي وتسكني معي».

قالت سحر: «شكرًا، يا تيتا. بعد وفاة أمي...».

علّقت أم طاهر: «الله يرحمها».

أكملت سحر: «شكرًا، الله يرحمها. بعد وفاتها، لم يعد لدي أحد من عائلتي في القدس، غير زوجي. والآن، بعد أن حبسوه...».

بدرت عن وداد حركة استنكار مبالغ فيها، وهزّت رأسها قائلة: «إنهم يجرّدوننا من كل شيء. يجردوننا من كل شيء».

قالت سحر: «لديّ خادمة، بالطبع. لذا، لست في حاجة حقيقية إلى أي شيء».

قالت أم طاهر: «حاجات، حاجات. هناك حاجات، وهناك حاجات. هناك أحد عند الباب».

سألتها فاطمة: «هل سمعت شيئًا؟».

«أجل، سمعت. هناك أحد».

كلّهنّ سمعن الصوت هذه المرة: صوت مرتفع يشبه نباح كلب. مضت فاطمة إلى النافذة وأحاطت وجهها بكفيها حتى تنظر عبر الزجاج. قالت: «إنه رجل. أين منديلي؟».

صدر عن أم طاهر صوت كالشخير. فكّت وداد المنديل من حول رقبتها ورفعته إلى رأسها. لفّته مرتين، ثم حشرت أطرافه تحت ذقنها. أتت فاطمة بحجاب سحر الأسود الذي كان بين المعاطف، ثم انتقت لنفسها واحدًا بنيًا.

قالت مسرّة: «أنا ليس عندي حجاب».

قالت فاطمة: «قلت لك أن تصعدي إلى الأعلى. تيتا!».

«نعم».

«ألا تريدين أن أعطيك حجابًا؟».

قُرع الباب من جديد.

قالت أم طاهر وهي تغمض عينيها تأكيدًا على كلامها: «لا، شكرًا». أدارت وجهها جانبًا، أدارته قليلًا كأنها أرادت إظهار قطعة القماش الصغيرة المثبتة فوق شعرها. كانت قطعة القماش مربوطة من الخلف، تاركة رقبتها مكشوفة مع قسم كبير من مساحة

شعرها الشائب.
صاحت فاطمة وهي تخطو مسرعة في اتجاه الباب: «مسرّة، إلى الأعلى».
صدر عن مسرة صوت استياء كالذي صدر عن جدّتها قبل قليل، ثم انسلّت خارجة من الغرفة.
كان واحد من الثوار واقفًا عند الباب. أنف كالبصلة، ووجنتان ناتئتان، قاسيتان. على رأسه كوفية ثبّتها بعقال أسود من فوقها. سترة كاكية اللون على الطراز العسكري العثماني، ومعها بنطلون قذر غريب الشكل مما يلبسه الناس تحت القنباز. فوهة بندقية معلّقة على كتفه بارزة من فوق كتفه.
قالت له فاطمة: «مساء الخير، ماذا تريد؟».
«أين زوجك؟». وضع يده على صدره، وداعبت أصابعه الرصاصات المصفوفة هناك.
قالت فاطمة: «في المستشفى».
«هل هو طبيب؟».
«لا».
نظر إليها من غير تحفّظ: «نريد أن نعرف إن كانت لديكم ذخيرة، أو إن كان لديكم أي رجال قادرين على القتال». ظهرت في كلامه لهجة قدّرت فاطمة أنها من شمال الجليل. نظر الرجل إلى الغرفة من خلفها حيث كانت النساء جالسات على الأريكة والكراسي، ساكنات تمامًا، محجّبات كلّهنّ عدا أم طاهر.
قال الثائر: «هل هذه المرأة يهودية؟».
قالت فاطمة: «لا. إنها جدة زوجي».
تجهّم وجه الرجل: «إذًا، هل لديكم رجال هنا؟».
قالت فاطمة: «أبي فقط. وهو كبير السن كثيرًا».
«أولادك؟».
«عندي ولدان، في الثانية عشرة وفي العاشرة».
«إخوة؟».
«أخي ذهب لكي يقاتل. اسمه برهان حماد. لعلك سمعت به».
قال الثائر: «لا، لا أعرفه». تراخت هيئته العسكرية قليلًا كأنه غرق في أفكاره، ثم مال برأسه جانبًا. أدركت فاطمة بعد لحظة أنه يحاول الإصغاء. استدار الرجل وصاح مخاطبًا شخصًا لم تره فاطمة: «لا أحد هنا». استدار إلى فاطمة ورفع قبضته مظهرًا لها أسفلها.

أومأت برأسها: «على راسي».
«الله معك، ستي».
قالت سحر بعد أن أغلقت فاطمة الباب ونزعت المنديل عن رأسها: «إننا نجمع المال من أجل المقاتلين».
«برافو. أنا قلقة على غادة. هل يعرف أحد مكانها؟».
دُق الباب من جديد.
«لا يعقل أن يكونوا قد أتوا من جديد».
قالت سحر: «لعلها ابنتك».
بينما كانت فاطمة تعيد وضع حجابها، سمعت أمها تقول: «وكيف صحتك، يا أم طاهر؟».
«إنني أموت، دائمًا».
أطلقت وداد ضحكة جافّة: «أظنك ستعيشين بعدنا جميعًا».
كان بالباب ثائر آخر. لا يزال الأول موجودًا هناك، واقفًا على مسافة بضع خطوات. ولما كان الثائر الجديد أقصر قامة بشكل واضح، فقد كان رأساهما متساويي الارتفاع.
قال الثائر الجديد: «ستي، ينبغي أن أدخل».
كان صوته خشنًا. شعره رمادي، وجسده متين البنية. بقع تركتها الشمس على جبهته.
تنحّت فاطمة جانبًا: «تفضّل».
«اسمك؟».
«هل سيدخل معك؟».
«سيبقى في الخارج».
أغلقت فاطمة الباب ورأت الرجل الأول يرفع ثوبه ويستند بيده إلى درجات السلم لكي يجلس.
سألها من جديد: «الاسم؟».
«حماد».
«العمل؟».
«ماذا؟ آه... أبي قاض وعالم دين».
«على أي مذهب؟».
«حنفي».
مط شفته السفلى وأومأ برأسه.
«هل أنت متزوجة؟».

«أنا؟ نعم».
«ما اسم زوجك؟».
«مدحت كمال».
«عمله؟».
«لديه متجر، هو صاحب متجر. لديه متجر ملابس».
«المتجر مغلق بالطبع، إضراب».
«نعم، بالطبع».
«هل هو هنا؟ زوجك؟».
«لا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ظل الرجل منتظرًا إجابة أكثر تفصيلًا.
«إنه في المستشفى. لقد كُسرت ساقه».
«آه، في القتال؟».
«شيء من هذا القبيل».

«حسنًا. عليّ أن أنظر في البيت». بدأ يخطو متّجهًا صوب النساء الثلاث الجالسات. أحاطت سحر بطنها بيديها.

قالت فاطمة بسرعة: «انتظر لحظة، من فضلك. عليَّ أن أخبر أطفالي».

سمعت أثناء صعودها السلم صوت أمها تقترح على الرجل أن يشرب قهوة. ثم سمعته يجيبها: «الحقيقة، يا مدام، هي أنني جائع كثيرًا. إننا نجري منذ ساعات. إن كانت عندك قطعة خبز، أو...».

ذهبت فاطمة أولًا إلى غرفة الولدين. كان طاهر يقرأ على سريره مستلقيًا على جنبه. وكان خالد على الأرض يكتب أرقامًا مستخدمًا قلم رصاص غير مبري جيدًا.

«لدينا شخص يريد أن يلقي نظرة على البيت. أريدكما أن تضعا هذه الأشياء جانبًا، وأن تظهرا بمظهر حسن».

قال خالد: «من هو يا ماما؟».

قالت فاطمة: «واحد من الثوار».

انفتح فم خالد، ثم ابتسم.

«لا تتحمّس هكذا. سوف تظلّان هنا، أنتما الاثنان، وستكونان هادئين جدًّا، جدًّا».

كانت غرفة البنتين إلى الناحية الأخرى من الممر: «مسرّة، أين غادة؟».

«أنا هنا يا ماما». كانت غادة جالسة على طوار النافذة وقد طوّقت ركبتيها بذراعيها.

«أين كنت؟».

قالت مسرّة: «لقد كانت هنا».

لم يكن هناك وقت لطرح الأسئلة. خاطبت فاطمة مسرّة مثلما تخاطب شخصًا كبيرًا: «يريدون إلقاء نظرة في البيت. وأنا في حاجة إلى مساعدتك. عليك أن تظلّي صامتة».

أومأت مسرّة بوقار.

دفعت فاطمة باب غرفة مكتب الحاج نمر فانفتح. رأت أباها منكبًا على طاولة مكتبه. كانت يده اليمنى متكورة، مطوية عند رسغها مثل قائمة حيوان نائم. وكان على إطار فمه المفتوح خط من لعاب جاف ألصق زاويتي شفتيه. كاد زيت المصباح المنتصب إلى جانب كتابه ينفد، وصارت شعلته خافتة.

همست له: «بابا».

أصدر صوتًا كالأنين، ومال رأسه جانبًا.

«بابا».

ارتفع حاجباه: «حبيبتي، أنا نائم».

«أعرف هذا. لكن، لدينا في الأسفل اثنان من الثوار. يريدان إلقاء نظرة في أنحاء البيت. هل لديك مال هنا؟ أو... سلاح؟».

ظل صامتًا بعض الوقت، ثم انتصب جالسًا في كرسيه واستيقظ مرفرفًا في عينيه: «هناك بندقية ألمانية، إنها في خزانة المطبخ، لكنها بندقية قديمة». ضيّق عينيه وهو ينظر في اتجاهها مثل من ينظر إلى ضوء ساطع... «عمرها عشرون عامًا، على الأقل».

«بابا، هل ستأتي؟ نحن كلنا نساء هناك».

تململ في كرسيه، ثم أغمض عينيه من جديد: «قولي لهم إنني نائم».

في الأسفل، كان الرجلان جالسَيْن على الأريكة. قدّمت لهما وداد القهوة في صينية، ومعها طبق من البسكويت، وطبق آخر فيه زيت وزعتر. عندما ظهرت فاطمة، قال الرجل الأول بنبرة فيها شيء من الاعتذار: «سوف نأكل أولًا».

قالت فاطمة: «صحتين». وأوشكت على القول، «بون أبيتي»، العبارة المستخدمة كثيرًا في بيتها، بسبب مدحت، لكنها انتبهت في اللحظة المناسبة فلم تقلها.

قالت سحر: «من أي القرى أنتم؟».

قال المقاتل الأول: «أنا... أنا من قرية شعب، في الجليل». قضم قطعة خبز بأسنانه فبدا كأنه يستخدم جسده كله في تلك الحركة. قرّبت وداد طبق زيت الزيتون من الرجل.

قال الرجل الثاني، الأقصر قامة: «أنا من الطيبة». ثم أضاف بتردّد واضح: «إنها قريبة من طولكرم».

سُمع صوت أقدام، ثم ظهر ابنا فاطمة عند العتبة، من خلفها. كان خالد قد ارتدى سترة من الصوف؛ وكان كماها أقصر من ذراعيه. وأما طاهر، فقد وضع طربوشًا وحمل كتابًا. أغمضت فاطمة عينيها سخطًا.

قال خالد وهو يميل إلى الأمام على رؤوس أصابعه: «ما اسماكما؟».

نظر الثائران إليه. أجاب خالد نظرتهما بما يشبه التوق؛ لكن فاطمة لاحظت أن طاهرًا مضطرب بعض الشيء. كان قابضًا على كتابه، ضاغطًا به على صدره. شد على أسنانه.

قال الرجل الطويل الذي من شعب: «أنا أبو رجا».

التفت إلى رفيقه القصير الذي من الطّيّبة، لكنه رفع كتفيه ثم رفع رأسه. حمل الفنجان إلى شفتيه وشرب ما فيه دفعة واحدة.

قال خالد: «هل أنت عارف عبد الرزاق؟».

قال الرجل القصير: «لا. لكن عارف ابن عمي. أين سمعت به».

ابتسم خالد ابتسامة كبيرة: «لقد سمع الجميع عن عارف...».

قالت فاطمة: «لا بأس، لا بأس. فلننته من هذا. إلى الأعلى، أيها الصبيان، اذهبا».

جذب طاهر خالدًا من مرفقه. انتظرت فاطمة إلى أن سمعت صوت أقدامهما في الأعلى. وبصوت خافت، خاطبت الرجل القصير، ابن عم عارف: «لدينا بندقية. إنها في المطبخ. هل تحب أن تأتي لتراها، أم أحضرها بنفسي؟». ألقت في اتجاه بقية النساء نظرة سريعة فرأت ملمح فزع على وجه أم طاهر. حيّرها ذلك.

قالت وداد: «أنا سأحضرها. أعذروني لحظة».

انتظروا صامتين. تضاءل ضوء الشمس في النافذة التي فوق الباب. استرخت تعابير وجه سحر؛ نظرة عينيها الزائغتين متّجهتين إلى الأرض. فكرت فاطمة في أن تطلب من الرجلين أن يدعاها تذهب بسحر إلى غرفة أخرى، لكنها أحسّت بتوترٍ صقيعيٍّ في ساقَيْها. لماذا لم تطلب منهما ذلك، ببساطة؟ من المؤكد أنهما لن يكونا قاسيين إلى درجة رفض هذا الطلب. على العكس تمامًا... إنهما هنا لكي يقاتلا من أجلهم، مستعدان حيث قصَّر العلماء والسياسيون. أين أبوها؟ نائم في الأعلى. أين زوجها؟ لم يمس بندقية في حياته كلّها. وهاني في السجن. صحيح أن وصفي وجميلًا، وآخرين أيضًا، يقدّمون المساعدة، وأن الكثيرات من زوجات الأعيان تلقين كلمات في المظاهرات، لكن أكثر الشجعان، الرجال والنساء الذين حملوا السلاح، كانوا من الفلاحين.

شعرت باقتراب الصداع. ها هي سحر، حبلى، مستنفَدة، ملتفّة بالحجاب الذي كانت تكافح ضده. هذا التقليد الذي فرضه الثوار، وتلك الأغاني التي يردّدها الصبيان ماسحو الأحذية عن العاهرات اللواتي ترتدين ملابس غربية... كان في هذا كلّه نوع من

الانتقام متنكرٌ في هيئة حماسة وطنية. لكن، هل يكون باهظًا دفع هذا الثمن من أجل الحرية؟ نظرت إلى ابن عم عارف الجالس بالقرب منها. كانت أصابعه متشابكة، وينظر إلى الأرض من بين ذراعيه. استنشقت الهواء فشمّت رائحة كريهة، حامضة. أدركت أنها رائحة جسده.

على العكس من سحر، بدت أم طاهر متوتّرة، يقظة على نحو غير معتاد. كان وجهها مقطّبًا، فيه ما يمكن أن يكون استحسانًا أو استنكارًا... كفاها مضمومتان، تنظر إلى الثائرين. سوف تسألها فاطمة عن مدحت بعد انصرافهما. تفحّصت عينا أبي رجا الغرفة، واستدار لكي يرى الجدران العالية ذات الزينات القليلة، والأبواب المغلقة. في فمه المفتوح، كان مرئيًا لسانه المرتد بين أسنانه الخلفية. وعندما بلغت عيناه فاطمة بدا لها أنه مستحٍ قليلًا. أخيرًا، سُمع صوت حذاء وداد ذي الكعب العالي على درجات السلم.

كانت تحمل البندقية بين يديها الاثنتين بطريقة احتفالية... بندقية ملفوفة بقماش خشن. نهضت فاطمة عن كرسيّها، وجلست أمها ففكّت الحزمة القماشية كاشفة عن بندقية ضخمة جعلت فاطمة في دهشة من أنها لم ترها طيلة زمن طفولتها الذي أمضته في هذا البيت. ماسورة رمادية طويلة، ومسند خشبي مهترئ. كان واضحًا من حركة أوتار يدي أمها أن البندقية ثقيلة جدًا. عقدة نحاسية صغيرة لمعت في أخمص البندقية عندما قدّمتها وداد، بيديها الاثنتين، إلى ابن عم عارف عبد الرزاق.

تفحّص الرجل البندقية محرّكًا إياها بصعوبة: «أليس لها طلقات؟».

قالت وداد: «للأسف».

إلا أن الرجل الأكثر لطفًا، أبو رجا، تعامل مع البندقية بثقة أكبر فنظر في ماسورتها، وتفقّد حدقة التسديد. نظر إلى زميله نظرة غامضة لم يفهمها الآخرون.

جرى التفتيش الذي طال انتظاره بطريقة شكلية سريعة. والظاهر أن الطعام والبندقية قد جعلا سلوك الثائرين أكثر لطفًا. تحدّثا آسفين عن البيوت الكثيرة التي لا يزال عليهما تفتيشها، ثم قالا إنهما سيتركان النساء في سلام. خرج ابن عم عارف أولًا، لكن أبا رجا خاطب سحر كأنه تذكّر هذا في اللحظة الأخيرة.

«أين زوجك؟».

أجابت سحر: «في الصرفند».

مال برأسه مستفهمًا: «ما اسمه؟».

«هاني مراد».

قال أبو رجا: «بسم الله...». شهق رفيقه وعاد فدخل الغرفة... «لماذا لم تقولي هذا

منذ البداية؟ هاني مراد. يا الله. زوجك رجل عظيم، رجل عظيم».

اشتدّت قبضة أصابع فاطمة على مقبض الباب.

أجابت سحر: «شكرًا».

قالت فاطمة: «إنها حبلى».

قال ابن عم عارف: «ما شاء الله». كان الآن منتصبًا القامة، فانحنى واضعًا يده على قلبه... «الله يخليكي يا ستي، الله يخليكي».

وقفت فاطمة تنظر إلى الثائرَين المبتعدَين تحت جنح الظلام. ابتعدا على أقدام صامتة مثل قوائم القطط. اجتازا الشرفة، ثم نزلا الدرجات المفضية إلى الشارع.

خلعت النساء أغطية رؤوسهن، وبدأ الكلام بينهنّ. أخذت وداد أم طاهر إلى غرفة النوم الإضافية في الطابق العلوي، وحدّقت فاطمة في إثرهما. كانت نظرتها الظامئة إلى سماع شيء يريحها تلاحق ظهر أم طاهر المبتعد.

قالت لسحر: «كيف تشعرين الآن؟ هل تريدين شيئًا؟ عليك أن تبقي هنا. ستنامين في سريري».

تجهّم وجه سحر: «أشكرك، أريد كأس ماء، من فضلك. سآتي معك».

«لا، لا، لا. ابقي هنا. هل أكلت ما فيه الكفاية؟».

«أكلت كثيرًا».

فتحت فاطمة الصنبور في المطبخ مدة أطول كثيرًا مما كان ضروريًا. أمسكت بحافة المجلى الباردة فسرت قشعريرة في جسدها. كانت على البورسلان من حول المصرف خدوش طويلة، وعلى واحد من القضبان الفاصلة بين ثقوب المصرف، رأت شيئًا عالقًا، أخضر اللون. رفعت رأسها عندما سمعت صوت خطوات من خلفها، وملأت الكأس سريعًا.

قالت: «يجب أن تظلّي مرتاحة...». ثم تابعت بصوت كلّه دهشة... «أوه، تيتا».

«حبيبتي...». خطت أم طاهر خطوات عرجاء في الضياء المتألّق الآتي من النافذة. اختفى من وجهها ذلك التوتّر الذي كان في الغرفة: خداها مسترخيان، وعيناها لامعتان. كانت متقطّعة الأنفاس... «ينبغي أن أخبرك بأن علينا إعادته إلى نابلس. ينبغي أن نعيده...».

«اجلسي، اجلسي. ارتاحي».

كانت يدا تيتا مرتعشتين: «قال إنه قتل شخصًا».

«ماذا؟».

ابتسمت تيتا ابتسامة متلطّفة: «لا تقلقي، لم يقتل أحدًا في الحقيقة». تهدّلت عضلات

وجهها، واختفت ابتسامتها... «هو مجنون فحسب».
«كيف عرفت هذا؟».
«ثقي بي. إنني أعرف».
«من قتل... أو، من يقول إنه قتل؟».
«إنه ليس قاتلًا...». قالت تيتا هذا من جديد مع تلك الابتسامة نفسها، وكأن فاطمة هي من أتى بتلك الفكرة... «قد يكون أحمقَ، لكنه ليس قاتلًا. على أية حالة، علينا أن نخرجه».
انحدرت عينا فاطمة من وجه أم طاهر إلى أصابعها المستريحة على الطاولة. أصابع قوية، قادرة. وكأن طبقة التجاعيد التي عليها لم تكن أكثر من قفاز ارتدته. همست: «وكيف نخرجه؟». ثم رفعت رأسها لترى تعبير وجه تيتا.
ارتفع صوت أم طاهر، وقارب البكاء: «لماذا يكون عليَّ دائمًا أن أقوم بهذه الأمور وحدي؟...». بسطت يديها... «لماذا لا تكونين معي، يا ابنتي؟».
قالت فاطمة: «أنا آسفة، الأطفال...».
«تستطيعين ترك الأطفال مع أمك. أكره ذلك المكان، وأكره... لماذا اعتقد هاني بأنها فكرة حسنة؟ لماذا؟ يعرف أن كل ما يفعله الإنكليز ليس جيدًا... لا يفعلون شيئًا جيدًا أبدًا... غباء...». واصلت تمتمتها إلى أن التقت نظراتها عيني فاطمة، فاسترخى وجهها المتقلّص.
قالت بنبرة حادّة: «لا تبكي! لو ظننت أنك ستبكين لما قلت لك هذا».
ترنّحت فاطمة. أجابتها بنبرة حنق جليدي: «أم طاهر، قلت لك إنني آسفة. سأذهب معك في المرة القادمة، إن أردت ذلك. لكن سحر تنتظرني في الأعلى، إنها تنتظر الماء، لهذا، اسمحي لي...».
قالت أم طاهر ملوّحة بيدها: «اذهبي، اذهبي».
صعدت فوجدت سحر نائمة. انفكّت أصابعها المتشابكة تحت بطنها، وكان شعرها المشعّث منسدلًا على ظهر الكرسي. لكنها استيقظت وانتصبت في جلستها قبل أن تفلح فاطمة في إحضار بطانية تغطيها بها.
«آه، شكرًا».
وضعت فاطمة الكأس. مالت فوق سحر لحظة مدت يدها إلى الكأس: «هل أخبرك زوجك بأي شيء؟...» سمعت كلماتها كأن شخصًا آخر قالها... «عن زوجي، عما حدث؟»
رأت فاطمة وجه سحر يتقلص كأنه متألم... إن لم تخدعها عيناها. لكن انزعاجها بدا بعد لحظة جسديًا أكثر منه نفسيًا لأنها شربت الماء بشراهة كبيرة ممسكة الكأس

بيديها الاثنتين بطريقة ذكّرت فاطمة بغادة. أنهت سحر الكأس، ثم تجهّم وجهها.

سألتها: «ماذا تعنين؟ ماذا يمكن أن يخبرني عن زوجك؟».

قالت فاطمة محاولة أن تبدو إجابتها طبيعية: «أي شيء». كانت واقفة إلى جانبها، يدها على ظهر الكرسي؛ وكانت تحرّك يدها الأخرى حركة عشوائية... «أي شيء تتذكّرينه».

«إنني آسفة. لا بد أن الأمر صعب كثيرًا. أستطيع تخيّل هذا».

ابتسمت فاطمة ابتسامة تلقائية: «إنه صعب؛ نعم. أعرف أنك قادرة على رؤية هذا. أعرف أنه أمر واضح».

«لا... أنت تتعاملين مع الموقف بطريقة جيّدة جدًا. لكنّي أظنه أمرًا صعبًا. أظنّه صعبًا، وليس لدي إلا...».

«إن أمي معي. ومعي جدّة مدحت أيضًا...». اتّخذ وجهها تعبيرًا ساخرًا... «أنا محاطة بالأمهات، حقًا».

ابتسمت سحر فتذكّرت فاطمة بلمحة خاطفة أن أمها قد ماتت منذ فترة وجيزة. لاحقتْ لحظة الصمت بعبارة «الله يرحمها» سريعة، من غير مقدّمات؛ لكن ذلك لم يخفّف عنها إحراجها. لم تبدر عن سحر أية إشارة توحي بأنها لاحظت ما أحسّت به فاطمة، وظلّت ابتسامتها على وجهها من غير تغيير. من جديد، عجبت فاطمة كيف صارت لباقتها الاجتماعية تخونها.

قالت سحر: «ما أخبار المتجر؟ ماذا حدث بعد الحريق؟ لا بد أن الأضرار كانت كبيرة».

«ألا تعرفين إيلي؟ جاء يوم أول من أمس. كادوا يفرغون من أعمال الإصلاح. لكن البضاعة... رائحتها سيّئة جدًا. سوف يرمونها. إلا أن هذا لا يغير شيئًا. لا يستطيعون فتح المتجر». استطاعت فاطمة أن تحسّ في كلماتها بشبح أسلوب أمها المتكلّف، أحسّته برقبتها وبكتفيها. تلك الحماسة المبالغ فيها، المكشوفة. زادت تركيزها، وجرّدت وجهها من كل تعبير.

قالت سحر بنبرة تعاطف: «وضع صعب».

«لست أشتكي. نحن جميعًا نضحّي من أجل ما هو أكبر...».

«صحيح، صحيح».

ظلّت فاطمة صامتة، ثم قالت بعد قليل: «سوف آخذك إلى الفراش».

قالت سحر: «كانت هناك رسالة».

مرت لحظة قبل أن تدرك فاطمة ما عنته سحر بتلك الجملة.

«رسالة ممّن؟».

«من امرأة، منذ زمن بعيد».

ظلت الكلمات معلّقة في الهواء. وظلّت فاطمة تنظر أمامها من غير أن ترى شيئًا. أحسّت رأس إبرة ينزلق في لحمها الطري بين أضلاعها. ومن بعيد، سمعت نفسها تقول: «هل كانت تلك المرأة من فرنسا؟».

أومأت سحر برأسها وقالت بصوت خافت: «كانت الرسالة مكتوبة بالفرنسية. لم أقرأها. هاني...».

همست فاطمة: «لا أريد أن أعرف شيئًا عن هذا».

حلّ عليها تعب شديد. أغمضت عينيها. ورأت مدحت مستلقيًا في سريره في المستشفى. بالطبع، لقد كانت له نساء غيرها. آلمها صدرها.

لكن لحظة واحدة كانت كافية لأن يغيب عن ذهنها أي تفكير في مدحت وتنتبه من جديد إلى المرأة الحبلى الجالسة أمامها. عادت عيناها إلى سحر الجالسة على الكرسي الدمشقي كأنها حيوان ملكي. لماذا قرّرت سحر أن تخبرها بهذا الأمر؟ ما هي دوافعها؟ بدأ عقلها يرسم مخطّطات وقصصًا خبيثة، غدّارة: كانت سحر تحاول تسميم أفكارها عن زواجها لأن زوجها في السجن. إنها تشعر بالوحدة؛ والوحدة تجعل النساء لئيمات. كان وجه سحر ملتفتًا صوب فاطمة، وعيناها لا تزالان عليها. جبهتها متغضّنة بفعل تجهّم وجهها. أدركت فاطمة أن عليها أن تأخذ سحر إلى الفراش، لكنها لم تستطع أن تأتي بحركة واحدة. تحرّك شيء في داخلها، وتجمّد. بدأ الظلام يحلّ؛ وصار ينبغي أن توقد المصابيح. بدت يدها، بخاتم الزواج فيها، شاحبة على ظهر الكرسي.

جاء صوت: «ماما».

كانت مسرّة واقفة أسفل السلم. ساقها مطوية إلى الخلف... قدّمها متأخّرة عنها.

«نحن جائعون».

«ماذا تعنين بقولك إنكم جائعون؟».

«لم نأكل».

انتبهت لنظرة ابنتها إلى الصينية الفضّيّة الموضوعة على الطاولة، وإلى الفناجين الفارغة، وإلى بقايا الخبز وطبق الزيت والزعتر؛ إلى طبق بسكويت التين. ظهرت غادة من خلف أختها على السلم وصاحت بصوت مرتفع: «ماما، أنا جائعة».

انفجر صوت فاطمة مدوّيًا: «إذًا، اذهبا وكلا شيئًا». لم تذهب مسرّة. حدّقت بأمها بنظرة ثاقبة. لم يتحرّك فيها شيء غير رعشة في شفتيها.

قالت فاطمة: «أنت لست طفلة».

قالت مسرّة: «أعرف هذا».

مدّت فاطمة يدها وصفعت ابنتها على وجهها. شهقت سحر من خلفها. كانت غادة واقفة على السلّم، فبدت فجأة شديدة الصغر والشحوب، صار وجه مسرة قرمزيًا، لا حيث تلقّت الضربة فقط، على خدها، بل صارت قرمزية كلّها. انتفضت عضلة في وجهها. استدارت وهي تقول: «تعالي، يا غادة». تردّدت غادة قليلًا، ثم أمسكت بيد أختها الممدودة إليها وسارت خلفها. نزلتا السلم إلى المطبخ.

ظلّت فاطمة واقفة، مديرة ظهرها إلى سحر. تنظر إلى الموضع الذي كانت ابنتاها واقفتين فيه.

قالت سحر: «آسفة إن كنت قد أزعجتك. ظننت أن من الأفضل أن أقول لك الحقيقة».

بدأ وجه فاطمة يتقلّص. لم تعد مسيطرة على نفسها. استدارت نصف استدارة آملة أن يكون الظلام قد صار كافيًا لحجب وجهها. أحست هديرًا متقطعًا يتصاعد في صدرها.

تمتمت قائلة: «عليك أن ترتاحي. دعيني أريك غرفتك».

## - 7 -

رأى جميل الباب الخلفي للنادي الرياضي ينفتح، رآه عبر حدقة بندقيته. استنشق نفسًا، ثم أطلق كل ما في رئتيه من هواء وألصق جسده ببندقيته. خفق قلبه عنيفًا. ألواح الباب الخشبية تتحرّك ببطء في الظلّ. سدّد صوب عمود الظلمة المتعاظم ضمن إطار الباب. إصبعه على الزناد. توقّفت حركة الباب. وعندها، بذلك البطء المنضبط نفسه، دار الباب من جديد حتى صار كلّه في ضوء الشمس. دفعة أخيرة جعلت رجفة ضئيلة تسري في خشب الباب. رفع جميل إصبعه عن الزناد. وإلى جانبه، أطلق باسل مراد زفرة.

كانا في غرفة نوم في الطابق الثاني من بيت لدار كرك يبعد عن النادي الرياضي مسافة شارعين. كانت مدام كرك قد دفعت الأسرّة حتى صارت عند الجدران التي أزالت عنها المرآة وبضع لوحات. لم تعجب هذه الحركة جميلًا. ضحك عندما خرجت المدام من الغرفة سريعًا، مطرقة الرأس، ممتلئة اليدين بما أخذته من الغرفة، وهي تعدهما بأن تجلب لهما طعام الإفطار.

كان جميل مستلقيًا على الأرض، من غير سترة، أمام الباب المزدوج المفتوح المؤدّي إلى الشرفة. أطراف كوفيته ذات الخطوط المتقاطعة متدلّية عند كتفيه، ونهاية ماسورة بندقيته ممتدّة عبر التلافيف السفلى لدرابزين الشرفة الحديدي. كان تحت كتفيه كيس رمل مسروق من مكتب البريد. وكان باسل منبطحًا على السرير الأخير -خلافًا لرغبة المدام- مستندًا إلى حافة النافذة الصغيرة التي فتحها قليلًا حتى تطل فوّهة بندقيته منها. وعلى الأرض بينهما، كان طبق من التين المقطّع أرباعًا.

كان ذلك في شهر حزيران من سنة 1936: الشهر الثالث من الإضراب العام. كان صباحًا مدلهمّ الغيوم، والشوارع خالية. سمعوا أن البريطانيين قصفوا مدينة يافا في الأسبوع الماضي بعد أن صارت أزقتها المتعرجة ومتاهة بيوتها وأبوابها الخلفية تحت سيطرة الثوار، وصار احتلالها مستحيلًا. تساقطت من السماء منشورات تدعو السكان إلى الإخلاء، ثم أعقبها تساقط القنابل. أطلقت المنشورات على هذا التهديم تسمية «إجراءات التطوير». وبعد موجة القصف الأولى، تم تعبيد طريق عرضه عشرة أمتار يصل بين البحر ومخفر شرطة العجمي. أعلنت لجنة الإضراب في حيفا أن الأضرار فاقت ما تسبّبه هزة أرضية.

وفي نابلس، احتل البريطانيون المحكمة الشرعية والنادي الرياضي. كان مبنى النادي الرياضي -الذي يسدّد جميل بندقيته إليه الآن- مقرًّا للجنة الإضراب في نابلس. ولحسن الحظ، لم يتركوا في المكان أيّ وثائق أو معدات. الحقيقة أن المقاومة كانت لا مركزية إلى درجة ألغت أية حاجة إلى وجود قوائم بأسماء أعضاء اللجان: كان كل شيء تقريبًا يتمّ عن طريق الرسائل الشفوية. إلا أن احتلال هاتين النقطتين كان إهانة، وكان له أثر سلبيّ على المعنويات. صارت اللجنة الآن مجبرة على الاجتماع في صالة السينما المتوقّفة عن العمل.

قال باسل: «السطح».

نظر جميل بعينين آلمهما التحديق في السماء الخالية. وعلى السرير، ثبت باسل بندقيته بإحدى يديه ورفع بالأخرى إلى عينيه منظارًا. اصطدم المنظار بنظارته صدمة خفيفة.

«ماذا هناك؟».

«رشاشات». رفع جميل رأسه وضيّق عينيه ناظرًا إلى السطح المستوي لمبنى النادي الرياضي. على خلفية السماء، رأى دائرتين سوداوين... فوَّهتا مدفع رشاش تنظران إليه. لم يقل شيئًا. خفض رأسه إلى بندقيته وعاد ينظر إلى الباب. تناول باسل قطعة تين.

قال باسل: «يظنّون أننا نتلقى معونة من الإيطاليين...». لفظ ساق ثمرة التين... «سمعت هذا من عيسى الذي في الشرطة». أغمض عينيه، ثم نظر إلى سلاحه... «في الحقيقة، سمعته من أم عيسى».

انفتح باب النادي الرياضي من جديد بحركة قوية صغيرة. حبس جميل أنفاسه وسدّد بندقيته.

قال باسل: «انتظر».

«ماذا؟».

«السطح».

ظهر رجل شرطة في فتحة الباب. رجل شرطة باللباس الكامل: خوذة، وبندقية جاهزة، وساقان ضخمتان عليهما لفافات الساقين من تحت بنطلون قصير. جرى الشرطي وفتح باب سيارة عسكرية متوقّفة على مسافة بضعة أمتار. وضع ساقًا في السيارة، ثم ألحقها بالساق الأخرى، ثم صوت إغلاق باب السيارة مسموعًا في ذلك الهدوء على الرغم من بعد المسافة. انطلق المحرّك.

قال جميل: «يخرِبْ بيتك...». استدار بجسده كلّه صوب باسل، وفتح كفيه... «لماذا أوقفتني؟».

قال باسل بهدوء: «السطح ـ هناك شخص على السطح».

شدّ جميل البندقية على كتفه ونظر على امتداد ماسورتها صوب مواقع الرشاشات. اسودّت ثغرة من السماء بين ماسورة الرشاش القريبة منه وحافّة السطح، ثم كبر قليلًا الظل القاتم عند أعلى الرشاش. إنه شخص؛ وهذا ظلّه. لم يفكّر جميل مرتين، بل سدّد إلى تلك الثغرة وضغط على الزناد. صفعت البندقية كتفه.

قال باسل: «شو؟ ماذا تفعل؟».

صرخة: سقط جسد فوق المدفع الرشاش؛ صار ظاهرًا لهما. لقّم جميل البندقية من جديد، فطار ظرف الطلقة الفارغ مقعقعًا على بلاط الأرض. سدّد من جديد.

«هذا ما أفعله».

رفع باسل المنظار إلى عينيه وقال: «نعم، إصابة ممتازة».

تدلّت يد الرجل. لم تتحرّك أصابعه الخمس البيضاء التي كانت مرئية حتى لعين جميل المجرّدة. تحرّك جسم آخر على سطح النادي الرياضي. انزلق على امتداد حافته فبدا كأنه امتداد بنّي دقيق للحافة الحجرية. ذراع جندي في ملابس عسكرية. سدّد جميل من جديد، وأطلق النار.

همس له باسل: «توقف».

«هل أصبته؟».

مد جميل يده إلى المنظار، فجذب باسلًا إليه لأن سير المنظار كان معلّقًا من عنقه. وجّه العدستين صوب المكان الذي كانت فيه ذراع الجندي الثاني. لمعت قطرات حمراء على الحافة الحجرية. قفز قلبه: لا أثر ليد القتيل، ولا لزميله. نعم، كان ذلك حماقة.

التصق باسل بالجدار محاذرًا أن يلوّث حذاؤه السرير. ألقت الجيوب التي تحت عينيه ظلًا قاتمًا على وجهه. ضاعفت نظارته ذلك الظلّ.

صوت فرقعة مرتفع أتى من الممر فجعله يثب واقفًا على قدميه. شد جميل أخمص بندقيته إلى كتفه. انفتح الباب.

قالت المدام: «برافو، يا شباب». تجاهلت البندقية وقرفصت لكي تضع صينية بين الرجلين، على الأرض. كأسان صفراوان من الشاي بالنعناع، وخبز حار، وطبق من الجبن. مسحت يديها بمريلتها، ثم قالت متردّدة: «كم ينبغي أن يطول بقاؤكما هنا؟».

قال جميل: «نصف ساعة...». تناول كأس الشاي... «أو ربما ساعة».

قال باسل: «شكرًا جزيلًا، يا مدام. حقًا، حفظك الله».

«أهلًا وسهلًا. صحتين».

نظّف باسل نظارته بطرف قميصه، ثم اقتطع جزءًا من رغيف الخبز.

كان جميل وباسل يعتبران نفسيهما صلة وصل. كانا في موقع متوسّط بين المدينة والريف، بين النابلسي والفلاح. بين الإضراب والثورة المسلحة. ذهب قسم من افتتاحيات الصحف إلى القول إن العصيان المدني المتمثل في الإضراب العام كان نضالًا مدنيًا، في حين كانت الانتفاضة المسلّحة نضالًا ريفيًا؛ وقالت الصحف أيضًا إن الانفصال بين الاثنين مدعاة للأسف؛ لكنه محتوم أيضًا. كان جميل مصمّمًا على تصحيح هذا الفهم الخاطئ. لقد حمل السلاح بالفعل شباب من عائلات معروفة؛ وكان عددهم يزداد كل يوم، في نابلس خاصة. صحيح أن أكثر المعارك الكبرى لا تزال تجري في الجبال؛ لكن هذا ناتج عن طبيعة الأرض وعن محاولة الاستفادة من خفّة حركة الناس في أرض يعرفون تضاريسها وتفاصيلها في حين يتعثّر البريطانيون بأحذيتهم الثقيلة وخرائطهم غير الدقيقة. ألم تكن يافا، تلك المدينة ذات الشوارع التي يصعب على البريطانيين فهمها، معقلًا للثوار حتى الأسبوع الماضي؟ إنها مسألة طبيعة الأرض: لم يستطع البريطانيون التسلّل إليها. وبالتالي، فقد قصفوها. بالتأكيد، هناك بعض التردّد والممانعة بدأ يظهر عند الأثرياء... بعض الاستياء من كون الفلاحين يوجّهونهم ويصدرون الأوامر إليهم؛ بل إنهم بدأوا يهدّدون التجار وأصحاب الأراضي بالتشهير بهم والإضرار بممتلكاتهم ما لم يقدّموا مساهماتهم المالية التي كانوا يتبرّعون بها عن طيب خاطر، وبكل اعتزاز، قبل شهر واحد فقط. ليت الإيطاليين يساعدونهم: لقد كادت مواردهم تنفد، وبدأ مخزون الحبوب يشحّ، وأصاب الجوع نابلس. لكن أهل المدينة لم يقفوا مكتوفي الأيدي في انتظار من ينقذهم بعد أن نفّذ الجيش هذا الاقتحام للمدينة. صارت شوارع نابلس مفروشة بالمسامير وقطع الزجاج المكسّرة في انتظار عجلات البريطانيين. وتحت أروقة المدينة القديمة، كان الناس يقظين، أيديهم على أسلحتهم. لم يكن هذان الرجلان وحدهما من يطلق النار من غرف النوم في الطوابق العلوية.

من بين بقية أبناء العائلات البارزة، كان جميل وباسل عضوين أصيلين في لجنة الإضراب في نابلس منذ اجتماعها الأول في شهر نيسان. كانا يواصلان المساهمة في تنسيق العمل مع لجان المدن الأخرى، وكذلك مع اللجان الفرعية المحلية التي توزّع القمح والأرز والسكّر في أنحاء نابلس، وتقدّم المال إلى الفقراء، وتحول دون وقوع حالات إفلاس، وتراقب من هم مستثنون من الإضراب، بما في ذلك المقاهي التي تفتح أبوابها ليلًا لكي يتبادل الناس فيها الأنباء، وكذلك الصيدليات التي تتناوب بحيث تكون واحدة منها متاحة للناس على مدى أربع وعشرين ساعة. لكنهما يحملان السلاح أيضًا. كان جميل كمال وباسل مراد من الثوار. وهذه هي مهمّة القنص الثالثة

التي ينفّذانها. بادرا إليها من تلقاء نفسيهما. وقد كان من أهم التكتيكات التي تعلّماها من المخضرمين الذين أتوا من سوريا والأردن ولبنان أن على المرء ألا يتحرّك من مكانه بعد الإطلاقة الأولى. إنهم يراقبون أية حركة. لقد خاطر جميل مخاطرة كبيرة عندما أطلق النار مرتين.

لفَّ باسل قطعة جبن بنصف رغيف، ثم استأنف المراقبة عند النافذة مستخدمًا منظاره.

«كان ذلك حماقة».

فتح جميل عينيه على اتساعهما. آلمتاه فأغمضهما: «يعطيك العافية».

«الله يعافيك».

أخذ رشفة من الشاي الذي بدأ يبرد. لم تكن لديه شهية للطعام. لقد استيقظ أبكر مما ينبغي. فتح الصنبور في ظلام الفجر حتى يغسل وجهه فأيقظ أمه التي أتت إلى المطبخ ووبخته لأنه لا ينام مدة كافية. قال لها: «ماما، أنا أنام كالقتيل». لكنها كانت محقّة. لقد اندفع محمومًا إلى مضاعفة مهماته بصفته جسرًا بين المدينة وقيادات الثوار، وصار يتولّى مهمات كان يستطيع تكليف غيره بها. فمع أنه يسقط نائمًا -كالقتيل- في الليل تحت وطأة تعب المحارب، فهو يستيقظ في الصباح بما يشبه نبضة كهربائية، يستيقظ وقد ملأت ذهنه صورة النصر المتخيّلة. خلال الأوقات التي لا يكون فيها مع باسل، يدبّران شيئًا، يتحدّث بالهاتف مع القادة في القدس، أو مع القوات التي في سورية، ويعدّد الخسائر والانتصارات، ويتتبّع نقل الأسلحة عبر نهر الأردن حيث كانوا يقدّمون إلى الدوريات العربية هناك رِشى من الحشيش المنقول على الجمال من اللاذقية. لم يكن جميل شخصية عامة. لم يكن مثل هاني مراد. لقد كان يرى نفسه أشبه برقّةِ ظلام... يرى نفسه ممثّلًا، صلةَ وصل؛ رابطًا بين مقاتل ومقاتل.

كان جميل تواقًا إلى فعل هذا منذ أن رأى الموت أول مرة في حوادث النبي موسى قبل ستة عشر عامًا. لا تزال صورة تلك الجثتين المتّسختين ماثلة في ذهنه. كانت اللحظة التي حمل فيها ثقل ذلك العربي القتيل ورفعه عاليًا فأغرق سترتَه دمُه الذي لا يزال حارًّا، لحظة هائلة غيّرت حياته كلها. وبقوة بطيئة، لكنها هائلة... بقوة استمرت طيلة الشهور التي تلت هذه التجربة، تغير إحساس جميل بالمسؤولية. لكن زمن مشاهدة ذلك كلّه، ومعاناته، زمن المناقشة في الاجتماعات وكتابة العرائض، قد انتهى الآن، انتهى أخيرًا. صارت ذراعاه ممتلئتيان دمًا؛ وصارت معدته قادرة على هضم كل شيء. لقد ذاب في مهمته إلى حدّ جعل كل توتّر في جسده رمزًا للنضال: الطاقة في قدميه طاقة عربية، وتصميم ذهنه تصميم نابلسي، وضعف كاحليه ضعف فلسطيني، والألم في عظامه ألم

فلسطيني. كانت أنباء عنف البريطانيين تشتعل نارًا في داخله، ثم تنفجر غضبًا. ظلّت الصور مطبوعة في ذهنه: كان يرى رجال الشرطة يجلدون الطلبة المتظاهرين على مؤخراتهم العارية بعد أن أوقفوهم في صف واحد أمام مقر البلدية. يفتّشون الفلاحات على قارعة الطريق بحثًا عن أسلحة، ويشيرون إليهن إشارات فاحشة. بيت مدمّر، وأسرة تحمل حوائجها وهي واقفة إلى جانب الجنود على رابية مجاورة مرغمة على النظر إلى تفجير بيتها. كان غضبه نابضًا. وكان حريصًا على إذكاء نار غضبه: غضبه وقود له إن حافظ عليه؛ لكنه لن يكون مفيدًا لأحد إن اشتعلت ذاته لهبًا. كان انزعاجه من كلام باسل على إطلاقه النار مرة ثانية انزعاجًا من نفسه في حقيقة الأمر، وذلك لأن ليس من حقّه أن يتهوَّر. خفض رأسه طائعًا، وشرب الشاي، وأجبر نفسه على أكل قطعة خبز. رحّبت معدته بالخبز شاكرة، وزال عنها انقباضها.

كان طريق الانسحاب مقرّرًا مسبقًا. بعد تناول الطعام، غسل الاثنان أيديهما في حمام دار كرك، ثم علّقا بندقيتيهما على كتفيهما وخرجا عبر باب المطبخ إلى حوش مسقوف. لمعت نافذة علوية لمعانًا فضيًا عندما انفتحت على امتداد ذراع فتاة شابة. استرقت الفتاة النظر إلى الأسفل بينما كان جميل وباسل ينسلان عبر نفق تحت البيت إلى حيث كان في انتظارهما باب مفتوح قليلًا عند الزاوية. كان صاحب البيت منتظرًا في الردهة. انحنى عندما اندفعا عبر غرفة المعيشة. تقدّم باسل صاحبه فصعدا السلم الخلفي. وفي آخر السلم، عبر نافذة مفتوحة، سمعا صوت دورية شرطة. التصق باسل بالجدار، لكن جميلًا أنزل بندقيته عن كتفه واقترب لكي ينظر. مرّت ثلاث سيارات انعكست عليها أشعة الشمس.

قال: «إنهم ذاهبون في الاتجاه الخاطئ».

أتاهما صوت امرأة: «يمكنكما ترك البندقيتين هنا».

التفت جميل مجفلًا. كانت امرأة محجّبة واقفة في مدخل البيت.

أضافت المرأة: «تحت السرير».

أنزل باسل بندقيته، فأمسك جميل البندقيتين من ماسورتيهما.

قال لها: «شكرًا، يا خالتو».

قال باسل: «سنأتي هذا المساء لأخذهما».

قالت المرأة بصوت ضجر وقد حملت في كلٍّ من يديها بندقية: «إن شاء الله».

قادهما السلم الخارجي إلى زقاق خلفي جعلته جدرانه الحجرية المرتفعة ظليلًا. وعند التقاطع، أمسك باسل جميلًا من رقبته بحركة وداع. وبعدها انعطف وسار منحنيًا في اتجاه بيت أخيه.

اتخذ جميل المسار الأسرع خروجًا من المدينة القديمة، وسرعان ما بلغ الجبل. لم يكن معه سلاح غير خنجر صغير مخبأ في صداره. بدأ تأهّب جسده يتراجع. فكّر في الرجل الأول، في ذلك الظل العديم الملامح حتى لحظة الموت عندما اندفع جسده إلى الأمام وانزلقت يده فصارت مرئية. أرغم نفسه على استحضار صورة ذلك الرجل. صورة مكرورة لشرطي له شاربٌ فظٌّ، حي، لكن علامة الموت عليه. ثم عادت إليه متعة الفعل البسيطة. التسديد، وإطلاق النار، ورؤية سقوط تلك اليد. انتشى. لقد كانت رمية ممتازة.

كانت غرفة المعيشة في بيت أمه تفوح برائحة قوية لمريمية محترقة.

نهضت عن الأريكة: «آه، حبيبي. خالتو، وينك؟».

قالت أم طاهر وهي آتية من غرفة النوم: «آه، ماما». سوّت أطراف ثوبها فوق صدرها المتهدّل... «آه، يا خالتي. آه، إنه هنا. يلا، حبيبي، يجب أن نتحدث. أين أبو جميل؟».

«إنه نائم. اتركيه». قالت أم جميل هذه الكلمات وهي تضرب يدًا بيد، كأنها تقول، لن يفيدنا شيء في أي حال من الأحوال. واجهت ابنها وعلى وجهها تعبير موحٍ بالجوع إلى سماع ما يقوله.

تهاوى جميل جالسًا على الأريكة. لقد كان صلة الوصل بين أسرته والصراع الجاري. وعلى الرغم من إدراكه أن من واجبه أن يساعدهم من خلال توضيح الأمور لهم، فقد كانت تلك المهمّة مرهقة له. كان يفكّر أحيانًا في ذلك التضاد بين واجباته خارج البيت، تلك الواجبات التي كان يؤديها من غير تذمر على الرغم من أنها أشد ثقلًا، وواجباته الصغيرة في البيت، الواجبات التي كان يقاومها وكأن في عقله عضلة ذات اتجاه واحد تتحرّك عندما تكون أمّه أمامه، لكن حركتها تكون في اتجاه معاكس.

قالت أم طاهر من جديد وهي تجلس قبالته: «علينا أن نتكلّم».

قال جميل: «ماشي».

قالت أمه: «عن مدحت».

قالت أم طاهر: «أنا...»، ثم وضعت يديها على ركبتيها وأطلقت زفرة... «ذهبت لرؤيته في المستشفى».

همهم جميل.

قالت أم طاهر: «لم يعجبني الوضع هناك. لم يعجبني أبدًا. حبيبي، هل تساعدنا؟ علينا أن نخرجه من ذلك المكان».

«لا أرى كيف أستطيع المساعدة».

«يلزمنا -يعني- مزيد من الناس». بدأت خالة أمه تتحرّك بطريقة مألوفة لديه. توتّر حاجباها الأبيضان وراحت أصابعها تتحرّك في إثر كلماتها: كأنها شخص يحوك

مؤامرة. «كلما ازداد عدد أفراد العائلة الآتون لتقديم المساعدة، كلما ازدادت قدرتنا على جعلهم يشعرون، يعني سنذهب في سيارتين. ستذهب فاطمة، وأبوك، نريد أخذ كل من نستطيع أخذه. الرجال خاصّة، نحن في حاجة إليك».

قال جميل: «لا ينجح الأمر بهذه الطريقة، في تلك الأماكن، يا خالتي. إذا كانوا يظنّون أنه خطير، فلن يدعوه يخرج».

قالت أمه مومئة برأسها بشدة: «لكننا سنحاول».

قال جميل: «ما كان ينبغي وضعه هناك أصلًا. كان عليك أن تتركيه مع فتيات عيبال».

قالت أم جميل: «هذا ما قلته. كان يمكننا الذهاب إلى أحد الشيوخ، وكان يمكن أن نجرّب طرقًا أخرى. إنه مزيج من الأشياء، كما سمعت. المزيج الذي يجعلك مجنونًا، الذي يأتي بالجن». كوّرت قبضة يدها وراحت تميل بإبهامها الممتد يمينًا ويسارًا: «الحب والحزن. الحب والأسى. الأسى والخوف. شيء مثل الرياضيات. إن للرجل حدًّا لا يستطيع أن يحتمل أكثر منه. هذا الحريق في المتجر وقع في توقيت سيئ».

قالت أم طاهر وقد بدا عليها الانزعاج: «لن نأخذه إلى شيخ. لم يتلبّسه الجن».

كاد جميل يبتسم. لقد كانت أم طاهر على الدوام الشخص الأكثر تطيّرًا في العائلة. لكن الظاهر أن أمه قد احتلّت محلّها. لعل هذه مرحلة تمرّ بها النساء خلال رحلتهنّ في اتجاه الشيخوخة. مرحلة من التمتمة الخائفة والتمسك بالتوافه والحيل العتيقة، ثم يخرجن من تلك المرحلة أخيرًا وقد شاب منهنّ الشعر وصرن منطقيات، متعقّلات.

قالت أم طاهر: «أعرف، يا جميل... أعرف أن هذا ليس وقتًا مناسبًا. لديك أشياء أخرى تشغل بالك. لكن، فكّر، إنه ابن عمك. إنه أخوك. وهو يتعذّب هناك». ظلّ فمها مفتوحًا. وضعت يدها على فمها وابتلعت كلماتها الأخيرة.

قال جميل بنبرة ثقيلة: «اسمعا»؛ لكنه لم يكن يعرف ما سيقوله لهما.

قالت أمه: «سنخرجه من هناك. وعندما يشفى يصبح مقاتلًا».

«ماما، مدحت لن يصير مقاتلًا أبدًا». رُن الهاتف... «لحظة واحدة».

قال عامل الهاتف: «باسل مراد يريد جميل كمال».

«معك جميل كمال».

جاءه صوت باسل: «آه، حبيبي. علينا أن نذهب. الطريق من عَنَبْتا ونور شمس. هل أنت جاهز؟ سيقودنا عبد الرحمن الحاج محمد. ذهب منير لكي يجلب البنادق».

التفت جميل ونظر إلى أمه وخالتها. كانتا تنظران إليه: «هل لديك ذلك الشيء الذي كنا نتحدث عنه؟».

«أجل. لقد طلب الإنكليز نجدة ـ ستذهب الدوريات إلى ذلك المكان».

«إلى عَنَبْتا نفسها؟».
«قبلها مباشرة».
«أراك في بيت أخيك». وضع سماعة الهاتف.
قالت أمه: «أنت لن تذهب».
«أذهب إلى أين؟».
«إلى المعركة. أنت لن تذهب».
«ماما، هوّني عليكِ».
قالت أم طاهر: «يريد أن يقاتل؛ دعيه يقاتل».
«إنه ابني».
«كم الساعة الآن؟ إنها الحادية عشرة. سوف أعود وقت العشاء. أعدكما بهذا. ماشي؟».
أطلقت أمه أنينًا، وراحت تعجن أصابع يدها في كفها الأخرى: «حفظك الله سالمًا. حفظك الله. حفظك الله».
ارتدى جميل سترته وخرج من البيت.
كان، على وجه العموم، يتفادى التفكير في مدحت قدر استطاعته. بكى قليلًا أمام هاني في ذلك اليوم عندما وجد ابن خالته مرتميًا إلى أرض غرفة المكتب في بيت وصفي. لكنه لم يزر مدحت في مستشفى نابلس حيث أقام طيلة الشتاء، ثم لم يزره بعد نقله إلى بيت لحم في الشهر الماضي. لم يفكّر في زيارته أصلًا.
كان تواصلهما في حدوده الدنيا خلال السنوات العشر الماضية. وكانت أنباء ابن خالته تأتيه، أكثر الأحيان، عن طريق أم جميل وأم طاهر، وكذلك عن طريق عادل جوهري وغيره من الناشطين الذين يعرفونه. كانت أخباره تأتيه أحيانًا من خلال أشخاص في المدينة ليسوا على معرفة جيّدة بمدحت، لكنهم يقلدون تصرفاته ويسمّونه «الباريسي» بنوع من المحبّة لم يلبث أن تحوّل إلى هزء وسخرية. كان عدد من زملاء جميل مستمرًا في استخدام عبارات من قبيل: «أنا ذاهب إلى البانك»، مع تلويحة تحاكي حركة تلك اليد التي لا تتقن حمل السلاح. إلا أن الانطباع الذي كان لدى جميل دائمًا، حتى من بعيد، هو أن مدحت يبالغ في إعطاء هذه الصورة عن نفسه لأنه يجد ذلك أمرًا مسلّيًا. هذا يعني أن تلك السخرية لم تكن تستهدفه بالضبط، بل يمكن اعتبارها متجهة إلى شخصية «الباريسي» فحسب، ذلك الباريسي الذي لم يكن هو نفسه مدحت، بل شخصٌ آخر يلعب مدحت دوره. على الرغم من هذا، وعلى مر السنين، صار جميل يشعر بقدر من الخجل والضيق عندما يذكر الناس اسم ابن عمه.

لقد تحوّلت عواطف المحبة والاحترام التي كان مدحت محلًا لها في نابلس، إلى نوع من الكره بعد ثورة السوريين على الانتداب الفرنسي. أدرك الجميع أن فرنسا سرطان استعماري يودي بأرواح العرب هناك. وإذا كان المرء باريسيًا في نابلس، فمعنى هذا أنه لم يواكب الزمن الحاضر، بل ظلّ محبوسًا ضمن صيغة كولونيالية عتيقة، حيث كان الرعايا يقلّدون سادتهم وكأنهم يرجون أن يجدوا شيئًا من غبار السلطة باقيًا في ثنايا ملابسهم القديمة. لكن الأمر لم يكن هكذا تمامًا بالنسبة إلى مدحت، الذي بدا كأنه لا يرى المعنى العميق الكامن في تلك الملابس، وكان غير طامح -بالتأكيد- إلى سلطة أو تفوّق عندما يعتني بطيّ منديله في جيبه ويقول، «Voulez vous?[1]»، وترفرف عيناه عندما يتكلّمون في السياسة ويوافق بلطف على ما يسمعه ثم يمضي في سبيله... كان واقعًا تمامًا في غرام تلك النقوش على ربطة عنق ينفق مبلغًا كبيرًا من المال من غير علم زوجته حتى يستوردها من أوروبا.

يتذكّر جميل كيف كان مدحت مفعمًا بطاقة نشطة أول عودته من باريس بعد الحرب؛ وكيف كان له أسلوبه اللامع في صياغة أفكاره والتعبير عنها. لقد حوّلته فرنسا إلى رجل مختلف كل الاختلاف عن صبي المدرسة الخجول الذي كانه في طفولته. وحتى إن أشخاصًا كثيرين في نابلس توقّعوا أن يدخل مدحت معترك السياسة بالنظر إلى تلقائيته الفائقة في مناقشة أخبار الملك فيصل والمسألة السورية. مدحت... سياسي! لم تمضِ على رجوعه غير سنة واحدة حتى صار شديد الانشغال بنفسه إلى حد يجعله يجفل عندما يكلّمه أحد، فنشأ بينهما قدر من الجفاء لم يسعَ أيٌّ منهما إلى تخفيفه. ظلّ جميل بعض الوقت مشتاقًا إلى استعادة ذلك القرب الذي كان بينهما في شبابهما، إلى أن صار واضحًا له أن ذلك شيء يستحيل إحياؤه. وبعد أن ابتعد عن ابن عمه في الزحام، تحوّل استياء جميل منه إلى ازدراء.

بدأ جميل يتعرّق تحت الشمس الساطعة. على نحو ما، بدا له أمرًا منطقيًا أن يكون مدحت الآن في مستشفى للناس المجانين، في حين تقوم ثورة في نابلس. فكيف يمكن للباريسي أن يتأقلم مع ارتداء بنطلون مرقّع؟ وماذا سيحل بثبات ذلك الرجل عندما يرى أطراف أبناء أقاربه المهزولة ويرى الجوع والتعب في أعين الجميع؟ كان الحنق يجعل جميلًا يسير بسرعة كبيرة. لكنه هوّن من وقع فكرته الأخيرة على نفسه. لا يستطيع كل شخص أن يصير مقاتلًا. على الأرجح، سيكون مدحت عند عودته من المستشفى قادرًا على تدبّر أمره كغيره من الناس.

---

(1) هل تسمح؟

خفض رأسه عندما صار في المدينة القديمة واقترب من الجدار. أخطر أنواع الغضب هو ذلك الغضب في مواجهة ما يعتبره الناس أفعالًا دنيئة. لقد بلغ التشدد في إدانة كاسري الإضراب مستوى محمومًا في الآونة الأخيرة: في الأسبوع الماضي، ألحقتْ مجموعة فتيان، أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشر، جروحًا بليغة ببائع خضار عندما رشقوه بالحجارة بعد أن ضربوه حتى تورمت عينه وأفرغوا فوق رأسه سلة من القاذورات. فما هي جريمة الرجل؟ الشك في أن لديه رغبة في كسر الإضراب! كانت اللجنة تعمل على إنشاء نظام للمحاكم الثورية يسمح للشهود بقول ما عندهم أمام الجمهور. وكان أملهم أن يمنح هذا «المسرح» المتَّهم فرصة لتأكيد ولائه للقضية والتزامه بها ـ لكن الغاية كانت، أكثر الأحيان، تهدئة غضب موجّهي الاتهامات وتوحيد الجميع ضمن روح النضال المشترك. إذا لم يعالجوا هذا النوع من الغضب معالجة مناسبة، سوف يكون موتًا لهم.

انعطف جميل عند زاوية بيت باسل مراد، ورأى بعين عقله مدحت مستلقيًا على الأرض ممسكًا بيده رسالة. رأى حالة ابن عمه المنهارة. وأحسّ بعودة ذلك الحبّ العميق القديم الذي تحرّك في داخله وجعل عينيه المدهوشتين تدمعان. فتح منير الباب. ناداه باسل من الغرفة الأخرى: «تعال».

على طاولة الطعام، رأى حقيبة قماشية لها حمالتان جلديتان. كانت فيها علبة خشبية صغيرة مربوطة بسلك نحاسي إلى أسطوانتين.

قالت باسل: «لم أجهّزها بعد».

حمل جميل القنبلة بيديه الاثنتين. في الأسبوع الماضي، ساعدهم خبير من دمشق في تجميعها في السينما باستخدام مواد تم تهريبها إلى المدينة في عربة لنقل الخضار. فتح باسل الحقيبة، فوضع جميل العلبة فيها، ثم علّقها على ظهره. صحيح أن القنبلة لن تنفجر إلا بعد إشعال الفتيل، لكن أحشاءه تقلّصت متأهّبة عندما أحس جسده بثقل الحقيبة. ناوله باسل بندقية وكيسًا قماشيًا فيه ذخيرة.

«هل ذهبت لأخذها في وضح النهار؟». تفقّد جميل البندقية، ووضع فيها ثلاث طلقات.

قال باسل: «لقد ذهب البريطانيون كلّهم إلى الجبال. صدقًا، لو لم يكونوا في حاجة إلينا هناك... لاقترحت أن ننتهز فرصة ذهابهم فنستولي على النادي الرياضي».

«منير، هل أنت آتٍ معنا؟».

«في المرة القادمة، يا شباب. في المرة القادمة».

بلغوا زواتا في غضون نصف ساعة. جرى أربعة أشخاص لكي يلحقوا بهم في

الشارع الذي تشويه الشمس. تبادلوا التحية. كان اثنان من القادمين شابين لم ينبت الشعر في وجهيهما. وكان معهما كهل نحيل لا يحمل إلا عصا. لم يقل أحد شيئًا بعد السلام. دوى صوت المدافع الرشاشة باهتًا من بعيد حيث كانت كرة من دخان تعلو صوب السماء.

قال باسل: «سأحمل الحقيبة بعض الوقت...». التفت إليه رأسا الشابين الصغيرين، فقال لمن انضموا إليهم في زواتا... «لا تنتظرونا».

بينما سار باسل واضعًا إبهاميه تحت حمّالتي الحقيبة، وراح صوت خطواتهما يتردّد خفيضًا على الطريق الترابية، كان أولئك الأشخاص الأربعة قد تضاءلوا، حيث ينعطف الشارع صوب ساحة القرية الرئيسية على الطريق حيث تدور المعركة. مر بهما مقاتلان على جوادين يصهلان. ازدادت أصوات إطلاق النار كثافة بعد أن اختفى صوت حوافر الحصانين. وعند آخر القرية، كانت نساء ريفيات تملأن جرار الماء من بئر. انحنت ثلاث نساء وانضممن إليهنّ. الماء يترقرق في الجرار على أكتافهن وهن سائرات في رتلٍ صامت بين القرى. عبرت النساء الحوض الضحل الذي يسبق الوادي، وتنتقّلن بخطوات ثابتة على الصخور. صار ممكنًا أن يميز المرء في ذلك الهدير أصوات الرصاص وصيحات بشرية. أنزلا بندقيتيهما عن كتفيهما، وحملاهما في أيديهما، وراحا يتسلّقان سفح الجبل.

انزلق باسل أثناء صعودهما، فشهق وتمسك بإحدى الأجمات. اندفع جميل فأمسك بذراعه محاذرًا أن يمس الحقيبة على ظهره. قفز قلبه إلى حلقه. وجد باسل موطئًا لقدمه، ثم سمعا حركة بين الأغصان أمامهما. ظهر رجل يرتدي زيًا عسكريًا تركيًا، مع الأوسمة والزينات، وتقدّم منهما. ارتفعت ذراعاه، فصاحت إحدى النساء: «يا الله!». كان الدم يسيل على وجهه: كانت أذنه ممزقة. أفسحوا له طريقًا لكي يمرّ. أتت أصوات البنادق من الناحية الأخرى من التل. لقد بلغوا القمة. كان ثوار منبطحون، محتمون بالصخور، يطلقون النار صوب أسفل الوادي. كان بعضهم يرمي حجارة. احتمى جميل في خندق صغير تحيطه الأجمات، وضغط وجهه على الأرض حتى ينظر من تحت الأغصان.

تحت حُجب دخان البنادق، على مسافة نحو عشرة أمتار إلى الأسفل، كانت القافلة متوقّفة في الوادي عند صخور تسد طريقها. كان الرشاش المثبت على سيارة المقدّمة صامتًا -لعل ذخيرته نفدت- أو لعل من يطلق النار منه كان مصابًا. لكن طلقات كانت تأتيهم، على التناوب، من نوافذ السيارة. ومن خلف ثلاث عربات عسكرية، كانت بضع سيارات مدنية متوقّفة تحت حمايتها. إلا أن نهاية القافلة كانت محجوبة عن النظر، خلف منعطف الوادي. توهج خوفٌ من تحت جرأة جميل. كسر بيديه الأغصان

الصغيرة اليابسة أسفل الأجمة حتى يُفسح مكانًا لجسده، ثم وضع بندقيته في ثغرةٍ تحت جلمود صخر في أعلى الخندق. سدّد إلى نوافذ السيارة الثانية. لقّم بندقيته، ثم أطلق النار. لقم البندقية، وأطلق النار. لم يدر إن كانت طلقاته تصيب أهدافها. سمع صراخًا آتيًا من مكان أمامه. جرى شخص إلى يساره وقذف حجرًا أصاب سقف إحدى السيارات. فرّ الرجل متراجعًا تحت زخّ الرصاص الذي انهمر عليه، ثم تعثّرت خطواته وتلوّى تحت وطأة ألم مفاجئ.

لقّم جميل بندقيته من جديد وصوّب إلى نافذة أخرى. فوهة ماسورة مدفع رشاش ترتفع في الناحية الأخرى من الوادي، ثم ظهر جسم دبابة زاحفة. وعلى الفور، بدأت الدبابة إطلاق تيار مستمر من رصاص رشاشها، فثارت زوابع الغبار من فوقهم، على القمة. استدار جميل وتجمّع على نفسه إلى أقصى حد استطاعه في خندقه. لم يستطع رؤية باسل. كان الآخرون قد احتضنوا الأرض جميعًا. وعلى مقربة منه، واصل إطلاق النار رجل مصاب بجرح في فخذه. كان إلى جانبه رجل ميت؛ وإلى الأسفل قليلًا، كان رجل آخر يحتضر. زحفت امرأة شابة من غير غطاء رأس فأمسكت بقدم الرجل الميت وشدّته خلفها صوب أسفل المنحدر. صاح الرجل الذي لا يزال حيًا: «وأنا، وأنا».

ظهرت طائرة حربية، ثم اختفت. ومع انفجار القنبلة التي ألقتها، وقع جميل منكبًّا على وجهه فوق الأرض الراجفة. اصطدم رأسه بحجر، فتدفّقت موجة ألم في جمجمته. رأى باسلًا. كانت البندقية مسترخية بين يدي باسل؛ وكانت الحقيبة على الأرض إلى جانبه. طبقة تراب على عدستي نظارته، وشفتاه تتحرّكان متمتمتين بدعاء.

صرخ جميل مشيرًا إلى مجموعة صخور لا أحد خلفها: «اذهب إلى هناك. استخدم البندقية، والقنبلة. احذر...». رصد مكانهما شخص في الأسفل: ازداد إطلاق النار في اتجاههما، فحفرت قدما جميل التراب لتقليل المساحة الظاهرة من جسده، ومحاولًا اتخاذ وضعية تسمح له بإطلاق النار. اشتعل غضبًا؛ وكان سعيدًا. ازدادت يداه قوة. سقطت قنبلة أخرى على مسافة منه فوخز التراب المتطاير وجهه. توقّف لكي يمسح عينيه بأصابعه، ثم بقميصه. كان ثوار آخرون يأتون من الخلف. لا يزالون نظيفين، مندفعين.

سمع صوتًا نسائيًا يقول: «خالتو، لقد مات».

أدار رأسه بحركة حذرة. رأى امرأة بين الأشجار حاملة إبريق ماء. كانت في مثل سن أمه.

«ارجعي».

صاحت: «كن شجاعًا».

«ارجعي».

ظهر من خلفها مقاتل ملتحٍ. كان مطوّقًا بثلاثة صفوف من حمّالات الرصاص، وبنطاق فيه مخازن للبندقية. جثم الرجل على الأرض، على مسافة بضع أقدام منه، وبدأ يطلق النار إلى أسفل الوادي بسرعة كبيرة، ثم يعيد ملء بندقيته.

ثبّت جميل ركبته على الأرض مستندًا إلى الصخرة بأصابع قدميه. ركع على ركبة واحدة، ورفع البندقية إلى كتفه. صوّب إلى زجاج سيارة عسكرية أخرى عليها مدفع رشاش، ثم ضغط على الزناد. ارتدت رصاصته عن الفولاذ. لقّم البندقية، ثم أطلق النار من جديد، لقم البندقية ثم أطلق النار. مر به كهلٌ حاملًا سيفًا، وجرى نازلًا الوادي، جرى إلى حتفه، ملوِّحًا بالسيف فوق رأسه مثلما يفعل محتفل بالمولد النبوي. همس جميل بالدعاء عندما رآه؛ وتمزّق قلبه إشفاقًا عليه. مد يده إلى الطلقات في كيسه. بقيت اثنتان.

صاح بجاره: «ألا تعطيني شيئًا من الذخيرة؟».

لم يسمعه الرجل. لعل ثلاثة صفوف من الطلقات كانت كمية كبيرة، لكن الظاهر أنه سيستخدمها كلّها. كان باسل قد انتقل إلى مجموعة الصخور التي أشار إليها جميل. بدأ أخيرًا يطلق النار من بندقيته. لم يستطع جميل رؤية حقيبة القنبلة.

صاح جميل: «باسل». كانت شجاعته تخبو سريعًا. ظهرت دبابة ثانية على القمة المقابلة. أطبقت أصابعه على حجر قذف به صوب القافلة. سقط الحجر في أجمة عند الطريق. كان يرتجف. انبطح على بطنه خلف الصخرة.

سيكون هذا اليوم يوم موته. عليه الآن أن يجري نازلًا صوب القافلة ملوّحًا بعصاه مثلما يفعل أولئك الفلاحون المستعدّون للتضحية. أطلق صرخة في الأرض. خدش التراب شفتيه. آلمه صوته. ترددت أصوات إطلاق النار في أحشائه. استولت عليه رغبة في النهوض واقفًا والفرار. ماذا يقول لتلك النسوة المنتظرات أسفل المنحدر عندما ترينه؟ أيقول إن ذخيرته قد نفدت؟ ستقلن له: كن شجاعًا. تعني الشجاعة رمي الحجارة في مواجهة المدافع. تعني الشجاعة أن ينزل المرء إلى الوادي من غير سلاح.

صاح من جديد، يائسًا: «باسل».

التفت باسل إليه. رآه فأسبل ذراعه إلى جسده. ظهرت الحقيبة القماشية في حضنه. دفعها عنه مقرّبًا إياها من جميل إلى أقصى حد استطاعه من غير أن يكشف نفسه على الوادي. لمع وجهه عرقًا لشدة تركيزه. أطلق جميل زمجرة هائلة غير مسموعة، ثم تدحرج في العراء المكشوف. أمسك بالحقيبة وجرّها عائدًا إلى مخبأه، ثم فك رباطها.

ركع، وحرّر الفتيل الذي كان محشورًا في زاوية العلبة العليا. بحثت يداه المرتعشتان في جيوبه حتى عثر على أعواد الثقاب. أشعل الفتيل الملتوي. وقف منتصبًا، وانطلق جاريًا، ثم قذف إلى الأسفل بهديته. طارت العلبة المدخنة متقلّبة في الهواء، متجهة إلى القافلة، فرمى جميل بنفسه على الأرض.

كان الهدير مصمًّا. ارتفعت السيارة الأولى، بنوافذها المحمية بشبكة حديدية وإطاراتها ذات الواقيات المدورة، وعلت في الهواء كأن موجة حملتها، ثم ارتفعت السيارة الثانية من خلفها مع انخلاع سقف السيارة الأولى. اندفعت الحرارة صاعدة السفح، ومن خلفها دفقٌ من دخان. اشتعلت النار في المحرك. بدأت غيمة من غبار صلب تمطر فوق جميل فخبأ وجهه. انتظر توقف تساقط الحصى. ثم صاح عبر الغبار: «باسل، لم يبق لدي رصاص».

كان باسل يطلق النار على جندي يحاول تخليص نفسه من حطام السيارة. كانت آثار أصابعه ظاهرة على طبقة الغبار التي غطت نظارته. زحف جميل إليه وأمسك بذراعه. قال له: «تعال عندما تنفد ذخيرتك. لم يبق لدي شيء. أنا، أنا».

قال باسل: «أنا عندي. خذ...».

«لا، لا ...».

قال باسل: «فهمت. اذهب».

كان الدخان كافيًا لحجب مسار جميل. لم يكن وحده: جرى ثلاثة رجال في أوقات مختلفة فتجاوزوه نزولًا عبر الأجمات متجّهين إلى الطريق. ومع بداية انحداره على السفح، شعر بموجة ألم حادة في ظهره جعلته يترنح. استند إلى شجرة، مبهور الأنفاس، ومد يده إلى كتفه اليسرى فاكتشف تمزقًا في سترته وفي قميصه. كان ألم الجرح لاسعًا في تلك المساحة المكشوفة من الجلد. عادت أصابعه مبتلة، حمراء. شد كتفه وتابع السير. كانت حركة الكتف سهلة مما يعني أن الرصاصة مسّته مسًّا فحسب. أجفل عندما سمع أصوات نساء حيث صارت الأشجار قليلة، فأمسك بذارعه. ضغط عليها وتقلّص وجهه ألمًا. كان ذلك قناعًا، تمثيلًا للألم. وفي الوقت نفسه، كان تعبيرًا حقيقيًا عن ذعره من الوجهة التي تأخذه قدماه إليها. ليس اليوم، لا ليس اليوم. أعزل في ميدان معركة. حرام أن يموت هنا. هو ليس مقاتلًا فقط. ثمة حاجة إليه في أماكن أخرى. إنه صلة وصل ضرورية. بدأ الخدر يسري في يده اليسرى.

كانت امرأتان تحاولان رفع رجل كساه الدم. توقّف جميل عندما رأى البدلة العسكرية الكاكية العثمانية. لقد رأى هذا الرجل من قبل. شعره وكوفيته غارقان بالدم

حيث كانت أذنه. ناحت واحدة من المرأتين: «أبو رامي، أبو رامي». أطبقت يداها على كتفي سترته... «أعرف بناته، إنه رجل صالح».

قال جميل: «هل هو من قريتك؟».

«أجل، أجل».

«لماذا ارتدى هذه الملابس؟».

قالت: «لقد أعطوه إياها». وأخيرًا، تخلّت عن إمساكها غير المفيد بكتفي سترة الرجل كأنها صحت عندما نطقت تلك الجملة.

قالت المرأة الأخرى، الأصغر سنًا: «أظن... أظنه استشهد». مدّت يدها إلى قراب على وسطه، وأخرجت منه مسدسًا ثقيل الوزن. كان مسدسًا قديمًا له ماسورة فضّية ومقبض فضي.

نظر جميل إلى الرجل الميت. كان فمه مفتوحًا في تكشيرة دامية، وعيناه مغمضتين. سرت على جلد جميل موجة من الجبن، وشعر بتقزّز حيواني يصعد إلى حلقه. أهكذا يكون مظهر الموت النبيل؟ أبو رامي المسكين. تزعزعت ثقته. ذلك الدم كله، الدم الجاري إلى الأرض. لا بد أن شيئًا قد أعمى بصرَ جميل فوق قمة التل لأنه لم يعد قادرًا على أن يرى في الدم ما كان ينبغي أن يراه فيه. أين التسامي إلى العلا في هذا السائل الأحمر؟ وأين ذلك الرمز المزدوج للإيمان، النضال الجريء من أجل الوطن، وعاقبته السماوية؟ لم يكن قادرًا على رؤية شيء غير ركام بشع، محتويات بشرية مقزّزة. كره نفسه. بدت له فضيلة رغبته في العيش موضع شكٍّ كبيرٍ.

قال: «الله يرحمه». خرج الصوت بصعوبة من حلقه.

كررت المرأة الأكبر سنًا: «الله يرحمه».

ما الذي يجعله أفضل من هذا الفلاح صاحب الملابس الغريبة؟ شخص عاطل عن العمل لم يكن لديه ما يخسره، أو فلاح بسيط استجاب للدعوة إلى التعبئة مثلما فعلت هاتان المرأتان... أشخاص تضمّهم مع أقرانهم عقيدة التضحية المشتركة بينهم. هو ليس أحسن منهم: وحده غروره يقول له إنه كذلك. بل على العكس، فأبو رامي أطهر منه ثلاث مرات، أطهر من جميل كمال الذي لوّثه ترعرعه بين الأشياء الجميلة في قاعات تركية.

قالت المرأة الأكبر سنًا وهي ترفع بندقية القتيل: «خذ أسلحته، وخذ ذخيرته...». كانت الدموع في عينيها... «خذها، يلا. يلا. اذهب يا خالتي؛ اذهب يا ماما».

قالت المرأة الشابة: «آه، لكنك تنزف».

«هذا ليس بشيء...». حمل جميل البندقية بيده، وتفحص كيس الرصاص المصنوع من الجلد... «ليس أكثر من خدش. شكرًا. حماكما الله».

استدار وسار عائدًا إلى السفح. تجاوزه رجل يجري حاملًا هراوة مطلقًا زئيرًا صادرًا من أعماقه. عرف جميل هذا الصوت. إنه صوت الغضب... صوت يُستدعى لكي يُغرِق الرهبة.

مس باسل ذراع جميل بمحبة عندما رآه. بدأ جميل يطلق النار من بندقية القتيل. لكن الوقت لم يطل قبل أن يأتي أحد القادة بنبأ مفاده أن الدبابات قد طوّقتهم، وأن عليهم الآن أن يختبئوا. لحق جميل وباسل ببقية من ظلوا على قيد الحياة فاجتازوا ذلك السفح حتى وصلوا إلى كهف. انتظروا حتى حلول الليل. شربوا الماء من الجرار، وغسلوا وجوههم وجراحهم. جلس جميل حارسًا فترة من الزمن عند مدخل المغارة. ومع تراجع حرارة المعركة، استراح وفكر في مدحت. أحسّ من جديد بثقله على ذراعيه عندما حملاه إلى السيارة، عندما سأله هاني ناظرًا إليه نظرة جادة إن كان قادرًا على القراءة بالفرنسية.

أجابه جميل: «كنت قادرًا على ذلك». طوى هاني رسالة مدحت وقد بدا على وجهه ما يشبه الاعتذار، ثم وضع المغلف في جيب سترته.

استطاع جميل أن يكوّن فكرة عامة عن محتوى الرسالة. لم تجعله تلك الرسالة يشعر بالفضول. فمن ناحية، كان واثقًا من أنه لن يستطيع ترجمة محتواها، مهما يكن ذلك المحتوى. لكن شعوره بالعجز والخوف كانا مسيطرين عليه بعد أن ملأ أذنيه بكاء ابن عمه، فلم يبق متّسع للإحساس بأي شيء آخر في تلك اللحظات. صرَّ على أسنانه ورفع رأسه ناظرًا إلى الأشجار. كانت الشمس في انحدار. بدأت الأغصان تتمايل في نسيم النهار الذي شارف على الانتهاء.

# - 8 -

كان معسكر الاعتقال في الصرفند ناحيةً من مقر الحامية العسكرية البريطانية. وكانت الزنازين سلسلة من البرّاكات الخشبية ذات السقوف المطلية بالقار يفصلها عن بقية المعسكر سور مرتفع من الأسلاك الشائكة. في بداية احتجاز هاني، لم يكن في برّاكته غير خمسة أسرّة عسكرية مشغولة. لكن، مع تقدّم الصيف، ومع اعتقال المزيد ثم المزيد من الأشخاص المهمّين، امتلأت الأسرّة كلها إلى أن صارت البراكات كلها، في أواخر شهر آب الحار، غاصّةً برجال متهمين بالتحريض على العنف... رجال يشخرون راقدين جنبًا إلى جنب في ظلام الليل. كان باب البرّاكة ينفتح عدة مرات في اليوم الواحد فيدخل جنديان أو ثلاثة جنود لإجراء التفقد. كان هذا يحدث في أوقات يحرصون على ألا يكون تكرارها دقيقًا حتى يفاجئوا السجناء متلبسين بـ«التجمع بأعداد كبيرة»، الأمر الذي أبلغوهم مرات كثيرة بأنه مخالف لأنظمة المعسكر.

استجابت سحر إلى طلب من هاني فأرسلت له كوفيّة بيضاء وعباءة بيضاء ارتداهما، كغيره من المحتجزين من أبناء المدن، تعبيرًا عن التضامن مع الثوار. أرخى لحيته؛ وصار ينفق أيامه جالسًا في الخارج على كرسي قابل للطي ضمن المنطقة الصغيرة المحيطة بالبراكة. تلك المنطقة التي كانوا يدعونها مازحين «الحديقة»: مساحة واقعة بين جدران البراكة وسياج الأسلاك الشائكة. كان ينقل كرسيه دائرًا حول البراكة ملاحقًا الظل المتحرّك مع حركة الشمس. تخلّى سجناء البراكة عن الطاولة الوحيدة الموجودة فيها لصالح أكبرهم سنًا، حسام أفندي، من يافا. ومع تقدّم ساعات النهار، كان الآخرون يساعدون حسام أفندي في نقل الطاولة، مع كتابه وأوراقه، لملاحقة الظل. كان الآخرون جميعًا يكتبون الرسائل على أوراق يضعونها فوق المصاحف المستندة إلى ركبهم. لم يكن أحد يأتي على ذكر الضجر. تتلاقى عيونهم أحيانًا؛ ومن غير الارتياح الذي ينجم عادة عن الإحساس بالمحنة المشتركة، يبث كل واحد منهم الآخر -صامتًا- حزنه الممضّ الثقيل. لكنهم كانوا يعرفون أن الثوار ينظمون صفوفهم، وأن قادة عسكريين من سورية مرتدين الزي العثماني القديم كانوا يقيمون مراكزَ قيادة إقليمية في الجبال ومحاكم للنظر في أمر الخونة. إلا أن الله يمنح كل إنسان معركة يخوضها. كانت معركتهم كالتالي: الطعام الباهت نفسه، ومنظر الجدران نفسها، والوجوه المتعبة نفسها، والعيون نفسها التي تغمض عند الدعاء، وأدعية الصبر نفسها تنطقها شفاههم نفسها.

كان هاني يقرأ القرآن، ويمضي بقية أيامه في الكتابة وقراءة الصحف؛ يكتب إلى زوجته، وإلى أصدقائه وزملائه، وإلى موظّفي الحكومة البريطانية. ولما كان واثقًا من أن ضباط السجن يقرأون كل ما يكتبه، فقد حرص على استغلال تلك الفرصة للتعبير عما في نفسه من غلٍّ بطريقة لا تؤدي إلى تعريضه إلى عقوبات إضافية.

*العزيزة سحر،*

*لا أكاد أصدق أنك من أوحى إلي بفكرة إثبات أن احتجازي هنا غير قانوني. لقد قلت لي في رسالتك: «تظن أنك معتقل، لكنك محتجز في واقع الأمر». لقد فوجئت أول الأمر، لكني أعترف الآن بأنني لست سجينًا ولا معتقلًا، بل محتجزٌ هنا. هذا لأن من غير الجائز الاحتفاظ بأي معتقل إلا ريثما يتم عرضه على المحكمة. انطلاقًا من هذه الفكرة، توصّلت مباشرة إلى أن ليس من حق قائد الفرقة، ولا من حق المفوّض السامي نفسه، احتجاز أي شخص. على أية حال، فمن المقرر أن ينتهي احتجاز نحو خمسين شخصًا منا في الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من هذا الشهر. لكني لا أعلم إن كانت السلطات ستجدّد فترة الاحتجاز. سوف نرى. لن يكون هذا مفاجئًا لي، فكل شيء هنا مُهين.*

صحيح أن حرارة شهر آب لم تتراجع، لكنّ شيئًا في الهواء بدأ يهمس بالخريف، وصار يبدو أن مَيلان الشمس يزداد كل يوم. بدأ هاني يكتب رسائل موجّهة إلى صحيفة في يافا حتى تنشرها. أراد أن يكون ذلك تفريجًا رسميًا عما يحسّه من كرب. ولما كان الوقت المتاح للتفكير طويلًا في معتقل الصرفند، فقد راح يتأمل في مهارة البريطانيين في اختيار الأسماء: قصفوا يافا، ثم دعو ذلك «تطويرًا حضريًا». اعتقلوا الوطنيين وأسموهم «مجرمين». وطبيعي أيضًا أن يسمّوا الفلسطينيين كلهم مسلمين. ولما كانوا قد أعلنوا عن خطة لإعلان الأحكام العرفية، وبدأوا يرسلون إلى حيفا تعزيزات عسكرية تعد بالآلاف. ولما لم يكن لديه سلاح غير عقله وقلمه، فقد كانت هذه معركة أخرى أحب هاني أن يجرّب خوضها. بدأ ينفق الساعات بين وجبة الغداء التي لا طعم لها، المكونة من الخبز وصلصة الطماطم، ووجبة العشاء التي لا طعم لها، المكوّنة من الأرز ومرق اللحم، في إنشاء محاججات حماسية باللغة العربية يتناول فيها الأمثلة الأكثر وضوحًا على ظلم البريطانيين مستخدمًا عبارات مستعارة من السجلات القانونية ومن تراث الفصاحة العربية.

كان في الحديقة بعد ظهر أحد الأيام يكتب واحدة من تلك الرسائل، رسالة عن الفرق بين السجين والمحتجز، ويعود إلى رسائل سحر لكي يستمد منها إلهامًا. رفع

رأسه عن الورقة فرأى عبر ثغرة في جدار البراكة المقابلة مجموعة من العرب يسيرون في رتل أحادي. كانت أيديهم مقيّدة خلف ظهورهم. وفي لحظة من تلك الثواني القليلة التي أتاحتها تلك الثغرة، رأى هاني وعرف جسد عبد الحميد شومان المتين وعينيه البراقتين، فانطلقت منه آهة.

سأل حسام أفندي وهو يخفض يديه ويضعهما على الطاولة: «ما المشكلة الآن؟».

قال هاني: «لقد اعتقلوا شومان». اختفى آخر جندي خلف الجدار، وملأت سحابة تلك الثغرة من غبار.

كان عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربي، وأمين سر لجنة صندوق الإضراب. كثيرًا ما كان المعتقلون في براكة هاني يطيّب أحدهم خاطر الآخر، بالقول إن البريطانيين قادرون على بتر «المنظِّمين»، من أمثال هاني من غير أن يكون لذلك أثر ملموس على الكفاح؛ فلا سبيل إلى قمع الثورة بعد انتشار روحها واستيطانها صدور الفلاحين. لكن الظاهر الآن أنهم اتّجهوا أخيرًا إلى استهداف مصدر التمويل. استراتيجية حكيمة: على أقل تقدير، ينبغي للمرء أن يشهد لهم بهذا. غير أن معنويات عبد الحميد لم تضعف أبدًا. فخلال الساعة المخصّصة للتمرينات الرياضية، أتى وحيا هاني بأربع قبلات وابتسامة، ثم سأله عن أخباره بطريقة عادية كأنه التقاه مصادفة في الشارع. ثم استدار على أعقابه بحركة حيوية نشطة وخاطب واحدًا من الحراس. كان ذلك تحت وهج الشمس. بدا له أنهما يضحكان. تحدّث الحارس مع زميله، ثم انضم إلى الحديث رجل رابع. وفي غضون دقائق معدودة، أتى عبد الحميد حاملًا كرة قدم.

قال هاني: «ماذا تفعل بهذه؟».

صاح عبد الحميد: «يلا، جميعكم».

التفتت إليه الرؤوس من أنحاء الباحة.

«يلزمنا فريقان».

هكذا كان وصول عبد الحميد علامة على بداية مرحلة غريبة في حياة معسكر الاعتقال؛ فقد صار المرء يجد في كل مرة ما لا يقل عن أربعة عشر رجلًا يلعبون كرة القدم في ذلك الملعب بينما يتولى عبد الحميد دور الحكم.

لم يشارك هاني في هذه المباريات. كان يجلس أحيانًا ويتابعها، لكنه كان يزداد ميلًا إلى الاستفادة من الهدوء في الحديقة بينما يكون الجميع في الملعب. وفي أحد الأيام، في أواسط شهر آب، كان يكتب رسالة موجهة إلى الصحيفة يتحدث فيها عن الأحكام العرفية عندما شعر بألم فظيع في أسنانه.

ظن أن الألم ناتج عن تشنّج عضلي. لكن ذلك الألم تركّز خلال فترة العصر،

فانحصر في ثلاثة أسنان صارت اللثة من حولها متورمة إلى حد جعله يحرص على مضغ طعام العشاء على الناحية الأخرى من فمه. أعطاه طبيب المركز الصحي كيسًا من الملح حتى يتمضمض به. لكن ذلك لم يكن له أي أثر على حالته، حتى مع المضمضة كل ساعة. صار لدى هاني انطباع مزعج بأنه يشبه كلبًا جالسًا إلى مائدة العشاء.

ناداه حسام أفندي فجأة من خلف طاولته: «اطلب إذنًا خاصًا».

أنزل هاني يده الممسكة برأسه. لم يكن منتبهًا إلى أن حسام يراقبه.

قال حسام: «اذهب إلى يافا. أعرف هناك طبيب أسنان جيِّدًا جدًا. يوناني».

قال هاني: «الله يحفظك...»، ثم تنحنح وأضاف... «قد أفعل هذا».

قال حسام وهو يعيد إلى أنفه النظارتين اللتين رفعهما فوق جبهته عندما كلمه: «اطلب. لا ضير في ذلك».

نظر هاني إلى صحيفته. تمتم لنفسه قائلًا: «التفوق على الآخرين في الصبر، والثبات، وتذكُّر الله دائمًا... هذا هو طريق الفوز».

أليس هناك ضير في الطلب؟ لم يكن هاني راغبًا في أن يطلب لنفسه شيئًا. شك في حكمة الأمر. إن كان لدى المرء شكّ في أمر، فمن الأفضل ألا يفعله. امتد الألم في اليومين التاليين فشمل فكّه كلّه، وانضم إليه سنّان جديدان. صار هاني غير قادر على فعل شيء غير التفكير في ذلك الألم وفي عدم رغبته في المطالبة بزيارة طبيب الأسنان. خلُصَ إلى أن تردّده غير ناتج عن احتمال رفض طلبه بالذهاب إلى طبيب أسنان خارج المعتقل بقدر ما كان ناتجًا عن نفوره من فكرة أن هذا سيعني تمييزًا له عن بقية المعتقلين. ليس فعل ما قد يكون من شأنه كسر تضامنهم أمرًا حسنًا؛ وهذه ليست إلا معركة أخرى يتعين عليه خوضها. فضلًا عن هذا، وبصرف النظر عن شدّة الألم، أليس معيبًا، ولو قليلًا، أن يشكو المرء لمجرّد أن ألمًا أصاب أسنانه!

«سيد مراد».

«نعم؟».

«هناك من يريد رؤيتك».

كان استقبال الزوار أمرًا نادرًا إلى حدٍّ جعل هاني يظنّ أول الأمر بأنهم طلبوا طبيب أسنان من أجله. غمر الارتياح قلبه. سار الجندي مقعقعًا بسلاحه الكامل؛ وسار هاني من خلفه مرتديًا عباءته البيضاء... كان وقعُ قدميه المنتعلتين صندلًا لا يكاد يُسمع.

وقف ستة جنود في حالة الاستعداد عند باب براكة أخرى. خفض هاني رأسه لكي يدخل. بعد أن ألِفَتْ عيناه عتمة المكان، رأى رجلين جالسين وإلى جوارهما كرسيّ ثالث فارغ. نهض الرجل الأول. شخص ثقيل الجسم، كبير العينين: إنه إلياس درويش،

واحد من زملائه في القيادة الدبلوماسية للثورة. اقترب هاني من صديقه وقبّله. نادرًا ما يرى إلياس، إلا في ساعة التمرينات الرياضية حيث لا يكون هناك متّسع من الوقت للكلام، ولا مجال للخصوصية. لقد تعمّد البريطانيون فصلهما لأنهما من «حلقة القيادة» العليا. وضعوهما في برّاكتين متباعدتين.

قال الرجل الثاني الذي كان يرتدي بدلة: «هاني بيك». إنه نوري السعيد، الذي صار وزير خارجية العراق.

«نوري...». تقدّم هاني منه فصافحه وقبّله... «لقد مرّ زمن طويل. سمعت أنك كنت في القدس، كيف حالك؟ وما أخبارك؟ لا يزال شكلك مثلما كان تمامًا».

كان هذا شبه صحيح: لقد ازداد وزن نوري كثيرًا منذ آخر مرة رآه هاني في بغداد؛ كانت تلك الزيادة ظاهرة عند وسطه وتحت ذقنه المتغضّنة بفعل ابتسامته الترحيبية الكبيرة. لكن شعره المتموّج المفروق جانبيًا ظلّ على حاله، رمادي عند الصدغين، فوق أذنيه. كانت على صدره ربطة عنق ثقيلة زرقاء اللون.

قال له: «أهلًا..أهلًا. تفضّل، تفضّل».

قال درويش للحرس بنبرة جافة: «ألن تتركونا وحدنا؟».

ضم نوري كفّيه معًا وألقى على هاني نظرة متفحّصة. يعرف هذا الرجل هاني منذ عشرين عامًا. لقد كان نوري مشاركًا في ثورة الحجاز ضد العثمانيين أثناء الحرب. ثم ظلّ واحدًا من رجال فيصل، في مؤتمر باريس أولًا حيث بدأت معرفة هاني به، ثم في دمشق، وبعدها في العراق.

قال نوري بنبرة ناعمة وهو يجذب ساقي بنطلونه مع جلوسه: «الشعب العراقي غاضب. وكذلك الأمر في المملكة العربية السعودية، وفي شرق الأردن أيضًا. نحن جميعًا قلقون بسبب الأوضاع في فلسطين».

نشأ لدى هاني إحساس قوي بأن هذا حديثٌ معدٌّ سلفًا... لعل نوري يكرره للمرة الثالثة، أو الرابعة.

كان نوري يقول: «انطلاقًا من الأخوّة العربية، وبالنظر إلى الروابط القومية بين فلسطين والعراق؛ وكذلك بالنظر إلى الصداقة المتينة بين الحكومتين العراقية والبريطانية، فقد اتفق العرشان على السعي إلى حل المسألة الفلسطينية. سوف نهتم بأمركم. يأمل البريطانيون في إيفاد بعثة ملكية في أسرع وقت ممكن لكي تتقصّى أسباب...».

قاطعه درويش بنبرة غاضبة: «لا نستطيع إيقاف الإضراب من غير إنهاء الهجرة. هذا هو شرطنا الأول».

سوّى نوري ربطة عنقه وقال: «بالطبع. والآن، تحدّثت مع وايزمان في شهر حزيران. نعم، لقد تحدّثت مع وايزمان. قال لي إن الصهاينة سيوقفون الهجرة سنة كاملة. كان ذلك في شهر حزيران». ظلّ وجه درويش من غير تعبير.

قال هاني: «هل أنت واثق من هذا؟».

«أجل، أنا واثق».

«هل قال إنهم سيوقفون الهجرة مدة سنة؟».

«قال إنهم سيكونون مستعدّين للنظر في الأمر».

قال درويش: «حسنًا، هذا هو الفرق. سيكونون مستعدين للنظر في الأمر».

انحنى نوري إلى الأمام وقال: «انظر. سيكون عليكم إنهاء العنف عند نقطة ما. لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. أعرف، أعرف، إن موسم قطاف الزيتون قد اقترب. وأظن أن البريطانيين قد جمعوا هنا عددًا من الأشخاص المهمّين لديكم بما يكفي لجعل إمداد الثوار صعبًا. اسمع، يا هاني؛ اصغ إلي».

نبض الألم في فك هاني.

قال نوري: «سوف يفوزون. بطريقة أو بأخرى، سوف يفوزون. ألا ترى هذا؟ إن قواتكم المسلّحة الصغيرة التي تتخذ استعداداتها الآن حول نابلس ليست جيشًا. ليست جيشًا حقيقيًا. لكن، إذا خرجتم الآن وأعلنتم إنهاء الإضراب طوعًا، لا قسرًا، فسوف تكونون قادرين على القول لرجالكم، بل على القول لفلسطين كلّها، إنكم ربحتم شيئًا -إيقاف الهجرة قبل وصول بعثة تقصّي الحقائق- وعندها، ستكونون أبطالًا».

كان وجه درويش يتجهّم.

قال هاني: «إذا أعلنا وقف الإضراب، ثم لم يوقفوا الهجرة، فسوف يقتلنا الثوار. لست أشك في هذا أبدًا...». وضع يده على فكه المتألّم... «لا نستطيع الاستسلام، يا نوري».

«ماذا بك؟».

«لا شيء. إنه سنّي. لدي ألم في أسناني».

«سلامتك. ينبغي أن يكون لديهم طبيب هنا».

لوّح هاني بيده.

قال درويش فجأة: «الناس في ضيق شديد. هذه هي الحقيقة».

نظر إليه هاني وقد فاجأه قوله.

قال له: «ماذا؟».

نظر درويش إلى هاني. كان في وجهه تعبير أشبه بالاعتذار. قال بنبرة حذرة: «إضراب

كامل مدة ستة أشهر. لا حركة أبدًا...». رفع يديه... «إن كلام نوري منطقي. لن نستطيع الاستمرار زمنًا طويلًا. قد يكون علينا... أن نستفيد من الظروف... أن نضعها في خدمة كفاحنا على أحسن وجه نستطيعه».

خلال لحظة واحدة، أعاد هاني النظر في فهمه تجهّم وجه درويش. لقد افترض أن زميله غير مقتنع بالكلام؛ افترض أنه غاضب؛ لكن العكس هو الصحيح في حقيقة الأمر. لم يسبق له أبدًا أن سمع هذه الشكوك من درويش. كان يظن أن كل من في معتقل الصرفند مدرك أنهم يضحّون جميعًا من أجل مشروع كبير، وأنهم لن يتراجعوا أبدًا، وأن عليهم المحافظة على تضامنهم. لهذا السبب تحديدًا، كان هاني قد قرّر عدم طلب رؤية طبيب أسنان. لكنه نظر إلى زميله فشعر بالطاقة تنبجس فيه... لم تكن غضبًا بالضبط، بل شيء أشبه بجرس الإنذار. جال في ذهنه أن من شأن وضعهم في براكات مختلفة أن يؤدي -بالطبع- إلى ظهور أهداف وردود أفعال ومراجَعات مختلفة. فرّق تسُد: تلك هي الخطة. أحسّ بتوتّر في صدره عندما أدرك أن نوري ودرويش ينتظران إجابته. تساءل في نفسه إن كان درويش قد وافق بالفعل على خطة نوري قبل وصوله وانضمامه إليهما.

سمح لنبرة كلامه بأن تعبر عن شيء من غضبه. قال لنوري: «وأنت، ماذا تستفيد من هذا؟».

رفرفت عينا نوري: «إنه واجبي؛ إحساسي بالواجب، فلأنني عربي... لكن، ماذا تعني بسؤالك عما أستفيده؟».

ارتفع حاجب هاني. كان يتأهّب لاستخدام أسلحته اللفظية. حتى إذا كان عليه آخر الأمر أن يقبل هذه الخطة لإنهاء الإضراب، فهو لن يرضخ من غير سبر نوايا نوري، على الأقل؛ فقد بدت له تلك النوايا موضع شكٍ كبيرٍ. لكنه فتح فمه لكي يبدأ عرض اتهاماته فأحسّ بألمٍ لا يطاق يسري في فكه السفلي. انحنى واضعًا يده على خده.

قال درويش من جديد: «سلامتك».

قال نوري: «سأقول لك ماذا سنفعل». أدرك هاني من صوته أنه يبتسم... «تعال إلى الاجتماع في القدس. الأسبوع القادم. سوف نخرجك من هنا، يا هاني بك. سوف نعيدك إلى زوجتك، وسوف نحضر لك طبيب أسنان».

ظنّ مدحت أنه يهلوس عندما رأى جميلًا وأبا جميل واقفَيْن عند سريره، وقد ارتدى كل منهما سترة ووضع ربطة عنق. لقد نقلوه إلى جناح الحالات الحادّة منذ تلك الحادثة مع هنريك. وفي هذا المكان، كان على الدوام يقظًا في مواجهة الهلوسات التي تأتيه، فضلًا عن اضطراره إلى تحمّل الضجيج. لقد استنتج أن ساعة الجيب التي رآها في يد هنريك لم تكن إلا شيئًا تخيله؛ لا لأن منطق الحادثة نفسها كان يقود إلى هذا الاستنتاج

بقدر ما كان المنطق الداخلي للحلم يجعله يفهم أن رؤية جانيت لا يمكن أن تكون حقيقية بدورها. إذا كان هذا أمرًا غير حقيقيٍّ، فإن ذلك غير حقيقي أيضًا. من هنا، غار قلبه عندما رأى جميلًا وأبا جميل: لقد كان واثقًا تمام الثقة من أن حالته في تحسّن! لكنه لم يلبث أن لاحظ أن أبا جميل قد ازداد سمنة، وأن شاربه صار كبيرًا، رماديًا. كان جميل أكثر نحولًا، شعره مسرّح إلى الخلف، لامع. كان جميل ينظر إلى مدحت.

قالت ممرضة إنجليزية: «عفوًا يا سادة. لا يجوز أن تكونوا هنا».

قال أبو جميل: «ماذا قالت؟».

رفع جميل كتفيته.

«مدحت، ماذا قالت الممرضة؟».

ابتسم مدحت ـ لم يستطع منع ابتسامته ـ وقال بصوت أجش: «تقول، لا يجوز أن تكونوا هنا». لم يتكلّم منذ أيام.

أتتهما ممرضة فلسطينية وقالت: «ممنوع. ينبغي أن تخرجا فورًا».

«هذا ابن أخي. هذا هو. نريد إخراجه من هنا».

«لا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ماذا تعنين بقولك لا؟».

«إنه مريض، وهو...». انخفض صوتها فصار همسًا.

انفجر أبو جميل فاتحًا أصابعه، مبعدًا إياها عن فمه كأنه يقذفها بهذه الكلمة: «مجنون. أنت مجنونة».

ظهرت ثلاث ممرضات أخريات معهن رجلان في زي رسمي. نظر جميل في عيني مدحت وغمزه، قبل أن تقوده مجموعة العاملين إلى الخارج مع أبيه. ظلّ صوت أبي جميل يأتيه من الممر؛ وكان واضحًا أنهم دخلوا في مجادلة هناك. أدرك مدحت من صوت حركة الأغطية من حوله أن بقية المرضى قد استداروا لكي يستمعوا إلى ما يجري. ارتجف قلب مدحت. ظن أنه استطاع تمييز صوت وصفي، ثم كلام أم جميل الحادّ، السريع. ثم أتاه نحيب تيتا: لا يمكن أن تخطئه أذنه. وبعد ذلك، صمت. نظر الرجل الذي إلى جوار مدحت بعينين متسائلتين. السقف ينضغط عليه. أطبق مدحت قبضتيه على الفراغ.

«انتعل شبشبك».

كانت تلك كبيرة الممرضات. إنها واقفة إلى جانب سريره. جعلت زاوية النظر فكّها وفتحتي أنفها السوداوين أكبر من الحقيقة.

«قلت لك انهض».

جلس مدحت في سريره، ثم سار خلفها إلى خارج الجناح.

كان أبو جميل وجميل ووصفي واقفين عند جدار في آخر الممر. ربطة عنق وصفي حمراء فاقعة. انتبهوا جميعًا عند دخول مدحت. قال أبو جميل: «هوْ هوْ!»، وفتح جميل فمه ثم استنشق نفسًا عميقًا وابتسم ابتسامة عريضة. لكمَ وصفي الهواء بقبضة يده. كانت إلى جانبهم امرأتان محجّبتان. تيتا وأم جميل. اندفعت تيتا في اتجاه مدحت. وعندما انفصل فستانها عن فستان أم جميل، كشف عن وجود امرأة ثالثة خلفهما.

قالت كبيرة الممرضات: «الآن، بما أننا وافقنا على نقله، فإنني أرجوكم جميعًا أن تغادروا المكان. أرشدوه إلى حيث يستطيع تغيير ملابسه».

قال مدحت: «فاطمة».

ببطء، رفعت فاطمة ذراعيها. لكن تيتا كانت قد وضعت يديها على وجه مدحت وراحت تمسح خديه بإبهاميها. همست له: «إن زوجتك ذكيّة جدًا. أعطني الكيس، يا أبا جميل. بدلة، قميص، زوج جوارب، حذاء، ربطة عنق. يلا، حبيبي، البس ثيابك». ولما رأت مدحت يخطو متّجهًا نحو زوجته. ربتت على ذراعه وقالت: «ستراها في ما بعد. اذهب الآن».

أخذته الممرضة إلى غرفة صغيرة فيها سرير طبّي ضيّق وصليب معلّق على أحد الجدران، ولوحة فيها أرقام على جدار آخر. مرآة طويلة مبقّعة قائمة بين كرسي وخزانة لها واجهة زجاجية مغبّرة. رأى ميزانًا موضوعًا تحت النافذة. سمع صوت إقفال الباب. إنها الغرفة التي وزنوه فيها عند وصوله إلى هذا المكان. وهنا، سلّمهم ملابسه. تذكّر هذا الفراش الرقيق المغطى بملاءة، الفراش الذي وضع عليه بنطلونه وجواربه. نظر إلى المرآة فرأى فيها رجلًا هزيلًا، طويل الشعر، غير حليق، له ذراعان كثيرتا الشعر وكاحلان ظاهران من رداء المستشفى الأخضر. رأى في المرآة انعكاس النافذة المطلة على طريقٍ خالٍ.

«أبو طاهر».

انفتح الباب. شم رائحة جسد فاطمة قبل أن يراها... رائحة بيتهما. جذبها من ذراعيها عندما لم تتحرّك من عند عتبة الباب.

قال لها: «اجلسي، من فضلك».

لم تجلس. ظلّت واقفة حيث تركها، ناظرة إلى اللوحة على الجدار. عيناها كبيرتان، لامعتان.

قال مدحت: «أرجوك، ارفعي حجابك. أريد أن أراك».

ظنّ لحظة أنها سترفض ذلك. لكنها ردّت حجابها إلى الخلف وتقدّمت فصارت

في الضوء. بدلًا من الخوف الذي توقّع رؤيته، كان وجهها متقلّصًا ألمًا. لم يستطع رؤية دموع، لكن العضلات من حول عينيها كانت متوتّرة. لا بد أنها تحاول أن تمسك دموعها.

قال لها آخر الأمر: «ما أخبار المتجر؟». ندم عندما سمع الجرح في صوته.

غطّت فاطمة عينيها بكفّيها المستدقّين مثل جناحي طائر. عروقهما بارزة من شدّة الحر. أمسك مدحت برسغها، فتبعه جسدها. التصقت بصدره.

قال وهو يمس شعرها المرتعش: «آه، لا، لا».

ابتعدت عنه ماسحة عينيها بأصابعها. قالت: «عليك أن ترتدي ملابسك».

قال مدحت: «اشتقت إليك. لماذا لم تأتِ أبدًا لزيارتي هنا؟».

كاد صوت عجلات في الخارج يطغى على الجزء الأخير من كلماته، لكن فاطمة سمعته. لم تحاول أبدًا منع وجهها من التقلّص مثلما يتقلّص وجه طفل. امتدّت يدا مدحت، متباعدتين، أصابعهما مفتوحة كأنما لكي تمسك، أو لكي تعانق، أو... لعله كان يمد يديه إليها، إلى كلمة تبطل أثر ما قاله قبل قليل. هدأت عاصفة فاطمة شيئًا فشيئًا. بدت مرهقة، متوترة، موشكة على الكلام. لكنها لم تقل شيئًا، بل انحنت وبدأت تفك الكيس الذي فيه ملابسه. وضعت رباط الجوارب على الفراش، ثم ردّت إلى الخلف فردة الجورب الزرقاء الداكنة، وقرّبتها من قدمه.

«يلا». قرّبت الجورب منه، فرفع أطراف ثوبه. تناولت فردة الجورب الثانية بعد أن صار رباط الفردة الأولى المطاطي مستقرًّا على ربلة ساقه. ثم جاء دور البنطلون: فكّت أزراره ووسّعت ساقيه فصارتا مثل بركتين صغيرتين على الأرض. استند بيده على كتفها وأدخل قدمه في الفردة الأولى إلى أن مسّت بلاط الأرض. أمسكت فاطمة بالفردتين إلى أن مرّ كاحلاه منهما. رفعت ثوبه فخلعته عنه، ثم ألبسته قميصًا وزرّرته من الأسفل إلى الأعلى. تركته يربط حزامه بنفسه. أدخل ذراعه اليمنى في كم السترة، ثم ذراعه اليسرى. أرخت رباط الحذاء، وجذبت اللسان إلى الأعلى. قالت له: «هل تريد ربطة عنق أيضًا؟».

قهقه مدحت. هذه أول مرة تُلبسه فيها ثيابه. غريب كم كان سريعًا ذوَبان ذلك الصمت الدبق. هذا الاعتياد الجديد على الرفقة جعل الاتهام الصامت بأنه هجرها يعوم من فوق رأسه. ضغط كعب قدمه على جلد الحذاء. ها هي آتية... أول نسمة من نسائم الارتياح. إنه موشك على مغادرة هذا المكان.

لكنّ ثقلًا معاكسًا، ثقل خسارة ملموسة قوية ناجم عن فكرة الرحيل غمره لحظة رفعت فاطمة ثوب المستشفى ونزعته عنه. لا بد أن أثرًا من ذلك الفيروس قد ظلّ حيًّا

داخله، قد ظل يغريه –حتى الآن– باستعادة ذكرى المرأة الأخرى. مثلما يستيقظ المرء في فراش بارد فيحاول التمسك بأهداب حلمٍ هاربٍ حتى إن عرف أن موضوع توقه كان جزءًا من فعل عقله نفسه. جاذبية خداعة، وسراب... ومع ذلك، مع ذلك: كانت رؤيتها في الجناح (أدخل قدمه في فردة الحذاء الثانية؛ ومع استقرارها فيها، أحسّ بفراغ في معدته، وأحس بصدى ارتفاعه إلى تلك القمة، إلى إحساسه الحقيقي جدًّا بكتف جانيت الحي تحت كفه، بصوتها، بأنفاسها)... إن كانت تلك هلوسة، فالهلوسة تشبه الجنة.

رأى زوجته تقترب منه حاملة ربطة العنق، تمسكها من طرفيها حتى تعقدها حول رقبته. وهناك، في المرآة، وقف رجل مهزول منهكٌ مرتديًا بدلة، وصفٌّ ثانٍ من أزرار فضية ظاهر تحت أصابعه الشاحبة. خفض رأسه لكي تضع فاطمة ربطة العنق. وكأن هذه الحركة من رأسه جعلت دوارًا يعصف به: انداح صوت أجراس برونزي في الهواء. ارتد إلى الخلف ونظر في عيني فاطمة.

«هل تسمعين هذا؟».

«أسمع ماذا؟».

همس: «أجراس».

تجهّم وجهها. قالت له: «طبعًا، أستطيع سماع الأجراس. الكنائس كثيرة في بيت لحم».

مدت يديها من جديد حتى تضع ربطة العنق من حول ياقة قميصه. أطلق زفرة وأمسك بيديها –يدان ناعمتان، صغيرتان، نديتان– ثم فتحهما وغطت قبلاته راحتيهما.

«أشكرك. أشكرك».

قالت فاطمة: «كف عن هذا!». لكن أصابعها استسلمت لشفتيه. كانت تضحك.

قاد جميل السيارة بسرعة أكبر من المعتاد. وكان وصفي ينظر عبر زجاجها ليرى إن كانت هناك سيارات عسكرية بريطانية في الطريق. عاد أبو جميل وأم جميل وحدهما. (سأله وصفي: «هل ستكون أمورك على ما يرام؟». وقال أبو جميل: «إن لخالتك عيني ثعلب»). فاطمة جالسة خلف وصفي، ومدحت في الوسط ممسك يدها، وتيتا جالسة إلى جانبه من الجهة الأخرى.

قالت تيتا وهي تجذب فستانها بين ساقَيْها وتغيّر وضع قدميها: «كانت نية هاني حسنة. لكن، كيف كان له أن يعرف؟ ذهنه مشغول بأمور أخرى. هيك الظروف. لكن، انظروا... مدحت ليس مجنونًا. هل هو مجنون؟ هل أنت مجنون، يا حبيبي؟ أنت حزين فقط».

«صحيح. أنا حزين فقط».

قالت تيتا: «جيّد. جيّد»، ثم نظرت من النافذة... «إنه مكان فظيع».

قال لها: «كيف استطعتم إخراجي؟»

قالت تيتا: «فاطمة هي التي أخرجتك. قالت لهم إنك طبيب. قالت لهم إنك درست في فرنسا. ثم قالت إنك علّمتها كيف تعتني بالمرضى. وقالت أيضًا -ماذا قالت؟- قالت إنك حزين على والدك. وإنها ستعتني بك. ثم قالت لهم إن حالة المستشفى مخجلة... أسوأ كثيرًا من وجودك في البيت. حيث تكون معك طيلة الوقت. لكن، يعني... لم تقل هذه الكلام بهذه الطريقة. قالته بطريقة جعلتهم عاجزين عن الرد. لقد أحرجت تلك المرأة، تلك المرأة الطويلة».

قال وصفي: «هذا ما نسميه هجومًا من عدّة هجات».

«هل قالت هذا كله بالإنجليزية؟».

قالت فاطمة: «لا، وصفي ترجم لها كلامي».

ضم مدحت أصابعها بكفه: «بارك الله فيكِ».

كانوا كلهم ينظرون من نوافذ السيارة. إنهم حذرون منه؛ وهذا واضح. كان حذرًا من نفسه أيضًا، إن أردنا الصدق. وكان يراقب نفسه متوتّرًا، خائفًا أن يظهر في مجال رؤيته، في أي لحظة، شيء غير عقلاني يمزّق هذا النسيج الذي صار مشتركًا بينه وبين الآخرين، ويفضح حقيقة أن عقله لا يزال غير قابل لأن يكون موضع ثقة، وأن أجزاء ذلك العقل التي تسمح له بالكلام وفهم ما يقال لم تستعد صحتها إلا ظاهريًا، وأن من تحتها أجزاء أصابها ضرر لا سبيل إلى إصلاحه. جلس يراقب يدي جميل الممسكتين بمقود السيارة... يدان سمراوان، عُقد أصابعهما ظاهرة.

«ما أخبار الإضراب؟».

استدار وصفي في مقعده: «ماذا نقول لك؟... نحن منشغلون. يتولّى جميل قسمًا كبيرًا من التنظيم».

«هل هذا صحيح؟».

أومأ جميل برأسه ناظرًا إليه بالمرآة.

«وماذا عن القتال؟».

قال وصفي: «جميل يقاتل. ويقاتل معه، ما اسمه... باسل مراد...». اعتدل في جلسته وعاد ينظر إلى الأمام أثناء مرورهما بمجموعة من البيوت. خفض رأسه لكي ينظر إليها.

أشار إلى جميل: «انتظر. انتظر. خفف السرعة. صحيح، يساهم أكثر الناس بالمال

والتنظيم. وأيضًا، من أجل تعزيز الإضراب... يعني... الأمر صعب. الطقس يزداد حرارة؛ وتزداد الأمور صعوبة. عندما يأتي موسم الزيتون...». صفّر من بين أسنانه... «لكن، يا خالتو، هل رأيت أولئك اليهود كلّهم في المستشفى؟ ماذا يظنون؟»، قال هذا وهو يلتفت إلى تيتا.

قالت تيتا: «أعرف. غباء. الإنكليز أغبياء».

نظر مدحت عبر نافذة فاطمة وقال: «المرض يصيب الناس جميعًا».

ظهرت لهم سيارة عسكرية مرابطة على الطريق السريع الواصل بين القدس ونابلس. كان بضعة جنود يدفعون صدور الفلاحين بفوهات بنادقهم. أيديهم مرفوعة في الهواء، والجنود يفتّشون أجسامهم. نظرت وجوه جميع من في السيارة، حتى فاطمة، إلى الأمام بحركة تلقائية؛ عدا مدحت الذي ظل ينظر إلى ذلك المشهد أثناء مرورهم. كان جندي في بنطلونٍ قصير وخوذة على رأسه يمرّ بيديه على ساقَي واحد من العرب نزولًا حتى حذائه.

كثرت التلال من حولهم. وظهرت أشجار الزيتون على سفوحها ذات المدرجات المبنية من حجارة بيضاء. ظهرت نابلس من النافذة، وقاد جميل السيارة متجاوزًا خط القطار غير المستخدم، والشوارع الخالية.

توقّفت السيارة بهم أمام البيت. فتح وصفي الباب الخلفي. قبّل مدحت جدته ونزل من السيارة بعد زوجته، فعانق وصفي وشكره. نزل جميل من السيارة، لكنه ظلّ واقفًا إلى الناحية الأخرى منها. لوّح بيده. لمع شعره المزيت تحت أشعة الشمس.

قالت تيتا: «اذهب وقبّله».

دار جميل من حول السيارة بخطوات سريعة خرقاء، ثم أحاط رقبة مدحت بأصابعه النحيلة وطبع قبلتين سريعتين على خديه.

«الله معك».

نظر مدحت في عيني جميل. اختفى ذلك الملمح القلق الذي رآه على وجهه في المستشفى. كان الجميع ينظرون إليهما: كان الجفاء الذي حلّ بينهما أمرًا يعرفه الجميع.

قالت تيتا وهي تمد رأسها من نافذة السيارة بينما كان جميل عائدًا إلى مقعد السائق: «لا تخرج الليلة من البيت. يجري قتال في الليل».

بدأت السيارة تبتعد عنهما. وبدأت فاطمة تصعد الدرجات المفضية إلى الباب.

قال لها مدحت: «أين الأطفال؟».

«عند أهلي، سيعودون بعد ساعة تقريبًا. نحن في حاجة إلى قيلولة».

«لستُ في حاجة إلى قيلولة».

«لا بأس. أنا في حاجة إليها. افعل ما تريد».

بدا أثاث غرفة النوم غريبًا في غبش النهار. الكراسي، والنافذة المرتفعة، وتلك المرآة، والخزانة، وهذا السرير. كانت ألفة تلك الأشياء غريبة، غير طبيعية. وقفت فاطمة قبالة الخزانة حتى تبدّل ملابسها فبدت عظام ظهرها كأنها تنزلق من تحت جلدها وهي تلبس قميص نومها. غدًا، سيكون كل شيء أفضل. فبعد نوم ليلة، سيكون هذا الأثاث المألوف الغريب قد طبع نفسه في دماغه بعد أن يبتلعه ظلام الليل ثم يظهر مع بداية يوم جديد. وقبل انقضاء وقت طويل، سيتحرّر من ذكرياته الحسّية عن أعمدة سرير المستشفى المطلية الباردة التي تصطدم بها قدماه عندما يتقلّب في الليل. نظر إلى السقف وفكر في جانيت. حاول استدعاء لحظة ملامسته كتفها. كانت ذكرى واهية جدًا. لن تظهر له.

كانت فاطمة تفتح درجًا في الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. أخرجت منه سيجارة، وأشعلت عود كبريت.

قال مدحت: «سعيد بأنني صرت في البيت».

رفعت ساقيها إلى السرير، وتصاعدت خيوط الدخان ملتفّة في الهواء.

«أنا سعيدة أيضًا. كنا في بيت أبي».

«أوه؟».

«نعم. جاء الثوار يطلبون مالًا. وفي النهاية، أعطيناهم بندقية قديمة...». استنشقت نفسًا وقالت... «هاني بك في معسكر الاعتقال».

«هاني!»

«أجل. مسكينة سحر. هل تعرف أنها حبلى؟ آمل أن ينتهي الإضراب قريبًا. أريد العودة إلى الحياة الطبيعية. نسمع أصوات إطلاق النار كل ليلة. أحيانًا يأتي خالد وينام معي».

قال مدحت: «هاني في السجن... أوه...». وضع يده على شفتيه... «أظنني سمعت بهذا. أخبرني واحد من الناس. قال لي إنه في الصرفند».

قالت فاطمة: «وقد باع عمي حسن للكنيسة أرضًا جديدة... من أجل تمويل القضية».

«والله!».

«كانت آخر مرة رأيته في السنة الماضية...» أغمضت عينيها. كان كلامها عشوائيًا... «وكان هناك قس. إنه قس فرنسي».

«آه. نعم. أنا أعرفه. أخو العذارى».

«لقد ألّف كتابًا عن نابلس».

انبثقت ذكرى في عقل مدحت. رأى مستشفى نابلس في ضباب تشوّش ذهنه.

وهناك رأى فريديريك مولينو جالسًا خلف بقية المرضى في الناحية البعيدة من الشرفة. نظر إلى تلك الذكرى بدهشة؛ غمره غضب أعقبه نوع من ذعر جليل. ثم -على نحو مفاجئ تمامًا- تذكّر كم كان راغبًا في الكلام مع خصمه القديم. يومها... أدار رأسه فكان الدكتور مولينو قد اختفى. وفي مكانه، رأى قسًّا.

«هل أنت على ما يرام؟».

أطلق صوتًا من غير معنى: «كنت أتذكّر شيئًا في المستشفى. رجلًا».

«رجل؟».

«آـ أجل. إنه رجل يهودي...». سعل قليلًا... «أعني، قابلته هناك. كان سريره إلى جوار سريري».

نفضت رماد سيجارتها في الطبق؛ وتساءل مدحت في نفسه عن مقدار ما تعرفه عن اضطراب عقله. ما مدى ما يعرفه أي واحد منهم؟ ومن عساه يعلم ما يبوح به المرء في هذيانه؟ شعر بأنه مترنح، مكشوف، وكأن ريحًا عاصفة فتحت معطفه قسرًا. نظر إلى زوجته التي لا سبيل إلى سبر أغوارها.

«فاطمة».

«ماذا؟».

«كيف استطعتِ حقًّا إخراجي من المستشفى؟».

«مثلما قالت لك تيتا».

«هل قلت لهم إنني طبيب؟».

«وقلت أشياء أخرى».

ضغطت نفسها على الوسادة. قال لها: «أراكِ حزينة جدًا».

أغمضت عينيها. انسدلت أهدابها. لم يحاول تطييب خاطرها. عاد فاستلقى على ظهره. تجاوب الفراش مع ارتخاء عضلاتها عندما هدأت أنفاسها. لا يزال يحسّ برغبةٍ شديدة في الكلام. مضى وقت طويل منذ آخر تبادل واضح للحديث... لا يزال يتذكّر متعة ذلك. نظر إلى وجه زوجته من جديد. أنفاسها قصيرة، خفيفة، من فمها المفتوح.

همس لها: «فاطمة». مرّت لحظة صمت طويلة قبل النفس التالي الذي كان أشبه بالتنهد، شهيق، زفير. تجمعت طاقاته في نقطة واحدة. قال لها: «أعرف. لم يكن هذا ما توقّعتِ أن يكون».

وضع رأسه بين كفّيه، واستند إلى مرفقيه. تغضّن حاجباها، فانتظر قليلًا قبل أن يستأنف كلامه: «أنا آسف. عندما ينتهي الإضراب، فسوف يصير لدينا مال من جديد. أعدك بأن نترك نابلس. سنذهب إلى البحر. نذهب إلى بيروت. نذهب إلى يافا.

الإسكندرية...».

بدأت شفتاها تتقلصان. وبرزت وجنتاها واضحتين. فتحت عينيها.

همس لها مبتسمًا: «Salut[1]».

أشاحت بوجهها ونظرت إلى السقف.

«آسف». أغمض عينيه كأنه أراد النوم. لكن حاجته إلى الكلام ظلّت عالقة في صدره مثلما يعلق سعال لم يستطع المرء إخراجه. كان ما جرى كثيرًا جدًّا؛ وهو لا يزال جاريًا. أراد أن يقول لها كم كان غريبًا استيقاظه بعد نوم طال شهورًا. لا يبعد ذلك المكان عن نابلس أكثر من ساعتين بالسيارة؛ لكنه كان خارج البلاد حقًا، في بلاد أخرى، بينما تدور رحى ما يشبه الحرب في مدينته. أراد أن يتكلّم عن الإضراب، وما قد يحقّقه، وما يعنيه السير في هذه الشوارع الخاوية، المنذرة بالخطر. أراد أن يطرح أسئلة على فاطمة. وأراد أن تتدفّق الكلمات منهما فتلاقي كلماته في منتصف الطريق. أراد إخبارها عن خيالاته وأوهامه، فالبوح بها يحرّره مما ظلّ باقيًا فيه من سمّها ـ أراد إخبارها كم كان يحسّ بأنه قد تغيّر. صار قادرًا على رؤية نفسه بوضوح أكبر، قليلًا، من الخارج. صار قادرًا على رؤية فاطمة إلى جانبه. كان قميص نومها قد ارتفع فوق ركبتيها، كاشفًا عن الانحناءة الناعمة لساقيها العاجيتين المتقاطعتين عند الكاحلين، كأنهما زندا آلتين موسيقيتين. لقد خلعت جواربها؛ ومن بعد كاحليها المتلاصقين –عليهما شعيرات باهتة اللون– كانت قدماها المتوردتان ظاهرتين... أصابعهما الطويلة ذات الأعناق الرشيقة. استنشقت فاطمة نفسًا بطيئًا. شعر بإرهاقها؛ وعرف أن عينيها كانتا ترفرفان ناظرتين إلى السقف. هذا الجسد الغامض المتنفّس راقد إلى جانبه. لا، لن يقول لها أي شيء من هذا. تكسّرت الموجة.

قال: «أظنني سأخرج في نزهة».

«عليك أن تستريح».

كان في صوتها خوف. استجاب لخوفها مثلما اعتاد أن يستجب دائمًا: بابتسامة كبيرة. قال لها: «ألا تعرفين كم مضى من وقت وأنا مستلقٍ في الفراش؟ أنا في حاجة إلى المشي».

«لا».

«ماذا تعنين بقولك لا؟».

«إنهم يتقاتلون في الخارج ـ هناك قناصون. الخروج غير آمن».

---

(1) مرحبا.

«لكن، يا فاطمة، عليَّ أن أرى إيلي. لقد ظل شهورًا وشهورًا من دوني. تخيّلي هذا».
«ليس الآن. عليك أن تستريح».

طقطق بلسانه ورفع يديه. قال: «آه، عظيم... أخرج من تحت حكم الأطباء فأصير تحت حكم الزوجة. هذا هو قدري».

«بابا! بابا!».

تنهدت فاطمة. دخلت غادة الغرفة.

قال مدحت: «حبيبتي! حبيبة قلبي ـ لماذا شعرك طويل هكذا؟».

«بابا، بابا، بابا».

«بابا مشتاق إليك».

رفعت ذراعيها حتى يحملها: «أنت لم تكن هنا في عيد ميلادي. أنت لم تكن هنا».

وقف طاهر ومسرّة مترددَيْن عند الباب. اندفع خالد من بينهما: «بابا».

قال مدحت: «ماما نائمة. أووف، لقد كبرت كثيرًا!». قال هذا وهو ينزل غادة... «يلا، روحوا».

ذهب معهم إلى المطبخ. ظهرت الأشجار في النافذة لامعة بلون أخضر رمادي. حلّق سرب طيور في السماء.

أسند خالد مرفقيه إلى الطاولة: «بابا، أين كنت؟».

قالت مسرّة: «هذا ليس من شأنك؟».

سأل مدحت: «هل لدينا فاكهة؟».

برتقالة قديمة جافّة واحدة؛ تلك كانت الإجابة. وقفوا ينظرون إليه وهو يحزّ قشرها بالسكين، ثم ينتزعه عنها شريحة بعد شريحة. قال وهو يمد يده عبر الطاولة بطريقة احتفالية ساخرة: «ملح». ناوله خالد وعاء الملح الصغير، نثر مدحت قليلًا منه على شرائح البرتقال وهو يرفع ذراعه ويخفضها. ضحكت غادة.

قال مدحت وهو ينهض لكي يغسل أصابعه: «لماذا أنت حزين، يا طاهر؟».

قالت مسرة: «طاهر ليس حزينًا».

«ماذا كنتم تأكلون؟».

«الموز!».

نظر إليه وهو يجفّف يديه بمنشفة الأطباق. وعندما استدار إلى النافذة، اخترق أذنيه صوت غريب: رنين أجش من غير صوت كأنه نغمة حادة من بيانو غير مدوزن. لم يكن لديهم بيانو في البيت. تراخت وقفته. دغدغ ذلك الصفير طبلتي أذنيه.

ظهر له القس على شاشة جفنيه المغلقين الحمراوين. أخو العذراوات، على شرفة

المستشفى، يطرح أسئلة. كانت رغبته في الكلام مع القس عميقة، فورية. تذكر لقاءه في مستشفى نابلس؛ لكنه لم يتذكر شيئًا مما دار بينهما. مخلوق نادر المثال... هذا الرجل الآتي من فرنسا... هذا المؤمن: أجنبي يعرف نابلس. لم يعرف بعد ما يريد قوله له على وجه التحديد؛ عرف فقط أن عليهما أن يتحدثا.

«صحتين، يا أحبائي. كلوا».

قالت مسرّة: «ولدينا أيضًا جبن. عندنا تين في الحديقة».

قال مدحت بحماسة غنائية: «أووووه! فاكهتي المفضلة».

«سوف أقطف لك التين. أكلت العصافير أكثر التين عندما لم نكن هنا؛ لكن لا يزال لدينا بعضٌ منه».

«في ما بعد، يا حبيبتي. لماذا لا أرى أحدًا يأكل؟».

أخذ خالد جزءًا من البرتقالة: «أريد منديلًا».

في تلك الليلة الأولى في بيته في نابلس، ظلّ مدحت يستيقظ كل بضع ساعات على صوت إطلاق النار الآتي من الجبال. وفي إحدى المرات، اشتد الصوت كثيرًا، فمدّت فاطمة يدها من تحت اللحاف ووضعت كفها الدافئة على ذراعه. لم تضغط عليه أبدًا، بل اكتفت بطمأنة نفسها إلى أنه موجود إلى جانبها. أو لعلّها كانت تذكّره بأنها موجودة إلى جانبه.

وفي الصباح، دخلت وداد حمّاد البيت مسرعة.

«أين زوجك؟ أتيت لكي أتمنّى له أتم العافية».

سمع مدحت فاطمة تقول لها: «إنه قادم»؛ ثم لم يلبث الممر أن ابتلع صوتها.

ضبط مدحت انزعاجه. أنفق ما طاب له من وقت في الحلاقة... في دعك ذقنه ورقبته بفرشاة الحلاقة الفرنسية، وفي ترطيب صدره بالكولونيا، وفي قص أظافره وتشذيبها، وفي اقتلاع بضع شعرات طويلة في منخريه، وفي تزرير سترة بدلته الكتانية، وفي تزييت شعره وتسريحه، وفي غسل يديه أيضًا؛ ثم انضم إلى زوجته وحماته في الصالون. كانت وداد جالسة على كرسي قريب من النافذة. هتفت عندما رأته: «الحمد لله على السلامة». ثم مطّت رقبتها وقبّلته ثلاث قبلات. لم تنتظر استجابته لسلامها، بل عادت مسرعة إلى استئناف الحديث الذي كانت فيه.

«اعتقلوا ثلاثة، وأطلقوا النار على أربعة».

تناول مدحت فنجانًا من الصينية: «أين حدث هذا؟».

«في بيت دجن».

قالت فاطمة: «هل تركوا الجثث؟».

«سمعت سلمى هذا من محمد سقّا الذي يقول إن تقرير الشرطة يذكر أنهم فرّوا هاربين. يا لها من تهمة! أمر طبيعي أن يهربوا منهم. لم يكونوا مختبئين في كيس العدس! إنهم يفعلون هذا دائمًا».

قالت العبارة الأخيرة وهي تلتفت إلى مدحت... «يدخلون القرية، ويعتقلون الناس، ثم يحطمون كل شيء. يخلطون أنواع الحبوب معًا. الطحين والأرز والسكر وغير ذلك... يخلطونها كلها معًا... وبعدين، يصبّون فوقها عادة زيت الزيتون أو زيت الوقود. شيء مقرف».

بعد أقل من ساعة، وصلت تيتا ومعها أبو جميل وأم جميل. نظروا بإمعان إلى مدحت منذ بلوغهم الباب. أومأت تيتا برأسها راضية: «تبدو في أحسن حال. أم محمود تدعو لك بالصحة».

«ألا تشربون القهوة؟».

«لن نبقى طويلًا».

«هل تريدون القهوة بالسكر أم من غير سكر؟».

قالت أم جميل: «مع السكر، من فضلك. شكرًا يا حبيبي». ثم لحقت بأم طاهر التي كانت قد دخلت الصالون وانشغلت بالسلام على من فيه.

نقرات على نافذة الصالون ظهرت بعدها نزهة مع شقيقها برهان الذي كان قادمًا في الدرب. سرت لمحة قلق على وجه فاطمة؛ لكن نزهة كانت مستعدّة لذلك، فقالت كأنها تخاطب الباب وهو ينفتح أمامها: «لن نبقى حتى الغداء». علت الأصوات، وتشتتت الأحاديث في كل اتجاه. ظهر طاهر وخالد في الممر فأرسلتهما فاطمة إلى المطبخ لإحضار مزيد من الكراسي. كان مدحت ينتبه إلى الأحاديث الجارية تارة ثم يشرد ذهنه عنها تارة أخرى.

«هو الآن في شرق الأردن».

«لماذا؟».

«يذهب لزيارة هذه الجماعات ـ أنا لست متأكدًا من...»

«هل تستطيعون السباحة؟ أنا ماهر جدًا في السباحة».

وكانت نزهة تقول: «منذ إخلاء سبيل هاني بك...».

قال مدحت: «ماذا؟».

قالت نزهة وهي تميل إلى الخلف حتى تشركه في الحديث: «نعم. لقد أخلوا سبيله يوم أمس. تركوا عددًا من الأشخاص أيضًا. إنهم يتفاوضون في القدس مع الملكين

ونوري باشا».
قال أبو جميل: «لم أسمع هذا الخبر قبل الآن».
قال مدحت: «يا سلام! هل سينتهي الإضراب؟».
قالت نزهة: «لا أحد يعلم هذا. ليس بعد... لا أظن».

ومن جديد، كفّ مدحت عن الإصغاء، وراح ينظر إلى يديه. رأى ساقي هاني في غرفة مكتب أبيه، ثم ظهر وجهه في مجال رؤيته. لم تكن لديه أية فكرة عن رأي هاني فيه الآن. خلال زمن صداقته كلّه، كان مدحت واثقًا، نسبيًا، على الدوام، من فكرة هاني عنه -ذلك لأن تلك كانت، في آخر المطاف، صورة نصفُها من صنعه-لكنه صار الآن غير قادر على الركون إلى ذلك؛ ليس بعد أن شهد هاني لحظة انهياره... اللحظة التي صار فيها مدحت غير معروف أبدًا، حتى لنفسه.

وأما الفكرة التي جاءت بعد تلك الفكرة الأولى، فقد فاجأته مفاجأة شديدة كأنها ضربته بين عينيه: لا بد أن يكون هاني قد رأى رسالة جانيت. وبالتالي، لا بد أن جميل رآها أيضًا. أحسّ بحريقٍ في حلقه؛ نظر إلى جدته التي كانت تقطِّب وجهها وتومئ برأسها، ثم نظر إلى أم جميل. نظر إلى فاطمة. أدهشه أن هذه الفكرة لم تخطر في ذهنه قبل هذه اللحظة. هل يعرفون جميعًا؟ كانت أصابع زوجته تعبث بزر كمها وهي مصغية إلى كلام نزهة. لم يستطع الاهتداء إلى طريقة يكتشف بها الأمر من غير أن يطرح السؤال طرحًا مباشرًا فيكشف نفسه. وأما الرسالة نفسها... ما من طريقة أيضًا للسؤال عن مكان وجودها. لا سبيل إلى ذلك من غير إعادة فتح الهوة التي زحف لتوه خارجًا منها.

ارتعش مدحت: يجب أن تكون الرسالة مع جميل، أو مع هاني. من المؤكد أن كلًّا منهما لن يتأخّر عن حمايته. إنهما يحبانه. لن يفضحا أمره. لاحظت فاطمة نظرته إليها فسألته بعينيها. أجبر وجهه على الابتسام لها. بالطبع... لقد افتضح أمره! لم يكن يعرف أبدًا ما اطلعوا عليه؛ لكنهم رأوه.. رأوه هو.

قال خالد: «سأحزن عندما تنتهي الثورة».
قالت فاطمة: «لماذا تحزن؟».
«لن يكون هناك شيء أستطيع التركيز عليه. الحياة العادية مضجرة».
ضربته أمه على ساقه: «عيب».
أجاب خالد بوقار: «لا أريد العودة إلى المدرسة».
قالت نزهة لمدحت: «متى رأيت هاني آخر مرة؟»
تقلّص وجه فاطمة. قال مدحت: «السنة الماضية».
ها هم جميعًا يشاهدون عودته، برفق، إلى هذا العالم. مستعدون لإعادة تشكيله على

هيئة شخص. كانت انطباعاته ترتد عنه كأنها أشعة ضوء. مرّت به في حياته أوقات ظن فيها أن حاجته إليهم محض خيال، هذه المجموعة من الناس الذين يعيشون في المكان نفسه تربطهم إليه أسماؤهم وحكاياتهم التي ورثوها. لكن، إن كان ذلك وهمًا، فما الذي عساه يكون حقيقةً؟ مِن غيرهم، هو ليس إلا جسدًا طافيًا في الهواء، مدَّ قدمه فوضعها على بلاط الأرض البارد، وأشعل عود ثقاب من أجل سيجار أبي جميل.

عادت فاطمة إلى المطبخ، فأخرج مدحت مسبحة من خشب الزيتون وراح يحصي عدد حباتها لكي تهدأ نفسه. حافظ على ابتسامته المجامِلة لأنه لم يرد أن يروه يجتر أفكاره. لقد اختفى أسلوبه المنهجي القديم في التفكير. اختفت قدرته على رسم خريطة شيء فوق خريطة شيء آخر، أو نزوعه إلى رسمها. ما عاد ممكنًا، أبدًا، لأي شيء أن تحتويه خريطة.

ظهرت فاطمة في الممر المظلم حاملة صينية. أشارت إليه برأسها، فأحس بلذعة غضب لأنها تزعم لنفسها الحق في استحسان مسلكه. لكن الحبّ لم يلبث أن ابتلع غضبه في لحظة واحدة... حب غارق في الأسى. هكذا كان. تظهر فكرة، ثم تزيحها فكرة أخرى، وتتساقط الأفكار واحدة بعد أخرى مثل تلاطم أمواج البحر الناعمة.

أمضى فترة بعد الظهر في ترتيب رفوف الكتب. على امتداد سنوات طويلة ظلّت هذه الكتب مرتّبة في صفين انطلاقًا من إحساس زائف بتوفير المكان؛ وذلك بحيث يظل الصف الثاني مختفيًا كلّه من خلف الصف الأول، فتصبح عناوين كتبه منسية. كان يعيد اليوم اكتشاف تلك الكتب، وينفض عن أغلفتها وحوافها العلوية طبقات من غبار. كتب كثيرة جلبها معه من باريس؛ وبعضها كان هدية من فاروق. تذكّر كيف التقط واحدًا منها عند نهر السين؛ وكيف انفتح الكتاب على صفحة تتحدّث عن القدس... القدس المتلامعة في البعيد. رُن جرس الهاتف. قال عامل الهاتف إن بيت خالته على الخط. جاء صوت تيتا متقطعًا، كأنها تغص.

قالت له: «عليّ أن أقول لك شيئًا. لكن، لا تحزن. لا تحزن، يا ماما! كن قويًا».

«ما الأمر؟».

«جميل... راح جميل».

سمع عويل أم جميل آتيًا من بعيد.

قال مدحت: «أنا قادم على الفور».

وضع سماعة الهاتف، ثم ظلّ واقفًا لحظة طويلة من غير أيّة حركة. سمع أطفاله يضحكون في الغرفة الأخرى. نظر إلى الخرقة التي في يده، الخرقة التي امتلأت غبارًا. خرج إلى السيارة بخطوات متعثّرة. كان بيت خالته مظلمًا، مصاريع نوافذه مغلقة.

لم يضيئوا المصابيح في البيت. تراجعت أم جميل إلى زاوية المطبخ عند دخوله. كان فمها فاغرًا.

كان جميل ممددًا على الطاولة. أسفل حذائه كان ظاهرًا قليلًا من تحت الملاءات، مهترئًا قليلًا. كان ملفوفًا بملاءتين عليهما بقع دم كبيرة جفّت حتى صار لونها بنيًا. وحده نصف جذعه العلوي كان مكشوفًا. قميصه المزرّر مشبع بالدم؛ وذقنه الشاحبة مرفوعة. نبض قلب مدحت عنيفًا عندما اقترب منه. كان فم جميل مفتوحًا وعيناه مغمضتين. وثقل وجهه كله غارق في وجنتيه الضيّقتين. أنفه الطويل متجه إلى الأعلى كأنه يستنشق نفسًا عميقًا: كان صورة للألم، صورة للخلاص.

قال مدحت: «آه». امتلأت عيناه دموعًا. مر بإصبعه على قماش ربطة عنق جميل الممزّق. مست رؤوس أصابعه شعرات الذقن غير الحليقة، فسحب يده مصدومًا. ثم وضع راحة يده، بكل تسليم، على وجنة القتيل. جعلته برودة اللحم المحسوسة على كفه يصيح: «آه، لا». سمع صوته راعشًا.

أراه أبو جميل ورقة:

«قتل هذا الرجل في تبادل لإطلاق النار مع جنود بريطانيين كانوا في حالة دفاع عن أنفسهم».

كانت تيتا ممسكة بذراعه بيديها الاثنتين. أوتار معصميها مشدودة. نظر في عينيها محاولًا ألا يبكي. رفرفت أجفانه: «أنا بخير».

وقعت مهمة غسل القتيل على مدحت وأبي جميل. لم يسبق لمدحت أن غسل ميتًا من قبل. نظر إلى عمه وهو يحضّر للمهمة قطع قماش وآنية ماء من غير أن يهتم بمسح دموعه الجارية على ذقنه.

فكا الملاءات عن جميل، ثم لفاه بملاءة نظيفة، من السرّة حتى الركبة. ثم راحا يضمّدان جروحه. بعد غسله خمس مرات، وإلباسه كفنه، ذهبا تباعًا فاستحمّا. أحضر مدحت خالته وجدته من الطابق العلوي، وجلسوا جميعًا يتلون الأدعية من حول القتيل. جاء منير مراد لتقديم التعازي، وليقول لهم إن باسلًا لا يزال حيًّا: سوف يمثل أمام المحكمة.

قال مدحت: «باسل».

قال منير: «كانا عائدين بالسيارة من شرق الأردن. كانا في مهمة من أجل القضية. أخبرني باسل بهذا قبل أن يأتوا لاعتقاله».

كان جميل قد غادر نابلس مع باسل بعد إعادة مدحت من بيت لحم. اجتازا جسر دامية ليلًا متّجهين إلى شرق الأردن. وفي عجلون، كان في انتظارهما شخص من عشيرة

العدوان. دفعا ثمن نحو مئة، أو أكثر من مئة، بندقية ومسدس وبندقية صيد، فضلًا عن كمية من الذخيرة؛ ثم ارتاحا حتى العصر قبل أن ينطلقا صوب نابلس عند المغيب. اقتربا من قرية بيت فوريك نحو الساعة الواحدة صباحًا، فأدركا أنهما محاصران. تمكّن باسل من الفرار.

قال منير: «سوف يحاكمونه بعد ثلاثة أيام. هنا، في نابلس». أومأ برأسه ودعا لأهل البيت.

مرّت ثلاثة أيام. ثلاثة أيام من النواح والتعازي. دُفن القتيل؛ وأقيمت صلاة الجنازة عند القبر الذي حفروه في المقبرة الغربية.

قالت الشرطة في المحكمة إن جميلًا أطلق النار على الجنود. أصر محامي باسل على أن من المستحيل أن يكون هذا ما جرى لأن من الواضح تمامًا أن الاثنين قد وقعا في كمين معَدٍّ لهما. لكن القاضي جزم بأن المسؤولية الأكبر عن الجريمة واقعة على باسل وجميل، وبأن ما من شيء يؤيد حجج المحامي بالنظر إلى عدم وجود شهود. حكموا على باسل بالحبس تسع سنين في سجن عكا بجرم حيازة متفجرات وأسلحة نارية.

سرت بين الناس أحاديث كثيرة عن وجود خيانة. فكيف يمكن للجيش أن يعرف المكان الذي ستكون فيه السيارة، وتوقيت وصولها إلى ذلك المكان؟ لا تحدث هذه الأمور عند منتصف الليل مصادفة. وبالطبع، كانت هناك طرق كثيرة لتسرّب المعلومات من غير أن يتعمد أحد ذلك. قلّة الحرص خلال مكالمة هاتفية، أو كلمة عابرة سمعها سائق سيارة تاكسي، أو فلاح رأى سيارتهما في الليل، فأخبر شرطيًا من غير أن يدرك فداحة فعلته.

وصل هاني في اليوم الرابع لكي يقدّم التعازي. أجريت له عملية في فكه، وفقد عدة أسنان. كان يجد صعوبة كبيرة في الكلام. على الرغم من هذا فقد حاصره بقية الحاضرين من غير تأخير لأنهم أرادوا سماع أخبار المباحثات الجارية في القدس. صار واضحًا خلال عصر ذلك اليوم أن هناك المزيد مما هو متوقّع من هاني الذي أسبغ حضوره على المناسبة مهابة خاصة. وهكذا قرّر إلقاء كلمة قصيرة بتلك الطريقة الاحترافية الباردة التي يستخدمها شخص يُطلب منه دائمًا إبداء رأيه. كانت كلماته عن استشهاد جميل أعمق أثرًا في نفوس الناس من الكلمات التي سمعوها من الإمام الذي تنحّى جانبًا وقد أُسقط في يده، في حين كان هذا الرجل صاحب الكوفية يتحدّث بصوت منخفض من جانب واحد من فمه.

قال هاني: «تنضم روح أخينا جميل إلى أرواح الشيخ عز الدين القسام، ومحمد بشير، والشيخ ياسين، وصادق زكريا، وأحمد معلواني، وأحمد الشيخ سعيد، وسيد

المصري، وغيرهم كثير. رجال قاتلوا بكل شجاعة في سبيل التحرر من الظلم. كان جميل صاحب نفس كبيرة، قوية، ملتزمة، شجاعة. وسوف يجزيه ربه في الجنة. روى ابن مسعود: لا راحة للمؤمن دون لقاء الله عز وجل».

بعد هذه الكلمة، تقدّم هاني من مدحت وقبّله. كان ذلك أول لقاء بينهما منذ ذلك اليوم في غرفة مكتب الحاج طاهر. ابتسم هاني؛ ولم يقل أحدهما شيئًا.

لا بد أن الاضطراب قد ظهر على وجه مدحت لأن هاني مد يده ووضعها على خده. عندما فعل هذا، رأى هاني تيتا: كانت واقفة في الممر تنظر إليه. ذُعر عندما لاحظ أن وصفي وأبا جميل كانا ينظران إليه أيضًا. كان تحسين يكلّم شخصًا من الجيران ويحرّك يديه راسمًا بهما دوائر كبيرة، لكن عينيه انحرفتا صوب مدحت. هزّت تيتا رأسها هزة صغيرة كأنها تسأله، فأرغم نفسه على الابتسام.

قال: «هل ستنتهي الثورة حقًا؟».

قال هاني: «الظاهر أنها ستنتهي. هذا ما نأمله».

قال مدحت: «كنت نائمًا طيلة الثورة كلها». تفحّص وجه هاني المتعب وفكر في ابن عمه. تساءل في نفسه إن كان جميل قد فكّر فيه خلال أيامه الأخيرة. تمنّى ألا يكون جميل قد فكر فيه. لم يكن يرى أنه يستحق ذلك التفكير.

ابتسم هاني وفتح فمه لكي يقول شيئًا. لكن الظاهر أنه عدَل عن قول ذلك الشيء، مهما يكن. سرت في جسد مدحت قشعريرة عندما نظر في عيني صديقه وفهم بكل وضوح أن هاني قد رأى الرسالة. لكنه فوجئ بأنه لم يشعر بالخجل، بل بإحساس بالراحة لم يكد يستطيع احتماله. وكأن جدارًا هائلًا قد بدأ يتهاوى. تهاوى الجدار، وها هو مدحت واقف في الناحية الأخرى. أحس بالهواء على وجهه. حاول الكلام، لكنه لم يستطع.

قال هاني: «من الآن فصاعدًا، سيتحسن كل شيء. لقد انقضت المرحلة الصعبة».

أومأ مدحت برأسه. أخيرًا غمغم قائلًا لهاني: «الحمد لله».

قبّل هاني خده. أطرق مدحت برأسه مصعوقًا. وبقوة مستمدة من عادة سيئة جديدة صارت لديه، بحث عن جانيت في ذهنه. كانت صورتها التي رآها في المستشفى تغدو أكثر برودة كلما عاد إليها؛ لكنه لم يجد قدرة على منع نفسه. ركّز أفكاره محاولًا أن يراها. ضغط على كتف هاني.

«أشكرك لأنك أتيت».

قال هاني: «ليكن الله معك».

ابتعد مدحت متّجهًا إلى النافذة. فكّر في أن خبو صورتها وتلاشيها من ذاكرته يمكن

أن يكون ناتجًا، بكل بساطة، عن طبيعة كل ما هو روحاني. هذه أشياء لا تبقى. أو، هل يمكن إطلاق تسميات سامية على الأوهام -مست أصابعه عينيه- أن يكون سبيلًا إلى جعل المرء قادرًا على تحمّل خسارة جديدة كبيرة لا حدود لها؟ رفع رأسه عندما ظهرت فاطمة بالباب. وجهها المزين، وفستانها الأزرق الذي يبلغ ركبتها، وحذاؤها الجلدي البني... كان ذلك كله منارًا من الخلف، من الحديقة. الزمن مسافة غادرة؛ ولا سبيل إلى اجتيازه إلا عبر استبدالات خطيرة تجري في المخيلة. مد يده. مسّت أصابعه رقبتها. نظرت فاطمة إليه نظرة مستطلعة. لا... الأمر غير قابل لأي حل آخر. فها هي هنا... ها هي هنا!

كانت غادة تمرّ بأصابعها على نقش ورقة الشجر على بلاط الصالة لكي تخفي حقيقة أنها كانت، في واقع الأمر، تراقب أباها الذي يتحرّك في الغرفة متحدّثًا مع أشخاص مختلفين، أو واقفًا وحده ناظرًا إليهم. ومن حين لآخر، كانت تمسح إصبعها بساق جوربها من الخلف.

كان أبوها أنيقًا مثلما تتذكّره، مرتديًا بدلته السوداء مع ربطة عنق زرقاء. نعم، كان يبدو أكبر سنًا، وأقل سمنة بقدرٍ طفيفٍ ـ لكن هذا قد يكون ناتجًا عن الصورة التي في الصالون، تلك الصورة التي صارت خلال فترة غيابه بديلًا عن تذكّرها شكل جسده الحقيقي. ففي تلك الصورة كان بابا جالسًا إلى طاولة؛ وكان يبدو بدينًا حقًا. صارت لدى غادة الآن معرفة كافية لإدراك أن هذا كان -في جزء منه- ناتجًا عن زاوية النظر. لقد اكتشفت في الآونة الأخيرة أن الأشياء تبدو صغيرة عند النظر إليها من بعيد، لكنها تكبر عندما تصير أكثر قربًا. في الصورة، بدت ساقا أبيها كبيرتين جدًا لأنهما في المقدّمة. كان مرتديًا بدلة من الكتان؛ وكان يقرأ كتابًا. قطة جاثمة إلى جانبه. نظرته متجهة إلى آلة التصوير، ورأسه مستند إلى يده. لكن نظرته لم توحي بأنه يرى حقًا، بل بدا وكأن ذهنه في مكان آخر، مع أنها رأت، في الوقت نفسه -عندما أمسكت بالصورة وقرّبتها من وجهها- أن شفتيه بارزتين إلى الخارج قليلًا كأنه موشك على قول شيء ما. لعلّه ينطق حرف «و». أمسكت بالصورة ذات مرة وقرّبتها من وجهها، فلم تلاحظ دخول خالتها نزهة. انتزعت نزهة الصورة من يد غادة متجاهلة غضبها. قالت لها: «أظن أن هذه الصورة من ترتيب المصوِّر. لا يتأنّق أبوكِ هكذا عندما يقرأ، ثم إن تلك القطة جاثمة بطريقة مثالية. لا بد أن المصوّر أضافها». كانت غادة مدركة أن خالتها لا تتعمّد إزعاجها، لكنها صرّت على أسنانها ونفخت غاضبة. نزهة لا تفهم والدها فهمًا جيدًا، فهو أنيق دائمًا، حتى عندما يرتدي ملابس النوم.

رفعت رأسها ناظرة إليه، حاملة الصورة في ذهنها لكي تقارنها مع الرجل الواقف

أمامها. ضحك بابا ضحكة صغيرة لشيء سمعه من هاني، وعاد إلى وجهه ذلك التعبير الذي تعرفه من الصورة. رفع رأسه ناظرًا إلى البعيد وانضغطت شفتاه قليلًا كأنه يقول «و».

كان خالد هو من أخبرها أين كان أبوهما طيلة تلك الفترة ـ لم تصدّقه أول الأمر. ثم استولى عليها كابوس جديد: من الممكن ألا يعود بابا أبدًا. أو يمكن أن يعود إليهم مجنونًا، أو شخصًا آخر مختلفًا تمام الاختلاف... شخصًا يتظاهر بأنه هو.

رفعت رأسها ونظرت من جديد وكأنها أحسّت بأنه قد يجري ويهرب بعيدًا. كان الآن يتكلّم مع رجل لا تعرفه... رجل له طربوش طويل وشعر دَبَّ فيه الشيب. بدأت شفتا بابا تتحرّكان. ومن طريقته في تحريك يديه، أدركت أنه يحكي له قصة.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«لديَّ عمل ينبغي أن أقوم به». مس مدحت شعر غادة. كان الضيوف قد انصرفوا. وكان الوقت آخر العصر... «لكن، الآن... إذا سألتْك عني ماما، فعليك أن تقولي لها إنني في الحديقة. ماشي؟ قولي إنني خرجت لكي أتفقّد الدجاجات».

غطت غادة فمها بيديها الاثنتين. لبس مدحت معطفه، واختار واحدة من العصيّ، ثم خرج من البيت.

كان الشارع حارًّا، والهواء يعج بحشرات طائرة فائحًا برائحة الزعتر البري الجاف. وعند التقاطع، كان كل شيء هادئًا مثلما يكون يوم الجمعة. سار مسرعًا في الظلّ. لفت نظره شيء رقيق أسود على سطح أحد البيوت. تحرك ذلك الشيء، فرأى أنه ليس إلا ظلًا لشيء آخر تحركه الريح.

سار في طريق المستشفى فوجد أنه قد اقترب من نوفوتيه غادة. تردّد عن منعطف الشارع عندما لاح له بنك باركليز. صارت ذكرى حريق النوفوتيه تبدو بعيدة جدًا. الآن، متاجر نابلس مغلقة كلّها؛ والنوفوتيه آخر ما قد يفكّرون فيه. قال في نفسه إن هذا لا بد أن يكون هدية صغيرة تأتي مع الكارثة لكي تجعل بقية الأهوال تبدو خفيفة إن هي قورنت بها.

سمع صوت خطوات سريعة من خلفه، فتوقّف والتفت. شيء أبيض يقترب منه منحدرًا في الشارع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صاح بها: «لا، يا بابا. عودي إلى البيت».

«أنا آتية معك».

«غادة، عودي إلى البيت».

اقترب وجه غادة فرآه مغسولًا متورّدًا. وعندما صارت إلى جانبه، رأى أنها سرّحت شعرها وفرقته من الوسط. أمسك بكتفيها فارتفع كُمّا فستانها الأبيض المنفوخين مثلما

تتفتح زهرة برية.

«بابا...». قالها بطريقة موحية بانزعاجه... «لا أستطيع أخذك معي. هذا خطير جدًّا. الآن، صار عليَّ أن أعيدك إلى البيت. أنت مشاغبة كثيرًا. هل تعرفين هذا؟».

ارتعشت شفتاها. تفادت نظرة عينيه: «لا».

أضاف بنبرة لطيفة وهو يمس ذقنها: «أنا غاضب منك كثيرًا».

بينما كانت ابنته تحاول اعتصار دموعها، فكّر مدحت في الذهاب إلى بيت إيلي حيث يمكنه أن يترك غادة في عهدة زوجته بعد أن يتظاهر بأنه قصد بيتهما للحديث عن المتجر. لكن هيئة غادة تغيّرت: وضعت يديها على خصرها، ثم نظرت إليه بعينيها النديتين وقد ظهر على وجهها تعبير متعجرف.

قالت له: «لا يطلقون النار على أحد في النهار، يا غبي... يطلقون النار في الليل. وعندما يسير رجل مع طفلة صغيرة يكون أكثر أمانًا من سيره في الشارع وحيدًا».

قال لها: «لا أظن أن الأمر هكذا، يا حبيبتي». لكنه فكّر في أنها قد تكون محقّة.

«سأقول لماما».

«عفوًا! هل هذا تهديد؟ عيب عليك، يا بابا».

«لن أتركك ترحل مرة أخرى. أين أنت ذاهب الآن؟.

«أنا ذاهب إلى المستشفى».

«لم يمض وقت طويل على خروجك من المستشفى».

قال مدحت: «هذا مستشفى آخر. اهدأي يا غادة. سيري بسرعة».

اضطرته ساقاها القصيرتان إلى إبطاء خطواته، فما كان منه إلا أن رفعها عن الأرض وحملها بين ذارعيه. أمامهما سارت سيارة متحرّكة ببطء عبر جبل عيبال. صعدا الدرجات المفضية إلى باب المستشفى..

مريض متكئ على عكازيه في الردهة. رفع رأسه وتعلّقت عيناه بمدحت، في حين تقدم مريض آخر داخلًا من الشرفة وسقط ظل على وجهيهما معًا. حياهما مدحت مخاطبًا إياهما باسميهما -إياد، وأبو مروان- فأشرق وجهاهما. أسند إياد عكازيه إلى الجدار.

تقدّم من مدحت بخطوات عرجاء وقال له: «أبو طاهر، اشتقنا إليك».

قال مدحت: «وأنا في شوق أيضًا». خاطب فلاحَين لوحت الشمس وجهيهما؛ كانا واقفين خلف إياد: «السلام عليكم. اسمي مدحت كمال. هل الجميع جالس في الخارج؟».

قال أبو مروان: «أجل، كعادتهم».

ومن خلفهم، كان رجل آخر يلوّح بيده. واحد من زبائن النوفوتيه القدامى. أومأ مدحت له برأسه شاعرًا بتميزه. رأى ذلك التميز منعكسًا في وجوههم جميعًا.

فوجئ الأب أنطوان برؤية مدحت في الشرفة. رآه آخر مرة في الربيع. ولم يعرف الأب أنطوان إلا في وقت لاحق أن هذا الرجل من دار كمال قد فقد عقله وأُرسل إلى المصحة. تساءل في نفسه إن كان مدحت سيتذكره.

كان الناس يتداولون نسخًا متنوعة من قصة مدحت؛ لكن النساء كن أكثر ميلًا إلى الإشارة إلى محنة زوجته... «مسكينة فاطمة»... هكذا كانت النساء تقول. صار ذلك نوعًا من لازمة مكرّرة تقال بطريقة موحية بشفقة غير بريئة من شيء من السرور. لكنّ من الآخرين مَنْ كانوا غير موافقين على هذا؛ فقد كانوا يشيرون إلى الرؤوس المضمّدة بالشاش، وإلى أصحاب الأطراف المبتورة على الشرفة، وكأن من المعيب أن يدخل المرء المستشفى لأية علة غير الإصابات الناتجة عن المشاركة في القتال. قالت إحدى النساء إنه «معروف» أن مدحت كمال جنى ماله بطرق غير مشروعة. وبالتالي، عمل له أحدهم سحرًا وأضرم النار في متجره. هذا ما جعله يفقد عقله ويصير مجنونًا. «هذا منطقي»... قالتها واحدة من النساء في نهاية تحليلها، وبدا الرضا على وجهها المقطب.

رفع مدحت يده بالتحيّة. كان يرتدي سترة ذات صدار مزدوج، في يده عصا. عبثت الريح بربطة عنقه فقذفت بها إلى كتفه. ظهرت من خلفه بنت صغيرة ترتدي فستانًا أبيض.

ناداه الأب أنطوان: «تسرّني رؤيتك من جديد. اجلس، من فضلك».

«أشكرك جزيل الشكر». سار بخطوات واسعة فاجتاز الشرفة؛ أما الطفلة فجرت إلى الزاوية المقابلة وجلست على الأرض.

«سيتسخ فستانك».

«آه».

لوح مدحت بيده: «انتهى الأمر، واتسخ الفستان».

جلس على كرسي إلى جوار الأب أنطوان: «مرحبًا، كيف حالك الآن؟».

من هذه المسافة القريبة، بدا مدحت نحيلًا شاحبًا مثلما يتوقع المرء أن يرى شخصًا خرج من المصحّة منذ فترة وجيزة.

قال أنطوان بصوت مبتسم: «لقد انتبهت إلى أنني لم أقل لك اسمي».

قال مدحت: «أنت الأب أنطوان...». نظر في عينيه مباشرة... «لقد التقينا في وقت سابق».

سكت أنطوان لحظة، ثم أومأ برأسه: «آه. صحيح. لقد التقينا. التقينا هنا منذ بضعة

شهور».

قال مدحت: «Non non, Avant ça[1]. التقينا منذ سنين. أظن أنك أخو العذراوات».

ارتفع حاجباه، ثم ارتفعت زاوية فمه. صارت عيناه لامعتين.

قال أنطوان: «أهكذا يسميني الناس؟».

«هذا ما أعرفه».

ضحك أنطوان ومرّر أصابعه في شعر لحيته: «هل أنت في زيارة لأحد هنا؟».

«أجل. ما رأيك في سيجار؟ هذه سجائر جلبها ابن عمي من بيروت».

لم ينقص ذلك المشهد غير سيجار حتى يكتمل. تناول أنطوان سيجارًا وفتح غلافه الذهبي. وضع مدحت سيجارًا آخر بين أسنانه، ثم أخرج من جيبه علبة الثقاب. أشعل سيجار أنطوان أولًا. عب أنطوان الدخان، ثم أطلقه من فمه ونظر إلى أوراق التبغ تذوب محترقة. نادرًا ما يعرض عليه واحد من الناس أن يشاركه التدخين. نظر إلى كرم الزيتون أمامه وتخيل -لحظة واحدة- أنه شخص آخر، وأن له حياة أخرى.

«ما رأيك في الثورة؟».

وضع مدحت ساقًا فوق ساق، واتسع منخراه: «ليتني لم أُضيّع بدايتها».

فوجئ أنطوان بالصراحة المتضمّنة في هذه العبارة. استرق نظرة أخرى في اتجاه رفيقه. كان مدحت محدِّقًا في الفتاة الصغيرة. لعلّه يظن أن معرفة الجميع بأمر احتجازه في المصحة أمرًا مفروغًا منه.

قال أنطوان: «صحيح. كانت البداية جميلة جدًا. والآن، يبدو أن الناس قد تعبوا. أشك في أنهم راغبون في أن يفوتهم موسم الزيتون». بسط مدحت كفه موافقًا، مقيّمًا، وخفض أنطوان رأسه ونفخ في الهواء: «آمل أن ينجحوا. آمل أن تكون نتيجة هذا خيرًا».

قال مدحت: «حسنًا، نحن نستحقّ هذا».

لم يشدّد مدحت على كلمة «نحن». على الرغم من ذلك، شعر أنطوان بقوة هذا التصحيح.

قال أنطوان: «بالطبع، فأنتم أصحاب حق. ما من شك في ذلك. كل ما أعنيه هو أن البريطانيين يجلبون الآن مزيدًا من القوات، ويتحدّثون عن فرض الأحكام العرفية... و... إن كنت قد تعلّمت شيئًا في حياتي... صحيح أنني رجل كبير السن، لكن الحقيقة هي أنني لم أتعلّم إلا أشياء قليلة! لكني أعرف أننا لا نستطيع أبدًا أن نتنبأ بالمستقبل. لذا، فأنا لم أقصد إلا القول إن الأمر يمكن أن ينتهي نهاية حسنة أو نهاية سيئة». أخذ نفسًا من

(1) لا. لا. التقينا قبل ذلك.

سيجاره، ثم أداره بين أصابعه وقد حبس أنفاسه ناظرًا إلى نهاية السيجار المتوهّجة... «أكتشفُ، شيئًا بعد شيء، أنني أبذل جهدًا كبيرًا من أجل المحافظة على وضوح الصورة العامة في ذهني. في كل سنة، يصير عقلي...». ضم كفيه معًا... «يصير أصغر من ذي قبل».

في مكان ما، بدأ أحدهم يعزف سلالم موسيقية على البيانو. جعل ذلك الصوت الحياة تدبّ في كل زيز في الجبل، فملأت أصواتها الشرفة التي كانت صامتة. راح العازف يتنقل بين نغمتين.

قال مدحت: «هل تعمل مع الممرضات؟».

أجابه أنطوان: «آه، كلا. لقد كنت باحثًا. كتبت كتابًا».

«برافو».

راح أنطوان يميل برأسه إلى هذه الناحية وتلك: «وأنا أيضًا قس...». أشار إلى ثوبه... «وفي وقت من الأوقات، كنت معلّمًا في المدرسة الإنجيلية في القدس».

«الآن، صرت أحسدك حقًّا».

«حقاً؟».

«ليتني كنت في الجامعة. ذهبت إلى جامعتين في فرنسا. لقد أحببتهما. الصفوف. لقد أحببت...». هز مدحت رأسه ورفع نظره مجدّدًا إلى ابنته الصغيرة التي نظرت إليه بدورها كأنها أحست بعينيه المحدّقتين فيها... «تعرف كيف يكون هذا الإحساس بأن كل من حولك منهمك في المناقشات. عندما تكتبون، فإن واحدكم يكتب للآخرين، بل حتى لأشخاص ماتوا... حتى لأشخاص لم يأتوا إلى الحياة بعد».

قال أنطوان: «حسنًا... الآن، فعلًا، هذا هو حلم الجامعة! كانت تجاربي الشخصية عادة في أديرة أكثر كآبة من الجامعات. بالطبع، المدرسة الإنجيلية ملحقة بدير. لكن الحقيقة هي أن العيش في الأديرة ليس كئيبًا، على وجه العموم. قد يكون هذا عكس ما يظنّه الناس عامة».

ظهرت الدهشة في عيني مدحت. ضحك غير مصدّق ما سمعه: «كئيبة؟». لكن، في الجامعة، حيث يستطيع كل شخص أن يفكّر بمفرده...

«وحيث يستطيع أن يطمئن إلى كونه مخطئًا نصف الوقت».

كان مدحت يهز رأسه.

تابع أنطوان: «نصف الوقت على الأقل؛ بل ربما أكثر».

«هذه هي الفكرة».

«أن يكون المرء مخطئًا».

«أن يكون... أن يختبر نفسه ويطوّرها في مواجهة الآخرين، في مواجهة ما لديهم... أنت تدرك ما أعنيه...».

في الأسفل، بين الأشجار، وثبت قطّة خارجة من تحت الشرفة، منتصبة الذيل، تطارد شيئًا أصغر من أن يستطيعا رؤيته.

قال أنطوان: «هذا يعني أنك أمضيت وقتًا حلوًا في مونبلييه».

«وفي السوربون أيضًا».

ضحك أنطوان.

«لقد نسيت الآن كل شيء. أتذكّر بعض الأشياء. أتذكّر أنني أحببت... أحببت القوارير الطبية». شدّ شفتيه من حول سيجاره، وسحب عدة أنفاس قبل أن يطلق الدخان من أنفه... «لا أستطيع توضيح هذا الأمر».

«القوارير».

«لا، ليست القوارير. ليس هذا ما عنيته».

«أخبرني. إنني مهتم بسماع ذلك».

«هل أنت مهتم فعلًا؟».

«مهتم كثيرًا».

نظر مدحت في عينيه: «وهل ستدوِّن ذلك؟».

«ماذا؟».

«قلتُ، هل ستدوِّن ذلك؟».

هنا، بدا لأنطوان أن لحظات طويلة قد مرّت. كان عاجزًا تمامًا عن النطق. شعر بجلده يبرد. ملأت لويز عقله كله.

سمع مدحت يقول له: «أعرف أنك كنت تكتب عن نابلس. هذا ما أخبرتني به زوجتي».

«زوجتك؟».

«اسمها فاطمة حماد. هي ابنة الحاج نمر حماد».

أفلت أنطوان أنفاسه ببطء شديد، ثم أغمض عينيه: «نعم. لقد كتبت عن نابلس. لكني لم أعد أكتب. لذا، لا. لن أدوِّن ما تقوله لي». تظاهر بأنه يضحك. الآن فقط، عندما بدأ الحديث بينهما ينزلق ليصير في مواجهته، أدرك كم كان توّاقًا إلى استحسان محدّثه النابلسي الفرانكوفوني. أعلن وقعُ أقدام كثيرة في الداخل انتهاء حديثهما بما فيه من نافذة تعاطف صغيرة: في أية لحظة الآن، سيخرج إلى الهواء الطلق مزيد من المرضى. تنحنح مستعدًا للوداع. لكن وقع الخطوات تلاشى، ولم تنفتح الأبواب.

نفض مدحت رماد سيجاره ومسّد ربطة عنقه. رفعت الطفلة رأسها ناظرة إليه.

«هل هذه ابنتك؟».

«أجل».

فترة صمت طويلة أخرى. عندما تكلّم مدحت من جديد، ظهرت في صوته نبرة رسمية توحي بأنه قد أمضى ذلك الوقت في التفكير في صوغ ما سيقوله.

قال: «عندما أنظر إلى حياتي أرى قائمة طويلة من الأغلاط. أغلاط جميلة، حلوة. لا رغبة عندي في تغييرها».

عاد التركيز المعبّر نفسه إلى وجهه. وفي غضون ثوانٍ معدودة، توصّل أنطوان إلى أن هذا الرجل الاجتماعي الفَكِه مخاتلٌ إلى حدٍّ ما، شخص من عادته أن يخفي الكثير. لكنه سرعان ما فوجئ عندما تذكّر أنه قد يكون واقعًا تحت تأثير تلك الشائعات عن المرض العقلي الذي أصاب مدحت، أو تحت تأثير الفكرة القائلة إن ما من شخص يدخل المصحة من غير أن يكون في هندسة روحه خلل أو نقص. قد يبدو هذا أمرًا منطقيًا، إلا أن أنطوان استدرك فرضيته تلك... الفرضية التي ظلّت، بعد كل شيء، تحاول السير في مسالك السبب والأثر. أصغى إلى صوت البيانو، مفكّرًا. لم يسمع غير صوت الزيز.

قال مدحت: «بل سوف أغيّر... ربما كنت أغير بضعة أشياء. لكن، كيف لنا أن نعرف؟ إننا نتخذ أكبر قراراتنا عندما نكون صغارًا في السن».

«أنت لا تزال صغيرًا».

رفع مدحت حاجبه.

«لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الخامسة والثلاثين».

«أنا في الحادية والأربعين».

«أوه، هذا يعني أنك صغير السن. لا يزال لديك وقت طويل لترتكب مزيدًا من الأغلاط». ضحكا معًا فاختفى ما نشأ بينهما من توتّر، أو ما تخيّل أنطوان أنه نشأ بينهما.

قال له: «تابع. أخبرني بالمزيد عن تلك المرأة».

نظر إليه مدحت، وقد ظهرت الدهشة على وجهه: «كيف عرفت أنها امرأة؟».

الآن، جاء دور أنطوان في رفع حاجبه مستغربًا.

«لا بأس. كان ذلك منذ زمن بعيد، بعيد جدًا. في الواقع، لا أدري إن كانت لا تزال باقية على قيد الحياة. وإن كانت حية، فمن المحتمل كثيرًا أن تكون قد نسيت. لعلها تتذكّرني. نتمنّى دائمًا أن يتذكّرنا الناس؛ لكني غير واثق من أنهم يتذكّرون زمنًا طويلًا. قد يحدث ما يذكّرهم بنا، من حين إلى حين. شيء من الأشياء. لكن ذلك لا يكون أكثر

من انقطاع وجيز، أو، على الأقل، ينبغي أن يكون وجيزًا إن كان للمرء أن يواصل حياته. يعاودني الماضي من وقت لآخر...». ابتسم... «لكني لا أعيش في الماضي».

نظر أنطوان أمامه، فقد أنبأته غريزة القس بأن عليه أن يترك مدحت يتكلّم من غير أن ينظر إليه.

«من الأشياء التي أحبّ تغييرها تلك الغلطة التي ارتكبتها في ما يخصّ بلدك. كانت لدي تلك الفكرة عن فرنسا. كنت أتخيّلها مكانًا فاضلًا. هذا ما كنت سأغيره، هذه الفكرة. أو ربما...». اضطربت نبرة صوته كأنه يقلّب الفكرة في دماغه... «ربما يكون ذلك الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن أغيره. وأما الأشياء الأخرى، فقد كانت كلها... كانت... خارجة عن إرادتي».

قال أنطوان: «أنت لست أول من يرتكب هذا الغلط...». اتّخذ هيئة القس الراعي، وشبك أصابعه... «لكنك تعرف أن المكان في حدِّ ذاته لا يمكن أن يكون فاضلًا. قد تكون هناك فكرة فاضلة، وليس مكان».

بين الأشجار، في الأسفل، كانت القطة تتسلّق جذع شجرة.

قال مدحت: «هل ستعود؟».

«أوه، فرنسا لا تحبّني. بعد الثورة، أفكر في أنني قد أذهب إلى مصر».

صدر عن مدحت صوت أوحى باهتمامه بهذا الكلام الذي فاجأه.

قال أنطوان: «أود أن أعيش أكثر في هذا العالم. من الآن فصاعدًا».

«هذا طموح غير قليل».

«لقد وجدت الأمر صعبًا بعض الشيء، مرهقًا بعض الشيء...». توقف عن الكلام.

لم يطلب منه مدحت أن يكمل فكرته. وأما أنطوان، فقد ندم على هذا المنعطف الشخصي. تصوّر أن كلامه قد أحبط من عزيمة مدحت الذي جاء لكي يعترف له غير متوقِّع أن يبادله الاعترافات. أخذ نفسًا أخيرًا من سيجاره، ثم أمسكه بقوة كبيرة بين أصابعه. أحس في صدره الآن بذلك الانكفاء المألوف الناجم عن الخجل. انفتح الباب بعد أن سمعت من الداخل أصوات أقدام جديدة. خرج إلى الشرفة رجل عجوز ومن خلفه رجل أصغر سنًا ساقه مكسورة.

«السلام عليكم».

«وعليكم السلام».

تقدّم الرجل العجوز مع الشاب صوب كرسيين بعيدين بعض الشيء، ثم أخرج غليونًا وبدأ يحشوه بالتبغ. أطفأ أنطوان عقب سيجاره على الجدار الحجري تحت الدرابزين.

قال مدحت بصوت خافت: «كم عدد من ماتوا؟».

أجابه أنطوان: «لا أستطيع تحديد العدد. إنهم كثيرون. وربما هناك أكثر منهم لم يتم الإبلاغ عنهم. لم تكن ثورة من غير دماء. هل سمعت عن المعركة التي جرت في عنبتا؟ من الفجر حتى المغرب. استشهدت نساء كثيرات».

قال مدحت: «لعلك تعرف أكثر مما يعرفه معظم أهل نابلس. يجب أن أقصدك لكي أسمع الأخبار منك. لا يسمع المرء خبرًا واضحًا من أي شخص على صلة مباشرة بالأمر. ابن عمي...». توقّف عن الكلام لحظة... «تظن زوجتي أن في نابلس من يحمل عليّ ضغينة. هل تعرف شيئًا عن هذا الأمر؟».

فكّر أنطوان قليلًا. لقد حدث هذا الأمر بضع مرات خلال سنوات بحثه -نابلسيون يطلبون منه معلومات عن نابلس- إلا أن عدد تلك الحالات كان قليلًا، كان ممكنًا إحصاؤه على أصابع يد واحدة. انقضى زمنٌ طويل منذ آخر مرة عاد فيها إلى ملاحظاته التي دوّنها تلك الأيام. نقّب في ذاكرته. في ما عدا الأمور الأخيرة التي سمعها عن وجود مدحت في المستشفى، لم يستطع تذكّر شيء أكثر من عبارات جانبية غامضة موحية بالنفور من مدحت... لكنه عجز عن تذكر أية أشياء بعينها.

قال له: «لا أستطيع التفكير في شيء محدّد. لكن التحامل على الآخرين أمر شائع».

قال مدحت بنبرة حذرة: «صحيح، صحيح. لست أبالي بالأمر كثيرًا. لم أعد مباليًا كثيرًا بآراء الآخرين في ما يتعلّق بي».

«هذا جيد».

مدّ مدحت ساقه لكي يضع على ركبتها كاحل الساق الأخرى: «نحن في حاجة إلى شيء من هذا... ليس أمرًا عديم القيمة. لكن أظن أن أسرتي كافية. زوجتي هي معيار حياتي. وأنا مقصّر دائمًا. ها! ثم، ابن عمي... لقد كان معياري الأخلاقي. وأنا مقصّر دائمًا. أطفالي معياري العائلي. لكني مقصّر. بالنظر إلى توقّعاتهم، أجد نفسي أفشل دائمًا. وأما من ناحية أخرى، فأنا أظن...». تكسّر صوته من غير توقّع. مال إلى الأمام، وانزلق كاحله عن ركبته بحركة غريبة خرقاء... «من غيرِهم، لن أكون شيئًا على الإطلاق».

فوجئ أنطوان بهذا التفجّر لمشاعر مدحت. كان مدحت يحدّق في أشجار الزيتون بعينين متّسعتين. ومن غير إنذار، اهتزّ جسده كلّه، ثم قال بصوت مختنق كأن شيئًا يتصاعد داخله ويشقّ طريقه إلى فمه: «أيها الأب».

نظر أنطوان إلى الباب متسائلًا في نفسه إن كان عليه أن يستدعي ممرضة. لم يلاحظ أي من الرجلين الآخرين اهتياج مدحت. لكن الطفلة... كانت عينا الطفلة متعلّقتين به.

ارتفعت ذراعاها كأنها شخص خائف من الإتيان بحركة مفاجئة.

طوّق مدحت ركبتيه بأصابعه الطويلة محدّقًا في البعيد. قال مرة أخرى: «أيها الأب».

وضع أنطوان يده على ظهر مدحت وقال له: «نعم. نعم، أنا هنا».

استنشق مدحت نفسًا عميقًا كأنه كان غاطسًا في الماء. قال له: «إنني أسامحك».

انقطع تنفس أنطوان. قال له: «ماذا؟».

حاول منع يده المستقرة على ظهر مدحت من الارتعاش.

انحدرت الشمس صوب الجبل عند حافة الوادي. شريط عريض من السماء استحال أحمر اللون. انخفضت حرارة الهواء، وامتد حريق الأفق على زجاج النوافذ.

انهار شيء داخل مدحت. سمع، أو أحسّ، ترقرق أمواج بحيرة سوداء من تحته، وسمع صوت انطلاق تنهيدة هواؤها بارد كالحجر، وسمع صوت الماء في بئر عميقة، ماءٌ يلقي لَفْتاتٍ من ضوء إلى الأعلى، إلى رجل راكع معه دلو مربوط بحبل. شعر بالضغط الدافئ المستقرّ ليد القسّ على ظهره.

حرّك رأسه متأهبًا لشكره. فوجئ بما رآه. كانت عينا أنطوان المحمرّتان ناطقتين بالصدمة... شفتاه الطريتان منفرجتان وسط لحيته البيضاء. أخذ مدحت نفسًا عميقًا مستسلمًا. لكن افتراضه الأولي -افتراضه أن القس ظنه مجنونًا- خبا عندما رأى نظرة أنطوان المذعورة تتحوّل إلى نظرة مستطلعة، باحثة، ورأى بؤبؤي عينيه يتحرّكان من جانب إلى آخر وهو ينظر مرة في عين مدحت ومرة في عينه الأخرى. انطلق صوت الأذان.

قال مدحت: «هل أنت بخير؟».

قالت غادة: «بابا».

«نعم، حبيبتي».

نهضت غادة واقفة ومرّت بيدها على فستانها من الخلف.

قال مدحت: «نعم، نعم. يلا، نحن ذاهبان إلى البيت».

التفت إلى الخلف، فالتقط تقلّصًا بسيطًا في جفني القس اللذين لم يغمضا تمامًا، بل انخفضا ليضبطا تركيز نظرته... مثلما تفعل عدسة آلة التصوير. استرد القس يده.

قال له وهو يرفع يده مودعًا: «الله،...»، لكنه لم يكمل جملته.

# حوادث رئيسية في تطور الحركة الوطنية في فلسطين وسورية

| | |
|---|---|
| **1882 - 1903** | الموجة الأولى من الهجرة اليهودية: استيطان قرابة خمسة وثلاثين ألفًا من المهاجرين اليهود في فلسطين وإقامتهم مشاريع زراعية. جاء أكثرهم من أوروبا الشرقية. |
| **1904 - 1914** | الموجة الثانية من الهجرة اليهودية: قرابة أربعين ألفًا من المهاجرين ذوي الالتزام الإيديولوجي المتين بالحركة الصهيونية يصلون إلى فلسطين. |
| **1911** | تأسيس جمعية العربية الفتاة في باريس. |
| **1913** | |
| 18 - 23 حزيران | المؤتمر القومي العربي: لقاء ضم منظمات إصلاحية عربية وطلابًا عربًا في باريس. عُقد في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية لمناقشة مستقبل المنطقة في مواجهة السياسات العثمانية وزيادة الاستيطان الصهيوني والمطامع الاستعمارية لكل من بريطانيا وفرنسا. |
| **1914** | |
| 2 آب | الحلف العثماني – الألماني: موافقة السلطنة العثمانية سرًا على دخول الحرب إلى جانب قوى المحور عندما تعلن ألمانيا الحرب على روسيا. |
| 6 - 10 أيلول | أعجوبة المارن: معركة جرت في الحرب العالمية الأولى على ضفاف نهر المارن في فرنسا كانت نتيجتها انتصار الحلفاء على الجيوش الألمانية. |
| 29 تشرين الأول | السلطنة العثمانية تدخل رسميًا الحرب العالمية الأولى. |
| **1915** | |
| 17 شباط (9 كانون الأول 1916) | حملة الدردنيل: حملة عسكرية شنّتها بريطانيا وفرنسا في شبه جزيرة غاليبولي ضد السلطنة العثمانية فكانت نتيجتها نصرًا للعثمانيين. |
| 24 نيسان (-1917) | الإبادة الأرمنية: قيام الحكومة العثمانية بإبادة السكان الأرمن وترحيلهم على نحو منهجي. |
| تموز (ـ آذار 1916) | مراسلات حسين – مكماهون: عبر تبادل للرسائل، توافق الحكومة البريطانية على الاعتراف باستقلال العرب بعد الحرب، وذلك نظير مساعدة يقدّمها شريف مكة من خلال إطلاق تمرّد ضد العثمانيين. |
| 21 آب | الإعلان عن إعدام أحد عشر عربيًا من القوميين والإصلاحيين الأعضاء في حزب اللامركزية، وذلك بموجب أوامر صادرة عن القائد العسكري العثماني جمال باشا. |
| **1916** | |

| | |
|---|---|
| 6 أيار | الإعلان عن إعدام واحد وعشرين شخصًا آخرين من أعضاء حزب اللامركزية بناء على أوامر جمال باشا. |
| 16 أيار | اتفاقية سايكس - بيكو: اتفاقية سرية بين البريطانيين والفرنسيين تحدد مناطق السيطرة التي ستكون لكل منهما في الشرق الأوسط بعد هزيمة العثمانيين. رسمت الاتفاقية الحدود المستقبلية لكل من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق (من هنا فصاعدًا نطلق عليها "سورية الكبرى"). |
| 10 حزيران - تشرين الأول 1918) | (الثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين بقيادة الشريف حسين، شريف مكة، وبالتعاون مع ت. إ. لورنس. جرى القسم الأكبر من حوادثها في الحجاز. |
| **1917** | |
| 2 تشرين الثاني | إعلان بلفور: تصريح علني صدر عن الحكومة البريطانية فساند إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. |
| 9 كانون الأول | استسلام القدس للجيوش البريطانية. |
| **1918** | |
| 19 - 25 أيلول | معركة نابلس: انتصار البريطانيين، وانسحاب العثمانيين والألمان. |
| 31 تشرين الأول | هزيمة الدولة العثمانية. بدء الإدارة البريطانية والفرنسية في "الأراضي المعادية المحتملة"، ضمن أراضي الدولة العثمانية بما فيها فلسطين وسورية. |
| 11 تشرين الثاني (تموز 1919) | الثورة المصرية: انتفاضة على امتداد البلاد في وجه الاحتلال البريطاني لمصر والسودان أدّت إلى اعتراف البريطانيين باستقلال مصر في سنة 1922. |
| **1919** | |
| (ـ 1923) | الموجة الثالثة من الهجرة اليهودية: استيطان قرابة أربعين ألفًا من الصهاينة في فلسطين. انطلقت هذه الموجة نتيجة الاحتلال البريطاني لفلسطين، وإعلان بلفور، وثورة أكتوبر في روسيا، وكذلك المذابح التي استهدفت اليهود في روسيا وبولندا وهنغاريا. |
| 18 كانون الثاني (21 كانون الثاني 1920) | مؤتمر السلام في باريس: مشاورات جرت في فرساي بعد الحرب تناولت تعويضات الحرب الألمانية وحالة المناطق التي كانت في يد الألمان والعثمانيين. تمخّض المؤتمر عن توقيع معاهدات سلام وعن إقامة عصبة الأمم (كانت سلفًا لهيئة الأمم المتحدة). |
| 27 كانون الثاني | المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول في القدس يرسل مذكّرة إلى فرساي يرفض فيها إعلان بلفور ويطالب باستقلال فلسطين. |

| | |
|---|---|
| حزيران | بعثة كينغ - كرين: جولة استطلاعية بتكليف من الرئيس الأميركي وودرو ويلسون هدفها سبر الرأي العام في أراضي الدولة العثمانية السابقة في ما يخص قسمة تلك الأراضي في ظل نظام انتدابي. أوصت البعثة بإنشاء حكم أميركي، غير إمبريالي، مهمته قيادة الشعوب العربية صوب تقرير المصير. خلصت البعثة إلى أن أكثر الفلسطينيين يعارضون الصهيونية، وأن الصهاينة يعتزمون "الإجلاء الكامل عمليًا للسكان الحاليين غير اليهود في فلسطين، وذلك عن طريق أشكال مختلفة من عمليات الشراء". قدّمت البعثة تقريرها إلى مؤتمر باريس للسلام، لكن المؤتمر لم يأخذ به. |
| 2 تموز | انعقاد المؤتمر الوطني السوري في دمشق. |
| 8 آذار | المؤتمر الوطني السوري يعلن قيام المملكة العربية المستقلة في سورية الكبرى تحت حكم الأمير فيصل. |
| 4 - 7 نيسان | اشتباكات "النبي موسى" في القدس. |
| 19 ـ 26 نيسان | عصبة الأمم تقرّ الانتداب البريطاني على فلسطين وما بين النهرين (العراق الحالي)؛ والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان. |
| 5 أيار | الجمعية الإسلامية - المسيحية في نابلس تقدّم للحاكم العسكري احتجاجًا على الصهيونية وعلى فرض الانتداب على فلسطين |
| حزيران | تأسيس الهاغانا - منظمة يهودية شبه عسكرية. |
| 1 تموز | انتهاء الحكم العسكري البريطاني في فلسطين، وبدء عمل إدارة مدنية على رأسها المفوض السامي هربرت ساموئيل (حتى سنة 1925). |
| 24 تموز | معركة ميسلون: انتصار الجيش الفرنسي على قوات فيصل السورية. إلغاء المملكة العربية في سورية الكبرى وإبعاد فيصل عن سورية. |
| 14 كانون الأول | المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا يدعو إلى استقلال فلسطين وفق شروط الانتداب في العراق نفسها، مع انتخاب برلمان فلسطيني على أساس "صوت لكل مواطن". |
| **1921** | |
| 11 نيسان | إقامة إمارة شرق الأردن لتكون محمية بريطانية. |
| | البريطانيون يعيّنون الحاج أمين الحسيني في منصب مفتي القدس (منصب مستحدث). |
| 1 - 7 أيار | اشتباكات الجفّ: اشتباكات عنيفة بين العرب واليهود في الجف. توصلت لجنة التحقيق إلى أن سبب الاشتباكات كان سخط العرب إزاء الهجرة اليهودية، وذلك لأسباب سياسية واقتصادية. |
| 19 تموز | سفر الوفد العربي الفلسطيني الأول إلى لندن لمفاوضة سكرتير المستعمرات البريطاني، وينستون تشرشل من أجل الاستقلال. |
| 23 آب | إقامة المملكة العراقية في ظل الإدارة البريطانية (حتى سنة 1932)، وعلى رأسها الملك فيصل بن حسين. |

كانون الأول | سقوط صندوق خشبي في ميناء حيفا وتحطّمه وانكشاف محتوياته يؤدي إلى مصادرة ثلاثمئة مسدس وسبعين ألف مخزن طلقات آتية. كانت شحنة قامت الهاغانا بتهريبها من فيينا.

**1922**

3 حزيران | ورقة تشرشل البيضاء: وثيقة أعدّت استجابة للاضطرابات التي حدثت. دعت الوثيقة إلى الحد من الهجرة اليهودية وشدّدت على أن الحكومة البريطانية...

لن تفكّر أبدًا في ما يبدو أنه يثير مخاوف الوفد العربي من إخضاع أو اختفاء السكان العرب أو لغتهم أو ثقافتهم في فلسطين. وهي تلفت الانتباه إلى حقيقة أن ما ورد في إعلان بلفور [...] لا يشير إلى أن فلسطين كلّها ينبغي أن تتحوّل إلى وطن قومي لليهود، فهي لا تقول إلا بوجوب إقامة وطن لهم في فلسطين.

على الرغم من ذلك، تواصل الحكومة البريطانية مساندة الهجرة الصهيونية.

**1923**

شباط ـ آذار | فشل إجراء انتخابات المجلس التشريعي المقترح نتيجة مقاطعة العرب في فلسطين.

أيار | الناشطة النسوية المصرية هدى شعراوي تنزع الحجاب علنًا عند وصولها إلى القاهرة عائدة من "مؤتمر التحالف من أجل الاقتراع للمرأة في روما".

29 أيلول | الانتداب البريطاني على فلسطين، والانتداب الفرنسي على سورية ولبنان، يدخلان حيز التنفيذ من الوجهة القانونية.

**1924**

(ـ 1928) | الموجة الرابعة من الهجرة الصهيونية: هجرة نحو ثمانين ألف يهودي صهيوني إلى فلسطين؛ أكثرهم من بولندا.

**1925**

25 آذار ـ 1 نيسان | مظاهرات ضد إعلان بلفور: مظاهرات وإضرابات عامة في فلسطين كلها احتجاجًا على زيارة آرثر جيمس بلفور (اللورد بلفور).

تموز (ـ حزيران 1927) | الثورة السورية الكبرى ضد الحكم الفرنسي تنتهي بانتصار الفرنسيين.

تشرين الثاني | إضراب عام في فلسطين مساندة للثورة السورية.

**1926**

16 شباط | موافقة السلطات البريطانية، بأثر رجعي، على بيوع الأراضي، الناجزة وغير الناجزة، التي جرت خلال فترة حظر البيع (1918 - 1920) وقبولها وثائق الملكية العقارية غير الرسمية المقدمة من الصهاينة.

16 أيار | إقرار العقوبات الجماعية: السلطات البريطانية تمنح صفة رسمية لسياسة العقاب الجماعي في فلسطين.

**1927**

11 تموز | هزة أرضية عنيفة تضرب فلسطين فتصيب أريحا ونابلس والقدس والرملة واللد وطبريا، وتدمر قرى كثيرة.

**1928**

| | |
|---|---|
| 20 - 27 حزيران | المؤتمر الوطني الفلسطيني السابع في القدس يشدّد على المطالبة بحكومة برلمانية ديمقراطية. |

**1929**

| | |
|---|---|
| (- 1930) | الموجة الخامسة من الهجرة الصهيونية: وصول ما يتراوح بين مئتين وخمسة وعشرين ألفًا وثلاثمئة ألف من المهاجرين اليهود الجدد إلى فلسطين. كان أكثر أولئك المهاجرين الجدد قادمًا من ألمانيا نتيجة صعود النازية فيها. |
| 23 - 29 آب | مصلون يهود يجلبون مستلزمات الصلاة إلى حائط المبكى/ حائط البراق مما يثير خشية العرب الفلسطينيين من تغيير الوضع الراهن للمواقع المقدسة، أي الوضع الذي قرره العثمانيون. انتفاضة فلسطينية في عدد من المدن ردًا على مظاهرات سياسية قامت بها الجماعات الصهيونية. وبعد وقت قصير من ذلك، قام عرب محتجون بمجزرة ضد اليهود في الخليل. |
| 26 تشرين الأول | انعقاد المؤتمر النسائي العربي الأول في القدس. |
| 27 تشرين الأول | مظاهرة في القدس تقوم بها المندوبات إلى مؤتمر المرأة احتجاجًا على إعلان بلفور، وسياسة العقاب الجماعي، وسوء معاملة السجناء العرب. |
| **1930** | قيادة الشيخ عز الدين القسام، تبدأ جماعة "اليد السوداء" الإسلامية حملة مسلحة ضد المدنيين اليهود والانتداب البريطاني. |

**1931**

| | |
|---|---|
| نيسان | زئيف جابوتنسكي، وآخرون، يؤسّس منظمة إرغون التي كانت جماعة شبه عسكرية، وكانت انشقاقًا يمينيًا عن منظمة هاغانا. |
| آب | الشرطة في نابلس تفرّق بالقوة مظاهرات ضد تخزين الأسلحة في المستوطنات اليهودية. |

**1932**

| | |
|---|---|
| 3 تشرين الأول | نهاية الانتداب البريطاني في العراق. استقلال العراق. |

**1933**

| | |
|---|---|
| كانون الثاني ـ تموز | وصول الحزب النازي إلى حكم ألمانيا. زيادة كبيرة في الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالترافق مع اشتداد معاداة السامية في أوروبا. |
| 8 أيلول | وفاة فيصل، ملك العراق. |
| 27 تشرين الأول | إضراب عام في فلسطين احتجاجًا على الهجرة الصهيونية وعلى السياسات البريطانية المساندة للصهيونية. اضطرابات في المدن الكبرى. |
| **1934** | هجرة يهودية غير شرعية منظّمة تنطلق في اتجاه فلسطين من غير موافقة الوكالة اليهودية أو السلطات البريطانية. |

**1935**

15 أيلول قوانين نورمبرغ: قوانين ألمانية جديدة تعتمد النظريات العرقية التي طرحتها الإيديولوجيا النازية، وتجرّد اليهود الألمان من حقوقهم. زيادة كبيرة في الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

16 تشرين الأول حادثة الإسمنت: اكتشاف شحنات أسلحة ضخمة متجهة إلى تل أبيب كانت في عنابر الإسمنت في ميناء حيفا. الزعماء العرب يدعون إلى إضرابات عام. مظاهرات في حيفا تتحول إلى أحداث شغب.

20 تشرين الثاني وقوع الشيخ عز الدين القسام في كمين ومقتله على يد الجنود البريطانيين في تلال يعبد فوق نابلس.

كانون الأول المفوض السامي آرثر كرنيفيل ووتشوب يقترح مجلسًا تشريعًا مؤلفًا من ثمانية وعشرين عضوًا يكون نصفهم من العرب الفلسطينيين. يقبل الفلسطينيون الاقتراح من حيث المبدأ، لكن أعضاء مجلس العموم المؤيدين للصهيونية يحولون دون إقراره.

**1936**

15 نيسان قتل عربيين على مقربة من بتاح تكفا عقب مقتل ثلاثة يهود في حادثة سرقة بالقرب من طولكرم.

17 نيسان اندلاع أعمال شغب وقت جنازة واحد من القتلى اليهود ينجم عنها مقتل ثلاثة يهود آخرين. سلطات الانتداب تفرض أحكام الطوارئ ومنع التجول في فلسطين كلّها.

20 نيسان تشكيل اللجنة الوطنية العربية في نابلس، ثم تشكيل لجان مماثلة في المدن والقرى العربية كلّها. دعوة إلى الإضراب العام.

25 نيسان اللجنة العربية العليا المؤلفة من أعضاء من الأحزاب السياسية العربية تدعو إلى إضراب مفتوح.

أيار بدء "تفتيش القرى": حملة استباقية بريطانية لتخويف العرب وثنيهم عن مقاومة الحكم البريطاني.

6 أيار اللجان الوطنية تعلن إضرابًا ضد الضرائب.

11 أيار وصول تعزيزات عسكرية بريطانية قادمة من مالطة ومصر. منح صفة قانونية للهاغانا وغيرها من المنظمات التي تحمي المستوطنات اليهودية، واعتبارها "شرطة المستوطنات اليهودية".

23 أيار البريطانيون يعتقلون واحدًا وستين "محرّضًا" عربيًا، ويضعونهم في معسكرات اعتقال. اعتقال سبعة وثلاثين عربيًا آخر في بداية شهر حزيران.

أيار - حزيران إغلاق ميناء حيفا. هجمات متفرّقة تستهدف السكك الحديدية والمستوطنات اليهودية. ظهور عصائب مسلحة في المناطق الجبلية.

17 - 29 حزيران الجيش البريطاني يهدم مناطق واسعة في حيفا.

6 حزيران عمليات تمشيط يقوم بها الجيش البريطاني مستخدمًا آلاف الجنود المزودين بالبنادق الرشاشة والدبابات، تبدأ هذه العملية في المنطقة الواقعة بين نابلس والقدس.

| | |
|---|---|
| 4 آب | قرار الغرامات الجماعية: قانون أصدرته السلطات البريطانية يسمح لها بفرض عقوبات جماعية، كالغرامات والهدم الجماعي للبيوت، وحظر التجول، والاحتجاز الجماعي بقرارات إدارية. |
| آب | بدء أعمال الانتقام اليهودية. |
| 30 أيلول | إعلان الأحكام العرفية في فلسطين. |
| 11 تشرين الأول | اللجنة العربية العليا تدعو إلى إنهاء الإضراب، وبالتالي إنهاء الثورة. |
| تشرين الثاني | أرقام الإصابات الواردة من سجلات المستشفيات تحدّد أعداد القتلى في فلسطين خلال ستة أشهر من الاضطرابات: 1195 عربيًا، 80 يهوديًا، 21 جنديًا بريطانيًا، 16 فردًا من الشرطة وحرس الحدود، واثنان من المسيحيين غير العرب. |

مكتبة
t.me/soramnqraa

# شكر وتنويه

أشكر غادة حمّاد ؛ وأشكر سعيد كنعان ورندة ونور على كرمهم الدائم؛ وكذلك جورج هنتليان لتشجيعه وتوجيهاته؛ ونصير عرفات؛ وألبرت أغازاريان؛ وكمال عبد الفتاح؛ ونظمي الجعبة؛ وسميح حمودة؛ وقيس حمّاد؛ وعروب بيازيد؛ وعبير حمّاد؛ وعلي حمّاد؛ وفاروق ومنى حمّاد؛ وسامي حمّاد؛ وأياد حمّاد؛ وخالد كمال؛ وباسمة أبو الهدى؛ ووضاح كمال؛ ورامي كمال؛ وفريد كمال؛ وجمال كمال؛ ونجاد كمال؛ وناصر كمال؛ ووضاح زعيتر؛ وريما ترزي؛ وسليم تماري؛ وهيفاء الخالدي؛ وشريف كناعنة؛ وسحر الهنيدي؛ وملك الحسيني؛ وملك عبد الهادي وسمير عبد الهادي، فقد استندت وصية فؤاد مراد إلى وصية جدهما سليم عبد الهادي؛ وفيحاء عبد الهادي؛ وبشارة دوماني؛ وتيد سويدنبرغ؛ وسونيا نمر؛ وعزام أبو السعود؛ وسميح عبدو؛ وجون تليل؛ وغادة خوري؛ ونزيهة طوقان؛ وريما كيلاني؛ وسهام أبو غزالة؛ وفؤاد شحادة؛ وعادل أبو عمشة؛ وسلوى مصري؛ وفؤاد حلاوي؛ وعبد الرحمن الحاج إبراهيم؛ وعبد الستار قاسم؛ وراكيفيت زالاشيك، ورافييل كوينغ؛ أشكركم جميعا لأنكم صبرتم على أسئلتي، وأطلعتموني على ما لديكم من معلومات وذكريات. وأشكر ايضا معن ابو طالب على جهوده ودعمه وأشكر زينة آغا على الخرائط.

أوّجه الشكر أيضاً إلى قرائي الذين كانوا كريمين معي إلى أقصى حد يمكن أن أتمناه.

كاثرين حمّاد، وجوزيف ميندن، وأليسون بولغر، وكوكو ميلورز، وستيف بوتر، وليز وود، وسعد حمّاد.

أشكر زانثي غريشام نايت وآرثر فورنييه على أحاديثهما ونصائحهما وملاحظتهما الحكيمة.

وأنا مدينة على نحو خاص للكتب التالية:

«نابلس: مدينة الحضارات» لنصير عرفات؛ «إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس:1700–1900 » لبشارة دوماني؛ و«الأمة ونساؤها 'الجديدات': حركة النساء الفلسطينيات،1920–1948 » لإيلين فليشمان؛ و«الأزياء الفلسطينية: نابلس وجوارها» لأنتونين جوسين؛ ومذكرات محمد عزة دروزة، ومذكرات عوني عبد الهادي؛ و«تاريخ جبل نابلس والبلقاء» لإحسان نمر؛ و« مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية» (1920)، وخاصة كلمة ماري جوزيف لاغراند؛ و«ذكريات ثورة: ثورة1936–1939 والماضي الوطني الفلسطيني» لتيد سويدنبرغ.

في ذكرى ديفيد برادشو وجون كولتر

مكتبة
t.me/soramnqraa

**منحته كل من**

**A New York Times – Barnes & Noble – Vogue**

**April Indie Selection – Amazon – Lit Hub**

**ضمن أفضل كتب 2019**

***

تلقي رواية الباريسي الضوء على حقبة كبيرة الأهمية من التاريخ الفلسطيني من خلال رحلة شاب فلسطيني وحبه، ابتداءً بدراسته في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى حتى رجوعه إلى فلسطين عشيّة نضالها من أجل استقلالها.

على خلفية مشهد التغيرات السياسية التي لا تزال ترسم معالم الشرق الأوسط، تستطلع رواية الباريسي أسئلة الهوية والسلطة، والحب الباقي، وما للماضي من قدرة عجيبة على إيقاع الاضطراب في الحاضر. رواية غنية غامرة بالغة القوة؛ إنها النتاج الأول الأنيق ذو المخيلة الثرية لصوت جديد مدهش في عالم الرواية.

***

ما أسرع ما يقع القارئ أسير رواية إيزابيلا حماد الأولى المتميزة ببراعتها... فحماد راوية بالطبيعة... كتابة إنسانية عميقة تجمع بين اتساع الرؤية والتحفظ المتزن... حكاية عن ثقافات متضاربة ومتفقة تنسجها رواية الباريسي الزاخرة بالثراء ـ الحب، والحرب، والخيانة، والجنون ـ فتعلن ولادة موهبة لامعة جديدة

The Guardian

تتميز رواية الباريسي بجاذبيتها الواضحة وأسلوبها الواثق اللذين يصيران أبلغ أثراً عندما يكونان صادرين عن كاتبة مولودة في لندن ولا تزال في العشرينيات من عمرها... هناك سوابق هائلة في القرن التاسع عشر ـ تولستوي وتورجنيف وستاندال ... لقد ابتدعت إيزابيلا حماد رواية فاتنة تغوص عائدة إلى الماضي المحيّر، مثلما يفعل مدحت نفسه، مع بقائها مستقرة في الحاضر المتقلقل

The New York Times Book Review

تشبه قراءة الباريسي الغوص في واحد من الأعمال الكلاسيكية العظيمة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وذلك بفضل إيقاعها المتمهل، واتزانها الواثق، وتفاصيلها الدقيقة، والسهولة الواضحة التي تقود بها الكاتبة سردها بلسان الغائب فتنتقل من شخصية إلى أخرى... وهناك أيضاً طابع راهن ضمني في هذه الرواية الرائعة الثرية... فالباريسي عرض بارع للتداخل الذي لا مفر منه بين الشخصي والسياسي

Financial Times

9 789778 280739

daraltanweer.com

التنوير

مكتبة

telegram @soramnqraa